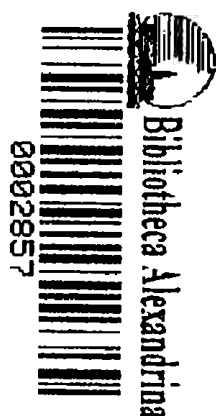


عبد الرحمن الرافعي

مصطفى كامل



دار المعارف



مُصْطَفَى كَامِلٌ

باعت الحركة الوطنية

(تاريخ القوى من سنة ١٨٩٢ الى سنة ١٩٠٨)

٠٠٦٥٦



الهيئة العامة لكتبة الإسكندرية

بقلم

عبد الرحمن الرافعي

الطبعة الخامسة

١٤٠٥ هـ - ١٩٨٤ م



دار المعارف

راجع هذا الكتاب
المستشار حلمى السباعى شاهين
نائب رئيس قضايا الحكومة السابق

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع



عبد الرحمن الوافعي

ولد في ٨ من فبراير سنة ١٨٨٩ - وتوفي في ٣ من ديسمبر سنة ١٩٦٦



مُصْطَفَى كَامِلْ

بَاعِثُ الْحُرِّيَّةِ وَالْوَطَنِيَّةِ

١٨٧٤ - ١٩٠٨

إهداء الكتاب

إلى من كانت حياته للأمة بَعَثاً وطنياً. من كان لى أباً
روحياً. وسأبقى له تلميذاً وفياً. من علّمني أن الحياة بغير
المثل العليا عرض زائل. وعبثُ ضائع. إلى «مصطفى
كامل» أهدى كتاب مصطفى كامل هدية الوفاء إلى روحه
العظيمة.

عبد الرحمن الراجعي

يناير سنة ١٩٣٩

.

7

تقديم كتاب

مصطفى كامل - باعث الحركة الوطنية

نهج جديد سار عليه المؤرخ الوطنى الاستاذ عبد الرحمن الرافعى فى كتابه «مصطفى كامل» اذ يؤرخ الرافعى تاريخ مصر القومى من سنة ١٨٩٢ إلى سنة ١٩٠٨ ويربطه بتاريخ زعيم وطنى كان له أثره البارز خلال هذه الفترة من حياة مصر، فى الوقت الذى يسرد الرافعى حياة مصطفى كامل حتى تاريخ وفاته سنة ١٩٠٨ يشرح للقارئ مامرت مصر فيه من أحداث ووقائع هامة. وان حب الرافعى فى زعيمه وانتهاءه إلى مصر من خلال اعتناقه لمبادئ مصطفى كامل ومثله العليا يبرز ذلك فى أهداء الكتاب اليه وما احتواه الكتاب من أبواب عديدة.

ولعل كثيرا لا يعرف أن أول ما فكر فيه الرافعى كتابةً لتاريخ مصر القومى فكر فى أخراج كتاب عن مصطفى كامل يربطه بتاريخ بلده فهده تفكيره إلى أن تاريخ مصر القومى يرجع إلى ما قبل مصطفى كامل بكثير، فعاد يرجع إلى الوراء حتى هداه الله ان يخرج هذه السلسلة من مؤلفاته فى تاريخ مصر القومى الحديث وهى ضمن مؤلفاته العديدة التى أشرنا اليها فى نهاية الكتاب.

يقول الرافعى فى مقدمة الطبعة الثالثة من كتابه «واذا كانت الأعوام والأيام من شأنها أن تجر على الحوادث والأشخاص ذيول النسيان، فإن هذا ليس شأن العظماء والعباقرة بل أن مرور السنين والأجيال تزيدهم رفعة وخلودا، ولا غرو فهم قطعة من عمر الزمان وهم بناء الانسانية ودعائهم، فكل مرحلة من عمر الزمان وتطور الانسانية تجدد من ذكراهم فهم لا يزالون أحياء فى كل عصر وفى كل عام».

أشار الرافعى فى مقدمة الطبعة الأولى للكتاب إلى صورة عامة لشخصية مصطفى كامل ثم بين أقسام الكتاب فى فصول بلغت اثنين وعشرين فصلا.

وما يهمنى أبرازه فى تقديم الكتاب روح الرافعى الوطنية التى تجلت فيها كتب وتعلقه

ببادئ الحرية والديمقراطية والاستقلال التام لوادى النيل شماله وجنوبه.

ولعل الرافعى فى كتابه يرسم لكل من يريد الكتابة عن تاريخ شخصية مصرية أو غير مصرية كان لها أثرها البارز فى بلدها أن يحلل حياة هذه الشخصية من نشأة صاحبها العائلية، والديه واسرته ويبرز اخلاقيات ووطنية مصطفى كامل، ويشرح حالة العصر الذى ظهر فيه، ومراحل جهاده فى المدرستين الثانوية والحقوق، وشعوره بواجبه نحو مصر مدافعا عن حقوق الأمة أمام العالم أجمع فى أحاديثه وخطبه فى مصر والخارج فى الصحف والمجلات والمؤتمرات ومقابلاته السياسية لساسة العالم من محبى الحرية والاستقلال وغيرهم ونداءاته فى المناسبات وتمسكه بالوحدة الوطنية بين أبناء الوادى مرددا قوله «أن المسلمين والأقباط شعب واحد مرتبط بالوطنية والعادات والأخلاق وأسباب المعاش ولا يمكن التفريق بينها مدى الابد».

أن كثيرين لا يعرفون أن لمصطفى كامل مؤلفات منها كتابه عن المسألة الشرقية وكتابه عن اليابان الشمس المشرقة أخرجه فى يونيو سنة ١٩٠٤ وكتابه «المصريون والانجليز» طبعه بباريس فى ديسمبر سنة ١٩٠٥.

إن جهاد مصطفى كامل لم يكن مقصورا على قضية الاحتلال ومطالبته بالجلء عن وادى النيل، بل امتد نشاطه فى سائر النواحي الاجتماعية ومنها نشر التعليم وبناء المدارس والجامعة المصرية والمطالبة بإلغاء الامتيازات الأجنبية وقيام دستور يكفل للمصريين حقوقهم وإنشاء الصحف والمجلات، فكان للحزب الوطنى جريدة اللواء ومجلة اللواء باللغة العربية والانجليزية والفرنسية.

لقد سطر الرافعى خطوات جهاد مصطفى كامل واعماله فى سائر النواحي وربط هذه الخطوات بحالة مصر وتاريخها القومى خلال حياة الزعيم الوطنى، الذى بعث فى مصر روح الكفاح والوطنية وقضى على حالة اليأس والقنوط التى كانت تخيم على كثير من المواطنين، شرح كل هذه الخطوات بأمانة ودقة شأنه فيما جمعه مؤلفاته الأخرى وبسمات المؤرخ الصادق النزى بعيدا عن الهوى والغرض، وانتهى الرافعى بعد هذا السرد الأمين إلى الحديث عن القضاء المحترم لفقيه مصر فى ١٠ فبراير سنة ١٩٠٨ وكيف كانت جنازته الشعبية التى خرجت فيها الأمة كلها تشيع فقيدها وسجل الرافعى المراثى من

أقوال الشعراء والادباء منها شعر أمير الشعراء أحمد شوقي وحافظ إبراهيم شاعر النيل و خليل مطران وأحمد محرم وغيرهم.

ولم يكتف الرافعى فى كتابه عند هذا الحد بل أوضح كيف خلدت مصر زعيمها فى إنشاء ضريح له ضم رفاته فى ١٠ فبراير سنة ١٩٥٣ بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ وبعد ٤٥ سنة من وفاة مصطفى كامل ثم ضم الضريح رفات محمد فريد فى ١٥ نوفمبر سنة ١٩٥٣ بعد ٣٤ سنة على وفاة فريد وشاءت الأقدار أن يضم جثمان عبد الرحمن الرافعى الذى توفى فى ٣ ديسمبر سنة ١٩٦٦ فى اليوم التالى بجوار زعيمى الحركة الوطنية والجهاد مصطفى كامل ومحمد فريد، ثم بهذا التمثال القائم فى ميدان مصطفى كامل بالقاهرة.

أوضح الرافعى فى كتابه علاقة الفقيد بالخدوى عباس حلمى الثانى وعلاقته بتركيا ورد على هذه الفرية التى وجهها البعض لمصطفى كامل أنه من أنصار السيادة العثمانية بتحقيق علمى وسياسى سليم انتهى فيه إلى تمسك مصطفى كامل بمصريته ووطنيته، يتمثل ذلك فى قوله «لو لم أكن مصرى لوددت أن أكون مصرى».

ان الكتاب لا غنى عنه لكل قارئ يريد معرفة سيرة الزعماء وحياتهم وكفاحهم وعلاقتهم بكبار الساسة والمسئولين وزملائهم وميذهم، جزى الله الرافعى خير الجزاء على ما قدمه من مؤلفات فى الوطنية وتاريخ مصر القومى حديثها وقديمها وفى عصورها الوسطى وهى الله سبحانه وتعالى له مقاما حميدا فى جنات النعيم.

المستشار

حلمى السباعى شاهين

نائب رئيس قضايا الحكومة السابق

أكتوبر سنة ١٩٨٤

مقدمة الطبعة الخامسة

نحمدك يا رب. إذ الطبعة الخامسة من كتاب «مصطفى كامل» بين يدي القارئ وهي مطابقة تماما للطبعة الرابعة التي ظهرت سنة ١٩٦٢.

والله ولي التوفيق

كريمات المؤلف
عبد الرحمن الرافعي

سنة ١٩٨٤

مقدمة الطبعة الثالثة

ظهرت الطبعة الأولى لكتاب «مصطفى كامل» سنة ١٩٣٩، والطبعة الثانية سنة ١٩٤٥، واليوم تظهر الطبعة الثالثة سنة ١٩٥٠.

لئن كان «مصطفى كامل» قد انتقلت روحه الطاهرة إلى الرفيق الأعلى سنة ١٩٠٨، فإن تاريخه لا يقف عند هذه السنة، بل إنه مستمر إلى اليوم وإلى غد وإلى ما شاء الله، وإذا كانت الأعوام والأيام من شأنها أن تجر على الحوادث والأشخاص ذيول النسيان، فإن هذا ليس شأن العظماء والعابرة، بل إن مرور السنين والأجيال تزيدهم رفعة وخلوداً، ولا غرو فهم قطعة من عمر الزمان، وهم بناء إنسانية ودعائهم، فكل مرحلة من عمر الزمان وتطور الإنسانية تجدد من ذكراهم، فهم لا يزالون أحياء في كل عصر وفي كل عام. وإذا كان مصطفى كامل قد فارق هذه الدنيا منذ اثنتين وأربعين سنة، فإن دعوة الجلاء التي كانت أساس رسالته الوطنية، والتي دعا إليها منذ ستين سنة، وناضل من أجلها، وفنى في سبيلها، قد استقرت في النفوس، وصارت مع الزمن عقيدة الأمة وموضع الإجماع من المواطنين جميعاً، وصارت علم الجهاد وقوامه، في شمال الوادي وجنوبه، وهذا هو الخلود الذي يجعل مصطفى كامل حياً في نفوسنا، وكأنه لا يزال بيننا.

لم تكن الدعوة إلى الجلاء أمراً ميسوراً في العصر الذي نشأ فيه مصطفى كامل، فلقد ظهرت دعوته سنة ١٨٩٠ في وقت خيم اليأس فيه على نفوس المصريين، فبدت غير معقولة ولا مقبولة، وعدّها الناس وهماً من الأوهام أو حُلماً من الأحلام، ولكن مصطفى كامل كان مؤمناً برسالته، فنهض بها، وشق لها طريقها وسط العقبات والعراقيل، والآن شهدت البلاد منذ وضعت الحرب العالمية الأخيرة أوزارها سنة ١٩٤٥ استقراراً لهذه الدعوة وإيماناً بها في نفوس سكان الوادي، فصارت شعارهم، وصارت عقيدتهم، واحتلت مكان الصدارة في أهداف البلاد الوطنية، فإيمان الأمة برسالة مصطفى كامل هو بعث وإحياء لتاريخه، وهو استمرار لهذا التاريخ.

والطبعة الثالثة من هذا الكتاب تزيد على الطبعة الأولى بما جاء فيها عن إزاحة الستار عن تمثال الفقيه سنة ١٩٤٠، وقد وردت هذه الزيادة في الطبعة الثانية، ثم إقامة الضريح الجديد لمصطفى وفريد، وهي زيادة جديدة، إذ تم في العام الماضي (١٩٤٩) تشييد الضريح الجديد، وصدر قرار الحكومة بنقل رفات المرحوم محمد فريد إلى جوار مصطفى كامل، وهكذا يتاح للزعمين العظمين، والصديقين الوفيين، أن يلتقيا بعد طول النوى، ويضمهما قبرٌ واحد، بعد أن فرق الزمن بينهما نيفاً وأربعين سنة.

والله أسأل أن يجعل لنا من حقائق التاريخ ما يزيدنا علماً وبصيرة وإيماناً.

أبريل سنة ١٩٥٠

عبد الرحمن الرافعي

مقدمة الطبعة الثانية

ظهرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب سنة ١٩٣٩، وها هي الطبعة الثانية بين أيدي القارئين والقارئات.

ليس تاريخ العطاء مجرد سرد وقائع لحياتهم وأعمالهم بل أهم من ذلك أن تبرز فيه صورة واضحة لمبادئهم التي نشروها، والرسالة التي أدوها، وبذلك يكون تاريخهم مرآة لهذه الرسالة وهاتيك المبادئ.

إن رسالة مصطفى كامل التي تخلد على الزمن هي رسالة الاستقلال الحقيقي لمصر والسودان، الاستقلال الذي لا يتحقق إلا بجلاء كل قوة أجنبية عن البلاد، فالجلاء في نظر مصطفى كامل هو الرمز الصحيح، للاستقلال الصحيح، هو جوهر الاستقلال ومعناه وهو أساسه ومبناه، ولذلك جاهد الاحتلال الأجنبي طول حياته، ودعا قومه إلى مجاهدته وعدم الاعتراف به، وعدم التعاون وإياه، وكان ينادى طول حياته أن «كل احتلال أجنبي هو عار على الوطن وبنيه»، ذلك هو شعاره، وتلك هي رسالته، لم يقبل فيها هوادة، ولم يتراجع أمام العقبات أو المغريات، وهذا هو السر في نجاحها واستمرارها من بعده، لأنها الرسالة الطبيعية لكل شعب يفهم معنى الاستقلال، ويتمسك به ويناضل من أجله، ولا يرضى عنه بديلاً، وفي ذلك يقول رحمه الله في محاجة خصومة سنة ١٩٠٠: «يمكنني اليوم أن أقول أمام الملأ كله أنه لا يستطيع إنسان أن يدعى أني خالفت مبدأ من مبادئ لحظة واحدة مع تغير الظروف وتقلبات الأحوال، وموت الآمال عند كثير من الرجال، ولا يوجد من يقول إنني عملت طمعاً في عز أو ثروة، لأن الطامع فيها لا يقف موقفى ولا يجاهد ضد الاحتلال».

إن رسالة مصطفى كامل يجب أن تبقى، وعلينا أن نحافظ عليها، علينا أن لا نقبل التعاون مع الاحتلال ما بقى الاحتلال في هذه البلاد - مصر والسودان - تحت أى شكل وبأى اسم كان، ولقد بقيت هذه الرسالة ما بقى خلفاؤه يحملونها ويناضلون عنها،

وفى ذلك يقول محمد فريد - رمز الإخلاص والتضحية - حين عرض عليه الاشتراك في الوزارة سنة ١٩١٠: «كيف تطلب منى الاشتراك فى حكم البلاد وأنا أجاهد الاحتلال، وكيف يتفق النقيضان».

ظلت هذه الرسالة قائمة فى عهد الاحتلال، وفى عهد الحماية، ثم فى ظل معاهدة ٢٦ أغسطس سنة ١٩٣٦، التى رفضها الحزب الوطنى، وما كان له أن يقبلها أو يقرها، وهى تناقض رسالته التى حملها فى مختلف العهود، وما كان لهذه الرسالة أن تتغير أو تتبدل، سواء بعد إعلان الاستقلال الإسمى فى ١٥ مارس سنة ١٩٢٢، أو بعد إبرام معاهدة سنة ١٩٣٦، فإن الاحتلال الأجنبى قد بقى قائماً فى ظلها.

بقيت هذه الرسالة سليمة وبرزت واضحة جلية فى سياسة الحزب الوطنى وموقفه إلى بضع سنوات مضت، وفى ذلك قال الأستاذ مصطفى الشورى بك فى خطبته التى ألقاها باسم الحزب الوطنى سنة ١٩٢٣ فى إحدى الأزمات الوزارية: «تريدون أن تسمعوا كلمة الحزب الوطنى فى الوزارتين الماضىة والحاضرة، إنها كلمة مختصرة، فنحن نرى أن كل وزارة تتألف فى عهد الاحتلال لا تستطيع أن تفيد الأمة بقدر فائدتها للسياسة الانجليزية، بل إن أية وزارة تتألف فى هذا الجو لا يمكن لها أن تقدم للبلاد إلا فائدة ظاهرية».

وعندما ائتلف الحزب الوطنى مع الأحزاب السياسية لإعادة الحياة الدستورية وعادت سنة ١٩٢٦ بفضل دعوته وجهاده مع الأحزاب المؤتلفة، امتنع عن الاشتراك فى الوزارة التى تألفت فى أعقاب الانتخابات لقيامها على أوضاع سياسية تخالف مبادئه، وفى ذلك أعلن (اللواء المصرى) لسان حال الحزب الوطنى وقتئذ «أن الحزب الوطنى لم يكن فى أى وقت من الأوقات سواء قبل الحرب أو بعد الحرب يرمى إلى تملك ناصية الحكم، وهو زاهد فى هذا الأمر مادام الاحتلال قائماً فى البلاد، لأنه على يقين بأن حكومة ما لا تستطيع أن تخدم الأمة خدمة صادقة نافعة فى حرية واختيار وإلا اصطدمت به صدمة تكشف عن ضعف غالبية البلاد وهنا تكون الطامة الكبرى سواء كان الموقف شريفاً بترك الحكم أو ذليلاً بالرضوخ والعدول عن خدمة البلاد إلا وفق مرامى الغاصب»، وأيد الأستاذ حافظ رمضان باشا هذا المعنى فى حديثه بجريدة الأنفور ما سيون إذ سأله محدثه: «هل يمكنكم أن تحدثوني عن موقف الحزب الوطنى إزاء تطور الأزمة الحاضرة وهل تقبلون الدخول فى وزارة؟» فأجابه على الفور: «يمكننى أن أصرح لك فى غير موارد أن الحزب الوطنى

الذى أتشرف برأسته بعد كبار الرجال الذين ذاع صيتهم ليس له مطمع وزارى فى النظام الحاضر، إن برنامجنا واضح جداً، وهو يفرض علينا خطة صريحة جلية. ولكن فى انتظار حوادث جديدة تنشئ لنا أمراً جديداً، قد رأينا أن لا نضع أية عقبة فى سبيل وزارة تعمل على إعادة الحياة الدستورية وتبذل الجهد فى إدارة أعمال البلاد فى طريق الرقى، فالحزب الوطنى هو وطنى قبل أن يكون سياسياً».

ولم يتبدل أساس الوضع السياسى القائم فى البلاد بعد إبرام معاهدة ٢٦ أغسطس سنة ١٩٣٦. بل إن هذه المعاهدة قد أقرت ما أقرت من أوضاع نهض الحزب الوطنى لمقاومتها على تعاقب السنين، وأخصها الاحتلال الأجنبى وفصم عرى الوحدة بين مصر والسودان. وما كان للحزب الوطنى وقد ارتبط ماضيه ووجوده بمقاومة هذه الأوضاع التى تناقض الاستقلال الصحيح أن ينفصل عن ماضيه لمجرد إبرام معاهدة رفضها وأنكرها استمساكاً بمبادئه؛ ولكن فريقاً من أعضائه قد سلكوا منذ بضع سنوات طريقاً يتعارض مع هذا الماضى المجيد، فوافقوا على اشتراك الحزب فى الوزارة فى ظل هذه المعاهدة وعلى أساس تنفيذها «بروح الود والاخلاص»، وبذلك أقروا التعاون الودى مع الاحتلال الأجنبى، ولم يكن التعاون مع الاحتلال مبدأ ولا شعاراً لحزب الجلاء، وليس هو التراث الوطنى الذى خلفه لنا مصطفى كامل ومحمد فريد.

ولعل فى كتاب (مصطفى كامل) ما يبصرنا برسالة (مصطفى كامل) وبحيها فى نفوسنا، ويجلوها على وجهها الصحيح، فنعرف منها كيف يكون الجهاد الخالص لله والوطن.

والله أسأل أن يهديننا سواء السبيل

عبد الرحمن الرافعى

يناير سنة ١٩٤٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الأولى

هذا هو الكتاب الذى اعتزمتُ وضعه عن «مصطفى كامل» منذ سنوات عدة، وقد تأخرتُ فى إخراجه عن الموعد الذى كنت قدرته، لأننى إذ بدأت فى كتابة فصوله الأولى استوقفتنى البحث فى مبدأ ظهور الحركة القومية فى تاريخ مصر الحديثة، فبدأ إلى أن أرجع إلى الأدوار التى سبقت عهد مصطفى كامل، لكى أقف عند حد يصح اعتباره مبدأ الحركة القومية، فانتهى بى البحث إلى اعتبار المقاومة الأهلية التى اعترضت الحملة الفرنسية فى مصر أول دور من أدوارها ومن ثم اتجهت نيتى إلى دراسة تلك الأدوار على التعاقب، قبل الكتابة عن مصطفى كامل، فانتظرت حتى أتممت المجلدات السبعة التى وضعتها فى تاريخ الحركة القومية وأدوارها، من عهد ظهورها فى إبان الحملة الفرنسية، وتطورها بعد انتهاء تلك الحملة، إلى اكتمالها فى عصر محمد على، ثم تجددتها فى عهد سعيد وإسماعيل، إلى الثورة العربية، ثم الانحلال الوطنى العام فى السنوات الأولى للاحتلال.

واليوم أكتب من «مصطفى كامل» باعث الحركة الوطنية الحديثة، وغرضى من دراسة تاريخه أن أطلع الجيل بصفحة من الجهاد القومى، تصل حاضرننا بماضينا، وتنير لنا السبيل فى جهادنا الحالى، وجهادنا فى المستقبل، أريد بدراسة هذه الصفحة من تاريخنا القومى أن أدون وقائعها، وأسجل حقائقها، لأن حوادث التاريخ وأعمال الرجال إذا انقضت عليها السنون ولم يسجلها القلم، يخشى أن يجر عليها الزمان ذبول الإهمال والنسيان.

* * *

من أراد أن يعرف فضل مصطفى كامل على الحركة الوطنية ويستخلص من تاريخه صورة عامة لشخصيته، فليرجع ببصره إلى العصر الذى ظهر فيه، فلقد ظهر سنة ١٨٩٠

على حين فترة من الحركة الوطنية، وهجعة من الكفاح القومى، وانحلال فى الروح المعنوية، ظهر والنفوس قد استحوذ عليها اليأس والقنوط، على أثر إخفاق الثورة العراقية واحتلال إنجلترا مصر سنة ١٨٨٢، ظهر حين خيم على البلاد جو من الخضوع والاستسلام، بقى مضروبا عليها نحو عشر سنوات، فنهض يدعو إلى الحرية والاستقلال، فى وقت تحالفت فيه عوامل اليأس، وتضافرت أسباب الجمود والضعف، دعا دعوته، فبدأت غريبة عن الأذهان، بعيدة عن الأفهام، وتساءل معاصروه كيف تقوم حركة وطنية لاستخلاص الاستقلال من يد أقوى الدول نفوذاً وأوسعها سلطاناً؟ ولكن وطنية مصطفى كامل كانت أقوى من الجيل الذى ظهر فيه. وأقوى من العوامل المثبطة، فأخذ يثابر على دعوته، ويناضل عنها، حتى استجابت الأمة لندائه، فكانت نهضة، وكانت حياة، وكان شعور، وكان جهاد، كانت رسالته إلى مصر كصرخة الحياة المدوية فى سكون النوم العميق، كانت رسالة الأمل بعد اليأس، والحياة بعد الجمود، والكرامة بعد الهوان، والجهاد للحرية والاستقلال، بعد الاستسلام للاحتلال والاستعباد، وإذا كانت الدعوة الوطنية التى دعا إليها وناضل من أجلها قد صارت بعد ثمانية عشر عاماً من جهاده طبيعية محبة إلى النفوس، فإن الطريق إليها كان شائكاً، ولقد كانت فى حاجة إلى إقدامه، وعبقريته وإيمانه، فهى كحدث اكتشاف القارة الأمريكية، ظهر طبيعياً ومعقولا بعد تمام الاكتشاف، ولكنه كان فى حاجة إلى إقدام «كريستوف كولومب» وعبقريته.

* * *

ولد مصطفى كامل سنة ١٨٧٤، وظهرت وطنيته أول ما ظهرت سنة ١٨٩٠ حين كان لا يزال طالباً بالمدرسة الثانوية، إذ شعر بهاتف الوطنية يهتف بين جنبيه، يناديه بأن عليه واجباً نحو مصر يجب أن يؤديه، ويدعوه إلى الجهاد لحرير الوطن من الاحتلال الأجنبي، وعرف فيه على باشا مبارك وزير المعارف وقتئذ أنه الشاب الذى سيكون له شأن كبير، فقال له: «إنك امرؤ القيس»، وبشره بأن سيكون عظيماً، وقد تحققت نبوءته، فصار الفقيه عظيمياً بوطنيته وجهاده، ثم دخل مدرسة الحقوق سنة ١٨٩١، واختارها «لأنها مدرسة الكتابة والخطابة ومعرفة حقوق الأمم والأفراد» كما قال فى كتاب له إلى شقيقه على فهمى كامل (بك) فى ١٢ يوليه سنة ١٨٩١. دخلها لكى يعد نفسه لأداء مهمته الوطنية. وقد راسل الصحف وهو بعد طالب، وأنشأ مجلة (المدرسة) سنة ١٨٩٣

وهو طالب، واتخذ شعارها (حبك مدرستك حبك أهلك ووطنك) فالوطنية كانت عقيدته وشعاره وهو في تلك السن المبكرة، نشأت فيه دون أن يتلقاها عن معلم، أو يقتبسها من العصر الذي ظهر فيه، لم تكن نتيجة درس أو تعليم، بل كانت وحي الإلهام والعبقرية، ثم نال شهادة الحقوق سنة ١٨٩٤، فلم يتبع ما درج عليه معاصروه من اختيار منصب في الحكومة، أو الانتظام في سلك المحاماة، بل وقف حياته على ما عاهد عليه الوطن من المحاماة عن الأمة، والعمل لاستقلالها وحريتها وكرامتها، وقد صدق وعده، إذ كانت سنو حياته وقفاً على الجهاد، فكان لا يفتأ يعمل، ويكتب، ويخطب، ويؤلف، ويجوب البلاد متنقلاً، رافعاً صوت مصر في الداخل والخارج، ينادى بحريتها واستقلالها، مستحثاً مواطنيه على الالتفاف حول راية الجهاد والأمل حتى تفتحت الأذهان على توالي السنين إلى قبول دعوته، ثم جاءت سنة ١٨٩٨، ووقعت فيها حادثة فاشودة، فصدمت الحركة الوطنية صدمة زلزلت الأمل الذي أحياء مصطفى في النفوس، بدأت تلك الحادثة بتنازع فرنسا وانجلترا على المسألة المصرية، وكان الظن أنها تنتهي بجلاء الانجليز عن مصر، ولكنها انتهت على العكس بتراجع فرنسا، ورسوخ أقدام الاحتلال في وادي النيل، وأعقبها إبرام اتفاق السودان بين مصر وانجلترا في ١٩ يناير سنة ١٨٩٩، ذلك الاتفاق الذي قضى على مركز مصر في السودان، فيئس المصريون، وانصرف نفوسهم وقتاً ما عن الاستماع إلى النداء الوطني، ولكن مصطفى كامل لم ييأس ولم يتراجع، بل استمر ماضياً في جهاده، وعول من ذلك الحين على عدم الاعتماد على فرنسا، وفقد أمله في عدالة أوروبا عامة، منذ رأى جهودها أمام مأساة (البوير) سنة ١٩٠٠ وتركها إياهم يسحقون أمام القوات الانجليزية، دون أن تأبه لهم، فدعا الأمة إلى الاعتماد على النفس، ومتابعة الجهاد، وكان هو المثل الأعلى في الثبات والمثابرة، والشجاعة والإقدام، وأنشأ اللواء سنة ١٩٠٠، فكان مدرسة تعلم المصريين حقوقهم وواجباتهم، وثبت فيهم روح الوطنية الصادقة، والأخلاق الفاضلة، واستمر يناضل عن مصر على صفحات اللواء، وفوق أعواد المنابر، وفي صحف أوروبا وأمريكا، إلى إن جاءت سنة ١٩٠٤، فصدمت الحركة الوطنية صدمة جديدة، إذ أبرم العهد المعروف «بالاتفاق الودي» بين فرنسا وانجلترا، وبمقتضاه أقرت فرنسا الاحتلال الانجليزي في مصر، وتعهدت ألا تعرقل عمل انجلترا فيها، فكان لهذا الاتفاق أسوأ الأثر في نفوس كبراء مصر وعظمائها، ورجالها المعدودين، ورأى أكثرهم أن الخير لهم في مسالة الاحتلال، والانضواء تحت لوائه، واكتساب رضاه، ولكن

مصطفى كامل خالفهم واستمر في طريقه يحمل علم الجهاد، لا يني ولا ينتهي، مناديا بالجلال، وتجلبت وطنيته في روعتها حين عظمت هموم الوطن، وقلّ المعين والناصر، فقد ضاعف جهوده، وصمد للعقبات والعراقيل، يتغلب عليها بقوة العزيمة والإيمان، ويتأثير دعوته ووطنيته ومثله الأعلى نشأ جيل من المصريين أشربت نفوسهم الوطنية الحققة، وحب الحرية والاستقلال، ودرجوا على الأمل والحياة، وتعددت مظاهر هذه الحياة الجديدة، وأهمها تأسيس نادى المدراس العليا سنة ١٩٠٦، إذا اجتمعت فيه صفوة الشبيبة المصرية المثقفة، وتشعبت بتعاليم الفقيد ومبادئه، متعاهدة على الإخلاص في خدمة الوطن، وبذلك سرت روحه إلى الطبقة المثقفة من الأمة، ثم كانت حادثة دنشواى في يونيه سنة ١٩٠٦، فحمل فيها الفقيد على الاحتلال وسياسته الحملات الصادقة، وجاءت محققة لصدق نظره في أن لا حياة للأمة ولا كرامة لها بغير الاستقلال، ومن انتشرت تعاليمه ومبادئه حتى سرت إلى طبقات الشعب كافة وضاعف الفقيد جهاده، وظل يخطب ويكتب ويعمل في أوروبا وفي مصر داعياً إلى الاستقلال، وأنشأ سنة ١٩٠٧ جريدتين يوميتين، إحداهما بالفرنسية (ليتندار اجبسيان) وأخرى بالانجليزية (ذى اجبشيان استاندارد)، تدافعان عن حقوق مصر في العالم الأوروبي، إلى جانب (اللواء) في العالم الشرقي، وهكذا كان الفقيد يصدر ثلاث صحف يومية كبرى، بثلاث لغات مختلفة للدفاع عن مصر، وهي مهمة تنوء بها العصابة أولو القوة من الرجال والجماعات، وقد تأثرت صحته من هذه الجهود المضنية المتواصلة، وشعر بدبيب المرض في سنة ١٩٠٦، حيث كان بباريس صحبة صديقه وزميله في الجهاد محمد بك فريد، لاختيار محررى جريدتي ليتندار اجبسيان وذى اجبشيان استاندارد، وهناك عاده طبيب عالمي مشهور، وبعد أن فحص عن مرضه نصحه بحضور فريد بك أن يترفق بصحته ولا يحملها فوق طاقتها، ولكنه لم يسمع لنصح الناصحين، وسارع الخطى في تنفيذ مهمته، لكى يتم رسالته قبل أن يدركه الأجل، فكانت سنوات ١٩٠٦ و ١٩٠٧ وأوائل سنة ١٩٠٨ حافلة بعظام الأعمال، ومازال يجاهد ويناضل حتى ذوت زهرة شبابه في ١٠ فبراير سنة ١٩٠٨ وهو في الرابعة والثلاثين من عمره.

* * *

إن الثمانى عشرة سنة التى قضاها الفقيد في الجهاد هى أساس الحركة الوطنية الحديثة، فهو باعثها ومحبيها، وبانيها وسط الشدائد والعقبات، ومدعها بالإيمان

والشجاعة والثبات، ومغذيتها بالإخلاص والتضحية، مات في ميدان الجهاد كقائد الجيش في ساحة الوغى، يرى الخطر محدقا به، فلا يكثر له، ويتقدم الصفوف حتى يستشهد في سبيل الواجب، أو كما قال فريد بك «مات رئيسنا في ساحة الوغى كالقائد يعاني سكرات الموت ويده تشير إلى جنده بالتقدم إلى الأمام».

فالروح التي بعثها مصطفى كامل في الأمة هي التي صارت على مر السنين غذاء الحركة الوطنية، وهي التي مهدت السبيل لنورة ١٩١٩ التي اعتاد الكثير من الكتاب أن يجعلوها مبدأ الحركة الوطنية، وهم في ذلك مخطئون، لأن الثورات ليست حركات ميكانيكية تبدو فجأة للناظرين، بل هي حوادث اجتماعية، تتمخض عنها حياة الشعوب تبعاً لدرجة استعدادها، ونتيجة لسريان روح الوطنية في نفوس أبنائها، فلولا الوطنية التي بثها مصطفى كامل في نفوس المصريين خلال الثمانية عشر عاماً التي فضاها في الكفاح، لمرت سنة ١٩١٩ كما تمر غيرها من السنين، دون أن تتجلى فيها روح الثورة، فالثورة هي غرس الوطنية. والوطنية هي نتيجة جهاد مصطفى كامل المتواصل طوال هذه السنين، ولهذا الصفحة من الجهاد قد خصصت هذا الكتاب، فالיום أؤرخ «مصطفى كامل» وغداً بمشيئة الله سأؤرخ «محمد فريد» وبذلك أكون قد أدت واجبي نحو عبافرة الوطنية الذين رسموا للأمة طريق الجهاد الخالص لله والوطن.

أقسام الكتاب

أفردت الفصل الأول من الكتاب لدراسة نشأة الفقيه والعصر الذى ظهر فيه، وتناولت الكلام عن نشأته العائلية والمدرسية، ثم الأخلاقية والوطنية، يليه الفصل الثانى وفيه بيان المرحلة الأولى من جهاده فى عهد التلمذة، والفصل الثالث عن المرحلة الثانية، بعد حصوله على شهادة الحقوق، ثم الفصول الثلاثة التالية عن جهاده من سنة ١٨٩٤ حتى سنة ١٨٩٧، والفصل السابع عن حادثة فاشودة وجهاده سنة ١٨٩٨. والذى يليه عن جهاده عام ١٨٩٩، يتبع ذلك الكلام عن ظهور اللواء سنة ١٩٠٠ والجهاد الأكبر، ثم الاتفاق الودى الإنجليزى الفرنسى سنة ١٩٠٤، وأثره فى الحركة الوطنية، وموقف الفقيه منه، ومضاعفة جهوده بإزائه، ثم تأسيس نادى المدارس العليا، ثم حادثة دنشواى واستقالة اللورد كرومر، فظهور جريدتى ليتندار اجبسيان وذى اجبسيان استاندرد، يلى ذلك تأسيس الحزب الوطنى، وخطبة الفقيه الكبرى بالإسكندرية، يليه الفصل الخامس عشر عن وفاة الزعيم وجنازته، ومراثى الشعراء والكتاب فيه، ثم الفصل السادس عشر عن الخديو عباس الثانى وتاريخ مصر السياسى فى عهده، يلى ذلك فصول تحليلية عن مصطفى كامل والخديو، ومصطفى كامل وتركيا، ثم مجلس شورى القوانين، ثم مصطفى كامل ومعاصريه، يليه الفصل الحادى والعشرون وفيه دراسة لشخصية الزعيم وصفاته وأخلاقه ومقدرته السياسية والخطابية والصحفية، وتضحياته فى الجهاد، وفضله فى بعث الحركة القومية وتأسيس الوحدة الوطنية، ثم الفصل الأخير (الثانى والعشرون) وفيه نماذج من حياته الخطابية، وبه ختام الكتاب.

* * *

إن الحديث عن مصطفى كامل يتجدد كلما تعاقبت الحوادث وكرت الأعوام، إذ من الحق علينا للزعماء الراحلين أن نذكر على الدوام فضلهم ولا ننساهم، فالوفاء ركن من أركان الوطنية، بل هو ركن الفضائل وقوامها، والأهم الحية هى التى تعرف أقدار بنيها الذين أفنوا حياتهم فى سبيل مجدها وعظمتها، وإنى بإخراج هذا الكتاب لا أنشد الوفاء

فحسب، بل أقصد المساهمة العملية في النهضة القومية، لأنه مهما تعددت نواحي النهضة وسبلها، فمن الواجب لكى تؤتى ثمرها أن تتركز على أساس ثابت من الروح الوطنية العامة التى تضع مصالح الوطن فوق المطامع الشخصية والمنافع الذاتية، وليس أدعى إلى بث هذه الروح فى النفوس من الرجوع إلى تاريخ الزعماء والمجاهدين الذين كانت حياتهم رمزاً للاخلاص والتضحية، فمن ذكرياتهم نستروح نسيم الوطنية الصادقة، وستبقى سيرهم على مر الزمان مثالا يُقتدى به فى العمل لإحياء الوطن، هذا ما أنشد وإليه أقصد، «إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب».

عبد الرحمن الرافعى

يناير سنة ١٩٣٩

الفصل الأول

نشأة الفقيه والعصر الذى ظهر فيه

نشأته العائلية

ولد مصطفى كامل بمدينة القاهرة بحى (الصليبة) بقسم الخليفة يوم ١٤ أغسطس سنة ١٨٧٤ م (أول رجب سنة ١٢٩١ هـ)، وهو ابن (على أفندى محمد) أحد خيار المهندسين الضباط.

والد المترجم

نشأ (على أفندى محمد) فى بلدة كتامة الغاب من أعمال مركز طنطا عاصمة الغربية، إذ كان والده من تجارها، ودخل فيمن دخل من أبناء التجار مدرسة طره سنة ١٢٤١ هـ (١٨٢٥ م)، ومكث بها خمس سنوات، ثم انتقل إلى مدرسة (الخانكة) وبقي بها أربع سنوات كان فيها مثال الجد والاستقامة، وكان أول أقرانه. وفى سنة ١٢٥٠ هـ (١٨٣٤ م) نال رتبة الملازم الثانى مهندساً طوبجياً وعين معيداً فى المدرسة، ثم نقل إلى بلوكات المهندسين التى كانت تعمل فى إقامة الكبارى وبناء التكنات فى عهد محمد على، ثم رقى إلى رتبة الملازم الأول فى عهده أيضاً، وإلى رتبة اليوزباشى فى عهد عباس باشا الأول، وعين قومنداناً لأحد بلوكات المهندسين.

وفى سنة ١٢٥٩ هـ (١٨٤٣ م) شيد منزلاً بحارة درب الميضاة بشارع شيخون، وهو المنزل الذى ولد فيه المترجم، وفى عهد سعيد عين ضمن أركان حرب معيته، ثم أحيل إلى الاستيداع فى عهد اسماعيل، ثم عين مهندساً ملكياً بوزارة الأشغال حتى أحيل إلى المعاش سنة ١٢٩٤ هـ^(١) (١٨٧٧ م) وقد أنجب من البنين سبعة، ومن البنات اثنتين،

(١) هذه البيانات الأولى عن كتاب (سيرة مصطفى كامل) تأليف على فهمى كامل بك شقيق الفقيه.

فأبناؤه هم: المرحوم محمد أفندى على الذى كان صيدلياً بطنطا وتوفى سنة ١٢٢٠ هـ (وهو والد الأستاذ أحمد زكى المستشار بحكمة النقض فيما بعد) ثم المرحوم سليمان أفندى علوى الذى تخرج من مدرسة الحقوق وعين بالمحاكم المختلطة وتوفى فى التاسعة



المنزل الذى ولد فيه الفقيد سنة ١٨٧٤
بدرب الميضة بشارع شيخون بالصليبة

والعشرين من عمره، ثم حسين بك (باشا) واصف وزير الأشغال الأسبق، ثم المرحوم الدكتور عبد الفتاح فتحى من نوابغ خريجي مدرسة الطب (وقد توفى سنة ١٨٩٤ م)، وأنجب من السيدة «حفيظة» المرحوم على بك فهمى كامل، ثم المترجم، ثم السيدة

عائشة حرم المرحوم عثمان افندى صبرى (والد ابراهيم افندى صبرى من نوابغ خريجي كلية الحقوق سنة ١٩٣٧ وسفير الجمهورية العربية المتحدة في ألمانيا الغربية الآن)، ثم الأستاذ حسن حسنى كامل أمد الله في حياته، ثم المرحومة السيدة نفيسة وهى آخر خلف له.

كان الفقيد ضابطاً ومهندساً، جمع بين الصبغة الحربية والصبغة الملكية، إذ كان في أواخر عهده بالحكومة مهندساً ملكياً، وكان معروفاً بالاستقامة والشهامة وطيب العنصر والأخلاق الكريمة، وكان له من غير شك فضل كبير في ظهور مصطفى كامل، إذ كان يعنى بتربية أولاده وتنشئتهم النشأة الصالحة، فكان إذا بلغ الولد الخامسة من عمره دعا أحد الفقهاء إلى منزله لتلقينه مبادئ القراءة والكتابة، فإذا شب أرسله إلى الكتاب ليحفظ ماتيسر من القرآن الكريم، ثم يدخله المدرسة. وكان من ناحية أخرى يجمع أولاده حوله في معظم الليالى ويقص عليهم أحاديث الشهامة والنجدة، ويعلمهم الصدق والإخلاص؛ كما كان يتفقد أحوالهم في المدرسة، هذا فضلاً عن أنه هو بذاته وبأخلاقه الطيبة كان قدوة لأولاده، فعلى افندى محمد له يد طولى في نشأة الفقيد وتربيته الحسنة، وهذه التربية قد مهدت السبيل للنشأة الوطنية التى نشأها الفقيد.

والدة المترجم

وكذلك كان لوالدته السيدة حفيظة كريمة المرحوم اليوزباشى محمد افندى فهمى فضل كبير في نشأته. وهى سيدة من فضليات النساء من جهة المحجر بالقاهرة (بشارع الكومى)، وكانت على جانب كبير من مكارم الأخلاق، وكان الفقيد يعزها ويحلمها ويشيد بذكرها طول حياته، وحزن أشد الحزن على وفاتها سنة ١٩٠٧، وقد انطبعت فيه أخلاقها من صفاء النفس وحب الخير، والصبر والجلد، مرضت بالقلب في آخر حياتها عدة أشهر، وكانت وطأة المرض تشتد عليها بين حين وآخر، ولكنها كانت تقابل آلام المرض بالصبر والجلد، وظلت كذلك حتى أسلمت الروح، فهذا الصبر على احتمال الآلام والمتاعب قد ورثه الفقيد عن والدته الفاضلة.

نشأة الفقيد المدرسية

بدأت على مصطفى كامل مخايل الذكاء والنجابة وقوة الذاكرة في طفولته، وكان كثير الاهتمام بما يحدث به أبوه من القصص على عادته مع أولاده، ويعنى هذه القصص ويدركها تمام الإدراك وهو بعد لم يتجاوز الخامسة من عمره، وقد عهد أبوه وهو في هذه السن إلى فقيه يدعى الشيخ أحمد السيد أن يعلمه في المنزل مبادئ القراءة والكتابة؛ ويحفظه القرآن الكريم؛ ولما أتم السادسة أدخله مدرسة (والدة عباس الأول) الابتدائية بالصلية، وهى القائمة إلى الآن، فهذه المدرسة تفخر بحق بأنها أول معهد علمى تخرج فيه نابغة مصر العظيم.

وبدا على مصطفى أول ما بدا فى أول عهده بالحياة المدرسية تعلقه بعلم الحساب وميله إليه أكثر من ميله إلى أى علم آخر، ولا غرو فأبوه كان مهندساً، فورث عنه الميل إلى العلوم الحسابية، وظهرت عليه أيضاً علائق الشمم والإباء والشجاعة، فمن ذلك أنه بعد أن مكث بمدرسة والدة عباس سنتين حدث أن تلميذاً معه فى الفرقة سأله الأستاذ سؤالاً لم يجب عليه فأجاب بدلاً منه، فسبه الأستاذ وعاقبه بالحبس ساعتين، فعافت نفسه هذا الظلم، وطلب إلى أبيه أن يلحقه بمدرسة أخرى لأنه لم يستطع أن يتحمل هذه الإهانة، فذهب والده فى اليوم التالى وحقق الحادثة وتبين أن ابنه محق فى شكواه، فأخرجه من المدرسة وأدخله مدرسة (السيدة زينب) الابتدائية التابعة لوزارة الأوقاف وأكب على الدرس فى تلك المدرسة كما كان دأبه فى مدرسة والدة عباس إذ كان شديد الإقبال على الدرس والمذاكرة، وبدا منه الميل الكبير إلى دروس التاريخ، وظهر ذكاؤه الفائق واستعداده الكبير فصار أول أقرانه.

وفاة والده

أدركت والده الوفاة يوم ٢٣ جمادى الثانية عام ١٣٠٣هـ (١٨٨٦م) والفقيد فى مدرسة السيدة زينب، فحزن لوفاته حزناً شديداً وأثر فيه الحزن تأثيراً عميقاً، وقد كفله من بعده أخوه الأكبر حسين بك (باشا) واصف (وزير الأشغال الأسبق) فطلب منه أن ينقله إلى

مدرسة (القريبة) لأنها أقرب إلى منزل جده لأمه الذى أقام فيه وإخوته، فأجابه أخوه إلى طلبه ونقله إليها.

حصوله على الشهادة الابتدائية

وفى هذه المدرسة تجلت فى الفقيد مواهبه فى الذكاء والعزيمة والجد والاجتهاد، فتفوق أيضاً على أقرانه بها، ونال شهادة الدراسة الابتدائية فى احتفال فخم حضره الخديو الأسبق توفيق باشا سنة ١٨٨٧.

فى المدرسة الثانوية

دخل المترجم المدرسة التجهيزية (الخديوية) سنة ١٨٨٧، وكان من أساتذته فيها الدكتور محمود بك فوزى الحكيم، وأحمد بك كمال، وأحمد بك حمدى، وعثمان بك أنور، ومحمد بك إدريس، واسماعيل افندى فهمى، والدكتور محمد بك كامل الكفراوى وغيرهم، وقد ظل الفقيد على صفاته التى لازمتها فى التعليم الابتدائى من الجد والإكباب على الدرس والعمل، وظهرت مواهبه من الشجاعة والجرأة والذكاء وقوة الذاكرة واستقلال الفكر وعلو النفس والصراحة فى القول، وحسن الإلقاء، فنال احترام الأساتذة والتلاميذ جميعاً، وكان موضع إعجابهم. وقد عرفه فى ذلك الحين على باشا مبارك وكان وزيراً للمعارف العمومية، فأعجب بفصاحته وشجاعته وقوة عارضته، وقال له مرة: «إنك امرؤ القيس»، وبشره بأن سيكون عظيماً، وأعجب به إعجاباً كبيراً، وقابله يوماً فى سراى الوزارة وشكى إليه حيف نظام الامتحان إذ أدى إلى رسوبه ورسوب زملائه، فأعجب بجرأته واقتنع بشكواه وحجته، فعدل عن هذا النظام مما أدى إلى نجاح مصطفى وكثير من زملائه، وكان الفقيد على حداثة سنه موضع احترامه، فكان الوزير ينشطه ويدعوه إلى منزله ويناقشه فى المسائل العلمية والاجتماعية، ويقدمه إلى جلسائه من العلماء والكبراء، ويثنى عليه أمامهم.

في مدرسة الحقوق

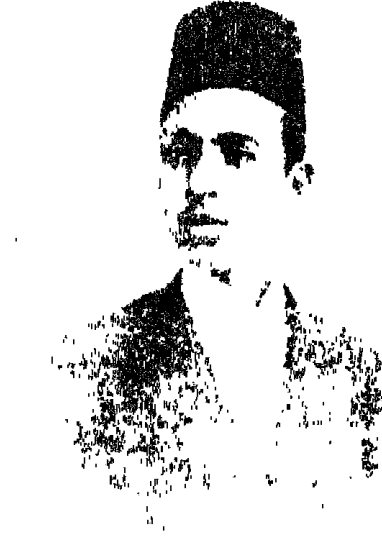
ونال شهادة الدراسة الثانوية (البكالوريا) صيف سنة ١٨٩١، ودخل مدرسة الحقوق الخديوية في أكتوبر من تلك السنة، ونجح في امتحان السنة الأولى، ثم التحق بمدرسة الحقوق الفرنسية في أكتوبر سنة ١٨٩٢، وجمع بين المدرستين، وحصل على شهادة الحقوق من كلية تولوز في نوفمبر سنة ١٨٩٤.

نشأته الأخلاقية

إن الأخلاق هي مهد الوطنية وقوامها، فالأمم التي يتحصن أفرادها بالأخلاق هي التي تنمو فيها الوطنية وتتأصل في نفوس أبنائها، ولاغرو فالوطنية الصادقة لا تسكن إلا النفس المتحصنة بالأخلاق القوية، ولقد كان مصطفى كامل زعيماً أخلاقياً كما كان زعيماً وطنياً، وكانت نشأته الوطنية متابعة لنشأته الأخلاقية، لأن الأخلاق أساس الوطنية الصادقة.

بدأت نشأته الأخلاقية في البيت، من حسن تربية والده إياه، وقدوته الحسنة، ثم استمرت في المدرسة الابتدائية، ثم الثانوية والعالية، ودخل ميدان الجهاد الوطني متميزاً بالأخلاق التي اكتسبها طفلاً وتلميذاً وشاباً، ولازمته طوال حياته. وأبرز الجوانب في حياته الأخلاقية الصدق والإخلاص، وقوة العزيمة، والصراحة والشهامة، وعلو النفس. ولقد كانت هذه الأخلاق خير أساس لوطنيته، كما كانت عدته في الجهاد وسبيله إلى الفوز في أداء رسالته القومية.

ظهرت هذه الأخلاق للعيان أثناء دراسته بالمدرسة الثانوية، ذكر المرجوم الشيخ على يوسف صاحب المؤيد أنه دخل ذات ليلة على علي باشا مبارك في منزله أوائل سنة ١٨٩٠ وهو يومئذ وزير المعارف، ومجلسه حافل بالفضلاء والأدباء، وإذا بمصطفى كامل وكان وقتئذ تلميذاً بالمدرسة الثانوية يجادل الباشا في أمره ويقول: إنني لا أطلب منك إلا ما وجدت أنت من مثلك يوم كنت تلميذاً مثلي، وما يدريك ألا أكون عظيماً أخدم وطني غداً بأكثر مما تخدمه أنت اليوم، قال هذا ثم خرج غاضباً، وكأنه ليس بتلميذ، وكأنما الباشا



مصطفى كامل
في السابعة عشر من عمره

ن يخاطبه ليس وزير المعارف العمومية، وبعد ماخرج ابتسم الباشا وقال إننى أعجب
ساعة هذا التلميذ، ويلذ لى أن يتكلم أمامى بمثل هذه الشجاعة النفسية، ولذلك لم
ره بما أمرت اليوم لأجله، وكان قد أصدر أمره بما طلب منه من قبل، وتركه يخاطبه
هذه اللهجة متلذذاً بما كان يعجبه من كلامه وجداله، قال الشيخ على يوسف: «من
اللحظة عرفت (مصطفى كامل) وكأنا عرفت رجلاً لا تلميذاً فى المدرسة».

نشأته الوطنية - سنة ١٨٩٠

تدل الشواهد والبيانات على أن نشأة مصطفى كامل الوطنية بدأت وهو بعد فى المدرسة
وية، ونقصد بالنشأة الوطنية اتجاهاه إلى العمل والجهاد فى سبيل حرية مصر
نقلها، بدأ يشعر وهو بعد فى السادسة عشرة من عمره أن عليه واجباً نحو وطنه يجب
بؤديه، ظهر هذا الشعور أول ما بدا وهو فى المدرسة الخديوية إذ أسس جمعية أدبية
ة أسماها (جمعية الصليبية الأدبية) واختار لها أعضاء من بين أصدقائه فى التلمذة ممن

توسم فيهم الفضل والذكاء والكفاية، وكانت ثمة جمعية أخرى تسمى (جمعية الاعتدال) تعقد جلساتها الأسبوعية في مدرسة الأمريكان، فكان المترجم يزورها ليتعرف إلى من فيها من الأفاضل والأدباء فيحبب إليهم زيارة جمعيته، وقد نمت الجمعية ولم يمض على تأسيسها أكثر من ثلاثة أشهر حتى كان فيها نحو سبعين عضواً.

ومن ذلك الحين تعلقت نفسه بالوطنية والخطابة، فكان يقف في الجمعية خطيباً مساء كل جمعة مرتجلاً ما تلى عليه البديهة من الخطب، وتجلت مواهبه الخطابية وهو بعد في هذه السن المبكرة، وأول خطبة ألقاها كانت في (فضل الجمعيات في العالم)، وأخذ يرسل الصحف في ذلك الحين، ويتجلى تعلقه بالوطنية منذ كان بالمدرسة الثانوية من خطابه الذي أرسله إلى شقيقه على فهمي (بك) في ١٢ يولييه سنة ١٨٩١ لمناسبة حصوله على شهادة الدراسة الثانوية، واعتزاه دخول مدرسة الحقوق الخديوية، إذ يقول فيه مخاطباً أخاه (الذي كان وقتئذ ضابطاً بالسودان):

«السلام عليك أيها الأخ الحبيب، اليوم أبشرك أن العقبة الكؤود التي أمامي وهي شهادة الدراسة الثانوية قد زالت من أمامي، فقد نلتها بعد أن أضنت جسمي فأصبح نحيلاً، لا صحيحاً ولا عليلاً، ولكني أوئل أن تعود إلى القوى لأدخل مدرسة الحقوق الخديوية، فقد عزمت على الانضمام إلى صفوف طلابها. لأنها مدرسة الكتابة والخطابة ومعرفة حقوق الأفراد والأمم. وأنت تعلم أني أميل إليها كثيراً، وعزمت كذلك على تأسيس جمعية أسميها جمعية «إحياء الوطن»، وربما دهشت من إقدامي هذا لضعفي الذي تعلمه في اللغة الفرنسية ولكن اعتمادي على الله وعلى نفسي أكبر ضامن لنجاحي والله الموفق إلى أقوم سبيل».

نشرنا هذا الخطاب بالزئكوغراف (ص ٣٩) لأنه أول رسالة بخط المترجمة^(٢) ولأنه أول وثيقة تلقى الضوء على نشأة مصطفى كامل الوطنية، فالكتاب مؤرخ في ١٢ يولييه سنة ١٨٩١، وهو يصف اتجاه المترجم إلى الانتظام في سلك مدرسة الحقوق «لأنها مدرسة الكتابة والخطابة ومعرفة حقوق الأفراد والأمم»، وهذا الاتجاه ليس وليد اليوم الذي كتب فيه الخطاب، بل هو وصف لشعور نفساني خالج المترجم منذ كان طالباً بالمدرسة الثانوية،

(١) نشرت صورته لأول مرة في كتاب (سيرة مصطفى كامل في أربعة وثلاثين ربيعاً لعل فهمي كامل بك).

لذلك يمكننا أن نحدد مبدأ نشأة الفقيد الوطنية بسنة ١٨٩٠، وهو أصح السنين لتأريخ ظهور تلك العبقرية الوطنية التي سطع نورها في أرجاء وادى النيل وبعثت النهضة القومية من مرقدتها.

ويبدو من هذا الخطاب ضوء آخر تجتلى به أخلاق الفقيد التي لها صلة وثيقة بوطنيته، فمن خلال سطورهِ وكلماتهِ تلمع معاني العزيمة الماضية، التي كانت من أخص صفاته، فهو قد أجهَد نفسه لينال شهادة الدراسة الثانوية حتى أصبح جسمه نحيلًا «لاصحيحاً ولاعليلاً»، وهذا يدلُّ مع مبلغ قوة إرادته، وتبدو صورة نفسه المتوثبة إلى عظام الأمور من اعتزازه تأسيس جمعية لإحياء الوطن وهو منك القوى من الجهد الذي بذله في الدرس والامتحان، فهذا الجهد الذي كان في حاجة إلى الراحة بعد العناء لم يصرف الفقيد عن متابعة الجهد والعمل لإحياء الوطن.

العصر الذي ظهر فيه مصطفى كامل

لا تكمل دراسة شخصية المترجم دون أن ندرس العصر الذي ظهر فيه، لكي نتبين مبلغ تأثير العصر في شخصيته، وتأثير شخصيته في عصره.

قلنا إن ظهور مصطفى كامل في ميدان الجهاد الوطنى قد بدأ سنة ١٨٩٠، فلنقف قليلاً لكي نصف حالة مصر السياسية في ذلك العصر.

مضى على الاحتلال البريطانى نحو تسع سنوات كانت سنوات يأس وقنوط واستسلام من جانب الأمة، كما كانت عهد طغيان وجبروت من جانب الاحتلال البريطانى.

فالثورة العرابية بما انتهت إليه من الإخفاق والهزيمة سنة ١٨٨٢ قد أثرت في حالة الأمة المعنوية تأثيراً سيئاً، لأن إخفاق الثورات في ذاته يبعث اليأس في النفوس، هذا إلى أن الخاتمة التي انتهت بها الثورة وما أفضت إليه من الاحتلال هي مظهر بارز لخيبة الأمل في الثورات، إذ أن الثورة التي قامت في الأصل لإنالة البلاد حريتها السياسية قد انتهت بالعكس بفقدان هذه الحرية، ثم بفقدان الاستقلال الذي كانت تتمتع به من قبل، فقلما يوجد من الثورات ما انتهت بخيبة الأمل مثلما انتهت به الثورة العرابية.

أضف إلى ذلك ما بدا من زعماء الثورة العرابية من ضعف وتسليم في ميدان الجهاد، وخضوع ومذلة بعد الهزيمة، وفي أثناء المحاكمة، وتنصلهم من تبعات الثورة التي اقتادوا زمامها، والتنجاء معظمهم إلى الإنجليز يستجدون منهم الصفر والمعونة، وما انتهى إليه أمرهم من النفي والنسيان، كل ذلك قد أدى إلى تسرب اليأس في النفوس، فنهاية الثورة العرابية كانت من أسباب انحلال المقاومة الأهلية في أوائل عهد الاحتلال البريطاني، فإن روح الخضوع والاستسلام قد تسربت من نفوس الزعماء إلى صفوف الأمة، فركنت إلى الإذعان، وظلت هذه الروح غالبية على الأمة سنوات عديدة. إذ ليس من السهل أن تتخلص الأمم من أمثال هذه الحالة المعنوية، بل قد تمر عليها أجيال ثم أجيال وهي تراها حالة عادية لا غضاظة منها ولا غرابة فيها، حتى يظهر فيها الزعماء المخلصون، ينفضون عنها غبار اليأس والذل، ويبعثون فيها روح الحياة والكرامة، فلا تتغير نفسية الأمة إلا بتأثير عوامل وشخصيات قوية تبعث فيها دما جديداً قويا، من أجل ذلك قلنا في كتابنا عن (الثورة العرابية) إن هزيمة الثورة العرابية لم تقتصر نتائجها على احتلال الإنجليز أرض مصر دون أية مقاومة تذكر، بل كان من آثارها سريان روح الخضوع واليأس في نفوس المصريين، ومن هنا جاء الانحلال الوطني العام الذي أصاب البلاد عقب إخماد الثورة العرابية وبقي مخيها عليها نحو عشر سنوات، ولا غرابة في ذلك فإن البلاد التي تشهد خيبة الأمل في ثورتها القومية، مثلما رأته مصر من الثورة العرابية، تبقى تحت تأثير اليأس والقنوط إلى أن يقبض لها الله زعامة جديدة، تسلك بها سبيل الجهاد من جديد، وهذا هو فضل مصطفى كامل في جهاده، فلقد ظهر في وقت كان اليأس مستحوذاً على النفوس، فبعث في الأمة روحاً جديدة، فهو بحق موجد الحركة الوطنية ومنشئها، لا يمثلها ونائبها، وفرق بين الزعيم الذي يخلق حركة من العدم، ويستبدل من اليأس أملاً، ومن الجمود حياة وجهاداً، وبين الزعيم الذي تدفعه الحركة الوطنية وتخلقها خلقاً جديداً، ولا يكون له من العمل إلا أن يمثلها أو يستغلها.

لم يكن إخفاق الثورة العرابية هو العامل الوحيد لسريان روح اليأس والاستسلام، بل اجتمعت إليه تلك الحوادث التي تعاقبت على البلاد في السنوات العشر الأولى من الاحتلال، فكانت أيضاً من بواعث القنوط وانقطاع الأمل.

في هذه السنوات شهدت البلاد التواء السياسة الإنجليزية، ونقضها مواعيدها في

الجلاء، شهدت جمود الدول الأوروبية إزاء المسألة المصرية، وتركها انجلترا تعبت ما تشاء باستقلال مصر وحقوقها، شهدت تهدم صرح الإمبراطورية المصرية الواسعة الأرجاء التي أسستها في السودان، ورأت الكوارث والهزائم تصيب جيشها في أصقاعه، وعواصمه ومديرياته تسقط واحدة بعد أخرى في أيدي الثوار، شهدت خضوع الحكومة المصرية لأوامر القنصل البريطاني العام، شهدت إلغاء الجيش المصري، وتأليف جيش جديد هزيل، قائده وكبار ضباطه من البريطانيين، شهدت النفوذ البريطاني يتغلغل في شئون الحكومة كافة، من سياسية وحربية ومالية وتشريعية وإدارية، شهدت إلغاء الدستور الذي نالته سنة ١٨٨٢ وتأليف هيئة شورى لا حول لها ولا قوة، شهدت نوعاً من الحماية مضروبا على مصر، دون أن تعرف له أساساً ولا حدوداً، ولا قواعد ولا وقتاً محدوداً، ثم شهدت فوق ذلك استسلام رجالات مصر لإرادة العميد البريطاني، وتقرب أكثرهم إليه، والتماسهم الزلفى لديه.

كان الخديو توفيق باشا يتولى مسند الخديوية، مدعناً للسيطرة البريطانية، لا يرد للعميد الإنجليزي (اللورد كرومر) طلباً، وقد أضفى على الأداة الحكومية روح الاستسلام لإرادة الإنجليز، واللورد كرومر هو صاحب الأمر والنهي في شئون الحكومة، يتدخل في كل وزارة بواسطة الموظفين الانجليز الذين كانوا على رأس المصالح المهمة، فالسردار والضباط البريطانيون على رأس الجيش، والبوليس تحت إمرة المفتش البريطاني العام، والمالية في يد المستشار المالي، والأشغال في يد وكيل الوزارة البريطاني، والحقانية منذ ١٨٩١ في يد المستشار القضائي، وكان يتولى الوزارة في ذلك الحين (سنة ١٨٩٠) رياض باشا، وفي عهده استمر النفوذ البريطاني يتغلغل في دوائر الحكومة، ثم استقال في مايو سنة ١٨٩١؛ وخلفه في رئاسة الوزارة مصطفى فهمي باشا، وهو أكثر الوزراء خضوعاً للاحتلال الإنجليزي واستسلاماً له، وليس في البلاد هيئة نيابية تمثل سلطة الأمة، بل كان بها ذلك المجلس المعروف بمجلس شورى القوانين، ولم يكن يسمع له صوت في الشئون العامة، والصحافة إما موالية للحكومة، أو ضعيفة فاترة بإزاء السيطرة البريطانية، وجمهرة الأمة تحت تأثير هزيمة الثورة العرابية وخضوع الحكومة للسياسة الإنجليزية، منصرفة عن الكفاح والجهاد.

وكان الرجال البارزون في مصر إمامتزون في دواوين الحكومة، متربعين في المناصب،

وبعضهم أعوان القاصب، وإما منصرفين لأعمالهم الخاصة في المحاماة أو الطب والزراعة والتجارة والذين أدركوا منهم الثورة العرابية أو كانوا من رجالها قد انصرفوا عنها، وحل اليأس في نفوسهم، والذين لم يشتركوا فيها كانوا متأثرين بالروح العامة التي خيمت على البلاد، روح الخضوع والاستسلام، ويكفيك لكي تتمثل صورة من الروح العامة للطبقة الممتازة من المجتمع أن تذكر أن المغفور له سعد باشا زغلول (الذي تولى قيادة الحركة الوطنية سنة ١٩١٩) كان وقتئذ المحامي النابه (سعد أفندي زغلول)، ومع أنه كان منصرفاً للمحاماة ولم يضطلع بعد بأعباء الجهاد القومي، فإنه أثر المنصب الحكومي على الحياة الحرة، فعين سنة ١٨٩٢ قاضياً (مستشاراً) بمحكمة الاستئناف، وأقر لزملائه المحامين في حفلة تكريمهم إياه أنه اختار القضاء «ليستريح بعد العناء»^(٣) ففي الوقت الذي ضرب فيه اليأس رواقه على الطبقة الممتازة من المجتمع خاصة وعلى الأمة عامة، بدأ مصطفى كامل حياة العناء والجهاد في سبيل مصر واستقلالها، من هذه الناحية تستطيع أن تقدر فضل المترجم، إذ أنشأ الحركة الوطنية في عصر تغلبت فيه عوامل اليأس والجمود، وتظاهرت أسباب الضعف والخذلان.

والآن يجدر بنا أن نتساءل من أين جاءت مصطفى كامل هذه الروح الوطنية في عصر اكتنفته عوامل اليأس والقنوط، وكيف نهض وحده وهو في هذه السن المبكرة، إذ كان لا يتجاوز السادسة عشرة من عمره؟

لم يقل أحد إن أباه (على ما كان عليه من الفضائل) هو الذي غرس في نفسه عقيدة الوطنية. لأن (على أفندي محمد) لم يكن فذاً في الآباء، بل كان كغيره من خيار الرجال الذين لم يكونوا يعنون بتنشئة أبنائهم النشأة الوطنية، ولم يكن في المدارس كذلك دروس في الوطنية يتلقاها تلاميذها، كما أن العصر الذي ظهر فيه مصطفى لم يكن مستعداً لأن تكتسب فيه الوطنية بطريق القدوة، وإذا قلنا إن أخلاق مصطفى كامل هي التي أوجت إليه العقيدة الوطنية، فإن كثيراً من الشبان والتلاميذ كانوا على مثل أخلاقه الفاضلة، ومع ذلك لم ينشأوا على غرارها في العقيدة الوطنية، وإذا أردنا أن نعلل هذه النشأة بأنها كانت نتيجة ما كانت مصر تعانيه من احتلال يعيث باستقلالها ويتغلغل في شئونها، وأن مصائب الوطن كانت كافية لتحريك نزعة الوطنية في نفوس المصريين، فإن هذه المصائب لم تحرك

(٣) المؤيد عدد ٢٩ يونيه سنة ١٨٩٢.

فى نفوس الناس ما حركت من نفس مصطفى، بل إن المصائب كان لها تأثير عكسى ذلك العصر، إذ بعثت اليأس فى النفوس، وجنحت بالأمة للاستسلام، هذا أن فريقاً من المصريين كانوا يستفيدون من مصائب الوطن، ويعدها قوم من الفوائد والحسنات

ففى الحق إنه لا تعليل لهذه النشأة إلا أنها قبس من نور العبقرية، فالعبقرية مصدر هذه النشأة، وقوامها قوة الإرادة والإيمان، ولا غرو فهذه القوة تذلل الصعاب وتأتى بالمعجزات، وهذا هو سر العبقرية، لا تجد له تعليلًا دقيقاً، فإذا عللته بتأثير البيئة الوراثية كما يقولون اعترضك فى هذا أن العبقري قد ينشأ وغيره من الناس فى بيـ واحدة، ومن أب واحد، وأم واحدة، ومع ذلك ينفرد بالنبوغ دون أقرانه وإخوانه، فنش مصطفى كامل الوطنية، ثم حياته الوطنية، هى قبس من عبقريته، وقد اتجهت هـ العبقرية إلى إحياء الوطن وبعث الحركة القومية من مرقدتها، ومن مداد هذه العبقرية خـ التاريخ دوراً عظيماً من أدوارها، ولقد كان مصطفى منشئ هذا الدور، إذ نفخ فى الأمة روحه، فى وقت كانت الملابس والظروف تجعل الدعوة الوطنية من أشق المهام وأبعد، عن النجاح، وكانت موضع الزاوية والاستخفاف من سواد الأمة، بل من الطبقة الممتا، فى المجتمع، وهذا ولا ريب مما يظهر فضل مصطفى كامل فى بعثه الحركة الوطنية

الفصل الثاني

المرحلة الأولى من الجهاد في المدرسة الثانوية وفي مدرسة الحقوق

قلنا إن نشأة الفقيه الوطنية بدأت سنة ١٨٩٠، وهو طالب في المدرسة الثانوية، وقد أسس أول ما أسس (جمعية الصليبية الأدبية)، وتعلقت نفسه من ذلك الحين بالخطابة والكتابة والأدب، فكان يقف في الجمعية خطيباً في مساء كل جمعة مرتجلاً ما تلى عليه البديهة، وكان يسترعى الأنظار ويملك الأسماع بجواهره الخطابية.

دخل مدرسة الحقوق الخديوية في أكتوبر سنة ١٨٩١، وهو في السابعة عشرة من عمره، وكان قلبه يتقد وطنية وإخلاصاً لمصر، فلم يستطع أن يصبر حتى ينال شهادة الليسانس لكي يبدأ الجهاد، بل بدأ جهاده وهو في مهد التعليم، في المدرسة الثانوية، ثم في مدرسة الحقوق.

وكان رفيقه وزميله في دراسة الحقوق فؤاد سليم (باشا)، وقد تلاقيا لأول مرة في المدرسة المذكورة، فتعارفت روحاهما، وأتلفا ائتلافاً قلبياً وروحياً، وقويت بينهما من ذلك الحين أواصر الصداقة، وتعرف الفقيه بواسطته إلى والده لطيف باشا سليم، فكان له خير مرشد ومشير، كما كان له حين عظم شأنه نعم العضد والنصير، كان الفقيه يسبق عصره في النضج وقوة الوجدان والشعور. كان وهو في مدرسة الحقوق يتعرف إلى الرجال البارزين في ذلك العصر، ويتصل بهم ويناقشهم، ويتبادل وإياهم الآراء والأفكار، نذكر منهم الشيخ على الليثي الشاعر والأديب الكبير، ولطيف باشا سليم، وإسماعيل باشا صبرى الشاعر المشهور، وعلى بك فخري، وأمين باشا فكري، ومحمود بك سالم، وإسماعيل بك شيمي وآخرين من أعضاء مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية.

وقد حدث يوماً وهو في مدرسة الحقوق أن جرت بينه وبين صديقه فؤاد سليم مناقشة حادة أصدرت المدرسة على أثرها أمراً بحرمانها دخولها أسبوعاً فاستاء كلاهما من هذا

القرار، ولم يرد فؤاد بك أن يعود إلى المدرسة بعد انتهاء الأسبوع، بل التحق بمدرسة الحقوق الفرنسية التي تأسست في ذلك العهد، أما مصطفى فعاد إلى مدرسته واستمر فيها حتى انتهاء السنة الأولى.

انتقل المترجم من السنة الأولى إلى السنة الثانية بنجاح، وفي صيف ذلك العام (١٨٩٢) قصد إلى مدينة الإسكندرية لتبديل الهواء، فاجتمع هناك بصاحب الأهرام بشاره باشا تقلا، وكان واسطة التعارف بينها صديقه الحميم الشاعر خليل بك مطران، فأعجب به وأجله وأفسح جريدته ينشر فيها ما يبعث إليه من الرسائل الوطنية.

وفي شهر أكتوبر سنة ١٨٩٢ رغب إليه صديقه فؤاد بك سليم أن يتم دراسته في مدرسة الحقوق الفرنسية، ليكونا بها معاً، فمالت نفسه إلى العمل بهذا الرأي لسببين، أحدهما أنه يجد في هذه المدرسة الحرية التي تصبو إليها نفسه، فلا يتقيد بالنظم المنبذة في مدرسة الحقوق الخديوية، والثاني أن يستزيد من دراسة اللغة الفرنسية، فيجيد الكتابة والخطابة بها ويدافع عن قضية الوطن أمام الرأي العام الأوروبي، وقد جمع وقتاً ما بين المدرستين، فكان يقضى سحابة النهار في المدرسة الأميرية، والمساء في المدرسة الفرنسية، إذ كانت الدراسة فيها تبدأ قبل الغروب، ويبدو لك من جمعه بين المدرستين ما فطر عليه من الإباء وعلو النفس والتعلق بالحرية، بله الجذ والمثابرة على الدرس، فقد أراد أن يكون المجال فسيحاً أمامه لينصرف من إحداها إلى الأخرى إذ ماضيق على ضميره نظام أو إنسان، وفي تلك السنة المكتيبة ١٨٩٢ - ١٨٩٣ أكثر من الكتابة في جريدتي الأهرام والمؤيد.

وكان وهو يخاطب بين إخوانه الطلبة يثير حماسهم الوطنية لمقاومة الاحتلال، فأكبروا فيه وطنيته ومواهبه الخطابية، واجتمعت قلوبهم على محبته والإعجاب به

وفي نوفمبر سنة ١٨٩٢ زار الخديو عباس الثاني مدرسة الحقوق الأميرية، فكان التلميذ «مصطفى كامل» من الطلبة النجباء الذين رحبوا به وألقى بين يديه قصيدة مطلعها:

بشرى الحقوق بسيد الأمراء كنز العلا عباس ذو النعماء
بشراك يادار العدالة والهدى بليك مصر وأوحد العظماء

وفي يناير سنة ١٨٩٣ لمناسبة أزمة إقالة الوزارة الفهمية^(١) قامت مظاهرة وطنية من طلاب المدارس العالية وفي مقدمتهم طلبة الحقوق لتأييد الخديو في خلافه مع اللورد كرومر، وكان الفقيه في طليعة هذه المظاهرة.

وفي أوائل تلك السنة ألف رسالة (أعجب ما كان في الرق عند الرومان)، وهذه الرسالة على صغر حجمها أوضحت حقيقة الاستعباد الروماني المنافي لأحكام الرق في الشريعة الإسلامية.

إنشاء مجلة المدرسة

وفي تلك السنة أيضاً أنشأ مجلة أسماها (المدرسة)، صدر العدد الأول منها يوم السبت ١٨ فبراير سنة ١٨٩٣ - غرة شعبان سنة ١٣١٠؛ وهي مجلة وطنية أدبية تهذيبية علمية تصدر في غرة كل شهر عربي، وجعل شعارها المطبوع في صدر كل عدد (حبك مدرستك حبك أهلك ووطنك).

كان المترجم مدير المجلة ومحررها، وتطوع بعض الكتاب المجيدين لكتابة المقالات والرسائل فيها، وقد رحب بها السيد عبد الله نديم (خطيب الثورة العربية)، وكان قد ظهر بعد اختفائه وأصدر مجلته (الأستاذ) فنوه فيها بظهور مجلة الفقيه^(٢).

وتبدو في مجلة (المدرسة) روحه الوطنية، فالروح التي أملت عليه إصدارها وهو بعد في التاسعة عشرة من عمره هي ذات الروح التي أوحى إليه إصدار (اللواء) حين بلغ السادسة والعشرين، فالينبوع واحد، وهو ينبوع الوطنية الفياض.

إن ظهور مجلة (المدرسة) يعطيك فكرة عن شخصية المترجم، فهي أول مجلة مدرسية أصدرها طالب مصري، وفي إقدامه على إصدارها وهو بعد في التاسعة عشرة من عمره ما يدل على عظيم همته ومضاء عزيمته، وقوة وطنيته، فليس من السهل على طالب في مثل سنه أن يصدر مجلة يتولى تحريرها وإدارتها والإنفاق على تكاليفها، بل هو عمل قد تنوء به الجماعة من الرجال، ولكن عبقرية المترجم كانت تذلل الصعاب، ويدل إصدارها

(١) راجع تفصيل هذه الأزمة في الفصل السادس عشر.

(٢) مجلة (الأستاذ) للسيد عبد الله نديم عدد ٢٨ فبراير سنة ١٨٩٣.

كذلك على ميله للصحافة منذ نشأته الوطنية، لا غرو فالصحافة كانت أداة كبرى للجهاد وكفاحه. ويكشف أيضاً هذا العمل عن قوة وطنيته المغروسة في فؤاده، فهو يقتطع من وقته لإصدار مجلة يبت فيها بين الشباب روح الوطنية والتهذيب.

كتب إلى أخيه على بك فهمى كامل في ١٩ فبراير سنة ١٨٩٣ كتاباً يقول فيه: «أبعث إليك في هذا البريد بمجلة المدرسة التي أنشأتها لخدمة الناشئين لا للربح والشهرة». وهذا الكتاب يدل على الفكرة التي صدرت عنها المجلة، فهو لا يقصد منها الربح والمنفعة، بل يرمى إلى أداء الواجب الوطنى نحو بلاده.

وكان عدا إصداره مجلة المدرسة ينشر بين حين وآخر المقالات في جريدتى الأهرام والمؤيد.

اتصاله بعبد الله نديم

عاد السيد عبد الله نديم إلى مصر من منفاه سنة ١٨٩٢، فاتصل به الفقيد، وعرف من أحاديثه أسرار الثورة العراقية، إذ كان النديم خطيبها وأحد كبار زعمائها^(٣)، عرف منه حوادث الثورة على حقيقتها، وأدرك أسباب إخفاقها وهزيمتها، وإذا كان يعد نفسه لزعامة الحركة الاستقلالية، فإن أحاديث عبد الله نديم قد أفادته كثيراً في تعرف مواطن الخطأ وأسباب الأخفاق في الثورة العراقية، فتجنبها في جهاده، كما عرف شيئاً كثيراً من دسائس السياسة الإنجليزية، تلك الدسائس التي كان لها دخل كبير في إخفاق الثورة ووقوع الاحتلال، وإنك لتلمح في حياة مصطفى كامل الوطنية والسياسية مبلغ تجنبه أخطاء العراقيين، فهو لم يفكر في اتخاذ الجيش أداة للحركة السياسية، بل كان يعتمد على قوة رأى العام وتربية الشعب التربوية الوطنية والأخلاقية الكفيلة بتوطيد دعائم الحرية والديمقراطية، وإذا علم أن اصطدام العراقيين بالخدو توفيق باشا قد مكن للدسائس الإنجليزية من أن توقع الفرقة والانقسام في مصر، فإنه تأى عن هذه السياسة، وسلك بالحركة الوطنية سبيل التفاهم مع عباس الثانى، وتفادى الاصطدام به برغم ما شجر بينهما

(٣) ترجمنا له في كتابنا (الثورة العراقية) ص ٥٣١ طبعة سابقة.

من خلاف كما سيجيء بيانه، وكان ينقم من عرابى استسلامه للإنجليز، وأدرك مبلغ تأثير هذا الاستسلام فى حالة الأمة المعنوية، فرسم لنفسه خطة المقاومة المستمرة للاحتلال، مقاومة لا ضعف فيها ولا هواده ولا تراجع، وهكذا كانت أخطاء الثورة العرابية درساً لباعث الحركة الوطنية، جنبه مواضع الخيبة والإخفاق فى الجهاد، والزعامة الحققة هى التى تستفيد من تجارب الماضى، وتعتبر بمصائب الوطن، فتقيه مواطن الزلل، وتسلك بالأمة سبيل الحكمة والرشاد.

سفره إلى باريس لأداء إمتحان الحقوق

سافر الفقيد لأول مرة إلى أوروبا يوم الجمعة ٢٣ يونيه سنة ١٨٩٣ لىؤدى إمتحان السنة الأولى بكلية الحقوق بباريس، فأداه بنجاح^(٤)، وقد كانت هذه الرحلة فرصة سنحت له ليستزيد من معارفة ويكتسب من مشاهداته فى بلاد الحضارة والوطنية، وكان أثناء مقامة بباريس مثال الجد والاستقامة، منصرفاً عن اللهو واللعب، ولم يكن همه بعد أن يفرغ من دراسته كل يوم إلا أن يزور المكاتب والمعاهد، أو يجادث ذوى الرأى فيها يتعلق بشئون مصر وما يجيش به صدره نحوها من العواطف والآمال، وكان فى خلال رحلاته هذه لا يفتأ يذكر مصر ومجدها، كتب إلى أخيه على بك فهمى كامل خطاباً من باريس فى ٢٩ يوليه سنة ١٨٩٣ يقول فيه:

«لقد تعرفت هنا بطلاب روسيين وبولونيين ويابانيين فرأيتهم جميعاً منكبين على العلم، ولكنى أؤكد لك أن المصرى أقواهم عارضة وأعلاهم ذكاء ولا ينقصه إلا الإرادة التى هى أس النجاح».

ولقد أفاد المترجم كثيراً من ذهابه إلى أوروبا عامة وفرنسا خاصة، فإن هذه السياحة التعليمية، قد فتقت ذهنه وعلمته من شئون الأمم والجماعات مالم يكن يعلم، وعرف فيها أوساطاً لم يكن يعرفها، واتصل بشخصيات لم يكن ليتصل بها لو بقى فى مصر، وكانت هذه الرحلة باكورة سياحاته فى أوروبا التى رفعت شأنه فى ميدان الجهاد القومى وجعلت

(٤) ذكرت جريدة المزيد نجاحه فى عدد ٣٠ يوليه سنة ١٨٩٣.

اسمه عالمياً، وخدم بها القضية المصرية أعظم الخدمات، إذ نقلها إلى أذهان وهيئات كانت مجهولة فيها، ولا شك أن اتصاله بالأساسة والصحفيين الفرنسيين قد أفاده كثيراً من الوجهة العلمية والمعنوية، فإن وطنية الشعب الفرنسي هي بلا مرأى قدوة للشعوب التي تريد أن تحيا حياة الحرية والكرامة.

عاد من أوروبا في أغسطس سنة ١٨٩٣ وإلى دراسة الحقوق وإصدار مجلة (المدرسة) وقد زادت أواصر الود بينه وبين لطيف باشا سليم (والد فؤاد بك سليم) إذ كان يرى تأليف هيئة تضم صفوف المعارضة، فانضم إلى هذه الهيئة، وكانت تضم الصحفي والخطيب والقاضى والضابط، وكلهم من خيار الرجال.

رواية فتح (الأندلس)

وفي ديسمبر سنة ١٨٩٣ أخرج رواية (فتح الأندلس) ضمنها حوادث فتح العرب للأندلس^(٥) وأظهر فيها فضل الصديق والأمانة والثبات وقوة العزم والإرادة، وهى الصفات التى كانت أكبر عضد للفتح العربى، وقصد إلى تربية الأمة على الفضائل الوطنية.

امتحان السنة الثانية

ثم قصد إلى فرنسا فى صيف سنة ١٨٩٤ وأدى بنجاح امتحان السنة الثانية، وزار باريس وبروكسل، ثم أخذ بعد نجاحه يرأسل الأهرام، فنشر بها ست مقالات عن معارض ليون وأنفرس، وعاد إلى مصر فى سبتمبر، واعتزم أن يؤدى امتحان السنة الثالثة حيث ينال الليسانس فى نوفمبر من تلك السنة.

(٥) المؤيد عدد ١٨ ديسمبر سنة ١٨٩٣.



مصطفى كامل
في التاسعة عشرة من عمره

حصوله على شهادة الحقوق (نوفمبر سنة ١٨٩٤)

وعلى ما في هذا العزم من الإجهاد، فإن قوة إرادته كفلت له تحقيق أمنيته، فسافر إلى باريس في أكتوبر سنة ١٨٩٤، ووجد صعوبة في أداء الامتحان النهائي في كلية باريس، إذ لا يتفق ونظامها أن يؤدي الطالب امتحانين في سنة واحدة، فاستعان بأستاذه في مدرسة الحقوق الفرنسية، وهما المسيو ديروزاس ناظر المدرسة، والمسيو مولر أستاذ الاقتصاد السياسي بها، فنصحاه بأن يعدل عما اعتزمه إشفافاً على صحته، ولكنه أصر على عزيمة، ولما لم تقبل مدرسة باريس أداء امتحانين في سنة واحدة ساعدها لدى كلية (تولوز) في أن يؤدي أمامها الامتحان النهائي، فقبل طلبه بوساطة ذينك الأستاذين، وانتقل المترجم إلى تولوز، وهناك أكب على الدرس لكي يتم علوم السنة الثالثة، ودخل الامتحان، فنجح فيه ونال شهادة ليسانس الحقوق في نوفمبر سنة ١٨٩٤ وله من العمر عشرون سنة.

الفصل الثالث

المرحلة الثانية من الجهاد بعد نيّله شهادة الحقوق

شعوره بواجبه نحو مصر

كان أول شعور للمترجم عقب نجاحه أن اتجه إلى استمرار الجهاد في سبيل الوطن، قال في كتاب له إلى أخيه على فهمي كامل بتاريخ ١٨ نوفمبر سنة ١٨٩٤:

«واليوم أحمّد الله كثيراً وأشكره شكراً جزيلاً على فك قيد أسرى والمن بإطلاقى في ميدان الحرية، فقد أصبحت حاملاً شهادة الحقوق، وعولت بمشيئة الله على الانتظام في سلك رجال المحاماة، لأدافع عن حقوق الأفراد، ولو أتيج لى الخير وبلغت ما أتمنى لكنت المدافع عن حقوق الأمة بأسرها أمام العالم أجمع، لأن مصر وهى جنة الدنيا لا تستحق أن يداس شرفها بالأقدام ونصبح فيها نحن أبناءها الأعزاء ممقوتين غرباء».

لم يفكر الفقيد في مستقبله حين نال إجازة الحقوق، بل فكر في واجبه نحو مصر. وهذا يدلّك على قوة وطنيته التى ملكت عليه مشاعره، فقد عزم على الانتظام في سلك المحاماة لأنها ميدان الحرية والدفاع عن الحقوق، ولأنها السبيل إلى الدفاع عن حقوق الوطن، ولم يفكر في الانتظام في سلك المناصب لأن لها قيوداً لا يستطيع معها أن يؤدى واجب الجهاد لمصر، ولأن الحكومة في ذلك العصر كانت خاضعة لسيطرة الاحتلال وهو لا يقبل هذا الخضوع، بل هو نائر على الاحتلال.

حديثه في جريدة (جازيت دى تولوز)

(نوفمبر سنة ١٨٩٤)

ويبدو لك مبلغ يقينه برسائلته وتلفه على نشرها أنه لم يكذب ينال شهادة الحقوق حتى كان له حديث في جريدة (جازيت دى تولوز) التي تصدر في تولوز حيث نال إجازة الحقوق قال فيه:

«أما السبب في تمضيقي سنتين في سنة واحدة فهو أني وعدت شخصاً أحترمه^(١) بذلك، ولأن إرادتي رغبت في هذا العمل حتى أخرج من قيد الطلب إلى ميدان العمل والدأب، ومتى عدت إلى مصر أنضم في الحال إلى صفوف المحامين لأنني ممن يزددون الحكومة المصرية الحاضرة ولا يرون التوظيف فيها أو الاستغلال بظلمها، وكيف لا يكون الأمر كذلك والموظف منفذ لإرادة من اغتصب أثمن وأقدس شيء لديكم وهو الدستور».

وقد علقت جريدة (جازيت دى تولوز) على هذا الحديث بقولها:

«هذا كلام مصطفى كامل المصرى الذى ألقاه بترو وتبصر، ولو أنه تحمس في الجزء الأخير حماسة تدل على قوة الوطنية عند المصريين وأنهم استفادوا كثيراً من الدروس التي تلقوها على أساتذة منا».

نشرت جريدة دى تولوز حديث الفقيد، وكان وقتئذ قد أتم العشرين من عمره، وظهر من حديثه أنه أعد نفسه للدفاع عن مصر أمام الرأي العام الأوروبي، وأنه سيوجه نصيباً من جهوده للدعاية لمصر في الخارج، لأن هذا النوع من الجهاد فضلاً عما له من الأثر البعيد في أوروبا وفي مصر، فإنه يرفع من شأن مصر أمام العالم الأوروبي. ولاغرو فقد كان الفقيد بوطنيته وكفائته خير من يمثل الأمة المصرية وترى بداية هذا الأثر فيما نشرته جريدة دى تولوز عنه وعن مصر يوم أن نشرت حديثه، إذ قالت:

«بين الذين نجحوا في كليتنا الحقوقية شاب مصرى هو مصطفى كامل، وهذا الشاب لم يكن من الذين قيدوا في الكلية من مبدأ دراسة الحقوق، بل هذه أول مرة له فيها، ومن

(١) يقصد أخاه حسين واصف باشا.

يعلم أنه أمضى في شهر يولييه الماضى امتحان السنة الثانية أمام كلية باريس بنجاح باهر، فإنه يدهش دهشاً كبيراً لهذا الذكاء النادر، ومع ذلك فلا يعجب قراؤنا، فإن تاريخ مصر يحوى الكثير من النظريات العلمية الكبيرة التى تدل على مبلغ تقدم العلوم والمعارف عند المصريين وسمو مداركهم من زمن بعيد، وهؤلاء مواطنونا الفرنسيون الذين عاشوا في مصر واختلطوا بأهلها وأبنائها بصفتهم أساتذة في مدارسها قد صنفوا التآليف الكثيرة في دفائن الذكاء المصرى، حتى رفعوه فوق كل ذكاء، والظاهر أن اعتدال الإقليم سبب من الأسباب التى أوجدت في المصريين هذا الذكاء النادر، فأمة كهذه الأمة لها شهرة تاريخية كبيرة، فضلاً عن ميل أبنائها إلى فرنسا ورغبتهم الأكيدة في الحصول على العلوم الحديثة من منابعها الفياضة لا بد أن تسترجع مجدها هؤلاء الأبناء الذين نعجب بهم كثيراً ونجلهم إجلالاً كبيراً، وليس في وسعنا بعد الذى شاهدناه من ذكاء «مصطفى كامل» إلا أن نهئى مصر به، ونرجو له النجاح التام في العمل الذى يريد به خدمة بلاده لأن الغيرة التى شاهدناها على مجيئه، والطلاقة التى تشير إلى مستقبله الباهر، والتي تدل بأوضح بيان على أنه من الذين وهبوا قوة الخطابة، لا بد أن ترفعه إلى مصاف مشاهير الرجال، ثم لا ينسى القارئ أنه يبدو على سيما مصطفى كامل الصفاء التام في القول والفعل، وأن قلبه لا يزال طاهراً كريماً، وفوق ذلك فإن آدابه الشرقية الجميلة وتحيات نظراته الساحرة قد هذبت علمه الغربى تهذيباً لم نره في حياتنا إلا قليلاً، وإن مدينة تولوز لتفخر بأن تسجل في عداد الذين تخرجوا من كلياتها شاباً كهذا الشاب نقى الفؤاد، متصفاً بكل ما يزن المرء من علم وأدب ورأى صائب».

جهاده بعد عودته إلى مصر

عاد الفقيد إلى مصر في ديسمبر سنة ١٨٩٤ معتمداً أن يهب حياته كلها للجهاد في سبيل مصر، ولئن قيد اسمه في جدول المحامين^(٢) فإنه لم يترافع في قضية لفرد قط، ولم يحترف المحاماة أمام المحاكم، بل شغلته رسالته القومية عنها، إذ انصرفت جهوده

(٢) جاء في «المؤيد» عدد ٣١ ديسمبر سنة ١٨٩٤ ما يأتى: «قررت لجنة انتخاب المحامين قبول حضرة الفاضل الأديب مصطفى أفندى كامل صاحب جريدة (المدرسة) والمنازل للشهادة النهائية في الحقوق محامياً أمام المحاكم الابتدائية وهو من نخبة الشبان الأذكياء النجباء».

للمحاماة عن القضية الوطنية، وقد كانت هذه نيته التي عقد عليها عزمه منذ حصوله على شهادة الحقوق، قال في هذا الصدد من كتاب له إلى محمود بك أبو النصر بتاريخ ٤ فبراير سنة ١٨٩٥، أى عقب حصوله على شهادة الحقوق ببضعة أشهر: «لعلك تسألنى عن أخبارى الخصوصية، فأقول إنى تقرررت من نحو شهر محاميا ولكن لم أترافع إلى الآن ولن أترافع، ولست أدرى أيققق الله لى آمالا تخالج فؤادى ليلا ونهاراً، أعتقد أنها إن تحققت أنقذت الوطن من الخطر وأعادته إلى منشأه الأول وأحسن، وسوف تعلمون كنه هذه الآمال»

دراسته المسألة المصرية

حدثنا على بك فهمى كامل شقيق الفقيد فى كتابه أنه لما استقبله فى الاسكندرية عند رجوعه وجد معه ضمن متاعه صندوقين كبيرين مملوءين بالكتب القديمة والحديثة فى تاريخ المسألة المصرية وسياسة الأمم، وفيهما مذكرات بعضها لكبار السياسيين وبعضها من مكتبة باريس وبعضها من وزارة الخارجية الفرنسية، وبعد أن استقر به المقام فى القاهرة وانتقل إلى منزل استأجرته العائلة خلف قسم المنشية (بعمارة خليل أغا) كان لا يفتأ يدرس الكتب والمذكرات التى أحضرها معه.

وقد أكب على هذه الدراسات، كأنه لا يزال فى دور الدراسة، ولا غرو فإنه قد أعد نفسه ليكون باعث الحركة الوطنية والمحامى عن القضية المصرية، فلا بد أن يدرس كل ما كتب عن هذه القضية، شأن المحامى النزىه الذى يعنى بدرس قضيته ليجيد الدفاع عنها، ولم يكن للفقيد سوى قضية واحدة شغلته طول حياته، بل قضت على زهرة شبابه، تلك هى قضية مصر الكبرى.

أكب الفقيد على هذه الكتب يدرسها ويستوعب ما بين دفتاتها بذكانه النادر وقوة عزمته، ووضع لنفسه برنامجا للعمل سار عليه، فكان يعمل يومياً ثمانى ساعات فى مكتبه، ذلك أنه يستيقظ فى الساعة السادسة صباحاً فيؤدى صلاة الصبح، ثم يتناول الفطور، ويقصد كوبرى قصر النيل للرياضة، ثم يعود فى الساعة ويأخذ فى المطالعة والعمل، فيستمر بين قراءة وكتابة وتدوين مذكرات إلى الظهر ثم يتناول الغذاء، وينام إلى الساعة

الناتلة، ثم يستأنف المطالعة حتى الساعة الخامسة، وبعدئذ يزور إخوانه وأصدقاءه، ويعود في الساعة مساء ليعاود القراءة مرة أخرى إلى الساعة التاسعة، ثم يتناول مع أفراد الأسرة طعام العشاء، ويقضى السهرة معهم ومع الزائرين حتى منتصف الليل، ثم يأوى إلى فراشه .

وقد نضج فكره من هذه الدراسات العميقة، فكانت عدة له في الكفاح، إلى جانب إخلاصه وقوة يقينه، ومواهبه الخطابية والصحافية.

الفصل الرابع

جهاده سنة ١٨٩٥

كانت سنة ١٨٩٥ من أهم سنى جهاد الفقيد في مرحلته الثانية، وعلى أنها أولى سنوات هذه المرحلة الكبيرة فإنها حفلت بأعمال جلية دلت على مبلغ إيمانه واضطلاعه بمهمته السامية.

حديثه مع الكولونل بارنج

بدأت أعماله في تلك السنة بنشر حديث له مع شقيق اللورد كرومر، وهو الكولونيل بارنج على ظهر الباخرة التي أقلته عند عودته إلى مصر، إذ التقى به وانتهاز فرصة مقابلته إياه ليرفع صوته بالدفاع عن استقلال مصر، ونشر هذا الحديث بعد عودته إلى مصر^(١)، وخلاصته أن الكولونل بارنج يرى ضرورة بقاء الاحتلال، وأن الفقيد يرى ضرورة الجلاء، وإنه حق لمصر وواجب على انجلترا، وفاقا لعهودها واحتراما لمواثيقها، وقد سأله الكولونيل بارنج خلال الحديث من المصريين من الأنصار أو السفراء في أوروبا يعتمدون عليهم في قرب تحقيق الجلاء؟ فقال الفقيد:

«لنا أوروبا بأسرها التي تناديها صوالها العديدة بأن تنصرنا -صرة تلك الصوالح التي سعيتم من يوم احتلالكم البلاد في تقويض أركانها، على انها إن لم تنصرنا فإن لنا من حقنا واتحادنا بوصف أننا أمة عظيمة ذات حضارة قائمة مأثورة ما نبليج بهما إلى ما نصبو من حرية واستقلال».

وقد نشر هذا الحديث في الأهرام، فكان لنشره دوى كبير في المحافل الوطنية.

(١) الأهرام عدد ٢٨ يناير سنة ١٨٩٥.

نشر الدعوة الوطنية

وقد استمر الفقيد في دراسة الكتب التي وضعت في المسألة المصرية، وأخذ يرسل الأهرام والمؤيد وينشر فيها المقالات الوطنية، وكثر معارفه من المعجبين بذكائه ووطنيته، وأخذ يتصل بهم ويباحثهم في شئون مصر، ويحثهم على مقاومة الاحتلال، فأتسع نطاق المعارضة، وتعرف إلى كثير من الأشخاص البارزين في المجتمع من الكتاب والأدباء، وأعضاء مجلس شورى القوانين والأعيان، وكان يسافر كل أسبوع أو أسبوعين إلى الأقاليم تلبية لنداء مواطنيه ويبث دعايته بين الأعيان، فكان لجولاته هذه أثر كبير في ازدياد أنصاره

احتجازه على تأليف المحكمة المخصصة

وفي ٢٥ فبراير من تلك السنة استصدر اللورد كرومر من الحكومة المصرية مرسوماً بإنشاء (المحكمة المخصصة) لمحاكمة من يتهم من الأهالي بالتعدى على ضباط وجنود جيش الاحتلال بمصر، وهي المحكمة التي صار لها شأن كبير في حادثة دنشواي المشهورة كما سيجئ بيانه، وينص المرسوم على تأليفها برياسة وزير الحقانية، وعضوية المستشار القضائي (الإنجليزي)، وقاض إنجليزي من محكمة الاستئناف الأهلية، والقائم بأعمال المحاماة والقضاء في جيش الاحتلال البريطاني بالقاهرة أو الإسكندرية، أى أن الغالبية فيها للإنجليز وقد جعلوا لها نظاماً خاصاً، فلا تنقيد بأحكام قانون العقوبات.

كان إنشاء هذه المحكمة بمثابة انتقاص لسلطة القضاء المصري وتثبيت لأقدام الاحتلال فتقدم الفقيد جميع المصريين بالاحتجاج على تأليف هذه المحكمة الشاذة التي أنارت سخط الأمة، ونشر احتجاجه في جريدة الأهرام^(٢) تحت عنوان (صواعق الاحتلال).

(٢) عدد ٤ مارس سنة ١٨٩٥.

حضور النائب الفرنسى دلونكل

(مارس سنة ١٨٩٥)

وفى مارس من تلك السنة جاء مصر نائب شهير من أعضاء البرلمان الفرنسى وهو المسيو فرنسوا دلونكل، للاطلاع على حالة مصر السياسية، وكان الفقيد قد تعرف به بباريس فى صيف سنة ١٨٩٤، إذ كان يؤدى امتحان الحقوق، وعرف عنه معارضته للسياسة الإنجليزية، وبخاصة فى الشرق، وقرأ مقالاته فى الصحف الفرنسية ومناقشاته المهمة فى مجلس النواب الفرنسى عن المسألة المصرية، فعنى بإحاطته بكل صنوف الحفاوة ليكون فى حضوره والحفاوة به مظهرة قومية ضد الاحتلال الأجنبى، فسافر إلى الإسكندرية مساء الخميس ٢١ مارس سنة ١٨٩٥ لاستقباله، والتقى به على رصيف البحر فى صبيحة اليوم التالى، يصحبه كثير من الوطنيين، وقدم له ولقرينته جميع إخوانه المصريين، وكان للنائب القادم مكانة رفيعة فى نفوس الفرنسيين، فكان فى استقباله قنصل فرنسا فى الثغر مع موظفى القنصلية وكثير من النزلاء الفرنسيين، وقد رافقه الفقيد فى كل روحاته وغدواته بمصر، وكان يقدم له إخوانه ومعارفه من الوطنيين.

وقد أقيمت الحفلات والولائم للمسيو دلونكل، ومكث بمصر زهاء عشرين يوماً ألقى فى خلالها عدة خطب طعنا فى السياسة البريطانية، وأقام بالقاهرة وليمة بفندق (نيو أوتيل) قبيل رحيله إلى فرنسا دعا إليها لقيفاً من الصحفيين الوطنيين، ألقى فيها الفقيد خطبة بالفرنسية شكره فيها على دفاعه عن القضية المصرية وبارح النائب الفرنسى الإسكندرية قاصداً فرنسا يوم السبت ٢٣ أبريل سنة ١٨٩٥.

سفر المترجم إلى باريس

ودعايته للقضية المصرية فى أوروبا

(مايو سنة ١٨٩٥)

رأى مصطفى أن الدعاية للقضية المصرية فى الخارج من أمضى الأساحه فى مجاهدة الاحتلال، لأن المسألة المصرية كانت مجهولة للرأى العام الأوروبى، بل كانت الفكرة

الذائعة عن المصريين أنهم راضون عن الاحتلال، وأنهم أمة قانعة بالحكم الإنجليزي، ليست لها آمال ولا حقوق تطالب بها، فنشط إلى تعريف الرأي العام الأوروبي بحق مصر في الاستقلال، وبأن الأمة المصرية تكره الاحتلال، ولا ترضى به بحال، وأن بقاءه لا يضر بمصر فحسب، بل يضر بالمصالح الأوروبية عامة، وقد كان لدعايته أثر كبير في إحراج مركز الاحتلال، وإبراز عدم مشروعيته، كما كان لها صداها في مصر ذاتها، إذ كانت وسيلة لنشر الحركة الوطنية، لذلك كانت دعايته في أوروبا من أهم صفحات جهاده الوطني، وكانت في الوقت نفسه من دلائل عبقريته، لأن اتصال شاب في سنه بأقطاب السياسة في أوروبا من كتاب وسياسيين وأدباء وصحفيين، واستطاعته الدفاع عن القضية المصرية على صفحات الجرائد الأوروبية، كل ذلك ليس من المهام السهلة التي يضطلع بها كل من يريد، وإنما هو عمل شاق يتطلب استعداداً وكفايات متعددة وجهوداً هائلة، إذا اجتمعت في شخص واحد كان ذلك آية عبقريته، ولاغرو فهو أول مصرى أسمع العالم صوت مصر، وعرف الرأي العام الأوروبي من مقالاته وأحاديثه وخطبه أن على ضفاف النيل أمة تشكو الاحتلال وتطلب الحرية والاستقلال.

كان الفقيد أول من فكر في وجوب الدعاية لمصر في الخارج، وأول من أدى هذا الواجب الكبير، قال في هذا الصدد في كتاب له نشر بجريدة المؤيد^(٣).

«إن عقلاء الإنجليز شعروا بخطر احتلال مصر على دولتهم ولا ينقصهم غير معرفة إحساسات الأمة المصرية وحقيقة آلامها وآمالها وحقائق الأمور حتى يقيموا القيامة على حكومتهم ويسألوها الجلاء عن وادي النيل، فأجل عمل يأتيه المصريون اليوم هو نشر الحقائق في أوروبا بأكثر اللغات انتشاراً خصوصاً باللغتين الإنجليزية والفرنسية حتى يتيسر لنا خدمة الوطن العزيز الذي في خدمته خدمة الحق، وفي نصرته نصره الفضيلة والحقيقة والسعادة القومية».

سافر المترجم إلى فرنسا في مايو سنة ١٨٩٥، وقصد إلى باريس ليرفع فيها صوت الوطن، وهناك اتصل بكثير من رجال السياسة والصحفيين ليعاونوه في أداء رسالته، كتب في هذا الصدد إلى شقيقه على بك كتاباً من باريس قال فيه: «إني الآن أقضى ليلي ونهارى

في مخالطة كبار السياسيين لأنتفع منهم بخدمة مصر المحبوبة، والحمد لله قد تشرفت بمعرفة الكثيرين ورأيت من الجميع استعداداً لمعاونتنا وتحريك المسألة المصرية وطرحها على بساط المناقشة من جديد، وإني أجد من نفسى قوة في هذه الأيام ما وجدتتها في حياتى، كأن الله يريد أن يكون العامل لبلاده قويا حتى يقاوم هذه الحركة الهائلة، بيد أنى أشعر من جهة أخرى بأن البلاد فى حاجة لرءوس وألسنة وأقلام مصرية كثيرة حتى يقرب للبعيد بما تحدثه فى العالم من تأثير ولى الأمل أن ينتشر الشعور فى البلاد بسرعة، فإنه هو وحده رأس مال محررى الأمم والشعوب، وبدونه لا يستطيع خادم مهما كانت أمانته وقوته أن يصل إلى الغرض المرجو، ولذلك يجب على أغنياء البلاد الذين هم مدينون لمصر بمالديهم من ضياع شناسعة وأراض واسعة أن يؤسسوا المدارس العديدة على أساس من الدين القويم والتربية السليمة، وأن يقوم كبار العلماء بنشر الكتب المفيدة، ومهرة الكتاب بإنشاء الصحف الصادقة فى خدمة قطر هو أئمن وأعلى الأقطار».

وكانت مهمة مصطفى فى رحلته شاقة. لأن صغر سنة، وتقدمه أعلام مصر البارزين وقتئذ فى حمل علم الجهاد بأوروبا، جعل الكثيرين منهم يحيطون مهمته بالتشكيك فى نتيجهتها والتهوين من شأنها، كتب صديقه فؤاد بك سليم (باشا) يصف موقفه وقتئذ بقوله^(٤): «إنما الأعمال بالنيات، حياة طيبة أو موت شريف، هذه كانت إحساسات الشاب مصطفى كامل ودواعى سفره، بارح القطر المصرى فى أول شهر مايو الماضى (سنة ١٨٩٥) قاصداً أوروبا، نائباً عن أهله وأحبابه، مضحياً نفسه وكل ما تملك يده فى سبيل خدمة وطنه والمدافعة عن حقوق أمته، فإن كان صغر السن كل ما يؤخذ عليه، فليس ذلك ذنبه، وإن لم يكن من الطبقة الأولى فى مصاف الأمة فإنما نهضته تشرفه».

ندؤه إلى مجلس نواب فرنسا

(يونيه سنة ١٨٩٥)

ابتكر مصطفى طريقة للدعاية للقضية المصرية كانت أقوى أثراً من مئات المقالات يكتبها فى الصحف أو عشرات الخطب يلقيها فى المحافل، وكانت مادة لنشر المقالات

(٤) المؤيد عدد ٣١ يوليه سنة ١٨٩٥.

الجمعة عن المسألة المصرية، ذلك أنه وضع نداء إلى فرنسا في شكل صورة رمزية سياسية قدمها إلى مجلس نوابها تمثل مصر ترسفت في قيود الاحتلال وتستعصرخ فرنسا لتعاونها على تحريرها، كما عاونت أمريكا وإيطاليا واليونان وبلجيكا على نيل حريتها من قبل، وجعل في ذيلها ثلاثة أبيات كتبت بالعربية وكتبت أمامها ترجمتها بالفرنسية، ولم يكن الفقيد شاغراً يقرض النظم، ولكن وطنيته أهمته وضع هذه الأبيات التي تبدو عليها الفطرة وعدم التكلف وهي:

أفرنسا يامن رفعت البلايا عن شعوب تهزها ذكراك
انصرى مصر إن مصر بسوء واحفظى النيل من مهاوى الهلاك
وانشرى في الورى الحقائق حتى تجتلى الخير أمة تهواك

وضع مصطفى الصورة وطبع منها عدة آلاف من النسخ، وذهب هو وستة من إخوانه المصريين الذين كانوا مقيمين بباريس إلى سراى مجلس النواب يوم الأربعاء ٤ يونية سنة ١٨٩٥ لتقديم الصورة والكتاب المتصل بها، فقابلهم المسيو بريسون رئيس مجلس النواب، وتسلم منه الكتاب والصورة، وأبدى عطفه على الأمانى القومية المصرية، وأرسل مصطفى عقب المقابلة نسخا من الصورة وللكتاب إلى جميع صحف العالم، كما وزعها على جميع النواب والصحفيين والسياسيين في فرنسا، وأرسل الآلاف منها لتوزيعها في مصر، وهذا نص الكتاب:

حضرة الرئيس:

«إني بأشد انفعال يخالغ القلب تأثيره أشرف بأن أقدم لمجلس النواب الذى أنت له نعم الرئيس هذا اللوح لذى يمثل مصر طالبة من فرنسا أن تكون لها خير عضد يساعدها على استرجاع حربنها واستقلالها، وإن هذا اللوح ليمثل لدى مجلس النواب حالة أمة ناشئة غيور على حريتها المسلوبة بغير حق منذ ثلاثة عشر عاما، ولقد برهنت الأمة المصرية يا حضرة الرئيس مع ما يعتورها من المصائب الشديدة على سكينه وصبر عجيبين استمالت بها قلوب الأمم الأوروبية، ولكن لما اعتراها النصب جاءت مستغيثة بفرنسا. هذه الدولة العظيمة التى أعلنت حقوق الإنسان، والتى سارت به منذ قرن في سبيل التقدم والمدنية، جاءت الأمة المصرية تستغيث بهذه الأمة الكريمة التى حررت عدة من الأمم فهل تجاب إلى استغاثتها وتضرعها؟

«وهل لفرنسا أن تؤيد بهذا العمل الجليل مكانتها في العالم الإسلامي الواصل بها؟ على أن ذكر اسم مصر عندما تكون حرة مستقلة بجانب أسماء الأمم العديدة التي حررتها فرنسا ليس بالفخر القليل لها، فلتحى فرنسا محررة الأمم».

كان لهذا العمل دويّ هائل في أوروبا وفي مصر، لأنه نداء غير مألوف من أمه كان الظن الغالب أنها راضية بالاحتلال، وقد نوهت بذلك جميع الصحف الفرنسية وكثير من الصحف في أوروبا وأمريكا، فكان هذا النشر أكبر دعاية للقضية المصرية.



Appel au peuple du temple de la Liberté des nations

الصورة الرمزية التي قدمها مصطفى كامل
إلى مجلس نواب فرنسا - يونيو سنة ١٨٩٥

وأهمية هذا العمل أنه لفت أنظار العالم إلى المسألة المصرية، وفي الحق إن هذا النداء كان أول صوت للشعب المصرى دوى في أوروبا عقب الاحتلال مطالباً باستقلال مصر وحريتها، ولم يكن ممكناً أن يرتفع صوت مصر بأكثر ولا أقوى مما ارتفع وقتئذ بهذا النداء، وتناقل صدهاء في الصحف إلى جميع الآفاق، فلقد كان استصراخاً للإنسانية يشبه استصراخ بولونيا للعالم إبان محنتها القومية، وإن دعاية الفقيد للقضية المصرية في أوروبا بهذه الأهمية وهذا الإقدام، وهو بعد في الحادية والعشرين من عمره، لأكبر مظهر من مظاهر عبقريته، فإن العمل الذى اضطلع به وحده قد تنوء به الجماعات والأحزاب، وقد لفت هذا العمل أنظار المصريين إلى شجاعة هذا الشاب وعلو همته، ودهشوا الجرائد، إذ نهض لمقاومة الدولة المحتلة في وقت كان أغلب كبراء مصر وعظمائها خاضعين للقنصل البريطانى العام، فهذه الشجاعة التى بدت من مصطفى قد حبيته إلى نفوس المصريين وأخذ نداء الوطنية والاستقلال يلقى فيهم ملبياً وسميعاً.

حديثه في جريدة الجورنال

(يوليه سنة ١٨٩٥)

وقد نشرت له جريدة (الجورنال) الفرنسية وهى من أوسع الصحف انتشاراً حديثاً سياسياً عن مصر والمسألة المصرية كان له تأثير كبير في تبصير الرأى العام بمساوىء الاحتلال البريطانى، وعلقت عليه جريدة (الإكلير) الفرنسية بقولها:

«لا بد أن سيكون لمصطفى كامل المصرى دور مهم في المسألة المصرية لأن أسلوبه السياسى قائم على الصراحة والحق، فهو يذكر بشجاعة وجلاء تلك المظالم الواقعة على المصريين من جراء الاحتلال الانجليزى الذى كلما مرت عليه السنون تجسمت فيه صروف الاعتداء على حقوق الناس».



مصطفى كامل فى الحادية والعشرين من عمره

خطبته فى تولوز
أول خطبة سياسية له فى أوروبا
(يوليه سنة ١٨٩٥)

لم يكتف الفقيه بجهاذه بقلمه فى الصحف، بل عمد إلى الخطابة فى المحافل، فأقام اجتماعاً يوم ٤ يوليه سنة ١٨٩٥ بـدرج كلية الآداب فى تولوز^(٥) التى نال منها شهادة الحقوق، دعا إليه بعض أساتذة الحقوق وكبار الصحفيين والكتاب وذوى الرأى فيها، وألقى بالفرنسية خطبة مسهبة، هى أول خطبة سياسية لمصرى فى أوروبا ذكر فيها اعتداء الاحتلال على حقوق مصر واستقلالها، وأبان مبلغ نقض انجلترا لعهودها فى الجلاء،

(٥) بشارع ريموزا.

وتغلغلها في شئون مصر الداخلية في مختلف الوزارات، واستنجد بأوروبا وفرنسا لمعاونة مصر في استرداد استقلالها، وشكر المدعويين على عطفهم على القضية المصرية^(٦)، فأعربوا له عن عواطفهم نحوه ونحو مصر، قال رئيس تحرير جريدة (الدبيش) التي تصدر في تولوز في هذا الصدد:

«إني واثق كل الثقة بأن هذا المدافع عن حقوق مصر المسلوقة سيفرس لا محالة بعمله بذور الوطنية الصالحة حتى يقضى الشعب المصرى لبائته ويسمع يوما الحكم له على انجلترا، ولذلك أدعو زملائي أصحاب الصحف إلى تهنئة زميلنا الشاب الغيور منذ الآن». ولقد كان لهذه الخطبة أثر كبير في فرنسا لأنها جاءت صدى للوطنية الصادقة التي يحترمها الجميع في فرنسا.

في فيينا

(يوليه سنة ١٨٩٥)

لم يقتصر مصطفى على الدعاية للقضية المصرية في فرنسا، بل قصد النمسا ونزل بفيينا عاصمتها في يوليه سنة ١٨٩٥، واتصل بكبار الصحفيين والسياسيين، وأخذ ينادى بحق مصر في الاستقلال ويدافع عن كرامتها وحريتها.

كتبت جريدة (اكسترا بلاط) في عددها الصادر بتاريخ ٢٨ يوليه سنة ١٨٩٥ تقول:

«إن فيينا اليوم ضيفاً كريماً هو «مصطفى كامل» أحد كتاب مصر الفضلاء، وهو شاب حاد الفكر بعيد النظر اشتهر اسمه في وطنه وفي أوروبا أخيراً، وهو الآن يجوب القارة الأوروبية مطالباً باسم الوطنيين المصريين بتحرير بلاده من ربة الاحتلال الإنجليزي، ويدهى أن الأمة التي ينتسب إليها هذا الكاتب الشرقى قد استحققت بما أفادته من معاهد المدنية وبما لها من الذكاء الفطري النادر المثال أن تعد في مصاف الأمم المتقدمة فهي بذلك لا ترضى أن تكون تحت سيطرة حكومة أجنبية تعمل في مصر كل ما تريد»

(٦) نشر المؤيد خلاصتها - عدد ١٠ و ١٣ يوليه ١٨٩٥، وطبعت بالفرنسية في رسالة مستقلة في عشرين صفحة.

وكتب عنه مراسل جريدة (الستاندرد) الإنجليزية في فينيا ما يأتي « جاء مصطفى أفندي كامل وهو قانوني ومحرر جريدة إلى فينيا وأقام فيها عدة أيام، وقد جال في كثير من أنحاء أوروبا نائباً عن جمعية وطنية في مصر تسعى لتحرير بلادها من نير الإنجليز وبذل جهده في استمالة الدوائر الرسمية إلى آراء وأفكار هذه الجمعية الوطنية».

رسالته في أخطار الاحتلال البريطاني

عاد الفقيد إلى باريس في ٨ أغسطس سنة ١٨٩٥ ونشر رسالة بالفرنسية بتاريخ ١٤ أغسطس عن (أخطار الاحتلال البريطاني) أبان فيها خطر الاحتلال على حقوق مصر، ثم على المصالح الأوروبية عامة، وقد وجه فيها الخطاب إلى الرأي العام الأوروبي ليكسب تأييده للقضية المصرية^(٧)، وقد طبع هذه الرسالة وبعث بها إلى جميع رجال السياسة والصحف الشهيرة في أوروبا، فكان لها دوى كبير، وجاءه نحو مائة جواب من مشاهير السياسيين في فرنسا وغيرها يعلنون له فيها شكرهم وتهنئتهم.

أحرار في بلادنا، كرماء لضيوفنا

وفي هذه الرسالة قال كلمته الخالدة عن شعار مصر ومعاملتها لنزلائها الأجانب (أحرار في بلادنا، كرماء لضيوفنا).

والرسالة تتضمن شرحاً وافياً للمسألة المصرية، وتدل على واسع اطلاعه على تاريخها ودقائقها، كما تدل على نضجه الفكري وبعد نظره السياسي، وحسبك دليلاً على قيمتها ما كتبه عنها مدام جوليت آدم، فقد قدمها إليها عند ما تعرف بها، فنشرت عنها في جريدة (البتى مرسلية) الفرنسية بتاريخ ١٧ سبتمبر سنة ١٨٩٥ كلمة تناء قالت فيها: «إن هذا العنوان (أخطار الاحتلال البريطاني) علم على رسالة صغيرة الحجم لا يتجاوز عدد صفحاتها الاثني عشر صفحة، كتبها مصري وطني يحب بلاده حباً شديداً، وقد جاء ليدافع عنها إذ رآها فريسة أغراض الأجانب، وأودع هذه الرسالة كل ما ينتجه الفكر

(٧) نشر المؤيد تعريبها في عدد ٢٨ أغسطس ١٨٩٥.

السليم والتبصر القائم على أدلة وحجج تفهم الذين جعلوا العمى مذهباً لهم أو تنير ما أشكل عليهم، والعنوان الثانى لهذه الرسالة الصغيرة الحجم الكبيرة الأهمية هو (نتائج الاحتلال الإنجليزي لمصر)، وهو لا يلم بموضوع إلا وفاه حقه وزيادة، وقد قرأت منذ واقعة (الثل الكبير) ما كتب عن مصر فى انجلترا وفرنسا ومصر نفسها، فلم أرقط المسألة المصرية موضوعة أحسن من هذا الوضع ولا مستنتجة نتائجها أحسن من هذا الاستنتاج ولا مرتبة أجمل من هذا الترتيب ولا مبسطة بتعقل وتدبر مثلما بسطت فى هذه الرسالة».

تعرفه إلى مدام جوليت آدم

(سبتمبر سنة ١٨٩٥)

إن تعرف المترجم إلى مدام جوليت آدم هو حادث مهم فى حياته السياسية والقومية، فإن مدام آدم هى من أعظم شخصيات فرنسا فى عالم الوطنية والسياسية والأدب، وهى الكاتبة الكبيرة ذات الشهرة العظيمة والنفوذ الأدبى فى فرنسا، وكان مشاهير الرجال من نواحي الأرض يرحلون إليها ويجتمع بدارها العلماء والأدباء وكبار القوم وملوك الشعر والأدب والسياسة.

ولدت مدام آدم سنة ١٨٣٦، وتوفيت سنة ١٩٣٦، أى أنها عمرت مائة عام، وهى من أعظم من أنجبتهم فرنسا علماً وأدباً ووطنية ومكانة سامية، وظلت موضع احترام مواطنيها طول سنى حياتها، وقد وضعت سنة ١٩٢٢ كتاباً قيماً عن مصر أسمته (انجلترا فى مصر)، وهو من خير ما ألف فى المسألة المصرية

وقد سعى الفقيه سنة ١٨٩٥ إلى التعرف إليها، إذ أرسل إليها من تولوز أول كتاب له فى ١٢ سبتمبر سنة ١٨٩٥، ننشره هنا لأنه يصور لنا مقدار وطنيته ويصف مبلغ إيمانه برسائلته القومية الكبرى، فى أفصح عبارة وأبلغ بيان، قال:

«سيدتى

«إنى لا أزال صغيراً، ولكن لى آمالاً كباراً، فإنى أريد أن أوقظ فى مصر الهرمة مصر الفتاة، هم يقولون إن وطنى لا وجود له، وأنا أقول ياسيدتى إنه موجود وأشعر بوجوده بما آنس له فى نفسى من الحب الشديد الذى سوف يتغلب على كل حب سواه، وسأجود فى

سبيله بجميع قواى، وأفديه بشبابى، وأجعل حياتى وقفاً عليه.

«إنى أبلغ من العمر إحدى وعشرين سنة، وقد نلت إجازة الحقوق من تولوز قبل سنة، وأريد أن أكتب وأخطب وأنشر الحمية والإخلاص اللذين أشعر بهما فى سبيل الوطن العزيز، وقد قيل لى أكثر من مرة إنى أحاول محالا وحقيقة تصبو نفسى إلى هذا المحال، فأعينينى ياسيدتى، فإنك من الوطنية بكان يفردك بمزية تقدير قولى وتقوية عزمى وشد أزرى، وتقبلى تحية واحترام^(٨).

مصطفى كامل



مدام جوليت آدم

(٨) رسائل مصطفى كامل إلى مدام جوليت آدم ص ٧.

وأرسل لها ضمن كتابه رسالته عن (أخطار الاحتلال البريطاني على مصر)، فلبت مدام آدم نداءه، وكتبت إليه ترحب بدعوته، فجاء وقابلها، وما أن عرفته وأدركت سمو آماله في تحرير بلاده حتى ازدادت به إعجاباً، وتوثقت بينها من ذلك الحين أواصر الاتصال الروحي، إذ كان الفقيد يعدها أما روحية له، وقد عرفته بكبار السياسيين وأصحاب الصحف والمجلات في فرنسا، قالت تصف تعرفها به:

«أعجبني كثيراً هذه الرسالة (أخطار الاحتلال البريطاني) فأنشأت في الخامس عشر من شهر سبتمبر سنة ١٨٩٥ مقالة عنها، واقتبست منها أسانيد جديدة في المسألة المصرية، وقد سبق لي الخوض فيها كثيراً، وأثبتت على المؤلف في مقالتي، فورد إلى منه خطاب شكر جزيل، ومن ورائه خطاب آخر من باريس يسألني فيه أن أضرب موعداً للقائه، فسرعان ما أجبته إلى ذلك، وواعدته دار «لا نوفل ريفو»^(٩) (المجلة الحديثة)، فأقبل على شاب خلته ابن ثمانى عشرة سنة، فقلت له ضاحكة ما صدقتى سنك فإنك لم تبلغ الحادية والعشرين فقال: «قد بلغت يا سيدتى وأكملتها، وبعد أن تجاذبنا أطراف الحديث رأيت أن عقل هذا الشاب قد بلغ أشده ونضج قبل أوانه ورأيت قد أطال التدبر والتروى في إمكان مصيره، كما يقول خطيب مصر، ورأيت أغراضه الجسام بحالة وبمكنة معاً، فإنه مع انقطاع المعين له حقيقة وحكماً، لأنه غير معول إلا على شبان مثله لا مال لهم، كان يحدث نفسه بإنشاء جريدة ومدرسة ولا أدري بماذا كان يحدث نفسه أيضاً، وربما لاح لغيرى أن هذا الشاب إنما كل زاده أوهام وأحلام، ولكن جاء كتيبه دالا على أنه حقيقة، هذا ولشدة بغضى لانجلترا وحبى لمصر كنت أرتقب وأتوقع منذ سنين قومة قائم في وادى النيل، وكانت ثقتى دائماً بذوى القول السديد الذين يرسلهم الله في الوقت المناسب ليزرعوا الحب الصالح في النفوس التى ظلت زمنا طويلا بورا، لقد فقه مصطفى كامل وأدرك بواطن الأطماع والدسائس الإنجليزية، وكان يتكلم عنها كأنه سياسى مسن متعود البحث عن أسباب الأمور، كفاء لأن يحل ببطء ولكن بدون أن يخطيء العقد التى أحكمت عقدها مهارة عاقيدها، أو ليست مساعدة وطنى شاب على أن يجاهد ويؤدى مهمة عالية أحد الأغراض التى التزمت توخيها منذ أنشأت جريدتى (لانوفا ريفو)؟ فقلت لمصطفى كامل: «ضع يا ولدى مقالة في إحدى المسائل الخاصة بمصر وامض فيها

(٩) المجلة التى كانت تديرها مدام جوليت آدم.

واسترسل استرسالا بغير تقيد، فإنه لا يضرني منك ثورة الشباب ولا حدة اليقين».

«ومن عهد تلك المحادثة أخذت أودى لمصطفى كامل وظيفته الأم، فعرفته بجميع الرجال الأكابر الذين قد يعينهم شأن مصر، وأوليته من حب الأم جميع منازل أبنائي المتقدمين عليه الذين كان يختص بالمعزة منهم بييرلوقى والكولونيل مارشان، وإرنست جوديه، وأوجدت له في آن واحد علاقات نفيسة في عالم الصحافة الفرنسية، تلك العلاقات التي عرف كيف يستخدمها بأحسن سياسة في دعواه الشريفة، وأمكنه فيما بعد أن يستفيد من هذا المركز بكل مهارة في جميع البلدان الأخرى حتى في انجلترا نفسها».

واستمرت الصلة بين الفقيد ومدام جوليت آدم تقوى على مر السنين، ويدلك على مبلغ تقديره إياها ما كتبه عنها في ٢٠ أغسطس سنة ١٩٠٢ حين أهدته كتابها (طفولتى وشبابى) إذ قال:

«إذا كان يحق لكل إنسان محب لبلاده أن يحیی هذه السيدة تحية الإعظام والإعجاب، فمن الواجب الحتم على وأنا من خدمة بلادى العزیزة أن أعرب لها عن مزيد إعجابى بعملها وبكتابها، وأن أشرك الجمهور معى ليشكرها على حبها لمصر وثقتها بوصول أمتنا المحبوبة في مستقبل الأيام إلى ماتبتغى من سؤدد وحرية واستقلال^(١٠).

وقد زارت مدام آدم مصر سنة ١٩٠٤ ملية دعوة الفقيد، فاستقبلها بالحفاوة والإكرام كما سيجىء بيانه في الفصل التاسع.

حديثه في جريدة (الإكلير) الفرنسية

اتصل المترجم وهو في باريس بكثير من السياسيين والصحفيين الفرنسيين ليضمهم إلى صف القضية المصرية، وقد حدث أن قررت الحكومة المصرية في أواخر أغسطس سنة ١٨٩٥ إلغاء البعثة المصرية إلى فرنسا، فقصدت إليه جريدة (الإكلير) الفرنسية الكبيرة ونشرت له حديثاً بالعدد الصادر في ٩ سبتمبر سنة ١٨٩٥ حمل فيه على الاحتلال وسياسته وبخاصة في التعليم، قدمت له بقولها:

(١٠) اللواء عدد ٢ سبتمبر ١٩٠٢.

«ورد علينا في الأسبوع الماضي تلغراف من الإسكندرية يفيد أن وزارة المعارف في مصر قررت إلغاء الإرسالية المصرية في فرنسا، ولما كان لهذا القرار مساس عظيم بنفوذنا في مصر فقد رأينا من المفيد أن نقصد من أجله إلى (مصطفى كامل) وهو الكاتب والخطيب المصري الذي اشتهر اسمه في باريس، لأن آراءه في مثل هذه المسألة يعول عليها»^(١١)

وقد كان لهذا الحديث تأثير كبير في فرنسا، وتناولته الصحف الفرنسية، وكان موضع اهتمامها، ونشرت له جريدة (الجولوا) حديثاً له في شئون مصر السياسية، وأخذ ينتشر المقالات في مجلة «لا نوفل ريفو» وهي مجلة مدام جوليت آدم.

خطبته في الجمعية الجغرافية بباريس

(ديسمبر سنة ١٨٩٥)

وألقى في الجمعية الجغرافية بباريس يوم ١١ ديسمبر سنة ١٨٩٥ خطبة كبرى بالفرنسية موضوعها الاحتلال الإنجليزي في مصر، وذلك في إجتماع حافل حضره مشاهير السياسيين والكاتب والعلماء والنواب في فرنسا، وكثير من نزلاء باريس، فقبِلت بالتصفيق والاستحسان، واقتبست الصحف الباريسية كثيراً من فقراتها، ومما يذكر عن هذا الاجتماع أن مصطفى كامل دعا إليه ضمن من دعاهم الفيلسوف الفرنسي الشهير (جول سيمون) وكان يبلغ وقتئذ الحادية والثمانين من عمره^(١٢)، فأرسل إليه كتاب إعتذار قال فيه: «إن كبر سنه وهو في الحادية والثمانين يمنعه عن الحضور ولكنه لا يمنعه من أن يقول إنه أكثر الناس حباً لمصر وإهتماماً بشأنها».

(١١) المؤيد عدد ٢٣ سبتمبر سنة ١٨٩٥.

(١٢) ولد سنة ١٨١٤ وتوفي سنة ١٨٩٦.

الفصل الخامس

جهاده سنة ١٨٩٦

استمر الفقيد ماضياً في جهاده، فحفل عام ١٨٩٦ بمثل ما حفل به عام ١٨٩٥ من الجهود الجبارة في بعث الحركة الوطنية.

خطابه إلى جلادستون في شأن الجلاء

(يناير سنة ١٨٩٦)

فكر وهو في باريس أن يواجه المستر جلادستون شيخ الأحرار في انجلترا - وكان قد اعتزل الوزارة - يذكره بآرائه في الجلاء، حين كان رئيس الوزارة البريطانية سنة ١٨٨٢ وأدلى بتصريحات عدة في البرلمان الإنجليزى بأن انجلترا لا تنوى نقض عهدها في الجلاء، فأرسل إليه الخطاب الآتى تعريبه:

«باريس في ٢ يناير ١٨٩٦

«سيدى المبجل

«اسمحوا لأحد أبناء وادى النيل، لوطنى لا أمنية له إلا تحرير بلاده، أن يقصدكم اليوم ليسألكم رأيكم عن حل مسألة مصر، فقد كنتم منذ احتلت انجلترا وطننا أشد نصراء الجلاء، وجاهرتم مراراً عديدة بأعلى صوتكم أنه لا يليق ببريطانيا العظمى أن تحتل مصر إلى أجل غير محدود، فإن عملاً كهذا يس شرفها أشد المساس.

«لقد سجلنا كل تصريحاتكم في هذا الصدد، ولو أنكم لم تستطيعوا الوفاء بوعودكم عندما كانت السلطة في يدكم لأسباب نجهلها جهلاً تاماً، فإننا لا نزال نظن أن اعتقادكم الآن كاعتقادكم في سالف الزمن، أى أنه ليس لمسألة مصر إلا حل واحد وهو الجلاء.

«ولهذا رأيت من المفيد أن أرجو منكم في هذا الوقت الذى اضطربت فيه أحوال المسألة الشرقية أن تعرفونا حقيقة إحساسكم نحو بلادنا.

«فإن كنتم لا تزالون من نصراء الجلاء كما نظن ذلك فمتى تظنون أنه يمكن تحقيق هذا الجلاء المنتظر من عهد بعيد؟

«وفضلاً عن ذلك فإن تصريحاً منكم في مسألة مصر يكون له أعظم قيمة في هذه الأيام التى يحسب فيها الجمل الغفير من أبناء ديننا المسلمين أنكم أكبر عدو رآه الإسلام، وإنى مع إنتظارى الجواب على كتابى هذا أرجو منكم أيها السيد المبجل أن تفضلوا بقبول عظيم إحترامى».

مصطفى كامل

رد جلاستون

وقد أرسل المستر جلاستون إلى الفقيد على غير تعارف بينها جواباً رقيقاً رداً على كتابه، أقر فيه بأن زمن الجلاء عن مصر قد وافى منذ سنين، فكان جوابه وثيقة هامة في المسألة المصرية سجلت على انجلترا مركزها غير المشروع في مصر، كما سجلت لمصر حقها في الجلاء وهذا تعريب الخطاب:

«سيدى العزيز

«إنى أستحسن ما فهمته من إحساساتكم نحو بلادكم باعتبار كونكم مصرياً، ولكنى مجرد بالمرّة من كل سلطة.

«أما آرائى فإنها لم تتغير قط، وهى دائمة أنه يجب علينا أن نترك مصر بعد أن نتمم فيها بكل شرف وفى فائدة مصر نفسها العمل الذى من أجله دخلناها

«وإن زمن الجلاء على ما أعلم قد وافى منذ سنين.

«ولما كنت فى منصبى أخيراً رجوت مساعدة الحكومات الأخرى توصلاً إلى تسوية هذه المسألة المهمة، والسلوك الذى اتبعه ميسيو وادنجتون^(١) فى عام ١٨٩٢ شجع أملى،

(١) سفير فرنسا فى لندن وقتئذ.

غير أن المخابرات لم تخط خطوة واحدة مع عظم ما أملنا إذ ذاك، ولست أدري لأى سبب.

«ولقد جاهرت بكل تصريحاتي في مجلس النواب سنة ١٨٩٣، ولم يبق عندي شيء أضيفه عليها، وقد كنت مستعداً لعمل كل ما هو حسن في سبيل إعطاء آرائى تأثيرها، إلا أنني تركت المنصب بالمرّة، ولست الآن إلا أحد أبناء بلادى الخصوصيين، وإنى أتشرف بأن أكون لك الخاضع الصادق».

و. جلاستون

بيارتز في ١٤ يناير سنة ١٨٩٦

كان لخطاب مصطفى ورد جلاستون دوى كبير في الدوائر السياسية، إذ جاء حجة على إنجلترا في إخلالها عهودها في الجلاء، وجاء شهادة قيمة من كبير الأحرار الإنجليز، الذي وقع الاحتلال في عهد وزارته، بأن لا مسوغ لبقاء الاحتلال، فكان الرد انتصاراً كبيراً لجهاد مصطفى كامل، وقد تناولت الصحف الأوروبية الخطابين بالتعليق، وعلا شأن الفقيد إذ ظهر في أوروبا بأنه ترجمان مصر المعبر عن آمالها ومطالبها.

نشرت جريدة (الإكلير) الفرنسية في عدد ٣ فبراير سنة ١٨٩٦ مقالة للمسيو الفونس همبير نائب باريس في مجلس نواب فرنسا قال فيها:

«تبدلت مكاتبة مهمة بين مصطفى كامل والمستر جلاستون، ومصطفى كامل هو شاب مصرى متعلق أشد التعلق بتحرير بلاده، وقد أقام في باريس وعرفه فيها معرفة جيدة كل الكتاب المشتغلين بمسألة وادى النيل، وأتى على خلاصة الخطابين.

وكتبت جريدة (الفيجارو) الباريسية مقالا جاء فيه:

«لقد أصبح المستر جلاستون أحد أبناء بلاده البعيدين عن السلطة كما ينادي بذلك، وسهل عليه أن يعترف بتصريح ربما ضايق اللورد سلسبرى (رئيس الوزارة البريطانية) في المفاوضات الجارية دائماً في شأن الجلاء عن مصر، فقد كتب إلى زعيم الأحرار ذلك الشاب المصرى مصطفى كامل يذكره بأرائه القديمة التي كان مغزاها دائماً أنه لا حل للمسألة المصرية إلا بالجلاء».

وكتبت الصحف الأخرى في فرنسا وأوروبا المقالات الضافية عن الخطابين والتعليق عليها. ونوهت بفضل مصطفى كامل في الحصول على هذه الحججة القوية من شيخ الأحرار الإنجليز ضد الاحتلال، وصار إسم الفقيد في الصحف الأوروبية علماً على الحركة الوطنية المصرية.

خطابه الثاني إلى جلادستون

أراد المترجم أن يسجل على المستر جلادستون تصريحه بأن الجلاء قد حان منذ سنين، ويطلب إليه أن يعمل على تحقيق ما وعد، فأرسل إليه الكتاب الآتي، وقد بعث به إليه بعد عودته إلى مصر:

«مصر في ٢٧ فبراير سنة ١٨٩٦

«أيها السيد المبجل

«إعذرني إذا كنت أكتب إليك مرة ثانية، فإن عدداً عظيماً من أبناء وطني لما رأوا «أن زمن الجلاء على ما ترى قد حان منذ سنين» كلفوني أن أرجوك التكرم على مصر بإحداث حركة في الرأي العام الإنجليزى لمصلحة الجلاء.

«وإن الحركة الكبيرة العديدة المثل التي أحدثتها في انكلترا لمصلحة الأرمن بعض عبارات لكم في شأنهم - حيث لم تكن وقتئذ إلا أحد أبناء بلادك الخصوصيين كما تقول، هي أعظم كفيل لنا بأن مساعدتك لمصر يكون لها أعظم فائدة.

«وإلا فهل مسلمو مصر أقل إستحقاقاً لرعايتك العالية من مسيحيي الأرمن؟ أو هل أنت كما أشاعوا في بلاد الشرق عدو للإسلام؟ ذلك ما لا نتجاسر على ظنه.

«ولقد قلت في خطبتك التي ألقيتها في شهر أغسطس الماضي: «إنك لا تبغض المسلمين ألبتة، فهاهم المسلمون يأتونك اليوم حيث جاءهم الدور يسألونك أن تدافع عن مصر.

«ومع ذلك أفليس من الواجب على انكلترا أن تحترم هي نفسها العهود العلنية

والمعاهدات الدولية الضامنة لمصر حريتها قبل أن توصى تركيا - التي تعتبرها أقل بلاد أوروبا مدنية - باحترام فقرة من معاهدة برلين مختصة بالأرمن؟

«هذا وإننى أرجوك أيها السيد المجل أن تتفضل بقبول عظيم إحترامى».

مصطفى كامل

لم يتلق المترجم من المستر جلادستون رداً على هذا الخطاب، وإنما تلقى منه كتاباً ثانياً رداً على خطاب ثالث أرسله إليه فى سبتمبر سنة ١٨٩٦ كما سيجىء بيانه.

عودته إلى مصر

(يناير سنة ١٨٩٦)

بقى المترجم فى باريس يدافع عن القضية المصرية بقلمه ولسانه حتى أوائل يناير سنة ١٨٩٦، وقد قدر لمدام آدم فضلها ومعاونتها إياه فى جهاده، فبقى على وده لها طول حياته، وظلت هى على إعجابها به وبوطنيته طول حياتها، وقد أبحر من مرسيليا قاصداً مصر فوصل الاسكندرية يوم ١٤ يناير سنة ١٨٩٦:

كتابه إلى مدام آدم

وقبل أن يبارح فرنسا بعث إليها فى ٩ يناير سنة ١٨٩٦ بكتاب من مرسيليا يدل على مبلغ تقديره لما أسدته إليه من المعونة الأدبية، قال فيه:

«سيدتى المديرة المبجلة

«قبل أن أبرح هذه الأرض العزيزة أرض فرنسا أعرب لك من صميم فؤادى عن جزيل الشناء على المساعدة النفيسة جداً، تلك المساعدة التى أوليتنى إياها، وإنه لواجب واجب الأداء أن أشكر بكل إخلاص عملك العظيم لوطنى التمس الحزين ولشخصى المتواضع، ولا شىء يؤلمنى أكثر من عجزى فى الكلمات، ولولا ذلك لكنت أصف لك مقدار التأثير الذى وقع فى نفسى من حسن لقائك إياى وما نلتته من هذه المقابلة، وبالجملّة فإنك أعلم بشعورى نحوك.

«بعد ساعة أبرح فرنسا حاملاً تذكراً متين الدعائم، وأملى أن أعود إليها بعد أن أتم عملي في مصر، وإني أعتمد دائماً عليك أيتها السيدة الوطنية الكبيرة
«وأرجو منك أن تتكرمي بقبول أجل إكبار وأعظم اعتبار من يعترف لك بالجميل».
مصطفى كامل

أول خطبة وطنية له بالإسكندرية

(٣ مارس سنة ١٨٩٦)

لما عاد مصطفى كامل إلى مصر عقب جهاده في أوروبا سنة ١٨٩٥، اتجهت إليه أنظار المصريين وتعلقت به آمالهم، وتفتحت بتأثير جهاده عواطف الوطنية في قلوبهم، وتردد صدى خطبه ومقالاته في أرجاء البلاد، فأخذت القلوب تلتف حوله كزعيم للحركة الوطنية ومحرر البلاد، ومناد بالجلء، وقد اعتزم عند عودته إلقاء خطبة وطنية كبرى في مدينة الإسكندرية ليتصل بقلوب الجماهير مباشرة، ولعله اختار إلقاءها هناك لما كان يأنسه في أهلها من الحماسة والوطنية.

ذهب المترجم إلى الإسكندرية يوم ٢٨ فبراير سنة ١٨٩٦ لإلقاء خطبته، ونزل بأوتيل (آبات) بالمنسية، ولكن صديقه اسماعيل بك شيمي، وكان وقتئذ قاضياً بحكمة الإسكندرية المختلطة، أبي إلا أن يستضيفه بمنزله على شاطئ البحر (بجهة الأنفوشي)، فقبل الدعوة، ونزل ضيفاً كريماً بداره، وما أن علم أعيان الإسكندرية وأهلها بمقدمه حتى أخذوا يتوافدون على دار شيمي بك ليظهروا للفقيد إعجابهم به، وتقديرهم لجهاده في سبيل مصر، ولعربوا له عن تأييده والالتفاف حوله، فكانت الدار مدة إقامته بها مهوى أفئدة الوطنيين، وقد ألقى خطبته يوم الثلاثاء ٣ مارس في المسرح العباسي، وكان الاجتماع حافلاً بالمستمعين من صفوة القوم، وقد حضره بعض النزلاء الأجانب، وكان الزحام شديداً إذا لم يبق مكان في التياترو خالياً وارتد المئات من الناس عن بابه من كثرة الزحام، وقوبلت الخطبة بالتصفيق والحماسة والاستحسان، وكان موضوعها حث المصريين على التمسك بحقوقهم في الاستقلال والمطالبة بالجلء واستشارة روح الكرامة والأمل في قلوبهم، وقد طب الخطيب من الحاضرين في نهاية خطبته أن يقرأ نداءه بالجلء

يرفع أيديهم، فأقروا بالإجماع نداءه، فكانت مظاهرة قومية رائعة.

قال «المؤيد» في وصف الاجتماع^(٢): «وبالجملة فإن جميع الذين سمعوا هذه الخطبة الشائقة أجمعوا على أن حضرة الخطيب الفاضل قد استهوى المسامع بحسن إلقائه وبلاغة منطقته وغزارة مادته ولطيف اعتداله، وقال أيضاً: «إنها الخطبة الأولى التي أقدم على إلقائها شاب مصرى غيور عرف واجب الوطن وضرورة التفانى في حبه المقدس بعد أن مر على الاحتلال الأجنبي أربعة عشر عاماً».

وأطنبت جريدة (الفارد الكسندرى) التي تصدر بالثغر في مدح الخطيب، ونوهت بفضله في تأليف قلوب الوطنيين والنزلاء، قالت: «وهو الأمر الذي كان له أحسن وقع في النفوس الحرة لا سيما من شاب لا يتجاوز عمره اثنتين وعشرين سنة قام نائباً عن أبناء وطنه في الدفاع عن حقوقهم».

كان لخطبة المترجم دوى عظيم في الاسكندرية، تردد صدهاء في أرجاء مصر، وظهر تأثيرها في نفوس الاسكندريين يوم عودته إلى العاصمة، فكان توديعه بمحطة الاسكندرية مظاهرة وطنية، إذ اجتمع على رصيف المحطة جمع كبير من الاسكندريين وفي مقدمتهم أعيان المدينة وفضلاؤها لتوديع الضيف الكريم.

هدية الثغر إلى المترجم

وقدموا له وساما من الفضة رسم على أحد وجهيه صورة السعف المصرى ومسلة الثغر، وكتب على الوجه الآخر هذه الجملة:

برهان الإخلاص من أهالى الاسكندرية
(للوطنى الغيور مصطفى كامل)

فتقبل الهدية شاكراً، وأمطرت عليه باقات الأزهار والرياحين، وما كاد القطار يتحرك حتى هتف له الجمع الحاشد هتاف الإخلاص والحب وهو يرد التحية شاكراً.

كتاب المترجم إلى أهالى الإسكندرية

أثرت مظاهر الحفاوة التى لقيها الفقيد من أهالى الاسكندرية فى نفسه تأثيراً كبيراً، وأدرك منها أن دعوة الوطنية تلقى من الشعب استعداداً لقبولها، فنشر فى المؤيد كتاب شكر لهم أعرب فيه عن اغتباطه لتليبيتهم داعى الوطنية قال:

إلى أهالى الاسكندرية
«أبناء وطنى الأعزاء

«يعجز قلـمى ولسانـى أن يؤدـيا لكم واجب الشكر على ما أظهرتموه نحوى من العواطف الشريفة، وما أبدىتموه لى من علامات الود والإكرام، ولولا أنى معتقد أنكم لم تقصدوا بمظاهرتكم نحر أضعف خدمة الوطن إلا إعلاء منار الوطنية ورفع شأن الوطن العزيز لكنت أخجل أن أمسك القلم وأسطر هذه السطور.

«وإن الأمة المصرية لذاكرة كلها مظاهرة «٣ مارس» الشريفة التى أظهرتم فيها رغائبكم وطالبتكم بحريتكم وسعادتكم الاجتماعية، وبرهنتم على أنكم تقدرّون الوطنية الصادقة حق قدرها وتعرفون مزية السكينة والاعتدال فى خدمة الأوطان، فاعملوا دائماً بهذه المبادئ السامية لنبلغ الآمال وتشرق لنا شمس السعادة والإقبال

«وما مثلى أمامكم ومثلنا جميعاً أمام الوطن العزيز إلا كمثل رجل وجد امه عليلة سقيمة فأحس من نفسه الحنو والشفقة عليها فقام منادياً إخوته للعمل معه لشفاء علتها حيث وجدهم جميعاً يحسون نفس إحساسه ويشعرون شعوره، ففرح بهم وفرحوا به واجتمعوا على خير أهمهم المحبوبة.

«فليت لنا هذا الاجتماع المرغوب حتى يبرأ الوطن من علته ويسلم من دائه العضال، دمتم له يا أعز بنيه وأصدق حماته»

مصر فى ١٠ مارس سنة ١٨٩٦.

مصطفى كامل

اضطهاد الانجليز شقيقه

نقم الانجليز من الفقيه مجاهدته إياهم في أوروبا، لأن الدعاية في الخارج تزعزع مركزهم المعنوي الذي يعتمدون عليه كثيراً في تثبيت سلطانهم في مصر، وقد غضبوا عليه لحملاته عليهم في الصحف الأوروبية عام ١٨٩٥، وبدأ أثر هذا الغضب في معاملتهم لشقيقه على (بك) فهمي كامل، وكان وقتئذ ضابطاً بالجيش المصري بالأورطة الأولى من المشاة المربطة بسواكن، فتشدد رؤساؤه الانجليز في معاملته فقدم استقالته من خدمة الجيش في أكتوبر سنة ١٨٩٥، ولكن قومندان الأورطة الانجليزي رفض استقالته وطلب إليه استردادها متهدداً متوعداً، فاسترد على بك الاستقالة، ثم صدر الأمر بإحالة إلى الاستبداع في شهر نوفمبر، وسافر إلى مصر فوصلها في ٥ ديسمبر سنة ١٨٩٥.

وقد رافق على بك شقيقه حين خطب بالإسكندرية، ولما عاد معه إلى العاصمة قدم استقالته من الجيش في مارس سنة ١٨٩٦، ليكون بجانب أخيه في ميدان الجهاد، وكان الإنجليز قد ساءهم النجاح الذي لقيه المترجم في خطبته، والحفاوة التي قوبل بها في الإسكندرية فاعتزموا أن ينتقموا منه في شخص أخيه، فاعتبروا استقالته من الجيش في الوقت الذي كانت تعد الحكومة فيه الحملة لاسترداد دنقلة مخالفة للواجب العسكري تستوجب محاكمته، ومع أنه حين علم نبأ هذه الحملة استرد استقالته بخطاب مسجل ووضع نفسه تحت تصرف وزارة الحربية، وألحق فعلاً بالأورطة الخامسة عشرة، فإن وزارة الحربية أمرت بوقفه، واعتقاله ومحاكمته، وحوكم على الفور أمام مجلس عسكري، ف قضى بتجريدته من رتبته العسكرية (وكان ملازماً أول)، وتنزيله إلى درجة (نفر)، أي جندي بسيط، ونزعوا عنه علامة هذه الرتبة، وساروا به إلى الثكنة التي بها أورطته (بالعباسية)، فقوبل هذا الظلم بالألم الشديد من زملائه الضباط، وأعربوا له عن صادق عواطفهم نحوه، فشكرهم على إحساسهم، ونصح لهم أن يتبعوا الحكمة والروية، حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً، وقد أودع السجن، وعوامل بغلظة وشدة، وألحق (نفرأ) بتجريدة دنقلة، فكان ذلك منتهى العسف والتنكيل، وحضر واقعة (فاركة) وواقعة (الحفير) وهو جندي بسيط.

كان لهذا الظلم الصارخ أثر سيئ في النفوس؛ وبخاصة بعد أن تناقلت الصحف والألسنة تفاصيله، وانتقل صدهاء إلى الصحف الخارجية، واستفاضت الأنباء بأن المقصود بهذا الانتقام هو مصطفى كامل.

وقد جعل المترجم لمسألة أخيه صبغة رسمية. فطلب مقابلة الخديو ليرفع إليه ظلامته من هذا الاضطهاد، فأجيب إلى طلبه وقابل الخديو لهذا الغرض يوم الخميس ٩ يولييه سنة ١٨٩٦، فكان لهذه المقابلة ضجة في المحافل السياسية، وبخاصة الانجليزية. لأن الانجليز عدوا مقابلة الخديو لزعيم حركة الجلاء مظاهرة ضد الاحتلال، وقابل اللورد كرومر الخديو في هذا الشأن، وأظهر له استياء الدوائر الانجليزية من استقباله مصطفى كامل، فأجابه الخديو أنه ككل المصريين له الحق في أن يشكو إليه مظلمته، وأخيراً صدر العفو عن علي بك في أغسطس سنة ١٨٩٦، وقد استاء اللورد كتشنر سردار الجيش المصري وقتئذ من أمر العفو، فلم ينفذه إلا في أكتوبر، أي بعد شهرين من صدوره.

خطبته بالفرنسية في الاسكندرية

(١٣ أبريل سنة ١٨٩٦)

لم يجزع مصطفى لا اضطهاد شقيقه، وكان الظن أنه يتراجع خوفاً عليه، ولكنه ألقى وأخوه يتلفظ في محنته خطبة دلت على أنه مهما حارب في شخصه أو شخص أقرب الناس إليه، فلا يحول حائل دون جهاده، ذلك أنه في أبريل سنة ١٨٩٦ طلب منه لقيف من الأوروبيين المقيمين بمصر أن يلقي خطبة يشرح لهم فيها القضية المصرية وموقف المصريين من الجاليات الأجنبية. فلبى الدعوة، وألقى بمسرح زيزينيا بالإسكندرية يوم ١٣ أبريل خطبة بالفرنسية، كانت فوزاً كبيراً له وللقضية الوطنية فقد ازدحم المسرح بالحاضرين، وكانوا نحو ألف من خيار النزلاء مختلفي الأجناس رجالاً ونساء، ومنهم بعض الإنجليز، وفي مقدمتهم بعض القناصل والشخصيات البارزة من الجاليات الأجنبية وأعيان التجار، وجموع كثيرة من صفوة الوطنيين الذين يعرفون اللغات الأجنبية، وألقى المترجم خطبته بلغة فرنسية فصيحة، وصوت رنان، ولقد جاهر فيها بأن اضطهاد شقيقه لا يثنيه عن جهاده، وسيظل مدافعاً عن وطنه طول حياته، واستمر يخطب ساعة ونصفاً، كان في خلالها

يقابل بالتصفيق والاستحسان والإعجاب، مما دل على مبلغ تأثيره في نفوس السامعين، ومعظمهم من الأوربيين.

وكان الموقف يدعو حقاً للإعجاب، لأن تلك أول مرة بعد الاحتلال يلقي فيها خطيب مصرى على جمع من الأوربيين في مصر خطبة بلغة أوربية، مدافعاً عن القضية الوطنية، منادياً بالجلاء، وقد ظهر هذا الإعجاب فيما كتبه الصحف الأوروبية عن الاجتماع، قالت جريدة (الفارد الكسندرى): «عندما ظهر الخطيب على مسرح الخطابة قدم له جماعة من أبناء وطنه باقات كثيرة من الزهور دليلاً على حبهم له وتأييدهم لخطته؛ فكان يتكلم وسط الزهور والرياحين بلسان بديع في الفرنسية، وبأسلوب خطابي، وصوت جهورى، مما أثر تأثيراً قوياً في السامعين»، وقالت جريدة الريفورم: «إن هذا الجهاد الذى يقوم به مصطفى كامل لجدير بالفخر، فلقد أمكنه أن يتكلم فوق ساعة ونصف بلسان أجنبى عنه، دون أن يمل سامعوه، ودون أن يستعمل ألفاظاً نابية عن الذوق وبرعاية وتحفظ تامين، ومن البديهي أن الذى يبلغ درجة كهذه لابد أن يكون له شأن كبير، ولقد سمعت بنفسى خصوصاً مجاهرين بمعارضتهم لآراء مصطفى كامل يعترفون بفضله وكفايته».

مجموعة أعمال المترجم في عام

حفل عام ١٨٩٥ - ١٨٩٦ بما رأيت من جلائل الأعمال والجهود الجبارة في بعث الحركة الوطنية، وقد فكر بعض أصدقائه في طبع مجموعة أعماله في ذلك العام، تخليداً وتكريماً لجهاده، فنشر الأستاذ العالم محمد بك مسعود (صاحب جريدة منفيس وقتئذ) هذه المجموعة بعنوان (مصر والاحتلال الإنجليزي) ومهد لها بمقدمة بليغة تدل على المكانة التي نالها مصطفى كامل في النفوس والاعتراف له من ذلك الحين بأنه باعث الحركة الوطنية.

ظهرت هذه المجموعة في مايو سنة ١٨٩٦، وانتشرت انتشاراً كبيراً، وأقبل الناس على اقتنائها إقبالا عظيماً، وأنا مقتبسون هنا بعض فقرات من مقدمة الأستاذ مسعود بك لأنها تحتوى على وصف لشخصية مصطفى كامل في بداية حياته الوطنية الكبرى، قال: «نبغ هذا الهمام من مدارس مصر، وتوج ما اكتسبه فيها من المعلومات الجليلة بمتابعة الدراسة في فرنسا، حتى نال الشهادة الناطقة بفضله وقوة إدراكه وشدة ذكائه وحدة فهمه،

وقد كان كافة أساتذته وأقرانه يعترفون له بهذه النعوت الكاملة، وبما وهب من طلاقة اللسان وقوة البيان، وأنه الذى إذا ارتقى منبر الخطابة ذلل له القول وسخر له الخطاب، وتابعه الكلام متفق القرائن مطرد السياق، حتى يستميل إليه القلوب النافرة، ويرد الأهواء الشاردة».

إلى أن قال:

«يعترف القارىء المنصف اعترافاً لا تشوبه مداراة أو مواربة بأن الموجد لهذه الحركة الفكرية القوية إنما هو ذلك الذى ينبغى أن يكافئه كل وطنى بالافتداء به وسلوك منهجه القويم، وما هذا المنهج القويم؟ هو صراط مستقيم يهتدى إليه كل من اجتمعت فيه مزية الإقدام واشتعال العواطف بالوطنية الصادقة، فإن هاتين الصفتين الجليلتين متى منح الإنسان التوفيق بتوافرها فيه، أوصلته إلى سدرة منتهى الغايات المحمودة والمقاصد السنية، وسخرتا له كل الوسائط لتذليل الصعاب وقمهد العقبات» إلى أن قال:

«علم مما سلف أن الإقدام والوطنية الصادقة، شرطان لازمان للمصريين، إذ بهما يقاومون جميع الصعوبات السياسية كما قاوم بهما من قبل فحول الرجال الذين أنقذوا أوطانهم من ربة الاستعباد، فخلدوا فى تاريخ أمهم وتاريخ الحرية الذكرى الحسنة، وتركوا للأعقاب أثراً جيلاً ومثلاً يقتدون به، ولا بدع إذا كان المصريون الصادقون يؤملون لوطنيهم وخطيبهم المصقع منزلة فى تاريخ كمنزلة أولئك العظماء فى تواريخ بلادهم، فكلهم ابتدأوا كما ابتدأ، وربما كان عملهم فى المبدأ لم يصادف من النجاح والفوز ما صادفه مصطفى كامل فى فاتحة أعماله الجليلة التى نقدمها للقراء متضمنة كل آثاره الوطنية فى عامه السياسى الأول»^(٣).

(٣) كتاب (مصر والاحتلال الإنجليزي) أو مجموعة أعمال مصطفى كامل مدة عام من مايو ١٨٩٥ إلى مايو سنة ١٨٩٦ ص ٤.

استئناف الجهاد في أوروبا (أغسطس سنة ١٨٩٦ - نوفمبر سنة ١٨٩٦)

أبحر المترجم من الإسكندرية يوم السبت أول أغسطس سنة ١٨٩٦ قاصداً فرنسا ليستأنف جهاده في أوروبا، فودعه على رصيف الميناء جمع كبير من ذوى المكانة، وقدم له الوطنيون الإسكندريون باقات الأزهار داعين له بالنجاح في جهاده^(٤)، وما أن وصل إلى باريس حتى بادر إلى العمل والجهاد في سبيل مصر.

فنشرت له جريدة (ليبر بارول) الفرنسية حديثاً بتاريخ ٧ سبتمبر سنة ١٨٩٦ عن الحركة الوطنية، قال فيه:

«إن كراهية المصريين للاحتلال تزداد من يوم لآخر، وقد غلطنا الآن حق العلم أن انجلترا تستعمل كل الوسائط بما فيها الشرف البريطاني للوصول إلى غايتها في مصر، وليس لها من غاية هناك سوى الاستيلاء عليها، وإنه إذا كانت الأمة المصرية ساكنة اليوم سكوتاً تاماً وصابرة صبراً جميلاً فإنى لا أستطيع التكهن بما يمكن أن ينجم عن حقدتها الشديد على الاحتلال والمحتلين».

ذكرى ١٤ سبتمبر

وانتهز المترجم يوم ١٤ سبتمبر وهو ذكرى احتلال الإنجليز عاصمة البلاد في سنة ١٨٨٢، فنشر في جريدة (الإكلير) الفرنسية بعدد ١٥ سبتمبر سنة ١٨٩٦ حديثاً ضمنه التنويه بهذه الذكرى، وقد مهدت له الجريدة الباريسية بقولها: «أى تذكارات يحزن وأية ذكرى تعسة مؤلمة؟»

(٤) جاء في المؤيد عدد ٢ أغسطس سنة ١٨٩٦ ما يأتى: «كان من جملة الذين بارحوا ثغر الإسكندرية أمس إلى أوروبا حضرة الكاتب الفاضل والخطيب الوطنى البليغ مصطفى أفندى كامل فودعه على ظهر البحر كثير من أصدقائه وإخوانه كما ودعه الكثير منهم بعد ظهر يوم الخميس الماضى على محطة القاهرة رافقته السلامة والنجاح أينما توجه».



مصطفى كامل في الثالثة والعشرين من عمره

«لقد مضى على مصر أربعة عشر عاماً وهي مقهورة ومضغوط عليها من قوم يلقبون أنفسهم بممدنى العالم! وإن الإنسان عندما يفكر أن الإنجليز مضى عليهم هذا الزمن وهم يهدمون كل بنیان في مصر، ويحاربون أوروبا والمدنية الأوروبية على شواطئ نهر النيل ويقوّضون أركان نفوذ فرنسا واحترامها، ويقهرون المصريين، كل ذلك ودول أوروبا لم تعمل شيئاً ما ضد الاحتلال، يظن أن أوروبا هذه تلاشت وأنها لا وجود لها اليوم! وليس تذكّار ١٤ سبتمبر تذكّار حداد للأمة المصرية فقط، بل هو أيضاً - وأسمح لنفسى أن أقول ذلك - تذكّار عار وخجل على سياسة أوروبا ومدنيتها عامة وعلى فرنسا خاصة».

خطاب ثالث إلى جلادستون

كانت المسألة الأرمنية في صيف سنة ١٨٩٦ متار الأحاديث في الصحف الأوروبية والدوائر السياسية، وكانت الصحف الأوروبية عامة تدافع عن الأرمن وتحمل على الحكومة التركية من أجلهم حملات شديدة، وكان المستر جلادستون من أشد السياسيين انتصاراً لهم، فكتب المترجم من باريس خطاباً ثالثاً نوّه فيه بخطابه الثاني الذي لم يتلق عنه رداً، وألح إلى دفاغ المستر جلادستون عن الأرمن ضد الحكومة التركية، وسكوته عن المسألة المصرية، على ما يقع فيها من عدوان السياسة الإنجليزية، ونقضها لعهودها في الجلاء، وأعرب عن أمله في أن يكون عادلاً في موقفه حيال المسألة المصرية، وهذا تعريب خطابه:

«باريس في ٢٨ سبتمبر سنة ١٨٩٦.

«أيها السيد المبجل.

«إن الذي يخاطبكم اليوم هو مصرى تشرف من قبل بمراسلتكم، ولما تشرفتوني في شهر يناير الماضي بجوابكم الذي صرحتم فيه «أن وقت الجلاء عن مصر قد حان منذ أعوام» كتبت إليكم راجياً باسم الإنسانية والشرف البريطاني أن تلقوا خطبة تذكرون فيها حكومة الملكة بأن هناك معاهدات بمصر بحجب احترامها، فلم يصلني جواب ما، وحسبت أن رجائي لم يؤثر أى تأثير في روحكم الشريفة الكريمة.

«واليوم أرى مع الأسف أنكم لا تميلون إلا إلى المسيحيين من بنى الإنسان، وأليس لنا حق كذلك نحن معشر المصريين المسلمين في دعواكم المؤثرة وندائكم القوي؟ أما أنا فأظن ذلك، وخصوصاً لأنكم بدعوتكم للجلاء عن مصر لا تدافعون عن حقوق أمة متمدنة معتدلة فقط، بل تدافعون كذلك عن مقام بريطانيا وشرفها.

«وإن اليوم الذى تدافعون فيه عن مصر تستميلون إليكم لا محالة كل المسلمين الذين يعتقدون الآن أن دفاعكم عن الأرمن إنما هو تحيز للمسيحية ودفاع عنها لا عن الإنسانية وعلى هذا أوّل أن تعيروا رجائي التفاتكم وورعائتكم، ومع انتظاري لجوابكم أرجو منكم أيها السيد العظيم المقام أن تتفضلوا بقبول صادق اعتباري وعظيم احترامي».

مصطفى كامل

رد جلاستون

فأجابه المستر جلاستون بالكتاب الآتى تعريه؛

«السبت ٣٠ سبتمبر سنة ١٨٩٦

«سيدى العزيز

«إنى لا أظن أنه قد وصلنى منكم كتاب من غير أن أجيب عنه، أما إحساسى ورأى فى مسألة الجلاء عن مصر فقد صرحت بهما لجناب الميسو وادنجتون - سفير فرنسا فى لندن إذ ذاك - إذ قلت له إن حكومة سنة ١٨٩٢ (أى الحكومة الانجليزية التى كان يرأسها مستر جلاستون نفسه) مستعدة للمناقشة فى هذه المسألة، ولكن الحكومة الفرنسية لم تجب أى جواب مدة وجودى فى الحكومة، والآن باعتبارى أحد الأفراد أراى مجرداً من كل سلطة تبيح لى التدخل فى هذه المسألة

«وفى الختام أتشرف بأن أكون لكم العظيم الإخلاص الخاضع»

و. جلاستون

كان هذين الكتابين صداهما فى الصحف، إذ اتخذت منها مادة لمناقشة المسألة المصرية وإلزام السياسة البريطانية الحجة.

كتبت جريدة (الديبا) الفرنسية مقالا جاء فيه ما يأتى:

«إن المستر جلاستون الذى كتب أخيراً كتاباً يدعو فيه الأمة الفرنسية إلى التظاهر بغيرة أشد مما هى عليه انتصاراً لمسيحيى الأرمن دعاه بدوره رجل مصرى للدفاع عن أمة أخرى مقهورة، وبيان ذلك أن مصطفى كامل المصرى الوطنى كتب إليه كتاباً يقول فيه أنه يجدر بشيوخه النشطة أن تعمل لتحرير مصر وردها إلى أهلها من أيدي الإنجليز محتليها بلا حق، وإن تكن المشابهة بين المسألة المصرية والمسألة الأرمنية طريفة أكثر مما هى صحيحة، ولقد أجاب المستر جلاستون مصطفى كامل بأنه لما كان رئيس حكومة الأحرار سنة ١٨٩٢ فاوض فرنسا فى هذا الشأن وأنه عرض على الميسو

وادنجتون المباحثة في المسألة المصرية ولكن الحكومة الفرنسية هي التي أغفلت هذا الطلب ولم تجبه، وإننا نعلم كيف كان عرض هذه المناقشة يومئذ، ولكن الخطبة التي ألقاها المستر جلادستون نفسه في البرلمان البريطاني باعتباره إذ ذاك الوزير الأول لـإنجلترا تجعلنا نحكم الآن بأن حكومتنا كانت تضيع وقتها سدى لو فاوضت المستر جلادستون في هذه المسألة، ومع هذا فإذا كان المستر جلادستون لا يزال يعتبر لزوم المفاوضة ويرغب في أن تحافظ إنجلترا على عهودها وتقوم بوفائها فلماذا نراه لا يقبل رجاء مصطفى كامل بل يعتذر عن نفسه بأنه فرد من أمته مجرد عن كل سلطة ككل أفراد الإنجليز؟ نعم إن هذا القول يعد تواضعاً ممدوحاً، ولكن هل الصوت الذي ارتفع للدفاع عن الأرمن فهبج خواطر الإنجليز غير قادر على أن يقول الحقيقة في شأن مصر؟»

دعايته في ألمانيا

سافر المترجم من باريس في أكتوبر سنة ١٨٩٦ قاصداً برلين ليرفع صوت مصر في ألمانيا ويكسب لها الأنصار، وهناك تعرف بكثير من رجال السياسة والصحافة، ورحبت به الصحف الألمانية واستقبلته بالحفاوة، فكتبت عنه جريدة (برلينر تاجبلاط) قائلة؛

«وفد على برلين في هذه الأيام أكبر المشتغلين بأمر تحرير مصر من الاحتلال الأجنبي وهو الوطني الشهير «مصطفى كامل» الذي يكتب ويخطب في أوروبا منذ عامين دائب السير والعمل والجهاد في سبيل مشروعه الشريف، والآن قد جاء برلين لاستمالة شعبها إلى وطنه الأسيف، ومصطفى كامل هذا، هو شاب فصيح جذاب، اجتمع به أحد محرري جريدتنا وتحادث وإياه في المسألة المصرية وكان الحديث باللغة الفرنسية التي يتقنها كل الإتيقان».

وقد نشرت الحديث، وهو دفاع مجيد عن حق مصر في الاستقلال وعدم مشروعية الاحتلال، وتألم المصريون منه.

ونشرت جريدة (ذى بوست) كبرى جرائد المحافظين حديثاً آخر له في هذا الشأن، وقد نوه في كلا الحديثين بأن الاحتلال لا يضر بحقوق مصر فحسب بل يعارض المصالح الأوربية عامة، قالت جريدة (ذى بوست) في هذا الصدد:

«لقد تكلمنا في جريدتنا منذ بضعة أشهر عن رسالتين مهمتين تتعلقان بالجللاء عن مصر، وقلنا إنها من قلم الوطنى المصرى الشهير (مصطفى كامل) ذلك الذى وهب حياته ونفيس عمره لتحرير وطنه وتحرير بلاده، ولما كان يطوف أوروبا دائماً فى عمله فقد جاء برلين ليتعرف فيها إلى رجال القلم والسياسة حتى يطالعهم بحالة بلاده الحاضرة، لكى يقتنعوا بضرورة العمل ضد بقاء انجلترا فى مصر، وقد فعل ذلك فى الممالك والعواصم الأخرى، إلى أن قالت: «لقد تعودنا أن نعتقد دائماً أن نصراء الآراء العظيمة وزعماء المذاهب ودعاة الأغراض الكبيرة يكونون من الشيوخ الكبار السن، ولذلك دهشنا أول الأمر إذ شاهدنا مصطفى كامل المصرى المتجول فى أوروبا طلباً لتحرير بلاده من نير الاحتلال الأجنبى شاباً فى غضاضة العمر، ولكن لا يلبث الإنسان هنيهة حتى ينسى أنه أمام شاب، بل يحسب نفسه مع شيخ كبير حنكته التجارب والسنون الطوال، ويحده محدته فضلاً عن ذلك فى كل كلمة من كلماته شغوفاً بوطنه مملوءاً غيرة عجيبة وحباً للعمل الذى هو قائم به، وحركات رأسه المملوء نشاطاً وكفاية، وبريق عينيه، كل ذلك يدل على قوة إيمانه وأنه مستعد لعمل عظيم يحقق فيه القول بالعمل، وهو يؤدى الأحاديث • بحرارة ما عهدت فى غيره من رجال الشرق، ويحبب مخاطبه بصراحة تامة عن كل سؤال، وهو معتقد تمام الاعتقاد أنه يعمل عملاً شريفاً طاهراً، وأنه واثق تمام الثقة بأن آماله لا بد أن تتحقق، وثقته بنفسه وبشعبه واطمئنان خاطره يظهران جلياً من جوابه عن هذا السؤال:

«أى مهمة سياسية أنت مكلف إياها فى حضورك إلى برلين؟
«إنى مكلف من تلقاء نفسى وبواجبى الوطنى بمهمة وطنية محضة يدفعنى إليها الإحساس النفسانى، فإنى لما فكرت فى الحالة التعسة التى فيها وطنى وشعرت من نفسى بأننى إنسان عليه واجبات لأرض آبائه وأجداده رأيت بعد التروى مع أصدقائى الوطنيين أن آتى إلى أوروبا، وقد مضى علىّ عامان وأنا مشتغل بعملى هذا مدافعاً عن قضية بلادى ضد الانجليز المحتلين لها برغم المعاهدات الصريحة القطعية، وأعظم التعهدات العلنية، ولقد وجدت أينما كنت معاضدة محبى الحق والعدل، وهم والحمد لله ليسوا بالقليل العدد فى أوروبا، وإنى أخاطب الأمم والحكومات، وسواء سمع صوتى الآن أو بعد الآن، حتى لو كان سماعه بعد موقى فإنى عامل ما عشت لأداء واجباتى نحو وطنى، وأنادى كل ذوى الضمائر الحرة من جميع الأمم للعمل لإنقاذ مصر».

في النمسا

ثم ذهب إلى النمسا ليواصل دعايته للقضية المصرية، فوصل عاصمتها «فيينا» يوم ١٩ أكتوبر سنة ١٨٩٦^(٥)، وكان وهو في باريس قد دارت بينه وبين المسيو (جوزيف بويوسكى) أحد كبار أعضاء مجلس النواب النمساوى مكاتبة في صدد المسألة المصرية أراد بها أن يجتذب النائب الكبير إلى جانب مصر، فكتب إليه كتاباً في ٢٤ سبتمبر سنة ١٨٩٦ يشبه من بعض الوجوه كتابه إلى المستر جلاستون قال فيه:

«باريس في ٢٤ سبتمبر سنة ١٨٩٦.

«جناب المحترم المسيو جوزيف بويوسكى

«لم أتشرف بمعرفتكم من قبل، ولكنى وطنى مصرى أعمل لجلاء الاحتلال الانجليزى، لذلك أجد من الشرف أن أسأل بلا معرفة رجلاً حراً مثلك اشتهر بسعة علمه وعظيم استقلاله وتمكنه من معرفة السياسة الخارجية بحذاقها ليشرح لى رأيه هل هو نصير الاحتلال أم الجلاء؟ وما هى السياسة التى يجب أن يتبعها التحالف الثلاثى؟

«ورجائى ألا تعتبروا سؤالى هذا مملاً أو مبهماً، فإن الوطنية قوة قاهرة تدفع المرء إلى مخاطبة من لا يعرفه أو الخروج أحياناً عن حد اللياقات، وإنكم وأنتم الذين علمتم الأمم ما هى حدود الوطنية، لابد أن تعطفوا على الوطنيين المصريين وتمدوا إليهم يد المعونة فى سبيل تخليص وطن حكم عليه بالأسر والذل كاد يذهب ضحية طمع بريطانيا وتهاون أوروبا.

«وتقبل أيها العضو المبجل أجل تحيات وعظيم احترامات.

المصرى المخلص

مصطفى كامل

(٥) المؤيد عدد ٣١ أكتوبر سنة ١٨٩٦.

فأجابه النائب بويوسكى بالكتاب الآتى:

قيينا فى ١٥ أكتوبر سنة ١٨٩٦.

«سيدى

«تسألنى فى كتابك المؤرخ ٢٤ سبتمبر الماضى إذا كنت نصيراً للاحتلال أو الجلاء، فجواباً عن هذا السؤال أقول لك إني أفهم جداً أنك باعتبارك مصرياً وطنياً لابد أن تتألم لضياح استقلال بلادك، وإن كان يعزبك ويخفف آلامك الاعتقاد بأن الاحتلال الإنجليزي فى مصر ليس إلا مؤقتاً، وأن إنجلترا لا تتعدى على القومية المصرية، وأن لكم استقلالاً داخلياً تاماً وأن لكم أميراً حازماً وإدارة منتظمة. ولكن لكى تنال أمة من الأمم حريتها يلزم أن يكون عندها بعض صفات معنوية خاصة، وأولى هذه الصفات أن تكون مستعدة لأن تضحي بنفسها فى سبيل الوطن.

«وقد أرشدنى التاريخ إلى أن روسيا قضت أربعين عاماً حتى استطاعت أن تملك القوقاز، وأن فرنسا حاربت فى الجزائر حرباً طويلة حتى استطاعت أن تقف مقاومة «عبد القادر» لها. ولا يزال من الصعب على هاتين الدولتين تجنيد الجنود من القوقاز والجزائر. ومن جهة أخرى فليس لانجلترا فى مصر غير ثلاثة آلاف جندى، مع أن للخديو جيشاً منظماً عدته ثلاثة عشر ألف جندى، ولديه خمسة آلاف رجل فى بوليس منظم تنظيمياً عسكرياً. فهذه الأرقام تدل على أن أغلب المصريين راضون عن الاحتلال الإنجليزي»

«وأنا أعتقد أن الحرب السودانية لابد أن ترفع من شأن الجنود المصرية فتكسبهم ملكة عسكرية أهلية تساعد - وذلك ما لا شك فيه - على استكمال الصفات الضرورية لمصر حتى تنال استقلالها يوماً ما.

«وإنك تسألنى أيضاً فى كتابك عن رأى فى السياسة التى يجب أن يتبعها التحالف الثلاثى تجاه المسألة المصرية. وجواباً عن هذا السؤال أقول لك إني أفكر أن المسألة المصرية لا تهم دول التحالف مباشرة بل إن سياستها تتوقف على ما تخطه إنجلترا فى المستقبل.

«هذا وإني أرجوكم أن تتفضل بقبول عظيم احترامى ومزيد اعتبارى.

جوزيف بويوسكى

وقد قابل مصطفى كامل بعض كبار رجال السياسة في النمسا، وفي مقدمتهم المسيو شلومكى رئيس مجلس النواب النمساوى وكبار الصحفيين وشرح لهم المسألة المصرية وجهاد مصر في سبيل استقلالها. فاكسب عطف الكثيرين منهم نحو مصر.

ونشرت له جريدة (اكتسر تاجبلاط) حديثاً قال فيه:

«إننا متألمون من الاحتلال الإنجليزي لأنه مسقط لكرامتنا باعتبارنا أمة، فضلاً عن كونه جارحاً لعزة بلادنا حساً ومعنى، فإننا أمة تقدر محبة الوطن حق قدرها، ونعلم أن بلادنا ما دامت تحتالنير الأجنبي وما دمننا لا ندير شئوننا بأيدينا فلا حق لنا في أن نحسب أنفسنا أمة من الأمم التي لها حقوق محترمة، ولهذا نرغب من صميم أفئدتنا التحرر من الاحتلال الإنجليزي».

وقال عن سبيل مصر إلى الاستقلال:

«لما كانت الأمة المصرية متألمة ولها حق التحرر من النير الإنجليزي، فنرى للوصول إلى غرضها سبيلين، سبيل الثورة والسبيل السلمى، فأما سبيل الثورة فنحن لا نريده لأننا قبل كل شيء قوم مشهورون بالدعة وحب السكينة؛ ونبغض المذابح والجرائم، ومن جهة أخرى فإن لأوروبا عندنا مصالح تضر بها الثورة. وإذا كنا نحترم حقوق أوروبا ومصالحها في مصر فمن المحتمل أن الأمة إذا تارت ضلت سبيل الرشاد فلا تميز بين الإنجليزي وغيرهم من الأوروبيين إذ تقول وقتئذ: «لقد تظاهرت أوروبا ضدنا بموافقتها على الاحتلال فمن الواجب إذاً العمل ضدها» - لذلك أعرضنا عن سبيل الثورة الذى نكرهه بفطرتنا. وعلى ذلك قد اخترنا السبيل السلمى ورفعنا صوتنا إلى مسامع أوروبا المتعدنة بمطالبنا الحقيقة وإن الساعة قد آذنت لا محالة وتحتم على أوروبا أن تعمل لجلاء الإنجليزي عن مصر».

ذهابه إلى الاستانة

(أكتوبر سنة ١٨٩٦)

لم يكن معقولا أن يطوف المترجم عواصم أوروبا ليكسب الأنصار والأعوان لقضية مصر، ولا يذهب إلى الاستانة عاصمة تركيا، لأن تركيا كانت في عهد الاحتلال

الإنجليزى الدولة الوحيدة التى كانت لا تفتأ تطالب انجلترا رسمياً بالجللاء عن مصر، وقد أنفذت إلى مصر مندوباً سامياً عنها وهو (أحمد مختار باشا الغازى) مهمته مطالبة الإنجليز بالجللاء، وكان مختار باشا يعلن بأنه احتجاج حتى على الاحتلال فلا غرابة أن يستعين زعيم الجللاء بتركيا، كما أراد أن يستعين بفرنسا وغيرها من الدول الأوروبية على إخراج مركز الاحتلال.

قصد إذن الاستانة لأول مرة عن طريق قيينا وبودابست، فوصلها صبيحة الثلاثاء ٢٧ أكتوبر سنة ١٨٩٦، ونزل بفندق (بيرا بالاس)، وحضر بدعوة من باشكاتب المابين الهمايونى حفلة (السلامك) وهى حفلة صلاة الجمعة فى الجامع الحميدى حيث يصلى السلطان، وفى ذلك اليوم قابل السلطان، فلاطفه فى الحديث وأعرب له عن إعجابه به وحسن تمنياته، وفى خلال إقامته بالاستانة أهدها هدية ثمينة وهى علبة سجائر من الذهب مرصعة بالماس والأحجار الكريمة، وموضوعة داخل صندوق صغير من الذهب والفضة، وأبدى رغبته فى أن يمنحه رتبة أونيشاناً، ولكنه اعتذر عن عدم قبولها حتى لا يتهمة خصومه، وكانوا فى مصر كثيرين، بأنه يعمل حباً فى الظهور ونيل الأوسمة، وقد لامه أصدقاؤه على هذا الاعتذار بعد عودته إلى مصر، وأقنعوه ألا يرفض رتبة تمنح له من السلطان، لأنهم عالمون بأن الألقاب فى مصر والشرق تعظم من شأن الرجل فى نظر الناس وتعالى من قدره ويزداد بها الزعيم مكانة عند العامة والخاصة، فاقتنع المترجم بهذه الحجة كما سيجىء بيانه.

أقام فى الأستانة بضعة أيام، من ٢٧ أكتوبر حتى ١١ نوفمبر، اتصل فى خلالها بكثير من رجال الدولة ومكاتبى الصحف الأوروبية والأمريكية الشهيرة، إذ وفدوا عليه ليحدثوه فى شأن مصر والمسألة المصرية، فأفاض لهم بما لديه من المعلومات الجمة، وكان فى أحاديثه الترجمان الصادق للأمانى القومية.

كتب مكاتب جريدة (فرنكفور تركورييه) الألمانية بعنوان (حديث عن المسألة المصرية - مصطفى كامل فى الاستانة) ما تعريبه :

«الأستانة فى ٣ نوفمبر سنة ١٨٩٦

«تشتغل دوائر الاستانة السياسية الآن بمسألة تحرير مصر، وهى المسألة الخطيرة التى

لا يبعد أن تظهر قريباً في مقدمة المسائل الدولية العظيمة الشأن، فضلاً عما لهذه المسألة من الأهمية في أوروبا فإن الوطنيين الصادقين من المصريين قد أخذوا على أنفسهم المناداة بحقوقهم وإظهارها دائماً على المسرح السياسى، وذلك بما زاد قيمتها ولقد حضر إلى الأستانة منذ أيام ذلك الخطيب المصرى الشهير الناطق بلسان المصريين والمترجم عن رغائبهم، وهو (مصطفى كامل) ذلك الشاب الذى خلق ليكون خطيب قومه، لما وهبه الله من القوة والغيرة العجيبين، ولما هو عليه، من الفصاحة المتدفقة وملكة التأثير فى النفوس، وما فى نفسه الشريفة من المحبة الشديدة لوطنه، لم يكذب على نفسه الأستانة ويزور فيها رجال السياسة حتى قبل من كل الدوائر السياسية بغاية الحفاوة والإكرام، وعلى الأخص فى المابين السلطاني فإنه قبل بأجل ما يقابل به سياسى من الحفاوة والتكريم، ومن الصعب أن يتكهن الإنسان فى هذا الحين بالنتائج التى تنتج عاجلاً عن عمل (مصطفى كامل)، ولكن مقابله لرجال السياسة ذوى الحكمة والشأن فى العواصم الثلاث (باريس وبرلين وقيينا) ومحادثاته لسائر الصحف الشهيرة وحضوره بعد ذلك لعاصمة الدولة العثمانية لمن الأمور التى يدرك قيمتها كل إنسان، ولقد قابلت هذا الضيف الجليل وتحادثت معه طويلاً فى أحوال مصر والشرق فوجدته على جانب عظيم من اللطف والدعة وسعة الفكر والخبرة بكل مشكلات السياسة، وهو يتكلم اللغة الفرنسية كأحد نجباء الفرنسيين النابغين تحت سماء باريس كل ذلك فضلاً عن إحاطته التامة بالعادات الأوروبية الحميدة وعدم إهماله العادات الشرقية الكريمة. وهو يقابل زائريه ببشاشة تسلب القلوب وتستميل نحوه ونحو بلاده كل إنسان، وإنى أقول بكل صراحة ودهشة إن لمحادثة هذا الرجل الشهير والخطيب المؤثر لذة مخصوصة تبقى حلاوتها زمناً طويلاً، ولا يزول تذكّارها، أما حرارته فى حديثه فهى حرارة غريبة صادقة يمتاز بها سكان الجنوب من بلاد أوروبا، وهى حرارة كلها وطنية صادقة وإحساسات عالية».

ونشرت جريدة (النيويورك هيرالد) الأمريكية الشهيرة حديثاً آخر له عن المسألة المصرية والمسألة الشرقية، سأله فيه المكاتب - ما هى إحساسات المصريين نحو الإنجليز؟ فأجاب المترجم: «إن جميع المصريين كارهون للاحتلال الإنجليزى وهم يعتقدون اليوم أن غاية السياسة البريطانية امتلاك كل وادى النيل، ولذلك نزعوا الآن ما كان لديهم من الثقة فى وعود الإنجليز، وباختصار فقد تعلمنا أن نعتقد بأن لا شرف ولا ذمة فى السياسة».

وسأله المكاتب:

- ما هي رغائب الوطنيين المصريين أو الحزب الوطنى فى مصر؟ فقال: إن الحزب الوطنى فى مصر هو عبارة عن الأمة بأسرها تجاه الاحتلال، فرغائبه هى رغائبها، وأهم هذه الرغائب تحقيق الجلاء عن مصر من غير إحداث اضطراب أو أمر من شأنه تكدير الأمن العام».

ثم سأله المكاتب:

- لماذا يرغب المصريون فى الجلاء والإنجليز يشيعون أنكم فى أرغد عيش تحت سلطتهم؟ فقال:

«إننا نعمل للجلاء أو تحرير وطننا أولاً لأننا نشعر بواجباتنا وحقوقنا، ونعتقد أن من واجباتنا القيام بهذا العمل الشريف، وأن فينا من الحياة ما يكفى لتمتعنا بكل حقوقنا، أما ما يشيعه الإنجليز من أننا سعداء تحت سلطتهم فهذا كذب محض يدحضه البرهان، إذ الحقيقة أن المحتلين فرقوا مصر أحزاباً حساً ومعنى»
أحدث هذان الحديثان تأثيراً كبيراً فى المحيط السياسى، وذاع اسم الفقيد فى أوروبا كزعيم لحركة الاستقلال المصرى، وجاءته كتب كثيرة من مختلف النواحي والشخصيات البارزة إعجاباً بجهاده، وتقديراً لفضله، فمن ذلك ما بعث به إليه الدكتور هفمان زنيفر رئيس حزب الشمال بالبرلمان الألمانى إذ قال فى كتابه إليه (١٨ نوفمبر سنة ١٨٩٦):

«سيدى

«إنى قرأت أعمالك الأخيرة وتتبع كل خطواتك السياسية دفاعاً عن بلدك العزيز، فوجدتها لم تصدر إلا عن وطنى مخلص ذكى نشيط، فأهنتك بهذه المكاثة التى تدهش كل من وقف عليها وعرف أن سنك هى سنك (كانت سن الفقيد وقتئذ انين وعشرين عاماً)، وإنى أوافقك على وجوب جلاء الانجليز عن مصر، لا لأن الألمان يكرهونهم كما يشاع عنا بلا حق، ولكن لتحقيق مسألة التوازن الدولى العام ولمصلحة قناة السويس بل لمصلحة انجلترا نفسها.

- «إننا مستعدون لمساعدتكم متى كنتم عقلاء، فادأبوا على الدفاع من سبيله الشرعية فكل من سار على الدرب وصل، وتقبل يا سيدى خالص احترام.

الصادق المخلص

هـ. زينفر

وكتب اليه كذلك المسيو كافى فورشللا النائب الايطالى المتطرف الشهير كتاباً هذا تعريبه :

« ٢٤ نوفمبر سنة ١٨٩٦

أيها المصرى المحترم

إنك بأعمالك تلفت من جديد نظر العالم إلى تاريخ مصر القديم والجديد، وتعيد ذكرى الفراعنة الذين حملوا قبل بنى البشر تاج العلم ودخلوا جنة الصناعة. إنك لا تقل فى نظرى عن أى أوروبى ذى رأس كبير محنك، وربما فضلت عليه بنشاطك الفائق الذى لا يقل عن نشاط البخار، فمن باريس نسمعك وكذلك من برلين وقينيا والأستانة نسمعك تذكر بلادك، حتى خيل إلينا أن العالم كله معك لأن مسألة مصر هى مسألة العالم كله، وخصوصاً مسألة إيطاليا التى اعتمد ملوككم الحديثون على أبنائها فى الرسم والبناء وتنظيم الجند والبوليس.

. « فلا تحريم إيطاليا زيارتك، فإن الأحرار يحبون على الدوام رؤية الأحرار من أى جنس كانوا، واعتقد أيها الوطنى الغيور أن أبناء إيطاليا الذين درسوا الوطنية على جريبالدى وكافور ومازىنى لفى أتم استعداد لمعاونتكم على حل مسألة مصر، إن لم يكن اليوم فغداً «وليس الغد ببعيد» وتقبل عظيم إخلاصى.

ك. فورشللا

وكتبت جريدة (الأندهندنس بلج) البلجيكية الشهيرة فصلاً مطولاً بعددها الصادر فى ٢٣ نوفمبر سنة ١٨٩٦ عن المسألة المصرية لمناسبة زيارة المترجم للاستانة أيدت فيها مطالب المصريين فى الجلاء.

عودته إلى مصر (نوفمبر سنة ١٨٩٦)

مكث المترجم بالاستانة حتى ١١ نوفمبر سنة ١٨٩٦ ثم برحها عائداً إلى مصر فوصل العاصمة يوم ١٥ نوفمبر^(٦)، فاستقبله الجُم الغفير من أصدقائه والمعجبين بجهاده على المحطة مهنيين إياه بسلامة الوصول، شاكرين له حسن بلائه في الدفاع عن قضية الوطن.

مكيدة للمترجم الشروع في تجنيده

كانت أنباء جهاد المترجم في أوروبا ترد تباعاً إلى مصر وتنشر الصحف خلاصتها فيغتبط بها المصريون، أما الاحتلال وصنائه فكانوا ينقمون منه رفع صوته في أوروبا ضد السياسة البريطانية، وقد دبروا له في غيخته مكيدة حاولوا بها إسكات صوته، ذلك أنهم أوعزوا إلى مجلس قرعة القاهرة بطلبه للتجنيد في غيابه، وكان يبلغ وقتئذ الثانية والعشرين من عمره، وطلب المجلس من مأمور قسم الخليفة الذي كان المترجم يقيم في دائرة اختصاصه تبليغ إعلان الاقتراع لأحد أفراد بيته، حتى إذا مضت ثلاثة أشهر على هذا الإعلان دون معارضة يكون اقتراع المترجم واجباً، وقد سلم الإعلان إلى شيخ الحارة الذي كان منزل المترجم في دائرة عمله، وذهب هذا إلى منزله فعلم أنه غائب في أوروبا (وكان يجهل أمر المكيدة)، فآثر أن يستبقى الإعلان لديه حتى يسلمه إلى صاحب الشأن عند عودته من أوروبا، ولما عاد إلى مصر تسلم إعلاناً من القسم بأن يذهب إلى مجلس القرعة بحجة أنه أصبح مفروضاً عليه الاقتراع إذ لم يبد معارضة بعد الإعلان الأول، فلما فطن للمكيدة دعا شيخ الحارة واسمه الشيخ محمد زيدان واستكتبه إقراراً بأنه لم يسلم الإعلان الأول إلى أحد من ذويه، ثم دعاه رئيس مجلس القرعة، فصارحه بأن لاحق لهم

(٦) المؤيد عدد ١٦ نوفمبر سنة ١٨٩٦.

في اقتراحه لأنه من حملة الشهادات العليا فضلا عن استعداده لدفع البديل العسكرى فلم يقتنع رئيس المجلس وكتب إلى وزارة الحربية، وهذه كتبت إلى المحافظة لتجنيد بهجة أنه لم يبد معارضة في اقتراحه في الميعاد، فأبرز شهادة شيخ الحارة التي كانت القول الفصل في عدم اتباع الإجراءات التي يقضى بها قانون القرعة.

كان لهذه الحادثة ضجة كبيرة في مصر، وترامت أنباؤها إلى الدوائر الأوروبية، فأرسل مكاتب شركة هافاس تلغرافا مفصلا عنها إلى مركز الشركة في باريس هذا تعريبه:

«إن المحتلين يريدون تجنيد «مصطفى كامل» السياسى الشهير مع أن قوانين البلاد تستثنى من القرعة حاملى شهادة الحقوق والقادرين على دفع البديل العسكرى وهو متمتع بالصفتين، وإن ما ينتحلونه من أعذار كإعلانه في غيابه وإتمام الاجراءات القانونية ليس بصحيح، وإنى أؤكد للرأى العام الأوروبى أن هذه المسألة لو تمت على رغبة الإنجليز لآثارت في مصر حركة تكون نتيجتها وبالا على مصالح دول أوروبا، لأن هذا الرجل من أكبر زعماء الحزب الوطنى الذين وقفوا أنفسهم لتحرير مصر وإخوانه في هذا العهد أقوياء، وغداً سيقابل محافظ العاصمة الذى شدد في طلبه ليتراعى أمامه في قضيته بل في قضية مصر الوطنية بأسرها».

وظهرت جريدة (الجورنال اجبسيان) في صباح اليوم التالى مصدرة بمقالة في هذا الموضوع، حذرت فيها الحكومة والاحتلال مغبة هذا العمل، وقد تراجعت الحكومة أمام هذه الفضحية، وقابل الفقيد المحافظ وألزمه الحجة وأثبت له بشهادة (شيخ الحارة) عدم صحة إعلانه في غيابه، فانتهد الحادثة بالعدل عن اقتراح الفقيد، وكان للشيخ محمد زيدان شيخ الحارة الفضل الكبير في إحباط مكيدة الحكومة.

الفصل السادس

جهاده سنة ١٨٩٧

مرضه ثم إبلاله

أنهك المترجم نفسه في الجهاد خلال سنة ١٨٩٦، فاستقبل عام ١٨٩٧ وهو على فراش المرض، من كثرة أعماله ورحلاته، وقد أبلّ من مرضه في منتصف يناير من تلك السنة، فوصف له الأطباء مدينة حلوان التماساً للراحة وتبديلاً للهواء، ففضى بها مدة أسبوعين استجمّ فيها صحته، وما إن عادت إليه قواه حتى عاد إلى ميدان الجهاد والنضال.

نداؤه إلى ألمانيا

فقد وجه نداءً مؤثراً إلى الأمة الألمانية بتاريخ ٢٧ يناير سنة ١٨٩٧ نشرته جريدة برلتر تاجبلاط) من كبريات صحف ألمانيا ولسان حال وزارة الخارجية الألمانية، شرح فيه القضية المصرية وطلب إلى ألمانيا أن تخرج من حيدتها وتناصر مصر في نضالها، وعلقت عليه الجريدة بقولها:

«إن هذه الدعوة الصادرة عن مصرى وطنى غيور ستزيد بلا شك في ميل ألمانيا إلى الأمة المصرية وعطفها عليها، نعم إن هناك فرقاً بين ميل أمة إلى أخرى وبين مساعدتها لها مساعدة فعلية، ولكن إذا لوحظ أن رجال السياسة البريطانية لا يخشون المجاهرة الآن برغبتهم في اهتضام حقوق البوير (سكان الترنسفال) الذين هم أقرب الناس إلينا، فيفهم جيداً كيف أن مديرى السياسة الألمانية يرون ضرورة طرح المسألة المصرية في ميدان الحل ليفهموا الإنجليز أن في استطاعة ألمانيا القصاص ممن يتجاسر على إهانة كرامتها والمساس بشعورها واعتبار مصالحها السياسية وغير السياسية عديدة الأهمية قبللة الاحترام، ولذلك نعتقد أن دعوة مصطفى كامل للأمة الألمانية جاءت في حينها وصدرت في أحسن وقت سياسى مناسب لها».

رحلته في أوروبا (مارس سنة ١٨٩٧)

واعتزم السفر إلى أوروبا في مارس سنة ١٨٩٧ ليطوف عواصمها ويرفع فيها صوت مصر، متابعا جهاده في سبيلها، فبرح العاصمة يوم الجمعة ١٢ مارس وأبحر من الإسكندرية في اليوم التالي^(١)، وودعه الكثيرون من أصدقائه وأنصاره وكان من بين المودعين أمريكى اسمه المستر (جولدنك) جاء خصيصا ليتعرف به لما سمعه عنه من جهاده في سبيل حرية بلاده، وكان واسطة التعارف بينها أحد كبار الموظفين الوطنيين بالإسكندرية، فانتهاز الأمريكى فرصة تعرفه به وألقى عليه الأسئلة الآتية:

أولاً: هل لك أن تتكرم على بإجمال السبب الذى دفعك إلى المناداة بحرية مصر؟
ثانياً: إذا لم تستطيع فرنسا خاصة وأوروبا عامة أن تجبر بريطانيا على الجلاء فماذا تكون خطتك وخطة مواطنيك العاملين؟

ثالثاً: هل لك من حاجة في أمريكا لأقوم بها خدمة لهذا البلد الكبير المظلوم؟
فأجابه المترجم بإسهاب على أسئلته الثلاثة بما نوجزه فيما يلى^(٢):
قال في رده على السؤال الأول:

«لما كنت مصرياً صمياً رأيت من واجبى أن أقف قلمى ولسانى على الدفاع عن أم حنون لا حياة لنا إلا بوجودها عالية الشأن سامية المقام، وإنى سأبقى ابنها البار الوفى حتى آخر نفس أردده في هذا العالم».
وقال رداً على السؤال الثانى:

«إننا نبني نجاحنا في عملنا على أمرين، الأول خارجى وهو انتهاز الحوادث الدولية،

(١) ذكرت (الأهرام) ما يلى بعددها الصادر في ١٣ مارس سنة ١٨٩٧ «سافر اليوم على الباخرة النمساوية حضرة الوطنى مصطفى أفندى كامل وهو مسافر نوا إلى فيينا وسيذهب منها إلى بودابست وبرلين وبأريس جريا على خطته في خدمة القطر فنرجو له كل نجاح وتوفيق في هذه الخدمة الجليلة».
(٢) نفلا عن كتاب (سيرة مصطفى كامل) لعل بك فهمى كامل ص ٣١٧.

والثاني داخلي وهو نشر العلوم والمعارف بين إخواننا المصريين والتشهير بأخطاء الاحتلال الإنجليزي لترقى بالعقول ونبغض الغاصبين إلى القلوب، وبذلك تقترب الأمة شيئا فشيئا من الوطن حتى تلتف حوله وتصير وإياه جسما واحداً لا قدرة لأية طائفة من الناس أو أية حكومة مهما كانت قوتها أن تعيث بكيانه أو تفصل أجزائه»

وقال جواباً على السؤال الثالث:

«أشكر لك كثيراً الخدمة التي عرضتها على أمريكا، وأمل أن تحلوا تلك العقدة العتيقة التي حرمت العالم صوتكم في المسائل الأوروبية^(٣) حتى نسمعكم صوتنا في دياركم بنفس النغمة التي أسمعتم بها العالم صوتكم يوم كنتم مثلنا نرزعون تحت النير الإنجليزي، وكذلك أؤمل إلا تشهد السماء مرة أخرى دماء البشر تجري في سبيل الخلاص من ظلم بريطانيا، وأن يكون الانجليز أبقى على كرامتهم من أن تلونها بعد تلك الأيمان والعهود الكبيرة أيدي بعض ساستهم الذين يريدون أن يسطر لهم التاريخ مالميسوا أهلاً لعشر معشاره».

فأعجب الأمريكي بهذه الأجوبة السديدة وقال للفقيد: «بارك الله في شعب أنت منه، ولترقى أمة هذه مبادئها وهذا صراطها، فاعمل ودع غيرك يعمل، فإن ما أخذ لا يرد التماسا، ولكن بالصوت العالي والنخوة التي تقلق الظالم في غدوه ورواحه، واعتقد أن الانجليز أسهل الأمم في رد الحقوق متى وجدوا من ذوي الإباء والكرامة والشمم». قصد المترجم إلى تريستا ومنها إلى فيينا. ومكث بها سبعة أيام اتصل في خلالها بكبار السياسيين، والصحفيين، ومن هناك أرسل إلى مدام جوليت آدم كتابا قال فيه:

«فيينا في ٢٠ مارس سنة ١٨٩٧

«سيدتي المدير المبهجة

«أستميحك الإذن أن أكتب إليك بعد سكوت طويل، وصلت إلى هنا من مصر وفي عزمي أن أكون بباريس بعد جولة في بودابست وبرلين - في منتصف شهر أبريل - وليس لدى وقت يسمح لي أن أحادثك في حالة وطني العزيز المتعسة إلى آخر درجات

(٣) يقصد مبدأ منرو الذي يقضى بعدم التدخل في المسائل الأوروبية.

التعس، والتي ما كنا نظن أنه واصل إليها، إن الإنجليز يعملون في وادى النيل كل ما يريدون، ويرتكبون أفظع الجرائم على الإنسانية والعدل، ويسخرون أكبر سخرية من أوروبا، وعلى الخصوص وأسفاه من فرنسا، لأن خطة فرنسا في هذه الأيام قد دفعت بلا جدال الإنجليز إلى ظلمنا ظلماً أشد مما كان، والذي زاد الطين بلة أن هذه الخطة التي كلها إخفاق وخيبة قد أضعفت عزيمة أشد الناس حباً لبلدكم الجميل الكريم».

حديثه مع الدكتور رزير

قابل الفقيد أثناء مقامه بفيينا الدكتور (رزير) النائب النمساوى والطبيب الشهير، وحادثه حديثاً نشرته جرائد فيينا وتناقلته شركات البرق إلى أنحاء العالم، وكان الحديث بمثابة أسئلة ألقاها الفقيد على النائب النمساوى، وأجاب عليها النائب في حديثه، وقد دلت الأسئلة وطريقة إلقائها على كياسة الفقيد في الدعاية للقضية المصرية وعمق أفكاره وإحاطته بالسياسة العالمية.

سأله المترجم: ماذا تكون خطتكم إذا عرضت مسألة مصر على بساط البحث؟ فأجابه النائب النمساوى بما خلاصته أن الكثيرين من زملائه أعضاء البرلمان يميلون إلى طرح المسألة المصرية على بساط البحث رغم العلاقات الودية التي بين الحكومة النمساوية وحكومة الملكة فكتوريا، ومتى طرحت تكون في جانب العدل الذي يقضى بحرية مصر ووضعها تحت ضمان الدول أجمع، لأن أهمية مصر بالنسبة لأوروبا ماثلة في قناة السويس التي ترتبط مصالح أوروبا الصناعية بآسيا المحتاجة لصناعتها، وليس لأوروبا عامة والنمسا خاصة طريق للشرق إلا قناة السويس، وعدا ذلك فإنه لا يصح أن تمتلك القناة دولة بحرية لأنها تخيف العالم أجمع وتصبح سيادة عليه تفعل ما تشاء وخصوصاً الدولة الإنجليزية فإنه فضلا عن كونها أقوى دولة بحرية فإنها كذلك أكبر دول العالم التجارية.

وانساق الحديث إلى اشتداد التزاحم بين ألمانيا وإنجلترا فسأله الفقيد:

«هل يكون لمصر حظ يذكر عند قيام النزاع بين ألمانيا وإنجلترا في يوم من الأيام؟».

فأجابه النائب النمى:

«إنى لا أعرف درجة الأمة المصرية من الاستعداد حتى أحكم لها أو عليها، ولكنى أؤكد لك أنها إذا استمرت على ما نسمعه عنها من السير فى طريق الاستنارة بضوء العلم واتحادها كتلة واحدة كان لها على كل حال الفوز المأمول سواء حدثت بين الدول حوادث أم لم تحدث».

رليمة المترجم فى فيينا

(٢٤ مارس سنة ١٨٩٧)

أراد مصطفى كامل أن يسع صوته أكبر عدد ممكن من رجال السياسة فى النمسا، فأقام وليمة كبرى فى فندق (متروبول) مساء الأربعاء ٢٤ مارس سنة ١٨٩٧، دعا إليها نيفا وثمانين مدعوا من النواب والصحفيين، ومنهم الدكتور رزنى انتقدم ذكره وبعد أن تناولوا العشاء وقف الداعى وألقى نيهم الخطبة الآتية:

«إن مصر أيها السادة تشكر لكم من صميم أفئدة أبنائها إجابتكم دعوة مصرى منهم جاء بلادكم العزيزة أكثر من مرة واتصل برجالكم المعدودين الذين أنتم من صفوتهم سائلا بكل إلحاح وحق نصره مسألتنا التى تنحصر فى كلمتين «احتلال مؤقت لا يمكث إلا ستة أشهر وله اليوم خمسة عشر عاما أى ثلاثون ستة أشهر»، إذا كان أيها السادة حبل الكذب طويلا فلا بد أن يكون لهذا الطول حد، وإذا كان الكذب شعار المتمدين فماذا يكون شعار المتوحشين المتعصين كما يتهمنا الإنجليز، إن لى الحق أيها السادة إذا قلت إن العصر الحاضر عصر ظلم وافتيات على الحقوق لا عصر عدل وإنصاف ورد الحقوق إلى أهلها، إن المصريين مشهورون من قديم الزمان بالدعة والاعتدال، ولهم مآثر على العالم أجمع إن أنكرها الإنجليز فلا ينكرها التاريخ الذى هو أعدل شاهد يحكم بيننا وبين أمة ظلمت رايتها التى أقسمت بشرفها، والتاج الذى يجب احترامه، فقدمتها ضمنا على صدقها عندما دخلت بلادنا ووعدت بالجلء عنها عندما يتوطد عرش الخديوية ويستتب الأمن، فها هو ذا الأمن مستتب والأمة بأسرها ملتفة حول أميرها، إنى لا أطيل شرح عيوب الاحتلال فقد شرحت ذلك مرارا، ولكنى أسأل ضمائركم الحرة أن

تكونوا أصوات عدل في المسألة المصرية، فإننا نعترف على الدوام بالجميل لمن يؤيدنا، كما تجدون منا إلى أبد الآبدين أصدقاء أوفياء يذكرونكم بكل خير، ويمجدون فيكم تلك الروح الشريفة التي أودعتموها نفس أمير مصر^(٤)، ألا وهي روح الحرية واحترام إرادة الشعب، وفي الختام أكرر لكم بلسان الوطن والأمة عظيم الشكر على الود الذي أظهرتموه نحونا لتكون مصر للمصريين».

وقد رد عليه المسيو رزرن بخطبة كلها عطف وتأيد للقضية المصرية ختمها بالتأمين على كلمات المترجم، وأمل لمصر مستقبلاً عظيماً.

رحلته إلى بودابست

(مارس وأبريل سنة ١٨٩٧)

سافر المترجم من فيينا إلى بودابست عاصمة المجر يوم الجمعة ٢٦ مارس وودعه على المحطة جميع أصدقائه ومعارفه النمسيين ممن ضمهم إلى صف المسألة المصرية، ومأن وصل إلى بودابست حتى وجد في إنتظاره أفراد عائلة كبيرة من العائلات المجرية النبيلة، وهي عائلة الكونت (كرونزوت)، وكانت مدام جوليت آدم واسطة التعارف بينها، فلما نزل بالفندق استضافته هذه العائلة في دارها بضواحي بودابست، وعرفته بعدد كبير من خاصة عائلات المجر وأشرفها ونبلاتها، فاتصل بكثير من السياسيين والصحفيين في هذه العاصمة الكبيرة، وأوجد بها جواً من التأيد والحب لمصر، وقد أعجب بوطنية الأمة المجرية التي يضرب بها الأمثال في قوة العقيدة والتبات في الجهاد ورحبت الصحف بمقدمه وحبته بكل مظاهر الحفاوة والتكريم، ومجدت في شخصه الوطنية المصرية.

في برلين

(أبريل سنة ١٨٩٧)

ثم سافر إلى برلين في ٥ أبريل سنة ١٨٩٧، وقابل لفيفاً من الصحفيين والسياسيين ممن تعرف بهم من قبل أو عرفهم في هذه المرة ودار بينه وبين جريدة (برلنر تاجبلاط)

(٤) يشير بذلك إلى أن الخديو عباس تلقى علومه في النمسا.

الشهيرة في ٧ أبريل حديث عن شئون مصر إذ سأله المكاتب عن الحالة السياسية الحقيقية في مصر.

فأجابه المترجم: «إنها حالة فوضى عامة في إدارة البلاد وقلق شديد في نفوس الشعب المصرى، فقد أصبح بين المصريين وحكومتهم - كما يوجد بينهم وبين الإنجليز - هاوية عميقة جداً، فإن حكومة بلادنا - ورجالها من صنائع الإنجليز - تعمل في مصر كل ما ينافى رغبة الأمة، فأكثر من مرة طلب مجلس شورى القوانين وهو الهيئة النيابية في مصر إجراء إصلاحات في الإدارة والتعليم، والحكومة بدلا من أن تدعن لرغبة الشعب كجميع الحكومات المتعددة كانت تقابل المجلس باللوم وبكل خشونة وتجري ضد رغائبه ومطالبه، والعامل المؤثر في ذلك معاضدة الإنجليز، فأصبحت الأمة المصرية اليوم لا تحترم حكومتها».

وأفاض في دسائس السياسة الإنجليزية منذ الثورة العراقية إلى ما بعد الاحتلال وكانت الحرب التركية اليونانية قائمة في ذلك الحين، وجرى اكتتاب للجيش العثماني في مصر، فسأله المكاتب في ذلك فقال:

«إنه وإن كان المصرى لا يعرف إلا وطناً واحداً وهو مصر فمن الأمور الطبيعية المحضة أن يساعد المصريون دولة الخلافة ويظهروا بذلك امتنانهم لها لأنها لم ترد أن تكون آلة في يد الإنجليز».

وشرح هذه الفكرة بإسهاب في مقالة نشرتها له جريدة (برلنربوست نخرختن) الألمانية قال فيها: «إن أهم معنى سياسى لاكتتاب المصريين لإعانة الجيش العثماني هو القيام بمظاهرة من الأمة بأسرها ضد الاحتلال الإنجليزي، فإن المصريين يعلمون علم اليقين أن كل دسائس إنجلترا في الشرق ترمى إلى إمتلاك وادى النيل، وأن الإنجليز لما لم يستطيعوا استمالة السلطان إليهم ضد مصر والمخديوى، أخذوا يعملون لتقسيم الدولة العثمانية آملين أخذ مصر وبلاد العرب وإعلان سيطرته على الإسلام كله، وسواس أوروبا لا يجهلون مطلقاً أنه يصبح من العسير علينا حل المسألة المصرية إذا اتفقت تركيا مع الانجليز على احتلالهم وادى النيل».

في باريس

ثم ذهب إلى باريس في أبريل سنة ١٨٩٧، فألقى في صحافتها حركة معادية لمصر لمناسبة الحرب بين تركيا واليونان، وذلك على أثر مقالة نشرتها جريدة (الاجيشيان، جازيت) ونقلتها عنها جريدة (الليبرتيه) كلها طعن في الفقيده وفي الحزب الوطني، وقد عزت إليه وإلى سائر أعضاء حزبه السعى في إثارة الخواطر في مصر ضد الأوروبيين والتحريض على إحداث ثورة.

فبادر إلى إحباط هذه الحركة بكتاب نشره في جريدة (الليبرتيه) ذاتها، كذب فيه مزاعم الاجيشيان جازيت، ونفى عن المصريين تهمة التحريض على إحداث قلائل واضطرابات ضد الأوروبيين، وقد علقت جريدة الليبرتيه على هذا الكتاب بقولها: «نشرنا هذا الكتاب ليقف قراؤنا على الحقيقة التي شوهها الإنجليز والتي تنطق بها كلمات هذا الوطني المصري الكبير الذي نرحب به ونفسح صحائف جريدتنا له ولكل غيور على الحق الذي نحن من أنصاره».

عودته إلى مصر

ثم عاد إلى مصر يوم ١٢ مايو سنة ١٨٩٧ ووافقت عودته يوم عيد الأضحى وانتصار الجنود العثمانية في الحرب اليونانية.

اقتراحه على تركيا

اشتراط الجلاء عن مصر مقابل الجلاء عن اليونان

وقد أرسل إلى باشكاتب المابين تلغرافا بالتهنئة بعيد الأضحى وبانتصار الجيش العثماني، وأعرب فيه عن رجائه أن يشترط السلطان على دول أوروبا لعقد الصلح جلاء الإنجليز عن مصر، مقابل جلاء الجيش العثماني عن بلاد اليونان، وقد كان هذا

الاقتراح آية في الوطنية، إذ دل على أن قضية استقلال مصر كانت تشغل فؤاده طول حياته، وقد هاج اليونانيون القاطنون بمصر لهذا التلغراف، وكتبت جريدة (الفارد السكندري) اليونانية، تعليقا عليه اتهمت فيه الفقيه بکراهيته الشديدة لليونان، واستندت إلى أنه يطلب من السلطان بقاء الجنود التركية في تساليا مادام الإنجليز في مصر، فأرسل إلى جريدة (الفارد السكندري) رداً على مقالها كتابا بتاريخ ١٦ مايو سنة ١٨٩٧ نشرته جريدة (الريفورم) دافع فيه عن موقفه، وتساءل لماذا تتدخل أوروبا في المشكلة التركية اليونانية ولا تتدخل في المسألة المصرية وقال إن الدول الأوروبية التي تريد أن تجبر تركيا على احترام رغبتها وسحب جنودها من بلاد اليونان يجب عليها أيضاً أن تجبر إنجلترا على الجلاء عن مصر، وعقب على ذلك بقوله مخاطباً مدير جريدة الفارد السكندري (وهو من كبار اليونانيين) قائلاً: «هذا هو رأيي وهذا هو فكري، ولعله لا يرضيك، ولعلك يا حضرة المدير لا توافق على آرائنا وأفكارنا، ولكن يجب عليك أن تحترمها كما أننا نحترم إحساساتك وآراءك. فأنت ترى الأشياء من وجهة المصلحة اليونانية، وأنا أراها من ناحية المصلحة المصرية، ومن العدل أن يكون كل منا لوطنه، لا لغير وطنه».

خطبته بالإسكندرية

(٨ يونيه سنة ١٨٩٧)

وقد رأى من الصحف الأوروبية المحلية حملة شعواء على الأمة المصرية لما أبدته من العطف على تركيا في الحرب اليونانية، فاعتزم إلقاء خطبة في الإسكندرية دفاعاً عن موقف الأمة من هذه المسألة وتوضيحاً لعلاقة مصر بتركيا.

ألقى هذه الخطبة يوم ٧ يونيه سنة ١٨٩٧^(٥) بمسرح زيزنيا في اجتماع حافل حضره ألفان من صفوة القوم من الإسكندرية والأقاليم، وبعض النزلاء الأجانب، وقوبل أثناء خطبته وبعد انتهائها بالتصفيق والهتاف، وكان موضوع الخطبة حث المصريين على التواصل بالوطنية والإخلاص لمصر، ومحاربة اليأس واستثارة روح الكرامة والإباء في نفوسهم، ودعا إلى البذل والتضحية في سبيل مصر، وحض على دوام الاتحاد بين المسلمين

(٥) المؤيد عدد ٩ يونيه سنة ١٨٩٧.

والأقباط. وحبب إلى الشباب الإقبال على الحياة الحرة، والإعراض عن الوظائف، وأهاب بسرقة البلاد وأعيانها أن يبذلوا من أموالهم وجهودهم لنشر التعليم القومى فى أرجاء مصر، ونفى تهمة التعصب الدينى الذى نسبته خصوم مصر إلى المصريين بسبب اكتتابهم للجيش العثمانى فى الحرب اليونانية التركية، وسوغ موقف مصر نحو تركيا قائلاً:

«إن مظاهرة الأمة المصرية نحو الدولة العلية هى مظاهرة قوية ضد الاحتلال الإنجليزى واشتراك أفراد الأمة على اختلافهم فى الاكتتاب للجيش العثمانى هو اقتراح عام ضد الإنجليز فى مصر».

إلى أن قال:

«نحن نسأل الذين ينتقدون اكتتابنا للدولة العلية لماذا غير الإنجليز سياستهم نحو تركيا من سنة ١٨٩٣، لماذا قاموا من ذلك الحين ضدها بعد أن كانوا يعلنون للملأ كله أنهم أصدقاؤها وأحباء السلطان؟ أليس ذلك لأن السلطان لم يرض العمل معهم ضد مصر وضد أميرها؟ أليس لأنه قدر آمال المصريين ورغائبهم حق قدرها؟ هبوا أن لا علاقة بين مصر والدولة العلية غير العلائق العادية بين الأمم، أليس من واجباتنا الوطنية أن نعرف بالجميل لدولة رفضت القضاء على حياتنا ومساعدة أعدائنا ضدنا؟ ثم ضرب متلاً بصدقة الأمة المجرية للأتراك وحبها إياهم إيواء تركيا أحرار المجر فى بلادهم».

وبعد أن انتهى الخطيب من خطبته اقترح على الحاضرين إصدار قرار بالاحتجاج على الاحتلال الإنجليزى أشد الاحتجاج وبالإعراب للنزلاء الأجانب عن عواطفهم الودية نحوهم وأنهم لا يرغبون إلا أن يعيشوا معهم فى سلام، ويسألون سلطان تركيا أن يطلب من الدول الأوروبية الاتفاق على حل المسألة المصرية وتحقيق حرية مصر واستقلالها، فوافق الحاضرون بالإجماع على هذا القرار.

وقد كانت هذه الخطبة فوزاً كبيراً للفقيد، وأسهمت الصحف الوطنية والأوروبية فى وصف الاجتماع، وطيرت الشركات البرقية نبأ الخطبة إلى الخارج، قالت جريدة (الفرد السكندرى) فى هذا الصدد ما يأتى: «قد اندفع الناس أفراداً وجماعات لسماع الخطبة التى ألقاها حضرة الفاضل مصطفى افندى كامل فى مسرح زيزنيا عن المسألة المصرية،

فكنت ترى هذا الملهى الجميل الكائن بشارع باب شرقى بموج بالأهالى من لابسى الطرايبش وحلة العمائم مزدحمين فى المقاعد والألواح أو وقوفا على الأقدام، جائلين بين المنافذ والأبواب، حتى كان الزحام شديداً، فلم يخل منه مدخل التياترو، وعند الساعة التاسعة مساء حضر مصطفى أفندى كامل ووقف على المسرح، فقبل بتصفيق شديد، وقدمت له عدة باقات من الأزهار وشاهدنا على الأخص باقة من الزهور بديعة الشكل تدل على حسن ذوق صانعها قدمت له باسم أهل الإسكندرية، ثم افتتح الخطيب موضوعه وظل يخطب ساعة ونصفاً بين تصفيق شديد كان يدوى فى نهاية كل جملة، وكان التصفيق يمتد فى بعض الأحيان حتى يضطر الخطيب إلى الإنقطاع عن الكلام، أما صوته فحسن جهورى، ذو رنة قوية، لذلك كان يسمع من كل أرجاء الملهى، حتى أن كل من فى هذا الجمع العظيم على كثرته استطاع أن يعى كل أقوال الخطيب التى كان يلقيها بعبارات فصيحة خالية من شوائب التعقيد، ثم أتت الجريدة على خلاصة الخطبة.

وكتبت جريدة (الوطن)^(٦) تحت عنوان (الخطباء فى مصر) مقالة طويلة جاء فيها «قد انشرح كل من سمع خطاب حضرة الوطنى الماهر مصطفى أفندى كامل لأنه ظهر فى المصريين من هو مقتدر على الإعراب عن نوايا الأمة المصرية بالاعتدال والرزانة والحض على مكارم الأخلاق والحث على المحبة والمسالة، ونقلت قول الفقيد: «إن المسلمين والأقباط شعب واحد مرتبط بالوطنية والعادات والأخلاق وأسباب المعاش ولا يمكن التفريق بينهما مدى الأبد».

وقال المؤيد تعليقاً على تقرير الوطن: «قد نشرنا أيضاً ما كتبه جريدة الوطن الغراء فى هذا الصدد، وهو ليس من قبيل تقرير الخطيب بل هو إعراب حق عن حكم عقلاء الأقباط على تلك الخطبة الوطنية».

وكتب الفقيد إلى مدام جوليت آدم يصف النجاح الذى لقيه فى هذا الاجتماع وبدافع عن خطته وخطة الحركة الوطنية حبال تركيا، وقال:

(٦) لصاحبها المرحوم ميخائيل عبد السيد، عدد ١١ يونيه سنة ١٨٩٧.

«الإسكندرية في ١٢ يونيه سنة ١٨٩٧.

«سيدتى المديرية المبهجة.

«لابد أن تكون تلغرافات هافاس قد أنبأتك بهذه المظاهرة الوطنية الكبرى التى كانت يوم الثلاثاء الماضى والتى ما كنت أنتظر وقوعها من مواطنى لعظيم جلالها، ذلك أنه لم تكذ الصحف تعلن عن الخطبة التى ألقيتها حتى جاءت الوفود من أنحاء الأقاليم للاشتراك فى هذه المظاهرة التى حضرها أكثر من ألفى مصرى، وقد وافقوا بكل سرور، وهم محقون فى هذه الموافقة على ما عرضته عليهم أخيراً من عدم الرضا بالاحتلال وطلب الجلاء، وإن الأوروبيين حتى اليونانيين منهم لمرتاحون إلى تلك المظاهرة وهذا القرار، إنك تعلمين خطتى نحو تركيا، وما أراه واجبا نحوها، فقد أفصحت عن ذلك فى خطبتى، واعترف كثير من أصدقائنا اليونانيين بأنه من السياسة القومية لمصر أن تكون حسنة العلاقات مع تركيا ما دام الإنجليز محتلين وطننا العزيز».

«وإنى لا أرتاب فى أن حياة الأمة المصرية النضرة التى تجلت للعيان ستملوك سروراً، ولذلك كتبت إليك هذه الكلمة، وأنا أؤمل أن تتفضلى بإفراد مقالة فى المجلة أو فى غيرها للوطنية المصرية».

سفره إلى أوروبا

(يونيه سنة ١٨٩٧)

ثم سافر من الإسكندرية يوم ٢٦ يونيه إلى أوروبا ليواصل جهاده بها، فوصل إلى الاستانة يوم ٢٩ يونيه، ونزل بفندق (سمر بالاس) بترابيا على البوسفور، وقصد إليه كثيرون من رجال السياسة الأوروبيين، وفى مقدمتهم مراسلو الصحف الأوروبية والإنجليزية، وأخذوا يستوضحون آراءه فى المسألة المصرية.

وبعد أن قضى أسبوعاً فى الاستانة سافر إلى بودابست فوصلها فى ٧ يوليه ورحبت به صحفها أحسن ترحيب.

ذكرى ضرب الإسكندرية

وقد صادف وجوده بها ذكرى ضرب الإسكندرية بمدافع الأسطول الإنجليزي (١١ يولييه سنة ١٨٨٢) فأرسل تلغراف احتجاج على الاحتلال إلى اللورد سلسبرى رئيس الوزارة البريطانية في ذلك الحين، قال فيه:

«بودابست في ١١ يولييه سنة ١٨٩٧.

«جناب رئيس الوزارة الإنجليزية.

«إنى فى هذا اليوم ١١ يولييه الذى هو التذكار الخامس عشر لضرب الإسكندرية أرى من الواجب علىّ تذكير جنابكم بالوعود التى قدمت باسم التاج الإنجليزي والشرف البريطانى للجلاء عن وطننا، وإذ كانت مصر محتلة ظلماً وعدواناً ضد رغبتها وضد مصالحها الحيوية فهى تعتبر يوم ١١ يولييه هذا تذكار حداد لها وتذكار عار لإنجلترا، وما دام الاحتلال الإنجليزي باقياً فهذا العار يحمله كل فرد من الإنجليز أمام المدينة والتاريخ والعالم أجمع»^(٧).

مصطفى كامل

وقد أبلغ نص هذا التلغراف إلى الصحف المصرية، مع شرح وإيضاح للمسألة المصرية، وكتبت الفصول الإضافية دفاعاً عن مصر وتعريفاً بشأنها فى العالم.

كتبت جريدة (بسترلويد) فى هذا الصدد:

«إننا نحن المصريين الذين توارثنا فى دمائنا أبناء عن آباء حب الوطن وتمجيد الوطنية لنعطف بكل جوارحنا على مطالب المصريين ونهنتهم بوجود رجال بينهم مثل (مصطفى كامل) الذى نسميه بحق (كوشوت مصر)، ونسأل دول أوروبا كافة أن تؤازر المصريين مؤازرة فعلية بإجبار الإنجليز على الجلاء عن مصر وتركها لأهلها، لأنه من العار أن تظهر

(٧) المؤيد عدد ١٩ يولييه سنة ١٨٩٧.

أوروبا المتقدمة بمظهر الكاذب في سياستها أمام الشرق، إن مركز مصر ليس كمركز أى بلد شرقى آخر، فهى مصدر فوائد كثيرة للعالم، ولها مزايا فوق كل مزايا أخرى». وقالت جريدة (ما جيانوك لاجا) «

«إننا نرحب بعمل مصطفى كامل صديق المجر ترحيب الوطنى بالوطنى، ونقول للإنجليز إنكم تحسنون كثيراً إلى أنفسكم بالجلء عن مصر قبل أن توغروا صدور الدول عليكم إذا استرسلتم فى البقاء فيها، وإن بلدأ مركزه كمصر لا يصح أن يكون فى يد دولة واحدة، وأملنا كبير فى أن مصلحة الدول المشتركة فى مصر تحمل الحكومة الانجليزية على الوفاء بوعودها، وإنا نعتقد أنه مهما طال الزمن على هذا الاحتلال المضر بالعالم أجمع فلا بد من جلائه يوماً من الأيام، ولذلك لا يصح أن ييأس المصريون من تحرير بلادهم، مادام فيهم مثل (مصطفى كامل) الوطنى المشتعل وطنية وحباً لبلاد الفراعنة العظيمة». وكذلك كتبت الصحف النمساوية تؤيد مطالب المصريين.

صدى جهاده فى أمريكا

تردد صدى جهاد الفقيه فى الصحف الأمريكية، فنشرت جريدة (نيويورك هيرالد) رسالة للمسيو سيمون المعروف بمبادئه الديمقراطية قال فيها:

«إن العالم المتقدم يسمع فى هذه السنين الأخيرة صوتاً رناناً وطنياً من الشرق، وهو صوت سليل الفراعنة (مصطفى كامل) هذا الصوت الذى أسمعته بكل انشراح وأقرؤه بكل إمعان، ومما يدهش أن الصحافة الأوروبية عامة والانجليزية خاصة لا تعير هذا النداء الحق ما يستحقه من التشجيع، بل بالعكس نرى أكثرها يتهمه شخصياً بمآرب غير وطنية، وقد أردت بما أكتبه فى جريدتكم المحترمة أن أكون أحد المشجعين لهذا الوطنى المحبوب، وأقدم للعالم مناقشة بسيطة فى المسألة المصرية، يقول مصطفى كامل إنه مصرى، ونحن لا ننكر عليه ذلك، ويقول إنه يدافع عن بلاده طالباً وفاء الانجليز بوعودهم سائلاً أوروبا أن تساعد على تحقيق أمانى مواطنية، ونحن بإزاء هذا القول يجب علينا أن نقول (إنك صادق فى دعواك ولا نسألك إلا انتظاراً)، لأن انجلترا بمهارتها تخلق كل يوم

ما يبعد عنها المناقشة في المسألة المصرية التي ليست في الحقيقة إلا مسألة الهند أولاً ومسألة الشرق ثانياً، فهذا الطريق أو بعبارة أخرى قناة السويس لم تحفر لتكون وقفاً على الانجليز، بل لتكون طريق رحمة تجارية للعالم كله.

«خلقت انجلترا مسألة الترنسفال لتشغل ألمانيا، وخلقت مسألة الأرمن واليونان لتشغل تركيا، كما تسعى لحفر بئر للروسيا في الشرق الأقصى، وكل هذه المسائل تعطل كثيراً عرض مسألة مصر على بساط البحث وإعطاءها حقها بين الأمم الحرة التي تتقلب في نعيم بينها هي تعاني آلاماً جساماً.

«إن مصطفى كامل قائد حركة وطنية في مصر، فبقدر سرعة هذه الحركة من العلم والعرفان وتمثيل حالي الوطنى للناشئين (حالة الشقاء وحالة الرخاء) تقرب ساعة تحرير ذلك الوطن الجليل.

«وإذا سأل الإنجليز (مصطفى كامل) أين أسلحة مصر وبواخرها وذهبها لتتغلب أمته على انجلترا وتملك مصر؟

فالجواب عندي عن ذلك: أن بواخر مصر هي نيلها، وأسلحتها إرادة أبنائها، وذهبها جمال وضعها، فليتخذ أبنائها فوق هذه المزايا من العلم دروعاً، ولينازلوا الإنجليز بنبات الساكن الصابر، فإن قائد السفينة في حاجة لعقل سليم وجسم سليم ليقود سفينته، وإلا فهي بغيرها غارقة، إن الوطن بيننا نحن الأوروبيين الراقين عظيم جليل محترم، مفضل على الحياة والولد والمال، فما بالنا نحتقره عند غيرنا ولا نود ألا نحتكر العواطف الشريفة لأنفسنا؟».

وقد علقت جريدة (نيويورك هيرالد) على هذه الرسالة بقولها: «إن غرض مصطفى كامل شريف. وقد قدمناه لقرائنا بلسان جريدتنا، فهو رجل إذا تكلم أسمع العالم صوته، ومن عرف أنه ليس بغنى كبير ولا وزير حكومة ذات سلطان، قال معنا إنه نابغة ككل عظماء الرجال الذين يهيم التاريخ من حين إلى حين إلى الأمم المضطهدة المظلومة ليهدها طريق السداد؛ وأنه إذا كان المصريون إلى اليوم في نظر بعض الساسة لا يستحقون ما يتغنون من سعادة لا نحطاط مستواهم العلمى فانا نؤكد من جديد أن مصطفى كامل الذى حادثه مراسلنا بالاستئانة في العام الماضى لا يقل علماً عن أعظم

سياسى من ساسة أمريكا وأوروبا، ولكن لسوء حظ مصر جاء فى الزمن الذى بلغ فيه حب الحياة المادية مبلغاً عظيماً فأصبحت المدافع والمدمرات تستخدم لاغتيال الحقوق لا لنصرة أمة مظلومة على أمة ظالمة ولكننا مع ذلك نقول له ما قاله المسيو سيمون: «إن خطوة إلى الأمام ولو كل قرن فى سبيل تحرير الوطن لخير من لا شيء»، فليسر مصطفى كامل ومواطنوه إلى حيث يجدون بعون الله «مصر رمسيس» سيدة مهيبة».

هذا بعض نتائج جهاد مصطفى كامل وصداه فى أوروبا وأمريكا، ولا شك أن تعريف أوروبا بمصر الحديثة يرجع أول الفضل فيه إلى جهاده بقلمه ولسانه فى الصحافة والمحافل الأوروبية، ومن يقرأ هذه النماذج من أقوال الصحف عن مصر والمسألة المصرية تعليقاً على دعاية الفقيده يدرك مبلغ الاحترام الذى نالته بفضل هذه الدعاية الكبيرة التى قام بها ذلك الرجل العظيم.

فى فيينا وباريس

مكث المترجم فى مدينة بودابست حتى ٢٣ يولييه سنة ١٨٩٧، وسافر منها إلى فيينا، وهناك واصل دعايته للقضية المصرية، ثم برحها إلى باريس، فجاءها فى أغسطس وبادر بإمداد الصحف والأندية بآرائه فى الشئون المصرية ودفاعه عن قضية مصر، فبدأ حملته بحديث مستفيض فى جريدة (الإكلير) الباريسية حمل فيه على السياسة الإنجليزية وتصرفاتها فى مصر.

كان لهذا الحديث صداه فى النفوس، فانبرى أحد كبار الكتاب الفرنسيين وهو المسيو (ادوار فلدتوفل) ينتقد السياسة البريطانية فى مقالة نشرها بجريدة (لايه) تعليقاً على حديث مصطفى كامل، وأيده فى آرائه، وكذلك كتبت جريدة (الدبيش كولونيال) مقالته فى هذا المعنى.

خطبته بباريس

(ذكرى ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢)

ألقى الفقيد بباريس يوم أول سبتمبر سنة ١٨٩٧ خطبة من أقوى خطبة الوطنية في حفلة أقامها في الفندق النازل به، دعا إليها المصريين والعثمانيين الذين كانوا وقتئذ بباريس، بدأها بالتنويه بانتصار الجيش العثماني في الحرب اليونانية، ثم عرج بذكرى ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢، وهو يوم دخول الإنجليز القاهرة، فقال مشيراً إلى هذه الذكرى مستحثاً المصريين على الجهاد الوطني:

«هناك تذكارات أخرى أراها قريباً منا وأشخصه أمام عيني مكتوباً بحروف الحداد، ألا وهو يوم ١٤ سبتمبر المقبل، التذكارات الخامس عشر لدخول الإنجليز مدينة القاهرة عاصمة مصر التعسة، نعم أرى هذا التذكارات وأحس آلاماً شديدة لذكراه، آلاماً تختلج الفؤاد وتزاحم الفرح والسرور، فالبسوا ثياب الحداد في ذلك اليوم، واندبوا حظ بلادكم التعسة، وخففوا من آلامها بالعمل لخدمتها والتفاني في سبيل خلاصها».

الدعوة إلى الجهاد الوطني

«فمن كان وطنه وادى النيل عاراً عليه أن يسلمه لسواه، ويعيش حقيراً ذليلاً غريباً في بلاده، أجنبياً في ربوعه آبائه وأجداده، ولطالما ردد الفلاسفة أن كلمة الحق تصل إلى آذان الأفراد والأمم وتبلغ أعماق القلوب ولو بعد قرون فنادوا إذن بتحرير الوطن المصري، فإن لم يسمع صوتكم اليوم فهو مسموع غداً بمشيئة الله».

«ولاتظنوا أيها الأخوان أنكم تكونون أبرياء من إثم ضياع مصر إذا سكتكم عن المطالبة بحقوقها ولم تعملوا لإخراج الأجنبي من ديارها، فقد يظن الكثيرون في مصر أن الذى لا يخون وطنه ولا يخدمه ولا يدافع عنه يكون بريئاً من مصائبه غير مسؤول عن الأخطار التى تتساقط عليه، كلا إن الذى يرى النار بعينه ويقف عند حد المشاهدة فلا يعمل لإطفائها هو شريك فى الإثم لمن سورها، فكيف بنا ونحن نرى الأجنبي يعتدى

على حياة أمتنا ووطننا ويهتك عرض بلادنا ويسلبنا أموالنا وحقوقنا ويستذلنا ويحسن للحيوان الأعجم أكثر من إحسانه إلينا، ألا إن الحياة الذليلة خير منها الموت، والموت في سبيل الحياة الشريفة خير من حياة ذليلة».

الشباب والشيوخ في الجهاد

ثم تكلم عن واجب الشباب في الجهاد الوطني فقال:

«وإذا كنا معشر الشباب لم نجر على بلادنا هذه المصائب الجمة فلا جرم أننا إذا أهملنا الأمر كنا الجانين على أبنائنا من بعدنا، فلقد سلمنا آباؤنا مصر وفيها بقية من حياة، فهل يليق أن نسلمها لأبنائنا ميتة لا حراك فيها؟ إن مصر كعليل أنتم تعرفون دواءه فقدموه لها ولو قطعت أيديكم بالسيوف ومزقت أفئدتكم بالخناجر، ولو ناجيتم سرائركم وتنزلتم إلى أفئدتكم وتساءلتم من المسئول عن إحياء مصر، أهم الشيوخ أم الشبان أهم الذين بلغوا غاية العمر وقضوا حياتهم، أم الذين لهم الشبيبة والقوة والحياة ونشأوا على مبادئ الوطنية السليمة وتربوا على محبة مصر العزيزة، ورأوا غيرهم من أبناء الأمم الحية يضحي في سبيل بلاده بكل نفيس وعزيز؟ لا ريب أن ضمائركم تحييكم أنكم وحدكم أنتم، أي كل رجال الشبيبة المصرية، المسئولون عن إحياء مصر، وكفاكم من الشيوخ رضاؤهم عنكم وعن أعمالكم».

الإشادة بالوطنية

ثم أشاد بالوطنية ودعا إلى اعتبارها فرضاً على كل مصرى صغيراً كان أو كبيراً وضرب الأمثلة التاريخية على تعلق الأمم بأوطانها فقال:

«ولا يرين أحدكم نفسه صغيراً فيقول ومن أنا حتى أدافع عن بلادى وأطالب بحريتها وأسعى لسعادتها؟ فذلك فكر خطأ، فكل مصرى مسئول عن حالة مصر ولكل مصرى الحق في خدمتها، بل عليه واجب إنهاضها وإعلاء شأنها، وجميع المصريين أمام مصر سواء، وحنانها لكل فرد من أبنائها لا ينقص عن حنانها للآخرين، وقد جاءنا

التاريخ بالأمثال العديدة على قيام أفراد من آخر طبقات الشعب بأكبر الأعمال وأشرفها، وأرانا التاريخ فتاة (هى جان دارك) قد حررت فرنسا وطنها وأخرجت الانجليز من ربوعه وهذا (كوشوت) محرر المجر بدأ صغيراً لا مقام له فى بلاده ولا مكانة، ولكن وطنيته الطاهرة، وفؤاده المتقد غيرة على وطنه، وخلوه من الغرض الشخصى، جعلته فى تاريخ بلاده وفى تاريخ الأمم رجلاً من عظماء الرجال، وقدوة كبيرة فى تحرير الأوطان، والتاريخ مملوء بذكر الرجال الذين نهضوا من الطبقات الفقيرة إلى أسمى المراتب بوطنيتهم الصادقة وإحساساتهم السامية».

محاربة اليأس

«فاعملوا إذن والأمل ملء قلوبكم، ولا تيأسوا طرفة عين، بل ليزدد عملكم بازدياد الخطر، شأن ذوى النفوس الشريفة والمقاصد العالية».

الوطنية والحياة فى أوروبا

«وإنى لست فى حاجة لأن ألفت أنظاركم إلى ما ترونه فى أوروبا من مظاهر الوطنية الجليلة، ومن معالم الحياة الحقيقية، فهذا العمران العظيم ناطق بأبدع بيان بأنه من نمار الوطنية، وكل ما فى هذه الديار من عدل ونظام، وحرية واستقلال، ونعيم عظيم، وملك كبير، وهو لا ريب من مبتدعات هذا الإحساس الشريف الذى يسوق أفراد أمة بأسرها إلى العمل لغرض مشترك ومطلب واحد، ولا ريب عندى أنكم كلما دخلتم مدافن عظماء الرجال وزرتم قبورهم أعجبتم بهذه الوطنية العالية التى رفعت مقام هؤلاء الرجال وخلدت لهم الذكر الجميل على تعاقب الأجيال، لا ريب أنكم أعجبتم بهم وغبطتموهم، فلقد عاشوا كرماء أوفياء لأوطانهم، وماتوا مشرفين على الأقدار والمقامات، وبقيت أعمالهم دروساً ومثلاً للأبناء والأعقاب، ولا ريب أنكم أملت أن يظهر فى المصريين كثير من أمثال هؤلاء الرجال، حتى تبلغ مصر مبلغ تلك البلاد من عزة الكلمة وقوة البطش والسلطان».

«ولا جرم أن أنفع درس يحتاج إليه المصري من أوروبا هو الوقوف على قوة الإحساس الوطنى فى البلاد على اختلافها، فأهل هذه البلاد على تفرق مشاريعهم وأهوائهم يحبون بلادهم حباً شديداً، ويستقبل الفرد منهم الموت فى سبيل خدمة بلاده راضياً مسروراً.

«ومن أجل ما ذكره التاريخ عن إحساسات هؤلاء القوم نحو بلادهم أن قائداً فرنسياً أحس عام ١٨١٥ باقتراب منيته حينما هزم نابليون الهزيمة الأخيرة واحتلت عساكر الدول الأوروبية المتحدة أرض فرنسا، فدعا إليه أحد أصدقائه وقال له: «إنى لى عندك أمراً أسألك بحرمة فرنسا أن تؤديه بعد موقى» فقال له صديقه: «وما ذاك فأجابه القائد: «إذا جلت العساكر الأجنبية عن أرض فرنسا العزيزة فزر قبرى وناد بأعلى صوتك: «لقد جلا الأجانب عن بلادنا فتم آمنة مطمئنا، عندئذ تسكن روحى ويتم لى الموت بسلام»، هذا مثل صغير يكفى وحده لتعريفكم كيف قامت هذه البلاد وبماذا تقوم.

«وإذا كانت فخامة تلك الأمم المتقدمة ورفعة مقامها وحرية أفرادها وسعادة أبنائها أموراً من شأنها أن تنشطنا على العمل لتحرير مصر وإبلاغها هذا المبلغ البعيد، فهناك أمم أخرى تنذرنا بسوء المصير إذا استسلمنا للمحتلين، وأهملنا أشرف واجب علينا فى الحياة، فالهند وراءكم، وإيرلندا أمامكم، تنذركم حالتها آناء الليل وأطراف النهار بالخراب والدمار والمجاعة والعار والموت إذا رضيتم بالذل وسلمتم البلاد للمحتلين، فحاسبوا أنفسكم واسألوها: أتفضل العار على الشرف؟ والمذلة والهوان على العز والرفعة؟ والموت على الحياة؟»

وقد نشرت الصحف الباريسية مقتطفات من هذه الخطبة العظيمة، وكان لها صدى كبير فى مصر وأثر عميق فى نفوس المصريين، لما احتوت من آيات الوطنية الصادقة، وترجمت عن شعور النفس العالية التى تفيض بهذه المعانى الجليلة.

سفره إلى برلين ثم عودته إلى باريس

وبعد أن كتب الفقيه عدة مقالات في صحف باريس سافر إلى برلين، وamd الصحف الألمانية بقلمه مما يحتاج نشره إلى مجلدات، ثم عاد إلى باريس، وعاود الدعاية للقضية المصرية في الصحف الفرنسية

اعتزازه بمصريته

في هذه الأثناء بعث أحد أنصار الاحتلال إلى الدكتور «شيونفرت» الرحالة الألماني الشهير بكتاب زعيم فيه أن الذين يطالبون بحقوق مصر وفي مقدمتهم مصطفى كامل ليسوا من صميم المصريين، وقد كتب العلامة شيونفرت كتاباً بهذا المعنى نشره في جريدة (فوسيشه زيتنغ) الألمانية في ٣٠ سبتمبر سنة ١٨٩٧.

فلم يكد يطلع عليه المترجم حتى رد عليه لفوره بالكتاب الآتي تعريبه:

«فيينا في ٥ أكتوبر سنة ١٨٩٧

«يا جناب المدير

«اسمح لي أن أرد على ماكتبه مسيو (شيونفرت) في جريدتكم ونشرتموه في عدد ٣٠ سبتمبر الجاري في شأن الوطنية المصرية، يدعى مسيو شيونفرت أن المصريين القائمين بالدعوة إلى الوطنية هم من أصل أجنبي، وليس لهم بالفلاحين أدنى علاقة، وقد تكرم حضرته بأن عدنى من رجال الفئة المترفعة عن الأمة، البعيدة الأصل عنها، أى ممن لا يجرى في عروقهم الدم المصرى الحقيقى، وهى دعوى باطلة كل البطلان، لأن المصريين القائمين بالدعوة الوطنية، العاملين ضد الاحتلال الإنجليزى، الساعين في سبيل تحرير وطنهم مصريون من سلالة المصريين الحقيقيين، وأغلبهم أبناء الفلاحين، أما أنا فأفخر وأتشرف بأنى ابن ضابط شهم آباؤه فلاحون مصريون، يظهر إذن جلياً أننا لسنا من تلك الفئة الغريبة الأصل عن الفلاحين، ولسنا كذلك بظلمة الفلاحين في الماضى، لأنهم إما إخوتنا وإما آباؤنا، أما اكتتابنا للجيش العثمانى فما هو إلا ثمرة وطنية يانعة

صادقة، نعم هو ثمرة الوطنية الحققة، لأننا نعلم علم اليقين أن إنجلترا لا ترمى بكل دسائسها ضد تركيا إلا إلى مصر، واننا بسرورنا واحتفالاتنا بالانتصارات التركية نسر ونحتفل بهزيمة السياسة الإنجليزية، أى بأجل وأبهى شئ يتمناه كل مصرى وطنى على الدوام، وإنى أختتم كتابى للدكتور (شيونفرت) بأنى أجهل أعظم إجلال، غير أنى مندهش جداً من أن رجلاً مثله يقول عن الفلاح المصرى إنه لا يعنى بشئون بلاده، فإذا كان الدكتور (شيونفرت) يحكم علينا بأننا أجنب عن الفلاح لا ندرك ما بفؤاده، فكيف يستطيع هو أن يعرف هذا الفؤاد ويدرك ما به ويتكلم عن عدم عنايته بشئون الوطن؟ هذا وتفضل بقبول احترامى.

مصطفى كامل

وقد علقت تلك الجريدة على الكتاب بما تعريبه:

«إن على هذا الكتاب طابع الحق والإخلاص، ونحن لا نشك فى أن المسيو (شيونفرت) قد اقتنع بما فيه. ولذلك نرجو من قرائنا أن يحوا ما علق بأذهانهم من كتابه، فإن هذا الرد صادر من صاحب الدار، وهو أدرى بما فيها، وعلى الأخص ما يخصه منها».

عودته إلى مصر ومرضه

(أكتوبر - نوفمبر سنة ١٨٩٧)

عاد مصطفى كامل إلى مصر، فبلغ العاصمة يوم ١٠ أكتوبر، واستقبله أصدقاؤه وأنصاره بالحفاوة والإعجاب.

ولم يمض يومان على عودته حتى اعتراه مرض أصابه من إجهاد نفسه فى العمل والكفاح، فأنهك قواه، وأقلق بال إخوانه وأنصاره فنصح له الأطباء أن يقضى الشتاء فى حلوان، فعمل بمشورتهم وقصد إليها حتى أبل من مرضه فى أواخر شهر نوفمبر، فعاد منها سليماً معافى، واستأنف جهاده الوطنى والسياسى، وكتب إلى شقيقه على بك كتاباً يصف فيه مرضه ويقول فيه:

الجمعة ٣ ديسمبر سنة ١٨٩٧

«أخى. لا شك أنك قلققت كثيراً حتى بعثت بثلاثة تلغرافات بعد عدة خطابات لتقف على صحتى، لأنى منذ ثلاثة أشهر لم أكتب إليك كلمة، إنى كنت فى مرض شديد، يئست معه من حياى، وقد أصابنى بعد وصولى إلى العاصمة بيومين، وهو مسبب عن كثرة المتاعب التى صادفتها فى هذا العام، التى أوئل أن تكون ناجحة لأنها كما تعلم صادرة بإخلاص، ولا أمل لى فى شئ من ورائها سوى عودة مصر إلى زهوها ورجوع السيادة فيها لأبنائها المخلصين».

الفصل السابع

حادثة فاشودة

وجهاد الفقيد سنة ١٨٩٨

استهل الفقيد عام ١٨٩٨ وقد استرد صحته، وكله أمل ونشاط في الجهاد، وكان جهاده سنة ١٨٩٧ قد آتى ثمره، إذ تحركت في النفوس فكرة الوطنية بتأثير دعوته الصادقة ومقالاته وكلماته وخطبه ورحلاته ورسائله في الدفاع عن القضية المصرية.

خطبته في حديقة الأزبكية

(يناير سنة ١٨٩٨)

بدا أثر هذه الدعوة أوائل سنة ١٨٩٨، إذ اتفق الشباب المثقف من طلبة المدارس العليا على إقامة حفلة وطنية كبرى كان المترجم خطيبها ورئيسها، واختاروا لها حديقة الأزبكية بالمطعم الذي كان مشهوراً باسم (سائق)، وحددوا لها يوم ٨ يناير عيد جلوس الخديو عباس الثاني، وألفوا لجنة لتنظيم هذه الحفلة، وقد أقيمت الحفلة، فكانت آية في الجلال والبهاء، وبعد أن تناول المدعوون الطعام وقف أحد أعضاء لجنة الاحتفال وهو أحمد افندى حافظ عوض (بك) ودعا للخديو ثم أثنى على الفقيد قائلاً: أشكر ضيفنا الكريم الذي رأيناه في شبابه الغض كثير الأعمال، كبير الآمال ونرى الليلة في وجوده بيننا شخص الوطنية الحققة، ومثال الإخلاص لمصرنا العزيزة»^(١)

وما انتهى من كلامه حتى وقف الفقيد موقف الخطابة، فقبل من جميع الحاضرين بعاصفة من التصفيق، فشكرهم على إحساساتهم، ثم ألقى خطبة مستفيضة من أعظم خطبه الوطنية، افتتحها قائلاً:

(١) المؤيد عدد ٩ يناير سنة ١٨٩٨.

«إخوانى الأعزاء:

«لقد شكرنى حضرة زميلكم الفاضل على حضورى بينكم الليلة وإجابى دعوة الذين تفضلوا بها إلى هذه الحفلة الشائقة، على أن الشكر يجب أن يقدم منى إليكم لأنى أرى فى حضورى بينكم شرفاً عظيماً لى، وأقدر عنايتكم بدعوى حق قدرها ولطالما تمنيت أن أقضى بضع ساعات مع نخبة المدارس المصرية، وأناجى أولئك الذين خرجت من صفوفهم، وما نسيت عهودهم وأتحدث معكم يامستقبل مصر ورجاءها المنتظر فى ذلك الواجب العظيم الذى يجب علينا جمعياً أن نقوم به حق القيام، وأعنى به خدمة الوطن العزيز».

تمجيد الوطنية

وبعد أن تكلم عن الخديو ونوه بتأييده ميول الشعب، عرج بالوطنية وأشاد بها قائلاً:

«إن الوطنية هى أشرف الروابط للأفراد، والأساس المتين الذى تبنى عليه الدول القوية والممالك الشائخة، وكل ماترونه فى أوروبا من آثار العمران والمدنية، ما هو إلا ثمار الوطنية أصبح اليوم الوطن المصرى ينتظر منكم ومن بقية أبنائه عدلاً وإنصافاً، أصبحت مصر تؤمل منكم أن ترفعوها إلى منصة الحرية والاستقلال، وأن تردوا إليها حقوقاً وهبها إياها الخالق عز وجل، ولاريب أنكم معشر المتعلمين، معشر النابغين فى المعارف والآداب، أول من يسأل عن خدمة مصر وتأييد مبدأ الوطنية الحقيقية، فإنكم قرأتم فى التاريخ الأمثال الكثيرة للوطنية، وعرفتم سير ناس عديدين ماتوا محبة لبلادهم وإخلاصاً لأوطانهم، فحيوا بموتهم، وأدركتم أن الحياة سريعة الزوال، وأن لا شرف لها بغير الوطنية والعمل لإعلاء شأن الوطن وبنيه».

الوطنية والمال

إلى أن قال مستحثاً كل متعلم مهما يكن صغيراً على القيام بواجبه الوطنى:

«إنكم إذا خرجتم من المدارس ودخلتم صفوف الرجال وشرع أحدكم فى عمل من

الأعمال سمع لا محالة من قوم غايتهم تنبيط الهمم وإقعاد العزائم: من أنت حتى تعمل هذا العمل؟ وإذا كان الأغنياء والكبراء لم يقدموا عليه، فكيف تقدم أنت عليه؟ وهو قول فاسد لأن الوطنية لا تميز فيها بين الصغير والكبير، والغنى والفقر، بل كلنا سواء أمام مصر، وكل واحد منا مسئول عن مصائبها مطالب بخدمتها وإعلاء قدرها.

وبعد أن ضرب الأمثلة بكبار الوطنيين الذين خرجوا من صفوف الفقراء، قال: «قد يكون الرجل الصادق الوطنية فقيراً في المال، ولكنه يعيش ويبقى في التاريخ من أكبر سرة الوطنية، ودعا في خطبته إلى نشر العلوم والمعارف فإنها الوسيلة إلى التمسك بالحقوق والكرامة.

الدعوة إلى الحياة الحرة

ودعا الشباب إلى الحياة الحرة والإعراض عن المناصب الحكومية، قال: «لاشك أنه لا يمكنكم القيام بإثارة الأمة وإرشادها إلا إذا كنتم في الحياة الحرة مجاهدين بأنفسكم في سبيل الحياة، لأعمالاً في إدارة أوديان تنقدون في آخر الشهر مرتباً معلوماً يقتل فيكم عواطف الاستقلال ويحبس في نفوسكم الحرية الشخصية والميل إلى عظماء الأعمال».

ثم نوه بالحياة الحرة في أوروبا وما أنتجت من جلائل الأعمال، وختم خطبته بقوله: «إن أضمن نصيحة تلقيتها في صغري وألقيها اليوم على أبناء بلادى المحبوبة وأختم بها كلامي معكم الليلة هي: العمل بالانحداد على خدمة الوطن العزيز»
وقد قوبلت خطبة المترجم بتصفيق الإعجاب والحماسة والاستحسان، وكان لها الأثر الكبير في نفوس الشباب.

الرد على الحملات الاحتلالية

كانت دعوة مصطفى كامل تقض مضاجع الاحتلال وصنائه، لأن إنتشار الدعوة الوطنية تزلزل مركز الاحتلال القائم على الغصب والعدوان، فكانوا يعملون على إحباط

دعوته بالصحف الموالية لهم في مصر، وبالحملات الاحتلالية في الصحف الأوروبية، وقد تردد في بعضها إتهامه بأنه يدعو إلى ثورة، فكتبت إحدى الصحف الفرنسية وهي جريدة (لوريان) مقالا بهذا المعنى.

فرد عليها الفقيد بكتاب في ٣ فبراير سنة ١٨٩٨، بدأ بقوله:

«قرأت في أحد الأعداد الأخيرة من جريدتك حملة على الوطنيين المصريين، كتبت بتحيز للاحتلال الانجليزي وأشياعه، وليست عليها مسحة من الحق، ولما كنت أعتقد أن مبادئكم حرة شريفة، وأنكم تستظلون براية الحرية والإخاء والمساواة، رأيت أن أرسل إليكم كتابي هذا خدمة للحقيقة راجياً نشره في المكان الذي نشرتم فيه مقالتيكم التي نسبتم إليّ فيها أموراً أنا أبعد الناس عنها وكذلك أبناء وطني جميعاً».

ثم فند مقالة (لوريان) تفنيداً مسهباً في رده عليها. وقد نشرته الجريدة المذكورة وعلقت عليه بكلمة جاء فيها:

«إننا نحب المصريين كثيراً ونميل إلى خلاصهم وعودتهم إلى التحلى بتاج الملك وجواهر العلم، ولكن لكي نصل إلى تحقيق هذا الحل يجب أن يساعدونا من جانبهم بالتؤدة والسكينة، وإننا لا ننكر أن أعمال «مصطفى كامل» كلها رزينة حكيمة لا تقل عن جمال أى عظيم ذكره التاريخ في سبيل تحرير بلاده، وإن له في بلاده عصبية تذكر بالإعجاب والإعظام، وإنه من أبناء فرنسا في العلم، ولكننا ننكر على غيره الشدة في القول والحقاقة في الرأي».

ونشرت جريدة (لاكورييري) الإيطالية حديثاً للمترجم بعدها الصادر في ١٥ مارس سنة ١٨٩٨ في شرح القضية المصرية والدفاع عنها.

ظهور كتابه عن المسألة الشرقية

وفي أبريل من تلك السنة ظهر كتابه عن (المسألة الشرقية)، وهو كتاب قيم يشرح فيه تطورات المسألة الشرقية وموقف الدول الأوروبية، وبخاصة إنجلترا حيالها، وأفاض في تعريف المسألة الشرقية وبيان حوادثها في القرن الثامن عشر ثم التاسع عشر،

مستطردا إلى ذكر إستقلال اليونان ثم مسألة سورية بين محمد على وتركيا، وحرب القرم، ومؤتمر برلين، ثم شرح المسألة المصرية ثم المسائل البلغارية واليونانية، ويرمى الكتاب إلى تحبيب الاستقلال إلى الأمة وإحياء الشعور الوطنى فى نفوس قرائه.

جهاده فى أوروبا

(يونيه - سبتمبر سنة ١٨٩٨)

سافر مصطفى كامل من الاسكندرية يوم الجمعة ٢٤ يونيه سنة ١٨٩٨ ليوصل جهاده فى أوروبا^(٢)، وما أن وصل إلى باريس حتى وقف على خطبة ألقاها اللورد سالسبرى رئيس الوزارة الانجليزية بسبب إخفاق سياسة وزارته بالصين قال فيها تعريضاً بالهند ومصر: «إن إنجلترا لم تعمل السيف فى الصين كما أعملته فى الهند ومصر فانبرى للورد سالسبرى ورد عليه بالكتاب الآتى تعريبه، وقد نشره بالفرنسية فى جريدة (الانترانسيجان) ونشرته عدة صحف باريسية.

«باريس فى ٤ يوليه سنة ١٨٩٨ :

«جناب اللورد سالسبرى

«اطلعت فى الجرائد على نص خطبة سياسية زعم جنابكم فيها أن إنجلترا قد فتحت مصر بالسيف، والوجدان الأبى يتجافى عن زعم كهذا، والوطنيون المصريون يقيمون الحجة عليه بأشد ما لديهم من الحزم والعزم، فإن بلادكم لم تفتح بلادنا، وإنى أستشهد الدنيا بأسرها على هذا الادعاء، إن إنجلترا لم تكن فى حرب مع مصر فى عام ١٨٨٢، بل هى تدخلت فى حوادثها تدخلا وديا لتأييد عرش الخديوية فهل يليق بها وهى على ما تدعى أمة متمدنة أن تقوم اليوم بعد أن حلفت حين حلولها فى مصر بأنها تتركها تحكم نفسها بنفسها، فتصرح للعالم بالرغم من الشرف والوعد الصريح أنها قد فتحت بلادنا بحد السيف؟ وإلا كان معنى هذه الكلمات «شرف وتمدن وإنسانية» فى عرفك يا جناب اللورد استعباد الأمم الواثقة بالتمدن؟ أأست القائل فى عام ١٨٨٦ : «لنحترم وعودنا

(٢) المؤيد عدد ٢٣ يونيه سنة ١٨٩٨.

المقدسة ولنجلو عن مصر»؟ ألسـت القائل في شهر نوفمبر من سنة ١٨٨٦ للمسيو وادنجتون: إن بنى قومكم يكونون في ضلال مبين إذا اعتقدوا أننا نريد أن نمكث في مصر إلى ما شاء الله، فنحن لا نبحث إلا عن الوسائل التى نخرج بها من مصر بشرف وكرامة، أولستم أنتم الذين قلتم فى البرلمان يوم ١٠ يونيه سنة ١٨٨٧ هذه العبارة: «لا يسوغ لنا أن نأخذ على عاتقنا حماية مصر، حتى على فرض أن عملا كهذا ينطبق على الشرائع الدولية ومصالح بلادنا»؟ أولستم أنتم الذين قلتم وكررتـم القول فى شهر أغسطس سنة ١٨٩٨: «إن التصريح بإقامة انجلترا فى مصر دليل على قلة إحترام العهود المقدسة التى إرتبطت بها حكومة جلالة الملكة والتى علينا الازدعان لها»؟

«فإذا كنتم يا جناب اللورد قد نسيتم أو ازدريتم هذه التصريحات الشريفة فإنه ينبغي لكم أن تذكروا بأنكم قلتم فى إحدى خطبكم الأخيرة: إن انحطاط الأمم العظيمة قد كان سببه على الدوام طمعها وشرها».

«ولا يغيبن عن البال أن مصر التى كانت فى جميع عصور التاريخ سبب موت الأمم الطاغية، فإنها لا محالة ستكون كذلك فى المستقبل، ولا يمكن أن تنجو انجلترا من هذا المصير إذا أصرت على احتلال بلادنا، لأنكم إذا كنتم تعتبرون أن إرادة انجلترا فوق إرادة أوروبا، فإنه لا بد أن يأتى يوم تنتصر فيه الوطنية المصرية وحدها على انجلترا العظيمة القادرة، وربما هزرتـم كتفيكم يا حضرة اللورد حين قراءة هذا الكتاب، ولكن كل انجليزى يضع شرف بلاده فوق المصلحة الذاتية الحقيرة يخجل ويستحي بعد قراءته».

مصطفى كامل

وكتب الفقيد عدة مقالات فى الصحف الأوروبية دفاعا عن قضية مصر، ونشر حديثاً فى جريدة (الإكلير) الباريسية عن يوم ١١ يوليه وهو ذكرى ضرب الاسكندرية.

ثم ألقى بباريس خطبة سياسية فى سبتمبر سنة ١٨٩٨، وعاد إلى مصر فوصلها يوم ١٨ سبتمبر، وله فى المؤيد مقالات وطنية قيمة نشرها فى سبتمبر وأكتوبر من تلك السنة.

حادثة فاشودة وتأثيرها في الحركة الوطنية

وقعت في تلك السنة حادثة خطيرة كان لها وقع شديد في النفوس وأثر بالغ في مصير لسالة المصرية؛ ونعني بها حادثة (فاشودة) التي اهتزت لها أوروبا بأسرها وكادت تؤدي إلى نشوب الحرب من أجلها بين فرنسا وإنجلترا.

كان السودان المصري في عهد الخديو إسماعيل يصل جنوباً إلى خط الاستواء وشرقاً إلى سواحل البحر الأحمر وخليج عدن، ووصلت حدوده الجنوبية الشرقية إلى المحيط الهندي، وحدوده الغربية إلى (واداي) غربي دارفور (انظر الخريطة ص ١٣١ وهي مقتبسة من كتابنا «عصر إسماعيل» ج ١ ص ١٣٤ طبعة سابقة).

فلما شبت الثورة المهدية في السودان، ثم أكرهت إنجلترا الحكومة المصرية على خلائه سنة ١٨٨٤، اعتبرته إنجلترا نهياً مقسماً بينها وبين الدول الاستعمارية فاحتلت غندة ومنطقة البحيرات الاستوائية، والجزء الجنوبي من مديرية خط الاستواء المصرية، حافظتي زيلع وبربره، وأخذت إيطاليا مصوع والاريترية ورأس جردفون (جردفوى)، فرنسا تاجورة وجيبوتي، والحبشة بلاد هرر وبنى شنقول.

وفي غضون ذلك النهب الاستعماري اشتد التنافس بين إنجلترا وفرنسا على اقتسام اطق النفوذ بينهما، فاعتزمت فرنسا تجريد حملة لاحتلال مركز هام في أعالي النيل نانت ترمى بهذه الحملة إلى صد التيار الانجليزي في باطن إفريقيا، ثم إلى فتح باب مسألة المصرية برمتها وإجبار إنجلترا على تنفيذ عهودها في الجلاء عن مصر، ومن هنا اءت أهمية حملة مارشان على فاشودة.

ترددت فرنسا طويلاً في إنفاذ هذه الحملة، فقد فكرت فيها في أواخر سنة ١٨٩٣ بهدت بها أولاً إلى القومندان (مونتق)، ولكنها ما لبثت أن عدلت عنها، ثم تجددت ككرة في أواخر سنة ١٨٩٥، ومن المؤلم أن الوزارات المصرية كانت خاضعة لأوامر سياسة الانجليزية. فأنجلترا هي التي أوغزت إليها بإخلاء السودان ففعلت، ثم أوغزت لها باسترجاعه فأعدت جيشها لتحقيق هذه الغاية، على حين لم تكن مصر في حاجة إلى

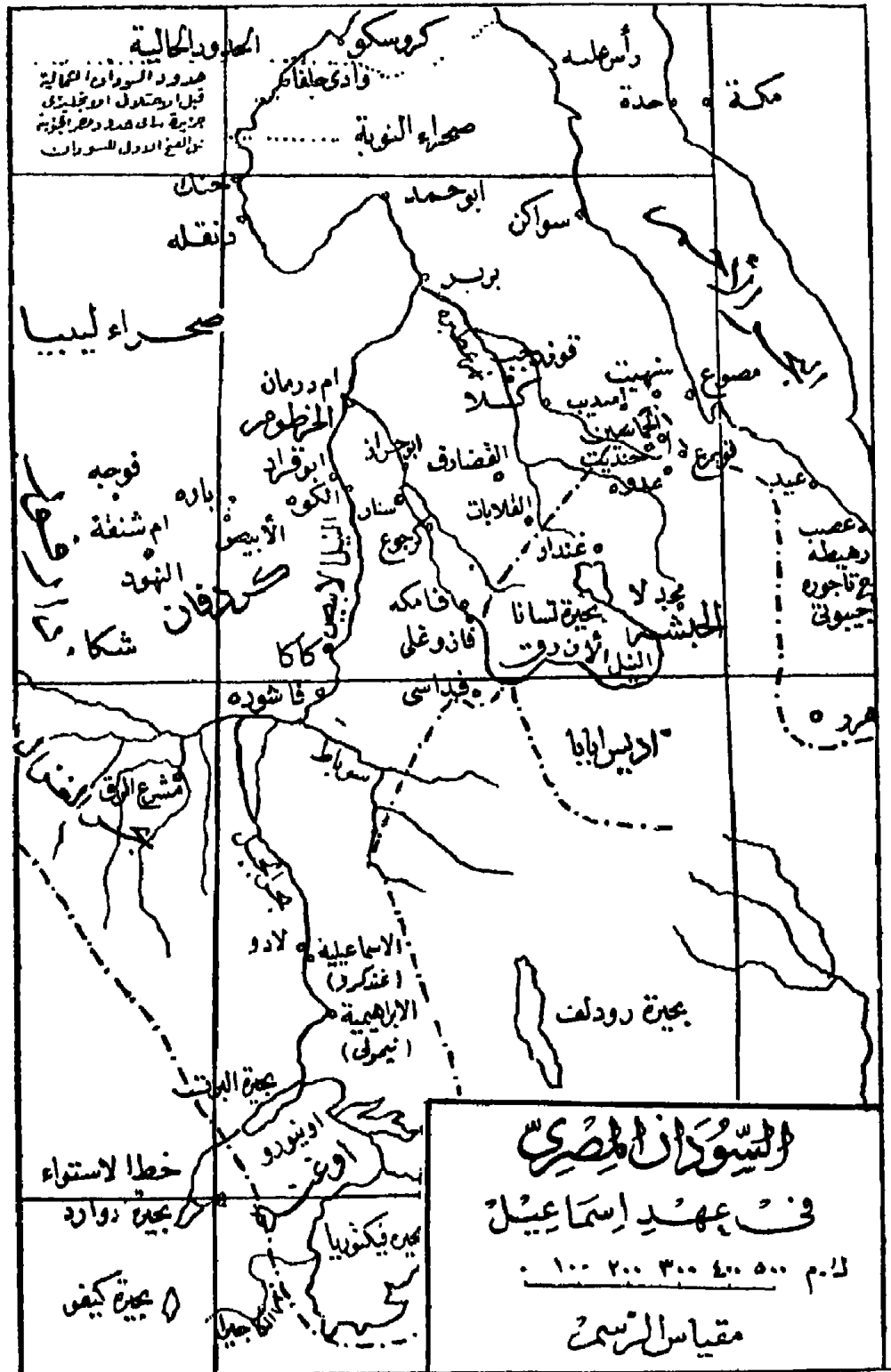
تجريد جيشها لاسترجاع السودان لو لم تقرر إخلاءه سنة ١٨٨٤، وهكذا كانت مصر ضحية السياسة الاستعمارية الانجليزية وضحية الوزارات التي تستسلم لها وتخضع لأوامرها.

عهدت فرنسا في سنة ١٨٩٦ إلى الكابتن (مارشان) بالزحف على فاشودة الواقعة على النيل وإحتلالها، وقد إختارت هذه النقطة لأهميتها من الوجهة الحربية والجغرافية، فهي تعد مفتاح النيل الأعلى، إذ تقع على ملتقى الطرق المختلفة الواصلة من الخرطوم والحبيشة إلى جنوب السودان، وعلى مقربة من ملتقى روافد النيل، كنهر سوبات وبحر الغزال وبحر الزراف، ومن يملكها يضمن النفوذ في شمالي السودان وجهات خط الاستواء (أنظر موقعها على الخريطة ص ١٣١).

صدع الكابتن (مارشان) بأمر حكومته، وسار على رأس كتيبة من الجند قاصداً فاشودة، ففرض عامين في طريقه إليها يعاني المشاق والمتاعب المضنية في مجاهل افريقية، حتى بلغها واحتلها في يوم ١٠ يولييه سنة ١٨٩٨، وكان احتلالها إيذاناً بفتح باب المسألة المصرية.

أدركت إنجلترا غرض فرنسا من هذه الحملة، فبادرت إلى العمل لإجلائها، وهنا ظهرت (مؤقتاً) بمظهر المدافع عن مصر المؤيد لها، فاعترضت باسمها على هذه الحملة، واحتجت عليها باعتبار أن فاشودة أرض مصرية، وسار إليها اللورد كتشنر سردار الجيش المصري وقتئذ على رأس قوة مؤلفة من ١٨٠٠ جندي مصري ومائة جندي بريطاني، فوصلها في سبتمبر سنة ١٨٩٨. وهناك التقى بالكابتن مارشان، واحتج على احتلاله بلداً مصرياً ورفع العلم الفرنسي «على أملاك سمو الخديو»، وأبلغه أن هذا الاحتلال يعد إنتهاكاً لحقوق مصر، وأنه قد جاء ليرفع العلم المصري على فاشودة، وكان مارشان يعلم أن لا قبل له بمقاومة القوة المصرية التي جاءت لإجلائه عنها إذ لم يكن لديه سوى تسعة ضباط فرنسيين ومائة وعشرين جندياً من أهالي السنغال فلم يقاوم، ورفع المصريون عليها العلم المصري.

اشتدت الأزمة السياسية بين إنجلترا وفرنسا على أثر هذه الحادثة، وكان الظن أن تتمسك فرنسا بموقفها، وتفتح باب المسألة المصرية، وتضطر إنجلترا إلى الجلاء عن مصر،



مقابل جلاء الفرنسيين عن فاشودة، وقد استيقن المصريون أن آمالهم في الجلاء ستتحقق، إذ كانوا يعتقدون أن فرنسا لا تقدم على هذا التحدى لانجلترا إلا وهى مصرة على المضى فى سياستها إلى النهاية، وكاد الخلاف بين الدولتين يصل إلى امتشاق الحسام بينهما، فعظم بذلك شأن المسألة المصرية، وقويت آمال المصريين فى الاستقلال، ولكن فرنسا تخاذلت وتراجعت آخر الأمر، وخشيت مغبة الحرب إذ لم تتقدم حليفتها روسيا لمعاونتها، فسلمت بوجهة نظر انجلترا، وأمرت مارشان بالجلاء عن فاشودة، وتم جلاؤه عنها يوم ١١ ديسمبر سنة ١٨٩٨، فكان هذا التسليم أكبر صدمة سياسية أصابت الحركة الوطنية، لأنه دلت على أن فرنسا لا تنوى معارضة انجلترا فى احتلال مصر والتصرف فيها كما تشاء، ودل على نية الإنجليز فى دوام احتلالهم لمصر والسودان، فزلزل هذا الحادث أمل المصريين فى الاستقلال.

ثبات مصطفى كامل فى الجهاد

كان انسحاب مارشان من فاشودة انتصاراً كبيراً للسياسة الإنجليزية، وإذا ما بإصرارها على البقاء فى مصر والسودان، وتجاهل عهودها فى الجلاء، فجنح معظم رجالات مصر إلى الولاء البريطانى واكتساب رضاه، إذ رأوا فى حادثة فاشودة برهاناً جلياً على رسوخ أقدامه فى البلاد.

كتب مصطفى إلى أخيه على بك (وكان وقتئذ من ضباط حملة السودان) كتاباً قال فيه «... إن الأحوال السياسية سيئة للغاية بعد مسألة فاشودة، وأظهر بعض الكبراء الجبن وكادوا يخونون بلاداً أحسنت إليهم بما لا يحلم به غيرهم، ولكنى ثابت على خطى حتى الممات، لأن اعتقادى أن ثمر الدفاع وإن لم يجنّه المدافع الأول أو الثانى فلسوف يجنيه مصرى على مدى الأيام وأنا إذا لم نقطف ثمر علمنا وجهادنا فى حياتنا فإننا علم الأقل نضع الحجر الأول لمن يبنى بعدنا».

وكتبت مدام آدم كثيراً عن حادثة فاشودة، ومنها قولها فى مقالة لها فى فبراير سنة ١٩٠٤ عن أغلاط السياسة الفرنسية:

«فاشودة إنها الضربة القاضية ! لقد قلت في رسائل قبل أن غير واحد من ساسة فرنسا قد أفهم الخديو والوطنيين المصريين أن فرنسا ستتدخل لصالح مصر سريعاً وبصفة حاسمة وأبانوا لهم أن بعثة مرشان هي الحاملة لراية استقلال مصر فصاروا جميعاً يعتقدون أن تحرير وطنهم سيأتى من السودان، ولكن حادثة فاشودة قضت على آمال الوطنيين المصريين».

وقد كان لها كذلك تأثير كبير في موقف الخديو، إذ أخذ يذعن للأمر الواقع، ويتودد إلى الاحتلال، وكان أول مظهر لهذه السياسة الجديدة زيارته للندن سنة ١٩٠٠، وفي ذلك يقول مصطفى كامل في رسالته إلى مدام جوليت آدم في ٢ يونيو سنة ١٩٠٠: «أبعث إليك مع هذا بمقالة تفصح لك عن شعورى والشعور الأهلى نحو سياحة الخديو في لندن، تلك السياحة التى آلمتنا كثيراً، وما ذلك وأأسفاه إلا نتيجة فاشودة».

والواقع أن حادثة فاشودة كانت فوزاً كبيراً للاحتلال وصنائه في مصر، وبعثت اليأس في نفوس الوطنيين، واعتقدوا أن لا منجاة لمصر من الاحتلال بعد أن أذعنت فرنسا للسياسة الإنجليزية في تلك الحادثة، وخمدت جذوة الوطنية في النفوس، ولكنها لم تخمد في نفس مصطفى كامل، بل ضاعف جهاده وكفاحه، بمقدار ما ازدادت العقبات والمصاعب في طريقه، وأخذ يفكر من ذلك الحين في إنشاء صحيفة يومية تغذى النفوس والعقول بمبادئ الوطنية والكرامة والأمل والجهاد.

وقد كان يتألم إذ يرى كبار المصريين وذوى الشخصيات البارزة منصرفين عن الجهاد، ويرى نفسه يكاد يكون وحيداً في الميدان، لكنه مع ذلك ظل يثابر في جهاده بالرغم من العوامل المتبطة التى تكتنفه.

أرسل في هذا الصدد إلى صديقه وزميله في الجهاد محمد باه فريد كتاباً من باريس بتاريخ ١٩ أغسطس سنة ١٨٩٨ (نشرنا صورته بالزنجراف ص ١٣٤) جاء فيه:

«وصلنى خطابك الكريم المؤرخ ١٢ الجارى، وإنه لا يسعنى إلا أن أشكر ودك الصادق النادر المثل في مصر، فهو تعزيتى عن هوم بلادى، وتسليتى على قعود بنى وطنى عن إجابة ندائى والاجتماع حول راية الوطن لإنقاذه وإسعاده.

«وإنك لمصيب في رأيك بشأن دعوة رجال القلم في برلين، وإنه ليحزننى حقاً أن أرى

الفرص مناسبة لخدمة الوطن، ولا أجد غيرك في المصريين نصيراً يساعدني على ذلك، فتجدني إن تكلمت أو دعوت أتكلم كثيراً أسيفاً وأدعو وأنا عارف بأنه ليس في مصر من يساعدني على القيام بالواجب وإكرام الضيف إن وافى. فقل لي بالله ما قيمتنا ونحن لا نضحى شيئاً لخدمة الوطن إذا قورن بيننا وبين الذين يضحون أنفسهم وأرواحهم لخدمة أوطانهم؟

«أخى. سأسافر إلى برلين بالرغم من شدة كدرى من عدم وجود إرادة مشتركة بين من يريدون أو من يدعون خدمة الوطن وعدم وجود خطة ثابتة يجرى الكل عليها، وسأعمل كل ما في جهدى لخدمة البلاد، وما على إلا الإمثال لإرادة الخالق جل شأنه الذى كأنه أراد أن أكون الوحيد فى خطى، الفرد المطالب بالاستقلال».

وأرسل إليه من برلين فى ٤ سبتمبر سنة ١٨٩٨ كتاباً (صورته بالزئكجراف ص ١٣٦) يقول فيه:

«وعلى أى حال فالمستقبل بيد الله يديره كيف يشاء، وما علينا إلا العمل والمثابرة على المطالبة بحقوق بلادنا، فما ضاع حق لمطالب، وإنى كلما زرت عواصم أوروبا ازدادت اعتقاداً بأن الأمر بيدنا، وأنه لو اتحد مائة منا لاهتزت الأرض قاطبة لصوتهم، فما بالك لو اتحدت كلمة الأمة المصرية كلها وأنى لأحس بكآبة.

(خطاب الفقيد إلى فريد بك فى ١٩ أغسطس سنة ١٨٩٨).

يأبى نى ١٩ أغسطس ١٨٩٨

أخى العزيز فريد بك حفظه الله

صباحي وقيل رحبتك . رحلتى ففكك . بكرم المؤرخ ١٩
البشرى الجارى وإنه لا يمشى إلا أنه أشكر رذك (صادق النادر)
والذى نمره فهو قزى بهمهم بهدى وسليتي على قعود

بني وطني عند إجابة ندائي والاجتماع حول راية الوطن لنقادة :
والسعادة

وانكم لمصيبة في رأيكم بشأنه دعوة جبالنا بقلبي في برليني . وان
لنكون حقاً انه أرى الفرض من نسبة الخدمة الوطن ولا نجد غيرك
في المصيبة نصيراً ساعداً على ذلك . فوجدت انه تكلمت أو دعوت
أنكلم كشيء أسيفاً وأدعو وأنا عارف بأنه ليس في مصر من ساعد
على القيام بالواجب . واكرام الضيف انه وافي . حقاً بالله عليكم
ما قمنا ونحنه لنرضى شيئاً لخدمة الوطن إذا قوربه بليثاً وبه
الذين يصنونه أنفسهم وأرواحهم لخدمة أوطانهم .

أضئ سأساً في البرليني بالرغم من شدة كدرى من عدم وجود
إرادة مشتركة بينه من يريدونه أو من يدعون خدمته الوطن وعنه
وجود خطة ثابتة بحري لكل عليها وأعمل كل ما في جودك
لخدمة البلاد .

هلاوة الخلقه من شأنه الذي كأنه أراد أنه يكونه الوحيد في
قطعت الفرد المصالح بالاستقلال .

وغيث رجاء منكم - انه لم يسمع نداؤنا ونخلص أوطاننا - انه يحفظ
لي ذلك السعادة ويحبك الله

ما يستحق أن ينفذ ؟ لم يرسل في حزننا واحداً مع أن كتب

إليه

بلغم سدي وتقبل أنت ألف لف سلام من حير
صدية لك ومنه أحنك إنكرا العاف للجميل
لعل

(خطاب الفقيد إلى فريد بك في ٤ سبتمبر سنة ١٨٩٨)

برليه في ٤ سبتمبر ١٨٩٨

أخي الامير

بعد كنيته والسليم والعتاب عه مشوقه كما تعلم عظيم وصلى خضعت لأرجح
بباريس وأنا على أمني السيف المبرلية فضلت تأجيل الرد إلى وصول هذه

..... العائمة الغضبية

وعلى أن حالنا فاستقبل بيديك كيف يسار وما علينا إلا لعل المشارة
على المصانة بجمهورية بلونا فما ضاع هذه المطالب

وإني كلما زرت عداهم أو رربا ازودت اعتقاداً بأننا الأكر بغيرنا وأنه لو اتحد
حائنا لنا لاهتزت الأرض شاطبة لصورهم فما بالك لا اتممت كلتي المسرة
بالصحة كلها . داني لأحسن بكماء وحزن عظيمه لوجودكم في هذه البلاد
وحدي ونمود القوم صا على مقابلة دولة غيري فقصي الله ليعيدكم ساعته
وأجد من في الوطن أنصاً أياهم وده مع علناً بأنكم لهم وآمالهم وما لكم
على بيزنيز

إننا بعد برلية لفينا ومننا ليعود أبسة وأبارج بورا بسة يوم السبت
لقد ارم صائر المصانة بعليق ما صلا بمشيئة الرحمن يوم ٥ سبتمبر
وأمي أني أكره عجز يوم سبعة ٥ سبتمبر

وذكر في خطبه به (ديليوس ليفي) . الذين تعرضت به يقول لي فيه
 أنه سافر قريباً إلى مصر ففرحت به بهذا الخبر لأنه هذا الرجل يحب
 لنا وله به أنه سمع صفحات جريئة بأحوال مصر وحقيقة الأمور الجارية فيها
 أميلك ألفاً وأهدهب أخانا الفضل ألف سدهم دمه
 فوصفه افوتكك

وحزن عظيمين لوجودي في هذه البلاد وحدي وتعود القوم هنا على مقابلتي دون
 غيري فعسى الله أن يمدني بمساعدته، وأجد من بنى الوطن أنصاراً يجاهرون معي علناً
 بأفكارهم وآمالهم، وما ذلك على الله بعزيز».

خطبته بالقاهرة

(٢٣ ديسمبر سنة ١٨٩٨)

كان ختام جهاده عام ١٨٩٨ أن القى يوم ٢٣ ديسمبر خطبة وطنية بالتياترو الطلياني
 بالأزبكية، موضوعها (واجبات المصريين نحو وطنهم العزيز) وكان الإقبال على سماعها
 عظيماً، والزحام شديداً، وظل يخطب نحو ساعة ونصف، وجاءت الخطبة بعد حادثة
 فاشودة، فحمل على اليأس حملة صادقة، واستثار في النفوس روح الأمل والواجب، وفي
 هذه الخطبة قال كلمته الماثورة: «لا معنى للحياة مع اليأس ولا معنى لليأس مع الحياة»،
 ويتبين لك من عباراته فيها مبلغ ألمه من روح النفعية والتردد والهزيمة التي كانت فاشية في
 المجتمع، وفي ذلك يقول:

«يجب علينا أن نجتمع كثيراً، ونتدبر في الأمر طويلاً، فقد توالى الحوادث الجسام،
 وتعاقبت البلايا العظام، وأنذرت الأيام مصر بسوء العاقبة وظلمة المستقبل إذا دام
 المصريون رائدهم الشقاق والفراق، ومنتهى آمالهم قضاء الحياة على أى حال تعيسة كانت
 أو سعيدة» إلى أن قال:

«تنزلوا أيها المصريون إلى أعماق قلوبكم، واسألوا سرائركم، هل أنتم في شقاء أم

هنا؟ وهل بالاستسلام وتسليم الأوطان تقابلون نعمة الله عليكم بمصر وهى جنة الأرض وأبدع البلدان؟ وهل يليق بكم وأنتم سلالة أشرف الأمم، أن ترضوا بهذا المهوان وتقبلوا هذه المذلة وأنتم صاغرون؟»

«تمر الحادثات المزعجات علينا، وتنفطر لها قلوبنا، وتخزن منها أشد الحزن أفندتنا، ثم لا نجد لساناً ينطق بما يختلج به الجنان، بل نرى سكوتاً فى سكوت واستسلاماً فى استسلام، فيزداد البلاء ويتضاعف الشقاء».

«ثم تكلم عن استسلام الوزراء والمحكام والكبراء للاحتلال، وسكوتهم عن رفع العلم البريطاني فى السودان بعد استرداده، قال:

«لقد بالغنا فى الاستسلام وأبدعنا فيه كل إبداع، وما جنينا إلا الخيبة والفضيحة والعار فهذه بلاد السودان قد فتحتها مصر بأموالها ودماء أبنائها الأعزاء، أى راية تخفق اليوم عليها؟ وأى شرع يقام اليوم فيها؟ وأى حق يُعترف به للمصريين فى نواحيها؟ ألم تقض سياسة الاستسلام بأن تجاهد جنود مصر الأبطال أجمل وأشرف جهاد وتبذل حياتها رخيصة فى سبيل استرداد السودان ثم تسلم إلى الدولة المحتلة هذه البلاد الزاهرة وهى من مصر الروح والفؤاد؟ فأى فضيحة بعد هذه الفضيحة وأى عار بعد هذا العار؟ أقام الانجليز الأرض وأقعدوها بسبب غردون وثأر غردون ونسفوا قبر المهدي نسفاً وأخرجوا رأسه بأشنع صفة وأقبح مثال وعقدوا المجمع وألقوا الخطب تحية وسلاماً على روح هذا الفقيد، ورفعوا رايات الفرع والنصر للأخذ بثأره، والمصريون ينظرون إلى هذه المناظر ويتساءلون: أليس لدماء من مات منا ثمن؟ أليس لرجالنا قيعة؟ أليس المصرى فى شريعة الله إنساناً ككل إنسان؟ أمتوت منا الجنود والأبطال قبل استرداد السودان فى سبيل استرداده ولا يذكرون بشيء بل يقوم منا من يهين الانجليز بأخذ ثأر غردون؟ أكون دم فرد من الانجليز غالى الثمن رفيع القدر، ودماء الآلاف من المصريين لا ثمن لها ولا تقابل بغير النسيان؟ لقد تعاظم الخطب وأصبحت الحياة مرة، وبات الوطن فى أشد الأخطار، وكل منا يهمل واجباته ويتنحل لنفسه عذراً، فمنا من يطعم فى الثروة والترقى، ومنا من يخاف الذل والفقر، ومنا من لا يشعر بالمسئولية، ومنا من استولى على قلبه اليأس والقنوط».

إلى أن قال:

«إذا ألقى الخطيب النصيحة على قومه ظن كل إنسان أن النصيحة موجهة لغيره لاله، فيقول: (لقد أصاب الخطيب ولكن الأمة ميتة)، فمن هي الأمة؟ ألسنم من أعضائها وأهم أعضائها، أوليست الأمة الفرد متكررا، فادا قام كل واحد بواجباته وأصلح المعوج من أموره صلحت أحوال المجموع، وردت على الأمة حريتها وسعادتها، ولبس الوطن ثياب الحياة والقوة».

ثم دعا في خطبته إلى قيام كل مصرى بواجباته الوطنية، وإلى نشر التعليم القومى وتربية النشئ تربية دينية، وفي الجملة كانت هذه الخطبة من أقوى خطبه، ودلت على مبلغ ما كان يعانيه من المتاعب والآلام في بعث الحركة الوطنية في جو مشبع بروح التخاذل والاستسلام وإيثار المصالح الشخصية على المصلحة القومية.

الفصل الثامن

جهاده سنة ١٨٩٩

اتفاقية السودان

صدمت الحركة الوطنية في مستهل سنة ١٨٩٩ صدمة جديدة بتوقيع اتفاقية السودان في ١٩ يناير سنة ١٨٩٩، تلك الاتفاقية المشهورة التي خولت انجلترا رسمياً حق الاشتراك في إدارة شئون الحكم في السودان ورفع العلم الإنجليزي إلى جانب العلم المصري في أرجائه كافة، وتعيين حاكم عام للسودان بناء على طلب الحكومة البريطانية، ونتيجة ذلك ولاريب هو سلخ السودان فعلاً عن مصر، واستئثار الحكومة الانجليزية بحكمه وإدارته، وقد جاءت هذه الاتفاقية منافية للحجج التي كانت انجلترا تتذرع بها في حادثة فاشودة، فإن حجتها الظاهرة في تلك الحادثة أنه لا يحق لفرنسا احتلال فاشودة لأنها أرض مصرية، وهكذا أعلنت الحكومة الانجليزية بين أرجاء العالم أن السودان جزء لا يتجزأ من مصر، وصرح اللورد سالسبرى في هذا الصدد: «إن وادي النيل كان ولا يزال ملكاً ثابتاً لمصر، وإن حجج الحكومة المصرية في ملكية مجرى النيل وأن أخفاها نجاح المهدي إلا أنها ليست محلاً للنزاع منذ انتصار الجنود المصرية على الدراويش»، وهكذا كانت انجلترا تنادي باحترامها لحقوق مصر، وتعلن أن السودان أرض مصرية وتنكر على فرنسا احتلالها فاشودة باعتبارها بقعة مصرية، ولكنها مالبت أن تنكرت لهذه الحقوق بعد انسحاب فرنسا من أعالي النيل، فكان أول اعتداء منها على هذه الحقوق إكراهها الحكومة المصرية على توقيع اتفاقية السودان في ١٩ يناير سنة ١٨٩٩، قبل أن تمضي أشهر معدودة على انسحاب الكابتن مارشان من فاشودة، وليس يخفى أن هذه الاتفاقية فيها الاعتداء الصارخ على وحدة مصر والسودان، وفيها فصم لعرى الارتباط الوثيق بين جزئين لا يتجزآن من أرض الوطن الواحد^(١) ولكن استسلام وزارة مصطفى

(١) أراد الإنجليز كذلك أن يمحوا من الأذهان ذكرى فاشودة، فإن هذا الاسم أصبح بعد تلك الحادثة التاريخية التي اهتز لها العالم علماً على إمتلاك مصر لوادي النيل، فما زالوا به حتى غيروه ومحوه من =

فهى باشا جعلها تقبل كل ما أراده الانجليز.

فوجئت الأمة بإمضاء هذه الاتفاقية، بعد أن وقع عليها بطرس باسا غالى بالنيابة عن الحكومة المصرية، باعتباره وزير خارجيتها. واللورد كرومر بالنيابة عن الحكومة الانجليزية، ولم يذع أمرها إلا عقب إمضائها، وكانت الصحف تجهل أمرها، ولم تنشر شيئاً عن مقدماتها ولا المفاوضات بشأنها، بل لم تحصل مفاوضات ما فى صدها، وإنما هى إرادة اللورد كرومر أملاها على وزارة مصطفى فهى باشا، فقبلتها بلا مناقشة ولا شعور بالواجب، وكل ما حصل من المفاوضة بشأنها أن اللورد كرومر سلم بطرس باشا غالى مشروع الاتفاقية كما وضعته وزارة خارجية إنجلترا. فأخبر بطرس باشا الوزراء بالأمر، فقبلوا المشروع دون أن يطلع أكثرهم عليه، فكان عملهم أفضع تسليم فى حقوق البلاد، بعد تسليم وزارة نوبار فى إخلاء السودان، وكان موقف وزارة مصطفى باشا مما ساعد الإنجليز على الافتيات والاعتداء على حقوق مصر وكرامتها، فقد كانت مهمتها تنفيذ أوامر الإنجليز بلا مناقشة ولا ضمير.

وقد سئل أحد أعضائها يوماً من صديق له: كيف تسكت الوزارة عن هذه الاعتداءات المتكررة فأجابه الوزير: وهل تريد منا أن نفعل فى نهاية المسألة السودانية ما فعلته الوزارة الشريفة فى بدايتها؟ وهب رئيسنا الآن أصبح شريفاً ثانياً، أولم يبق فى الأمة نوبار آخر؟»، فتأمل فى روح الخضوع والاستسلام وانعدام الشعور بالواجب فى هذا القول المخزى.

= خرائطهم، وأطلقوا على (فاشودة) اسم (كودوك)، وغيروا أيضاً اسم (مديرية فاشودة) فجعلوها مديرية (النيل الأعلى)، ومما يؤسف له أن الأطالس التى تطبعها الحكومة المصرية تحتوى على هذا المحو والتغيير.

نص اتفاقية السودان

ننشر هنا نص اتفاقية السودان لارتباطها بسياق الحديث

وفاق بين

حكومة جلالة ملكة الإنجليز

وحكومة الجناب العالى خديو مصر

بشأن إدارة السودان فى المستقبل

« حيث أن بعض أقاليم السودان التى خرجت عن طاعة الحضرة الفخيمة الخديوية قد سار افتتاحها بالوسائل الحرية والمالية التى بذلتها بالاتحاد حكومتا جلالة ملكة الإنجليز والجناب العالى الخديوى.

« وحيث قد أصبح من الضرورى وضع نظام مخصوص لأجل إدارة الأقاليم المفتوحة المذكورة وسن القوانين اللازمة لها بمراعاة ما هو عليه الجانب العظيم من تلك الأقاليم من التأخر وعدم الاستقرار على حال إلى الآن، وماتستلزمه حالة كل جهة من الاحتياجات المتنوعة.

« وحيث أنه من المقتضى التصريح بمطالب حكومة جلالة الملكة المترتبة على ما لها من حق الفتح وذلك بأن تشترك فى وضع النظام الإدارى والقانونى الآنف ذكره وفى إجراء تنفيذ مفعوله وتوسيع نطاقه فى المستقبل.

« وحيث أنه تراءى من جملة وجوه أصوبية إلحاق وادى حلفا وسواكن إداريا بالأقاليم المفتوحة المجاورة لها.

« فلذلك قد صار الاتفاق والإقرار فيما بين الموقعين على هذا بما لها من التفويض اللازم بهذا الشأن على ما يأتى وهو:

المادة الأولى

تطلق لفظة السودان فى هذا الوفاق على جميع الأراضى الكائنة إلى جنوبى الدرجة

الثانية والعشرين من خطوط العرض وهى :

- أولاً: الأراضى التى لم تخلها قط الجنود المصرية منذ سنة ١٨٨٢، أو
ثانياً: الأراضى التى كانت تحت إدارة الحكومة المصرية قبل ثورة السودان الأخيرة
وفقدت منها وقتياً ثم افتتحتها الآن حكومة جلالة الملكة والحكومة المصرية بالاتحاد، أو.
ثالثاً: الأراضى التى قد تفتتحتها بالاتحاد الحكومتان المذكورتان من الآن فصاعداً.

المادة الثانية

يستعمل العلم البريطانى والعلم المصرى معا فى البر والبحر بجميع أنحاء السودان،
ماعدا مدينة سواكن فلا يستعمل فيها إلا العلم المصرى فقط.

المادة الثالثة

تفوض الرئاسة العسكرية والمدنية فى السودان إلى موظف واحد يلقب (حاكم عموم
السودان) ويكون تعيينه بأمر عال خديوى بناء على طلب حكومة جلالة الملكة،
ولا يفصل عن وظيفته إلا بأمر عال خديوى يصدر برضاء الحكومة البريطانية.

المادة الرابعة

القانون وكافة الأوامر واللوائح التى يكون لها قوة القانون المعمول به والتى من
شأنها تحسين إدارة حكومة السودان أو تقرير حقوق الملكية فيه بجميع أنواعها وكيفية
أيلولتها والتصرف فيها يجوز سنها أو تحويلها أو نسخها من وقت إلى آخر بمنشور من
الحاكم العام، وهذه القوانين والأوامر واللوائح يجوز أن يسرى مفعولها على جميع أنحاء
السودان أو على جزء معلوم منه، ويجوز أن يترتب عليها صراحة أو ضمناً تحويل أو نسخ
أى قانون أو أية لائحة من القوانين أو اللوائح الموجودة، وعلى الحاكم العام أن يبلغ على
الفور جميع المنشورات التى يصدرها من هذا القبيل إلى وكيل وقنصل وجنرال الحكومة
البريطانية بالقاهرة، وإلى رئيس مجلس نظار الجناب العالى الخديوى.

المادة الخامسة

لا يسرى على السودان أو على جزء منه شئ ما من القوانين أو الأوامر العالية أو القرارات الوزارية المصرية التي تصدر من الآن فصاعداً إلا ما يصدر بإجرائه منها منشور من الحاكم العام بالكيفية السالف بيانها.

المادة السادسة

المنشور الذى يصدر من حاكم السودان ببيان الشروط التى بموجبها يصرح للأوروبيين من أية جنسية كانت بحرية المتاجرة أو السكنى بالسودان أو تملك ملك كائن ضمن حدوده لا يشمل امتيازات خصوصية لرعايا أية دولة أو دول.

المادة السابعة

لا تدفع رسوم الواردات على البضائع الآتية من الأراضى المصرية حين دخولها إلى السودان، ولكنه يجوز مع ذلك تحصيل الرسوم المذكورة على البضائع القادمة من غير الأراضى المصرية، إلا أنه فى حالة ما إذا كانت تلك البضائع آتية إلى السودان عن طريق سواكن أو أية ميناء أخرى من موانئ ساحل البحر الأحمر لا يجوز أن تزيد الرسوم التى تحصل عليها عن القيمة الجارى تحصيلها حينئذ على مثلها من البضائع الواردة إلى البلاد المصرية من الخارج، ويجوز أن تقرر عوائد على البضائع التى تخرج من السودان بحسب ما يقدره الحاكم العام من وقت إلى آخر بالمنشورات التى يصدرها بهذا الشأن.

المادة الثامنة

فيما عدا مدينة سواكن لا تمتد سلطة المحاكم المختلطة على أية جهة من جهات السودان ولا يُعترف بها فيه بوجه من الوجوه.

المادة التاسعة

يعتبر السودان بأجمعه ما عدا مدينة سواكن تحت الأحكام العرفية ويبقى كذلك إلى أن يتقرر خلاف بمنشور من الحاكم العام.

المادة العاشرة

لا يجوز تعيين قناصل أو وكلاء قناصل أو مأموري قنصليات بالسودان ولا يصرح لهم بالإقامة به قبل المصادقة على ذلك من الحكومة البريطانية.

المادة الحادية عشرة

ممنوع منعاً مطلقاً إدخال الرقيق إلى السودان أو تصديره منه وسيصدر منشور بالإجراءات اللازمة اتخاذها للتنفيذ بهذا الشأن.

المادة الثانية عشرة

قد حصل الاتفاق بين الحكومتين على وجوب المحافظة منها على تنفيذ مفعول معاهدة بروكسل المبرمة بتاريخ ٢ يوليه سنة ١٨٩٠ فيما يتعلق بإدخال الأسلحة النارية والذخائر الحربية والأشربة المقطرة أو الروحية وبيعها أو تشغيلها.

تحريراً بالقاهرة في ١٩ يناير سنة ١٨٩٩

الإمضاءات

كرومر - بطرس غالى

وقد احتج الفقيد على هذه الاتفاقية احتجاجاً شديداً، وأسمع العالم الأوروبى صوته المدوئ كعادته فى الدفاع عن القضية الوطنية.

نشرت جريدة (الجولوا) الفرنسية خطاباً للمترجم بالعدد الصادر فى ٦ فبراير سنة ١٨٩٩ هذا تعريبه:

«جناب المدير المحترم

«إن اتفاقية السودان المزعومة بين مصر وانجلترا قد جاءت برهاناً جديداً على عدم مراعاة انجلترا للعهود والمؤتمرات، الشيء الذى يعتبره المصريون جميعاً باطلاً لأنه يخالف للنظمات الأوروبية والقوانين الدولية، فإنه أولاً ليس لحكومة مصر أى حق فى عقد

اتفاقية كهذه الاتفاقية، لأنها تخالف نصوص الفرمانات السلطانية الصادرة إلى خديو مصر، وإذا قال قائل إن السودان سلخ من مصر بقرار وزاري أو بأمر عال في سنة ١٨٨٤ وأصبح السودان خارجاً عن أملاك مصر ولا يصح أن تطبق عليه نصوص الفرمانات السلطانية، فإننا وكل رجال القانون نعتبر هذا السلخ غير قانوني لأن نصوص الفرمانات صريحة في أن ليس لمصر الحق في التنزل أو استبعاد أى جزء من أجزائها عنها بإرادتها، إذاً فالسلخ غير جائز، وعقد الشركة عمل باطل، وفيه اعتداء صريح من إنجلترا المحتلة للبلاد.

«ثم ألم يصرح ميثاق «ترايبا»^(٢) الذى كانت إنجلترا في مقدمة الدول الست التى وقعت عليه بأنهن يتكاتفن في المحافظة على أملاك مصر وألا يكون لإحداهن ميزة على الأخرى، وأنه لا يجوز لأية واحدة منهن أن تبيع لنفسها امتلاك شبر من الأراضى المصرية.

«عارضت الحكومة الفرنسية في قرض تجريدة السودان، وقد كان حكم المحاكم المختلطة وهى الممثلة لجميع الدول موافقاً لرأيها، فجاءت إنجلترا وأقرضت مصر ما احتاجت إليه من المال، ثم ماذا جرى بعد ذلك؟ أدخل الانجليز أنفسهم ببعض جنود ليسوا في العير ولا في التفير ليسوغوا هذه النتيجة السيئة التى ليست في نظرنا إلا اغتيالاً للحقوق القومية في راحة النهار وسرقة على مشهد من الأمم جمعاء.

«إن الجنود الإنجليزية اشتركت اسماً في حملة دنقلة ليسوغ الانجليز هذا العمل بعد أن صرح سواسهم أمام العالم كله بأنهم لا يقصدون بإرسال جنودهم إلى السودان صحبة الجنود المصرية إلا ليردوه إلى مصر تنفيذاً للخطة التى رسموها من احتلالهم مصر وإجابة لصوت شرفهم، ألم يقل اللورد سالسبرى بأعلى صوته: «إننا نعمل لرد السودان إلى مصر».

«انتظرنا وانتظر العالم كله نتيجة هذا الاسترداد، فكانت فظاعة انجليزية متناهية، إذ

(٢) هو العهد المعروف بميثاق النزاهة، وقد وقع عليه أعضاء مؤتمر الاستانة في ترايبا على شاطئ البوسفور في إبان الحوادث العربية وبمقتضاه تعهدت الدول الست بأنها في كل اتفاق يحصل بشأن تسوية المسألة المصرية لا تبحث عن احتلال أى جزء من أراضى مصر ولا الحصول على امتياز خاص بها (راجع في تفصيل ذلك كتابنا عن الثورة العربية ص ٣٢٤ وما بعدها طبعة سابقة).

نبشوا القبور وبعثروا الجثث وأهانوا الموقى وخالفوا في ذلك تاريخ المتقدمين والمتأخرين من المتحضرين، ثم قامت معضلة فاشودة بين كتشنر ومارشان أو بعبارة أخرى بين الحكومتين الإنجليزية والفرنسية، وانتهت بتقهقر فرنسا، فطمع الإنجليز طمعاً كبيراً ورفعوا رايتهم على الخرطوم بجوار الراية المصرية، وقد رفعوها سوداء ليوهموا أنها حداد على غردون وبذلك يكونون آمنين شر هياج الجنود المصرية! أخذوا بعدئذ يوزعون الجنود المصرية هنا وهناك، حتى إذا خلاهم الجو ونضج الطعام بين كراسى الوزراء المصريين أكلوا أكلتهم وبدلوا الراية السوداء براية هذه الشركة المشثومة.

«هذا ماجرى، وأنا ننتظر أن تعضد أوروبا الحكومة العثمانية التي لا بد أن تحتج احتجاجاً شديداً على هذا العمل المخالف للعهود والمعاهدات والشرف كل المخالفة، نعم إن أوروبا إذا لم تعمل ما تحتمه عليها واجباتها استهانت انجلترا بأمرها وأتت من المنكرات في وادى النيل ما لا يكون السودان بجانبه شيئاً مذكوراً، فإن المسألة لم تكن مسألة السودان فقط بل هي مسألة مصر نفسها، بل مسألة إفريقية أيضاً، فإن مصر لا تكون بلداً غنياً قادراً على القيام بدفع ديونه إلا إذا كان ما لكا لينابيع النيل التي هي في صميم السودان، وإن مشاركة انجلترا لمصر في تملكه، وهي الشرهة الطامعة التي لا يكفيها نصيب أو نصيبان، لما يهدد المصالح الأوروبية ويجعل المستقبل مظلماً، وتصبح الدول التي تظن بها اليوم خيراً في مقدمة الساخطين على جشعها.

«كذلك فإن لكثير من الدول الأوروبية أملاكاً في إفريقية، وهذه الأملاك تصبح لا محالة تحت رحمة الدولة الانجليزية التي لا تريد إلا أن تضع يدها على كل إفريقية ليكون لها منها هند ثانية، وإن الحملات العديدة التي حملتها بواسطة رجالها السياسيين على حكومة الترנסفال والأورنج ليست إلا دليلاً قوياً على حقيقة مطامعها الإفريقية.

«أما فرنسا فإنها بسبب هذه السياسة قد أساءت إلى نفسها كثيراً، فبعد أن كان المصريون يعتمدون بعض الاعتماد عليها وكان الخديو يجدها الدولة الثانية بعد الدولة العثمانية للمدافعة عن حقوقه وحقوق أمته، أصبحوا اليوم وهي أمامهم من حيث التأثير في المسألة المصرية أقل من أضعف دولة أوروبية، نعم إنى أصرح بذلك جهاراً لأن السياسة القائمة على الجبن والخوف ليست إلا سياسة مضيعة للحقوق مبددة للنفوذ، مزرية بكل كرامة، وإنى لا أقصد بذلك أنه كان يجب على فرنسا أن تحارب انجلترا بشأن

فاشودة، كلا، ولكننى كنت أرى من الحكمة أن تقبل ترك فاشودة بشرط أن يعود كل شيء إلى مصر، حتى إذا حانت ساعة الخلاص عادت مصر إلى قوتها وفى يدها كل أملاكها، ولكن الحال كانت على الضد من ذلك، إذ تظاهرت فرنسا بالرغبة فى الدفاع عن عمل رجلها الكبير مارشان وشرف رايته، ثم فى لحظة واحدة تنزلت عن هذا الدفاع بلا ثمن، فأخجلتنا بالخط من كرامتها وبعثت اليأس من جهتها إلى قلوب كثيرة كانت تراها من قبل دولة الهمة والكرامة، أما من جهتي فإني لا أياس أبدا من مستقبل بلادي، بل بالعكس أجد التمسك بالدفاع عنها فى شدتها أوجب علىّ منه فى رخائها، وأنه إذا كانت انجلترا تلعب بمصالح الدول فإنها لا تستطيع أن تلعب بقلوبنا التى تنمى فيها بعملها الجائر الحقن عليها كل يوم، وإننا إذا كنا نحمل لها اليوم شيئا كثيراً من الكره والحقن، فإننا فى مستقبل الأيام سنكون ألد أعدائها العاملين على نكالها إذا هى بقيت مصرّة مخالفة وعودها وعهودها معنا، ومضيّها فى هذه الشركة الباطلة.

«وليعلم الفرنسيون الذين نجلهم ونحترمهم ونحفظ لهم جيلهم السابق أن عمل ساستهم لا يمحو حسناتهم معنا، ولكن، وهو ما نأسف له، لم يبق فى قلوبنا ذرة من الاعتماد عليهم بعد أن أعلنت الأيام خيبة سياستهم فى وادى النيل».

مصطفى كامل

دعوته إلى نشر التعليم القومى

اتجهت عزيمة المترجم منذ سنة ١٨٩٩ إلى حث الأمة على نشر التعليم القومى فى أرجاء البلاد لكى تقوى الروح الوطنية فى نفوس الجيل الجديد ويستعد الشباب للاضطلاع بأعباء الجهاد، وكان المرحوم حسين بك القرشولى أحد سراة الأعيان بالقاهرة أول من لبى دعوته وأسس مدرسة على نفقته بالحلمية، وأقام لافتتاحها احتفالا فخما فى سراى الحلمية يوم ٨ يناير سنة ١٨٩٩ عيد الجلوس الخديوى، وقد أمه جمع كبير من العظماء والكبراء وأساتذة المدارس والموظفين والأعيان، وكان المترجم خطيب هذا الاحتفال، وقد شكر صاحب المدرسة الحاضرين على تلبيةهم دعوته إلى حضور الحفلة، ثم

دعا المترجم إلى الخطابة، فوقف وألقى خطبة نفيسة في الحث على نشر التعليم القومي، بدأها بشكر صاحب المدرسة على أريحيته، قال: «ولئن قصرنا في مديحه والثناء عليه، فلسوف يذكره التاريخ بالحمد الجزيل مادام هذا العمل المبارك قائما يبعث النور إلى العقول وغذاء التربية السليمة إلى النفوس»، ونوه بالمعاهد والمدارس التي تأسست في مصر على عهد محمد علي وكان لها الفضل في نهضة مصر العلمية، ثم استحث أعيان البلاد وأغنياءها على البذل في سبيل إقامة صرح العلوم والمعارف في البلاد.

إنشاء مدرسة مصطفى كامل

(مارس سنة ١٨٩٩)

وكان من أثر دعوته إلى نشر التعليم القومي أن هزت الأريحية اثنين من الشبان وهما محمد أفندى سعيد التومي وأحمد أفندى صادق، فأسسا في جهة باب الشعرية مدرسة أهلية بسرأي العزبي، وطلبا من الفقيد أن يقبل تسميتها باسمه، فقبل منها طلبها بكل ارتياح وأعلننا عن ذلك في الصحف في يناير سنة ١٨٩٩^(٣).

سارت المدرسة بإدارة مؤسسيها نحو ثلاثة أشهر، ثم رأيا أن تكون ملكا للفقيد يتولى زمامها ويقوم بأعبائها ونفقاتها وإدارتها، وأعلننا عن ذلك في مارس سنة ١٨٩٩، فقبل الفقيد هذا العبء إلى جانب أعبائه السياسية والوطنية، لأنه رأى في إنشاء هذه المدرسة وإدارتها توجيها للنشء الجديد إلى التربية القومية التي تغرس في نفوسهم الفضائل الوطنية والدينية، ونشر بهذه المناسبة البيان الآتي:

«حضرة مدير جريدة المؤيد

«علم قراء جريدتكم الغراء أن المدرسة المسماة باسمي بباب الشعرية قد آل أمرها إليّ وأصبح شقيقى هو المدير لها

«وإني أعلم أن حمل المدرسة ثقل وأتاعها كثيرة ونفقاتها طائلة، ولكني قبلتها بكل ارتياح أملأ منى في خدمة أبناء الوطن العزيز وترقية مدارك الناشئين، وإني أتشرف اليوم

(٣) المؤيد عدد أول يناير سنة ١٨٩٩.

بإعلان الجمهور أن التعليم في هذه المدرسة مقرون بالتربية، لأنى أعتقد أن التعليم بلا تربية عديم الفائدة، بل ربما كان كثير الأضرار، وأقصد بالتربية التربية الإسلامية المحضة لأن أساس التربية الدين، وكل أمة يتربى أبنائها على غير قواعد الدين تكون عرضة للدمار والانحطاط.

«وقد رأيت بنفسى فى أغلب مدارس أوروبا اهتماماً فائقاً بتعليم الدين المسيحى للناشئين، لذلك عولت على جعل الغرض الأول من المدرسة ترقية الملكة الإسلامية عند التلاميذ، وتمكين مبادئ محبة الوطن والاتحاد والائتلاف من نفوسهم، وتقديم اللغة العربية على كل لغة، مع ترك الحرية لأبائهم فى الاختيار لهم بين اللغة الفرنسية واللغة الإنجليزية، ورغبة منى فى نفع أبناء الفقراء قررت قبول ثلاثين فى المائة منهم مجاناً.

«وإنى أسأل الحق سبحانه وتعالى أن يوفقنى وجميع المصريين لخدمة الوطن العزيز الذى أرى السعادة الكبرى فى التفانى لأجل سعادته، هذا وأرجو منكم أن تتفضلوا بنشر هذه الكلمات فى محليات جريدتكم وأن تقبلوا الخ.

مصر فى ٢٨ مارس سنة ١٨٩٩

المخلص

مصطفى كامل

وقد انتقلت المدرسة فى يناير سنة ١٩٠٠ من سراى العزبى إلى سراى السلحدار بشارع أمير الجيوش البرانى، وعنى الفقيد بأمر هذه المدرسة ووضع لها برنامجاً صالحاً يجمع بين التعليم وتهذيب الأخلاق، وكان يقيم فى ختام كل عام دراسى احتفالاً سنوياً لتوزيع الجوائز على النابغين فى المدرسة تشجيعاً لهم على الاستزادة من العلم، وكانت هذه الاحتفالات تجمع أكابر القوم، وكان المترجم يلقى فيها خطاباً جامعة تزيد من روعتها وتعالى من قدرها.

سفره إلى أوروبا

(أبريل سنة ١٨٩٩)

برح مصطفى كامل ثغر الإسكندرية يوم ٤ أبريل سنة ١٨٩٩ قاصداً أوروبا ليستأنف جهاده فى محافلها وأنديتها وصحافتها، فذهب إلى فيينا ثم إلى باريس فبرلين فبودابست

وفى كل عاصمة كان يرفع صوت مصر على صفحات الجرائد الكبرى، ثم ذهب إلى الاستانة وحادث مراسلى الصحف الأوروبية والأمريكية عن المسألة المصرية.

الإنعام عليه برتبة المتمايز

وفى يونيه سنة ١٨٩٩ أنعم عليه السلطان برتبة المتمايز فصار (مصطفى بك كامل)، وما ذاع نبأ الإنعام عليه فى مصر حتى ارتاحت له نفوس أصدقائه وأنصاره، ونفوس الوطنيين عامة، وعدوه تكريماً للحركة الوطنية فى شخصه، وتلقى التهانى من الجهات كافة. وعاد إلى باريس فى يونيه سنة ١٨٩٩، وألقى فى قصر مدام جوليت آدم يوم ١٨ يونيه خطاباً سياسياً دفاعاً عن مصر ومطالبها، سمعه الكثيرون من الكتاب والسياسيين الذين كانوا يؤمنون دار هذه السيدة العظيمة.

عودته إلى مصر

وعاد إلى مصر معرجاً على الاستانة فأنعم عليه فى أغسطس بالرتبة الأولى من الصنف الثانى، ثم بالوسام المجيدى الثانى.

خطبته بالقاهرة

(١٨ ديسمبر سنة ١٨٩٩)

وألقى يوم ١٨ ديسمبر سنة ١٨٩٩ خطبة رائعة بالتياترو الطليانى كان لها دوى كبير فى جميع المحافل والدوائر، افتتحها بالكلام عن مصر فى عهد الاحتلال قائلاً: «إنه كلما تقادم هذا العهد تضاعفت واجباتنا نحو الوطن العزيز، فقد ظهر للعالم أجمع أن إنجلترا تعمل للاستيلاء على مصر ووادى النيل، وترمى إلى نزع كل سلطة من أيدي المصريين، وتحقق للعامة والخاصة أن المدنية الإنجليزية لا تعرف فى سياستها مع الأمم الضعيفة معنى للوعود والعهود، ولا ترعى حرمة للعدل والإنصاف»

وطعن في سياسة أوروبا عامة قائلاً:

« كنا نود من صميم أفئدتنا أن يقوم الإنجليز بوفاء وعودهم واحترام شرف عهودهم، وأن يبرهنوا للعالمين أن المدنية الصحيحة هي المدنية القائمة على الفضائل الحقيقية، المنافسة لاغتياال حقوق الأمم، ولكن من سوء حظ النوع البشرى أن المدنية الحاضرة أبطلت الرق في الأفراد وأعلنته في الشعوب، واستهجنّت مخالفة الذمة والنسرف في المعاملات الشخصية وسمحت بها في المعاملات الدولية».

ثم انتقل إلى الكلام عن حالة الأمة المصرية وما هي عليه من التأخر قائلاً: «إن المسألة المصرية الحقيقية ليست هي مسألة الاحتلال، ولكنها مسألة تأخر الأمنة المصرية، واستحكام الشقاق بين أفرادها، وما مسألة الاحتلال الإنجليزي إلا مسألة فرعية بالنسبة لها، فإن بقاء الأمة متأخرة منحللة الأعضاء يعرضها إلى كافة الأخطار في سائر الأزمان، وتقدمها في طريق العرفان واتفاق بينها على خدمتها وتعاضدهم على إسعادها يحميها من الطوارئ والنوازل ويقيها شر الأعداء».

ودعا إلى تعميم التربية والتعليم وجعل الدين أساس التربية الصالحة.

* * *

الفصل التاسع

ظهور اللواء - والجهاد الأكبر

(يناير سنة ١٩٠٠)

بدأ مصطفى كامل حياته الصحفية وهو بعد في مدرسة الحقوق، إذ أصدر مجلة (المدرسة) في فبراير سنة ١٨٩٣، كما تقدم بينه في الفصل الثاني (ص ٤٧)، ثم أخذ يرسل مقالاته إلى الصحف من مصرية أوروبية كما أسلفنا، وكانت (الأهرام) أكثر الصحف ترحيباً بمقالاته، يليها (المؤيد)، وقد رأى الفقيد أن لا بد له من جريدة يومية يتصل بالرأى العام بواسطتها باستمرار، ويغذى بها عقول القراء ونفوسهم، ثم تكون علماً للحركة الوطنية التي بعثها واقتاد زمامها، وقد اختار لهذه الجريدة اسم (اللواء)، فكان اختياراً موفقاً، إذ كان اللواء هو الراية التي التف حولها الوطنيون سنين عديدة طول حياته، وبعد وفاته، وكان ظهور اللواء من أبرز أعمال الفقيد وأكبرها أثراً في الشعب وفي الحركة الوطنية، حتى صار أكبر تعريف له بين معاصريه أنه (صاحب اللواء)، وعلت منزلة (اللواء) في نفوس الشعب، وصار اسمه محبباً للنفوس، حتى سمي باسمه كثير من محلات التجارة والمقاهي والمعاهد، وإلى الآن لا يزال اسم (بار اللواء) علماً للمقهى المعروف بهذا الاسم أمام دار الأهرام، واسم (أجزاخانة اللواء) علماً على الصيدلية الموجودة بباب اللوق.. الخ.

أعد المترجم معيدات (اللواء) عام ١٨٩٩، وصدر العدد الأول منه يوم الثلاثاء ٢ يناير سنة ١٩٠٠ (غرة رمضان سنة ١٣١٧ هـ)، وكانت داره الأولى بالمنزل رقم ١٣ بشارع فهمى بجوار محطة باب اللوق، ثم انتقل بعد حوالى عامين إلى المنزل الفخم رقم ٢٩ بشارع الدواوين^(١) (نوبار باشا الآن)، أمام وزارة العدل، وهو المنزل الذي عرف بدار اللواء، وتوفى فيه الفقيد، وقد علا شأن الجريدة في عالم الصحافة من أول ظهورها،

(١) الآن رقم ٣١ مكان مدرسة عابدين الابتدائية الأميرية.

وأخذت مكانتها في نفوس الشعب، ولا غرو فإن شخصية صاحبها قد حبيبتا إلى القلوب، وأضفت عليها روعة ومكانة سامية، وكان المترجم لطول خبرته بالصحافة واتصاله المستمر بها سواء في مصر أو في أوروبا قد اكتمل نضجه الصحفي، فضلاً عن كفايته وذكاؤه ومقدرته الفطرية في التحرير والإدارة، فظهر الفن الصحفي في اللواء كاملاً، مما كان له أثره في انتشاره وعلو مكانته، وكان يصدر يومياً باستمرار حتى في يوم الجمعة، ولا يحتجب عن القراء إلا في اليوم الأول من عيد الفطر وعيد الأضحى، ثم أخذ يحتجب يوم الجمعة ابتداءً من شهر مايو سنة ١٩٠١، وكان يصدر في أربع صفحات، ثم في ثمانى صفحات باستمرار منذ أواخر سنة ١٩٠٦، بعد أن أحضر له آلة طباعة كبرى تطبع في الساعة الواحدة ١٢٠٠٠ نسخة.

وكان الفقيد يكتب افتتاحية اللواء في أكثر الأيام ويوقع عليها بإمضائه ومن كانوا يكتبون فيه المغفور له محمد بك فريد، وأحمد شوقي أمير الشعراء، وإسماعيل باشا صبرى، و خليل بك مطران، ومصطفى بك نجيب مؤلف كتاب (حماة الإسلام) وإسماعيل بك شيمي، والأستاذ ويصا وأصف، والأستاذ محمد فريد وجدى، ومحمد بك لبيب البتانونى، ومحمود بك سالم، وفؤاد بك سليم (باشا)، ومحمود بك أنيس، ومحمود أفندى سلامة، وأحمد أفندى حلمى، والأستاذ عبد القادر حمزة، والأستاذ محمد لطفى جمعة، ثم عثمان أفندى صبرى، وسيد على، وأمين عمر (أبو حفص)، ومحمد صادق عنبر، ومحمد علام، وغيرهم. ثم أخذ تلاميذه يكتبون فيه منذ سنة ١٩٠٦، وصار اللواء شبه مدرسة تعلم المصريين حقوقهم وواجباتهم، وتبث فيهم روح الوطنية والأخلاق، وتبصرهم بحقائق بلادهم ومساوئ الاحتلال وصنائعه، وتستحثهم على الجهاد في سبيل الاستقلال، وكان الفقيد لا يفتأ يذكرهم على صفحاته بعبر التاريخ، ويحى ذكريات الحوادث الماضية من مفاخر وهزائم، كذكرى تنصيب محمد على بإرادة الشعب، وهزيمة الإنجليز في معركة رشيد سنة ١٨٠٧ ثم ذكريات ضرب الإسكندرية سنة ١٨٨٢، واحتلال الإنجليز العاصمة، وكان أيضاً يفسح صحائف اللواء لبيان جهاد الأمم في سبيل حريتها، ويضرب الأمثال للأمة بما يجب أن يكون عليه الجهاد والعمل، فضلاً عن البحوث العلمية والاقتصادية، والاجتماعية والأدبية، فغذى بذلك عقول المصريين ونفوسهم بروح الوطنية.

وأصدر مجلة أسماها (مجلة اللواء)، وهى مجلة شهرية تشتمل على أهم المقالات التى

تنشر في جريدة اللواء اليومية، وصدر العدد الأول منها في فبراير سنة ١٩٠٠، وفي ١٩٠٥ أصدر جريدة أسبوعية باسم (العالم الإسلامى) كان ينشر فيها المقالات والأنباء التى تهتم الأمم والدول الإسلامية، وبخاصة تعريب ما تكتبه الصحف والمجلات الأوروبية عن العالم الإسلامى.

ولقد كنتُ حينما ظهر اللواء سنة ١٩٠٠ لا أزال تلميذاً بالقسم الابتدائى بمدرسة رأس التين بالإسكندرية، حيث كان والدى يتولى منصب الإفتاء بمحكمة الشرعية ولم أكن قد فطنت بعد لقراءة الصحف، وقضيت معظم القسم الثانوى أيضاً غير ملتفت إليها، وبدأت خلال سنة ١٩٠٤ أذهب إلى قهوة بلدية أنيقة بشارع رأس التين، تجاه سراى محسن بأشياء، فى كل أسبوع مرة، وكان صاحبها «الحاج أحمد» يقدم لنا شراب الليمون (الليمونادة) وكان يتقنه كل الإتيقان، حتى صار علماً على قهوته، ويطلعنا على بعض الصحف، ومنها اللواء، ولكن لم أتبين بعد منهجه، ولا منهج الصحف الأخرى، ولم تكن فى ذهنى أى صورة عن مصطفى كامل، إذ لم أكن رأيته بعد أو سمعته، وكنت وقتئذ فى الخامسة عشرة من عمرى، ولما ذهبت إلى القاهرة ودخلت مدرسة الحقوق (أكتوبر سنة ١٩٠٤) لفت نظرى اسم قهوة بجوار المدرسة تسمى (قهو الحقوق) بشارع عابدين، لصاحبها الخواجة (أندريا)، فأعجب طلبة الحقوق وأنا منهم بهذا الاسم، واحترناها لنقضى أوقات الفراغ والسمربها وبدأت هناك أقرأ اللواء قراءة فهم وإدراك، فتعجبني روحه ومقالاته، ثم صار بمثابة المدرسة التى تلقيت عنها مبادئ الوطنية، كما أنه كان مدرسة للجيل كله.

خطبة الفقيد بالإسكندرية

(يونيه سنة ١٩٠٠)

لم تصرف الفقيد أعماله فى الصحافة عن توجيه الرأى العام بخطبه الوطنية التى كان لها من الوقع والأثر فى النفوس أضعاف ما كان القلم والكتابة، فألقى مساء ٢ يونيه سنة ١٩٠٠ خطبة سياسية بتياترو زيزنيا بالإسكندرية، فى جمع كبير من الوطنيين، وحضرها كثير من الأجانب، وكان موضوعها شرح الحالة السياسية فى ذلك الحين، وشحذ العزائم

لمتابعة الجهاد والإشادة بالوطنية، ثم الرد على حملات الصحف الأوروبية في ذلك الحين على الإسلام، بدأ الخطبة بقوله:

«سادق وأبناء وطني الأعزاء.

«كلما جئت الإسكندرية، ورأيت هذه الحياة الحقيقية التي جعلت لكم مقاماً محموداً بين بنى مصر، أعود شاعراً بأن لى فى هذه المدينة الزاهرة أساندة فى الوطنية عنهم تؤخذ دروس محبة الأوطان، ومنهم تعرف الأمة حقوقها وواجباتها، وهذا ما أخرجنى فى السنين الأخيرة عن الوقوف أمامكم هذا الموقف، ومناجاتكم فى شئون الوطن العزيز، ولكنى أشعر بأن تبادل الميول، وانتقال العواطف الطاهرة من فؤاد إلى فؤاد، واجتماع القلوب فى وقت واحد حول آمال واحدة، وسريان روح مشتركة فى هذا المجموع العظيم، مما يزيدنا اعتقاداً على اعتقاد، وحباً للديار على حب، ويخفف عن الوطن المقدس آلام مصائبه العظام».

وقال عن إيمانه بالمستقبل:

«إنى أشد الناس أملاً فى مستقبل أمتى وبلادى، وأرى الشعب الذى أنا منه جديراً بالرفعة والسمو، حقيقاً بالمجد والحرية والاستقلال، ولولا هذا الأمل وهذا الاعتقاد لكنت فارقت الحياة وتركت الدنيا غير آسف على أحد، وكيف لا أكون ذا أمل وهذه أمتى أجد فيها روحاً جديدة وحياة صادقة ووطنية ناشئة قوية، ومن منكم لا يرى ما أرى؟ هل ينكر أحد شعور الأمة بحالتها وانتباهها من رقدتها وقيامها من ههنتها وعملها لخيرها وسعادتها».

وبما قاله فى الرد على حملات الصحف الأوروبية على الإسلام لمناسبة مقالات المسيو هانوتو:

«قد يظن بعض الناس أن الدين يناقى الوطنية، أو أن الدعوة إلى الدين ليست من الوطنية فى شىء ولكنى أرى أن الدين والوطنية ترأمان متلازمان، وأن الرجل الذى يتمكن الدين من فؤاده يحب وطنه حباً صادقاً، ويفديه بروحه وما تملك يده، ولست فيما أقول معتمداً على أقوال السالفين الذين ربما اتهمهم أبناء العصر الحديث بالتعصب والجهالة، ولكنى استشهد على صحة هذا المبدأ بكلمة بسمارك أكبر سياسة هذا العصر وهو

خير رجل خدم بلاده ورفع شأنها، فقد قال هذا الرجل العظيم بأعلى صوته: «لو نزعتم العقيدة من فؤادى لنزعتم محبة الوطن معها».

وقال عن ارتباط المسلمين والأقباط:

«كيف يستطيع رجل وطنى أن يدعو للشقاق والبغضاء، وهذه الدعوة مناقضة للوطنية الصحيحة، فالأقباط إخوة لنا فى الوطن تجمعنا بهم أشرف رابطة، وقد عشنا معهم القرون الطوال، على أتم وفاق وأكمل اتفاق».

وكانت الخطبة من أبداع وأبلغ خطبه فى الوطنية.

سفره إلى أوروبا

(يونيه سنة ١٩٠٠)

سافر الفقيد إلى أوروبا عن طريق الإسكندرية يوم ١٦ يونيه سنة ١٩٠٠ كعادته السنوية، وعهد بإدارة اللواء فى غيبته إلى شقيقه على بك فهمى كامل.

وكان لا يفتأ يرسل مقالاته الوطنية إلى اللواء فى سياحته، يناجى بها الوطن ويسدى إلى المصريين نصائحه السامية، فمن ذلك مقالته (صورة الوطن العزيز) كتبها على ظهر الباخرة سميراميس التى أقلته من الإسكندرية ونشرت فى لواء ٢٨ يونيه ١٩٠٠، ومقالة (وطن كوشوت) أرسلها من بودابست فى ٣٠ يونيه سنة ١٩٠٠ عن جهاد كوشوت بطل المجر، ومقالته (مظاهر المدنية الحقة) من فيينا فى ٣١ يوليه سنة ١٩٠٠ عما يجب أن يفيد السائح المصرى فى أوروبا، قال فيها: «لا يدرك الشرقى منا أسرار المدنية الغربية وأسباب قوة ممالكها إلا إذا زار المدارس والمعامل، هنا وهناك، ووقف على نظمات الحكومات، وقرأ دستورها، وأدرك أن كل جنس منها غيور على عاداته وأخلاقه، حريص على دينه ولغته، وأن الفرد يمثل فى نفسه الأمة بأسرها. ويسير فى كل حركاته وسكناته على ناموس ثابت ودستور لا يتغير».

وعاد إلى مصر فى أغسطس سنة ١٩٠٠، واستأنف جهاده الصحفى فى اللواء، وكتب فى عدد ١٤ سبتمبر سنة ١٩٠٠ مقالة مهمة عن ذكرى احتلال الانجليز العاصمة.

دعوة الأمة إلى الاعتماد على نفسها

وأقام يوم أول أكتوبر سنة ١٩٠٠ احتفالاً فخماً في مدرسته لتوزيع الجوائز على النابغين من تلاميذها، وقد أمّه جمع كبير من صفوة القوم دل على ما ناله في نفوس المصريين من محبة واحترام وتقدير لجهاده في سبيل الوطن، وكان في مقدمة الحاضرين إسماعيل باشا محمد رئيس مجلس شورى القوانين في ذلك العهد، وألقى على بك فهمى كامل خطبة شكر فيها الحاضرين وأفاض في بيان أعمال المدرسة، ثم وقف الفقيد وألقى خطبة نوه فيها بفضل العلم، وجعل موضوعها وجوب اعتماد الأمة على نفسها في نهضتها، قال في هذا الصدد:

«لست الآن واقفاً أمامكم موقف المتباهى بعمله المعجب بصنعه، ولكنى واقف موقف الخادم لأمتي، المفدى نفعها براحتي، فقد أسست هذه المدرسة غير مفكر في صعوبة العمل وخطورة الأمر، غير ملتفت إلى أقوال المثبتين للهمم، الميتين للعزائم، ونهضت بها مدفوعاً باعتقاد تملك فؤادي وهو أن كل فرد في هذه الأمة مطالب بخدمتها مهما قصر الآخرون وأهمل المهملون؛ وسرت في طريقي هذا معتمداً على فاطر الأرض والسماء، نصير العاملين، وعون المجتهدين».

إلى أن قال:

«إن كل فرد مهما كان صغيراً مطالب بواجب يؤديه لبلاده ووطنه وأمتي، ولو ترك كل مصرى لأبنائه من بعده حب العمل وعدم الاعتماد على الغير إراثاً، لأصبحنا وفينا حياة طيبة تحيي الآمال، وتبعث العزائم عند الرجال، وإني لست أرى لبلادي آفة تهددها بالفناء مثل اعتقاد أبنائها أن الحكومة هي كل شيء، ويبيدها كل أمر وعليها كل واجب، وأنهم لا يسألون عن هذا الوطن أبداً، وعلى حين أن التاريخ ينطق بأفصح بيان أن الأمة التي تعتمد في كل شئونها على حكومتها أمة منزلتها من الحكومة منزلة العبيد من سيده، أما الأمة التي تظهر في ميدان الحياة بنشاطها وجهادها وأعمالها، متحدة مع الحكومة تارة، عاملة وحدها تارة أخرى، هي الأمة التي منزلتها الحكومة منها منزلة العبد من سيده، وها هي ذى الأمم الغربية تجدها تسبق حكوماتها في فتح المدارس وإنشاء المكاتب

وتأسيس المستشفيات والقيام بكل عمل خطير، مع أن حكوماتها من الثروة وقوة السلطان بمكان».

دعوته إلى إحياء الصناعة

ودعا في اللواء إلى إحياء الصناعة في مصر ونشر التعليم الصناعي في عدد ٢٥ أكتوبر سنة ١٩٠٠، قال في هذا الصدد:

«فإيجاد روح الصناعة في البلاد هو بلا مرأى أسمى خدمة تقدم إليها وأكبر سعادة تجهز لرجال الغد، وقد أدرك الكثير من فضلاء مصر هذه الحقيقة وهذا الواجب، فتبادلوا الحديث في أمر تأسيس مدرسة صناعية، ولكنهم لم يتعدوا ذلك إلى العمل، وأشد المصريين إهتماماً بهذا المشروع الجليل هم أعضاء جمعية العروة الوثقى الذين برهنوا بأعمالهم المشهورة على أنهم رجال عمل يعرفون لمصر حقوقها عليهم ولا يقصرون في تأدية هذه الحقوق، فوضع لهم صاحب المهمة الحديدية «حسبو بك محمد» مشروع تأسيس مدرسة صناعية لا يكلفهم من المال كثيراً ولكنه يعود على البلاد وأبنائها بالخير الجزيل».

إحياء ذكرى الرجال العاملين

كان الفقيد لا يفتأ يدعو الأمة إلى إحياء ذكرى العظماء والأفذاذ الذين خدموها في نهضتها، ويرى في ذلك دليلاً على حياة الأمة، وقد كتب في عدد ١٠ مارس سنة ١٩٠١ يؤنب الأمة على إهمالها تخليد ذكرى فقيد المعارف على باشا مبارك، قال:

— «لا شيء يرفع جلال مقام الوطنية في بلاد مثل إحياء ذكرى الرجال الذين أخلصوا في خدمتها، وقضوا أعمارهم في العمل لإعلاء شأنها وتحقيق آمالها، ولا شيء يبيت الوطن والوطنية مثل تمكن داء النسيان في أمة وجهلها لتاريخها، وعدم تقديرها للرجال المخلصين في خدمتها، وقد بليت هذه الأمة المصرية العزيزة بذلك الداء العضال، فتراها لا تذكر الرجال إلا إذا كانوا القابضين على أزمة أمورها، أو المحركين لحركة الرأي العام فيها، ولا تهتم بالحوادث إلا عند حدوثها فليس للمصائب في نفوس أبنائها

أثر يبقى، وليس كذلك للعظمة الماضية بقية باقية في الأفئدة والضمائر، فلا غرابة إذا كان ذلك للعظمة الماضية بقية في الأفئدة والضمائر، فلا غرابة إذا كان ذلك سبباً من أسباب تأخرها وعلة من علل انحطاطها» إلى أن قال:

«نهض المصريون عند وفاة المرحوم على باشا مبارك نهضة النار في الرياح ونادى كبير منهم بوجوب عمل اكتتاب عام لإقامة أثر يخلد ذكرى هذا الشيخ الجليل الذى خدم العلم والأدب والوطن خدمة لا تنسى، ولا يصح لأمة تريد أن تحيا أن تنساها، فجمع شىء من المال، ومضت الأيام والأعوام، وهذا المشروع دفين لا يريد القوم أن يظهره للملأ مرة ثانية، أو يحدثوا الناس عند حديثاً جديداً، فماذا تم فيه؟ وماذا قررت اللجنة المكلفة بإخراجه إلى الوجود؟ هل ذهبت من النفوس محبة فقيد المعارف؟ أم تحت الأيام فضله وقضت على عمله حتى نسي ونسيت آثاره؟ اللهم إن مصر لا تنال من السعادة نصيبها، ولا تبلغ من الاستقلال مطلبها إلا إذا جعل أساس تربية أبنائها تخليد ذكرى النافعين من رجالها وبث في نفوس الناشئين الاقتداء بهم ومحبة الديار محبة العارف بجمالها المحيط بأسرار تاريخها الخبير بعلى تأخرها وأدواء انحطاطها، وإلا فمحال أن يبنى على غير هذا الأساس مجد صحيح وعز دائم».

هذا ما كتبه مصطفى كامل عن إهمال الأمة تخليد ذكرى على باشا مبارك، فليت شعري ماذا هو قائل عن إهمال الأمة تخليد ذكره هو! لقد أفنى عمره في بعث الحركة الوطنية، وضحى بحياته في سبيل مصر، وذوت زهرة شبابه في فبراير سنة ١٩٠٨، وصنع له تمثال لتخليد ذكره، فبقى التمثال أربعة وعشرين عاماً سجيناً، ترض عليه الحكومة بإقامته في أحد الميادين العامة والأمة غافلة عن شأنه.

* * *

ثم أفرج بعد لأمى عن تمثال الفقيد، واتفق على إقامته في أحد الميادين الكبيرة العامة، فقرر مجلس الوزراء بجلسة أول سبتمبر سنة ١٩٣٨ إقامته في ميدان العتبة الخضراء ثم أقيم التمثال في ميدان (مصطفى كامل) كما تراه مفصلاً في الفصل الخامس عشر.

خطبته في افتتاح مدرسة الشوربجي ببريم (أبريل سنة ١٩٠١)

كان مصطفى كامل مشغولاً بنشر التعليم القومي في البلاد، داعياً إلى هذا الغرض باملا على تحقيقه. اعتبر ذلك في تشجيعه حسين بك القرشولى على إنشاء مدرسته. بخطبته في افتتاحها، ثم إنشائه مدرسة (مصطفى كامل)، وقد أسس أحد خيار الأعيان مديرية البحيرة وهو المرحوم مصطفى بك الشوربجي سنة ١٩٠١ مدرسة مجانية في بلده بریم) - قائمة حتى اليوم - وأقام احتفالاً فخماً بافتتاحها يوم ١٥ أبريل من تلك السنة مضره مدير البحيرة في ذلك الحين (أحمد فائق باشا) وكان من خاصة أنصار الفقيد لمعجبين بجهاده وحضرها جمع كبير من الأعيان والكبراء وقد دعى مصطفى كامل إلى مضور الاحتفال فلبى الدعوة، وكان موضع الإجلال والاحترام من الحاضرين، وألقى فطبة من خطبه العظيمة عن فضل العلم وأثنى على منشاء المدرسة، ونوه بحضور الناس فواجاً إلى هذا الاحتفال إجلالاً للعلم وإظهاراً لما في صدورهم من حب للوطن والميل لثيره، وتكلم عن واجبات الأمة أفراداً وجماعات نحو الوطن. ودعا في خلال الخطبة عوته الوطنية، وبرهن على أن في الأمة حياة حقيقية وإستعداداً عظيماً للتقدم إذا وجد من ستحثها على العمل، قال:

«سادق الأعراء

«إني بكل ارتياح حضرت إلى هذا البلد الأمين، وانتقلت من عاصمة الديار إلى هذه لجهة المباركة لمشاركة القوم في فرحهم واحتفالهم بما يصح أن نسميه «عيد العلم التربية».

إلى أن قال:

«ليس في تشييد المدارس وإقامة المستشفيات والتنافس في الخيرات النافعة شيء يسر لوطن ويشرح صدره مثل نفى تهمة الموت الأدبي عن المصريين، قال للقائلون وردد لمرددون: «إن المصريين اتفقوا على ألا يتفقوا»، وسرت هذه الكلمة في الأمة وتناقلها لصغير عن الكبير، وشرحها فلاسفة السوء واعتقد الكثيرون صحتها، حتى أخذ القوم

يتساءلون عن مبلغ هذه الأمة من القوة والحياة، يتساءلون هل هى إلى المجد والارتقاء سائرة؛ أم إلى الموت والحياة والفناء هاوية.

« فأجبهم يا من رفعت للعلم والوطن مناراً عالياً، أجبهم بأن المصريين إتفقوا على أن يتفقوا، وأن جمعية العروة الوثقى فى الإسكندرية، وجمعية المساعى المشكورة فى المنوفية، والجمعية الخيرية الإسلامية فى أنحاء القطر، تنادى بأن فى الأمة رجالاً أحياء ذوى همم عالية، وعزائم صادقة، أجبهم بأن هذه المدارس الأهلية التى أنشئت فى الديار بهمم الأفراد هى الحجب الدامغة على حياة الأمة ووجود من يهتم لأمر تقدمها ونهضتها.

« لا داء أضرّ بالأمة وأشدّ وبالا عليها مثل داء إعتقادها السوء فى نفسها، ويأسها من مستقبلها، فجاهدوا ضد هذا الداء ما استطعتم، وأعلنوا عليه حرباً عواناً، وبثوا فى أبناء الأمة مبادئ الثقة بالنفس والاعتماد على المجموع، وربوا البنين والبنات على محبة الوطن».

«الوطن ! الوطن ! كلمة ترددها الألسنة وتكتبها الصحف، وينطق بها الناس على اختلاف مراتبهم، ويصيح بها كل إنسان، فماذا للفرد الواحد فى هذه الكلمة، بل ماذا له فى الوطن نفسه؟ له كل شىء، ونصيبه من فخاره عظيم. كما أن مسئوليته فى مصائبه كبرى.

« ألا يشعر الواحد بعظمة حقيقية وسمو كبير إذا قال (بلادى) وكانت بلاده عالية المقدار رفيعة الشأن والاعتبار؟ ألا يجد فى كلمة (بلادى) التصاقاً بالوطن واشتراكاً فى أفراحه وأحزانه بنصيب كبير؟ ألا تدل هذه الكلمة وحدها على أن كل واحد منا مطالب بنصرة الوطن وإسعاده، مستول أمام الله وأمام الناس عما يناله من سوء وضر؟

« ألا يكون المصرى موضع الإكرام والإجلال بين شعوب الورى إذا قال (مصر بلادى) وكانت مصر مصدر العلم والنور، ومقر التمدن والتقدم، ومثال القوة والعظمة فى الحرية والاستقلال؟

«أجل. للصغير كما للكبير من المصريين نصيب فى رفعة الوطن أو انحطاطه، فلا يدعين أحد منكم أن غيره المسئول دونه عن القيام بخدمة البلاد وإعلاء شأنها

«كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته».

في باريس

سافر مصطفى كامل إلى باريس في صيف سنة ١٩٠١، وانتهاز الفرصة لرفع صوت مصر في الصحافة الأوروبية، وكانت حادثة فاشودة وما انتهت إليه من تراجع فرنسا وانصرافها عن فتح باب المسألة المصرية قد أوجدت جواً من اليأس من نجاح مصر في جهادها، فرفع الفقيد صوتها من جديد ليعلن عن أمانى قومه ومثابرتة على الجهاد.

نشرت جريدة (الإكلير) الباريسية في عدد ٢٩ يولييه سنة ١٩٠١ مقالة في هذا الصدد قالت فيها:

«حضر أخيراً إلى باريس وطنى مصرى له في بلاده نفوذ عظيم، ألا وهو مصطفى كامل بك صاحب جريدة (اللواء) التى تظهر في القاهرة، وهو مشهور في أوروبا، ويعرف اسمه معرفة أكيدة كل المشتغلين بمسائل مصر، وهو خطيب فصيح اللسان قوي الجنان، طالما جمع صوته الصفوف وارتاح لسماع أقواله الكثيرون من أبناء وطنه وغيرهم، وقد اهتم الإنجليز بالقضاء على هذا الاحتجاج الحى ضد احتلالهم مصر، وحاولوا محو تلك الدعوة للاستقلال، ولكنهم لم يفلحوا، ولا مرأى في أن هذا الشاب المصرى هو من أهم أعلام العالم الإسلامى الذين يهمننا موقفهم، فهو جذاب يستميل محدثيه بسهولة، وأدابه عالية، ويتكلم الفرنسية ببلاغة تامة ورقة سليمة».

وقد سأله محرر الجريدة عن شئون مصر فأجابه بصراحة عن كل ما سأله، وكان أهم سؤال وجهه إليه المحرر: «هل المصريون يائسون الآن من مستقبل بلادهم بعد حادثة فاشودة؟»

فأجابه - «كلا إننا لم نياس، ولن نياس أبداً من مستقبل الوطن العزيز، فإننا نعلم علم اليقين أن مصر مقبرة للأمم الطاغية، ونعرف أن خط انجلترا فيها سيكون كحظ الدول المتقدمة عليها، ولكننا إذا كنا غير يائسين من مستقبل بلادنا فإننا بائسون كل اليأس من أى تعضيد يأتينا من أوروبا، وأصبحنا نوجه هممتنا ونشاطنا لتعليم الأمة وتربيتها بإنشاء المدارس في أنحائها حيث ينشأ الشباب على أشرف مبادئ الوطنية

والشهادة ويتعلمون من الصغر تاريخ العظمة السالفة ويربون على الثقة بالمستقبل والإيمان بأن لبلادهم في الأيام الآتية مستقبلاً باهراً ومقاماً عالياً».

احتفال مدرسة مصطفى كامل

برئاسة الأمير محمد إبراهيم

(٢٧ فبراير سنة ١٩٠٢)

علت منزلة المترجم في نفوس المصريين لثباته في مجاهدة الاحتلال، وازداد إقبال الفراء على اللواء، وبدأت هذه المنزلة في الاحتفال الذي أقامه لتوزيع الجوائز على النابغين من مدرسته يوم الخميس ٢٧ فبراير سنة ١٩٠٢، فقد حضر الاحتفال نحو أربعة آلاف مدعو، حتى ضاقت بهم ساحة المدرسة، واجتذبت وطنيته إلى ميدان العمل أميراً من أمراء الأسرة العلوية، وهو الأمير محمد إبراهيم ليرأس الاحتفال، فكان أول أمير رأس حفلة عملية أقامها زعيم الوطنية، وهذا يدل على قوة التأثير المعنوي للفقيد، وهذا التأثير من خصائص الزعيم الوطني.

وقد حضر الاحتفال جمع من الشخصيات الكبيرة في المجتمع، نذكر منهم يحيى أفندى قاضى قضاة مصر، الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية، الشيخ سليم البشرى شيخ الجامع الأزهر، الشيخ محمد بخيت، حسن باشا عاصم، اسماعيل باشا محمد رئيس مجلس شورى القوانين، اسماعيل باشا صبرى الشاعر المشهور (وكيل وزارة الحقانية)، محمود شكرى باشا، فيضى باشا، عبد الحميد صادق باشا عبد السلام باشا المويلحى، وغيرهم، وكانت لجنة الشرف التى تولت توزيع الجوائز مؤلفة من الأمير محمد إبراهيم رئيسها، وحسن باشا عاصم ومحمود شكرى باشا عضواً.

وقد خطب في الاحتفال على بك فهمى كامل شقيق الفقيد ومدير المدرسة عن اطراد سير التعليم فيها ونجاحها ونوه بالقسم المجانى فيها.

وألقي المترجم خطبة فياضة شكر فيها الأمير محمد إبراهيم والمدعوين على حضور الاحتفال بعبارة بليغة، ثم عرج على دعوته الوطنية يثبها في النفوس، وأشاد بنهضة مصر العلمية منذ أوائل القرن التاسع عشر.

محاربة اليأس والثقة في الأمة

ثم دعا إلى التضامن وتوحيد الكلمة والثقة في الأمة قائلاً: «عجباً وألف مرة عجباً! كيف تسيء الظن بنفسها أمة تغلبت على الأيام والحوادث، وقاتلت الليالي وما ولدت، وقاومت تيارات الزمان أجيالاً طوالاً، وأفتتها وهي في منتهى قوتها، وكيف يقول بعض أبناء هذه الأمة عنها إنها ماتت وزالت آثارها وأصبحت نسياً منسياً، وهي التي اهتز لمجدها الشرق والغرب، وسارت الركبان بأحاديث مفاخرها؟ كيف يقضى اليائسون عليها وقد كانت قبل عهد محمد على أكثر أدواء وأقل أملاً في الشفاء من الآن ثم عادت لها الحياة والقوة والجاء والعز ورفعة الشأن».

الثقافة الوطنية

«ليست حاجة مصر إلى شيء في هذا الزمان مثل حاجتها إلى تخريج رجال متحدي الكلمة، مثقفى الرأي، عارفين بتاريخها، معتبرين بعبر حوادثها، ناهضين بها مجدين في سبيل إسعادها، وليس لنا بإنشاء هذه المدرسة غاية غيره هذه، فإنما نحن لا نرمى إلى تربية موظفين أو إعداد طلاب للشهادات، وإن كان يسرنا على الدوام فوز التلاميذ بين أقرانهم المتعلمين في المدارس الأخرى في الامتحانات العامة، ولكننا نرمى إلى تخريج رجال خلائقهم محبة الوطن والتمسك بالفضيلة والارتباط ببعضهم ببعض والتفاني في خدمة هذه البلاد، نرمى إلى تكوين نفوس عالية تأبى الضيم والذل وتهوى الشرف والمجد، وترى الحياة بغير عز الأوطان وسعدها حياة شقاء وبلاء».

ثم دعا إلى إحياء اللغة العربية لنشر الثقافة وإحياء الآداب وتقديم الأفكار، وضرب الأمثلة بنهضة اللغة القومية في بلاد المجر إذ كانت أداة للنهضة الوطنية فيها وكانت خطبته تقاطع في معظم عباراتها بتصفيق الاستحسان.



الأمير محمد إبراهيم

خطبة الأمير محمد إبراهيم

ونهض الأمير محمد إبراهيم، وألقى بلغة عربية فصيحة خطبة قيمة موجزة كان لها تأثير كبير في الحاضرين، قال فيها:

«أيها السادة الكرام:

«يسرني أن أراكم مجتمعين في هذا النادي، نادي العلم والأدب، فرحين بنجاح أبنائكم نجاحاً يبشر بحسن مستقبلهم وفوز النابغين منهم بالجوائز التي أعدتها لهم المدرسة، وقد زرت هذه المدرسة منذ عامين، وقضيت فيها زمناً تأكدت فيه أن القائمين بأمرها والمدرسين

لتلاميذها يقومون بواجباتهم حق قيام، ولذلك تعلقت بها وبمن فيها، وما سمعت بهذا الاحتفال إلا وأتيت إليه مسروراً مرتاحاً.

«وإنكم تعلمون جميعاً أن مصر كانت شمساً تضيء العالمين، ومنبعاً غزيراً للعلوم والمعارف، ومنبتاً للفضائل ومكارم الأخلاق، تم قضى الجهل على ذلك كله حتى تولى ملك مصر مولانا العباس الثانى، وعمت روح العلوم أنحاء البلاد وأخذ الجهل يتقلص عن هذه الديار العزيزة.

«وإني مسرور جداً بحضور هذا الاحتفال واشترأكى معكم في هذا العمل الجليل، وآمل أن هذه المدرسة تكون قدوة لكل راغب في بلوغ المراقي السامية وأشكر سعادة مصطفى كامل بك لكونه دعانى لرئاسة هذا المحفل، وأسأل الله تعالى أن يوفقنا إلى ما فيه الفائدة تحت رعاية أكبر نصير للعلوم والمعارف مولانا وليّ النعم الأفخم الخديو المعظم».

وقد كانت هذه الحفلة وماحفها من المهابة والجلال، ورياسة أمير من الأسرة العلوية لها، وخطبته، وخطبة الفقيد فيها، وحضور جمع كبير من أعلام مصر وأقطابها، كل أولئك كان مظهراً واضحاً بارزاً للمكانة العالية التى بلغها مصطفى كامل بين الطبقة الممتازة من المجتمع، وهذه المكانة كانت فوزاً له وفوزاً للحركة الوطنية التى صارت مرادفة لاسمه.

الاحتفال بالعيد المئتينى لمحمد على

(٢١ مايو سنة ١٩٠٢)

اقترح المترجم على صفحات اللواء إقامة احتفال قومى كبير يوم ١٣ صفر سنة ١٣٢٠ هـ (٢١ مايو سنة ١٩٠٢) تذكارا لمرور مائة عام هجرى على اختيار زعماء الشعب محمد على والياً على مصر، قال في هذا الصدد تحت عنوان (العيد المئتينى لمؤسس العائلة الخديوية):

«خير الأعياد عند الأمم عيد يذكرها بانتقالها من الظلمات إلى النور، وخروجها من الجهالة إلى العلم والحضارة، وارتقائها في سبيل الحياة العالية، وارتباطها بعائلة مالكة أجلستها على العرش بإرادتها وصافحتها للنهوض إلى ذرى العلياء ونوال المنن والنعماء،

واعتمدت عليها في إرشادها إلى واجباتها وحقوقها والمقاصد السامية التي يجب أن ترمى إليها».

وبعد أن أشاد بتاريخ محمد على وما قام به من جلائل الأعمال في سبيل إنقاذ مصر، دعا إلى الاحتفال بالعيد المئتي لولايته قائلا: وهذا التذكار السامي يوافق ميعاده يوم ١٣ صفر سنة ١٣٢٠، أي لم يبق على حلوله إلا خمسة عشر شهراً^(٢)، فليفكر المفكرون فيما يجب على هذه الأمة عمله اعترافاً بفصل مجيئها. وإجلالاً للوطن نفسه، الذي نهض في عهده نهضته الكبرى، ووثب بين الأوطان وثبة الأسد القاهر، فخير ما يحيى الوطنية في النفوس ويجمع جموع هذا الشعب العظيم الأسيف ذكرى العظمة الأهلية والمجد الوطني، ولمثل هذا فليعمل العاملون ويتنافس المتنافسون».

وفي الحق إن ابتكار الفقيه هذه الفكرة يدل على وطنية عالية ونظر صادق وفكر ناضج، لأن خير ما يحفز الأمم إلى الجهاد في سبيل استقلالها المسلوب هو الاحتفال بذكرى مجدها وعظمتها ففي تلك الذكريات تقارن بين ماضيها وحاضرها وتذكر الفرق بينها، فتضاعف عزيمتها في الجهاد للتخلص من حاضرها المهين، واستعادة مجدها التليد، فلا غرو أن قوبل الاقتراح بالارتياح من الوطنيين، كما قابله صنائع الاحتلال بالحقد والسخط لأن هذا الاحتفال هو في حقيقته مظاهرة تاريخية قومية ضد الاحتلال، وقد تردد صدى الاقتراح في الصحف الأوروبية المحلية فكتبت عنه (الريفورم) مقالا جاء فيه:

«لقد اقترح رصيفنا وصديقنا مصطفى كامل بك في جريدته (اللواء) اقتراحاً نوافقه عليه كل الموافقة، وهو إقامة احتفال عظيم بتذكار مرور مائة عام على انتخاب أعيان المصريين للرجل العظيم والياً على مصر، وأن محمد على هو مؤسس العائلة الحاكمة في مصر، ومنشئ مصر الحديثة نفسها، وقد أظهر مصطفى كامل في مقالته الجميلة العمل الكبير الذي قام به هذا الرجل العظيم وكيف أنه أنقذ هذه البلاد من الفوضى التي كانت تمزقها وأقام فيها نظاماً محكماً حتى صارت مصر في عهده من القوة والعظمة بمكان».

وقد نجحت الفكرة نجاحاً رائعاً، وألقى مصطفى كامل بمسرح زيزينيا بالإسكندرية خطبة كبرى يوم ٢١ مايو سنة ١٩٠٢ (١٣ صفر سنة ١٣٢٠) وهو يوم التذكار الميني

(٢) كتبت المقالة في عدد ١٣ شوال سنة ١٣١٨ - ٣ فبراير سنة ١٩٠١.

لولاية محمد على، موضوعها (عمل محمد على وواجبات المصريين نحو وطنهم)، ضمّنها ما عمله محمد على لإحياء مصر، وقارن بين مجدها في عهده، وما صارت إليه من الذل والمهانة في عهد الاحتلال، وناشد المصريين أن يهبوا لإحياء مجد مصر واستقلالها ودستورها، وقد كان الإقبال على سماع الخطيب عظيماً، إذ حضر الاجتماع ثلاثة آلاف ونيف من وجوه البلاد وأعيانها وفضلائها وموظفيها وشبابها وهرع إليه كثيرون من مختلف الأقاليم حتى من أسوان، وقوبلت الخطبة في معظم مواضعها بالتصفيق والاستحسان، وبخاصة عندما ذكر الخطيب ضرورة إنشاء مجلس نيابي لمراقبة أعمال الحكومة وتقييد أعمالها، فكانت دعوة الفقيد إلى مجلس النيابي في هذا الاحتفال الكبير أكبر دعاية للدستور، والخطبة طويلة ممتعة لا سبيل إلى إيرادها أو تلخيصها هنا^(٣)، وهي خلاصة تاريخية جليّة لأعمال محمد على، تتخللها استشارة النخوة الوطنية في النفوس، وإنا نكتفى ببعض فقرات منها كنموذج لروح الخطابة وغرض الخطيب قال:

«من ذا الذي يذكر منا مجد مصر في عهد ذلك الأمير، ولا يذكر أنه مستول عن زواله مطالب باسترداده».

وقال في موطن آخر:

«بأى قلب أم بأى ضمير أم بأى لسان أحدثكم اليوم معاشر المصريين عن حماية آبائنا للوطن ودفاعهم عنه ونضالهم عن حوزته أيام (محمد على الكبير). وقد حاولت انجلترا أن تقضى على هذا الملك الجديد. وهذه الدولة الناشئة، وتزِيل من سبَاء المجد والإقبال هذه الشمس المشرقة، فأراها يومئذ بنو مصر أى أمة هم. وأراهم محمد على أى أمير هو. فتركت الثغور والبلاد. أسفة على فشلها، معجبة بهذا المجد الباهر والعزم القاهر والوطنية الحقّة والهمة الحديدية».

وقال أيضاً مشيراً إلى حالة اليابان حين نهضت مصر في عهد محمد على:

«أين كانت اليابان يومئذ؟ أين كانت هذه المملكة الناشئة؟ كانت في دياجى الظلمات وغياهب الجهل. تعد إذا ذكرت في عداد الأموات، فقّف أيها المصرى فوق أطلال التاريخ وارقب الحوادث، وانظر إلى أى حال صارت اليابان، وإلى أى حال صرنا،

وماذا كنا نبلي من الشأن والشأ لو سلكتنا ذلك السبيل الذى وجهنا إليه محمد على الكبير».

وصف الخطبة وتأثيرها

كانت هذه الخطبة من أعظم خطب مصطفى كامل، لجلال موضوعها وقد أحدثت فى النفوس تأثيراً كبيراً تردد صدها فى أرجاء البلاد وفى الدوائر الأوروبية، وكانت من أعظم دروس الوطنية التى ألقاها الفقيه فى خطبه الكبرى، ويبدو عظم تأثيرها مما كتبه الصحف فى وصفها وما احتوى الوصف من إجلال للخطبة والخطيب.

كتب الشاعر الكبير خليل بك مطران ان يصف الاحتفال فى «الأهرام»^(٤) بقوله:

«أكتب إليكم هذه السطور من موضع مشرف على البحر، مجاور له، أسمع منه مناداة حبابه، ومناجاة نسماته، وأرى من حركته الدائمة المستمرة ما يخيل لى أن على ظهر كل موجة مهداً، يهز صعداً وخيباً، وأن فى المهد أمراً طفلاً، سيكون بعد حين أمراً كهلاً، فهل ذلك الأمر الذى تهزه الأمواج، وتغذيه الشمس وتنميه الليالى، سيكون أمنية مرجوة لمصر تتحقق؟ وهل المناداة والمناجاة اللتان أسمعهما أول أصوات البشرى التى ستعلو بعد حين؟ ذلك ما أوهمنى إياه خطبة مصطفى بك كامل التى سمعتها البارحة بين جمهور لا يقل عن ثلاثة آلاف نفس مختلفى الجنس والدين، وأكثرهم من المصريين، وغير قليل منهم الذين حضروا من القاهرة والريف.

«وقف يتكلم فى الساعة التاسعة، وقد ضاق النادى على اتساعه بالناس عشرات عشرات فى اللوجات، جلوساً ووقوفاً على الكراسى، وفيما بينها، صامتة تشوقاً إلى ما سيسمعون، منتظمين انتظاماً طبيعياً، ليس من عمل شرطى ولا ترتيب بواب، بل من هيبة الموقف ورجاء ما يتوقع».

وبعد أن أتى على ملخص الخطبة ختم رسالته بقوله:

«ولما فرغ الخطيب من التكلم صفق الناس حتى كلت الأيدي، وخرجوا معجبين

باقتداره وسعة صدره وشدة إخلاصه، معتبرين بما سمعوه من مؤثر العظمت أعظم الاعتبار، وأحاط بالخطيب جمهور من الأصدقاء فهناؤه أحسن تهنئة، ولا غرو فإنه مصر الحى ولسان ضميرها المجاهر».

وقالت جريدة (البصير):

«كان أمس موعد الخطابة التى ألقاها فى تياترو زيزنيا حضرة الخطيب المفوه رصيفنا الفاضل سعادة مصطفى بك كامل صاحب اللواء الأغر، فكان الملعب غاصا بالحضور؛ وما ساءنا انشغال المكان المعد لنا بقدر ما سرنا ما رأيناه من الزحام الدال على إعجاب المصريين بالخطيب وتشوقهم إلى سماع خطبته الوطنية، فكان يندفع اندفاع السيل بما عرف به من طلاقة اللسان، ويذكر من أعمال مؤسس البيت الخديوى الكريم وواجبات المصريين نحو وطنهم ما يثير الهمم فى النفوس الخاملة، ويبعث روح الحياة إلى المشاعر الميتة، مذكرا المصريين أن كل أمة لا تعتمد على نفسها ولا تثق بمجموعها فلا يجاء لها ولا تبلغ ما تبلغه الأمم المتمدنة فى سبيل الحضارة والعمران، ثم أشار إلى الفرق بين مصر اليوم وبينها فى عهد محمد على، فأحاط بجميع أطراف هذا الموضوع بكلام كان غاية فى البلاغة ورشاقة التعبير، حتى دوت جوانب المرسح بالتصفيق، وتساقطت على الخطيب طاقات الزهر بالعشرات، وفى الجملة فإن الخطاب كان بديعاً من أكثر وجوهه. لو لم يرد فيه من التحامل على المحتلين وكبار رجال الحكومة ما نشارك فى الانتقاد عليه فريفاً ممن كان حاضراً من العقلاء، لاسيما وأن الموقف - يمكن يحتمل مثل هذه الأبحاث، وفى كل حال فإننا تثنى على حضرة الخطيب، وعلى ما أينا من علائم الوطنية الصادقة التى كانت تبدو بين ثنايا الحضور».

وتردد صدى الخطبة فى الصحف الأوروبية، ووصفت الخطبة ونوهت بالمنزلة السامية التى نالها الفقيد فى اقتياد الحركة الوطنية.

قالت جريدة (الفارد الكسندرى) تحت عنوان (مصر للمصريين) ما يأتى.

«لخصنا فى عدد أمس الخطبة التى ألقاها أول البارحة بكل اقتدار ونجاح حضرة رصيفنا الفاضل مصطفى بك كامل، وقد أبنا النجاح الذى نالة الخطيب الذى لم يكن ليشارك فيه أحد، لأن صاحب (اللواء) الوطن الشاب اعتاد مثل هذا النجاح الخطابى الباهر، ولكن

ما منعنا ضيق الصحيفة عن ذكره البارحة والذي يجب علينا أن نقوله اليوم هو أن الجمهور العديد الذي حضر خطبة مصطفى بك كامل أظهر من العواطف والميول ما يعد استثنائيا بالنسبة لجمهورى مصرى.

« فإن الناس كانوا يعتقدون قبلاً أن السواد الأعظم من المصريين لا يعرفون لكلمة (الوطنية) معنى، وأن هذا الاعتقاد الذى كان أصحابه غير مخطئين فيه صار لا محل له الآن. لأنه كان يكفى للانسان أن يرى أول البارحة تيار الوطنية الشديد الذى كان يخترق القاعة ويمر بين كل الصفوف ويشاهد التأثير القوى البادى على الوجوه كلما كان الخطيب يلقى عبارة وطنية ليعتقد أن المصريين يعرفون معنى الوطن والوطنية، فأبناء مصر يظهرون الآن بمظهر الرجال العارفين لحقوقهم وواجباتهم وإخلاصهم نحو الوطن، ولسنا بمبالغين إذا قلنا أن للخطيب الشاب الذى صفق له الجمهور أى تصفيق يداً قوية فى تغيير الميول المصرية وترقية العاطفة الوطنية، فان مصطفى بك كامل قام بمجاهد بالرغم عن شبابه الغض نحو عشر سنوات لمصلحة وطنه، واستخدم القلم واللسان والتعليم لهذا الغرض الشريف، فهو يربى العاطفة الوطنية فى جريدته، ويلقى الخطب عن الوطن وحقوقه، ويعلم فى المدرسة التى أنشأها منذ ثلاث سنوات ٢٧٠ تلميذاً، فهو يعمل بهذه الأسلحة الثلاثة لإحياء الروح المصرية.»

وكتبت بهذه المعنى جريدة (الريفورم)

ووصفت جريدة (الكورييرى اجبسيانى) الإيطالية الخطبة بقولها:

« ازدحم الناس ازدحاماً غريباً على تياترو (زيزنيا) حتى لم يبق مكان لجالس ولا محل لواقف، وما خرج مصطفى بك كامل إلى منبر الخطابة حتى حياه هذا الجمهور الاستثنائى العدد بالتصفيق المستمر، وقد ألقى الخطيب خطبته بقوة جنان وثبات واقتدار، وكانت الوطنية بادية فى كل أقواله وإشاراته، والحمية ظاهرة على وجهه، وتأثير خطابته واصل إلى أعماق القلوب، وإن النجاح الذى ناله عظيم، ولا مرء فى أنه يستحقه.»

ولم يفت جريدة (الاجبشيان جازيت) الانجليزية التى تعبر عن الاحتلال أن تنوه بجلال الاحتفال مع التحفظ فى الوصف، إذ قالت.

«ألقى مصطفى بك كامل خطبته البارحة على عمل محمد على في تياترو زيزنيا، فازدحم المصريون لسماعها، وبعد أن أثنى الخطيب على الباشا الكبير تكلم في الاحتلال البريطاني وذكر الموافقة بين تاريخي جلاء الإنجليز عن الإسكندرية في ١٤ سبتمبر عام ١٨٠٧ ودخولهم مصر في ١٤ سبتمبر عام ١٨٨٢، وطلب من الحاضرين مساعدته على إخراجهم بالثاني».

دعوته إلى الدستور

كان مصطفى مع دعوته إلى الجلاء لايفتأ يدعو إلى الدستور ليكون أداة الحكم الصالح في مصر، كتب في عدد ٥ أكتوبر سنة ١٩٠٠ من (اللواء) مقالة بعنوان (الحكومة والأمة في مصر) ذكر فيها وعد اللورد دفرين باسم حكومته أن يؤسس في مصر مجلس نيابي وإخلاف الحكومة البريطانية هذا الوعد كإخلافها وعودها في الجلاء، ثم قال.

«لعمري إذا كان الإنجليز يودون حقيقة أن يعيشوا مع هذا الشعب المصري في وفاق واتفاق ويسيروا به في طريق السعادة كما يدعون، فأول واجب نطالبهم به هو أن يحققوا وعد اللورد دفرين ويجعلوا للحرية والعدالة أساسات قوية متينة لاتستطيع يد بشرية، انجليزية أو مصرية، أن تمسها بسوء».

وقد دعا إلى الدستور في خطبته في العيد المئتي لمحمد على يوم (٢١ مايو سنة ١٩٠٢) كما تقدم بيانه، وكان على صفحات اللواء يدعو إلى المجلس النيابي كأداة لإصلاح عيوب الحكم، كتب في عدد ١٦ نوفمبر سنة ١٩٠٢ مقالة تحت عنوان (إفلاس الاحتلال) أظهر فيها فساد الأداة الحكومية في المعارف والداخلية وختمها بقوله:

«وعندى أن هذه الأدوار المختلفة والأدواء المتنوعة دالة كلها على شدة حاجة هذه البلاد إلى مجلس نيابي تكون له السلطة التشريعية الكبرى، فلايسن قانون بغير إرادته، ولاتحور مادة إلا بمشيئته ولايزعزع نظام بغير أمره، ولاتعلو كلمة على كلمته، وإلا فإن بقاء السلطة المطلقة في يد رجل واحد سواء كان مصرياً أو أجنبياً يضر بالبلاد كثيراً ويحجر عليها الوبال».

وكتب تحت عنوان (إنشاء مجلس نيابي) في عدد ٩ مارس سنة ١٩٠٤ من اللواء ما يأتي:

«لعل قراء اللواء وغيرهم من أفراد الأمة المصرية يذكرون ماقلناه من فوق المنابر وكتبناه في هذه الجريدة وغيرها عن وجوب إنشاء مجلس نيابي منذ عشر سنوات كاملات، ويسرهم كما سرنا أن هذا المطلب العزيز صار على ألسنة الكثيرين من أهل القطر، لأنه الأنشودة التي يجب أن يترنم بها المصريون بعد طلب الاستقلال، وسواء كان سابقا أو لاحقا لتخلص البلاد من رق الاحتلال، فإنه الضمانة الوحيدة والكفالة الصحيحة لسلامة القوانين والحرية الخاصة والعامة، إلى أن قال:

«ليس للاحتلال مصلحة في إيجاد مجلس نيابي لهذه البلاد، ولكن صوت الأمة يعلو على صوته إذا تمسكت به ودعت إليه وطالبت وجاهدت بقوة الرأي والفكر والثبات التي هي أكبر القوى الفعالة في حياة الأمم، فلتفعل فإنما هي تخطو بالوصول إليه أكبر خطوة في طريق الاستقلال».

مجيء مدام آدم إلى مصر

(يناير سنة ١٩٠٤)

رغب مصطفى كامل إلى مدام جوليت آدم المجيء إلى مصر ليوطد علاقة الود والحب بينها وبين الوطن المصري، فلبت الدعوة وجاءت في يناير سنة ١٩٠٤، واستقبلها استقبالا حافلا، وقد استضافها عمر بك سلطان (باشا) بالمنيا، وصحبها الفقيد في هذه الرحلة ومعه الأمير حيدر فاضل لمشاهدة آثار بني حسن، وذهبوا إلى أسيوط حيث استقبلهم حسين بك فهمي المحامي وأحمد بك خشبه والسيد كامل بك خشبه، وذهبوا إلى البلينا، حيث تناولوا الشاي بمنزل عبد اللطيف بك أبو ستيت ثم إلى الأقصر حيث استقبلهم بالحفاوة عبد الكريم بك العماري ويسى بك اندراوس، وشاهدوا الآثار المصرية، وذهبوا إلى إسنا، فتناولوا الشاي بمنزل متولى بك حزين ومدني أفندي حزين، ووصلوا في رحلتهم إلى أسوان، فكانوا يقابلون في كل مكان بالحفاوة والإكرام. وقد حضرت احتفال توزيع الجوائز في مدرسة مصطفى كامل يوم ١٩ فبراير سنة

١٩٠٤، وكان احتفالاً فخماً حضره من شخصيات مصر البارزة يحيى أفندى قاضى القضاة. والشيخ محمد بخيت، والسيد عمر مكرم. وحسين باشا واصف، واللواء بليغ باشا. ودانينوس باشا، وحضرت مدام آدم تصحبها مدام يونج زميلتها في السفر وبعض كبار الأوروبيين، وألقى مصطفى كامل في هذا الاحتفال خطبة من خطبه الرنانة ضمنها وجوب تعليم النشء تاريخ بلاده والعناية بالتربية والأخلاق في المدارس.

وقصدت الفيوم في أواخر فبراير، يصحبها مصطفى كامل ومحمد فريد ودام يونج والكونتس دى كولتور ودانينوس باشا ونزلوا ضيوفاً على خالد باشا لطفى، وقد رحب بها الفقيه ترحيباً عظيماً، وكتب عنها مقالة بعنوان (ضيقة مصر) بعدد ٢٤ فبراير سنة ١٩٠٤، نوه فيها بشخصيتها الكبيرة، قال:

«زارت مصر في هذه الأيام أميرة من أكبر أميرات الرأى والقلم والسياسة، ألا وهى مدام جوليت آدم الكاتبة الفرنسية الطائفة الصيت، زارت مصر وقد عشقتها من قديم، وشغفت بها من عهد شبابها، ودافعت عنها بقلمها السيل السنوات الطوال، فلذلك حق لمصر أن ترحب بها، وللمصريين أن يقابلوها بالسكر والإعظام، أتمت ضيفتنا العزيزة في شهر أكتوبر الماضى (١٩٠٣) السنة السابعة والستين من عمرها، ومضى عليها خمسون عاماً وهى الكوكب الساطع فى سماء الأدب الرائع، ونشرت إلى اليوم اثنين وعشرين مؤلفاً من أرقى المؤلفات وأسماءها وقد نفذت كلها لكثرة الراغبين فى مطالعتها والمعجبين بها».

إلى أن قال:

«منحها الخالق كل مايرجوه الإنسان فى حياته، من مال وجلال وعلم وأدب، وسمعة طائفة، ونفوذ كبير، وقد استخدمت كل هذه المواهب فى خدمة وطنها، فهو قبلتها، وفى سبيله تضحى كل مرتخص وغال، لم أر فى رحلاتى العديدة ومقابلاتى الكثيرة شخصاً أحب وطنه بهذا المقدار، ولم أجد ثباتاً فى الحب كثنائها فى حب بلادها، وتفانيا فى الخدمة كتفانيها، وأملاً قويا فى المستقبل كأملها، ملأ اليأس قلوب الكثيرين من الفرنسيين من رجوع الألزاس واللورين لفرنسا، وبقيت هى قوية الآمال، لا تعرف اليأس ولا اليأس يعرفها، وهكذا الوطنية الحققة تجعل الفؤاد راسخاً لا يتزعزع، والعقيدة أقوى من الأطواد، كان لضيفتنا الكريمة الشأن الأعلى والدور المهم فى تأسيس الجمهورية الفرنسية والتحالف

الفرنسى الروسى، وكم تفررت أمور خطيرة فى دارها، لأن كبار الجمهورية وفى مقدمتهم «جيبتا» كانوا يسترشدون بأفكارها، ويعترفون بأنها صائبة الرأى، لا تخطئ المرمى، وذلك فضلا عما كان لزوجها المأسوف عليه، «إدمون آدم» من المقام العالى والكلمة المسموعة والخدمات الباهرة، ولولا ثروته الواسعة لما أفلح الحزب الجمهورى فى ظروف كثيرة، أحبت مدام آدم بلادها، فأحبت كل محب لبلاده، وعرفت الوطنية الراقية، فأجلتها عند كل وطنى. ولذلك تجد اسمها محبوبا عند الأمم الناضئة المحتاجة إلى المرشد والمعضد، تجد دارها فى باريس مزدحمة بالقصائد من أنحاء العالم. كلهم يطلبون منها الإرشاد، ويقدمون لها فرائض الشكر والإعجاب، اعتقدت أن الحق قاهر مهما قُهر فى بادئ الأمر، وأنه ذو الكلمة الأخيرة فى كل قضية، فأبعدت القنوط عن نفسها وعمن حولها. وكم سمعتها تبث الآمال فى قلوب محبيها الكثيرين بأقوالها الصادقة وعباراتها المؤثرة، فمثل هذه الضيفة العزيزة من تكرم الدنيا ويعز بنو الإنسان، وإذا كان أكبر صفات المصريين إكرام الضيف وعدم نسيان المعروف، فلا بدع إذا رأيناهم يتسابقون لإكرامها وإعلان شكرهم لها على حبها لبلادهم ودفاعها عنهم، فإنما هم يتبتون بهذه المظاهرات الودية أنها لم تخطئ فى قولها واعتقادها أن المصريين أحياء وأنهم سيبهرون العالم بحياتهم ومستقبلهم فى القريب العاجل».

وقد أولم الخديو عباس الثانى لمدام آدم وليمة عشاء فاخرة فى قصر القبة مساء ٢٤ فبراير سنة ١٩٠٤، حضرها ستة عشر مدعوا من الأمراء والكبراء، وتناول معا الخديو هو وضيوفه طعام العشاء تكريما للضيافة العظيمة.

وذهبت صحبة مدام يونج والمترجم وحسين باشا واصف إلى بورسعيد، فأتيمت لهم حفلة فخمة فى المدرسة الواصفية، خطب فيها الفقيد خطبة شيقة، وكان المجتمعون ييلغون عدة آلاف جاءوا تكريماً لضيافة مصطفى كامل.

وغادرت مصر يوم ٤ مارس سنة ١٩٠٤، بعد أن أقامت فى مصر ستة أسابيع رأت فيها من الفقيد ومن أنصاره ومن الأمة المصرية غاية الحفاوة والإكرام، وشاهدت مظاهر الحركة الوطنية التى بعثها مصطفى كامل، وقد تأثرت مما لقيته فى مصر من الحفاوة، وما شاهدته من عظمة آثارها القديمة، وكتبت فى جريدة (الجولوا) الفرنسية مقالة عن الأثر الأول لمشاهداتها، قالت فيها:

«إن أرض مصر تضم كل المدنات السابقة، وسهاء مصر هى أول سهاء مزقت ففها السحب هفث سمح بذلك للانسان أن فشر بوجود الخالق، ولم فعهد التاريخ أمة بلغت من القوة والعظمة ما بلغتة الأمة المصرية حتى صبغت العناصر الأخرى بصبغتها، وبقت فف آن واحد فف حالة الفطرة الأولى، مالكة نفسها على مر الزمان، ولم ففحكم الأجنبى فف أمة كما فحكم ففها، ولم ففخلص أمة من الأجنبى بصورة مستمرة كما فخلصت هى، وإن استرداد مصر لنفسها أمر فكرر إلى حد أنه صار قانونا فف تاريخها، وإنه فمكن للإنسان أن فؤكد أن مصر ستبقى إلى الأبد مصر».

الإنعام على الففقف بالباشوة

أنعم السلطان على الففقف برتبة الباشوة فف مارس سنة ١٩٠٤، فصار فعرف بمصطفى كامل باشا، وقد كان لهذا الإنعام رنة فرح كببرة فف الأوساط الوطنفة وزادت مكانتة رفعة وعلوا لما للقب الباشوة من التأثير فف نفوس العامة والخاصة فف بلادنا.

* * *

الفصل العاشر

الاتفاق الودى بين فرنسا وانجلترا

(٨ إبريل سنة ١٩٠٤)

وقع فى سنة ١٩٠٤ حادث سياسى خطير كان له أسوأ الأثر فى اتجاه المسألة المصرية، وكان بمثابة صدمة شديدة للحركة الوطنية، ونعنى به العهد المعروف «بالاتفاق الودى» المبرم بين فرنسا وانجلترا فى ٨ ابريل سنة ١٩٠٤.

كانت العلاقات بين الدولتين تزداد جفاء على أثر انسحاب فرنسا من فاشودة، فرأى بعض رجال السياسة فى كلتا الدولتين أن يسعوا فى إزالة أوجه الخلاف بينهما، لكى تقاوما نفوذ ألمانيا الآخذ فى الازدياد فى أوروبا والعالم، والذى كان يهدد مصالح الدولتين، وكان للملك ادوارد السابع الذى تولى عرش انجلترا سنة ١٩٠١ دخل كبير فى توجيه هذه السياسة، لما كان يشعر به من الميول نحو فرنسا، واعتبرت زيارته لباريس سنة ١٩٠٣ فاتحة عهد الاتفاق بين الدولتين، وأخذت الحكومتان فى تسوية المسائل المختلف عليها بينهما، وأسفرت مفاوضاتها عن إبرام «الاتفاق الودى» بينهما فى ٨ ابريل سنة ١٩٠٤، وصار هذا الاتفاق عاملا مهما فى اتجاه السياسة الدولية، إذ كان تكملة للمحالفة بين فرنسا والروسيا لمقاومة التحالف الثلاثى بين ألمانيا والنمسا وإيطاليا.

وكان الجزء الخاص بمصر هو أهم نصوص هذا الاتفاق. فقد أعلنت انجلترا فى المادة الأولى منه بأنه «ليس فى نيتها تغيير الحالة السياسية لمصر» وتعهدت الحكومة الفرنسية من جانبها «بأن لا تعرقل عمل انجلترا فى هذه البلاد لا بطلب تحديد أجل للاحتلال البريطانى ولا بأى صورة أخرى». وهذا الالتزام من جانب الحكومة الفرنسية مقابل التزام الحكومة البريطانية أن لا تعرقل عمل فرنسا فى مراكش، وتعهدت الحكومة الفرنسية بأن توافق على مشروع الدكريتو الحديوى المرافق للاتفاق والمحتوى على الضمانات التى رويت ضرورة لصيانة مصالح حملة أسهم الدين المصرى. وأهم هذه

الضمانات تخصيص ضرائب الأطنان لخدمة الدين العام بدلا من الإيرادات المختلفة التي كانت مخصصة لها من قبل وهي السكك الحديدية والتلغرافات وميناء الإسكندرية والجمارك وأربع مديريات، وتعهدت الحكومة المصرية بعدم تخفيض ضرائب الأطنان إلى مادون أربعة ملايين جنيه في السنة إلا بعد موافقة الدول. وفي مقابل ذلك ترك للحكومة المصرية المال الاحتياطي المتوفر في صندوق الدين وقدره خمسة ملايين جنيه ونصف تنصرف فيه كما تشاء، واتفقت الدولتان على بقاء إدارة الآثار المصرية مسندة إلى عالم فرنسي، وتتمتع المدارس الفرنسية في مصر بنفس الحرية التي تمتعت بها في الماضي، وصرحت الحكومة البريطانية في الاتفاق بأنها تستعمل نفوذها لكي لا تكون حالة الموظفين الفرنسيين الموجودين في خدمة الحكومة المصرية دون حالة الموظفين الانجليز بها ومعنى هذا الاتفاق إقرار فرنسا للاحتلال البريطاني في مصر، وعدو لها عن مطالبتها بالجلاء، وتبدو من نوايا نصوصه وعباراته روح الحماية التي انتحلتها انجلترا على مصر، لأنها تعاقبت عنها وعن شئونها المهمة دون دخل لها، واتفقت عليها دون رضاها أو علمها، وهذا من أخص امتيازات الدولة الحامية.

تأثير الاتفاق في مصر

كان هذا الاتفاق من المؤامرات الاستعمارية التي اتفقت عليها الدول الأوروبية لسلب الأمم واغتصاب استقلالها وحقوقها، وكان من نتائجه أن قوى مركز انجلترا في مصر، وظهر تقرير اللورد كرومر في أبريل سنة ١٩٠٤ فبدت فيه روح السيطرة، وتكلم فيه بلسان الحاكم المطلق التصرف، وطعن في المصريين بأن رماهم بعدم الكفاية للحكم الذاتي، وكان من نتائجه المعنوية أن رجح في نفوس الخاصة كفة اليأس، فتفشيت فيهم نزعة الضعف والتخاذل والنفعية، والانصراف عن متابعة الحركة الوطنية، إذ رأوها تتعثر في طريقها ولا تصادف نجاحا، ورأى أكثرهم أن الخير لهم في الانضواء تحت لواء الاحتلال، فجنحوا لسياسة الخضوع والاستسلام وقبليق الانجليز، وابتغاء الزلفى لديهم، وسرت هذه الروح الهادمة للحركة الوطنية من صفوف الخاصة إلى طبقات العامة.

أثر للاتفاق في نفس المترجم

أما مصطفى كامل فلم يتراجع أمام الاتفاق، ولم يتزعزع يقينه في الجهاد، لأنه كان قد نفّض يده عن مساعدة فرنسا منذ حادثة فاشودة سنة ١٨٩٨، تلك الحادثة التي أدت إلى انسحاب فرنسا فعلاً أمام انجلترا وتركها تفعل ما تشاء في وادي النيل، وما كان اتفاق سنة ١٩٠٤ إلا تأكيداً رسمياً لما سارت عليه فرنسا فعلاً بعد حادثة فاشودة، فلا غرو أن قابل الفقيه هذا الاتفاق بالثبات والجلد، ومضى جهاده لا يلوى على شيء، وقد كان الحادث السياسي امتحاناً جديداً لعقيدته وثباته، فبرهن على أن وطنيته راسخة كالطود، ثابتة كالجبال، وبلغ بذلك قمة الوطنية الصادقة، واستثار في النفوس من جديد روح الأمل والجهاد.

كتب في هذا الصدد^(١) يقول مخاطباً المصري:

«انظر إلى الشعوب التي قد أصابها ما أصاب شعبك، تجد البولوني وقد مزق وطنه وعلت فيه كلمة دول ثلاث، يجد ويعمل مفكراً كل يوم بل كل لحظة في بولونيا، يذكر تاريخها ويبكى أيامها الخالية، ويربى ابنه على حبها والتمسك بحقوقها، والفرنلندي وقد لبس هو وبقيّة أفراد أمته ثياب الحداد يوم قررت روسيا ضم جيش فنلندا لجيشها ومحو بقية استقلال هذه الأمة، والأيرلندي وقد عارض انجلترا في ضغطها على بلاده، وسلبها لحقوقه؛ واستمر يعارض ويجهد حتى حملها على تجريد اللوردات من أملاكهم بضمن بخس ورد الأراضي الأيرلندية إلى أصحابها الأصليين، وانظر إلى غيرهم وغيرهم، لتعلم أن الأمم كبيرة كانت أو صغيرة، حاكمة أو محكومة، لا تسمو فيها الأخلاق والصفات ولا ينشأ بينها رجال الفكر العالى والعمل الكبير إلا بالشعور الوطنى، فكل عامل على إطفاء نوره محارب لأمته وقومه وذويه، وكل داعٍ إليه مجتهد في سبيل الحياة القومية الصحيحة والرقى الخالد».

(١) اللواء عدد ١٨ أبريل سنة ١٩٠٤.

خطبة رياض باشا في احتفال مدرسة محمد على الصناعية

قلنا عن نتائج الاتفاق الإنجليزى الفرنسى إن طبقة الخاصة من الأمة قد ازداد فيها الضعف والتخاذل، والانصراف إلى المنافع الشخصية، وكان أول مظهر لبروز هذه الروح الهدامة للحركة الوطنية، خطبة رياض باشا رئيس الوزراء الأسبق في الاحتفال بإنشاء مدرسة محمد على الصناعية، ذلك أن جمعية (العروة الوثقى) بالإسكندرية أقامت احتفالاً كبيراً يوم ٢٣ مايو سنة ١٩٠٤ لوضع الحجر الأساسى لهذه المدرسة، وقد رأس الخديو عباس هذا الاحتفال، فعظم شأنه، وصارت له صبغة رسمية، واتجهت أنظار الناس إلى ما يجرى فيه، وألقى رياض باشا أمام الخديو خطبة امتدح فيها اللورد كرومر، لغير مناسبة، وقد كان معتذراً لعدم حضور الاحتفال، كما امتدح الاحتلال، مما كان له وقع أليم في النفوس، إذ قال ضمن خطبته بين يدي الخديو ما يأتى:

«جناب المحتشم اللورد كرومر اعتذر اليوم عن الحضور في هذا المحفل لتغيبه عن مصر، كل يعلم ما له من المقام الأرفع والنفوذ السامل في هذه البلاد، وبالأخص ما له من اليد الطولى في كل ما له مساس بالمصالح والمنافع العمومية، فهذه اليد الفعالة قد شملتنا، وهى التى كانت لنا معواناً، بل متمماً ومكماً لهذا المشروع، فحق علينا أن نعرف له هذه المبرة ونقدم لجنابه واجب الشكر ونثنى عليه أطيب الثناء، ولا نبرح أن نترجاه بألا يترك هذا المولود وهو في المهد صبيّاً، بل يراعيه بعين عنايته ويواسيه ويواليه، إلى أن يتربى ويبلغ أشده ويصير رجلاً قوياً يقوم بأود نفسه.

«مولاي! اسمح لى أن أتكلم بما يخالج ضميرى بحرية، إذا نظرنا وتأملنا الآن إلى مجريات الأحوال وطبقنا ماضيها على حاضرها نجد أن الأحوال والأفكار قد تغيرت تغيراً كلياً، واتخذت لها مجرى جديد نحو التقدم والترقى وبث العلوم والمعارف وانتشارها في كل بقعة من بقاع البلاد، وكل ما نراه أمام أعيننا من هذه المشروعات العلمية الأدبية والمؤسسات الخيرية الأهلية تتلو بعضها بعضاً لا نشك ولا نرتاب في أنها أثر من آثار هذا الانقلاب، فلا حاجة بنا إلى أن ندخل في موضوع الشرح والتأويل، ولا البحث

والتدقيق في علل الأمور ومسبباتها، بل نكتفى الآن بأن ننظر بعين البصيرة والاعتبار إلى ما كنا عليه بالأمس، وما نحن عليه اليوم، ونهنيء أنفسنا وتتهلل بشراً ونسجد لله شكراً على ما وصلنا إليه من التقدم الباهر مستبشرين بما تدلنا عليه قرائن الأحوال بمستقبل زاهر».

قوبلت هذه الخطبة بالدهشة، إذ دلت على روح الخضوع والزلفى والاستكانة التي تفشت بين طبقة الوزراء والكبراء في ذلك العصر، وهى الروح التي ضربت الذلة والمسكنة على البلاد سنين عديدة، وكانت أقوى سلاح استخدمه الاحتلال لرسوخ قدمه في البلاد، هذه الروح التي كان يناهضها مصطفى كامل بكل قواه منذ قام يدعو إلى مقاومة الاحتلال، فلا غرو إذ ثارت نفسه لخطبة رياض باشا التي كانت إهانة كبرى للشرف القومى والحركة الوطنية، وما كان يُمكن لمصطفى كامل وهو حامل لواء الوطنية أن يدع هذه الروح تنتشر في النفوس فتعميت فيها الشعور الوطنى وروح الجهاد، فحمل على الخطبة حملة صادقة أيده فيها رأى العام تأييداً قلبياً. وكتب عنها أول ما كتب مقالة تفيض وطنية واثزاناً واعتدالاً في لهجتها قال فيها:

«يعرف قراء اللواء من أول نشأته أننا ضحينا في كل الحوادث بميولنا الشخصية خدمة للمنافع العمومية، وأتينا على أشخاص لا نميل إلى بعضهم، واستحكم النفور بيننا وبين البعض الآخر، وأطربناهم لأنهم قاموا للبلاد بخدمات مشكورة لاعتقادنا أننا نخدم الوطن لا أنفسنا ونعمل لرفعة شأنه وإعلاء قدره لا للتشفى والانتقام. وإن الواجب الأول على كل قائم بعمل عام وكل كاتب يجرى قلمه لصالح الوطن أن يكون منصفاً عادلاً، لا يبخس أحداً حقه، لما في ذلك من التشجيع على الفضائل والأعمال النافعة والتنفير من الرذائل والنقائص.

«ويعرف أصدقائنا رأينا بشأن سياسة رياض باشا وأدواره وأطواره في حكومة البلاد، وأنا تناسينا ذلك لما رأيناه يساعد جمعية العروة الوثقى ويشترك معها في مساعيها الجليلة التي قوبلت بالارتياح العام والشكر التام من كافة المصريين، ولكن لم يكن يدور في خلدنا أن دولته يتذرع بالعروة الوثقى ومساعيها الحسان ليتلمق الاحتلال والمحتلين ويشهر السلاح ليقتل به العواطف العالية، لا ليستخدمه لصالح البلاد كما شاء فضلاؤها الذين سلموه إياه.

«إن دولة رياض باشا قال ما لم يقله مصرى منذ اثنين وعشرين عاماً، وطعن الأمة طعنة قتالة، وسخر من أبناء وطنه جهاراً، وانتهز فرصة هذا العيد الوطنى المصرى ليرينا ويشهد العالم كله كيف يتقلب رجال السياسة وكيف يكون التناهى فى تمجيد المحكومين للحكام وعبادة الذين فقدوا استقلالهم لمضيّعه وساليه.

«إذا كان دولة رياض باشا يريد أن يشرح الصفات الشخصية لجناب اللورد كرومر التى يعرفها محبوه وأعداؤه على السواء، فاحتفال أول أمس لم يكن ميداناً لشرح صفات الرجال السياسيين وأعمالهم، ولو كان يبتغى شكره على مائة الجنيه التى تبرع بها المدرسة محمد على الصناعية، فنحن أول من يعترف بالجميل ويعلنه، ولكن ليست هذه الأقوال مما يقال للشكر والثناء، وكم من الناس تبرعوا بمثل هذا المبلغ، فلم يُذكروا مثل جنابه؟ وإذا كان المتبرع بمائة جنيه يستحق بهذا الثناء الهائل، فكيف نسى دولته من تبرع بمائة فدان (المنشاوى باشا) ولم يشر إلى عمله العظيم بكلمة واحدة؟ أليس هو الذى أحيا الجمعية حياة طيبة وسهل لها سبيل النجاح؟ لذلك لم يرتب أحد من الحاضرين والسامعين فى أن رياض باشا تعمد انتهاز هذه الفرصة للتقرب من المحتلين والتعلق لهم وإعلان السياسة التى طالما أنكرها وتبرأ منها، وأجمع مريدوه قبل مبغضيه على أن حضوره فى حفلة وداع السير إلدون جورست أولاً، وأقواله عن عميد الاحتلال فى حفلة مدرسة محمد على ثانياً، وتجنبه ذكر المنشاوى باشا لكرهه جناب اللورد له ثالثاً، دلائل كافية على ما يريده من التحبب إلى الإنجليز لتعود الوزارة إليه».

وقد ثار رأى العام على رياض باشا لمخاطبته، وانهالت رسائل الاحتجاج ضده فى الصحف من مختلف الجهات، من الإسكندرية حتى أسوان، ودلت هذه الحركة على يقظة الروح الوطنية فى النفوس واستنكارها سياسة التعلق للاحتلال وتمجيده.

خطبة الفقيد بالإسكندرية

(٧ يونيه سنة ١٩٠٤)

كان الموقف السياسى يستدعى خطبة من خطب الفقيد يحى فيها العزائم ويحفز النفوس إلى الجهاد، رغم الاتفاق الإنجليزى الفرنسى الذى فتّ فى عضد الكثيرين

وبخاصة بعد خطبة رياض باشا التي أعلن فيها سياسة التملق للاحتلال.

فألقي خطبة وطنية كبرى في الإسكندرية بمسرح (زيزنيا) مساء الثلاثاء ٧ يونيه سنة ١٩٠٤، جعل موضوعها (الموقف السياسى لمصر، وواجبات المصريين) بدأها بقوله: «سادق وأبناء وطنى الأعزاء:

«لقد وقفت بينكم هذا الموقف مراراً، وعرضت عليكم آرائى فى شئون الوطن ومصالحه تكراراً، ولكنى لا أظن أن الحوادث دعت المصريين فى وقت من الأوقات للنظر فى حاضرهم ومستقبلهم واستحثتهم لتبادل الأفكار فيما هم عليه وما يصيرون إليه كما دعتهم فى هذا الوقت الذى خاب فيه بعض الآمال، وتساءل الناس هل قضى علينا أم لا يزال لنا مخرج من هاتيك الظلمات، وطريق النجاة من ذلك الحكم الأجنبى، وتلك السيطرة الإنجليزية» ثم تكلم عن «الاتفاق الودى» وإثمار انجلترا وفرنسا بمصر ومراكش، وحمل على السياسة الاستعمارية الإنجليزية والفرنسية، ثم عرج على سياسة الاستسلام التى يسلكها وزراء مصر وكبرائها، وقال إن هذه السياسة كان لها دخل فى التحريض على هذا الاتفاق، لأنه لا يوجد فى العالم إنسان يخدم من لا يخدم نفسه ويدافع عن حق من تنازل عن حقه، وقد استسلمت حكومتنا للاحتلال استسلاماً أبعد عنها كل محب لها ميل لمساعدتها^(٢)، فإذا لمنا الغير مرة على إغفاله حقوق الماضى وروابطه، وجب علينا أن نلوم أنفسنا ألف مرة، لأنه مهما كان ذلك الغير مقصراً فى واجباته الأدبية ومخالفاً لتقاليد التاريخ فإنه دون رجالنا تقصيراً ومخالفة».

واتخذ من عقد الاتفاق الودى دليلاً ساقته الحوادث على دحض مزاعم من كانوا يدعون أن القائمين بالحركة الوطنية محرضون من حزب الاستعمار الفرنسى، فقد بطلت هذه الدعوى، بعد أن أصبحت فرنسا صديقة لإنجلترا، ونحن نحن على حالنا ندافع عن المبادئ التى أعلنها للملأ كله من أول عهدنا بالسياسة إلى اليوم»

(٢) كانت وزارة مصطفى باشا فهمى تتولى الحكم فى ذلك العهد منذ نوفمبر سنة ١٨٩٥.

التضحية والثبات

ثم دعا إلى التضحية والثبات قائلاً:

«إن الذى يسمع صوت ضميره منادياً فى كل لحظة وأن بوجوب خدمة الوطن وإعلاء شأنه يشعر بأن دم آبائه الذى يجرى فى عروقه يطالبه بتضحية النفس لتلك الأرض الطاهرة التى لا شرف له إلا بها ولا حياة بغيرها، ولا رفعة بدون رفعتها، ولا مجد إذ زال مجدها، إن الذى يسمع ذلك الصوت ويسمر بهذا الشعور لا يخاف العقبات والموانع، ولا يخشى السباب والمطاعن، بل يسير فى طريقه ناظراً إلى الغاية التى طلبها والبيعة التى تعلق بها، واجداً من سهام الأعداء ما يجده الجندى فى جراح الحرب من شرف وفخار».

الوطنية لا تنثنى أمام العقبات

«سخر أعداؤنا من الوطنية التى ننادى بها وندعو الأمة إليها، وقالوا ما شاء الحقد والعداء، ومن تخلى فؤاده عنها وجهل حقيقتها جازله أن يقول فيها ما قال مالك فى الخمر، ولكننا نرى أن محبة الأوطان ليست مما تميل النفس إليه ساعة ثم تنفر منه ساعة، أو وسيلة للكسب تنقضى بانقضائه، إنما الوطنية شعور ينمو فى النفس ويزداد هيبه فى القلب ويرسخ فى الفؤاد كلما كبرت هموم الوطن وعظمت مصائبه واشتدت كربته، فإذا كنا افتخرنا بهذا الإحساس العالى وتباهينا به ورمينا كل من جهله أو تجاهله أو خالفه بالخيانة أيام كنا نؤمل الخلاص القريب والجلاء العاجل، فخليق بنا أن نتعلق به اليوم أضعاف تعلقنا به بالأمس، ونقول لهذا الوطن الأسيف: «كلما تمكن العدو منك تمكن حبك من القلوب وتعددت واجباتنا نحوك واشتدتمسكنا بحقوقك».

«أجل أيها السادة! لا حياة لأمة من الأمم بغير الوطنية الحقة، ولا معنى للعيش بدونها، ولا تتجدد الآمال وتقوم الأعمال إلا بها، لقد كانت أمم أخرى أتعس منا حالاً، ودوننا رقباً وتقدماً، يحكمها الأجنبي بيد من حديد، ولا تجد من أفرادها عالماً يرشدها أو كاتباً ينصحها أو مريباً يقودها، ثم ناداها منادى الوطنية وظهر فيها من ينبهها إلى هذه

القوة الكامنة وذلك الكنز المدفون، فقامت بعد الرقاد الطويل ونهضت بعد السكون المديد، وعملت بعد الكسل والخمول وتخلصت من قيود الاستبداد والاستعباد بعد أن ذاقت مرارة الظلم والاضطهاد الأعوام والقرون».

الاستقلال والاحتلال

«يسألنا أنصار الاحتلال في الصباح والمساء، ماذا عملتم بوطنتكم، وأى فائدة عادت على القطر منها؟ وهل رددتم إليه حقاً أو استرجعتم منصباً، أو أوقفتم الاحتلال في طريقه وحولتم تياره الجارف؟»

«يسألنا الاحتلاليون ذلك تغريراً بالأفهام، وهم يعلمون أننا لم نكن وزراء للبلاد بأيدينا الحل والعقد، أو ساسة في المناصب نناقش الاحتلال في مصالح الوطن ومطالبه، بل نحن قوم أحرار نخاطب الأمة ونوجه مساعيها إليها، نقول لها على مسمع من العالم كله أنها لا تكون حائزة لصفات الأمم الراقية والشعوب القادرة، إلا إذا كان الشعور الوطني متمكناً من نفوس صغارها وكبارها، لأنه أقوى الروابط وجامعة الجوامع، نقول لها ونكرر القول إن مصدر المصائب التي حاقت بوادي النيل كان جهل أمتة لحقوقها وواجباتها، وانحلال أجزائها بموت الشعور الوطني فيها، نقول لها ونقيم البراهين على صحة دعوانا أن الاستقلال وحده هو الذي يحمي البلاد والممالك من كل بلاء، ويدفع عنها اعتداء الغير ويرقى ملكة الأفراد ويهب الشعوب الحرية والحكومة الدستورية والسيادة الداخلية والخارجية، نقول لها إن الاحتلال عار على الأمة وتشنار على كل واحد من أبنائها، وإنه حجة إلى عدم كفاءتها ودليل على نقص مداركها وعدم استعدادها، وإن الإنجليز لا يعملون لصالحها مهما ادعى المدعون، لأننا لم نسمع ولم يرو التاريخ، أن أمة قامت بخدمة أمة أخرى وأن مغتصباً لملك سعى لرده إلى صاحبه».

ثم تكلم الخطيب عن ثمار الشعور الوطني الذي دب في الأمة، وما ظهر من نتائجه في رقى الأمة وأخذها بأسباب النهوض واتساع حركة التعليم القومي وبذل الأفراد والجماعات أموالهم للمنشآت العامة وظهور قوة الرأي العام في اتجاهه إلى التعلق بالاستقلال والسخط على الاحتلال.

سياسة الاحتلال

وتكلم عن سياسة الاحتلال وما ترمى إليه من قتل الروح الاستقلالية في الأمة، قال:

«إنما تتقدم الأمم وترقى بالتربية والتعليم وبوجود الرجال العقلاء الكبراء ذوى الأفكار الرشيدة الذين يقودونها ويدلونهم على منافعها وطرق الارتقاء، فماذا عمل المحتلون لذلك؟ هل يستطيعون أن يدعوا أنهم رققوا البلاد وأخرجوا لها رجالاً قادرين على قيادة أمورها وإرشادها؟

«أليسوا يجربون فضلاءها وكل ذى استقلال فيها ويمسخون التعليم في مدارسها مسخاً، ويمحون تربية النفس محواً، ويقتلون لغة البلاد قتلاً، ويضطهدونها في شعورها ووجدانها؟ فماذا ينفع المال إذا بقيت الأمة متأخرة جاهلة قاصرة المدارك؟

الوطنية والجهاد والدعوة إلى الاتحاد

وختم خطبته بالدعوة إلى الاتحاد وبث روح الوطنية في النفوس، والجهاد في سبيل الاستقلال قال:

«أيها السادة. إن ازدياد الثروة المصرية، وانتشار التربية والتعليم، وارتقاء الصحافة وغير ذلك من الأمور الحيوية التي ينشرح لها الخاطر وتنشط لها النفس، لا ترفع للأمة مقاماً ولا تعلو لها شأنًا إذا لم تكن الوطنية نبراس الأفراد والجماهير، وغذاء الأرواح والنفوس، فليجعل كبيركم وصغيركم نصب عينيه الاستقلال، لأن الحياة بغيره عناء وعذاب، وإنكم مهما بلغت من سعة العيش ووفرة المال وارتقاء في المراتب لا ترى فيكم الأمم الرشيدة إلا أنها قاصرة إذا دام الاحتلال فاعملوا للاستقلال واجعلوه أنشودتكم التي تترنمون بها على الدوام، وتركوا محبته كأثمن وأقدس ميراث، ولا تعدوا السنين عليه، لأن ما تجددونه طويلاً في حياة الفرد منا يعد يوماً أو بعض يوم في حياة الشعوب، ونقوا بأننا بالغوه، لأن الله الذي يعاقب الشعوب المنقسمة على نفسها بسلبه، يكافئها برده متى اتحدت واتبعت إرادته وعلمت أنه خير ما وهب الرحمن للإنسان».

وقد قوبلت الخطبة بالتصفيق والإعجاب والحماسة والهاثاف العالى من الحاضرين الذين كان يبلغ عددهم أربعة آلاف، فتأثر الخطيب من هذه المظاهرة الرائعة، وشكرهم شكراً مكرراً قائلاً لهم: «إني أعد التفاتكم إلىّ وتعزيدكم لى ديناً علىّ، ربما أعجز عن الوفاء به، ولكنى أقابلكم على هذا الالتفات وهذه العناية بأن أكون فى المستقبل كما كنت فى الماضى: خادم الوطن الأمين».

وكان الاجتماع نجاحاً باهراً للفقيد، كما كان لخطبته دور كبير فى المحافل والدوائر الوطنية والأوروبية لأنه كان أول صوت جهير لمصر ارتفع بعد الاتفاق الودى الإنجليزى الفرنسى.

وقد وصفت جريدة (البصير) التى تصدر بالشر الاجتماع والخطبة بقولها: «كانت ليلة أمس من الليالى المشهودة فى مدينة الإسكندرية، وذلك للخطبة الغراء التى ألقاها سعادة رصيفنا الفاضل مصطفى باشا كامل، ولقد كان حضورها عديدين جداً، حتى لا موطىء لقدم، ولكن النظام كان شاملاً والسكوت تاماً، وقد تكفل جمال الخطبة وحسن انتساقها بحفظ ذلك النظام، ولعل هذا الوصف خير ما يقال فيها» ثم جاءت على مشتملات الخطبة، وختمت الكلام بقولها: «وعلى الجملة فإن الخطبة بمعناها كانت من خير ما يقال فى هذا العهد، وهى جديرة بأن تقابل بمثلها من جهة الفعل، فنرى فى بلادنا أكثر من منشاوى باشا وأكثر من جمعية العروة الوثقى وأكثر من صاحب اللواء يقوم خطيباً، وعند ذلك يتم كل مأمول بإذن الله وبشرية التدريج».

وتردد صدى الخطبة فى الخارج، نشرت جريدة (الفيجارو) الفرنسية تلغرافاً من مراسلها بالإسكندرية جاء فيه:

الإسكندرية فى ٨ يونيه سنة ١٩٠٤

«ألقى مساء أمس مصطفى كامل باشا الخطيب المصرى وصاحب (اللواء) خطبة سياسية كبرى فى الإسكندرية أمام جمهور من المصريين يزيد على ثلاثة آلاف شخص، وقد قوبلت هذه الخطبة بالتصفيق الشديد، وأكد الخطيب أن المصريين متعلقون الآن بالاستقلال الأهلى أكثر من ذى قبل. وقال: «إن مصر بالغة مكانتها فى العالم عاجلاً أو آجلاً بفضل التعليم والتقدم الفكرى». وقد صفق الحاضرون تصفيقاً حاداً لمصطفى كامل باشا الذى يعتبره أبناء وطنه حامل لواء الوطنية المصرية».

ظهور كتابه عن اليابان (الشمس المشرقة)

وفي يونيه سنة ١٩٠٤ ظهر كتابه (الشمس المشرقة) عن اليابان، وضعه لمناسبة الحرب لروسية اليابانية، وما ظهر فيها من عظمة اليابان التي بهرت العالم بتقدمها ووطنيتها، يقصد الفقيه من تأليف هذا الكتاب أن ينظر المصريون بعين الاعتبار إلى الأمة اليابانية لتي لم تكن شيئاً مذكوراً أيام كانوا أصحاب الحول والطول، ثم صارت بفضل اتحادها ووطنيتها موضع إعجاب العالم، ووثبت إلى الصف الأول من الأمم القوية العالية المقام، وأراد أن يبين للشعب كيف ترقى الأمم المتمسكة بأهداب الوطنية.

الاحتفال بعرض الجيش الإنجليزي في ميدان عابدين

كان من عادة الإنجليز أن يحتفلوا بعيد مولد الملكة فيكتوريا ثم عيد الملك إدوارد السابع بعرض الجيش البريطاني بميدان عابدين برئاسة اللورد كرومر، ولم يكن الخديو عباس يحضر هذا الاحتفال. ولكنه بدأ يحضره لأول مرة في عيد ميلاد الملك إدوارد السابع يوم ٩ نوفمبر سنة ١٩٠٤، إذ جاء الميدان مرتدياً بدلة التشريف الكبرى، يحيط به ياورانه، ووقف تحت العلم البريطاني بجوار اللورد كرومر، وشهد العرض حتى نهايته، فكان لحضوره هذا الاحتفال الذي يمثل الاحتلال الأجنبي تمثيلاً مهيناً للكرامة القومية أثر أليم في النفوس، وكان موضع انتقاد الوطنيين في مجالسهم وأحاديثهم، مما اضطر (المعية)^(٣) إلى إصدار بلاغ رسمي تنسب فيه حضوره إلى مصادفة وجوده بسرأي عابدين يوم العرض، قالت فيه:

«لما كان من المقرر أن يشرف الجناب العالي الخديوى في صبيحة أمس سرأي عابدين العامة حيث انعقد مجلس النظر برئاسة سموه ويتناول حضرات العلماء الأعلام طعام الإفطار على المائدة ثم يتلو ذلك استقبال المهنيين بالمقدم السعيد وبحلول شهر رمضان المعظم. وكان هذا اليوم مصادفة هو عيد ميلاد جلالة ملك الإنجليز رأي الجناب العالي

(٣) كانت كلمة المعية تطلق وقتئذ على حاشية الخديو.

حفظه الله أن يحضر الاحتفال المعتاد إجراؤه سنوياً في رحبة السراى لمناسبة هذا العيد، كما كان ذلك من عادة المغفور له الخديو السابق، وما وصلت هذه النية إلى علم جناب اللورد كرومر حتى بادر فدعا الجناب الخديوى ليستعرض الجنود الإنجليزية فتلقى سموه هذه الدعوة بالقبول والارتياح.. الخ»

والأمر الطريف في اعتذار المعية أنها نسبت حضور الخديو الاحتفال إلى (المصادفة)، كأنه لم يكن معلوماً من قبل أن هذا اليوم هو عيد ميلاد الملك إدوارد السابع، وأن حفلة العرض ستحصل فيه، وأضعف من ذلك في الاعتذار أن البلاغ الرسمى يلمح إلى أن الخديو توفيق باشا كان يحضر العرض، وهو عذر غير مقبول، لأن الخديو عباس لم يتبع سياسة أبيه منذ ولايته العرش، ولم يفكر في اتباع عاداته في حضور العرض البريطانى إلا في سنة ١٩٠٤، وهذا يدل على تغيير جوهرى في سياسته عقب الاتفاق الإنجليزى الفرنسى، وجنوحه إلى الخضوع للاحتلال، تلك السياسة التى بدأ يتبعها منذ وقعت حادثة فاشودة سنة ١٨٩٨، ثم ظهرت بمظهرها العلنى في حضوره استعراض جيش الاحتلال، فكأنه أراد أن يعلن بحضوره ولاءه للاحتلال وسياسته.

ومما يدل على أن الاعتذار بالمصادفة في بلاغ المعية لا صحة له، أن الخديو قد حضر العرض البريطانى للمرة الثانية في نوفمبر ١٩٠٥، ووقف تحت العلم الإنجليزى، بين قائد جيش الاحتلال واللورد كرومر، وشهد العرض حتى نهايته.

قال (اللواء) في هذا الصدد:

«وهذه هى المرة الثانية التى وقف فيها سمو الخديو هذا الموقف بصفة رسمية، ولما جرى ذلك في العام الماضى وشعرت «المiecie» بدهشة الناس من هذه الحركة الجديدة في سياسة مصر نشرت في الصحف بلاغا (وأنت على نصه)، إلى أن قال:

هذا بلاغ السنة الماضية، وإذا كان من الصعب تحميل «المصادفة» مسئولية هذا الحادث مرتين، فمن المرجح أن المعية لا تنشر بلاغاً في هذا العام وتفضل السكوت على الكلام...».

ثم وقعت حادثة دنشواى في يونيه سنة ١٩٠٦، وأعقبها فوز الحركة الوطنية واشتداداً السخط على سياسة الاحتلال بفضل حملات مصطفى كامل، فكان من نتائج ذلك عدول

الخديو عن حضور العرض في نوفمبر سنة ١٩٠٦، ونوفبر سنة ١٩٠٧، وقد علقت الصحف الأوروبية على هذا العدول وفسرته بأنه وقع بتأثير الحركة الوطنية، قالت جريدة (الامبرسيالى) الإيطالية في هذا الصدد: «ولعل سمو الخديو أراد بإطالة إقامته في الإسكندرية العدول عن الخطة التى اتبعها في عام ١٩٠٤ بعد أن لبث على عرش مصر إثني عشر عاماً، فهل فازت الصحافة الوطنية بنصائحها واحتجاجاتها».

زيارات اللورد كرومر للأقاليم

وكان من نتائج الاتفاق الانجليزى الفرنسى أن أخذ اللورد كرومر يظهر بمظهر صاحب السيطرة والحكم النافذ في البلاد، بعد أن كان يكتفى بتحريك الأداة الحكومية والسيطرة على البلاد من ورائها.

ومن علامات هذا المظهر الجديد زيارته لعواصم المديرية، فكان يقابل من المديرين وبعض كبار الأعيان بالخفاوة والإكرام، مما يقابل به الملوك ورؤساء الدول.

زار الفيوم في فبراير سنة ١٩٠٥، فقابله المدير محمد بك محب والأعيان والعمد، وخطب فيهم، متكلماً عن مشروعات الحكومة وأعمالها باعتباره صاحب النفوذ الفعلى فيها، فتكلم عما تبذله الحكومة في مكافحة الجراد وإبادة دودة القطن، وإنشاء صناديق التوفير وما إلى ذلك من المسائل الداخلية الحكومية وشكره أحد الأعيان بالنيابة عن المديرية على زيارة الفيوم وعلى النصائح التى ألقاها عليهم، وزار دور الحكومة كالمستشفى الأميرى، والمدرسة الأميرية، ثم زار المركز والسجن والمجلس البلدى؛ وكان في إنتظاره أعيان المدينة؛ ثم المحكمة الأهلية حيث استقبله القضاة وأعضاء النيابة، ثم شرب الشاي في دار المدير، وكان الموظفون وكبار الأعيان في ركابه.

وكان الأعيان الموالون للاحتلال يترددون من قبل في إظهار ولائهم له، فلما أبرم الاتفاق الودى سفروا في ولائهم وتسابقوا في إبتغاء الزلفى لديه.

وقد كان ظهور اللورد كرومر بهذا المظهر من الحوادث المؤله المهينة للكرامة الوطنية، المعرقة للحركة القومية، كتب اللواء في هذا الصدد بقول^(٤) «ظهر جناب اللورد كرومر

(٤) عدد ٦ فبراير سنة ١٩٠٥

أول أمس بظهر جديد لم يره فيه المصريون من أول عهد الاحتلال إلى اليوم. حيث ترك تسيير السفينة المصرية من وراء الوزارة المصرية، وتقدم بنفسه إلى الجماهير يخاطبهم في الشئون العامة ويلقى عليهم النصائح والأوامر، ويجمع العمد والأعيان بين يديه ليسمعهم ما يريد، فجنا ب اللورد كرومر أراد أن يفهم المصريين الآن أن "سياسة التستر والانكماش والعمل وراء ستار قد انقضى عهدا ومضى زمانها، وأن المحتلين يقدرون المسئولية ويتحملونها جهاراً".

وكتب مصطفى كامل في لواء ٧ فبراير سنة ١٩٠٥ ينعى هذه الحالة بقوله:

«لا يسمع المصرى المحب لبلاده إلا أن يحزن أشد الحزن على المركز التعيس الذى وصلت إليه البلاد، ويندب استقلالاً مزقته يد الزمان، وإنى لا أدري بأى آذان سمع القوم أقوال اللورد كرومر، وماذا كان يختلج ضمائرهم إذ ذاك؟ وهل شعروا بأنه بحركته هذه أعلن موت السلطة المصرية؟ اللهم إنى لو كنت بين تلك الجموع التى أصغت لأقواله لذبت أسى وكمداً وقلت ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً، لأن وقفته هذه ليست إلا إعلاناً قطعياً بأنه صار صاحب الحل والعقد والأمر والنهى الذى لا يعارض فى شيء».

واستمر اللورد كرومر فى رحلته الاحتلالية، فزار المنيا فأسيوط فأبوتيج فنجع حمادى، حيث كان يستقبله المديرون والأعيان بالحفاوة البالغة.

تقارير اللورد كرومر

ولقد كان من نتائج «الاتفاق الودى» أن تقارير اللورد كرومر السنوية التى كان يرفعها إلى الحكومة البريطانية عن شئون مصر والسودان أخذت تزداد منزلة ومكانة بحيث صارت من أهم الوثائق عن أحوال مصر السياسية والاجتماعية والإدارية وصار لها من الشأن ما لتقارير حكام المستعمرات الانجليزية، وكان يخوض فيها فى كل ما له مساس بشئون الحكومة المصرية والبلاد، مما لا يصدر إلا عن صاحب السيطرة والنفوذ الفعال فى الحكومة، وكتب فى تقريره الذى ظهر فى مارس سنة ١٩٠٥ أن وعد بريطانيا بالجلاء عن مصر كان قبل أن تعلم الحالة فى مصر تماماً، فلما عرفت أنها علمت أن وعدا كان فى غير محله وأن تنفيذه يفضى إلى أضرار جسيمة ١١

تعيين ياور إنجليزى للخديو

وبلغ من تدخل الانجليز فى المعية الخديوية وإستسلام الخديو عباس لسياسة الاحتلال أن عين فى تلك السنة (سنة ١٩٠٥) ياور إنجليزى للخديو وهو الكولونيل وطسن باشا.

ظهور كتاب (المصريون والانجليز)

Egyptiens et Anglais

جمع الفقيد فى صيف سنة ١٩٠٥ خطبه التى ألقاها عن المسألة المصرية، والرسائل التى تبودلت بينه وبين كبار الساسة، وترجمها إلى الفرنسية، وطبعها بباريس كتاباً ظهر فى ديسمبر سنة ١٩٠٥ بعنوان (المصريون والانجليز) فى ثلثمائة وعشرين صفحة، ثم وزعه فى كل جهات العالم، ليعرف الأمم كافة بالحركة الوطنية المصرية، وميول المصريين، وحقيقة مقاصد الحزب الوطنى، فكان خير دعاية عالمية للمسألة المصرية، وقد وضعت مدام جوليت آدم مقدمة هذا الكتاب، ومما قالته عن الفقيد:

«إنه يجاهد بكل الصور والأشكال ضد «اليأس والقنوط» و «عدم الاكتراث بشئون البلاد» و «فلة الوطنية»، تلك الآفات الثلاث التى تهدد مصر كما تتهدد فرنسا نفسها، والتى هى أشد خطراً على الأمم من الغيرين».

وقالت فى موضع آخر عن الحركة الوطنية:

«إنى أنا التى رأيت مصر وأدركت أسرارها وأحببتها وأعجبت بها، أعتقد بخصوصيتها العقلية الأهلية الأبدية الخالدة كآثارها الفخمة، تلك الخصوبة المستعدة لأن تنتج أكبر النتائج بفضل معارف الوطنيين من أبنائها، كما يرى الإنسان خصوبة أرضها ظاهرة ومحصولاتها ناضجة فى أسابيع معدودة بفضل فلاحيتها».

وكتبت الصحف الأوروبية نبذاً كثيرة عن الكتاب ومناحيه، ومن أبلغ ما نشر فى هذا الصدد مقالة طويلة بليغة بالفرنسية فى جريدة (الجورنال دى كير) بدأها كاتبها بشعار الفقيد (أحرار فى بلادنا، كرماء لضيوفنا)، ومما قال فيها:

«لا أريد أن أخلص الكتاب أو أنتقده اليوم، وليست هذه مهمتي، فاني سائح أجوب هذه البلاد، ولكن مصر ليست الديار التي يجوبها الإنسان دون أن يتعلق بها، ولقد أكد لي البعض أن من يرى مصر مرة لا بد أن يعود إليها، فهل سأكون أنا إستثناء لهذه القاعدة؟» إلى أن قال:

«قرأت هذه الخطب التي ألقىت الأولى منها عام ١٨٩٥، والأخيرة عام ١٩٠٤ فهي عشر سنوات من حياة الخطيب، جمعت واختصرت في هذه الصحائف، وإن عشر سنوات فضيت في العمل والسعي والجهاد بلا ملل ولا خور في العزيمة لجديرة بأن يقف الإنسان أمامها، ولقد وقفت بإزائها واختبرتها وقلبتها، وما رأيت فيها وما إستطعت أن أرى إلا الإعراب عن أشرف وأطهر وطنية، إن فيها قوة وحدّة، وروح الشباب والأمل تملأ هذه الصحائف وتهزها، وتشعر اليد بارتعاش عند تقلبيها، وإن القارئ عندما يطالع هذه الخطب لا يقرأها في الحقيقة، بل يسمعها، لأنها بالغة الغاية في الحياة، ورغما عن هذه الحرارة وتلك النار المشتعلة؛ ورغما من الحدّة التي تلازم كل حب شديد، قد إستطاع هذا الخطيب الشاب أن يحافظ دائماً على الاعتدال، ويقف عند الحد الواجب، فهو حادّ اللهجة، وفي عباراته حركة شديدة أحيانا، بحيث يشعر بأنها تجري وتعدو وتدوى كالسيل الجارف وقت ذوبان الثلوج، فيخيل إلى الإنسان أنها ستأخذ في طريقها كل شيء، ولكن السد الذي أقامته نفس شريفة وفكر عال موجود، فعبارات الخطيب تغلي كالماء ثم تجري واضحة رائقة تطرب القلوب، وتنزل برفق ويتسع مجراها، وتروى وتلطف ما تمر عليه، وهناك أمر آخر يستوجب دهشتي، وهو أن هذه الحياة واحدة منسجمة متصلة، فهي خط مستقيم لا انقطاع فيه، فترى من أول خطبة إلى آخر خطبة ضميراً واحداً، وروحاً واحدة، ليس فيها تناقض ولا خطوة واحدة في غير موضعها، وإلى مثل هذا ينتهي التعقل والصراحة الطهارة، وهو مثال يكاد يكون وحيداً، وسيكون لهذا الكتاب في أوروبا رنة طويلة دائمة، لأن كل ذى عاطفة وطنية يشعر بها ويقدرها هناك، قد يختلف البعض مع الخطيب في أفكاره ويحكمون على هذه المسألة أو تلك حكماً مخالفاً لحكمه، ولكن إذا كان هذا الرجل وطنياً يقول وينادي بكل قوته بحبه لبلاده، ويعلم الجميع أنه يهبها شبابيه وحياته^(٥) فلا جدال في أن القوم في أوروبا يطأطئون له الرؤوس احتراماً له، ولو كانوا

(٥) نشرت هذه المقالة في يناير سنة ١٩٠٦ وتوفي الفقيد في فبراير سنة ١٩٠٨.

صوماً له أو أعداء»، إلى أن قال:

«إن الوطني المصرى إذا أفلح لا يفلح بغير تعريض نفسه للخطر، فهو معرض له
 ثمر من الأوروبي لضعفه وقلة الشعور الوطنى فى بلاد لم تتعود حكم نفسها بنفسها، نعم
 و معرض للخطر أكثر من الأوروبي، وإن عمله أتعب وأصعب، فهو لا يجب عليه فقط
 ن يتكلم أمام الجماهير كما يفعل الخطيب الأوروبي بل هو مضطر لتربية هذه الجماهير
 تعليمها، وتدريبها على الفكر والاحساس، وهو مطالب أكثر من غيره باحتراس وحذر
 نحو بنى وطنه ونحو الأجانب، وإنى أتوقع لعنائه بفدر إعجابى به، ومهمته لا تعود عليه
 لأن بالفائدة، فلا بد من نفس كبيرة امتلأت بحب الوطن، وأخلاق قوية متينة، ليستطيع
 ناب أن يكرس حياته كلها لبلاده غير طالب شيئاً آخر سوى عظمتها وسعادتها
 استقلالها!»



الفصل الحادى عشر

نادى المدارس العليا وتطور الأفكار

(سنة ١٩٠٥ و ١٩٠٦)

تفتحت فى قلوب الشباب زهرة الوطنية التى أنبتتها دعوة مصطفى كامل، وأخذت تجيش بالشعور الوطنى وتتحرك نحو أغراضه وأهدافه، وبدأت علائم اليقظة والحياة تظهر فيهم بشكل عملى سنة ١٩٠٥، وكان أول مظهر لهذه الحياة الجديدة أن فكر طائفة منهم فى إنشاء ناد للمدارس العليا، يجمع بين طلبة هذه المدارس ومتخرجيها.

كان هذا النادى من أعظم مظاهر الحركة الوطنية فى ذلك العصر، وصار بمثابة معهد وطنى علمى أخلاقى تكوّن فيه جيل من خيرة الشباب المصرى، وفيه ظهرت حركة فكرية قومية أنتجت على توالى السنين عدة مشروعات جليلة كان لها فضل كبير على النهضة الوطنية، فقد ظهرت فيه قوة الشبيبة ووحدتها، وإمتزج الطلبة بالمتخرجين فاكتملوا بهذا الاتصال النضج الفكرى والمعنوى، وفيه ألقى أعلام الفكر والعلم المحاضرات القيمة فى مختلف العلوم والفنون، وفيه تأسست جمعية رعاية الأطفال وإقاعاته إجتمعت وقتاً ما لجنة إنشاء الجامعة المصرية، وفيه تأسست مدارس الشعب فأنشئت عدة مدارس لتعليم العامة، وقام أعضاء النادى بالتدريس فيها، وفيه نش مشروع النقابات الزراعية على يد المرحوم عمر بك لطفى، وفيه أخذ الطلبة يروضون أنفسهم على الأخلاق والفضائل والتضامن، وكان فوق ذلك معهداً قومياً لنشر المبادئ الوطنية الصادقة وبثها فى نفوس الجيل.

التفكير فى إنشاء النادى

(سنة ١٩٠٥)

بدأ التفكير فى إنشاء النادى سنة ١٩٠٥، وتألّفت لجنة لتأسيسه فى أكتوبر من تلك

السنة برياسة الدكتور عبد العزيز نظمي بك، فأخذت تجمع الاكتتابات لتكوين رأس ماله، وعضدها (اللواء) في مهمتها، وحث الفقيد الأغنياء على المساهمة في الاكتتاب فيه، قال في عدد ١٩ أكتوبر سنة ١٩٠٥:

«نرى من أوجب الواجبات إعانة هذا النادي ممن يقدرون العلم وذويه، ولذلك نود أن يقتفى الكبراء والعظماء والوجهاء أثر الذين جادت نفوسهم بما تبرعوا به لهذه الغاية الشريفة حتى الآن، وبقدر ما يتبرع الواحد لهذا النادي المحرومة منه هذه البلاد تعلم قيمة العلم عنده كثرة وقلة، فنستنهض هم السراة لمُدِّ يد المعونة إلى هذا النادي الذي سيكون محط رحال أبنائهم».

وقد بلغ ما جمع لتأسيسه مع ربح ليلة تمثيلية أقامتها اللجنة بدار التمثيل العربي ٢٨١ جنيهها، وذلك إلى آخر نوفمبر سنة ١٩٠٥.

أول جمعية عمومية للنادي

واجتمعت أول جمعية عمومية للنادي بهيئة جمعية تأسيسية يوم الجمعة ٨ ديسمبر سنة ١٩٠٥ بإحدى قاعات مدرسة الطب لانتخاب مجلس إدارة النادي، وبلغ عدد الحاضرين من الطلبة مائتي طالب، من مختلف المدارس العليا، وكذلك حضره لفيف من المتخرجين، وقد اشتركت في هذا الاجتماع إذ كنت طالباً بمدرسة الحقوق ومن المشتركين في تأسيس النادي، وأسفرت عملية الانتخاب عن اختيار المرحوم عمر بك لطفى رئيساً للنادي، وكان من خاصة أصدقاء الفقيد، وموضع الاحترام بين مواطنيه، فأُسبغت رياسته على النادي مهابة واحتراماً، وانتخب هو وعبد الخالق بك ثروت (باشا) عضوين بالمجلس عن متخرجي مدرسة الحقوق، وأمين سامي بك (باشا) وأحمد عزى بك عن متخرجي مدرسة المهندسخانة، والدكتور عبد العزيز بك نظمي والدكتور عبد المجيد محمود عن متخرجي الطب، ومحمد على دلاور بك وعلى حسنى المصرى عن متخرجي مدرسة المعلمين والألسن، واسماعيل أفندى زهدى (بك) وأحمد أفندى أمين (بك) عن طلبة الحقوق، وحافظ أفندى عفيفى (باشا) وفؤاد أفندى صدقى عن طلبة الطب، وسامى أفندى عصمت (بك) ونجيب أفندى مرتضى عن طلبة المهندسخانة، وأخذ مجلس الإدارة



حفلة افتتاح نادى المدارس العليا - ٥ ابريل سنة ١٩٠٦ (انظر ص ١٩٧)

وترى في الصدر: المرحوم عمر بك لطفي رئيس النادي وعن يمينه المرحوم عبد الخالق ثروت باشا وعن يساره المرحوم حسن بك رضا. والمرحوم على بك حسنى المصرى. المرحوم اسماعيل بك زهدى. المرحوم أحمد بك أمين المستشار. سامى بك عصمت. ومن الجالسين في الصف الأول الدكتور عبدالعزيز نظمى بك. محمد بك على دلاور. ومن الجالسين في الصف الثالث المرحوم هارون سليم باشا المرحوم الدكتور محمود فتحي المحامى - الأستاذ السيد حسين. ومن الجالسين الصف الثالث عبد الرحمن بك الراقى. مصطفى بك الشورى المستشار الدكتور أحمد بك سعيد. الدكتور سيد بك شكرى. هاشم بك مهنا. وهيب بك دوس. نبيه بك سلام... إلخ

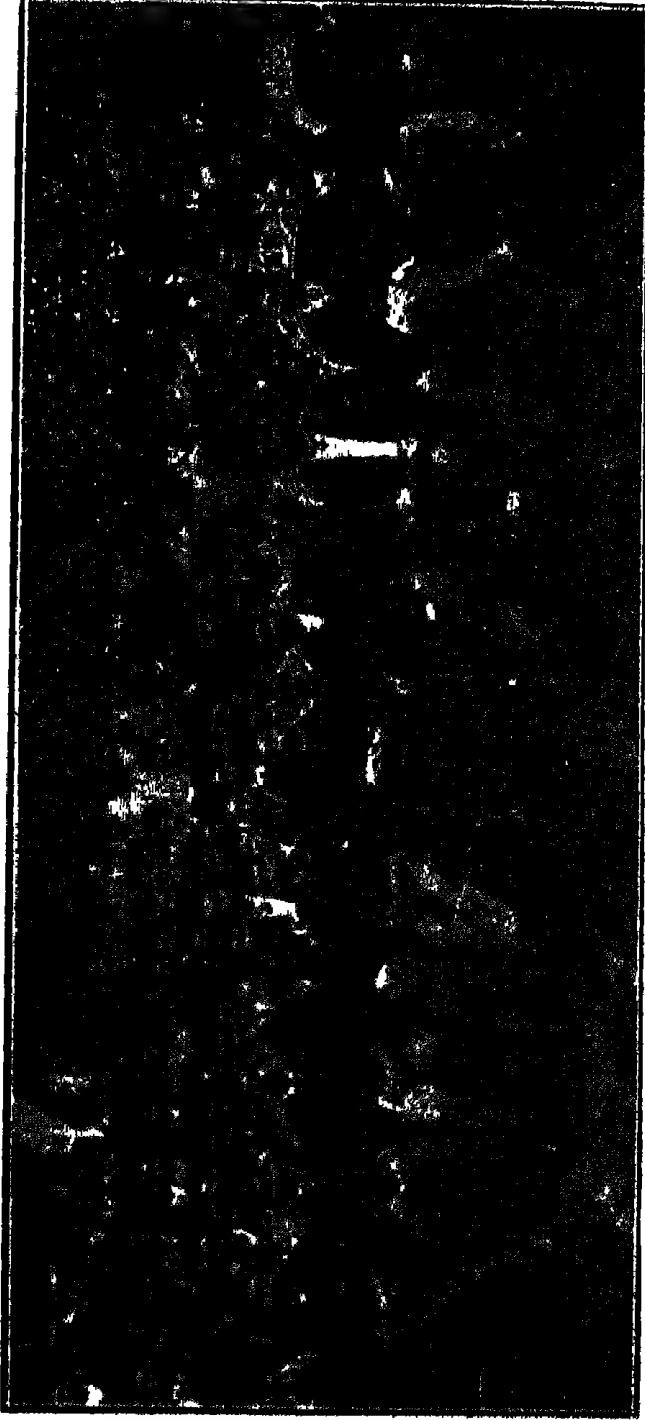
بوالى جمع الاكتتابات من الطلبة والمتخرجين ويعد معدات افتتاحه حتى اكتملت هذه المعدات فى مارس سنة ١٩٠٦.

افتتاحه

واتخذ النادى داراً له بالمنزل رقم ٤ بشارع قصر النيل بالقرب من (سافواى أوتيل) القديمة، وافتتح يوم الخميس ٥ أبريل سنة ١٩٠٦ وكان الاحتفال بافتتاحه يوماً مشهوداً، إذ حضره الأعضاء المشتركون فيه من الطلبة والمتخرجين، وكان الطلبة هم قوام النادى، وحضر الاحتفال من رجال الحكومة حسين فخرى باشا وزير المعارف وقتئذ ويعقوب ارتين باشا وكيلها «والمستر دنلوب مستشارها، والمستر متشل انيس وكيل وزارة المالية. ومحمود صدقى باشا محافظ العاصمة ونظار المدارس العليا ووكلاؤها، وخطب فى الاحتفال عمر بك لطفى رئيس النادى معلناً افتتاحه، ثم أعقبه فخرى باشا وزير المعارف فألقى خطبة ترحيب بتأسيسه، ولما أتم خطبته صدحت الموسيقى العسكرية وطاف المدعوون بغرف النادى وأبهاءه فأعجبوا بحسن تنسيقه ونظامه، وكان بناء فخماً، تحيط به حديقة غناء، وبه غرف واسعة. بعضها للجلوس، وبعضها لتلاوة الصحف والمجلات، وبعضها للبيارد والألعاب المباحة، وفيه غرفة فسيحة للمكتبة جمعت عدداً كبيراً من الكتب العلمية النفيسة، وكان من مبادئه منع الميسر والخمر منعاً مطلقاً.

واطرد الإقبال على النادى، فكان عدد أعضائه حين تأسيسه ٢٤٠ عضواً بين طلبة وخريجين، فلم يأت آخر ديسمبر سنة ١٩٠٦ حتى بلغوا ٤٧١، وبلغوا ٥٤٩ فى آخر ديسمبر سنة ١٩٠٧، و ٦٨٥ فى آخر ديسمبر سنة ١٩٠٨، و ٧٧٣ فى آخر ديسمبر سنة ١٩٠٩، أى زادوا على ثلاثة أمثال عددهم الأول.

وقد بعث تأسيس هذا النادى روحاً جديدة من التضامن والود بين الطلبة بقيت تجمع بينهم على مرّ السنين، وكان ينظم رحلات رياضية يشترك فيها الطلبة وبعض المتخرجين، ففقت روابط الألفة بينهم باجتماعاتهم اليومية فى النادى، ورحلاتهم الرياضية التى كانوا يقومون بها مجتمعين، وظل النادى قائماً يؤدى مهمته خير الأداء، حتى أقفل بأمر السلطة العسكرية البريطانية فى أوائل الحرب العامة الأولى سنة ١٩١٤.



افتتاح نادى المدارس العليا - ٥ ابريل سنة ١٩٠٦ (صورة أخرى للحفلة) انظر ص ١٩٩ .
وترى من الجالسين في الصف الأول المرحوم عمر بك لطفي (في الصدر). سامى بك عصمت. توفيق باشا رفعت. على بك
حسنى المصرى. محمد بك على دلاور، الدكتور عبد العزيز بك نظفى. الدكتور وجيه راشد، الدكتور على بك حلمى، الدكتور
حافظ عفيفى باشا، الأستاذ صالح جودت، الأستاذ بدیع قمر به، ومن الجالسین في الصف الثاني: الدكتور سالم هنداوى بك،
الدكتور كامل سامى، فؤاد بك أنور المستشار هارون سليم باشا، الدكتور الأستاذ محمود فتحى، الدكتور توفيق بك عمر، ومن
الواقفين فيالصف الثالث: أمين بك الرافعى، الصادق بك حسين، محمد بك فايز، الأستاذ حاتم يوسف المسكرى، نبيه بك
سلام، أحمد بك عبد القادر، الأستاذ عبد القصود متولى، إبراهيم بك راتب، سعيد باشا العزوي، محمد بك شركس، حسن بك
زكى المستشار، وفي الصف الرابع الدكتور سيد كامل... إلخ

إضراب طلبة الحقوق

(فبراير سنة ١٩٠٦)

كان طلبة الحقوق أول من تشبعوا بالروح الوطنية التي بثها الفقيه في الشباب، ظهرت هذه الروح في تبرمهم بالنظام الذي وضعته وزارة المعارف في يناير سنة ١٩٠٦، وكان الغرض منه استفزاز شعورهم والتضييق عليهم ومعاملتهم بنظام المدارس الابتدائية والثانوية، فأضربوا عن الدراسة في فبراير سنة ١٩٠٦ احتجاجاً على هذا النظام، وقد ساهمت في هذا الإضراب واشتركت فيه، إذ كنت من طلبة الحقوق المتذمرين، وكانت طلباتنا العدول عن النظام الذي وضعته الوزارة، والرجوع إلى النظام القديم، وكنا على حق في تذرنا ومطالبنا، وليس أدل على ذلك مما كتبه الأستاذ إدوار لامبير ناظر مدرسة الحقوق^(١) في مقالته التي نشرها عقب استقالته سنة ١٩٠٧، وسيأتى بيانها بالفصل الثالث عشر، إذ قال: «إن المستر دنلوب وضع لهؤلاء الطلبة الذين بلغوا سن الرجال نظاماً من لنظومات الموضوعات لصغار تلاميذ المدارس الابتدائية وأخذ يعاملهم بقسوة متناهية، يستعمل معهم سياسة وخز الإبر، سياسة اضطهاد دني؛ فكانت نتيجة ذلك أن انضم إلى لحزب المعارض للإنجليز فئة متعلمة راقية، وأن يسود أفئدة الشبيبة الحقد والبغض لإدارة الإنجليزية وأن تتحول مدرسة الحقوق معقلاً للوطنية المصرية بحيث لا تكاد ترى بين الأربعمئة التلميذ الموجودين بها الآن عشرة لا يؤمنون كل الإيمان بمبادئ مصطفى نامل باشا».

كان هذا الإضراب هو الأول من نوعه، لأنه شمل مدرسة عالية بأسرها، وكان موجهاً ضد سياسة التعليم التي وضعها الاحتلال، وقد أجمع الطلبة جميعاً على الانقطاع عن لدراسة وألفوا لجنة تمثل جميع فرق المدرسة لتنظيم حركة الإضراب، وعقدوا اجتماعاً في حديقة الأزبكية يوم ٢٦ فبراير سنة ١٩٠٦ أُلقيت فيه الخطب، وتعاهدنا فيه على لتضامن واستمرار الإضراب حتى تجاب مطالبنا، فكان لهذا الإضراب ضجة في البلاد،

(١) عين ناظراً لمدرسة الحقوق الخديوية في أكتوبر سنة ١٩٠٦ خلفاً للأستاذ جرانغولان الذي وقع لإضراب في عهده.

وتدخل اللورد كرومر في شأنه، وأمر وزارة المعارف بأن تأخذ الطلبة بالشدة، فأعلنت الوزارة تعطيل الدروس في المدرسة من يوم ٢٦ فبراير سنة ١٩٠٦ حتى يوم السبت ٣ مارس، وأندرت الطلبة بأن من يتأخر عن الحضور في ذلك اليوم يفصل من سلك التلاميذ، وانتقد اللواء هذا القرار وقال : إنه قرار يوجب أشد الانتقاد لأنه يؤدي إلى إبطال تعليم الحقوق في مصر إذا أصر الطلبة على الإضراب.

واتخذ الطلبة جريدة اللواء لسان حالهم في نشر ظلامتهم من معاملة الوزارة إياهم، فكان هذا الإضراب هو المرحلة الأولى العملية لاتصال طلبة المدارس العالية بالحركة الوطنية، وتشبعهم بالمبادئ الاستقلالية، وتبعهم في هذا الاتصال طلبة المدارس العالية الأخرى، لما أبدوه من العطف على طلبة الحقوق وتأييدهم، وقد أخذ الإضراب من هذه الناحية صيغة عامة، إذ كان دليلاً عملياً على فساد نظام التعليم أدى إلى سخط الطلبة وضيق صدورهم من سوء معاملة الوزارة إياهم، وكان بمثابة احتجاج على هذه المعاملة، وقد قابلته الحكومة بالشدة لكي تقمع الروح الجديدة التي ظهرت في صفوف الطلبة، وفي ذلك كتب الفقيه تحت عنوان (مسألة الطلبة) مقالة جاء فيها :

« قضت البلاد أسبوعاً كاملاً وهي سديدة الاهتمام بمسألة الطلبة، وقد دل هذا الاهتمام العظيم على أن أمر التعليم أصبح عند الأمة المصرية في مقدمة أمورها الحيوية، وإن لناشئتها المحل الأول من عنايتها، وأن رجال الغد هم موضع الآمال كلها، لقد أظهر إضراب الطلبة أموراً جمّة وأنتج نتائج عدة، أظهر خلل نظارة المعارف وفساد سياستها وسوء إدارتها وعدم كفاءة المديرين لها، أظهر أن الطلبة كلهم ولدوا في عهد الاحتلال وتربوا بمقتضى النظم التي وضعها ليسوا كما شاء أعداء مصر والمصريين جنباء أذلاء، بل إنهم ذوو إباء وشمم وعواطف راقية وأرادة حقيقة، أظهر أن رجال الغد متضامنون متكاتفون عارفون لمعنى الاتحاد والاتفاق، غيرون على حقوقهم، محبون للعدالة، متشربون بروح الاستقلال».

وقد انتهى الإضراب برجوع الطلبة إلى المدرسة يوم السبت ٣ مارس سنة ١٩٠٦ بناء على وعد المستشار القضائي بالنظر في طلباتهم، وأراد الاحتلال تثبيت مركز المستر دنلوب، وكان إلى ذلك الحين سكرتيراً عاماً لوزارة المعارف، وعليه تقع مسئولية إخلال

نظام التعليم الذى أدى إلى إضراب طلبة الحقوق، فرقى مستشاراً للوزارة فى مارس سنة ١٩٠٦ مكافأة له على أخذ الطلبة بالشدة.

حادثة العقبة

(مايو سنة ١٩٠٦)

ظهرت فى سنة ١٩٠٦ حادثة سياسية مهمة هزت أعصاب الأمة ووضعت من جديد مسألة الاحتلال والجلاء على بساط البحث والمنافسة، ونعنى بها حادثة العقبة وتسمى أيضا حادثة (طابة)، وبيانها أن تركيا اعتزمت فى تلك السنة مد سكة حديدية من معان إلى العقبة، وهذه السكة تجعل لتركيا قوة جديدة على حدود مصر، وتهدد مركز الاحتلال الانجليزى، فاهتم الانجليز لهذا الحادث، وأرسلوا ضابطا كبيرا عهدوا إليه وضع نقط عسكرية على طول الخط من العريش إلى العقبة، باعتبار أنها من أملاك مصر، إذ هى جزء من طور سيناء المعهودة إدارتها إلى مصر، ولكن الجنود التركية احتلت موقع (طابة) على بعد ثمانية أميال غربى العقبة، وقام لذلك خلاف شديد بين تركيا وانجلترا، ظهرت فيه بمظهر الدولة الحامية لمصر، إذ طالبت تركيا باسم مصر أن تجلو عن طابة، وتهددت وتوعدت كما لو كانت مصر جزءاً من أملاكها، فإن هذا المظهر من علامات الحماية، مما أثار سخط الفقيه، فاستنكر موقف انجلترا من هذه الحادثة ودعا الانجليز إلى الجلاء عن مصر بدلا من أن يتظاهروا بالدفاع عن حقوقها، وكانت تركيا ترمى بعملها هذا إلى فتح باب المسألة المصرية من جديد لإجبار انجلترا على الوفاء بعهودها فى الجلاء، ومن هنا جاء عطف الأمة المصرية على موقفها فى هذه الحادثة، إذ كان تشبيها من بعض الوجوه بموقف فرنسا فى حادثة فاشودة، وقد كانت تركيا تتوعد أن تؤيدها بعض الدول الأوروبية فى فتح باب المسألة المصرية، ولكن فرنسا كانت بحكم «الاتفاق الودى» مؤيدة لانجلترا، وطلب سفيرها فى الآستانة من الحكومة التركية الإذعان لمطالب انجلترا، ووقفت روسيا موقفا يشبه موقف فرنسا، ولزمت ألمانيا الجمود حيال هذا الخلاف، مما جعل تركيا تتجنب للتراجع، وانتهت الحادثة بانسحاب الترك من طابة فى مايو سنة ١٩٠٦، وتأليف لجنة مصرية تركية لتسوية مسألة الحدود على قاعدة معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ وتلغراف ٨ ابريل سنة ١٨٩٢ المرسل إلى الخديو عباس الثانى والذى خول مصر إدارة

نسبه جزيرة طورسينا^(٢)، وانتهت اللجنة من عملها في أول كتاب أكتوبر سنة ١٩٠٦، إذ تم الاتفاق على الحدود الشرقية على أن تكون خطاً ممتداً من (رفح) على البحر الأبيض المتوسط إلى نقطة واقعة غرب العقبة بثلاثة أميال، وبقيت طابة ضمن أملاك مصر والعقبة من أملاك تركيا.

وقد جاءت حادثة العقبة دليلاً ساطعاً على كراهة الأمة للاحتلال وللحماية المقنعة التي انتحلتها إنجلترا على مصر، وبرهانا جلياً على انتشار التعاليم الوطنية التي بثها الفقيد في النفوس.

زيادة جيش الاحتلال

كان من نتائج شعور الكراهية الذي بدا من المصريين حيال الاحتلال في حادثة العقبة أن قررت الحكومة البريطانية زيادة عدد جيش الاحتلال، فزاد من ٢٩٠٦ جندياً إلى ٤٧٥٨، وزادت النفقات التي تتحملها مصر في هذا الصدد من ٩٧٥٠٠ جنيه إلى ١٤١٣٧٥ جنيه، وجاءت هذه الزيادة دليلاً على اتساع الهوة بين الأمة والاحتلال وتفنيدها لمزاعم أنصاره الذين كانوا يرجفون بأن الأمة راضية عنه موالية لحكمه.

(٢) فصلنا الكلام عن هذا التلغراف وعن أزمة فرمان سنة ١٨٩٢ في الفصل السادس عشر.

الفصل الثاني عشر

حادثة دنشواى

(١٣ يونيه ١٩٠٦)

لأمرء فى أن حادثة دنشواى هى من حوادث مصر التاريخية التى لا تنسى على مر السنين، لما كان لها من الأثر البالغ فى تطور الحركة الوطنية، وفى مركز الاحتلال الانجليزى، فهى نهاية عهد كان الاحتلال يتمتع فيه بالاستقرار والطمأنينة، وبداية مرحلة جديدة من مراحل الجهاد القومى عمّ فيها الشعور الوطنى بعد أن كان الظن أن سواد الأمة راض عن الاحتلال.

تفاصيل الحادثة

ترجع هذه الحادثة إلى أن بعض الضباط من جيش الاحتلال وبعض الموظفين البريطانيين كانت لهم عادة أن يتجولوا فى بعض القرى والبلاد ليصطادوا الطيور بينادقهم، وفى يوم الاثنين ١١ يونيه سنة ١٩٠٦ غادرت كتيبة من نحو ١٥٠ جندياً بريطانيا القاهرة متجهة بطريق البر إلى الاسكندرية، وبعد مسيرة يومين وصلت يوم الأربعاء ١٣ يونيه إلى منوف، فأبلغ خمسة من ضباطها مأمور المركز أنهم يرغبون الصيد فى بلدة (دنشواى)، وهى بلدة صغيرة تابعة لنقطة بوليس الشهداء بمركز شبين الكوم، ومشهورة بكثرة حمامها، وهؤلاء الضباط هم: الميجر بين كوفن قومندان الكتيبة، والكبتن بول، والملازمان بورثر وسميث ويك، والطبيب البيطرى بوستك، فطلب المأمور من عبدالمجيد بك سلطان أحد أعيان بلدة (الواط) أن يعد لهم مركبات عند السكة الزراعية الموصلة لبلدة (دنشواى) ففعل، فلما وصلوا إلى (كمشوش)، وقفوا هنيهة وعسكروا بها مع بقية الجند، ثم ركب الخمسة الضباط المركبات التى أعدها عبدالمجيد بك سلطان مبتدئين من معدية الباجورية مارين على الناحية سرسنا، ومنها إلى (دنشواى) وكان

يرافقهم أومباشى من بوليس نقطة الشهداء وترجمان مصرى، وذهب الأومباشى إلى العمدة ليبلغه خبر قدوم الضباط لكي يتخذ التحركات التى تكفل عدم احتكاكهم بالأهلين، ولكنه ألقى العمدة غائباً، ولم ينتظر الضباط حضوره، ولا رجوع الأومباشى، وانقسموا فريقين، فريق وقف على السكة الزراعية لصيد الحمام من خلال الأشجار الملتفة هناك، وهؤلاء لم يصبهم أحد بسوء، والفريق الآخر جاس خلال أجران القمح فى دنشواى ليصطادوا ما بها من الحمام، فاتفق أن حمامتين كانتا واقفتين على جرن مملوك



خريطة مديرية المنوفية - وفيها موقع دنشواى الخالدة

لمحمد عبدالنبي مؤذن القرية، وكان يشتغل به أخوه شحاته عبد النبی، فجاء أحد الضباط الانجليز وصوب بندقيته على الحمام، فصاح به شيخ طاعن فى السن يبلغ الخامسة

والسبعين من العمر اسمه حسن على محفوظ (وهو أول من حكمت عليهم المحكمة المخصصة بالإعدام) طالباً منه أن يكفّ عن إطلاق البندقية، وإلا احترق الجرن، وكذلك صاح به شحاته عبدالنبي، فلم يعبأ الضابط، وأطلق العيار، قاصداً إصابة الحمام، فأخطأ المرمى، وأصاب امرأة تدعى أم محمد زوجة محمد عبدالنبي المؤذن، كما أصاب الجرن شحاتة فسقطت المرأة جريحة تتخبط في دمها، واشتعلت النار في الجرن، فأخذ يصيح ويستغيث، وهجم على الضابط وتجادب وإياه بندقيته، وأقبل الرجال والنسوة والأطفال هائجين صائحين: «الخواجه قتل المرأة! وحرقت الجرن! الخواجة قتل المرأة وحرقت الجرن!» وأحاطوا بالضباط، وجاء بقية الضباط الانجليز لإنقاذ زميلهم، فتكاثر جمع الأهليين، ووصل في الوقت نفسه شيخ الخفر ومعه الخفراء لتفريق الجموع، وإنقاذ الضابط، فتوهم هؤلاء أنهم جاءوا يريدون بهم شراً، فأطلقوا عليهم العيارات النارية، فأصاب واحد منها شيخ الخفر في فخذه فسقط على الأرض وأصاب عيار آخر اثنين أحدهما من الخفراء، فصاح الجميع: «شيخ الخفر قتل! شيخ الخفر قتل!»، وحملوا على الضابط بالطوب والعصى الغليظة وأثخنوا من لحقوا بهم ضرباً، فأصيب الماجور بين كوفين قومندان الكتيبة بكسر في ذراعه، وجرح الملازمان سميث ويك وبورثر جروحاً خفيفة، وأحاط بهم الخفراء مع زميل رابع لهم وأخذوا منهم أسلحتهم وحجزوهم حتى جاء ملاحظ بوليس النقطة وأوصلهم إلى المعسكر.

أما الكبتن بول والطبيب البيطرى الانجليزى فتركا مكان الواقعة، وكان الأول منها قد أصيب إصابة شديدة في رأسه، وأخذوا يعدوان حتى قطعاً نحو ثمانية كيلو مترات في حرارة القيظ، إذ كانت الواقعة في صميم الصيف، فلم يكد الكبتن بول يصل إلى باب سوق (سرسنا) حتى سقط من الإعياء، ومات بعد ذلك متأثراً من ضربة الشمس، ولما سقط تركه زميله الطبيب البيطرى وأخذ يعدو حتى وصل معسكر الكتيبة بناحية كمشوش على ضفة التربة الباجورية.

وما كاد نبأ الحادثة يصل إلى بقية جنود الكتيبة الانجليزية في كمشوش حتى سارع الجنود الراكبة إلى مكان الواقعة، ولم يكادوا يقطعون بضعة كيلو مترات حتى بلغوا (سرسنا)، وظنوا أنها دنشواى، وهناك وجدوا ضابطهم ملقى على الثرى، ورأوا فلاحاً مصرياً هو (سيد أحمد سعيد) يقدن إليه قدحا من الماء، فظنوه من الضاربين، فأنحوا عليه

ببنادقهم طعنًا ووخزًا حتى هشموا رأسه، ومات بين أيديهم، وذهب دمه هدرًا، ولم يحاكم أحد من قتلته، وقد عرف هذا القتل بشهيد سرسنا.

وصل نبأ هذه الحادثة يوم وقوعها إلى ولاية الأمور في المنوفية والقاهرة، وما أن علم بها رجال الاحتلال وعرفوا أن الكبتن (بول) قد مات عقب الحادثة، وأصيب الضباط الآخرون؛ حتى تولاهم الغضب، وعولوا على الانتقام من أهل القرية التي وقعت فيها الحادثة انتقاماً ذريعاً شنيعاً.

المحاكمة

ثارت ثائرة الاحتلال من وقوع الحادثة، على أنها في الواقع راجعة أولاً إلى اقتحام الضباط البريطانيين بدون حق غيطان الأهالي وأجرائهم لاصطياد الحمام المملوك لهم وذهب المستر متشل مستشار وزارة الداخلية إلى مكان الحادثة يوم وقوعها، وجرى التحقيق فيها بمنتهى السرعة، وأخذ ولاية الأمور يقبضون على الأهلين جزافاً، ونشرت صحيفة (المقطم) الموالية للاحتلال يوم ١٨ يونيه قبل أن ينتهى التحقيق أن الأوامر صدرت بإعداد المشائق وإرسالها إلى مكان الواقعة، فدهش الجمهور لهذا النبأ، وتوقع أن أحكاماً صارمة بالإعدام ستصدرها المحكمة المختصة، وأن المحاكمة إنما هي مهزلة صورية لا ظل فيها للعدل، ولا حرمة للقانون.

وكان الأمر العالى الصادر في ٢٥ فبراير سنة ١٨٩٥ بتأليف المحكمة المختصة التي تحكم فيما يقع من الأهالي من الجنايات والجنح على عساكر أو ضباط جيش الاحتلال لا يزال قائماً (راجع ص ٥٨)، ففي ٢٠ يونيه سنة ١٩٠٦ أى قبل انقضاء سبعة أيام على وقوع الحادثة، أصدر بطرس باشا غالى وزير الحقانية بالنيابة قراراً بتشكيل المحكمة المختصة لمحاكمة المتهمين فيها برياسة بطرس باشا غالى ذاته، وعضوية كل من المستر هيتز نائب المستشار القضائى، والمستر بوند وكيل محكمة الاستئناف الأهلية، والقائمقام لادلو القائم بأعمال المحاماة والقضاء بجيش الاحتلال، وأحمد فتحى بك زغلول (باشا) رئيس محكمة مصر الابتدائية، وأن يكون انعقادها في شبين الكوم يوم الأحد ٢٤ يونيه، وعين عثمان بك مرتضى رئيس أقلام وزارة الحقانية سكرتيراً للمحكمة، وبلغ عدد من

قدمتهم الإدارة لمحاكمتهم في هذه الحادثة اثنين وخمسين متهماً، قدموا جميعاً مقبوضاً عليهم، وسبعة من الغائبين.

وقد انعقدت المحكمة المخصصة بهيئتها السالف ذكرها يوم الأحد ٢٤ يونيو بسراى المديرية بشبين الكوم الساعة العاشرة صباحاً، وكان يحيط بها جو من الرهبة يلاً النفوس فزعاً، والقلوب جزعاً، والجنود الإنجليزية والمصرية ترابط حولها وعلى مقربة منها، وأخذت في سماع أقوال الشهود، وقد ثبت من شهادة الدكتور نولن الطبيب الشرعى أمام المحكمة، وكان إنجليزياً، أن وفاة الكبتن بول راجعة مباشرة إلى ضربة الشمس، وأنه لو لم يصب بها لما حدثت الوفاة من إصابة الرأس التى أصابته في الحادثة.

وكان تحامل المحكمة على المتهمين بادياً أثناء سماع الشهود، حتى أنه حين كان أحد الشهود واسمه عبد العال صقر يروى الحادثة بما يدل على تحذيره الضباط الإنجليز من الصيد داخل القرية، قال له المستر بوند: «ألا تعرف أن هذه المحكمة تعاقب الشهود الزور؟» قال (نعم)، فقال المستر بوند: «أنا أعرف المصريين أمثالك كيف تكون شهادتهم» واستمرت المحكمة في سماع الشهود والدفاع ثلاثة أيام حتى يوم ٢٦ يونيو.

الحكم

وانعقدت المحكمة في صباح اليوم الرابع (الأربعاء ٢٧ يونيو) وتلا سكرتير الجلسة الحكم، وهو يقضى على كل من:

أولاً: حسن على محفوظ، ويوسف حسن سليم، والسيد عيسى سالم، ومحمد درويش زهران، بالإعدام شنقاً في قرية دنشواى.

ثانياً: محمد عبد النبى مؤذن القرية. وأحمد عبد العال محفوظ، بالأشغال الشاقة المؤبدة.

ثالثاً: أحمد محمد السيسى بالأشغال الشاقة خمس عشرة سنة.

رابعاً: محمد على أبو سمك. وعبد البقى. وعلى على شعلان. ومحمد مصطفى محفوظ. ورسلان السيد على. والعيسوى محمد محفوظ. بالأشغال الشاقة سبع سنين.

خامساً: حسن اسماعيل السيسى. وابراهيم حسنين السيسى. ومحمد الغباشى السيد على. بالحبس مع التشغيل سنة واحدة. ويجلد كل واحد منهم خمسين جلدة، وأن ينفذ الجلد أولاً بقرية دنشواى.

سادساً: السيد العوفى. وعزب عمر محفوظ. والسيد سليمان خير الله. وعبد الهادى حسن شاهين. ومحمد أحمد السيسى. يجلد كل واحد خمسين جلدة بقرية دنشواى، مع تكليف مدير النوفية بتنفيذ الحكم فوراً.

فيكون مجموع من حكم عليهم واحداً وعشرين متهماً، حكم بالإعدام على أربعة منهم، وبالأشغال الشاقة المؤبدة على اثنين، وبها لمدة خمس عشرة سنة على واحد وبالسجن سبع سنوات على ستة، وبالحبس مع التشغيل مدة سنة مع الجلد خمسين جلدة على ثلاثة، وبالجلد خمسين جلدة على خمسة.

كيف قبول الحكم

قوبل هذا الحكم بالدهشة لصرامته، ولأنه فاق كل ما كان يتوقعه المتشائمون وخلا من كل إنصاف وعدل، إذ كانت الحادثة راجعة أصلاً إلى عدوان الضباط البريطانيين، ولم يقع اعتداء من الأهليين إلا بعد أن أصيبت إحدى نسائهم وحرقت جرن لهم، ولم يمت من الضباط الإنجليز سوى ضابط واحد ثبت من تقرير الطبيب الشرعى الإنجليزى أن السبب المباشر لوفاة هو ضربة الشمس التى أصابته من شدة الحر، وقد دل هذا الحكم على أن العدل الإنجليزى لا يؤمن جانبه إذا كانت الخصومة تمس صالحاً إنجليزاً.

تنفيذ الحكم

(٢٨ يونيه سنة ١٩٠٦)

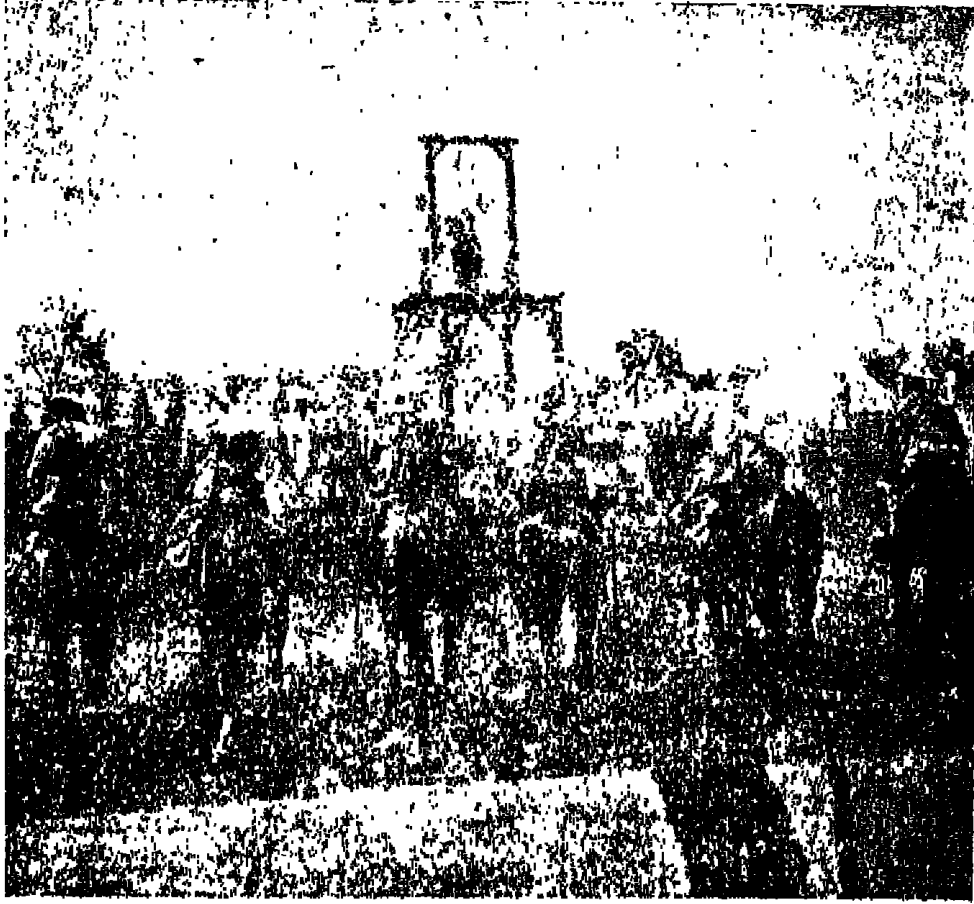
كان تنفيذ الحكم بطريقة وحشية زادت فظاعة المحاكمة، وفاقته كل ما يتصوره العقل، من وسائل الانتقام والتعذيب، وكان التنفيذ فى اليوم التالى لصدور الحكم فى المكان الذى مات فيه الكابتن بول، وفى مثل الساعة التى وقعت فيها الحادثة، وفى الساعة

الرابعة بعد منتصف الليل سيق المحكوم عليهم بالإعدام والمحكوم عليهم بالجلد إلى نقطة الشهداء، على مسافة نحو عشرين كيلومتراً من شبين الكوم وأربعة كيلومترات من قرية دنشواى، وأنزلوا بها بحراسة الجنود البريطانية والمصرية، حتى إذا اقتربت الساعة الأولى بعد الظهر جىء بهم إلى دنشواى، وهناك نصبت المشنقة وآلة الجلد، ونفذ الحكم بقسوة وفظاعة، فبدأ التنفيذ فى منتصف الساعة الثانية بعد الظهر، ونفذ الحكم فى المشنوق الأول علناً، على مرأى ومسمع من أهله وذويه، وبين صياح النساء ونواحيهن، وبقي معلقاً بيننا نفذ حكم الجلد فى اثنين، ثم شنق الثانى الطريقة، يليه جلد اثنين آخرين، وهكذا تمت المجزرة فى منتصف الساعة الثانية مساءً، قال المرحوم الأستاذ أحمد حلمى المحرر وقتئذ باللواء فى ختام وصفه لمأساة التنفيذ:

«كاد دمي يجمد فى عروقى بعد تلك المناظر الفظيعة، فلم أستطع الوقوف بعد الذى شاهدته، فقفلت راجعاً وركبت عربتى، وبينما كان السائق يلهب خيولها بسوطه كنت أسمع صياح ذلك الرجل يلهب الجلاد جسمه بسوطه، هذا ورجائى من القراء أن يقبلوا معذرتى فى عدم وصف ما فى البلدة من مآتم عامة. وكآبة مادة رواقها على كل بيت، وحزن باسط ذراعيه حول الأهالى، حتى أن أجران أغلاهم كان يدوسها الذين حضروا لمشاهدة هذه المجزرة البشرية، وتأكل فيها الأنعام والدواب بلا معارض ولا ممانع، كأن لا أصحاب لها ومعذرتى واضحة، لأنى لم أتمالك نفسى وشعورى أمام البلاء الواقع الذى ليس له من دافع إلا بهذا المقدار من الوصف والإيضاح».

* * *

ولقد كنتُ حينما وقعت الحادثة طالباً بالسنة الثانية من مدرسة الحقوق، وكنتُ أطلع نبأها فى اللواء، فأدهس لمخالفة منهج التحقيق والمحاكمة فيها لما كنا نتلقاه من أصول المحاكمات الجنائية التى تقضى بها القوانين، وتساءلتُ ما فائدة ما نتلقاه من الدروس والقواعد القانونية إذا كانت لا تطبق على الناس كافة، ولما تلوتُ وصف التنفيذ فى اللواء بقلم أحمد أفندى حلمى اقشعر بدنى من هول ما قرأتُ، وأدركتُ مبلغ هوان المصرى فى نظر الاحتلال، وتحققت أن لا كرامة لأمة ولا لآى فرد من أبنائها بغير الاستقلال.



ساحة الإعدام في دنشواى - ٢٨ يونيو سنة ١٩٠٦
إعدام أول المشتوقين الأربعة
وترى عساكر الدراجون الإنجليز يحيطون بساحة الإعدام

مصطفى كامل وحادثة دنشواى

كان الفقيد في أوروبا حين صدر حكم المحكمة المخصوصة في قضية دنشواى وقد بلغته أنباء المحاكمة والتنفيذ وهو في باريس، وكانت النفوس في مصر واجمة يحز فيها الألم وهي ساكتة، كانت تتألم، ولكن ألم اليأس المستضعف، أمام جبروت الاحتلال وبطشه. وصف المرحوم (قاسم أمين) هذه الحالة النفسية يوم تنفيذ حكم دنشواى بقوله: «رأيت عند كل شخص تقابلت معه قلباً مجروحاً وزوراً مخنوقاً، ودهشة عصبية هادية في



المشنوق الرابع في دنشواى وهو يصعد إلى المشنقة (٢٨ يونيه سنة ١٩٠٦)

الأيدى وفى الأصوات، كان الحزن على جميع الوجوه، حزن ساكن مستسلم للقوة، مختلط بشيء من الدهشة والذهول، ترى الناس يتكلمون بصوت خافت، وعبارات متقطعة، وهيئة بائسة، منظرهم يشبه منظر قوم مجتمعين فى دار ميت، كأنما كانت أرواح المشنوقين تطوف فى كل مكان من المدينة، ولكن هذا الاتحاد فى الشعور بقى مكتوماً فى النفوس لم يجد سبيلاً يخرج منه فلم يبرز بروزاً واضحاً حتى يراه كل إنسان».

فهذا اليأس، وهذا السكوت، وهذا الاستسلام والوجوم الذى استولى على النفوس بعد حادثة دنشواى، وهذا الشعور الذى بقى مكتوماً، على حد تعبير قاسم أمين، لم يكن لينهض بالامة، ولا ليوقظ فيها روح الكرامة والإباء، بل كان من شأنه لو دام أن يزيد بها يأساً وهواناً واستسلاماً، ولكن عبقرية مصطفى كامل هى التى أبدلت من هذا اليأس قوة، ومن هذا السكون حياة وثورة.

لقد كان لابد من صوت عال يهز قلب الإنسانية، ويشهد العالم على تلك الفظائع ويستثير الرأى العام فى مصر وأوروبا ضد الاحتلال عامة، وكان ذلك هو صوت الفقيد، ورغم أنه ذهب إلى أوروبا للاستشفاء ونصح له الأطباء أن يلزم الراحة والهدوء، فإنه لم يكد تصله أنباء المحاكمة حتى ثارت نفسه وتحرك قلبه الكبير إلى العمل والجهاد، ونهض بكل قوته لكى يسمع العالم صوت مصر، ويعلن حرباً شعواء على الاحتلال وسياسته،

فكتب في جريدة (الفيجارو) الفرنسية الشهيرة^(١) مقالة كبرى نشرت في الجريدة بعنوان (إلى الأمة الإنجليزية والعالم المتمدن)، عرض فيها حادثة دنشواى على الضمير الإنسانى فى العالم، فكانت من أقوى وأبلغ ما كتب الفقيد بلسان مصر، وقد استطرد فيها إلى جهاد المصريين فى سبيل الاستقلال وأبان أن حادثة دنشواى قد قضت على مزاعم اللورد كرومر فيما كان يذيعه من أن الفلاحين المصريين محبوبون للاحتلال الإنجليزي، وأسمع العالم صوت مصر، إذ قال فيها:

«إن مقصدنا الذى نرمى إليه هو استقلال وطننا، ومحال أن يوجد شيء ينسينا ذلك المقصد».

ولما كانت هذه المقالة هى فى ذاتها من أهم حوادث الحركة الوطنية، وكان من نتائجها إقالة اللورد كرومر من منصبه، فإننا ننشر ترجمتها هنا كاملة، قال رحمه الله:

إلى الأمة الإنجليزية والعالم المتمدن

«لقد حدثت حادثة مؤلمة فى قرية من قرى الدلتا بمصر تدعى «دنشواى» تحركت بسببها عواطف الإنسانية فى العالم كله، وقام رجال أحرار الفكر مستقلاً الأخلاق والأطوار فى انجلترا رافعين أصواتهم سائلين عما إذا كان يوافق كرامة الدولة البريطانية وشرفها ومصلحتها أن تسمح بأن يرتكب باسمها أمر ظالم قاس؟

« وإنه لمن الواجب على الذين يشغفون بحقيقة بالإنسانية والعدل، أن يدرسوا هذه المسألة ويصدروا فيها حكمهم العادل، وهى المسألة الشاغلة لأمة بأسرها»

«فقد ترك ضباط من الإنجليز فى يوم ١٣ يونيه الماضى معسكرهم بالقرب من دنشواى بمديرية المنوفية، وقصدوا صيد الحمام فى الأملاك الخصوصية للأهالى، فأندر شيخ فلاح المترجم المرافق لهم بأن الأهالى قد استاءوا فى العام الماضى من صيد الضباط الإنجليز لحمامهم، وأنهم ربما زادروا من غضبهم وسخطهم لو عادوا إلى الصيد فى هذا اليوم»

«ورغماً من هذا الإنذار فإن الضباط أخذوا يصطادون، وأطلقت العيارات النارية، وجرحت امرأة، وحرق جرن، فاجتمع الفلاحون من كل مكان، ووقعت مشاجرة بينهم وبين الإنجليز جرح هؤلاء فيها ثلاثة من المصريين وجرح المصريون ثلاثة من الضباط الإنجليز، وقد تخلص أحد المجروحين، وهو الكابتن «بول» من المعركة، وقطع بكل سرعة مسافة خمسة كيلومترات، حيث كانت حرارة الشمس بالغة ٤٢ درجة، وسقط بعد ذلك ميتاً بضربة الشمس وما علم العساكر الإنجليز بما وقع لضباطهم حتى هجموا على قرية سرسنا المجاورة لدنشواي، وقتلوا فلاحاً بدق رأسه!»

«هذه هي الوقائع، وما علمها أصحاب الأمر من الإنجليز حتى فقدوا الرشد، وثاروا من قيام المصريين بالمدافعة عن أنفسهم وعن أملاكهم! وبدلاً من أن ينظروا إلى الحادثة بسكون جأش ككل المشاجرات والمعارك، بالغوا فيها وجسموها، وأعلنت الصحف المخلصة للاحتلال قبل المحاكمة بأن العقوبات والعبرة التي ستضرب للناس ستكون هائلة! فلم يكن العدل هو المنشود في المسألة، بل الانتقام الفظيع!

«ونشرت نظارة الداخلية بأمر المستر متشل المستشار الإنجليزي، قبل المحاكمة بأسبوع بلاغاً رسمياً أثقلت فيه كواهل المتهمين بالتهم، وقصدت صراحة التأثير في المحكمة والرأي العام! وبلغ من احتقار إحدى الصحف القائمة بخدمة الاحتلال للعدالة أنها نشرت خبر إرسال المشائق إلى دنشواي قبل المحاكمة، وقد راع الشعب كل ذلك، فأخذ يتساءل عن الحكم الذي ينتظر صدوره بعد مظاهرة كهذه المظاهرة.

«وقد اجتمعت المحكمة في يوم ٢٤ يونيه، وأى محكمة؟ محكمة استثنائية لا دستور يقيدتها ولا قانون يربطها! لقضاتها أن يحكموا بكل العقوبات التي تخطر على البال! محكمة أغلبيتها للإنجليز، ولا تستأنف أحكامها، ولا تقبل العفو! وأن المرسوم الذي صدر بتشكيلها في عام ١٨٩٥ - بناءً على ضغط اللورد كرومر - ذلك الضغط الذي لا يسمح للحكومة الخديوية مطلقاً بإظهار أى مقاومة - يحمل قارئه على الظن بأن الجيش الإنجليزي الذي أُلقت إليه إنجلترا أمر تأييد الأمن في مصر، في خطر مستمر، جعله في حاجة إلى محكمة كهذه المحكمة أو لآلة إرهاب».

«قضت هذه المحكمة ثلاثة أيام في نظر القضية، وتبين أن الضباط الإنجليز هم الذي

هاجموا الفلاحين بصيدهم في ممتلكاتهم، ويجرحهم إحدى نساءهم. وأن الفلاحين هجموا على الإنجليز بوصف أنهم صيادون يختلسون الصيد، لا ضباط بريطانيون! واعترف أمام المحكمة أطباء انجليز بينهم الدكتور نولن الطبيب الشرعى للمحاكم بأن الكابتن «بول» مات بضربة الشمس، وأن جراحه لم تكن كافية وحدها لإحداث الوفاة!

«ولم تترك المحكمة إلا ثلاثين دقيقة لأكثر من خمسين متهاً ليقولوا ما عندهم، وأبت سماع أقوال أحد رجال البوليس، حيث أكد أن الضباط الإنجليز أطلقوا العيارات النارية على الأهالى، وبنت حكمها على تأكيدات الضباط الذين كانوا السبب في المعركة، والذين يعتبرهم العدل في كل بلد خصوماً للمتهمين!

«وفي يوم ٢٧ يونيه صدر الحكم بشنق أربعة من المصريين، وبالأشغال الشاقة المؤبدة على اثنين، وبالأشغال الشاقة لمدة خمس عشرة عام على واحد، وبها لمدة سبع سنوات على ستة، وبالحبس مدة عام مع الجلد على ثلاثة، وبالجلد على خمسة، وقد جلد كل واحد من هؤلاء خمسين جلدة بكرجاج له خمسة ذيول!!

«وقررت المحكمة في حكمها تنفيذ الحكم في اليوم التالى! بحيث لم يمض إلا خمسة عشر يوماً بين الواقعة وتنفيذ الحكم.

«ففى الساعة الرابعة بعد نصف الليل من يوم الأربعاء ٢٧ يونيه جىء بالأربعة المحكوم عليهم بالشنق، والثمانية المحكوم عليهم بالجلد (عفت المحكمة عن واحد من المحكوم عليهم بالجلد لأن الطبيب قرر ضعف بنيته وعدم استطاعته تحمله) من شبين مقر مديرية المنوفية إلى قرية (الشهداء) التى تبعد أربعة كيلو مترات عن دنشواى، ولبنوا هناك تسع ساعات ينتظرون الانتقام المروع! وفى الساعة الأولى بعد ظهر يوم الخميس ٢٧ يونيه جىء بهم إلى دنشواى، وكان أصحاب الأمر من الإنجليز قد أصروا على تنفيذ الحكم فى محل الواقعة وفى الساعة التى وقعت فيها!

«نُصبت المشانق، ووضعت آلات الجلد والتعذيب فى وسط دائرة مساحتها ٢١٠٠ متر، وأحاطت عساكر «الدراجون» الإنجليزية بالمحكوم عليهم، والتفت الخيالة المصرية حول الإنجليز، وتولى المستر متشل مستشار الداخلية ومعه مدير المنوفية أمر التنفيذ! وقد تقدم إليهما ابن أول المحكوم عليهم بالشنق سائلاً مقابلة والده ليتلقى وصاياه الأخيرة، فرفضاً

ول هذا الرجاء الذى هو أعز ما يرجوه الإنسان ويحتمه الشرع والعدل!

«وفى منتصف الساعة الثانية امتطت الجنود الانجليزية خيولها وشهرت سيوفها
بدىء بعد ذلك بدقيقة فى الشنق!

«فشنق رجل، ولبت أفراد عائلته وأقاربه وكل أهالى القرية وهم عن بعد يملأون
لفضاء بصراخهم المعزق للقلوب، وجلد اثنان أمام الجثة!

«وتكرر هذا المتظر ثلاث مرات، واستمر ساعة من الزمن! منظر وحشى مهيج
لمعواطف، بكى منه بعض الحاضرين الأوروبيين بدموع الحنان، وأبدوا النفور الشديد مما
أوا وذهب كل واحد يكرر كلمة أحد المشوقين:

«لعنة الله على الظالمين! لعنة الله على الظالمين!

«إن يوم ٢٨ يونيه من عام ١٩٠٦، سيبقى ذكره فى التاريخ شؤماً ونحساً! وهو خليق
بأن يذكر فى عداد أيام التناهى فى الهمجية والوحشية!

«عمت مصر كلها عواطف الانفعال والسخط عندما استفاضت أنباء تنفيذ الحكم فى
دنشواى، ولقد كان من المستحيل على أعداء انجلترا أن يصلوا إلى النتيجة الحالية بعد
جهاد خمسين عاماً! ولكن من العجيب أن يكون الموجودون لها هم رجال من الانجليز!
وقد أنشأ الشعراء المصريون عن حكم دنشواى أشعاراً تخلد ذكرى المناظر الوحشية التى
أهينت فيها المدينة والانسانية والعدل بأقسى الصور المهيجة للضماير والنفوس!

«وإنى جئت اليوم أسأل الأمة الانجليزية نفسها والعالم المتمدن، إذا كان يصح
التسامح فى إغفال مبادئ العدل وشرائع الإنسانية إلى هذا الحد؟

«جئت أسأل الإنجليز الغيورين على سمعة بلادهم وكرامتها أن يقولوا لنا إذا كانوا
يرون بسط النفوذ الأدبى والمادى لا نجلترا على مصر بالظلم والعسف وصنوف الهمجية؟

«جئت أسأل الذين يجاهرون فى كل آن ذاكرين الإنسانية، مالمين الدنيا بعبارات
الانفعال والسخط إذا حدثت فظائع فى بلاد أخرى دون فظيعة دنشواى ألف مرة أن
يثبتوا صدقهم وإخلاصهم بالاحتجاج بكل قوة وشدة على عمل فظيع يكفى وحده لأن
يسقط إلى الأبد تلك المدنية الأوروبية فى أعين العالم كافة!

«جئت أسأل الأمة الإنجليزية إذا كان يليق بها أن تترك الممثلين لها في مصر يلجأون بعد احتلال دام أربعة وعشرين عاما إلى قوانين استثنائية ووسائل هجية بل وأكثر من هجية، ليحكموا مصر ويعلموا المصريين ماهية كرامة الإنسان؟

«إني معجب بكل إخلاص وشكر واعتراف بالجميل بالنواب والكتاب الإنجليز الذين نادوا بأعلى صوت معلنين مزيد غضبهم من هذه الرواية المحزنة الشنيعة التي مثلت في مصر! ولكن لما رأى السير إدوارد جراي^(٢) أن الرأي العام انقاد لهم وأنه قضى على سياسة اللورد كرومر، وقف في مجلس العموم وتكلم عن التعصب الإسلامي المزعوم في مصر، وسأل النواب بكل رجاء وإلحاح ألا يشتغلوا بمسائل مصر، حتى لا يضعفوا سلطة الحكومة المصرية، أو بعبارة أخرى سلطة اللورد كرومر الحاكم المطلق في مصر، أمام خطر أصرح أنا علناً بأنه موهوم!!

«إن هذا الخطر الموهوم ليس في أيدي أصحاب الأمر من الإنجليز إلا وسيلة لتسويق هذه الفظيعة المستنكرة، وفظائع أخرى تقع في المستقبل!!

«إنه لا وجود لهذا الخطر وما الغرض من هذه الفظائع إلا إحداثه!

«وإني أؤكد بحق أقدم شيء في الدنيا أنه لا وجود للتعصب الديني في مصر، نعم إن الإسلام سائد فيها لأنه دين الأغلبية العظمى، ولكن الإسلام شيء والتعصب شيء آخر، لقد انخدع السير إدوارد جراي في هذه المسألة! وإني أرجوه أن يفكر لحظة فيما يأتي: هل لو كان في مصر تعصب حقيقة أكانت تستطيع أنجلترا أن تحاكم ٥٢ مسلماً أمام محكمة استثنائية مؤلفة من أربعة قضاة مسيحيين وواحد مسلم؟

«هل تنفيذ الحكم في دنشواي بتلك الصورة الهمجية لم يكن كافياً وحده لإشعال نار التعصب المدمرة الصاعقة لو كان له وجود؟

«ألم تكن كل هذه التحريضات كافية لإخراج الشعب المصري عن أطواره وانفجار ذلك التعصب المزعوم لو كان هناك تعصب حقيقة؟

«ولماذا لم يثر ذلك التعصب الذي تكلم عنه السير إدوارد جراي معارك كمعركة

(٢) وزير خارجية إنجلترا وقتئذ.

دنشواى أثناء مسألة طابة، حيث كانت الأغلبية الكبرى من المصريين فى جانب تركيا، مع أن الجنود الإنجليزىة كانت تمر دائما فى كل جهة بكل أمان واطمئنان؟

«لقد أثبتت المرافعات فى قضية دنشواى بكل إفاضة وبيان أنه لا دخل للإسلام فيها، وأن الضباط الإنجليز وجدوا عند بعض الفلاحين المسلمين مساعدة وتعزيدا!

«إنه يحق للمصريين أن يطلبوا تحقيقاً دقيقاً كاملاً فى المسألة، وإن مصر على بعد يومين من أوروبا، فليأت إليها الإنجليز المحبون للعدل الراغبون فى عدم ثلم الشرف البريطانى، وليذهبوا إلى المدائن والقرى وليروا بأعينهم كيف يعيش المسيحيون من كل جنس مع الفلاحين والمصريين كافة، وليقتنعوا بأنفسهم بأن الشعب المصرى ليس متعصيا أبداً ولكنه شعب كريم أبى، ينشد العدل والمساواة، ويطلب أن يعامل كشعب حر لا كقطيع من الأغنام وأنه يعمل بكل عزيز لديه لتحقيق هذا المطلب الأسمى، مطلب الحرية والاستقلال!

«أجل، إن الشعب المصرى شاعر الآن بكرامته، وذلك أمر لا يمكن إنكاره بأى حال، إنه يطلب معاملة أبنائه أسوة بالأجانب، وهو طلب عدل وغير مبالغ فيه أبداً!

«لقد تكلم السير إدوارد جراى فى موضوع حماية الأوروبيين ضد المصريين! ولك هل له أن يبين لنا الخطر المهدد للأوروبيين القاطنين مصر؟ ألا يعيشون فى أتم صفاء مع المصريين؟ ألا تحميهم الامتيازات الأجنبية؟ ولكن من يحمى المصريين؟ ألا نرى فى بعض الأحيان مجرمين من الأجانب - يحتج النزلاء جميعا على جرائمهم - يعتدون على المصريين ويقتلونهم ثم يفلتون من عقاب المحاكم المصرية؟ وأى عقاب ستعاقب به الجنود الإنجليزىة التى قتلت الفلاح على مقربة من دنشواى وكذلك الضباط الذين جرحوا امرأة وثلاثة رجال؟

«إن اللورد كرومر دافع عن نفسه فى تقريره الأخير ضد الذين يطعنون على السلطة المطلقة التى يتصرف بها فى أمور مصر قائلا: إن البرلمان والرأى العام فى انجلترا يراقبان أعماله كما أن الصحافة المصرية تراقبها أيضا.

«ولكنها مراقبة باطلة لأنه ما كاد البرلمان البريطانى يعترض ويحتج على أعمال وحشية كهذه، حتى قال اللورد كرومر للسير إدوارد جراى بأن التعصب مخيف على

شواطئ نهر النيل، وأنه يجب على البرلمان ملازمة الصمت! وبذلك لا يوجد مانع يمنع اللورد كرومر من حكم مصر بأشد القوانين مخالفة للعدل والإنصاف!!

«لذلك يقضى شرف الأمة الإنجليزية عليها بأن توازن بين الأقوال الرسمية وأقوالنا، وتقوم بإجراء تحقيق دقيق ودراسة القضية المطروحة أمامها الآن بكل استقلال!

«لقد قضى اللورد كرومر الأعوام الطوال وهو يؤكد بأن الأمراء والكبراء في مصر هم وحدهم المبعوضون للاحتلال، لأنه سلبهم سلطتهم، أما الفلاحون فانهم يحبونه حبا جما ويدعون بدوام العصر الحاضر!!

«وبناء على ذلك فإنه لم يكن اعتداء فلاحى دنشواى على الضباط الإنجليز إلا لأنهم رأوا إحدى نسايتهم مجروحة، فالحكم والتنفيذ يكونان قد بلغا أقصى درجات البشاعة، وبحق العالم كله أن يقابلها بمزيد السخط! وإذا كان الأمر على العكس وأتى الفلاحون ذلك طوعا لعاطفة حقد دينى أو وطنى فيتحتتم على اللورد كرومر أن يعترف بأنهم يمقتون الاحتلال وأن إدارته أدت إلى إخفاق ليس له مثيل ويحق عندئذ للمستتر «ديلون» أن يقول مؤكداً: «إن خطبة السير إدوارد جراى هى أتعس شرح لمركز إنجلترا وسياستها فى مصر .

«على أن الذين يقطنون مصر كافة ويحبون الصدق والحقيقة، يعترفون بأن حادثة دنشواى لم تكن مطلقا نتيجة حركة عدائية ضد الأوروبيين، وأن المصريين هم أكثر أُمم الأرض اعتدالا وتسامحا!

«إن الخطة الوطنية التى يجرى عليها أصحاب النفوذ والتأثير فى رأى العام المصرى واضحة جلية، فنحن نريد بفضل التعليم ونور التقدم إنهاء شعبنا وتعريفه حقوقه وواجباته، وإرشاده إلى المقام اللائق به فى العالم، وأننا أدركنا من أكثر من قرن أنه لا يمكن للأمم أن تعيش عيشه كرامة إذا لم تسلك طريق المدنية الغربية وأننا أول شعب شرقى صافح أوروبا وأننا مستمرون على السير فى الطريق الذى سلكناه وإننا بالتعليم والتقدم والاعتدال والفكر الحر الراقى ننال احترام العالم وحرية مصر، ومقصدنا الذى نرمى إليه هو استقلال وطننا، ومحال أن يوجد شيء ينسينا ذلك المقصد الأسمى!

«إن عطفنا على الشعوب الإسلامية لأمر طبيعى ولا تعصب فيه، وإنه لا يوجد مسلم

مستنير واحد يظن لحظة واحدة أنه من الممكن اجتماع الشعوب الإسلامية في عصبة واحدة ضد أوروبا، والذين يقولون ذلك إما جاهلون أوراغيون في إيجاد هاوية بين العالم الأوروبي والمسلمين!

«إنه لا سبيل لنهضة الشعوب الإسلامية بغير حياة إسلامية جديدة تستمد قوتها من العلم والفكر الواسع الراقى!

«وإن لمصر مكانا خاصا بها في الشرق، فهي التي وهبت العالم قناة السويس، وفتحت السودان للمدنية، وفيها طبقة راقية الفكر، وتقدم الأمة بالأمة يمشى فيها سريعا، ومن المستحيل أن تُحكم مصر وهذا حالها كما تحكم بلاد بعيدة مختبئة في أعماق أفريقية وليس بينها وبين أوروبا اتصال! ألم ير الناس الإنجليز ينفعلون ويهيجون ضد ما يجري في جهات الكونجو وغيرها من البلاد؟ فكيف يسمحون إذن بحدوث أفظع الجرائم في مصر؟

«إنه من الواجب على أوروبا كلها أن تهتم بمصر فإن صوالحها فيها جسيمة والكثيرون من رعاياها جمعوا ثروات كبيرة فيها، وإن القوانين الاستثنائية والاعتساف لا يؤديان إلا إلى هياج الشعب المصرى وخلق عواطف عنده مخالفة بالمرة لعواطفه الحالية.

«إننا نطالب بالعدل والمساواة والحرية، نطلب دستورا ينقذنا من السلطة المطلقة، ولا شك أنه لا يمكن للعالم المتمدن وللرجال المحيين للحرية والعدل في إنجلترا إلا يكون معنا ويطلبوا مثلنا ألا تكون مصر - تلك التي وهبت للعالم أجمل وأرقى مدنية - أرضا ترح الهمجية فيها، بل بلادا تستطيع المدنية والعدالة أن يبلغا فيها من الخصوبة والنمو مبلغ خصوبة أرضها المباركة».

مصطفى كامل

دوت المقالة في أوروبا دويا عظيما، وتناقلتها الصحف في مختلف البلدان، وكان لبلاغتها وعباراتها المؤثرة، وصدورها من زعيم الحركة الوطنية، والتعليق عليها في معظم الصحف الأوروبية والبريطانية، صدى بعيد في الرأى العام الأوروبى والإنجليزى، وتزلزل من بعدها مركز اللورد كرومر في مصر وإنجلترا.

ونصحت جريدة (التريبون) الإنجليزية بوجود منح مصر حكومة مستقلة وكتبت مجلة المجلات الإنجليزية بقلم الكاتب الإنجليزي الشهير المستر ستيد مقالة ذكر الإنجليز فيها بوعودهم لمصر منذ بدء الاحتلال، وأخذت الصحف العالمية الأخرى تنشر الفصول المسهبة عن مصر والمسالة المصرية.

وكان للمقالة ولحملة الفقيد عامة صدى في البرلمان البريطاني، فانبرى بعض النواب الأحرار يلقون على اللورد كرومر تبعة الحادثة، ويستنكرون المحاكمة والتنفيذ وتغير الموقف حيال الحادثة، فقد كان السير إدوارد جراي وزير خارجية إنجلترا قد أسكت البرلمان بتصريح له يوم ٥ يولييه سنة ١٩٠٧، إذ طلب بلهجة شديدة عدو البحث في مسألة دنشواي بحجة أن التعصب الديني ضارب أطنايه في مصر وأنه لولاه لما وقع الاعتداء على الضباط الانجليز، ومرت فترة جمود بعد هذا التصريح ولكن لم يكد صوت مصطفى كامل يدوي في أوروبا استنكاراً لفظائع الاحتلال في الحادثة حتى أعلن بعض النواب الأحرار أنهم لا يقيدون أنفسهم بالسكوت في مسألة تهم الإنسانية والعدالة وتشرف إنجلترا، وقد ساعدتهم على الخروج من صمتهم أن مصطفى كامل قد نفى بحجج بليغة تهمة التعصب الديني عن المصريين.

مصطفى كامل في لندن

بعد أن نشر الفقيد مقالته عن حادثة دنشواي في جريدة الفيجارو، قصد لندن ليسنمر في نضاله، وليرفع صوت مصر في عاصمة الدولة المحتلة، فوصلها يوم ١٤ يولييه، وكان يقصد مقابلة رجال السياسة وحملة الأفلام، لتفهمهم الحقائق عن مصر ودحض المفتريات التي كان يذيعها دعاة السوء عن الأمة المصرية من رميها بالتعصب الديني وأخذها بالشدّة.

كتب في هذا الصدد تحت عنوان (أرفعوا أصواتكم)^(٣) قال: «لقد لثبت الأمة الإنجليزي عدة سنوات تعتقد فيما تنشره الصحف عنها ويقولها السياسيون لها أن الأمة المصرية فرحة بالاحتلال، حتى حدثت حادثة دنشواي واهتزت لها المملكة البريطانية كلها

(٣) اللواء عدد ٢٦ يولييه سنة ١٩٠٦.

وتساءل القوم في كل ناد «إذا الأمة المصرية غير فرحة بالاحتلال»، نعم إن الأمة المصرية نافرة من الاحتلال، ومن واجبات المصريين أن يعلنوا أسباب ذلك النفور ويقولوا بأعلى أصواتهم إن أكبرها وأهمها ضياع استقلالنا، ذلك الاستقلال الذى أخذته انجلترا وأقسمت أن ترده الينا قويا مصانا لا يستطيع أحد أن يمسه بسوء، ليقبل المصريون للأمة الإنجليزية إنه إذا كان ساستها قد نسوا أو تناسوا عهودهم ووعودهم فاننا معشر المصريين لم ننسها، ليقولوا بحرية وصراحة واستقلال كل ما يعتقدون وما به يشعرون، حتى تعلم الأمم كلها أنهم أحياء يناضلون عن حقوقهم، ولا يقبلون المذلة والعار».

وصل مصطفى كامل إلى لندن، وقابل الكثيرين من رجال السياسة وأعضاء البرلمان البريطانى والصحفيين، وحادثهم في حادثة دنشواى وحوادث مصر وسياسة انجلترا فيها، ومطالب المصريين، ونفى عنهم تهمة التعصب الدينى التى كان يروجها ضدهم، دعاة السوء، وانتهاز فرصة هذه الحادثة ليرفع صوت مصر عالياً مطالباً باستقلالها فهو لم يحصر دعايته في الحادثة بذاتها، بل وسع نطاق الجهاد واتخذها سبيلاً للمناداة بحقوق مصر واستقلالها، وترجم مقالته (إلى الأمة الإنجليزية والعالم المتمدن) إلى الإنجليزية، ووزعها على جميع الوزراء وأعضاء البرلمان ورجال الصحافة.

حديثه في جريدة الديلى كرونكل

ونشرت جريدة (الديلى كرونكل) حديثاً له في عددها الصادر يوم ٢٠ يولييه سنة ١٩٠٦ وقدمت له بمقدمة قالت فيها:

«وفد مصطفى باشا كامل رئيس الحزب الوطنى في مصر إلى لندن أخيراً بقصد عرض مقاصد وسياسة مواطينيه المحبين لبلادهم على الأمة الإنجليزية وهو شاب مصرى متعلم تعليماً أوروبياً عالياً بحيث يصعب تمييز الفرنسى المتعلم تعليماً عالياً والمتربى تربية سامية عنه، سواء في المعرفة والعلم واللغة أو الأفكار بوجه عام، وهو صاحب ومحرر جريدة عربية تصدر في القاهرة تسمى (اللواء)، وهى أهم الصحف العربية وفي مقدمة الصحف التى تعد لسان حال السواد الأعظم من المصريين الذين مبدؤهم «مصر للمصريين».

ثم نشرت الحديث، وهو يدور حول دحض تهمة التعصب الدينى التى أراد خصوم

الحركة الوطنية أن يصفوها به، وبرهن على تسامح المصريين الديني، وعرج على حادثة دنشواى وفضاعة المحاكمة والتنفيذ فيها، ثم سأله محرر الجريدة عن برنامج الحزب الوطنى، فأجاب: «بأن أول غرض يرمى إليه هو طبعاً العمل لاستقلال مصر، وقد وعدت الحكومة الإنجليزية المرة بعد المرة وعداً مقدساً سواء فى البرلمان أو فى المكاتبات الرسمية بأن ترد مصر للمصريين، وبقطع النظر عن هذه الوعود فإن المصريين عامة متحدون فى طلب الاستقلال، وهل تظنون أن أى إنجليزى يستطيع أن يتحمل ضياع حريته وفقدانها كما نتحمل نحن ذلك الآن؟ لا شك أنه لا يوجد إنجليزى يحتمل ذلك، وختم حديثه بقوله:

«إننا نطلب استقلالاً أهلياً ودستوراً حراً، ولقد نالت مصر فى عهد الخديو توفيق باشا برلماناً، وهذا البرلمان قد انحل لما دخل الإنجليز بلادنا، ولكن اللورد دفرين وعد عام ١٨٨٣ بتشكيل برلمان جديد، ولم يتم شيء من هذا الوعد إلى الآن! بل أن اللورد كرومر تمكن من جمع سلطات الحكومة كلها فى قبضة يده وأخذ يحكمنا كملك مطلق التصرف بمعناه الحقيقى، ولا ريب فى أن مطالبنا يعلمها الإنجليز الذين يحبون الحرية».

احتفال الشرقيين بالفقيد فى لندن

أعجب الشرقيون عامة بدفاع الفقيد عن قضية مصر واستقلالها وكرامتها، وأكبروا فيه البطولة والإقدام، إذ رأوه يجوب العواصم ويرفع صوت مصر جهيراً عالياً فى أوروبا وانجلترا، ورأوا فى جهاده مفخرة لكل شرقى، فلما جاء لندن أقامت جمعية الوحدة الإسلامية الهندية حفلة كبرى لتكريمه يوم ٢٤ يولييه سنة ١٩٠٦ بفندق (كربتريون)، حضرها لفيف من عظماء الشرقيين والإنجليز، نذكر منهم السيد عبد الله المأمون السهروردى رئيس الجمعية، وعبد الحق حامد بك أشهر شعراء الترك، والمستر بيلس من أعضاء مجلس العموم، والسير (بهاونجرى) من كبار الهندوكيين ونائب الهنود فى لندن، والمستر (سوينى) رئيس الجمعية الوطنية، والمستر (بانديت كرشنا فرما) رئيس جمعية استقلال الهند، والمستر (كارل بلند) الكاتب الشهير، وغيرهم، وحضرها كثير من صفوة الشبيبة المصرية والشرقية، وبلغ عدد الحاضرين نحو ٢٥٠ مدعوا من عليا القوم، فكانت من أفخم الحفلات، واستقبل فيها الفقيد بأعظم مظاهرة الحفاوة والإجلال.

ولما اكتمل الجمع وقف صاحب الدعوة السيد السهروردي، وألقى بالعربية خطبة حيا فيها صاحب الترجمة قال:

«إن أفئدتنا لم تبتهج فرحاً لزيارة أمير أو وال من ولاية الإسلام بمقدار ابتهاجنا بزيارة سعادتكم لهذه البلاد، لأنكم أمير أمراء الوطنية، وأسد غابة الحرية، وبطل المدافعين عن حقوق الإنسانية، ولقد أحسنتم في قدومكم إلى هنا بقصد إيقاف الأمة الإنجليزية على حقيقة الشئون المصرية وأغراض وآمال، مطالب المسلمين، وإني أوئل بل وأثق بإصغاء الإنجليز لنداء المسلمين وأن لا يجعلوا للتعصب الديني والتحامل سلطانا على شعورهم دون العدالة والاستقامة، وإذا فرض ولم تصلوا إلى بغيتكم هذه فإن ذلك لا يثبط من همتمكم ولا يفت في عضدكم، فإن زيارتكم لإنجلترا لا تخلو من فائدة قط، لأن صوتكم لا يصل من عاصمة هذه الدولة إلى إخوانكم في الدين في أقصى أنحاء المعمورة فقط، بل سيجد له صدى في قلوب محبي الأوطان في الممالك الأخرى الذين هم شركاؤكم في الآلام والمصائب، ودولة الوطنية أوسع من دولة الإسلام، فلتعد إلى بلادك المحبوبة ولتستمر في جهادك في سبيل الحرية، واذكر في ساعة اليأس والقنوط والضيق أنك لست منفرداً وحدك بل إن أسمى آمال القاطنين على ضفاف نهر الرين والطنونه (الدانوب) والجانب والفرات والبوسفور وقرن الذهب، تشارك ابن وادي النيل في مساعيه، وإن أعينهم لمتجهة نحو أفق مصر، منتظرة بزوغ فجر الحرية وصدور الإشارة من أرض الفراعنة الأولين، بإنقاذ أبناء إسماعيل^(٤) ودخول المصريين في الحرية التي وعدوا بها .

«ولقد تغلب لساني على جنائي، فألقيت عليكم أيها السادة باللغة العربية مع العلم بأن السكوت في حضرة ديموستين^(٥) مصر هو أفضل بلاغة وأحسن بيان».

خطبة صاحب الترجمة

فوقف صاحب الترجمة وألقى باللغة العربية كلمة شكر قال فيها:

«أيتها السيدات، أيها السادة

(٤) العرب.

(٥) أحد كبار خطباء البرلمان.

«اسمحوا لى أن أشكركم من صميم فؤادى شكراً لا يوفيه اللسان ولا يؤديه البيان على تفضلكم بالاجتماع هنا للتسليم على ومقابلة أعمالى الصغيرة بعنايتكم ورعايتكم وانعطافكم، وإنى شعرت فى كل وقت بعدم استحقاقى لشيء من ذلك كله، لأن القيام ببعض الواجب - وما أنا قائم به كله - جزء من فرض مقدس لا يشكر الإنسان عليه، ولكنكم أردتم أن تحيوا فى شخصى المصريين المحبين لبلادهم العاملين لرفعها المتشوقين لاستقلالها المغرمين بالدستور والحرية، ولذلك أستقبل مظاهرتكم السامية بجزيل الشكران، وأسألكم باسمهم أن تعتقدوا أننا لا ننسى أبد الدهر هذه العواطف التى أبدىتموها بحضوركم إلى هذا النادى، وازدحامكم إلى هذا الحد الذى لم يكن يخطر لى على بال، وإنى أشكر بنوع خاص حضرة السيد عبد الله المأمون السهروردي الذى رأيت فيه من الحمية والغيرة ما ملأ قلبى سروراً، وزاد فى قوة آمالى، وأرجوه أن يعذرني فى عدم توفيته حق الشكر على ما قاله، لأن العجز عن الشكر أبلغ شكر.

«إنى عندما حضرت إلى لندن لم أكن أحلم بحضور اجتماع كهذا، أرى فيه أم الإسلام والعرب ممثلة فى آن واحد، وأخاطب فيه الإنسانية، فى أبنائها الراقين النابغين، فترونى أعد هذه الليلة وحيدة فى العمر، جديرة بالذكر أبد الدهر».

ثم تكلم طويلاً عن الأمم الإسلامية والشرقية، ونوّه بواجب المتعلمين فى إنهاضها والأخذ بيدها فى سبيل التقدم والحرية، وعرج على نهضة مصر وأمله فى فوزها، ثم قال: «وإنى واثق بفوزها القريب العاجل، وظهورها بين أمم الأرض بأرقى مظهر، كما أنى على يقين من أن محبى الإنسانية والمدنية الصادقين فى حبها يميلون بكل جوارحهم إلى هذا الفوز ويساعدون على الوصول إليه غير ناظرين إلى الاعتبارات الصغيرة الدنيئة التى يقيمها ذو الغايات فى طريق الأمم الناهضة».

وكرر فى ختام خطبته شكره على الحفاوة البالغة التى قوبل بها، ولم يكذ يتم خطبته حتى دوت القاعة بتصفيق الإعجاب من كل جانب، ووقف السيد عبد الله السهروردي فترجم خطابه إلى الإنجليزية.

ثم وقف الدكتور بولن من كبار المستشرقين وألقى خطبة أعرب فيها عن مزيد إعجابه بخطبة صاحب الترجمة: وقال: «إنه وإن كان الكثيرون من الحاضرين لم

يستطيعوا تتبع معاني كلمات الخطيب كلمة كلمة إلا أنهم جميعاً شعروا بأنهم إنما كانوا منصتين لخطيب نادر المثال والقوة والكفاءة، وأنهم تأثروا من حسن اقتداره الواضح وشدة إخلاصه ورنات لهجة اللسان الجليل الذي كان يخطب به، لسان النبي إسماعيل».

وأفاض في ذكر محامد الإسلام وفضائل النبي محمد عليه الصلاة والسلام، ثم وقف المستر (بندت كرشنافارما) أحد علماء الهنود، وزعيم جمعية استقلال الهند ومحرر صحيفة (انديان سوسيولوجست) وأثنى على صاحب الترجمة ثناءً كبيراً، وأعقبه الماجور السيد حسين بلجرامى وألقى كلمة شكره فيها على جهاده.

وبعد أن انتهى الخطباء من خطبهم وقف المترجم وألقى باللغة الفرنسية كلمة شكر ثانية قال فيها:

«أيتها السيدات، أيها السادة

«إني أكرر لكم جزيل شكرى على هذه الرعاية البالغة والإكرام العظيم، وإني رغباً عن كل ما قاله الخطباء العظماء لا أعتبر هذه الحفاوة موجهة إلى شخصى بل اعتبرها موجهة إلى أبناء جنسى وإلى الشعور الوطنى الذى يدفعنا على الدوام لخدمة مصر بما فى الوسع والإمكان .

«وإن الوطنية لشعور تنحنى أمامه الأمم كلها والأجناس على اختلافها، لأنه الشعور بقيمة الإنسان وكرامته، الشعور بنعمة الله وعنايته، الشعور بمعنى الوجود نفسه، وسواء كان الرجل يابانياً أو صينياً أو هندياً أو جاوياً أو مصرياً أو إنجليزياً أو فرنسياً أو ألمانياً، أو من أى جنس كان، فإنه يقابل بالإعظام متى كان ممثلاً للشعور الوطنى، لأنه حامل لأطهر وأشرف شعور رفع الإنسان إلى أعلى مكان، وإني لست إلا حاملاً للواء الوطنية، وقد تفضلتم هذه الليلة بتكريم هذا اللواء وتشريفه، فأشكركم باسمه شكراً وافراً، وأسأل الله أن يوفقنا إلى تحقيق آمالنا العزيزة وإسعاد أوطاننا المحبوبة».

وكانت هذه الحفلة من أعظم ما لقيه الفقيد تكريماً لجهاده فى سبيل مصر.

وليمة (كارلتون) وخطبة المترجم

وأقام المترجم وليمة فاخرة بلندن في فندق كارلتون يوم الخميس ٢٦ يولييه سنة ١٩٠٦، دعا إليها بعض الشخصيات ذات النفوذ في المحيط السياسى البريطانى، من أعضاء مجلس اللوردات ومجلس العموم والصحفيين، وبعد أن تناولوا الطعام وقف خطيباً، وألقى بالفرنسية خطبة جامعة، بدأها بقوله :

«أيها السادة: اسمحوا لى أن أشكركم على الشرف الذى أوليتمونى إياه بقبولكم دعوتى، وإنى لسعيد حقاً بانتهاز هذه الفرصة لأحدثكم فى شئون مصر وإعلان الحقيقة عن عواطف المصريين وأفكارهم، وإن ذوى الأغراض ينشرون على الدوام فى أوروبا عامة وفى انجلترا خاصة الأغلاط والأكاذيب بشأن أحوال مصر، وإحساسات المصريين؛ ولكننا واثقون من أن الحقيقة القادرة القاهرة تتغلب فى النهاية دائماً وتفوز وتهدم هذه الأبنية، أبنية الاختلافات والتهم الكاذبة».

الاستقلال والمال

وبعد أن نفى عن المصريين تهمة التعصب الدينى تكلم عن الاستقلال فقال: «إن الحركة الموجودة فى مصر حقيقة هى حركة وطنية أهلية لا نزاع فيها، فإن الشعب المصرى متمسك باستقلال بلاده أشد التمسك، وإذا كان بعض الساسة الإنجليز يتظاهرون الآن بنسيان الوعود والعهود التى قطعها رجالكم السياسيون علناً ونادوا فيها برّد مصر إلى المصريين، فإننا لم ننسها نحن أبداً، بل لا يزال كل مصرى يكررها وسيكررها على الدوام، عالماً بأنه لا تسقط العهود المعطاة وكلمة الشرف «بمضى المدة» قائلاً مع اللورد فرين: «إن الاستقلال لا ثمن له».

«ولو فرضنا ولم تكن هذه الوعود والعهود قدمت فعلاً من رجال سياستكم فأى مطلب وأى غرض يرمى المصرى إليه؟ أليس استقلال بلاده، لقد ألقت الحالة المالية فى مصر على عيون الكثيرون من الناس هنا غشاوة، فتراهم مندهشين من أن المصريين غير

سعداء في عهد الاحتلال، وإن السامع لأقوالهم ليحسب مصر «سوقاً» لا وطناً، فأرجوهم أن ينظروا إلى الأشياء بامعان، ويدرسوا الحالة الأدبية لمصر ويدركوا على الخصوص أنه لا توجد ثروة في "العالم ولا رخاء ينسى الإنسان كرامته».

السودان

ثم تكلم عن السودان فقال:

«وإنه لكي يدرك الإنسان أسباب تألم المصريين من الاحتلال الإنجليزي يجب عليه أن يتذكر أولاً أن السياسة البريطانية نزعت منا السودان ظلاً، وهو روح وطننا، وكم ضحينا فيه من الأموال، والرجال فليس لمصر الآن فيه إلا مهمة واحدة وهي إعطاؤه جيشاً لتسكينه وتنظيمه، والمال اللازم لإدارته، وإن فؤاد كل مصرى ليمتلئ حزناً وأسى عندما يفكر في هذا الجزء من وادى النيل المحكوم على حدة، المسلوب من مصر، السائدة فيه انجلترا».

ثم تكلم عن محور الحكومة الأهلية في مصر، وردّ على اللورد كرومر وطعن في سياسة الاحتلال عامة في مصر، وتكلم عن حادثة دنشواى وفضاعة المحاكمة والتنفيذ فيها، واحتج على وجود المحكمة المخصصة، وطلب إعادة النظر في القضية.

الامتيازات الأجنبية

وتكلم عن الامتيازات الأجنبية فقال:

«إن من المسائل المرتبطة بالعدالة مسألة محاكمة المجرمين الأجانب في مصر، فإن المصريين يتفعلون ويسخطون كلما أفلت مجرم أجنبى من يد القانون المصرى بفضل الامتيازات الأجنبية، وقد اقترح اللورد كرومر محوها وإنشاء مجلس دولى يعطى سلطة التشريع بحيث تمنح أوروبا الدولة البريطانية وكالة عنها في مصر وهذا الاقتراح لا يقبل من أوروبا، ولكن هناك حلاً عملياً للمسألة، وهو إعطاء المحاكم المختلطة حق النظر في

الجنايات والجنح التي يرتكبها الأجانب، وإن هذه المحاكم حائزة لثقة العموم، وإننى أعتقد أن أوروبا لا تتردد في إجابة هذا الطلب العادل إذا عرض عليها :

الدستور وحقوق المصريين

«لم ينس أحد من الناس أن مصر طلبت الدستور في خلال ثورة سنة ١٨٨٢ ونالته، ولكن انجلترا أبطلته ووعدت بلسان اللورد دفرين بإعادته لمصر متى حانت الفرصة، وقد مضى أربعة وعشرون عاماً ونحن في انتظار هذا الدستور، ويلاحظ بأشد الألم والحزن أن السلطة المطلقة لمعتمد بريطانيا في مصر تمتد كل يوم وتنمو، وأنه لا يوجد شيء يضمن للمصريين السكينة والسلام والعدالة والسير الحسن لكافة الأعمال سوى دستور قوى متين يعطى الشعب حق مراقبة الحكومة في أعمالها وتصرفاتها، وإن مصر لأوفر تقدماً ومدنية من بعض إمارات البلقان التي منحتها الدول الأوروبية وانجلترا على رأسها الحرية، وإن كل ثروات العالم لا تنسينا أبداً كرامتنا وحقوقنا، ولقد كان من مصلحة انجلترا تقدم مصر مالياً لتنال ثقة حملة أسهم الدين المصرى، ولتستطيع فتح السودان وتعميره بأموال مصر، ولكنها لم تنفذ التعهدات التي أخذتها على نفسها بشأن التقدم المعنوى للمصريين.

«فمعارضة الوطنيين المصريين للاحتلال الطبيعية ولا غرابة فيها، وإذا كان القوم المتمدنون يجدون من الأمور العادية الطبيعية وجود حزب معارضة في انجلترا وفي بقية البلاد المتقدمة، فأى عجب في وجوده في مصر؟ وإذا كان أنصار التوسع في سلطة انجلترا ومد نفوذها في الآفاق يريدون جعل سيادتها عامة في كل مكان، فكيف يجد البعض من الأمور المخارقة للعادة مطالبتنا باستقلال وطننا؟

«إن انجلترا لم تفتح مصر ولم تغزها، بل دخلتها كدولة محبة لتوطيد عرش الخديوية ومساعدة الشعب المصرى على أن يعيش عيشة الأمم المتقدمة، فهي عقدت بإرادتها ومحض رغبتها ديناً على نفسها نحو مصر ونحو الإنسانية، فمصر لا تسأل إحساناً بمطالبتها بحريتها، بل تطلب حقاً معترفاً به ولا نزاع فيه، تطلب حقها في الحياة والوجود، وإنى على يقين من أنكم لو كنتم محلنا لشعرتكم بنفس شعورنا، ولسلكتكم مسلكنا، لأنه

لا يوجد إلا مطلب واحد خليق بأن يشغل حياة الإنسان، ألا وهو «استقلال الوطن وعظمته».

وما انتهى الخطيب من خطبته حتى دوى التصفيق في القاعة كلها، وقام المستر جون روبرتسن النائب الحر بمجلس العموم الإنجليزي، وردّ على خطبته بكلمة هي مزيج من تأييد الخطيب والدفاع عن وجهة النظر الإنجليزية، قال:

«ياحضرة الباشا

إنى أتكلم باسم زملائي وأبناء وطني لأؤكد لكم أننا سمعنا خطبتكم باهتمام ممزوج بالعطف، وأنا نبحت قبل كل شيء عن معرفة حقيقة الأحوال في بلادكم ولذلك نريد أن نسمع صوت الجهتين (أى المصريين والإنجليز)، وإننا نؤمل أن أبناء وطنكم يخاطبونا دائماً بصراحة ويعرفوننا أفكارهم وشكاويهم، لأن مقصدنا وغرضنا هو خير مصر ليس إلا بمراقبة الإدارة العمومية مادام لنا نفوذ فيها، وما دمنا محتلين البلاد، ومن رأينا أن المراقبة الانجليزية أفادت المالية المصرية كثيراً، وإننا نريد أن نفعل مثل ذلك في الحياة الاجتماعية والتربية والإدارة والعدالة، إذ يجب أن لا تبقى انجلترا هناك لمصلحتها نفسها.

«أما مسألة دنشواى فإنكم يا حضرة الباشا تعرفون جيداً مقدار القلق الذى قوبلت به أخبارها، وإننا لا يمكننا أن نتكلم فى هذا الصدد مادامنا لم نر التقارير الرسمية، ولكن يمكننى أن أؤكد لكم وجود الانعطاف الفعلى الخالص من قبل العدد الأكبر والأعظم من الشعب البريطانى، وإننا نقدر آمالكم ومطالبكم حق قدرها، ونؤمل على الدوام أن نرى يوماً بفضل التبصر والتدبر تحقيق بغية الإنجليز والمصريين وأتمنى لها «الاستقلال المضمون لمصر»

وقد كان لهذه الوليمة وخطبة الفقيد فيها دوى هائل فى مصر، ونالت إعجاب الرأى العام، إذ أكبرت الأمة من زعيمها المجاهرة بحقوق مصر فى العاصمة البريطانية، وبين جمع من كبار الانجليز، ونفدت نسخ اللواء الذى نشرت فيه الخطبة، وانهالت الطلبات على إدارته بطبعها فى كراسة على حدة، وتوزيعها على الجمهور، كما تلقى اللواء تلغرافات ورسائل عديدة بتأييد موقف الفقيد والإعجاب بجهاده، وزادهم إعجاباً به أنه قام يناضل بمفرده عن حقوق بلاده، ويرفع صوت مصر فى عواصم أوروبا، ويقوم بعمل كان يجب على رجالات الأمة أن يشاركوه فيه ويحتملوا معه عبئه.

مغادرته لندن، وسفره إلى فيشى

أجهد الفقيد صحته في نضاله صيف سنة ١٩٠٦، فغادر لندن وقصد إلى فيشى للاستشفاء، وهناك استقبله المصريون المصطافون بها بالحفاوة البالغة والحماسة، وهنأوه على فوزه في جهاده، وكان في حاجة إلى الراحة بعد العناء، على أنه لم يترك الكتابة والدفاع عن قضية مصر، فما أن رأى في جريدة (الديلي جرافيك) الانجليزية مقالة عن المسألة المصرية زعمت فيها أن المصريين يعملون على تغيير النير الإنجليزي بالنير التركي، حتى انبرى للرد عليها بمقالة عنوانها (مصر للمصريين) نشرت في عدد ١٥ أغسطس سنة ١٩٠٦، فند فيها هذه المزاعم، وصرح «بأننا نريد أن تكون «مصر للمصريين» ونرفض قطعياً كل نير أجنبي وكل سيادة أجنبية وإن الذين يظنون أن الشعب المصرى يمتد انجلترا لأنها دولة مسيحية ليسوا إلا مخطئين خطئاً جسيماً، فإن الشعب المصرى يمتد المحتل الذى قوض دعائم استقلال وطنه، وإذا كانت مصر محتلة بأى دولة أخرى لكان شعور المصريين هو ذاته، لأن ضياع الاستقلال لا يمكن احتماله بأى حال من الأحوال».

وقد كتب هذه المقالة وهو في حاجة إلى العلاج والاستشفاء في فيشى، ولكنه لم يكن يعرف لنفسه راحة وهواة إلى جانب أداء الواجب نحو الوطن.

عودته إلى مصر

أكبرت الأمة جهاد المترجم أثناء مقامه في أوروبا صيف سنة ١٩٠٦، فسرت في النفوس فكرة الاحتفال به عند عودته تكريماً له، إذ رفع صوت مصر عالياً ورفع رأس الأمة في أوروبا والعالم، وتألقت لجنة في أغسطس سنة ١٩٠٦ بدعوة من المغفور له محمد بك فريد لجمع اكتباب عام لهذا الغرض ودعوته إلى وليمة كبرى عند رجوعه وإهدائه هدية فاخرة إعراباً له عن تكريمه، وبدأت اللجنة بجمع الاكتتابات، فلما علم الفقيد بنبا هذا المشروع أرسل من باريس خطاباً بتاريخ ٢٤ سبتمبر إلى فريد بك يعتذر فيه من

عدم قبول هذا التكريم، وبطلب أن تقوم اللجنة بدعوة الأمة إلى إنشاء كلية (جامعة) أهلية، وأن تتحد الجهود لتنفيذ هذا المشروع، وهذا الخطاب آية في الوطنية والشعور الشريف (وقد نشرناه بالرنكجراف ص ٢٣٦)، قال فيه:

«عزيزى فريد بك

«تحية وسلاما واحتراما وإعظاما، وبعد فقد طالعت اليوم فى اللواء بعد عودتى من «هنداى» أنه تأسست لجنة فى مصر بقصد عمل اكتتاب عام لدعوتى إلى وليمة وإهدائى هدية إعلانا لارتياح المصريين من قيامى بخدمة بلادى العزيزة وأنتك تفضلت فقبلت أن تكون أميننا لصندوق هذه اللجنة.

«فاسمح لى أن أرجو منك أن تتنازل بتبليغ أعضاء هذه اللجنة ومن تكرموا بتلبية دعوتها أنى أشكرهم من صميم فؤادى على جميل انعطافهم نحو أضعف خدمة الوطن، وجزيل رعايتهم نحو رجل لا يرى فيما عمل إلا جزءا من واجب عظيم جسيم يطالب كل مصرى بتأديته.

«وإنى ما شعرت لحظة واحدة فى حياتى بأنى مستحق لشيء من الالتفات أو الشكر على دفاعى عن حقوق مصر ومطالبتى باستقلالها ومناداتى بوطنية أبنائها لأنى إنما أقوم بفرض مقدس، وما خطوت إلى اليوم الخطوة الأولى فى سبيل إسعاد مصرنا العزيزة التى امتلأت رحابها بعظام الآباء والأجداد.

«وأى فضل لمثلى وأصغر جندى فى الجيوش يلقى علينا جميعاً أكبر درس وأسمى عظمة لأنه الحامل لراية الوطن المدافع عن شرفه ومجده واستقلاله. المفدى لحياته صيانة لحياة الملايين من الشيوخ والنساء والأطفال.

«فإذا كان هذا شأن كل فرد من أفراد الجيوش ووظيفة كل جندى من جنودها فكم تكون واجباتنا نحو الوطن عديدة وعظيمة نحن الذين استفدنا من نعم الوطن أكثر من غيرنا وامتزنا بالعلم والعرفان وقدرنا حقوق الديار ورأينا نور الحقيقة ساطعاً أمامنا وشاهدنا عظمة الشعوب الراقية وقارنا بين حالهم وحالنا وتقدمهم وتأخرنا.

«شكراً لكم وألف مرة شكراً، ولكنى لا أستطيع أن أقبل ثناء لا أستحقه وإكراما لم

أفعل شيئاً لنيله. ولا يمكننى أن أَرْضَى بأن يكون الشعور الوطنى مما يكافأ الرجل عليه، وهو لا يكون رجلاً إلا به.

«نعم إنى أعلم أنكم تحبون فى شخصى الضعيف الفكرة الوطنية الشريفة، وتريدون أن تعملوا شأنها، وترفعوا لواءها، كما أن أعدائى والطاعنين علىّ إنما يحاربون فى الحقيقة هذه الفكرة وذلك الشعور، لأنى لست شيئاً، على حين أن الوطنية هى فى حياة الأمة كل شىء».

«ولكن ماتبتغون كائن لا ريب فيه، فقد ارتفع لواء الوطنية المصرية رغماً عن كل معاند ومعارض، وعلم العالم كله أن المصريين أحياء يشعرون ويرغبون المجد من السبل الصالحة المؤدية إليه، واقتنعت الأمم أننا نطلب الحياة والدستور والحرية بالعقل والروية ونسعى إلى إسعاد وطننا بالعلم والجهاد القانونى، وهى نتيجة ما كان ليصدق أعداء مصر والمصريين أنها تكون بعد أن ظن الجاهلون بأسرار حياة الأمم وارتقائها أن مسألة استقلال مصر قد قبرت واستراح ساسة الإنجليز منها.

«فخير هدية اقترح عليكم تقديمها للوطن العزيز والأمة المصرية المحبوبة هى أن تقوم اللجنة التى شكلت بدعوة الأمة كلها وطرق باب كل مصر لتأسيس كلية أهلية تجمع أبناء الفقراء والأغنياء على السواء، وتهب الأمة الرجال الأشداء الذين يكثرون فى عداد خدامها المخلصين ممن لا يخافون فى الحق لو ما ولا عتاباً، ويعملون لمداداة أدوائها وجمع أمرها وبث روح الوطنية العالية فى كافة أبنائها، لأن كل ملهم يزيد على حاجة المصرى ولا ينفق فى سبيل التعليم هو ضائع سدى، والأمة محرومة منه بغير حق.

«هذه هى الهدية الوحيدة التى يليق بالوطنيين الصادقين إهداؤها لمصر والمصريين، هذه هى الهدية الفريدة التى تملأ الفؤاد فرحاً وانشراحاً وفيها أرقى مظاهر الحياة والشعور.

«فلتنس الأحزاب انقساماتها، ولينس الصحافيون خصوماتهم، ولتلق الأحقاد (ولو يوماً واحداً) فى هوة لا يسمع منها لغو ولا دوى، ولتجتمع الأمة لإتمام هذا العمل الفخم، وتحقيق ذلك المشروع الذى كله خير ونفع عميم.

«وليدكر الذاكرون أن بين أبناء الفقراء الذين سد الاحتلال فى وجوههم أبواب العلم والنور رؤوساً لو تحلت بالعرفان لكانت فخار مصر إلى أبد الزمان، ليدكر ذوو الإحساس

والوجدان أن في مصر كنوزاً لم تستخرج للآن، وأنها لو أخرجت للناس ملأت الأرض نوراً، وأن هذه الكنوز مدفونة بين مساكن الفقراء، إن الكلية - الجامعة - هي البناء الذي أدعو المصريين جميعاً إلى تشييده وما أكبر سعدي وأعظم هنائي لو ساعدتني الأيام على وضع حجر فيه مع العملة الأبرار الذين يعملون لخير البلاد ليس إلا، ولا يسألون أحداً (جزاء ولا شكوراً) هذا وأرجوك أيها الصديق أن تتفضل بقبول أصدق سلام وأوفى احترام من محبك وأخيك»

باريس في ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٠٦

مصطفى كامل

(خطاب الفقيه إلى فريد بك ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٠٦)

باريس ٢٤ سبتمبر ١٩٠٦

أخي الراحلون فريد بك

التي جئت والحمد لله مع. وبعد فقد كنت في بيتك
وقرأت اليوم مثلاً لا تترك وسرته جالساً في
السادس واثنا عشر من الشهر وحدثتك الساعة كما يكفيني
في محبة نفسي ونفسي وسعادتي وسعداء. فقلت شكر
واليك كتابي الذي احتمت نشره هذا وهو امر لا
كانت اكرهه اني نشرته بموعدك المحقق اليومي واليد
والله شدي في كل يومه يزداد كل يوم ولا يخاف من
تقوى الله جميع والحمد لله مع ذلك
تقبل الفدية من اخيك المحقق والمحقق

عزیز خدیج

نحیہ وسلا . و اھذا ما و اعظما . و بعد فقد طالعت ~~الخط~~
 الیوم مع اللوار بعد عودتی من "ھندای" انما ست لجنہ فی
 مصر بقصد عمل اکتاب ہام لدعوتی الی ولیمۃ و اھدائی ہدۃ
 اھدونا لور شیا مع المصریہ من قیامی بخدمۃ بلادین العزیز . و انکر
 فضلت فقلت انہ تمکدہ امیہ ہندوہ من اللجنۃ

فاسمعی ان ارجو ان سنازل بتبلغ اعضاء ہند
 اللجنۃ - ومن تکررنا بتلیبہ و ہدستہ انی اشکرکم مد صمیم فوادہ
 من جمیل انظارکم عند اضعف خدمۃ الوطن الفزیز و جزیل
 رعایتکم توجہ لوری فیما عمل الاجزأ من واجب عظیم
 جسیم بطالب کل مصر سنا و یت

وانی ما سحرت لخطۃ واحدۃ فی حیاتی بالفہ مستحق لشیء
 من الالتفات ادری شکر علی دفائلی عند حقوہ مصر و مطالبہ
 باستقلال و منارائی بوطنیہ انہا شری لانہ انا اقوم بفرض
 مقدس . و ما خلعت الی الیوم الخلقۃ الاولی فی سبیل اسعد
 مع مصرنا العزیزۃ الی انما شئت جاسط ببقایم الآبار و اھوار
 و ای فضل لکنای و اصغر جندی فرجیو ش بلقر علینا جمیع
 اکبر ریس و اسمی فلتہ . لولہ الی کل کراۃ الوطن المدافع عن
 شرف و محبہ و شفقہ لالعزیز لکیانہ صیانۃ لکیانہ الملویہ
 من الشیوخ و الن و موطنای

فأزالكاه هذا شأن كل فرد من أفراد الجيوش ووطنية
كل جنود من جنودها، فكم نكده واجباتنا نحو الوطن عديبت
ووطنية؟ نحن الذين استقنا من نعم الوطن أكثر من غيرنا
رامتنا بالعلم والعرفان وقد رنا حقوق الدار وأينا ندر
الكفيلة ساطعاً أمامنا وشهدنا عظمت بسقوط الرافدة
ومنا بيه عالم دهاننا ~~و~~ ونقد لهم ونأخرنا
شكراً لكم دألف من شكراً! ولكن لا يستطيع أن
أقبل ثناء لا استندوا كراما لم افضل شيئاً لنيل، دلاء
يكنن أن أرض بانه كيد السعد الوطني مما يكافأ الرجل
عليه وهو لا يكون عهد الابه
نعم اني أعلم انكم تحبون في شتى الضعيف الفكن
الوطنية السرية جزيرة انه نقلوا شغل وترفعوا الواجبات
كما ان أعدائي والاطاعته على انما ياربوه في كفية هذه
الفكره وذلك لشعره. لاني لست شيئاً على حبه ان
الوطنية هي في حياة الأمة كل شيء
وكلمه ما تبشرون ~~لكن~~ لا ريب فيه. فقد ارتفع لواء الوطنية
المصرية رغمًا عن كل معاند ومعارض وعلم العالم كله ان مصر
أهيا يشعرون في رغبتهم السبل الصالحة المؤدية اليها
وانتفعت الأمم انشاء ~~لكن~~ نظمت الحياة والسياسة والحريه
بالعدل والبروتية من شئ الى اسعاد وطننا بالعلم والبر
القانون. وهي شجرة ما كاهه ليصده اعداء مصر والبروتية

انطلق تكمده بعد ان ظن اني هلهه باسراء حياة المومنين
 وانما راح الى مسكنه يستقله مصروفه قنوت واستراح
 سنة اياكيد منى

فخير هدية انذع عليكم تفضل على العزير والمنة
 الهرة المحببة هي ان تقوم المحبة التي شكلت بدعت
 المنة كلاد وطرف باب كل طرف لتأسيس كلمة أهلية
 بجمع أخبار الفقراء والمؤثمين رفق كسوار ورفيق لهمومة
 الرجاى الاشهر الذين ~~يكنون~~ يكثره في عداد هذا لا
 المحلقة لمن لا يخافونه في حقهم لولا ولا غفابا ولعمري لكانت
 أدوا على وجمع أمرها وبنى روح الوطنية العالية في كانه
 أنبا على. لوان كل ملهم يري عن حافة الهرة ولا ينفق
 في سبيل التعليم هو ضاكن سدى ~~ولا~~ ~~المنة~~ ~~بغيره~~

حينه من الهدية الوحيدة التي يمين بالوطنية لصدوقه
 اصداها لهدا العربية ~~هذه~~ ~~من~~ ~~الهدية~~ ~~الزينة~~ ~~الى~~ ~~تلا~~
 التوادرها وانسيها ~~من~~ ~~الهدية~~ ~~الى~~ ~~تلا~~
 فلتنس الاخراج انما ما على وليس لها فنية ~~هذه~~ ~~من~~ ~~الهدية~~ ~~الى~~ ~~تلا~~
 وتلف الاوقات - ولويدا واحدا - في هذه لا يسمع منى لغد
 ولادوى. ولتجمع المنة لا تمام هذا العمل الفهم ~~من~~ ~~الهدية~~ ~~الى~~ ~~تلا~~
 ذلك السدى الذي كله خير ونفع عميم

وليكبر انذاكره انه بيه أخبار الفقراء الذين سدا هتلا
 في وجههم أبواب العلم والكرم ودرسوا لو تملت بالعرفان

لما كنت في مصر إلى أبي الزمان . لنذكر ذرر هاشم
 والرحبان أنه في مصر لغزاً لم تستخرج منه . ولما خرجت
 مناس لموت الأرض نورا . والله كنت الكفوز مدفونة
 بيه ما كنت القصور !

أه الكلية من النبار الذين أودعوا العربية فحسبوا قسمة
 وما أكبر سعد وأعظم ضلالي لربنا عذني الأليم مع وضع
 حجرة فيه مع العدة الأبرار الذين لم يولدوا لغير البهلا ليس
 إلا دوايب لوديه أعداء "جزائر أو شكريا"
 صناديد أجرك ايل كصديقه أن تتفضل ببذل أصغر كسلك

وأدنى اعتداس مدحك وأحبك
 باريس ٤٢، سبتمبر ١٩٠٦
 مصطفى كامل

وقد قوبل الخطاب بالارتياح والإعجاب، وتحول المشروع إلى المساهمة في جمع
 المكتبات لتأسيس الجامعة المصرية.

ووصل الفقيه إلى الإسكندرية صباح يوم الاثنين ١٥ أكتوبر سنة ١٩٠٦ وقدم توا إلى
 العاصمة بقطار الساعة التاسعة صباحاً، فاهتزت مصر لمقدمه، وأخذت الوفود والجماعات
 والأفراد تؤم دار اللواء لتحية الزعيم والإعراب له عن شكر الأمة وإعجابها بجهاده.

نتائج حادثة دنشواي

أسلفنا القول بأن حادثة دنشواي من الحوادث التاريخية التي لا تنسى على مر
 السنين، لما كان لها من الأثر البالغ في تطور الحركة الوطنية، ونريد هنا أن نتقل من
 الإجمال إلى التفصيل، فنذكر ما هو ذلك الأثر البالغ، أو بعبارة أخرى ما هي نتائج
 حادثة دنشواي، وإذا تكلمنا عن نتائج حادثة دنشواي فكأننا نتكلم عن نتائج (جهاد

مصطفى كامل في حادثة دنشواي)، لأن من الحق أن يقال إنه لولا هذا الجهاد لما كان للحادثة من نتيجة سوى تغلغل روح الخضوع والرهبة في نفوس المصريين، وقد كان هذا ما يقصده الاحتلال إذ أراد أن يضرب الحركة الوطنية بانتقام فظيع يلقي الرعب في النفوس ويجعل الأمة تستشعر بسوء المصير لكل من تحدته نفسه بمقاومة الاحتلال، ولكن جهاد مصطفى كامل فوّت على الإنجليز قصدهم، فكان للحادثة من النتائج غير ما ظنوا وتوقعوا.

١ - إشتداد ساعد الحركة الوطنية

فأولى هذه النتائج أن الحركة الوطنية اشتد ساعدها بإنضمام جمهرة المصريين إليها، إذ شعروا بأن مصطفى كامل كان على حق في جهاده للاستقلال، وأن المصري لا كرامة له حقا بإزاء الاحتلال الأجنبي، ولا مرأى في أن سريان هذا الشعور هو فوز كبير للحركة الوطنية.

لقد كان الاحتلال قبل هذه الحادثة مطمئنا إلى ثقة السواد الأعظم من المزارعين والأعيان في عدله وإنصافه، حتى أن اللورد كرومر كان يعتز بأنه مؤيد من أصحاب «الجلابيب الزرقاء» - يقصد الفلاحين - ولكن حادثة دنشواي كشفت عن حقيقة نيات الاحتلال وهي أنه لا يرضيه من المصري سوى الخضوع والاستسلام ولا يرضى منه أن يشعر يوما بالعزة والكرامة، وإذا تحرك فيه هذا الشعور كان جزاؤه الظلم والتنكيل، فالحادثة إذن قد حبيت الاستقلال إلى نفوس المصريين، وجعلتهم يعتقدون أن لا كرامة للأمة ولا لأي فرد منها إلا في ظل الاستقلال، وهذا فوز وتأيد للفكرة الوطنية وإخفاق لأنصار الاحتلال وصنائه.

٢ - إهتمام الصحف العالمية بالمسألة المصرية

وثمة نتيجة ثانية، وهي إهتمام الصحف الأوروبية والإنجليزية بالمسألة المصرية فقد بدأت تكتب المقالات والرسائل والبحوث المستفيضة عن شئون مصر ومطالبها.

كان الرأى العام فى أوروبا قبل أن يرفع مصطفى كامل صوت مصر يعتقد أن مصر من البلاد المتأخرة التى لا تفقه معنى الوطنية والاستقلال، وأنها لا تختلف عن بقية المستعمرات التى أعدت لأن تحكمها الدول الأوروبية، وكان الظن أن الاحتلال قد إستقر فى مصر، وأن نظام الحكم الذى وضعه اللورد كرومر قد نجح أيما نجاح ولكن حادثة دنشواى قد نبهت الأفكار إلى فساد هذا النظام وإلى أن مصر ساخطة عليه، وأنها تطالب بحريتها وإستقلالها، فعظم بذلك شأن مصر فى نظر العالم، وازداد المصرى إحتراما فى نظر الأوروبيين، لأن أوروبا لا تحترم إلا الشعوب التى تحرص على حريتها وإستقلالها.

٣ - تغيير سياسة الاحتلال

وأدركت الحكومة البريطانية أن سياستها فى مصر تحتاج إلى تبديل وتعديل واعتزمت إنفاذ هذا التعديل، ولكنها أخذت الأمور بسنة التدريج، كما هى عادتها كلما أرادت تغيير سياستها، وقوام هذا التغيير أن بقاء اللورد كرومر فى منصبه أصبح أمراً غير مرغوب فيه، وأن الاعتماد على خضوع وزارة مصطفى فهمى باشا للسيطرة الإنجليزية لا يفيد الاحتلال فى كل الأحوال، وأنه لابد من إسناد بعض المناصب الرئيسية إلى المصريين وإطلاق يدهم فى شئونهم، فلعل ثورة الخواطر تهدأ، ويخف الضغط البريطانى على الأداة الحكومية، فيؤدى ذلك إلى تخفيف السخط على الاحتلال.

٤ - تأسيس الجامعة المصرية

نعتقد اعتقاداً جازماً أن تأسيس الجامعة المصرية كان إحدى نتائج حادثة دنشواى، فقد تنبهت الأفكار عقب الحادثة إلى وجوب المساهمة فى كل ما ينهض بالأمة ويرقى بها إلى مصاف الأمم الراقية، لكى تتحرر من العبودية التى وصلت إليها، فظهر فى أكتوبر سنة ١٩٠٦، أى عقب حادثة دنشواى بنحو ثلاثة أشهر، جماعة على رأسهم سعد زغلول وقاسم أمين، وكانا مستشارين بمحكمة الاستئناف، فى تأسيس جامعة مصرية، فإذا لاحظت ما كتبه قاسم أمين عن شعوره نحو تنفيذ الحكم فى قضية دنشواى (ص ٢١٢) أمكنك أن تدرك أن نفسه قد اتجهت حين عظم وقع الحادثة إلى المساهمة فى عمل عام ينفع

الأمة في جهادها فاختر العمل لإحياء مشروع الجامعة المصرية.

ويلزمنا تقريراً للحقائق وإنصافاً للعاملين أن نقول إن أول من دعا إلى هذا المشروع ومهد له الأفكار هو مصطفى كامل، فقد إقترح في عدد ٢٦ أكتوبر سنة ١٩٠٤ من اللواء إنشاء جامعة مصرية بأموال الأمة، قال في هذا الصدد ما يأتي:

«مما لا يرتاب فيه إنسان أن الأمة المصرية أدركت في هذا الزمان حقيقة المركز الذي يجب أن يكون لها بين الأمم، وأبلغ الأدلة على ذلك نهضتها في مسألة التعليم وقيام عظمائها وكبرائها وأغنيائها بفتح المدراس وتأسيس دور للعلم بأموالهم ومجهوداتهم، ولكن قد آن لهم أن يفكروا في الوقت الحاضر في عمل جديد، الأمة في أسند الحاجة إليه، ألا وهو إنشاء جامعة للأمة بأموال الأمة».

وأخذ يبين ضرورة إنفاذ هذا المشروع الجليل، ودعا المفكرين وأصحاب الرأي إلى موافاته بآرائهم فيه، وطرق الوصول إلى تحقيقه.

وفي يناير سنة ١٩٠٥ عاود الدعوة إلى المشروع^(٦)، واقترح أن تسمى الجامعة (كلية محمد على) لمناسبة مرور مائة سنة ميلادية على ولاية محمد على عرش مصر (١٣ مايو سنة ١٨٠٥) وكتب عدة مقالات شرحاً وتأييداً للمشروع، قال فريد بك في هذا الصدد في خطبته يوم ١٧ أبريل سنة ١٩٠٨: «تعلمون أن المرحوم مصطفى كامل باشا هو صاحب مشروع الجامعة المصرية وقال به من عهد أن شرع في الاحتفال بمرور مائة سنة على تولية محمد على باشا على مصر».

وقد أيد الأمير (حيدر فاضل) دعوة مصطفى كامل، فكتب غير مرة سنة ١٩٠٥ في تحبيذ المشروع، واستنهض هم الأمراء والأغنياء إلى الاكتتاب له، وجمعت له فعلاً في سنة ١٩٠٥ الاكتتابات لهذا الغرض من بعض الأمراء والسراة بلغت نحو نمانية آلاف جنية، ثم وقف المشروع لعدم تعضيد الخديو إياه.

وفي سبتمبر سنة ١٩٠٦ حين دعا فريد بك إلى تأليف لجنة للاحتفال بعودة الفقيد إلى مصر عقب جهاده في حادثة دنشواي كتب إليه من باريس الخطاب السالف الذكر بتاريخ

(٦) اللواء عدد ٨ يناير سنة ١٩٠٥.

٢٤ سبتمبر يعتذر فيه من عدم قبول هذا الاحتفال ويقترح فتح اكتاب عام لتأسيس الجامعة المصرية.

تجددت الفكرة كما أسلفنا عقب حادثة دنشواى، وكان أول من تبرع للمشروع مصطفى بك كامل الغمراوى أحد سراة بني سويف، إذ تبرع من تلقاء نفسه بخمسة جنيه، ودعا سراة البلاد وأعيانها إلى أن يجود كل منهم بمثل هذا المبلغ ثم تألفت لجنة تأسيس الجامعة واجتمعت لأول مرة بمنزل المغفور له سعد بك زغلول (وكان لا يزال مستشاراً بمحكمة الاستئناف) يوم الجمعة ١٢ أكتوبر سنة ١٩٠٦، واختير سعد بك زغلول (باشا) وكيلا للرئيس، وقاسم بك أمين سكرتيراً للجنة وتركت الرئاسة ليتولاها أحد الأمراء، ونشرت الدعوة إلى الاكتاب وبدأت به فعلا فى أول جلسة، وكان هذا الاجتماع نواة تنفيذ المشروع.

٥ - تعيين سعد زغلول باشا وزيراً للمعارف

مما لا شك فيه أن تعيين سعد بك زغلول وزيراً للمعارف كان من النتائج المباشرة لحادثة دنشواى، فقد أرادت الحكومة البريطانية تعديل سياستها فى مصر، وكانت تعلم أن من أسباب سخط الأمة على هذه السياسة حصر السلطة فى يد المعتمد البريطانى والمستشارين الإنجليز، فأرادت أن تسند بعض المناصب الكبيرة إلى الأكفاء من المصريين، وتترك لهم جانباً من السلطة، لعلها بذلك تخفف من سخط الأمة على الاحتلال وتجذب فى الوقت نفسه إلى صفها بعض رجالات مصر، ومن المحقق أن اللورد كرومر هو المقترح تعيين سعد زغلول بك وزيراً للمعارف وهذه واقعة مسلم بها من الجميع، وقد صدر الأمر العالى بتعيينه فى ٢٨ أكتوبر سنة ١٩٠٦، فعلاسات تعيينه تدل على أنه نتيجة من نتائج حادثة دنشواى لأن سعد بك زغلول كان مستشاراً بمحكمة الاستئناف منذ سنة ١٨٩٢، واللورد كرومر كان معتمداً لانجلترا فى مصر منذ سنة ١٨٨٣، ومع ذلك لم يفكر فى إسناد الوزارة إلى سعد بك زغلول المستشار الذى كان منقطعاً إلى قضاائه فى محكمة الاستئناف، فالتفكير فى تعيينه بعد وقوع حادثة دنشواى بنحو أربعة أشهر دليل على أنه أثر من آثارها، وهو جزء من التغيير الذى انتوت الحكومة البريطانية إدخاله فى سياستها بمصر عقب الحادثة، ومن هنا يمكنك أن تدرك ماالمصطفى كامل من الفضل فى هذا التعيين.

٦ - استقاله اللورد كرومر

(ابريل سنة ١٩٠٧)

كان الحملات الفقيد على سياسة الاحتلال في حادثة دنشواى وفي شئون مصر عامة صدى كبير في الرأى العام الأوروبى والبريطانى، وألقت حادثة دنشواى على شخصية اللورد كرومر عبئاً كبيراً من التبعات الجسام، لامن الوجهة السياسية فحسب، بل من الوجهة الإنسانية، فرأت الحكومة البريطانية إقصاءه عن منصبه إنفاذاً لسمعتها أمام العالم المتمدن، وتخفيفاً لهماج الشعور الوطنى في مصر، وقد استقر رأى الوزارة البريطانية (وكان يرأسها وقتئذ السير هنرى كامبل بانرمان زعيم الأحرار) على هذه النية عقب استفاضة الأنباء عن فظائع التنفيذ، ولكنها أرجأت تنفيذ نيتها حتى يعود اللورد كرومر إلى مصر استبقاء لكرامة رجالها وقد عاد إلى مصر مزوداً بتعليمات جديدة تبعاً لتغيير سياسة الاحتلال كما أسلفنا، ثم قدم استقالته في ابريل سنة ١٩٠٧ عقب تقديمه آخر تقرير له عن شئون مصر سنة ١٩٠٦.

كان استعفاء اللورد كرومر انتصاراً كبيراً للحركة الوطنية فقد تولى منصبه في مصر منذ سنة ١٨٨٣، وبقي فيه إلى سنة ١٩٠٧، أى أنه ظل يشغل هذا المركز مدة أربع وعشرين سنة كان في خلالها الحاكم المطلق لمصر، فلاشك أن إقصاءه عن هذه السلطة بعد هذه المدة الطويلة هو اعتراف بقوة الحركة الوطنية. وكتب الفقيد في عدد ١٢ ابريل سنة ١٩٠٧ من اللواء تحت عنوان (استعفاء اللورد كرومر) مقالة اغتتحها بقوله:

«ماحدثت حادثة دنشواى ودوى دورها في العالم كله وقامت لها قيامة الأحرار في انجلترا وعرف المتمدون في أنحاء الأرض مقدار بشاعتها وفضاعتها وشدة انفعال المصريين من الحكم والتنفيذ فيها حتى ذاع وشاع أن مدة إقامة اللورد كرومر في مصر محدودة وأنه لا يلبث أن يترك وظيفته لما أصاب سياسته من الخيبة والفشل».

وقال ذاكرأ خلاصة تاريخ اللورد كرومر في مصر:

«ماذا نذكر من سياسة اللورد كرومر وخطته في مصر؟ نذكر أنه الضارب لعرش

الخدوية بيد من حديد، نذكر أنه الذى فتح السودان برجالنا وأموالنا ثم جردنا من كل حق وسلطة فيه، نذكر أنه الذى سلب الحكومة المصرية والوزارة الأهلية كل وجود ونفوذ وحياة، نذكر أنه الذى حرم الفقراء من التعليم فى مدارس الحكومة، وحارب اللغة العربية، نذكر أنه الذى قرب الذين يضحون بأشرف العواطف لخدمة المطامع الذاتية، نذكر أنه الذى رمى المصريين بكل جهل وتقصير، وأعلن للملأ وجوب سيادة الإنجليزى على المصرى ولو كان هذا رئيس ذاك، نذكر أنه الطاعن على الدين الإسلامى فى تقريره الأخير ذلك الطعن الذى هاجت له عواطف المسيحيين مثل المسلمين، نذكر أنه الذى عمل بما فى وسعه لمقاومة المطالب الوطنية، وإنكار كفاءة الأمة واستعدادها لنيل الحقوق النيابية، نذكر أنه الذى سعى لقتل العواطف الوطنية بالمال وظن أن الثروة وحدها كافية لإرضاء أمة وشراء ضمائر شعب، نذكر بنوع خاص أنه الذى أراد الانتقام من شعور الناشئة المصرية فى حادثة إضراب الطلبة، فرقى دنلوب مستشاراً للمعارف، وأراد الانتقام من عواطف الأمة كلها، فكان ما كان فى دنشواى مما يذكره الخاص والعام، نذكر أنه لم يكتف بذلك كله بل تعمد أمام هذه الأمة، وهى حزينة كثيبة على منكوبى دنشواى، مكافأة من سلكوا فى هذه الحادثة المشثومة المسلك الذى يحبه جنابه وتنفر منه الأمة كلها».

وقد كان الفقيد منصفاً فى مقاله، إذ ذكر للورد كرومر ماله بعد أن ذكر ما عليه، قال:

«هذا ما نذكره للورد كرومر ويذكره كافة المصريين، ولكننا نذكر له بكل إنصاف أنه لبث طول حياته مثالا للنزاهة، حتى يصح أن تضرب به الأمثال من هذه الوجهة لكافة الحكام وذوى السلطة، ولو شاء جنابه لكان أغنى أغنياء الأرض بما فى قبضته من جاه ونفوذ، ولكنه فضل الشرف الذاتى على المال، وخيراً فعل».

ثم قال: «ونذكر له أيضاً أنه عمل ماعمل فى مصر ليجعلها مستعمرة انجليزية لم يكن اسماً ففعلاً، فهو كان على خلاف تام مع أحرار الانجليز الذين يرون فى مصافاة المصريين نفعاً لانجلترا أكبر وأسمى من معاداتهم سلب حقوقهم».

الاتحاد

وختم الفقيه مقالته بقوله:

«مهما كانت الخطة التي تنوى الدولة الانجليزية اتباعها في مصر فأننا لانرى لبلادنا سلامة ونجاحا إلا في اتفاق المصريين واتحادهم وتضامنهم في المطالبة بحقوقهم والمناذاة بمبولهم بكل همة وصراحة وبلا خوف ولا حياء، لأن الأمة لا تبلغ مأربها إلا إذا كانت قادرة على نيله؛ وليس في مظاهر القوة مظهر أرقى وأسمى من المجاهرة بالحق والدفاع عن مصالح الأوطان بكل قلم ولسان».

وخلف اللورد كرومر في منصبه السير إلدون جورست، وقد افتتح عهده بالنصح بالإفراج عن مسجونى دنشواى.

الفصل الثالث عشر

جهاد الفقيد عام ١٩٠٧

خطت الحركة الوطنية سنة ١٩٠٧ خطوات موفقة، وحفلت بالجهود الجبارة التي بذلها الفقيد في بث روح الوطنية في النفوس والدفاع عن حقوق مصر، وكانت هذه السنة فوزاً كبيراً ونصراً مبيناً للحركة الوطنية.

ففيها عظم اهتمام الرأي العام في أوروبا وانجلترا بالمسألة المصرية، على أثر دعاية الفقيد العظيمة، وظهر تيار من الاستنكار العام لسياسة الاحتلال في مصر، بفضل ما نشره عن فظائع دنشواي، واشتد تأييد الأمة لدعوته، وازداد إقبال القراء على اللواء، إذ رأوا فيه صوت الوطنية الحقة وعلمها الخفاق، وتضاعفت منزلة الفقيد في نفوس الأمة مما ظهر في الحفاوة البالغة التي قبل بها عند عودته من أوروبا في أكتوبر من تلك السنة. وفيها أصدر الفقيد جريدتي (ليتندار اجبسيان) و(ذي اجبشيان ستاندر) بعد أن أسس لهما شركة كانت أكبر شركة صحفية تألفت حتى ذلك الحين في مصر والشرق.

ظهور ليتندار اجبسيان وذي اجبشيان ستاندر

اعتزم مصطفى كامل بعد حادثة دنشواي إصدار صحيفتين يوميتين: إحداها بالفرنسية والأخرى بالإنجليزية للدفاع عن حقوق مصر وإطلاع الرأي العام الأوروبي على حقائق الشئون المصرية ورد المفتريات عن مصر، وقد تولدت عنده هذه الفكرة عقب زيارته للندن في يولييه سنة ١٩٠٦، فكاشف بها صديقه وزميله في الجهاد محمد بك فريد في (فبشي) صيف هذا العام، فحبذ المشروع وشجعه على تنفيذه، وهو مشروع ضخم يستدعي همة كبيرة وكفاية عالية ومقدرة في الإدارة والتحرير، وقوة في المال، وقد اضطلع

الفقيد بهذا العمل الكبير إلى جانب إصداره اللواء وقيادته للحركة الوطنية ومراسلته لأهم الصحف الأوروبية العالمية.

وقد أسس من أجل ذلك في نوفمبر سنة ١٩٠٦ شركة مساهمة لإصدار الجريدتين، تألف رأس مالها من عشرين ألف جنيه، اكتب بها المساهمون فيها، وكلهم من صفوة المصريين. وقد حنق اللورد كرومر من هذا المشروع فزعم بلسان الصحافة الإنجليزية أن الخديو عباس الثانى هو الذى بذل المال لمصطفى كامل لإنشاء الجريدتين، فدحض الفقيد هذه المزاعم الباطلة، ونشر أسماء المساهمين ومقدار ما اكتبوا به وهم: مصطفى كامل باشا. محمد بك فريد. عمر سلطان باشا. محمود بك أنيس. على بك فهمى كامل. محمد بك أحمد الشريف. إسماعيل بك صادق. إبراهيم بك حلیم. أحمد فائق باشا. حسن حارس باشا. سيف الله يسرى باشا. محمود بك أبو النصر. محمد بك سعاد. مصطفى بك رشيد. يوسف بك حافظ. محمد بك عبد اللطيف الصيدلى. إسماعيل أفندى كامل. أحمد بك حجازى. حسن محسن باشا. محمد بك خورشيد. عثمان بك أبو شنب. فؤاد بك المنشاوى. إسماعيل أفندى حافظ. خالد بك سعيد. عبد الحميد بك عمار. إبراهيم أفندى نيازى. حسن بك جمجوم. يوسف بك ذهنى. قلبنى باشا فهمى. جلال الدين بك عارف. توفيق بك حموده. حافظ أفندى مصطفى.

واختار لتحرير الصحيفتين محررين من خيرة الكتاب الأوروبيين، وذهب خصيصاً إلى أوروبا يصحبه المغفور له محمد بك فريد في ديسمبر سنة ١٩٠٦ لاستقدام المحررين واستحضار معدات الصحيفتين، وبدأ ظهورهما في مارس سنة ١٩٠٧، فكانت ليتندار اجبسيان تصدر في المساء وذى اجبسيان ستاندرد في الصباح.

ظهرت ليتندار يوم ٢ مارس سنة ١٩٠٧، وذى اجبسيان ستاندرد صباح اليوم التالى، وفي صدرهما مقالة للفقيد ختمها بقوله:

«ليس في جهادنا لحرية وطننا ما يخيف أحداً من الناس، فإن التسامح والكرم من الصفات التى تفتخر بها مصر على الدوام، وإن المكان هنا لمتسع لكل العاملين ولكافة الرجال المستقيمين النزاهين، وسيرى جميع الذين يعيشون فوق أرض مصر البديعة مقدار تمسكنا في الحال والاستقبال بمبدئنا الذى تضمنته هذه الكلمة: «أحرار في بلادنا. كرماء لضيوفنا!»

خطبتان لصاحب اللواء

وأقام المترجم بفندق الكونتنتال يوم ٢ مارس احتفالاً لمناسبة ظهور الجريدتين جمع صفوة القوم من مصريين وأجانب، وألقى فيه خطبة بالفرنسية قال فيها:

«إن قصدنا من تأسيس هاتين الجريدتين هو إحاطة العالم المتمدن وكافة الذين يهتمون بشئون مصر علماً بخطتنا الوطنية التي غير خصومها شكلها وقلبوا حقيقتها، فقد مثلونا في أغلب الأحيان كأننا أعداء لأوروبا نريد جمع كافة قوى الإسلام ضدها، وإحداث انقلاب عام؛ وأظهرنا لمن يجهلون لغتنا كأننا ننادى بالبغضاء والتعصب الديني، فنحن جئنا اليوم نكذب بصورة قطعية هذه التهم الدنيئة، ونثبت للعالم كله أن مطلبنا الوحيد بل مطلبنا العالى السامى هو أن نردّ لمصر مكانة فى العالم تليق بتاريخها ومركزها، وأن كل مجهوداتنا موجه لهذه الغاية».

«إلى أن قال:

«إننا لسنا بثوار ولا أعداء للأوروبيين، بل إن كل ما نريده هو أن تنال مصر حريتها واستقلالها، مصر مهد المدنية والنور، ومصدر كل تقدم إنسانى، إننا الوارثون لمدينتين كبيرتين بديعتين: المدنية الفرعونية والمدنية العربية، فمن حقوقنا ومن واجباتنا أن نجلس بين الأمم المتقدمة ونطالب بحقنا فى هذه المدنية».

وختم خطبته بقوله:

«إن العمل الذى نعمل له ويرمى إلى جعل مصر بلاداً كبيرة حرة كريمة، وإن الاتفاق بين المصريين والأوروبيين هو من أهم مبادئنا الأساسية، فاسمحوا لى إذن أيها السادة أن أدعوكم لأن تحيوا معى ذلك اليوم الذى لا بد من مجيئه والذى يرى فيه العالم طرا شروق شمس الحرية والاستقلال فى مصر».

وخطب بعده المسيو سانت أوجان أحد محررى ليتندار، والمستر شارل رودى المحرر بجريدة ذى اجبشيان ستاندر.

ثم وقف الفقيد وخطب للمرة الثانية باللغة العربية خطبة قال فيها:

«إن إصدار جريدتين بلغتين أجنبيتين في وادى النيل يعد عملاً صغيراً أو كبيراً في آن واحد، إنه أيها السادة صغير في جانب اهتمامكم به، ولكنه عظيم لأنه من الأعمال التي تقوم بها هذه الأمة في سبيل الخدمة الوطنية، وهو صغير في جانب آمالنا العظيمة وأمانينا الكبرى وهي المطالبة بالاستقلال! (تصفيق طويل).

«أيها السادة! اسمحوا لى أن أقول لكم إنكم تخجلوننى بهذا التصفيق الطويل لأننى أراى أقدم شخصياً لهذه البلاد خدمة وطنية بهذا الاهتمام، وإنى أرى نفسى فى (ألف باء) من خدمة تلك الأمة العزيزة، وأرجوكم أن تطلبوا منى المزيد لا أن تصفقوا لى، فلربما عاقبنى هذا الاستحسان عن الاستمرار فى تلك الخدمة الشريفة».

الأمل

ثم قال:

«إن البلاد إذا أصابتها مصيبة انقسم أهلها إلى فريقين، فريق الأمل وفريق اليأس، فكونوا أيها السادة من الفريق الأول، واعلموا أننى لا أسألكم سوى أن تكونوا من هذا الفريق، أسألكم أيها السادة أن يكون لكم أمل، أسألكم أن تقولوا، إن لنا أملاً وقوة ثقة بالله، وبقينا بالمستقبل».

الاتحاد

إلى أن قال:

«أيها السادة، لم يتطلع العالم المتمدن لأحوال هذه البلاد لم يتنبه لشئونها مثل تطلعه وتنبيهه فى هذه الأيام فقد ظهرت آثار هذا الاهتمام فى سائر المظاهر ولم تخف على أحد، فاعلموا أن أول واجب عليكم نحو هذا الوطن العزيز هو واجب الاتحاد، لأن الاتحاد قوة ليس وراءها قوة، لترك كل وطنى الحزازات والضغائن الصغيرة، لأن هناك شعوراً أقوى وأشرف من تلك الأمور، ألا وهو إنقاذ الوطن المصرى، اعلموا أيها المصريون الأعزاء أنكم إذا أردتم أن تنالوا غايتكم وتصلوا إلى غرضكم فليس لكم إلا الاتحاد، وهو الغرس

الذى ينبت ثمره قبل أن تفرغوا من زرعه، إن الله سبحانه وتعالى خلقكم لتكونوا أحراراً سعداء، لا أرقاء تعساء، فإذا عملتم بأوامره تعالى نلتهم هذه الأمنية الكبرى وفزتم بالنجاح، فكونوا كلكم أملاً، واعملوا لهذا الغرض الشريف وتلك الغاية السامية، وأنا الكفيل لكم بالوصول إلى الاستقلال المنشود لا محالة إن شاء الله».

وقد قوطعت كلمات الفقيه بالتصفيق الشديد، وبعد أن أتم خطبته دعا الحاضرين إلى تناول الشاي ولبثوا يتحدثون إلى منتصف الساعة السابعة مساءً، وانتهت الحفلة في أبهى رونق من الجمال والجلال.

حفلة تكريم اللورد كرومر وخطبته (مايو سنة ١٩٠٧)

استقال اللورد كرومر كما أسلفنا في أبريل سنة ١٩٠٧، وقد قوبل نبأ استقالته من الأمة بالابتهاج العام، فجهدت الحكومة نفسها في مقابلة هذه الحركة الطبيعية بحركة معارضة لها، بإقامة حفلة تكريم له، فتألفت من أجل ذلك لجنة حكومية لإقامة هذه الحفلة، أعضاؤها وزراء الحكومة وقتئذ وهم: مصطفى فهمى باشا رئيس الوزارة، وحسين فخري باشا، وسعد زغلول باشا، وأحمد مظلوم باشا، وإبراهيم فؤاد باشا، ومحمد العبانى باشا، وبعض كبار الشخصيات البريطانية، ولفيف من كبار الأعيان المصريين الموالين للاحتلال، مثل رياض باشا رئيس الوزراء الأسبق، ومحمد شواربى باشا، ومحمود سليمان باشا، والشيخ عبد الرحيم الدمرداش.

وقد أقيمت الحفلة بالأوبرا مساء ٤ مايو ١٩٠٧، وخطب فيها الكونت دى سريون مدير شركة قناة السويس، ثم مصطفى فهمى باشا رئيس مجلس الوزراء وقد شكر اللورد في خطبته «على خدماته لمصر»، وقال: «إن عملكم المجيد سيخلد اسمكم الكريم ويدعو مصر اليوم كما يدعوها في مستقبل الأيام إلى الاعتراف لكم بهذا الجميل». وختم كلمته بقوله: «لا غرو إذا اغتنمنا هذه الفرصة لنعرب لكم فيها عن شدة تعلقنا بكم ولنقول إننا لا نزال نعتبركم كواحد منا».

وخطب اللورد كرومر في هذه الحفلة خطبة طويلة جارحة للكرامة الوطنية، مؤلفة

للنفوس الأبية، امتدح فيها الخديو توفيق باشا ونوبار باشا ورياض باشا، ثم مصطفى باشا، وقال عنه: «إنه خدم بلاده بطريقته المعهودة من السكينة والهدوء، والابتعاد عن التعريض لغيره والدخول فيما لا يعنيه» (يريد بذلك استسلامه المطلق لسياسة الاحتلال)، وامتدح بطرس باشا غالى، ثم سعد باشا زغلول، ورمى المصريين عموماً بنكران الجميل لأنهم لا يعترفون بفضل الاحتلال وقال في هذا الصدد: «إن أولاد العميان يولدون عادة مبصرين»، مؤملاً أن الجيل المقبل يعترف بفضل الاحتلال، وعرج على ما سماه (حقائق الحالة المصرية)، فقال إن أولها هي أن الاحتلال البريطاني يدوم إلى ما شاء الله، وثانيتهما أنه مادام الاحتلال باقياً فالحكومة البريطانية تكون مسئولة عن الخطة التي تجرى عليها الإدارة المصرية.

وقد قوبلت الخطبة من المصريين بالاستياء الشديد والسخط والاستنكار.

تعيين المستر هيل ناظراً لمدرسة الحقوق (يوليه سنة ١٩٠٧)

وقع في تاريخ التعليم في مصر حادث هام صيف سنة ١٩٠٧ آلم نفوس المصريين، ذلك أن الأستاذ إدوارد لامبير العالم القانونى الفرنسى كان يتولى نظارة مدرسة الحقوق الخديوية، وكان من خيرة النظار الذين تولوا إدارة المدرسة، ونال من أجل ذلك محبة الطلبة واحترام المدرسين، وبذل جهده لينهض بالمدرسة إلى المستوى اللائق بها، فوقع خلف بينه وبين المستر دنلوب مستشار وزارة المعارف، إذ وقف له بالمرصاد، وأحرجه وأساء معاملته، مما أدى إلى استقالته من منصبه، وكان الظن أن يسند هذا المنصب إلى عالم مصرى، ولكن المستر دنلوب أملى إرادته في تعيين خلف للمسيو لامبير، فوقع اختيار وزارة المعارف على المستر هيل أحد أساتذة مدرسة الحقوق، وكانت هذه أول مرة يتقلد فيها إنجليزى هذا المنصب الكبير.

قابل رأى العام وطلبة الحقوق هذا التبديل باستياء شديد، وكتب الطلبة المقالات العديدة احتجاجاً عليه، ذلك أن مستر هيل لم يكن على كفاية تسمح بتقليده هذا المنصب

الكبير، لا سيما وقد كان حديث العهد بالحصول على شهادة الحقوق، فتعيينه لهذا المنصب الذى كان يوجد من علماء القانون الوطنيين من هو أجدر منه به، كان ضربة مصوبة إلى التعليم والكرامة الوطنية، وقد أحدث هذا التغيير ضجة كبيرة في مصر وفي فرنسا، وكتب الأستاذ لامبير مقاله عنه في جريدة (الطان) الباريسية الكبرى، كانت بمثابة صحيفة اتهام لسياسة الاحتلال في التعليم ولتصرفات المستر دنلوب، وقد أذاع فيها من الفضائح مالم يسبق لعالم أجنبى كبير أن ينشره على الملأ بلسان قومه، وإنا ناشرون هنا هذه المقالة لأهميتها قال:

«تركت هذه الوظيفة والأسف يكاد يمزق فؤادى، لأن البقاء لم يعد في وسع رجل مثلى جعل حياته وقفا على العلم، ولأنى ماكنت بقادر على حفظ هذا المنصب ذى الراتب الضخم مالم أرض بأن أكون آلة صماء لسياسة غير قومية ومكدره لصفاء العلاقات بين المصريين والأوروبيين.

«إن الموظف الإنجليزى القابض فعلا على الإدارة الحقيقية لوزارة المعارف وهو المستر دوجلاس دنلوب كان قبل قدومى إلى مصر بعام قد حارب ناظر مدرسة الحقوق السابق (الأستاذ جرانمولان) بثبات نادر، فغلبه على أمره وسلب منه سلطته، ثم اغتتم تلك الفرصة التى آلت فيها هذه السلطة إلى العدم، فأخذ يهيج عواطف الطلبة ويستفزها بإصداره لهم أوامر متناهية في القسوة والغلظة ولا مسوغ لها، حتى جرهم إلى الإضراب، ثم اتخذ إضرابهم ذريعة للتشفى من سلفى الذى كان حاقداً عليه، ولم يكن حظى من المعاملة بأسعد من حظ هذا السلف، إذ كثيراً ماوضعنى المستشار الإنجليزى بسوء تصرفاته، ولا أدري إن كانت مقصودة منه أو غير مقصودة، في مراكز حرجة عجزت عن الخروج منها وعن توقى نتائجها، إذ كنت مقيداً كل التقييد بلوائح تنزع من يدى كل سلطان حتى في المسائل الفنية الصرف التى أدخلت أيضاً في اختصاص أقلام الوزارة، وقد حارب المستر دنلوب تقدم التعليم الفرنسى في مدرسة الحقوق بلا تبصر، على حين أن تعليم الحقوق في هذه المدرسة لا يزال ويجب أن يبقى تعليماً فرنسياً، مادامت قوانين البلاد لم تغير تغييراً كلياً، لأنها عبارة عن ملخص لقوانيننا، ولأنه لا توجد لها شروح ومؤلفات بالعربية إلا في النادر، وقد مثل (أى المستر دنلوب) رواية مضحكة للتعليم العالى في مدرسة الحقوق، فوقف تعيين ما يحتاج إليه القسم الفرنسى من الموظفين تتميها لما ينقص

من عددهم المحدد قانونا، وحقته في ذلك أن مصير هذا القسم إلى الزوال في القريب العاجل، واكتسح من القسم الأكبر وهو الذى تدرس فيه الحقوق الفرنسية باللغة الإنكليزية الأساتذة الأكفاء الذين قاموا بأمره في مبدأ تأسيسه، وهم من القضاة الذين أفادتهم إقامتهم الطويلة في الديار المصرية خبرة بأسرار قوانيننا، واستبدل بهم شبانا من الإنكليز يعينون بمجرد تخرجهم من الكلية الإنكليزية فيقدمون إلى مصر، وهم والطلبة المكلفون بتعليمهم سواء في الجهل بالقوانين المصرية، بل إن فريقاً من هؤلاء المعلمين لم يبلغ إلى الآن في معرفة لغتنا حداً يستطيعون مع ترجمة المؤلفات الفرنسية التى يستعان بها على التدريس ترجمة غير مقبولة، ولقد بذلت كل جهد في سبيل ترقية شئون المعلمين إما بتخصيصهم لتدريس فرع واحد أو بتقليل عدد الدروس التى يكلفون بها حتى لا يصعب عليهم تحضيرها، أو توسيع مجال المباراة بينهم بترقية النجباء منهم أو بمنع الأسباب التى تدفع المعلمين الإنجليز إلى ترك المدرسة بمجرد استفادتهم شيئاً من المبادئ القانونية يتمكنون بها من الدخول قسراً في المحاكم الأهلية، بذلت كل سعى في هذا السبيل، فذهبت مساعى كلها أدراج الرياح بإزاء عناد مستر دنلوب وتعنته.

« كان هذا الرجوع بالعلم إلى الوراء يقتضى التبصر والحكمة ومعاملة الطلبة بالحسنى خشية أن تهيج غضبهم حالتهم السيئة وانحطاط التعليم فيهم، خصوصاً وفي مصر الآن حركة فكرية ترمى إلى طلب العلوم والعرفان، ولكن مستر دنلوب وضع هؤلاء الطلبة الذين بلغوا سن الرجال نظاماً من النظامات الموضوعية لصغار تلاميذ المدارس الابتدائية. وأخذ يعاملهم بقسوة متناهية ويستعمل معهم سياسة وخز الإبر، سياسة اضطهاد دقء، فكانت نتيجة ذلك أن انضم إلى الحزب المعارض للإنجليز فئة متعلمة راقية وأن يسود على أفئدة الشبيبة الحقد والبغض للإدارة الإنجليزية، وأن تتحول مدرسة الحقوق معقلاً للوطنية المصرية بحيث لا تكاد ترى بين الأربعمئة التلميذ الموجودين بها الآن عشرة لا يؤمنون كل الإيمان بمبادئ مصطفى كامل باشا.

« حاولتُ مراراً أن ألفت نظر المستشار الإنجليزى إلى الأخطار التى تنشأ عن اتباع خطته في نظام التعليم، فلم أنل منه شيئاً اللهم إلا بعض تجاوز وفتى عن بعض مسائل، ولكنه لم يخلص مطلقاً في التنازل نهائياً عن خطة كلها إيلاهم وإرغام ولذلك كنتُ أتوقع دائماً وراء عمل مستر دنلوب واستفزازه للخواطر من هذا القبيل أن تعصف في مدرستى

عواصف جديدة أشد خطراً من العاصفة التي عصفت بها في سنة ١٩٠٦ وكانت تلقى على مسئولية ذلك أمام الرأي العام المصرى.

« انتهى مستر دنلوب أخيراً بالتعرض لكرامتي تعرضاً مؤلماً، وذلك أنه أراد أن يجعلنى بالرغم عنى شريكاً له فى الدسائس التي يدبرها ضد وزير وطنى هو سعادة سعد زغلول باشا، ذلك الذى اختارته الوكالة الانجليزية بفعل تأثير الرأى العام عليها والذى لم يشأ أن يكون آلة لا إرادة لها. فلكى ينزع من هذا الوزير كل سلطة ويغلبه على كل أمر، أكره رؤساء الموظفين فى الوزارة على أن يتألبوا حزباً واحداً لعرقلة كل عمل لرئيسهم الرسمى، ولم يكن حظى من هذا الإكراه أقل من حظ زملائى، فكنت ألقى أوامره قبل تحرير تقاريرى الرسمية، ثم كان يجبرنى على تقديمها له قبل إرسالها للوزير لينقح فيها ما يشاء، بل لقد حدث لى أحيانا أنى بعد أن حررت أوراقى وبعد أن خرجت من مكتبى وسجلت فى الوزارة عدت فغيرت ونقحت منها ما يشاء المستشار، كل ذلك بما لا طاقة لى على احتماله، لم يكتف مستر دنلوب بذلك، بل كان يريد منى أنى مادمت راغباً فى البقاء طويلاً بجانبه يجب أن أتدنى إلى حد تضحية ضميرى وتعريض نفسى فى كل حين للظهور بمظهر الخائن الأثيم أمام الوزير، نتج عن هذه الأسباب التى بينتها أن علائقى مع مستر دنلوب كانت دائماً مشوبة بأكدار. على أنها توترت فجأة إثر خلاف حدث بسبب مسألة تعيين بعض المعلمين، فقد ترك ثلاثة من المعلمين وظائفهم ووضعت لائحة جديدة للتدريس تزيد بها عدد الحصص، فاضطرت والحالة هذه أن أطلب للسنة الدراسية ١٩٠٧-١٩٠٨ معلمين اثنين على الأقل، فبعد أن وعدنى مستر دنلوب وعداً صريحاً بإجابة طلبى عاد فنكت وعده قائلاً إن الظروف السياسية لا تسمح باستخدام معلمين أوروبيين زيادة على الموجودين، ثم هو لا يقبل بحال من الأحوال استخدام الوطنيين للتدريس فى مدرسة الحقوق، إلا أنى لم أذعن لهذه النتيجة وتمكنت بفضل مساعدة أحد كبار الموظفين الانجليز من حمل مستر دنلوب على تعيين معلمين من أصل مصرى فى مدرسة الحقوق، ولكن بعد أن اضطرت أن أتساهل معه فى مسائل كثيرة أخصها تعهدى له بإساءة الشهادة فى كل مصرى ينتظر أن يتقدم للتدريس بمدرسة الحقوق إجابة للدعوة التى أعلنها وزير المعارف فى الجريدة الرسمية، شدد مسر دنلوب حملته علىّ كما شدها على سلفى، فبعد أن استنفدت كل وسائل الدفاع وأيقنت أنى أصبحت عاجزاً عن حماية موظفى مدرسة الحقوق وتلاميذها من مظالم مستر دنلوب استخرت الله فى السفر إلى

وطنى، ثم حدثت بعد ذلك حادثة يستنكرها الذوق السليم، وقد أبلغها إلى الجرائد بصورة لو احتملتها لضيعت كل كرامة لى عند زملائى وتلاميذى فلذلك أصررت على تنفيذ رغبتى فى الاستقالة وقدمتها فعلا، فقبلت بمزيد الارتياح، وفى اليوم التالى عين بدلا عنى مدرس انكليزى لأجد جملة تصدق عليه خيراً من هذه الجملة التى نسبت بحق أو بغير حق إلى السير الدون جورست وهى.

«إن مستر هل جاهل وإنه خير لنا أن يكون كذلك ليكون أسهل قيادا»

«ولقد عتب علىّ نفر من أبناء وطنى فى القاهرة وأخذوا على تضحية مصالح فرنسا المهمة فى سبيل عواطفى الذاتية، وقالوا إنى تركت وظيفة من أسمى وظائف التعليم فى مصر كانت للأن محفوظة للفرنسيين رغبة فى الخلاص من مهمة لم ترق لى، ولست أرى رأيهم هذا فى تقدير المصالح الفرنسية، فإنه كما كان من اللازم لنشر نفوذ أمتنا فى الشرق أن يتولى مدرسة الحقوق الخديوية رجال أمثال فيدال باشا وتستو فى وقت كانت أيديهم فيه مطلقة حرة يعملون ما يشاءون لنشر علومنا القضائية، كذلك لا يليق بشرف فرنسا ولا يوافق تأييد نفوذها فى مصر أن يرضى علماؤها بأن يقتل مستر دنلوب روح الأخلاق ويهدم صروح العلم تحت ظلالهم».

ولقد كان لهذه المقالة المهمة، وصدورها من ذلك العالم الفرنسى الكبير، ونشرها فى كبرى الجرائد الفرنسية، وتعريبها فى اللواء، أثر كبير فى فضح سياسة التعليم التى كان يجرى عليها الاحتلال، وكان للفقيه اليد الطولى فى نشر المقالة فى (الطمان) لنفوذه الأدبى لدى مديرها، وهو الذى قدم إليه الأستاذ لامبير. وبوساطته نشرتها الطمان فى مكان بارز من صحائفها.

كتاب المترجم إلى السير هنرى كامبل بانرمان

فى خريف سنة ١٩٠٧ أرسل الفقيه كتاباً مفتوحاً إلى السير هنرى كامبل بانرمان رئيس الوزارة البريطانية بتاريخ ١٤ سبتمبر، لمناسبة ذكرى احتلال الانجليز القاهرة سنة ١٨٨٢، جاهر فيه بالاحتجاج على استمرار الاحتلال، وطالب الحكومة البريطانية بلغة رصينة متزنة بتحقيق وعودها فى الجلاء، ولما كان هذا الكتاب من الوثائق المهمة فى

تاريخ الحركة الوطنية فإننا ننشر تعريبه قال:

«ياحضرة الرئيس

«إن هذا اليوم ١٤ سبتمبر هو يوم مخلص الذكر في التاريخ سواء بالنسبة لمصر أو لانجلترا.

«فاسمحوا لى أن أذكركم بأنه فى آن واحد تذكّار مرور مائة عام على جلاء الجنود البريطانية عن مصر، ذلك الحادث الذى وقع يوم ١٤ سبتمبر عام ١٨٠٧، والتذكّار الخامس والعشرون لدخولها مدينة القاهرة الذى حصل يوم ١٤ سبتمبر عام ١٨٨٢، فلهذا التذكّار شأنان، وإذا كان يذكّر المصريين بمجد آبائهم الذين عرفوا كيف يدافعون عن الوطن ويجبرون انجلترا على العدول عن غزو مصر من قرن مضى، فإنه يحملهم أيضا على التفكير فى التصريحات الرسمية التى صدرت عند حصول الاحتلال الحالى لبلادهم، وفى كلمة الشرف والتعهدات التى أخذتها على نفسها بريطانيا العظمى.

«إن لانجلترا ياحضرة الرئيس فى تذكّار ١٤ سبتمبر هذا من الفخار أقل مما لمصر، فإن الشعب المصرى لم يجد فى انجلترا فاتحاً غزا بلاده بقوة السلاح، بل دولة صديقة أرادت مساعدة الخديو على توطيد الأمن والنظام ووعدت علناً بمغادرة البلاد متى توطدت أركان الأمن، ولقد مضت خمس وعشرون سنة ولم ينفذ هذا الوعد، وإن القليل من الانجليز ليفكرون الآن فى الأقسام التى فاهت بها الملكة فيكتوريا والمخطب التى ألقاها وزراؤها وأكدوا فيها أن استمرار الاحتلال الانجليزى فى مصر يكون «عاراً على التاج والشرف البريطانى».

«ولكننا نحن معاصر المصريين نفكر فى هذه الأقسام وتلك المخطب. نفكر فى ذلك العهد الذى يسمو على كل المعاهدات وهذا العقد الذى يعلو كل العقود ورغما عنهم يقولون إن السياسة ليست إلا «كذبا واحتيالا وخداعا» فإننا نظن أنه لا يمكن لأمة متمدنة كبيرة أن تفكر فى تشويه تاريخها باختلاس لا مثيل له، ولا يمكن تعريفه لجسامته، وهما هو التاريخ يقول بأعلى صوت ويبين الخطر الذى تلحقه مصر بالدول الطامعة اللواقى حاولن امتلاكها ولم تفلح واحدة منهن فى استعبادها بصفة نهائية، ولكن لعل دروس التاريخ لا تكفى فى نظر أنصار التوسع فى الاستعمار من الانجليز لأن تثبت أنه لا يمكن

أن يملك مصر أحد سوى المصريين إلا أن يقظة الأمة المصرية من شأنها أن تظهر لهم من الآن مستقبلها القائم على الحرية والاستقلال، وأن مصر تحافظ على آمالها أكثر مما كان ذلك في أى زمان وترقب المستقبل بثقة لا يزعزعها شىء، وذلك رغما عن المصائب كافة، وعن جميع التدابير السياسية والمناورات الدولية، بل وأكد أن المصائب قد قوت الروح الوطنية المصرية، وكل العارفين بأحوال مصر يعترفون بأن «دنشواى» أفادت في تقدم «الوطنية» أكثر من المجهودات الكبرى التى بذلها الوطنيون.

«وإن المسألة المطروحة اليوم أمامكم يا حضرة الرئيس وأمام الأمة الانكليزية هي معرفة ما إذا كانت انجلترا تريد أن تجعل مصر صديقة أو عدوة لها، هي معرفة ما إذا كانت انجلترا تدرك مصالحها العالية وتقدر الفوائد التى تكتسبها من الاتفاق مع أمة تزدد كل يوم عدداً وثروة وقوة فتوفى بوعدها وتحترم شرفها أو إذا كانت تصرّ على العناد وتحارب كرامتها، وتجاهد ضد أمة تفيض حياة ومصرّة على نيل حريتها.

«وإنه إذا كانت انجلترا قد اعتبرت الجلاء ممكناً في عام ١٨٩٠ وحددت هذا الميعاد في اتفاقية «درو مندوولف» لانسحاب الجنود البريطانية فكيف يمكنها أن تدعى أن وقوع هذا الأمر الموافق للشرف ولحقوق الشعب المصرى غير ممكن الآن؟ أى انجليزى حر يستطيع أن يزعم يجد أن ساعة الجلاء عن مصر لم تأذن بعد، في حين أن المستر جلاستون قد اعترف في خطابه للذين كتبها لى في عام ١٨٩٦ أن ساعة الجلاء «آذنت من عدة أعوام».

«يقول السير إدوارد جراى إنه لو تركت انجلترا مصر للمصريين لسادت الفوضى والرشوة في البلاد، وهذا التأكيد لا يفسر إلا بشئى فاضح، وهو عدم اقتدار انجلترا بعد احتلال دام خمسة وعشرين عاماً على القيام بمهمتها في مصر، أو القضاء على الأمة المصرية بأنها ليست أمة قادرة على حكم نفسها بنفسها وخليقة بأن تنال مكانتها بين الشعوب المتقدمة، ومن المحال أن يقبل رجل عادل مستقل الفكر هذه النظرية التى هي مسبة مزدوجة لانجلترا ولصمر، وفضلاً عن ذلك فإنه لا يجهل أحد من الناس أننا نطلب لمصر حكومة دستورية حرة وأننا لا نقبل حكم الأهواء والاستبداد أبداً وأن الإرادة الوحيدة التى نريد أن نخضع لها إرادة الأمة، وأن العقل لا يقبل مطلقاً أن السلطة المطلقة المتقلبة حسب الأغراض والاهواء التى يتصرف بها المعتمد البريطانى، تكون

أفضل وأنفع من دستور أهلى مؤسس على المبادئ الحرة، إذ القول بذلك يعادل القول بأن حكومة الصين خير من حكومة انجلترا، وإنكم قلتم يا حضرة الرئيس فى إحدى خطبكم إنه لا يمكن أبداً أن تعوض حكومة حسنة أهلية وأقول أنا أيضاً أنه لا يوجد شىء فى العالم ينسب الاستقلال لشعب عارف بحقوقه، وإن حكومة الأجنبى ولو كانت مثال اللطف والرفقة، بخلاف ماهى فى مصر، مبعوضة ومقوتة على الدوام، لأن سلاسل الاستعباد هى سلاسل على كل حال، سواء كانت من ذهب أو من حديد ولا أظننى مبالغاً إذا أكدت يا حضرة الرئيس أن أفضل صديق لانجلترا هو الذى ينصحها باحترام شرفها ووعودها، ويقول لها بكل إخلاص إن كل ما تستطيع عمله ضد مصر لا يوقف بلادنا فى طريق التقدم والحرية الذى سلكته بكل عزم، وإن أمة كأمتنا، جمعت مدة قرون عدة، قوى من الصبر والهمة والإرادة لاتعرف اليأس ولا تقف أمام أى عائق لاسترداد استقلالها، وإن لانجلترا الحرة أن تقرر إذا كان هذا الاستقلال سيتم بإرادتها أو ضدها، ولقد رأيت من الضرورى يا حضرة الرئيس أن أذكركم فى هذا اليوم المخلد الذكر بالنسبة لكم وبالنسبة لنا بوعده الحكومة البريطانية، وبما تنتظره مصر الوطنية من المستقبل.

«وإننا تألنا كثيراً من «كذب السياسة» فلا نلجأ للمهارة والاحتىال والكذب، وإن كرامتنا وشرف قضيتنا ليحتمان علينا الصراحة والصدق والاستقامة.

«وتفضلوا يا حضرة الرئيس بقبول عظيم احترامى»

باريس فى ١٤ سبتمبر سنة ١٩٠٧

مصطفى كامل

نشرت جريدة (الفيجارو) هذا الكتاب فى صدر عددها المؤرخ ١٤ سبتمبر سنة ١٩٠٧، فكان بمثابة بعث جديد للمسألة المصرية، لأن شخصية الفقيد، وحججه الدامغة، استرعت الأنظار إلى قوة الكتاب وصاحبه، وقد تناقلته الصحف الأوروبية، فنشرت خلاصته الصحف الفرنسية الكبرى كالطان والديباو والإكلير والايكودى باريس وغيرها وعلقت عليه باستحان عام، ونقلت كبريات الصحف الإنجليزية كالتيمس والستاندرى والمورننج بوست والديلى نيوز خلاصته ضمن الرسائل التلغرافية الوازدة إليها من

مراسليها بباريس، وعلقت الديلى نيوز، عليه تعليقاً مشوباً بروح الود والتأييد، وعارضته التيمس فى مقال لها، وتردد صداه فى الصحف الألمانية والنمساوية والايطالية، وكان له دوى كبير فى مصر إذ جاء على أثر نجاح الفقيد فى بعث قضية دنشواى فى العالم، فكان حديث الناس فى المجالس والصحف ووجه الحركة الوطنية وجهة الجلاء أى فى الطريق الذى رسمه الفقيد من قبل.

عظم منزلة الفقيد

استقباله عند عودته إلى مصر

(أكتوبر سنة ١٩٠٧)

أكبرت الأمة جهاد مصطفى كامل فى أوروبا سنة ١٩٠٧، بعد جهاده عقب حادثة دنشواى سنة ١٩٠٦، فلم يكذب يعلم الجمهور بحضوره إلى الاسكندرية ومجيئه إلى القاهرة حتى ذهبت جماهير الوطنين جماعات ووحداً إلى محطة العاصمة قبيل وصوله إليها يوم ٧ أكتوبر سنة ١٩٠٧، دون دعوة أو سابق اتفاق لاستقبال الزعيم، وأخذ إقبال جماعات المستقبلين يشتد ويتعاضم قبل قدوم القطار، حتى صار كل من شاهد هذه الجموع الزاخرة يدهش لكثرة الزحام، وكأن كلا منهم كان على موعد مع الآخرين مع أنه لم يكن نمة موعد ولا اتفاق، وهال موظفى المحطة ذلك الزحام الذى لم يسبق له نظير، ووجد عمال صرف تذاكر المقابلة حيرة كبيرة فى تلبية رغبات طالبي التذاكر، وقبيل قدوم القطار بلغ الزحام أشده على أرصفة المحطة، وبلغ عدد المستقبلين نيفاً وثلاثة آلاف بحيث كان هذا الجمع الزاخر يستوقف النظر لكثرة عدد المجتمعين، وحضورهم جميعاً مسوقين بشعور تكريم صاحب اللواء، دون أن يدعواهم إلى ذلك داع من لجنة أو جماعة أو أفراد، وكان معظمهم من عليّة القوم وصفوة الشباب، يتقدمهم المغفور له محمد بك فريد، وما كاد القطار يصل إلى إفريز المحطة حتى دهش الفقيد لكثرة هذه الجموع التى جاءت لتحيته، وإغرو رقت عيناه بالدموع من التأثر، ولم يكذب يقف القطار حتى ضج الجمع بالهتاف: « ليحيى صاحب اللواء، ليحيى الرئيس، ليحيى الباشا»، وكرروا هذا الهتاف قبل وقوف القطار وبعد وقوفه، ولما تقدم أصدقاء الزعيم وأخصاؤه لتحيته تعذر الوصول إليه لأنه



مصطفى كامل
(سنة ١٩٠٧)

كان محوطا بسور من الجماهير المتلاحمة المتزاحمة، إلى حد جعل الجباه تتصبب عرقا، ومازالت الجماهير تحيط به إلى أن وصل خارج المحطة وهناك وقف قائلاً:

«إني أشكركم من صميم فؤادي على مظاهرتكم السامية، وأدعوكم لأن تقولوا «لتحيى مصر»، إنكم تعرفون جميعاً أنى لست إلا أضعف خادم لهذه البلاد العزيزة، وأنى إنما أقوم ببعض الواجب لها، فكل تحية منكم هى موجهة لها بالذات، ولا يمكننى أن أقبلها إلا بهذه الصفة، فاسمحوا لى أن أشكركم باسم مصر شكراً جزيلاً، وأسأل الله أن يحقق آمالى وآمالكم وأدعوكم لأن تقولوا معى: «لتحيى مصر، ليحيى الاستقلال»، فرددت الجموع هذا الهتاف عالياً، وقد وقفت حركة المحطة نحو نصف ساعة. لم يستطع فيها أحد من ركاب القطار على مافيه من الكبرياء والعظمة أن يبرح مكانه، حتى انصرفت تلك الجموع، وكان هذا الاستقبال هو الأول من نوعه فى الاستقبالات الوطنية الرائعة، إذ لم يسبق أن قوبل زعيم فى عهد الاحتلال بمثل هذه المظاهرة الكبرى، وبخاصة لأنها حصلت من غير سابق اتفاق أو دعوة أو دعاية أو توريط، بل كانت وحي الشعور الوطنى الصادق الذى أنطبع فى نفوس المصريين، تقديراً لجهاد الفقيد وتشبعاً بروحه الوطنية.

الفصل الرابع عشر

تأسيس الحزب الوطنى (حزب الجلاء)

كان اسم (الحزب الوطنى) يطلق منذ بداية ظهور مصطفى كامل على جماعة الوطنيين الذين ينادون بالاستقلال والجلاء، وكان الفقيه يعتبره موجوداً منذ الساعة الأولى، والصحف الأوروبية تعبر عن أنصاره بالحزب الوطنى على أنه لم يكن ثمة حزب منظم له رئيس وأعضاء ومجلس إدارة، ولكنه كان موجوداً بالفعل كفكرة تضم حولها الأنصار والمجاهدين، قال مصطفى كامل فى هذا الصدد فى لواء ١٠ أكتوبر سنة ١٩٠٧: «إن الحزب الوطنى المصرى الذى جعل أول مراميه وأسمى غاياته استقلال مصر ورد حقوقها إليها موجود فيها فعلاً من ثلاثة عشر عاماً مضت، فهو وإن لم يظهر بتشكيل نظامى وبلائحة ولجنة إدارة قد ظهر بأعمال اتفق أعضاءه على خدمة البلاد بكل قوة، قاوم الاحتلال فى أوروبا ومصر مقاومة شهدها كل المصريين والغربيين، وارتبط بروابط أكيدة مع جملة من سواس أوروبا، ولما حدثت حادثة (فاشودة) ضعفت هم بعض رجال الحزب، كما انفصل عنه بعض أفراد لتمكن اليأس من قلوبهم، وثبت فى موقفه من أعتقد أن فى نهضة الأمة بنفسها سلامتها وبلوغها كل مأربها».

وقال فريد بك فى هذا الصدد: «قضى رحمه الله خمس عشرة سنة من حياته أى منذ كانت سنة تسعة عشر عاماً فى تكوين الحزب الوطنى، فابتدأ بأن جمع حوله بعض إخوانه المخلصين وكون منهم جماعة مخلصه له ولعمله».

ثم فكر سنة ١٩٠٠ فى جعل الحزب حزباً منظماً على غرار الأحزاب الأخرى الأوروبية، وكتب فى عدد ٢ يوليه سنة ١٩٠٠ من اللواء مقالا بعنوان (حزب وطنى حر فى مصر) أعرب فيه عن أمنيته فى تأسيس هذا الحزب، كتب مقاله هذا من (بودابست)، حيث أعجبه مارآه من وطنية الشعب المجرى، قال فى هذا الصدد:

«إن تاريخ هذا الوطن المجرى هو أكبر مدرسة لرجل مثلى وهب حياته لخدمة وطنه وإعلاء شأنه»، وختم مقاله بقوله: «هل يسمح لى الزمان بأن أرى فى مصر هذا الحزب الوطنى الحر الشريف المبادئ، المتحد الأعضاء الناهض بالأمة إلى مراقى النجاح والفلاح؟ إني أعرف أن اليائسين سيقولون إن (تأسيس حزب كهذا أمر محال) ولكنى إذا كنت لا أياس من خلاص بلادى فمحال على أن أياس من تحقيق هذا الأمر الجليل».

وفى سنة ١٩٠٧ إعتزام تنفيذ فكرته بوضع نظام للحزب الوطنى، وفى ذلك يقول فى لواء ١٠ أكتوبر سنة ١٩٠٧: «ولما كان لكل عمل وقت فقد جاء الوقت لأن يوضع للحزب الوطنى نظام تام بجمع كافة رجاله وأنصاره ومحبيه الذين مضوا السنوات وهم مشاركون لنا فى العمل بكل أنواع المشاركة، وإنى من ساعة وصولى الإسكندرية (٧ أكتوبر سنة ١٩٠٧) إلى هذه الساعة وكل واحد من رجال هذا الحزب وأبطاله الكرام يطالبنى بوضع هذا النظام بصورة نهائية حتى يتم التعاون بين جميع المخلصين لبلادهم المحبين لأمتهم المتشربين بمبادئ الشهامة والإرادة والصدق والإقدام فتكون الخدمة أجل وأكبر، والعمل أفيد وأعظم».

خطبته الكبرى بالاسكندرية

(٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧)

وقد اعتزم عقب عودته من أوروبا إلقاء خطبة كبرى بالاسكندرية جعلها بمثابة دعوة عامة إلى الانضمام إلى الحزب الوطنى، واتخذ (الجللاء) مبدأ للحزب حتى صار أصحّ تعريف له أنه (حزب الجللاء).

كانت هذه الخطبة أكبر خطبة سياسية وطنية ألقاها فى حياته، وأحدثت من التأثير ما لم تحدثه أية خطبة أخرى، وهى لا تزال ماثلة فى الأذهان أكثر من أية خطابة أو كتابة للفقيد، وقد حدد لإلقائها مساء الثلاثاء ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧ بمسرح زيرينيا. وما ان أعلن اللواء عن موعد إلقائها حتى إنهاالت الطلبات من الراغبين فى سماعها، وفى مساء ذلك اليوم ازدحم المسرح على سعته بالحاضرين الذين جاءوا من كل صوب لسماع تلك الخطبة، وجلهم من عليه القوم وفضلائهم وذوى المكانة الأدبية، والشباب المثقف، وكل

ذى وطنية صادقة، حتى زخر المكان بهم، ولم يتسع لهم، فوقف الكثيرون منهم في حديقة المسرح وفي الشوارع المجاورة له، وبلغ عدد الحاضرين نحو سبعة آلاف، وهو أكبر عدد إجتمع لسماع الخطيب وما أن ظهر على منصة الخطابة في منتصف الساعة التاسعة مساء حتى ضج المكان بالتهليل والتصفيق الشديد، وهتفوا جميعاً: «لتحيى مصر، ليحيى خدام الوطن، لتحيى الوطنية».

ثم أخذ الفقيد يلقي خطبته، ولم يكن يقف عند موضع يحسن الوقوف عنده إلا دوى المكان بالتصفيق وإظهار علامات الرضا والاستحسان، ولما تكرر التصفيق إضطر الفقيد أن يتقدم إلى السامعين بالرجاء ألا يصفقوا ففعلوا، ثم عادوا إلى التصفيق، وإستغرق إلقاء الخطبة نحو ساعة ونصف.

والخطبة هي أقوى خطب الفقيد وأعظمها شأنًا، بل كانت أعظم خطبة أُلقيت في مصر والشرق منذ أقدم العصور، بدأها بشكر الحاضرين، ثم تكلم عن حياة مصر الوطنية بعد الاتفاق الودى الفرنسى الإنجليزى، ونوه بالخطوات الواسعة التى خطتها الحركة الوطنية برغم هذا الاتفاق، بعد أن كان الإنجليز يظنون أنه سيقضى على أمل الأمة، وأبان أن اعتماد الأمة على نفسها هو سبيلها إلى الاستقلال.

قال فى هذا الصدد:

«إن العزلة التى صرنا إليها بعثت فينا روحاً جديدة وأرشدتنا إلى الحقيقة التى لا قوام لشعب بدونها ولا حياة لأمة بغيرها ولا وجود لنفر من الناس إذا لم يتبعوها وهى أن الأمم لا تنهض إلا بنفسها ولا تسترد استقلالها إلا بمجهوداتها، وأن الشعب كالفرد لا يكون آمناً على نفسه إلا إذا كان قوياً بنفسه مستجمعاً لكل عدد الدفاع وآلات الذبّ عن الشرف والمال والحياة».

ودعا الأمة فى خطبته إلى الانضمام إلى الحزب الوطنى.

وقد تضمنت الخطبة كلمات رائعة للفقيد لا تزال وستظل مضرب الأمثال فى قوة الوطنية والثبات فى الجهاد، وسنوردها فى الفصل الحادى والعشرين تحت عنوان (كلماته الخالدة).

وصف الاجتماع وتأثير الخطبة

كان للخطبة تأثير بالغ في النفوس وفي الأندية السياسية والدوائر الأوروبية قالت جريدة «الريفورم» في وصفها ما يأتي:

«لا يتاح للمرء في كل يوم أن يحضر خطبة سياسية في مصر، والحق يقال أن مصطفى كامل باشا هو الوحيد الذي اتبع طريقة الخطابة، وهو وحده الذي يسمعنا الخطب السياسية في مصر، فكما رأيناه منذ عشر سنوات في تياترو زيزينيا يخطب رأيناه مساء أمس في التياتر ونفسه خطيباً سياسياً، وبديهي أن الصحفي لا يدع فرصة تفوته من هذا القليل، بل إن أقل المخبرين والصحفيين مهارة يرى نفسه مضطراً إلى الكتابة عن خطبة رجل تمكن من جمع أكثر من ستة آلاف إنسان في مظاهرة وطنية، أضف إلى حشد هذا العدد العظيم جمع عدد من رجال الشرطة، فالصحفي الذي لا يخبر قراءه بمثل هذا الاجتماع هو صحفي مقصر في واجبات وظيفته.

«وعلى هذا نقول لقرائنا إنه ما وافت الساعة النامنة مساء حتى تقاطرت جماهير لوطنين إلى تياتر وزيزينيا فملأوا الألوام والكراسى وإزدحم الملعب بهم أى مزدحم حتى لم يبق موطئ لقدم، بل لقد غصت المماسى والحديقة بالناس يأتون أفواجا حتى امتلأ بهم الشارع، وقد كان الحاضرون بين باشوات وبكوات عقلاء وأفندية متحمسين، قادمين من جميع جهات الوجه البحرى لسماع خطبة «الرئيس» كما يلقبونه بذلك، وكان في الحضور صفوة المحامين والأطباء الوطنيين في الدلتا والقاهرة، وكانت نظرات الذكاء تلمع من خلف نظاراتهم الذهبية، وفيهم كل الشبيبة المصرية من جميع المدارس، أولئك الطلبة الذين ابتدأوا يشعرون بالحياة وتنطبع في قلوبهم العواطف الصادقة، والعقائد السليمة.

«كان المنظر فخماً جليلاً، منظر هذه الطرايبش الحمراء التى ملأت الملعب جميعه وبينها هنا وهناك بعض العمائم البيضاء، كان المنظر جامعاً بين زهور مختلفة من أزهار الإنسانية، كان داعياً إلى الدرس الفلسفى والاجتماعى، وما أجدر منه بذلك وهو يمثل الألوف من العقول البشرية، وما أجدر منه بالتأمل والتفكير وهو يجمع في جلته طلبة المدارس

المصرية هؤلاء الطلبة الذين سيكونون غداً رجال مصر وقوتها، هم الذين كانوا أشد استحساناً وتصفيقاً للخطبة مصطفى كامل، وأكثر تحية وإجلالاً له، إن أذن الأوروبي المتعودة سماع الفصاحة الغربية قد لا تألف الفصاحة الشرقية ولا تتأثر كثيراً بنبرات صوت الخطيب الشرقى وتنقله بين إرتفاع وإنحدار وغير ذلك مما يناسب مقام التأثير على السامعين، ولكن هذا الشأن لا يصدق علينا نحن الذين عشنا في مصر عشرات من السنين وألفنا سماع الفصاحة الشرقية وما فيها من قوة التأثير وحسن الإنشاء والتوقيع وجزالة اللفظ ورقة المعنى، ولقد كان الخطيب جامعاً لكل ذلك وتأثيره شديداً في الحاضرين يمكن اتباع أثره على وجوههم من دقيقة إلى أخرى، كان تأثيره بحيث لم تكف الأيدي عن التصفيق له تصفيقاً صادراً من أعماق القلوب خالياً من كل تملق.

«إن لهذا الرجل قوة حقيقية على جمهور الوطنيين، ومن ينكر ذلك فهو ينكر الحقيقة الساطعة، إن كلامه مؤثر في النفوس تأثيراً عظيماً، على أننا نرى حفا علينا مدحه، لأنه لم يلعب بهذه العقول التي ملكها، ولم يستخدم تأثيره في الحاضرين لطبع أثر سيء في النفوس، بل كان كلامه غاية في الاعتدال؛ لم يستعمل عبارة حادة ولا استخدم ألفاظاً جارحة، وقد دامت خطبة رصيفنا إلى الساعة العاشرة، أى أنه ظل يخطب أكثر من ساعة ونصف دون أن يتولاه أقل تعب، ولما انتهى خبابه صفق له الحاضرون تصفيقاً حاداً، وارتفعت الأصوات قائلة: ليحيى مصطفى كامل ليحيى الحزب الوطنى. ويقدر عدد الذين حضروا هذه الخطبة بنحو سبعة آلاف إنسان، وقد إنصرفوا بهدوء لم تعد معه فائدة للقوة التي حشدتها البوليس».

وكان للخطبة صدى كبير في أوروبا، وخصصت لها جريدة (الطان) الفرنسية مقالها الافتتاحى، واقتبست فقرات منها، وأفاضت بنوع خاص فيما ورد في الخطبة عن علاقة الإسلام بالمدنية، وكذلك فعلت جريدة (الفيجارو)، ووصفت (الإكلير) الاجتماع وأشار إلى المظاهرة الكبرى التي قوبل بها الفقيد واقتبست فقرات من الخطبة، ونشرت جريدة الدبلى نيوز الإنجليزية مقالة افتتاحية بحثت فيها حركة الإصلاح التي ظهرت في العالم الإسلامى، وعدت مصطفى كامل باشا الرئيس السياسى للنهضة الإسلامية، وقالت إنه أقوى صحافى في العالم الإسلامى، وقالت عن الخطبة إنها غاية في الفصاحة، وإستطردت

من ذلك إلى إنتقاد السياسة التى ترمى إلى صبغ مصر بالصبغة الإنجليزية، وطلبت العفو عن مسجونى دنشواى وتعليم العلوم فى المدارس المصرية باللغة العربية.

أول جمعية عمومية للحزب الوطنى

(٢٧ ديسمبر سنة ١٩٠٧)

وما أن دعا الفقيد الأمة إلى الانضمام للحزب الوطنى حتى انبهالت طلبات الانضمام إليه من كل جانب، وعقدت أول جمعية للحزب بمصر يوم الجمعة ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٠٧ بدار اللواء، وكان اجتماعا حافلا تملت فيه طبقات الأمة من أعيان ومزارعين وسراة ومحامين وتجار وأطباء ومهندسين وأرباب أعمال وصناع وما إلى ذلك، وأحصيت تذاكر الدعوة التى قدمها المجتمعون فكان عددها ١٠١٩ تذكرة، وبلغ عدد الاعتذارات البرقية والبريدية (٨٤٦) اعتذاراً، وافتتح مصطفى كامل الجمعية العمومية بخطبة نوه فيها بوجود الحزب الوطنى من قديم، ثم أشار إلى ضرورة تنظيمه، وقال عن أغراض الحزب: «إننا لسنا حزياً سياسياً فقط بل نحن قبل كل شىء حزب حياة للأمة وإنهاض لها، فلا نغفل التعليم بين سائر الطبقات لحظة واحدة، وهو يرمى إلى الاستقلال أس كل سعادة، ويعمل لنشر التعليم حتى لا يبقى مصرى جاهلاً تحت سماء مصر، ويسعى للوفاق بين الأمة وتقريب المسافة بينها وبين الشعوب الأخرى، وهو يرمى قبل كل شىء إلى أن يكون المصرى إنساناً بأسمى معانى الكلمة، وأقصد بالمصرى ليس فقط ذلك الذى نراه فى المدائن يجذ ويعمل، بل أقصد بنوع خاص ذلك الفلاح الذى قضى القرون من السنين وهو يعتقد أنه ملك للحاكم ومتاع لا إرادة له، فأسمى عمل نقوم به هو إنهاض ذلك الفلاح العزيز وإعلاء مكانته، فهو يمثل النشاط المصرى، ومصدر كل خير ونعيم؛ فليحيى عصر ينطق فيه التاريخ بأن الفلاح ألقى أثقال القرون الماضية وصار رجلاً حراً بفضل أبناء وطنه المتعلمين المجاهدين فى سبيل حريته وسعادته».

ثم قال:

«إننا إذا دعونا الناس للدخول فى هذا الحزب لا ندعوهم باسم سلطة عالية أو حاكم نافذ الكلمة، بل ندعوهم باسم وطنيتهم، باسم شرفهم، باسم حقوق وطنهم، باسم كرامة

الإنسان، باسم ذكريات آبائهم وأجدادهم، باسم مصالح أبنائهم وأحفادهم». ثم نفى تهمة الثورة التي ينسبها بعض خصومه إليه وتشبيهه بحزب العرابيين، وحمل على سياسة الاستسلام للاحتلال، واستنكر الحكم المطلق، ودعا إلى التمسك بالنظام الدستوري، وحث على الثبات والاتحاد، وقد قوبلت الخطبة بالتصفيق الشديد والاستحسان المتواصل.

ثم ألقى محمود بك أنيس كلمة مجّد فيها أعمال الفقيد وجهاده في سبيل مصر، وانتخب الحاضرون بالإجماع مصطفى كامل رئيساً للحزب الوطني مدى الحياة، فوقف الفقيد وارتمل فيهم الكلمة الآتية:

«أيها الإخوان:

«إنكم حملتموني طول حياتي حملاً ثقيلاً على كاهلي، فأنا قبل كل شيء، أشكر لكم ثقتكم بي، هذه الثقة التي كانت عوناً لي في كل أعمالي، وأقول لكم إنكم أنتم قوتي وساعدي بصفحتكم من خير أمة أوقفت لخدمتها حياتي وقواي وعقلي وقلبي وقلمي ولساني وصحتي، وكم من صديق قال لي أشفق على صحتك التي لا تدخر وسعاً في هذا، ولكن الواجب لبلادي ووطني ينسيني هذه النصائح الثمينة، فأنا الآن إذا قبلت إختياركم لي رئيساً فإنما هو لثقتي بأن كل واحد منكم أصبح حياتي وشعوري وإعتمادى، بل صار كل منكم في الشعور الوطني أكبر من «مصطفى كامل»

ثم وقف فؤاد بك سليم (باشا) وأخذ يتلو لائحة الحزب مادة فمادة والحاضرون يبدون رأيهم فيها، وبعد المناقشة صدقوا على نصها النهائي، وأهم ما جاء فيها أن رئيس الحزب هو مصطفى كامل مدى الحياة وأن الجمعية العمومية للحزب تجتمع مرة في كل سنة في شهر ديسمبر باسم (المؤتمر الوطني)، واختصاصاتها انتخاب اللجنة الإدارية والتصديق على ميزانية الحزب وأعماله والنظر في اقتراحات الأعضاء وتقرير كل أمر نافع للبلاد، وتناقش الجمعية في كل إجتماع المسائل الحيوية كافة للقطر المصري، ويبدى الأعضاء آراءهم في كل أمر مهم، وتؤلف من أبحاثهم وأقوالهم مجموعة سنوية باسم (تقرير الحزب الوطني)، وتؤلف اللجنة الإدارية من ثلاثين عضواً عدا الرئيس، وتنتخب لمدة ثلاث سنوات، وتجتمع مرة في كل شهر على الأقل، وتنتخب وكيلين للحزب وسكرتيراً وأمين

الصندوق لتنفيذ قرارات اللجنة الإدارية وتجتمع مرة في كل أسبوع على الأقل، وينشأ ناد للحزب وفروع له في الأقاليم.

وبعد التصديق على اللائحة انتخب الحاضرون الأعضاء الثلاثين للجنة الإدارية الأولى وهم: محمد بك فريد. أحمد فائق باشا. حسن حارس باشا. سيد باشا شكرى. على باشا آصف. عمر بك سلطان (باشا). محمود بك أنيس. فؤاد بك سليم الحجازى (باشا). الأستاذ ويصا واصف (رئيس مجلس النواب سابقاً). الدكتور حسين يسرى بك. محمود بك محرم رستم. يوسف بك ذهنى. على بك فهمى كامل. على بك حشمت. محمود بك حسيب. عبد الحميد بك عمار. محمد بك حافظ رمضان (باشا). شمس الدين بك حمودة. إسماعيل بك لبيب. محمد بك خلوصى. محمد بك رشوان. عبد الرؤوف بك السيوفى. يوسف بك حافظ. إبراهيم بك حفطى. عبد الله بك طلعت. على بك لهيطة. إسماعيل بك الملوانى. محمد بك عبد اللطيف. محمود بك فهمى حسين. الدكتور أحمد فهمى الجهنى. وانتهى الاجتماع فى الساعة السادسة مساءً، وانتخبت اللجنة الإدارية محمد بك فريد وأحمد فائق باشا وكيلين للحزب، وفؤاد بك سليم (باشا) سكرتيراً، وعمر بك سلطان (باشا) أميناً للصندوق.

وفى ٤ فبراير سنة ١٩٠٨ استقال عمر بك سلطان (باشا) من أمانة الصندوق مع بقائه عضواً باللجنة الإدارية، وانتخب على بك المنزلاوى ومصطفى بك الخادم المحامى عضوين فى اللجنة الإدارية بدلا من سيد باشا شكرى وعبد الرؤوف بك السيوفى المستقلين من عضوية اللجنة.

الإفراج عن مسجونى دنشواى

ما فتىء الفقيد يطالب بالعفو عن مسجونى دنشواى، لكى يمحى أثر من آثار الظلم الذى وقع بالأبرياء من شهداء هذه الحادثة، ودعا المصريين إلى تقديم العرائض إلى الخديو بهذا الطلب، وقد لبث الأمة دعوته وأقبل المصريون على رفع العرائض الإجماعية إلى الخديو فى هذا الصدد وبلغت عدتها ١٤٨ عريضة وقع عليها ١٢٦٧٠ من المصريين، وتردد صدى هذه الحركة فى أوروبا وإنجلترا، إذ طالب بعض النواب الأحرار فى البرلمان

البريطاني بالإفراج عن مسجونى هذه الحادثة، وكان من نتائج هذه الحركة المزدوجة أن تقرر فى شهر ديسمبر سنة ١٩٠٧ العفو عنهم، على أن ينفذ العفو فى يوم عيد الجلوس الخديوى (٨ يناير سنة ١٩٠٨)، وكان اللواء أول من زفّ إلى الأمة هذه البشرى، ولما اجتمعت الجمعية العمومية للحزب الوطنى فى يوم ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٠٧ بدار اللواء كان من قراراتها إرسال كتاب شكر إلى الخديو على هذا العفو، وإرسال تلغرافات شكر إلى السير هنرى كامبل بانرمان رئيس الوزارة الإنجليزية والمستر نورمن النائب بالبرلمان الإنجليزى وإلى مدير جريدة (الدبلى نيوز) على سعيهم فى استصدار هذا العفو.

وقد أفرج عن المسجونين الباقين يوم ٧ يناير لا يوم ٨، لكى لا تحدث مظاهرات فى اليوم المحدد للإفراج عنهم، وكان عددهم تسعة، منهم ثلاثة كانوا فى سجن الدلتا وهم محمد عبد النبى، وأحمد عبد العال محفوظ، وكان محكوماً عليهما بالأشغال الشاقة المؤبدة، ومحمد مصطفى محفوظ، وكان محكوماً عليه بالسجن سبع سنوات، وواحد كان فى سجن أبى زعبل وهو العيسوى محمد محفوظ، وكان محكوماً عليه بسبع سنوات وخمسة كانوا بليمان طره منهم واحد كان محكوماً عليه بالأشغال الشاقة خمس عشرة سنة وهو أحمد محمد السيسى والباقون كان محكوماً على كل منهم بالسجن سبع سنوات، وهم عبده البقلى ورسلان السيد على وعلى سمك وعلى على شعلان.

وقد قبل نبأ الإفراج عنهم بالاستحسان والابتهاج العام فى البلاد، وهرع الذين خرجوا من السجن إلى القاهرة قاصدين دار (اللواء) ليقابلوا الفقيد ويقدموا له شكرهم على دفاعه المجيد عنهم، ويعربوا له عن اعترافهم بجميله إذ كان صاحب الفضل فى إطلاق سراحهم، ولكن الزعيم كان طريح الفراش فى مرضه الأخير، فلم يستطيعوا مقابلته وأعربوا اللواء عن شعورهم نحو منقذهم العظيم.

الفصل الخامس عشر

القضاء المحتوم

(١٠ فبراير سنة ١٩٠٨)

كانت صحة الفقيد يعثرها التعب والاعتلال من الجهد الذى حملها إياه، وتدل رسائله الخاصة على أن صحته كانت فى حاجة إلى الراحة والعلاج قبل الوفاة بعدة سنوات، ولكنه كان ماضياً فى سبيله، لا يبالي أن يحملها ما لا تطيق من التعب والعناء. كتب إلى مدام جوليت آدم من فيشى فى ٢٥ سبتمبر سنة ١٩٠٣ يقول:

«يجب أن أقضى معظم هذا الشهر فى (التيرويل) مع صديقى فريد بك الذى تشرفت بتعريفه إليك منذ سنتين، لأن الأطباء قد رأوا أنه من الواجب أن أمضى فى الجبل بعض الزمن، إذ أخذ التعب يستولى على أعصابى، ولهم الحق فى ذلك فإنى لم أشفق على نفسى».

وكتب إليها فى ٢٥ يونيه سنة ١٩٠٥ كتاباً قال فيه:

«إن العمل قد أضنانى إلى حد أشعر معه بسرعة الحاجة إلى ترك الوسط الذى أعيش فيه، وكأن الطبيعة قد خالفت سنتها، إذ جعلت قوة روحى أكبر من قوة جسمى».

وقد سافر فى يولييه من تلك السنة إلى أوروبا وقصد إلى لوزان وعرض نفسه على الدكتور بورجييه ليعالجه من مرض فى أمعائه كان يشتد به أحياناً فيؤله كثيراً وفى صيف سنة ١٩٠٦ ذهب إلى أوروبا للاستشفاء والعلاج، وكان فى حاجة قصوى إلى الراحة، ولكن حادثة دنشواى جعلته يقطع على نفسه سبيل الراحة والعلاج، فنهض نهضة الأسد، وبذل تلك الجهود الهائلة التى لا تصدر إلا عن أقوى الناس صحة وجسماً، ولما سافر إلى باريس ولندن فى شتاء سنة ١٩٠٦ يصحبه محمد بك فريد لاختيار محررى جريدتى ليتندار اجبسيان وذى اجبشيان ستندارد عاوده المرض فى أثناء الرحلة، ولزم الفراش بباريس عدة أيام عاد بعدها إلى الجهاد والكفاح.

وفي صيف سنة ١٩٠٧ ذهب إلى فرنسا كعادته كل عام للاستشفاء والجهاد، وكانت هذه آخر رحلة له بأوروبا، وكان يشعر بديب المرض يعتريه أحياناً، اذكر المسيو أدولف اديرير (مراسل الاتيندار في باريس) أنه قابله وقتئذ بباريس فكان يقول له: «إني أشعر أن المرض قد دبّ إليّ، ترى هل أعيش حتى أرى أول نجاح لجهودي؟ ليحصد الآخرون نتائج جهودي، ولكن ليكن لي وقت كاف للغرس والزرع، وكان هذا القول نذيراً بخطورة مرضه، وقد قابله في شهر أغسطس في إفيان على بحيرة جنيف حيث قصدها للعلاج، وكان يلزمه أن يمكث بها واحداً وعشرين يوماً للاستشفاء بحماماتها، ولكنه لم يمكث بها غير عشرة أيام لشعوره بضعف قواه، فسافر إلى أعالي جبال سويسرا، ولم يلبث بها غير بضعة أيام، لأنه لم يكن يستريح أينما توجه، قال المسيو اديرير: «وجاء شهر سبتمبر فعدت وإياه إلى باريس ولم أتركه حتى ساعة سفره، وكان دائماً متوَعك الصحة، فكنت أرى هذا الوجه الذي ترسم عليه الشجاعة، والذكاء والإقدام ممتعاً شاحباً، وقد سافر منهوِكاً إلى حيث لا يعود إلينا أبداً».

وقد عاد الفقيـد إلى مصر في أكتوبر ١٩٠٧، فقابله الشعب بأعظم مظاهرة قبول بها في حياته، وأخذ يبذل الجهود الجبارة لتنظيم الحزب الوطني حتى إذا لم يكن في عمره متسع، لا يخشى عليه من الإنحلال، وألقى خطبته الشهيرة بالإسكندرية يوم ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧، وعلامات الضعف بادية على محياه، وقد لمحها أصدقاؤه الأقربون.

واشتدت به العلة قبل وفاته بثلاثة أشهر، ولكنه كان يغالب المرض ويجاهد جهاد الأبطال، ولما حان موعد اجتماع الجمعية التأسيسية للحزب الوطني يوم ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٠٧، ترك سرير مرضه ونزل إلى سياحة دار اللواء حيث اجتمعت الجمعية العمومية، وألقى خطبته كأقـدر وأقوى خطيب، حتى دهش السامعون لبلاغته وبراعة إلقائه وقوة جنانـه، مع ما كان بادياً عليه من الضعف، وكانت هذه آخر خطبة ألقاها رحمه الله، ثم اشتد به المرض عقب الاجتماع وعاد إلى غرفته مريضاً ولم يغادرها، وقد بلغه في صباح اليوم التالي للاجتماع نبأ وفاة صديقه ونصيره الكبير لطيف باشا سليم أحد مؤسسي الحزب الوطني وأحد أعلام الحركة الوطنية فجزع لوفاته جزعاً شديداً، وازداد ما به من المرض حزناً على صديقه العظيم.

وكان وهو على سرير المرض لا يدع العمل والتفكير، فقد أرسل وهو طريح الفراش

قبل وفاته بخمسة أيام احتجاجاً برقياً قوياً ضد تصريحات فاه بها السير إدوارد جرای في مجلس العموم البريطاني اتهم فيها المصريين بعدم الكفاية للحكم الذاتي، فرد عليه بأن مصر تماثل في الاستعداد للحكم الذاتي كثيراً من الأمم الأوروبية، وأن مصر ستظل تجاهد في سبيل حريتها واستقلالها حتى تنالها.

الوفاة

وأخذ المرض يشتد ويلح عليه أعين الطب والأطباء، إلى أن حُتم القضاء، وأسلم الفقيه الروح في الساعة الرابعة من عصر يوم الاثنين ١٠ فبراير سنة ١٩٠٨ (٨ محرم سنة ١٣٢٦ هـ)، فانتشر نعيه بسرعة البرق في العاصمة والأقاليم، وطيرت الأسلاك البرقية خبره إلى الخارج، وملاً النبأ الفاجع جنبات وادي النيل، وياها من لحظة رهبة حين فوجئنا بالنعي ونحن في مدرسة الحقوق، فقابلناه بالذهول والوجوم، وفاضت دموعنا حزناً وأسى على الفقيه الذي كان لنا إماماً وطنياً، وأبا روحياً، وما كاد يذيع نعيه حتى عم الحزن أرجاء مصر، فكان له في كل نفس مناحة وفي كل قلب مأتم.

جنازة الزعيم

كان الاحتفال بتشييع جنازة مصطفى كامل يوماً مشهوداً في تاريخ الحركة الوطنية، كان مظهراً رائعاً لشعور الوطن نحو الزعيم، انبعث من القلوب المكلمة والأفئدة الحزينة لفقده، أرادت الأمة أن تشيعه إلى مقره الأخير، وأن تظهر وفاءها لباعث نهضتها الوطنية، وموقفها من رقدتها، وأدرك الناس كافة حتى الذين كانوا لا يؤمنون برسالة مصطفى كامل أن بطلها وزعيمها الشاب جدير حقاً بتقدير الوطن، ولم يكن هذا الشعور مقصوراً على طبقة دون أخرى، بل تناول طبقات الأمة كافة، شمل المتعلمين وغير المتعلمين، وتناول الكبار والصغار، والرجال والنساء.

لم يكد يذاع خبر الوفاة بين طلبة المدارس حتى قرروا بحض شعورهم اعتبار يوم تشييع الجنازة يوم حداد عام، عطلت فيه المدارس كلها حزناً على الزعيم، وقرروا جميعاً الاشتراك في الجنازة التي حدد لها عصر يوم الثلاثاء ١١ فبراير، فسرنا فيها جميعاً

مدفوعين بشعور واحد، شعور الحزن للفجيعة، والوداع للراحل العظيم.

ومع عظم منزلة الفقيد، لم يكن متوقعاً أن تكون الجنازة بالضخامة والروعة والعظمة التي تجلت فيها، وكان مقررأ أن تسير من طريق سراى عابدين ومنها إلى باب الخلق فمدافن الإمام الشافعي، واختير هذا الطريق بدلاً من طريق السيدة زينب، القماساً لاتساع الشوارع وطولها منعاً للزحام، ولكن بواذر الحال دلت على أن هذه الشوارع مهما اتسعت فإنها لا تكفى للجموع الزاخرة والألوف المؤلفة التي قدمت من نواحي العاصمة كافة، ومن الضواحي والثغور والأقاليم، واكتظت بها الشوارع المحيطة بدار اللواء قبل الموعد المحدد لتشييع الجنازة بأربع ساعات، فرؤى إلغاء القرار السابق واختيار أطول طريق للجنازة بين دار اللواء ومدافن الإمام، ليتسنى للجموع الحاشدة الاشتراك فيها وهو طريق شارع الدواوين (نوبار باشا الآن) حيث كانت دار اللواء^(١)، فشارع المدابغ فشارع المناخ فميدان الأوبرا فشارع البوستان فميدان العتبة الخضراء فشارع محمد علي (القلعة الآن) فميدان المنشية (صلاح الدين الآن) ومنه إلى مدافن الإمام، وهذه المسافة لا تقل عن اثني عشر كيلومتراً، وخصصت حكمدارية بوليس العاصمة أكبر قوة من العساكر المشاة والفرسان وأضافت إليها عدداً كبيراً من جنود الاحتياطى وقلم المرور، لتنظيم سير الجنازة، وأوقفت عدداً آخر من البوليس في منافذ الطرق على طول الخط للمحافظة على النظام، ولكن كل تقدير لعظم الموكب كان أقل من الواقع.

وأخذ العظماء والكبراء والمثقفون وطبقات الأمة كافة يفدون إلى دار اللواء حتى غصت بهم على سعتها، وفاض جمعهم المتدفق إلى شارع الدواوين فملأه، ثم ضاق بجموعهم الزاخرة، فامتلات بهم الشوارع المجاورة، وتعطل المرور من جميع الشوارع التي تتصل بطريق الجنازة، وأوقفت مركبات الترام في جميع خطوط العاصمة، وما حانت الساعة الثالثة بعد الظهر وهو الوقت المحدد للبدء بسير الجنازة حتى لم يبق موضع لقدم، وبدأت الجنازة في المسير، فتقدم المشهد الجنود الفرسان فتلاميذ مدرسة «مصطفى كامل»، فالمدارس الابتدائية الأميرية والأهلية، فطلبة مدرسة دار العلوم ومدرسة القضاء الشرعي، فالمدارس الثانوية وهي التوفيقية والخديوية والسعيدية وكثير من طلبة مدرسة رأس التين

(١) مكان مدرسة عابدين الابتدائية الآن.

بالإسكندرية ومدرسة عبد العزيز والمدرسة الإلهامية، ومدارس الأقباط الكبرى، وفيكتوريا والفريز، ثم المدارس العليا وهى الحقوق والطب والمهندسخانة والزراعة والصنائع، ثم عساكر البوليس وتلاميذ مدرسة البوليس، ثم نعش الزعيم مغطى بالراية المصرية، محمولاً على أعناق طلبة مدرسة الحقوق، مندوبين لذلك من قبل جميع طلبة المدارس العليا، وكانت كل مدرسة تحمل علماً مجللاً بالسواد وفيه شارة تدل عليها، وقد صنعت هذه الرايات خصيصاً للاشتراك فى الجنازة، كما أن مدرسة الزراعة رفعت أمامها شجرة مجللة بالسواد، ثم سار المشيعون خلف النعش، يتقدمهم المرحوم محمد بك فريد، وكان عددهم فى بدء الجنازة يزيد على عشرات الألوف، إلا أن ذلك الجمع الهائل لم يكن إلا قطرة من بحر ممن انضم إلى الجنازة أثناء مسيرها، حتى زحرت الشوارع بالمشيعين، ولما تعذر سيرهم فى موكب الجنازة وقف معظمهم على جانبي الشوارع من دار اللواء إلى مدفن الفقيد، وبلغ عدد المشيعين نحو ٢٥٠,٠٠٠ (ربع مليون) نفس، عدا الألوف الذين كانوا على جانبي الطريق، وفى نوافذ المنازل والفنادق وشرفاتها، وفوق أسطحها، وفى المنعطفات المترامية الأطراف، وجملة القول أن الشوارع الواقعة بين دار اللواء وقبر الفقيد كانت العين لا تقع فيها إلا على أجسام متراسة من المشيعين، أو كتعبير المسيو ريمون كولرا مدير جريدة (إيجيبت) فى وصف الجنازة: «إن شوارع القاهرة فيما بين دار الفقيد وقبره كانت مفروشة ببساط أحمر، إشارة إلى الطرابيش الحمراء، ومع اشتداد هذا الزحام الذى لم يسبق له نظير، كان النظام مستتباً، والسكون شاملاً رهيباً، ولم يكن يسمع أثناء سير الجنازة سوى بكاء الباكين والباقيات وزفرائهم، ونواحهم الصادر من أعماق قلوبهم، وكلهم يبكى شباب الزعيم ووطنيته، فكان هذا الاحتفال الرهيب أعظم وأروع جنازة فى تاريخ مصر الحديث، وصفها المرحوم قاسم أمين بقوله: «١١ فبراير سنة ١٩٠٨ يوم الاحتفال بجنازة مصطفى كامل، هى المرة الثانية التى رأيت فيها قلب مصر يخفق، المرة الأولى كان يوم تنفيذ حكم دنشواى، أما فى يوم الاحتفال بجنازة صاحب «اللواء» فقد ظهر ذلك الشعور ساطعاً فى قوة جماله، وانفجر بفرقة هائلة سمع دويها فى العاصمة ووصل صدى دويها إلى جميع أنحاء القطر، هذا الإحساس الجديد، هذا المولود الحديث الذى خرج من أحشاء الأمة، من دمها وأعصابها، هو الأمل الذى يبتسم فى وجوهنا البائسة، هو الشعاع الذى يرسل حرارته إلى قلوبنا الجامدة الباردة. هو المستقبل».

سارت الجنازة حتى جامع «قيسون» بشارع محمد على حيث أقيمت الصلاة على الفقيد. ثم تابعت سيرها في بحر زاخر من الجموع والدموع حتى مدفن الزعيم بقرافة الإمام الشافعى، واستمر سيرها أربع ساعات، ولما وصلت ساحة المدفن كانت على رحبتها غاصة بفريق من المشيعين ممن سبقوا الموكب تفادياً من الزحام وتعذر دخول الجموع الحاشدة إلى رحبة المدفن، وأبى طلبة المدارس إلا أن يدخلوا ولما لم يكن ذلك ميسوراً لاشتداد الزحام، انتدبت كل مدرسة وفدًا ينوب عنها، وكان حملة النعش منهم قد كثر عددهم، وأبو إلا أن يظلوا حاملية داخل المدفن حتى حافة الضريح الطاهر، فأجبيوا إلى طلبهم بعد تذليل الصعاب في إجابته، إذ كان الزحام الهائل داخل رحبة المدفن يحول دون ذلك.

وعندما اجتاز النعش ساحة المدفن وأدخل مكان الضريح ووضع على حافته ضجّ المكان بالبكاء والنحيب، وفي هذا الوقت وقف الشاعر الكبير إسماعيل صبرى باشا وكان صديقاً حميماً للزعيم ليلقى كلمة الوداع، فألقى البيت الأول منها وهو:

أداعى الأسى فى مصر ويحك داعياً هددت القوى إذ قمت بالأسى ناعياً
ولم يكدهم يلقى حتى ظهر عليه التأثير الشديد والإعياء، ولم يتم رثاءه.

قصيدة حافظ إبراهيم

ثم قام شاعر النيل حافظ إبراهيم وألقى قصيدته الرائعة في رثاء الفقيد، قال:

أيا قبرُ هذا الضيفُ آمال أمة	فكبرُ وهلل والقى ضيفك جاثياً
عزيزُ علينا أن نرى فيك مصطفى	شهادت العلا فى زهرة العمر ذوايا
أيا قبر لو أنا فقدناه وحده	لكن التأسى من جوى الحزن شافياً ^(٢)
ولكن فقدنا كلَّ شيء بفقده	وهيهات- أن يأتى به الدهر ثانيا
فيا سائلى أين المروءة والوفاء	وأين الحجا والرأى؟ ويحك ها هيا

(٢) التأسى بمعنى الصبر على المصيبة.

هنيئاً لهم^(٣) فليأمنوا كل صائح
ومات الذى أحيا الشعور وساقه
فقد أسكت الصوت الذى كان عالياً
إلى المجد فاستحيا النفوس البواليا^(٤)

* * *

مدحتك لما كنت حياً فلم أجد
عليك^(٥)، وإلا ما لذا الحزن شاملاً
يموت المداوى للنفوس ولا يرى
وكنا نياماً حينما كنت ساهداً^(٦)
وإني أجيد اليوم فيك المراثيا
وفيك، وإلا ما لذا الشعب باكياً
لما فيه من داء النفوس مداوياً
فأسهدتنا حزناً وأمسيّت غافياً^(٧)

* * *

شهيد العلا، لا زال صوتك بيننا
يهيبُ بنا: هذا بناء أقمته
يصيح بنا: لا تشعروا الناس أنى
يناشدنا بالله ألا تفرقوا
فروحى من هذا المقام مطلة
فلا تحزنوها بالخلاف فإننى
يرنُ كما قد كان بالأمس داوياً
فلا تهدموا بالله ما كنتُ بانياً
قضيتُ وأن الحى قد بات خالياً
وكونوا رجالاً لا تسروا الأعاديا
تشارفكم^(٨) عني وإن كنتُ باليا
أخاف عليكم في الخلاف الدواهيا

* * *

أجل أيها الداعى إلى الخير إننا
بناؤك محفوظ وطيفك مائل
عهدناك لا تبكى وتنكر أن يرى
فرخص لنا اليوم البكاء وفى غد
فيانيل إن لم تجر بعد وفاته
على العهد ما دمنا فتم أنت هانياً
وصوتك مسموع وإن كنت نائياً
أخو البأس فى بعض المواطن باكياً
ترانا كما تهوى جبلاً رواسياً
دماً أحمرأ لا كنت يا نيلُ جارياً

(٣) يريد الإنجليز.
(٤) استحيا: أى أحيا.
(٥) عليك: أى عليك الحزن.
(٦) ساهداً: ساهراً.
(٧) غافياً: أى نائياً.
(٨) تشارفه أى تنظر إليه من علو.



جائزة المغفور له مصطفى كامل - ١١ فبراير سنة ١٩٠٨
(هذه الصورة وصورتها الاحتفال بافتتاح نادي المدارس العليا أهداها إيلينا الأستاذ عبد المقصود متولى عضو
اللجنة الإدارية للحزب الوطني ومن خيرة تلاميذ الفقيد)

ويا (مصر) إن لم تحفظي ذكر عهده إلى الحشر لا زال انحلالك باقيا
ويا أهل (مصر) إن جهلتم مصابكم ثقوا أن نجم السعد قد غار هاويا
ثلاثون عاماً^(٩) بل ثلاثون ذرة بجيد الليالي ساطعات زواهيا
ستشهد في التاريخ أنك لم تكن فتى مفرداً بل كنت جيشاً مغازيا

ثم وقف المرحوم أحمد أفندي حلمي أحد محرري اللواء ومن خاصة تلاميذ الزعيم،
وألقى كلمة مؤثرة في وداعه، ثم أنزل جثمان الفقيد إلى مثواه الأخير بين الضجيج
والنحيب، ووضع المشيعون الأزهار والرياحين على قبره، وعادت الجموع تبكي زعيم
الحركة الوطنية ولبست العاصمة في ذلك اليوم الرهيب ثوب الحداد العام.

رثاء الزعيم وحفلات التآيين

اهتزت البلاد وروعت لوفاة الزعيم فجادت قرائح الشعراء والأدباء والكتاب بالمرثي
الصادرة من أعماق القلوب، ومن رثاء من أعلام الأدب شوقي بك أمير الشعراء وكان
من أصدق أصدقائه وأكثرهم إعجاباً به، وقد حزن عليه حزناً شديداً، وترجم عن شعوره
بقصيدة تجلت فيها حكمة الشعر وروعة البلاغة، نشرت يوم ٢٣ فبراير سنة ١٩٠٨
عقب وفاة الزعيم بثلاثة عشر يوماً، فآثرت في النفوس تأثيراً عميقاً، وجددت أحزان
الامة، ننشرها هنا لأنها قطعة من تاريخ الزعيم، وصورة حية بريشة أمير الشعراء.

رثاء شوقي لمصطفى كامل

(الحياة في الموت)

المشرقان عليك ينتحبان قاصيهما في ماتم والداف
ياخادم الإسلام أجر مجاهد في الله من خلد ومن رضوان
لما نعت إلى الحجاز مشى الأسى في الزائرين وروّع الحرمان

(٩) إشارة إلى عمر الفقيد وهو رقم تقريبي لأنه توفي في الرابعة والثلاثين من عمره.

السكة الكبرى^(١٠) حيال رباها
لم تألها عند الشدائد خدمة
يالت مكة والمدينة فازتا
ليرى الأواخر ذاك ويسمعوا
منكوسة الأعلام والقضبان
في الله والمختار والسلطان
في المحفلين بصوتك الرنان
ماغاب من قس ومن سحبان^(١١)

* * *

جار التراب وأنت أكرم راحل
أبكي صباك ولا أعاتب من جنى
يتساءلون أبالسلال قضيت أم
الله يشهد أن موتك بالحجا
ماذا لقيت من الوجود الفانى
هذا عليه كرامة للجاني^(١٢)
بالقلب أم هل مت بالسرطان
والجد والإقدام والعرفان

* * *

إن كان للأخلاق ركن قائم
بالله فتش عن فؤادك في الثرى
وجدانك الحى المقيم على المدى
في هذه الدنيا فأنت البانى
هل فيه آمال وفيه أمانى
ولرب حى ميت الوجدان

* * *

الناس جار في الحياة لغاية
والخلد في الدنيا وليس بهين
فلو أن رسل الله قد جبنوا لما
المجد والشرف الرفيع صحيفة
وأحب من طول الحياة بذلة
دقات قلب المرء قائلة له
فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها
للمرء في الدنيا وجم شؤونها
ومضلل يجرى لغير عنان
عليها المراتب لم تتح للجبان
ماتوا على دين ولا إيمان
جعلت لها الأخلاق كالعنوان
قصر يريك تقاصر الأقران
إن الحياة دقائق وثوان
فالذكر للإنسان عمر ثانى
ماشاء من ربح ومن خسران

(١٠) يريد سكة حديد الحجاز.

(١١) قس وسحبان خطيبان من أبليغ خطباء العرب.

(١٢) الجاني إشارة إلى الفقيد، أى أنه ضحى بحياته وشبابه في سبيل مصر.

فهى القضاء لراغب مطلع وهى المضيق لمؤثر السلوان

* * *

الناس غاد فى الشقاوة رائحٌ يشقى له الرحماء وهو الهانى
ومنعم لم يلق إلا لذة فى طيها شجنٌ من الأشجان
فاصبر على نعى الحياة وبؤسها نعى الحياة وبؤسها سيان

* * *

باطاهر الغدوات والروحوات ياتاهر الغدوات والروحوات
هل قام قبلك فى المدائن فاتح هل قام قبلك فى المدائن فاتح
يدعو إلى العلم الشريف وعنده يدعو إلى العلم الشريف وعنده
لفؤك فى علم البلاد منكسا لفؤك فى علم البلاد منكسا
ما احمر من خجل ولا من ريبة ما احمر من خجل ولا من ريبة
يزجون نعتك فى السناء وفى السنا يزجون نعتك فى السناء وفى السنا
وكانه نعت (الحسين «بكر بلا» وكانه نعت (الحسين «بكر بلا»
فى ذمة الله الكريم وبره فى ذمة الله الكريم وبره

* * *

ومشى جلال الموت وهو حقيقة ومشى جلال الموت وهو حقيقة
شقت لمنظرك الجيوب عقائل شقت لمنظرك الجيوب عقائل
والخلق حولك خاشعون كعهدهم والخلق حولك خاشعون كعهدهم
يتساءلون بأى قلب ترتقى يتساءلون بأى قلب ترتقى
فلو أن أوطانا تصوّر هيكلا ولو أن أوطانا تصوّر هيكلا
أو كان يحمل فى الجوارح ميت أو كان يحمل فى الجوارح ميت
أو صيغ من غر الفضائل والعلى أو صيغ من غر الفضائل والعلى
أو كان للذكر الحكيم بقية أو كان للذكر الحكيم بقية

* * *

ولقد نظرتك والردى بك محقق
 يبغى ويطفى والطبيب مضلل
 ونواظرُ العوَادِ عنك أمالها
 تملى وتكتب والمشاعل جمة
 فهششت لى حتى كأنك عائدى
 ورأيت كيف تموت آساد الشرى
 ووجدتُ فى ذاك الخيال عزائماً
 والداء ملء معالم الجثمان
 قنطُ وساعات الرحيل دوانى
 دمعُ تعالج كتمه وتعافى
 ويداك فى القرطاس ترتجفان
 وأنا الذى هدّ السقام كيافى
 وعرفت كيف مصارع الشجعان
 ماللمنون بدكهن يدان

* * *

وجعلتُ تسألنى الرثاء فهأكه
 لولا مغالبةُ الشجون لخاطرى
 وأنا الذى أرثى الشموس إذا هوت
 من أدمعى وسرائرى وجنائى
 لنظمتُ فيك يتيمة الأزمان
 فتعود سيرتها من الدوران

* * *

قد كنت تهتف فى الورى بقصائدى
 ماذا دهانى يوم بنتُ فعقنى
 هَوْنٌ عليك فلا شمت ببيت
 من للحسود بميتة بلّغتها
 عوفيت من حرب الحياة وحربها
 وتجلُّ فوق النيرات مكانى
 فيك القريض وخائنى إمكاني
 إن المنية غاية الإنسان
 عزت على كسرى أنو شروان
 فهل استرحت أم استراح الشانى

* * *

ياصَّبْ مصر وياشهيدَ غرامها
 إخلع على مصر شبابك غالياً
 فلعل مصرأً من شبابك ترتدى
 فلو إن بالهرمين من عزماته
 علّمت شبان المسدائن والقبرى
 مصر الأسيفة ريفها وصعيدها
 أفسمت أنك فى التراب طهارةً
 هذا ثرى مصر فتم بأمان
 والبس شباب الحور والولدان
 مجداً يتيه به على البلدان
 بعضُ المضاء تحرك الهرمان
 كيف الحياة تكون فى الشبان
 قبرٌ أبرُّ على عظامك حانى
 ملك يهاب سؤاله الملكان

حفلة التأبين الكبرى - يوم الأربعاء

أقام الحزب الوطني حفلة تأبين كبرى للفقيد يوم الأربعاء لوفاته (الجمعة ٢٠ مارس سنة ١٩٠٨)، وألف لجنة لتنظيمها برأسه المرحوم محمد بك فريد، وقد تجدد الحداد على الفقيد في ذلك اليوم، فكنت ترى معظم المحال التجارية مغلقة وعليها علامات الحداد، والأعلام منكسة تجللها شارات السواد، وعربات الركوب موقدة المصابيح مجللة بأشرطة سوداء، والشباب من فتيان وفتيات لابسين شارات الحداد، وكان محددًا لحفلة التأبين الساعة الثالثة عصر ذلك اليوم بالساحة الواسعة التي تحيط بضريح الزعيم بمدفن الإمام الشافعي، وكان البرنامج أن يتألف موكب الأربعاء ويسير بنظام من دار اللواء بشارع الدواوين (نوبار باشا الآن) إلى مدفن الزعيم، وهناك ينتظره المدعوون للحفلة، فمئذ أخذت وفود الطلبة وجموع الوطنيين يحتشدون في الشوارع المجاورة لدار اللواء، ثم انتظم منهم موكب رهيب يشبه في عظمته وعدده موكب تشييع الجنازة، وسار في نفس طريقها إلى مدفن الإمام، وتقدمه طلبة المدارس الابتدائية ثم الثانوية ثم الخصوصية ثم العالية ثم الأزهر، ولكل مدرسة علمها، ثم جمعيات الشبيبة وجماعات الصنائع وجمعيات الأقاليم وجمعية النهضة الوطنية ببولاق، تتلوها عربة الفقيد مجللة بالسواد لا يركبها أحد علامة على فقد صاحبها العظيم، ثم الوفود من أحياء العاصمة والأقاليم، وبدأ سير الموكب في الساعة الأولى بعد الظهر تمامًا، وسار بنظام رهيب حتى وصل إلى المدفن في الساعة الثالثة والدقيقة ٤٥، فكانت مظاهرة حداد قومية لم يسبق لها مثيل، وقد أعد الحزب الوطني مكان الاحتفال بعد أن أزال البناء الذي في تلك الساحة لكي يتسع لعشرة آلاف من المدعوين، وعند الساعة الثالثة بدأ الاحتفال قبل مجيء الموكب، فافتتح بتلاوة مائيسر من القرآن الكريم.

خطبة محمد بك فريد

وكان أول الخطباء المغفور له محمد بك فريد رئيس الحزب الوطني، فألقى الخطبة الآتية:

«إخوانى الأعزاء:

«إن اجتماعكم هذا لأكبر دليل وأسطع برهان على أن رئيسنا المرحوم مصطفى كامل باشا لم يمت، نعم لم تمت من جمعت كلمته هذه الألوف المؤلفة من الناس، بل هذه الملايين العديدة من الخلائق، بعد أن كنت لا ترى اثنين يتفقان على عمل ما، حتى ضرب بتخاذلنا المثل وقالوا إن المصريين اتفقوا على أن لا يتفقوا، ولكن الفقيه بث هذه الروح الجديدة بين جميع طبقات الأمة المصرية بثباته وعدم تزعزع عزيمته أمام ما صادفه من العقبات ولاقاه من الصعوبات التى أنا أعظم بها من غيرى.

«وضع مصطفى كامل نصف عينيه خدمة مصر وإيقاظها من سباتها منذ كان بمدرسة الحقوق الخديوية بل منذ كان بالمدارس الثانوية، وسار فى طريقه الشريف طريق التفانى فى خدمة البلاد، لا يلوى يمينه أو يسره، حتى توج الله أعماله بالنجاح ورأى غرسه يانعا قبل أن يترك هذا العالم الفانى، نعم إن مصطفى كامل لم يمت بل روحه ترفرف علينا وتنظر إلينا من الملكوت الأعلى تشجعنا على السير فى الطريق المستقيم الذى رسمه لنا، ولن نترك هذا الغراس الشريف، غراس الوطنية الحققة يزول أو يعوقه أى عائق عن النمو، ولو فعلنا ذلك لارتكبنا خيانة نحو الوطن المحبوب.

«إن هذه الفكرة السامية، فكرة خدمة الوطن حتى الممات، كانت تملأ جنانه ووجدانه منذ بدأ فى عمله، فقد كتب لى جواباً فى ٢١ أكتوبر سنة ١٨٩٦ من فيينا قال فى آخره: «إنى مستمر إلى يوم الوفاة على خدمة بلادى، وإن غرقى على حقوقها تزداد يوماً بعد يوم، ولا يقلل من عزمى تهاون بقية المصريين أبداً بل إنى سائر إلى الأمام حتى أنزل القبر، وبعد موتى يكون على روحى واجب الاستمرار وواجب دعوة الأحياء إلى العمل، أو إن شئت قل واجب إحياء من هم أموات فى قالب أحياء».

«لقد نجح مصطفى كامل فى عمله، فقد أصبح القوم كلهم أحياء، أصبح القوم كلهم متفقيين على التعاون والتضافر على خدمة هذه البلاد العزيزة، فاستمروا يا إخوانى فى هذا الطريق السوى، ولا يقعدنكم عن العمل تشييط بعض ضعفاء العزيمية أو انتقاد بعض الجاهلين والمتجاهلين لمقاصدنا الشريفة، فإن سرنا بعزيمة واتحاد لا يلبث أهل القطر أجمعهم أن يصبحوا كالبنيان المرصوص يشد بعضنا بعضاً ولنلنا ماكان بسعى إليه فقيدنا.

«وكتب إليّ في جواب آخر من بودابست في ٢٦ أكتوبر سنة ١٨٩٦ رداً على من كانوا ينكرون عليه فائدة عمله قائلاً: «ولكنهم جهلوا أن لى روحاً هى من نور الحرية الساطعة لا تستطيع الحياة فى ظلمات الظلم والاستبداد، جهلوا أن روحى تنادى إلى يوم الممات ما شاكلها من الأرواح الشريفة لتتحد معها على القيام بهذا العمل الشرعى الحق، وماذا أقول لك وأنت تحس بما لا يستطيع القلم كتابته وأنت إذا تلوت هذه الأسطر سألت الدموع من عينيك، ماذا أكتب وأنا كلما شاهدت هذه البلاد وشاهدت فيها علم الوطنية عالياً مرفوعاً ازداد لهيب فؤادى وتفتت منى الكبد»

«هذه أقواله من نحو اثنى عشر عاماً، فحق لمصر أن تبكيه بدل الدموع دماً، ووجب عليها أن تقيم له التماثيل فى كل المدن الكبرى، ووجب على كل مصرى أن يضع صورته أمامه ليقتبس نور الحرية من خدماته التى كانت أشعتها تخترق الحجب فتصل إلى أعماق القلوب، ووجب علينا أن نستنير بما كتبه من المواعظ والحكم الوطنية، نعم إن صورته لن تغيب عنا، بل هى منقوشة على صفحات قلوبنا، كما أن أقواله مكتوبة بأحرف من نور على أفئدتنا، ولكن فائدة التماثيل هى لمن يأتى بعدنا ولم ير بعينه ذلك الذكاء ولا هاتيك الشهامة التى كانت تنبعث من محياه فتحرك القلوب الجامدة، لقد شهد له ألد أعدائه بقوة التأثير بخلافة منطقة وقوة حجته ونفوذ روحه إلى نفس المتكلم فيخرج من لدنه مقتنعا معترفا بفضلله إن لم يكن جهراً فسراً.

«إخوانى الأعزاء

«لقد اجتمعتم هنا لتأبين المرحوم مصطفى كامل وذكر فضائله نظماً ونثراً، ولكن أنى للشعراء والأدباء أن يوفوه حقه من الثناء والمديح وهو من النوابغ الذين يبعثهم الله كل حقبة من الزمان لإحياء موات الأمم والقيام بواجب إحياء من هم أموات فى قالب أحياء. «إن أحسن تأبين لفقيدنا المرحوم هو أن نسير فى الطريق السوى الذى رسمه ومهده لنا، وأن نضم صفوفنا حتى لا يدخل بينها منافق أو مخاتل، ونسير كرجل واحد إلى فتح قلعة الحرية وامتلاك أبراجها، وتحصينها بالنظام النيابى الدستورى حتى لا يمكن إخراجنا منها ثانياً، إن أحسن تأبين لفقيدنا العزيز ترتاح إليها روحه الشريفة الطاهرة هو أن نبرهن للعالم أجمع أن مصطفى كامل لم يت وأن روحه اتحدت بروح كل فرد منا فأصبحنا

كلنا مصطفى كامل ونكون بذلك قد حققنا ما كتبته لى بالجواب السابق ذكره (وبعد موتى يكون على روحى واجب الاستمرار وواجب دعوة الأحياء إلى العمل).

«فيا أيها الفقيد المحبوب ويا أيتها الروح الطاهرة، قد تحقق ما كنت تؤمله وما قضيت زهرة شبابك للوصول إليه، وأصبحت الأمة بعناصرها الثلاثة مسلمين ومسيحيين وإسرائيليين كلها مجتمعة كرجل واحد متحدة الأفكار والقلوب، لا يمنعها من الحصول على رغائبها مانع، ولا تقف في وجهها قوة، فقوة الأمة فوق كل قوة، وأمتنا المصرية قد شعرت بقوتها وتركت اليأس ظهريا اتباعا لقوله رحمه الله (لا معنى للحياة مع اليأس ولا معنى لليأس مع الحياة)

«إخوانى

«قال تعالى فى محكم التنزيل: (وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم) وقال تعالى: (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا).

قصيدة إسماعيل باشا صبرى

«وبعد أن انتهى فريد بك من خطبته تلاه الشاعر الكبير إسماعيل صبرى وطلب إلى حافظ إبراهيم أن يتلو قصيدته، فتلاها بصوته الجهورى قال:

أجل أنا من أرضاك موافى	ويرضيك فى الباكين لو كنت واعيا
وقلبى ذاك المورد العذب لم يزل	كما ذقت منه الحب والود صافيا
يسوى أنه يعتاده الحزن كلما	رآك عن الحوض المهدد نائيا
ويعثر فى بعض الخطوب إذا	إلى بعض ما يهوى فيرجع داميا
وإن رامه سرب المسرات لم يجد	محلا به من لاعج الهم خاليا
ألا غلاني بالتعازى وأقنعا	فؤادى أن يرضى بهن تعازيا
والأعينانى على النوح والبكا	فشأنكما شأنى وما بكما بيا
وما نافعى أن تبكيا غير أننى	أحب دموع البر والمرء وافيا

أيا (مصطفى) تالله نوْمك رابنا
 تكلم فإن القوم حولك أطارقوا
 لقد أوشكت من طول صمت وهجرة
 وتبكيك لولا أن فيها بقية
 فهل ألفت ما بين جفينك والكرى
 أمثلك يرضى أن ينام اللياليا
 وقل يا خطيب الحى رأيك عاليا
 تخالك أعواد المنابر فانيا
 تعللها من ذلك الصوت داويا
 محالفة أم قد أمنت الأعاديا

* * *

فقدناك فقدان الكمى سلاحه
 وبتنا وقد باتت رفاقك فى الثرى
 ولولا تراث من أمانيك عندنا
 طواك الردى طى الكتاب تضمنت
 مطاء إذا البيض انتمت لأصولها
 ورأى بجلى اليأس واليأس ضارب
 إذا ما تقاضينا ولم تك بيننا
 فليتك إذ أعيت كل مساجل
 وليتك إذ ناضلت عن مصر لم تفض
 وسارى الدياجى كوكب القطب هاديا
 سقاها الحيا^(١٤) تستبطى الدمع هاميا
 كريم بكينا إذا بكينا الأمانيا
 صحائفه من كل فخر معانيا
 غضبنا إذا سماك قوم يانيا
 على الأفق ليلا فاحم اللون راجيا
 ذكرناهما^(١٥) حتى تجيد التقاضيا
 قنعت فلم تعى الطبيب المداويا
 مع الخبر قلباً يعلم الله غاليا

* * *

لقد ضاع إخلاص الطبيب وحذقه
 ولم تنتهز تلك العقاقير فرصة
 يحبك سيفاً بات فى التراب مغمدا
 سدى فبكى الذى كان راجيا
 ترى الناس فيها فصل (بقراط) باديا
 تقلده فيما مضى الحق ماضيا

(١٤) المطر.
 (١٥) أى ذكرنا المضاء والرأى.

قصيدة حافظ إبراهيم

ثم ألقى شاعر النيل حافظ إبراهيم قصيدته، قال:

نشروا عليك نوادى الأزهار^(١٦) وأتيت أنثر بينهم أشعارى
زَيْن الشباب وزَيْن طلاب العلا هل أنت بالمهج الحزينة دارى
غادرتنا والحادثات بمرصد والعيش عيش مذلة وإسار
ما كان أحوجنا إليك إذا عدا عاد وصاح الصائحون: بدار
أين الخطيب وأين خلاب النهى؟ طال انتظار السمع والأبصار
بالله مالك لا تجيب مناديا ماذا أصابك يا أبا المغوار؟
قم وامح ما خطت يمين (كرومر) جهلا بدين الواحد القهار
قد كنت تغضب للكنانة كلما همت وهم رجأوها بعشار
غضب التقى لربه وكتابه أو غضبة (الفاروق)^(١٧) للمختار

* * *

قد ضاق جسمك من مداك فلم يطق صبرا عليك وأنت شعلة نار
أودى به ذاك الجهاد وهده عزم يهد جلائل الأخطار
لعبت يمينك باليراع فأعجزت لعب القوارس بالقنا الخطار^(١٨)
وجريت للعلياء تبغى شأوها فجرى القضاء وأنت فى المضمار
أوكلما هز الرجاء مهنداً بدرت إليه غوائل الأقدار

* * *

عزّ القرار على ليلة نعيه وشهدت موكبه فقرّ قرارى^(١٩)
وتسابق في النعاة فطائر بالكهرباء، وطائر ببخار

(١٦) نوادى الأزهار أى الرطبة المبللة بالندى.

(١٧) الفاروق عمر بن الخطاب، والمختار النبى عليه الصلاة والسلام.

(١٨) القنا: الرماح.

(١٩) أى استقرت نفسه بعد أن شهد وفاء الأمة للفقيد فى موكب الجنازة.

شاهدت يوم الحشر يوم وفاته
ورأيت كيف تفى الشعوب رجالها
تسعون ألفاً حول نعتك خشع
خطوا بأدمعهم على وجه الثرى
أنأ يوالون الضجيج كأنهم
وتخالهم أنأ لفرط خشوعهم
غلب الخشوع عليهم فدموعهم
قد كنت تحت دموعهم وزفيرهم
أسعى فيأخذنى اللهب فأنثنى
لو لم ألد بالنعش أو بظلاله

وعلمت منه مراتب الأقدار
حقّ الولاء وواجب الإكبار
يمشون تحت (لوائك) السيار
للحزن أسطاراً على أسطار
ركب الحجيج بكعبة الزوار
عند المصلى ينصتون لقارى
تجرى بلا كلج^(٢٠) ولا استنثار
ما بين سيل دافق وشرار
فيصدنى متدفق التيار
لقضيت بين مراجل وبخار

* * *

كم ذات خدر يوم طاف بك الردى
سفرت تودع أمةً محمولةً
أمنت عيون الناظرين فمزقت
قد قام ما بين العيون وبينها

هتكت عليك حرائر الأستار
فى النعش لاخبراً من الأخبار
وجه الخمار فلم تلذ بخمار^(٢١)
ستر من الأحزان والأكدار

* * *

أدرجت فى العلم الذى أصفته
علمان^(٢٢) من فوق الرؤوس كلاهما
ناداهما داعى الفراق فأمسيا
تالله ما جزع المخب ولا بكى
جزع (الهلal) عليك يوم تركته
متلفتاً متحيراً متخييراً

منك الوداد فكان خير شعار
فى طيه سر من الأسرار
يتعانقان على شفير هارى
لنوى مروعة وبعد مزار
ما بين حر أسى وحر أوار^(٢٣)
رجلا يناضل عنه يوم فخار

(٢٠) الكلج العبوس أى تجرى الدموع بطبيعتها بلا عبوس.

(٢١) الخمار أى الحجاب.

(٢٢) يريد بالعلمين الفقيد فهو علم الوطنية والثانى علم مصر.

(٢٣) الأسى الحزن والأوار الظما والتعطش أى التعطش إلى الفقيد.

إن الثلاثين التى بك فاخرت
ضمت إلى التاريخ بضع صحائف
شبهتهن بنقطة عطرية
خلفتها كالمشق يحذو حذوها
ماذا على السارى - وهن^(٢٥) منائر -
باتت تُقاس بأطول الأعمار
بيضاء مثل صحائف الأبرار
وسعتُ مُحصل روضةٍ معطار^(٢٤)
راجى الوصول ومقتفى الآثار
لو سار بين مجاهل وقفار

* * *

مازلت تختارُ المواقفِ وعرة
وهدمت سوراً قد أجاد بناءه
ووصلت بين شكاتنا ومشايخ
كشفوا العطاء عن العيون فأبصروا
نبذوا كلام (اللورد) حين تبينوا
ورماهم بمجلدين^(٢٨) رَمَوْهُمَا
حتى وقفت لذلك الجبار^(٢٦)
فرعون^(٢٧) ذو الأوتاد والأنهار
فى (البرلمان) أجلّة أخيار
ما فى الكنانة من أذى وضرار
حنق المغيظ ولهجة الثرثار
فى رتبة الأصفار لا الأسفار

* * *

واهاً على تلك المواقف إنها
لم يَلُوه عنها^(٢٩) الوعيد ولاثنى
فاهناً بمنزلك الجديد ونم به
واستقبل الأجر الكبير جزاء ما
نعم الجزاء ما بُلغته
كانت مواقف ليث غاب ضارى
من عزمه قول المريب: حذار
فى غبطةٍ وانعم بخير جوار
ضحيت للأوطان من أوطار؛
فى منزلك^(٣٠) ونعم عُقبى الدار

ثم وقف المسيو كولرا رئيس تحرير جريدة الإيجبت وألقى كلمة تأبين بالفرنسية

(٢٤) الروضة المعطار هى الكثيرة الأزهار والرياحين.
(٢٥) هن إشارة إلى الثلاثين عاما أى ماذا على السارى فى المجاهل والقفار إذا اهتدى بنور هذه الأعلام.
(٢٦) يريد بالجبار اللورد كرومر الذى كان حكمه مطلقا فى مصر
(٢٧) شبه اللورد كرومر بفرعون
(٢٨) يريد بالمجلدين كتاب مصر الحديثة للورد كرومر
(٢٩) أى لم يصرفه عن مواقفه الوعيد والتهديد
(٣٠) أى الدنيا والآخرة

بالنيابة عن الصحافة الأوروبية، وهنا أقبلت طلائع الموكب، فاشتد الزحام وعظم التلاحم، وامتألت المنافذ بالقادمين، ولما ضاق المكان وعظم تدافع الجماهير قررت لجنة التأيين اختتام الاحتفال خوفاً من وقوع حادث من شدة الزحام، إذ اختلطت جموع الموكب بالحاضرين، ونشرت اللجنة خطب المؤبين وقصائدهم بحسب ترتيب ورودهم في البرنامج: محمد فريد بك، إسماعيل باشا صبرى، أحمد لطفى السيد بك، المسيو كولرا مندوب الصحافة الأوروبية، محمود بك أبو النصر، قصيدة شاعر النيل حافظ إبراهيم، كلمة الأستاذ أخنوخ فانوس، قصيدة محمد بك أبو شادى، كلمة مندوب طلبة المدارس (الأستاذ محمود خيرت)، كلمة الشيخ مصطفى القاياتى عن الأزهر، كلمة الأستاذ مرقس بك حنا (باشا)، قصيدة الدكتور السيد بك رفعت، قصيدة شاعر القطرين خليل بك مطران (وقد نشرناها فيما يلى) قصيدة حسن بك حمدى، قصيدة الشيخ سليمان علي مطيريد شيخ قبيلة عربان الضعفاء ببني سويف، كلمة محمد افندى لمعى المهندس، قصيدة السيدة زينب فواز عن السيدات، كلمة إبراهيم افندى فهمى عبد الهادى التلميذ بمدرسة مصطفى كامل، كلمة على بك فهمى كامل شقيق الفقيد.

هذا وقد أقيمت للفقيد حفلات تأيين عدة في مختلف الأحياء والعواصم والاقاليم.

قصيدة خليل مطران (حق الوطن وحق الإخاء)

أعلى مكانتك أله وشرفاً فانعم بطيب جواره يا (مصطفى)
اليوم فزت بأجر ما أسلفت خيراً وكل واجد ما أسلفا
وجيزت من فاني الوجود بخالد ومن الأسى الماضى بمقتبل الصفا

أعظم بيومك في الزمان ومن له بك واصفاً ذاك الجلال فيوصفا
حيث الوفود من الملائك أقبلوا حافين حولك في السرير وعكفا
وتحملوك على الأشعة وارتقوا سرباً يجوز بك الدرارى موجفا

والأرض مائدةً عليك تأسفا
يذرو الرجال به المدامع ذرفا
بهم الرحيب من المسالك مصرفا
ساروا بطيف ناحل أو أنحفا
فلك يظلل اللواء مرفرفا
آثاره من رفعة لا تُقتفى
مُلق على الأبصار سترأ أغدفا
خطب ألان بروعه صم الصفا
من دمهم إن خانهم متكفكفا
بعد الفقيد فتي بهم فتوقفا
هو خير من والى وأوفى من وفى
ليزيل ذاك العارض المتكشفا
لما مضيت ولست فيهم مخلفا
يعلل لهم صوتاً وينشر مصحفا

فوردت وردك في الخلود منعماً
لم تُلَف قبلك أمة في مشهد
يمشون من حول الجنازة ضائقاً
متشاقلين من الوقار وإنما
بحر من الأحياء نعشك فوقه
يبكون في آثاره العلم الذى
سعت الخوادر حاسرات والأسى
ولئن سفرن ولم يخلن فإنه
فزع الشباب إلى الشيوخ بثأرهم
ومن الغضاظة أن دعا داعى العلا
جزع النصارى واليهود لمسلم
بكوا المرجى في خلاف عارض
واشد رزء المسلمين وحزنهم
من بعد كاتبهم وبعد خطيبهم

* * *

ويرد نقد الناقلين مزيفاً
ويزيل ما يلد التناكر من جفا
هما تعيد له المقام الأشرفا
سُمرأ تهز لكل خطب معظفا
ليذود عنه خصمه المتعسفا
فلقد تجاوزت الهدى متفلسفا
أكون منقصة لها أن تُكسفا
يتنى أشعتها إلى أن يكشففا
للعاملين ورادعاً ومثقففا
أن قصر الأقوام عنه فأخلفا
أن خالفوه فما استحال ولا انتفى

من يبرىء الإسلام من تهم العدى
يبدى لأعين جاهليه فضله
ويثير من غضب الغضاب لمجده
لكن من أقلام جنديك حوله
ولعل حراً لا يدين به انبرى
قف أيها الناعى عليه جموده
إن يعتز الشمس الكسوف هنيهة
وهل الكسوف سوى تعرض حائل
لم تنزل الأديان إلا هاديا
بشعار حي على الفلاح وما بها
وبكل أمر موجب اصلاحهم

قد كان للإسلام عهدٌ باهرٌ
ملأ البلاد إنباراً وحضارةً
فالخيرُ كلُّ الخيرِ فيه مقبلاً
يدعو البقاء إلى التكافؤ بالقوى
والخلقُ جسمٌ إن ألمَّ ببعضه
بشرى البرية بعد مُزْمِنِ دائها
إن أغضبت تلك السلامة جائراً
يا من نهضت بنصره وأبنته
سازلت في مصر قديم منارة

* * *

مصر العزيزة قد ذكرت لك اسمها
وكأننى بالقبر أصبح منبراً
مصرُ التي لم تحظ من نجباتها
مصرُ التي لم تبغ إلا نفعها
مصرُ التي غسلت يداك جراحها
مصرُ التي كافحت لِدِّ عُداتها
مصرُ التي سُقَّت الجيوش مناقبا
مصرُ التي أحبتها الحبُّ الذى
حتى مضيت كما ابتغيت مؤلفا
أمنية أعيت خلالك دونها
وهى التى لو أقسمت لنها بها

* * *

من كان أجراً منك يوم كريمة
من كان أقدرَ منك تصريحاً لما
من كان أطهرَ منك خلقاً جامعاً
من كان أزهدَ منك إلا فى الذى
بالحق لا شكساً ولا متصلفاً
يعنى الحكيمَ مدبراً ومصرفاً
فيه مهيبَ الطبع والمستظرفاً
يجدى البلاد فتبتيغيه ملحفاً

من كان أسمع منك مناعاً لما تهوى وميعطاءً لغيرك مُسرفاً
من كان أصدق منك لا متصلاً مما تقول ولا تعاهدُ مخلفاً

* * *

لهفى على فخر الصبى هادى النهى
يا من نعى تلك الفضائل والعلی
لا لا وحقك يا شهيد وفائه
ما أنت بالرجل الذى يمسی وقد
إنى أراك ولا تزال كعهدنا
ثابر على تلك العزائم ذائداً
أصدر صحائفك التى تحبى بها
تجرى بها الأنهار وهى دوافق
وتكاد أسطرها تهب نواطقا
فإذا حنوت على الحمى متحبباً
وكأنا الألفاظ مما خففت
تستام من أثوابها أرواحها
قم للخطابة فى المجمع واملك
أعد القديم من الممالك والقرى
شدّ عزائمنا وقاتل ضعفنا
ما هذه الآيات يرمى لفظها
ما ذلك الترصيع ليس مرصعاً
وحى بأهجية إذ ما أطلقت
تحيى حرارتها ويهدى نورها
تالله ما أنت الخطيب وإنما
عن نطقه تقع الصروف مواعظاً
يا حبذا لو كل ذلك لم يزل
والآن نحن لدى ثراك نحجه

على اللواء حمى المروءة والوفا
أعدت معالمهن قاعاً صفصفاً
ورجائه كذب النعى وأرجفا
ملء الوجود به ويصبح قد عفا
بك فى جهادك أو أشد وأشعفا
عن مصر تضرب فى البلاد مطوفا
نضو الطريق وتدفع المتخلفا
هيماً وتوشك أن تطم فتجرفا
ويكاد يعزف كل حرف معزفا
فهو النسيم وقد ذكا وتلطفا
نقش المداد رسومها وتحففا
وتعاف تحلية لثلاً تكشفها
تلك النفوس مروّعا ومشنفا
ذكرى وعرفنا الحياة لنعرفا
حتى نبیت ولا نرى متخوفا
شرراً وتهوى الشهب فيها أحرفا
ما ذاك التفويف ليس مفوفا
هبطت رواسب عنه والمعزى طفا
متماهل الإشراق أو متخطففا
وقف القضاء من المنصة موقفا
وكأمره أمر الزمان مصرفا
لكنه حلم مضى مستطرفا
متلهبين تشوقا وتشوفا

نثني وهل يوفى ثناؤك حقه
 ماذا يعيذك من شبابك نظمنا
 ويعيذك منك وكنت جوهرة الحمى
 يا أخلص الخلاء أبكى بعده
 هذا مثال لاح يرعانا وقد
 جاد الهلال برسمه تاجاً له
 كهواك للأوطان فليكن الهوى
 يجرى على قدر المطالب ناميا
 أنشأت من مصر الشتات بفضل
 أحدثت فيها أمة أبدى يداً
 عرفت أهلها حقيقة قدرهم
 نفحات روحك خامرت أرواحهم
 حصن أشم تساندت أجزاؤه
 فارقذ رقادك إن ربك قد محا
 وبأى ألفاظ المحامد يكتفى
 فيك الرثاء منسقا ومصفا
 صوغ الكلام مرصعا ومزخرفا
 كبكاء مصر تحرقا وتلهفا
 كشف الجوى عنه الحجاب فأشرفا
 وكسته ناسجة الطهارة مطرفا
 لا مفترى فيه ولا متكلفا
 ويجل في مجراه عن أن يصدفا
 مصر الفتاة حمى يعز ومألفا
 للصلحات وبالعظام أكلفا
 وكفاهم من قدرهم أن يعرفا
 فهم مرأىك ساء دهر أو حفا
 علما وأمنه النهى أن ينسفا
 بك ذنب مصر كما رجوت وقد عفا

تمثال مصطفى كامل

اتجهت الأفكار منذ وفاة مصطفى كامل إلى إقامة تمثال له تقديراً لجهاد مؤسس الحركة الوطنية، وبدأ الكثيرون بالاككتاب للتمثال قبل أن تتألف لجنة لإقامته، وقد قدرت الأمة على اختلاف أحزابها فضل الزعيم، فاتجهت الفكرة إلى جعل المشروع قومياً لا يختص به حزب من الأحزاب، لأن مصطفى كامل كان زعيم حركة قومية لا زعيم حزب فحسب.

فتألفت لجنة لإقامة تمثاله واجتمعت في ١٦ فبراير سنة ١٩٠٨ برئاسة إسماعيل باشا صبرى الشاعر الكبير، ومن أعضائها محمد بك فريد، والدكتور محمد علوى باشا، وحسن بك عبد الرازق (باشا) ومحمود بك أبو النصر، وعلى بك فهمى كامل، ومقرس



تمثال مصطفى كامل - ميدان مصطفى كامل

حنّا بك (باشا) والأستاذ ويصا واصف، وأحمد بك لطفي السيد (باشا)، ويوسف صديق بك (باشا) والياس بك عوض (باشا) وفؤاد بك سليم (باشا)، وعبد العزيز فهمي بك (باشا)، وعمر بك سلطان (باشا) وأحمد بك عبد اللطيف المحامي الشهير، وأخذت في جميع الاكتتابات للتمثال

وعهد فريد بك نيابة عن اللجنة إلى المسيو سافين المثل الفرنسي الشهير بباريس صنع التمثال من البرونز، فأتمه في أبريل سنة ١٩١٠، وعرضه في معرض الفنون الجميلة بباريس، فحاز الاستحسان العام، وهو يمثل الفقيد واقفاً يخطب مشيراً بيده اليمنى ومرتكزاً باليسرى إلى تمثال لأبي الهول كأنه يوقظه، وعلى القاعدة صورة من البرونز تمثل مصر منصبة إلى الخطيب تشير بيدها اليمنى كأنها تطلب من العالم أن ينصت إليه مثلها، والصورة والتمثال آية في الفن والجمال

ويبلغ إرتفاع التمثال دون قاعدته مترين وثمانين سنتيمتراً، ويبلغ مع القاعدة ستة أمتار وستين سنتيمتراً، وقد بلغت تكاليف صنعه ونقله ٢١٢٠ جنيهاً (عشرين ومائة ألفى جنيه)

وجاء التمثال إلى القاهرة في يناير ١٩١٤، على عهد وزارة محمد سعيد باشا، وطلبت اللجنة من الحكومة تخصيص ميدان من الميادين العامة لإقامة التمثال، ولكن الحكومة صمّت أذانها عن تلبية نداء اللجنة، وظل التمثال سجيناً في مدرسة مصطفى كامل مدة أربع وعشرين سنة، حتى اقتضت إرادة الله عز وجل وتحت ضغط جماهير الشعب الإفراج عن التمثال وإقامته في ميدان عام من ميادين العاصمة، فقرر مجلس الوزارة بجلسته أول سبتمبر سنة ١٩٣٨ إقامة التمثال في ميدان العتبة الخضراء، وكان لهذا القرار رنة استحسان عام في أرجاء البلاد، وعدل مجلس الوزارة مكان التمثال فقرر بجلسته ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٣٨ إقامته في ميدان (سوارس) مع تغيير إسم الميدان وتسميته ميدان (مصطفى كامل).

حفلة إزاحة الستار عن تمثال مصطفى كامل

(١٤ مايو ١٩٤٠)

وقد بنت الحكومة قاعدة التمثال في ميدان (مصطفى كامل) ونقشت على صدر القاعدة «مصطفى كامل باشا ١٨٧٤ - ١٩٠٨»، وعلى الجانب الأيمن منها هذه العبارة المأثورة من كلمات الزعيم «لا معنى للحياة مع اليأس ولا معنى لليأس مع الحياة» وعلى الجانب الأيسر منها قوله «إن من يتسامح في حقوق بلاده ولو مرة واحدة يبقى أبد الدهر مزعزع العقيدة سقيم الوجدان»، وعلى الجانب الخلفي هذه العبارة «اكتتبت الأمة بجميع طبقاتها في صنع هذا التمثال سنة ١٩١٠ وفي سنة ١٩٣٨ قررت الحكومة إقامته في هذا الميدان تمجيذاً للذكرى».

وأقامت الحكومة التمثال على هذه القاعدة، واحتفلت برفع الستار عنه، على عهد وزارة على ماهر باشا، يوم الثلاثاء ١٤ مايو سنة ١٩٤٠، في حفلة فخمة، وألقى على ماهر باشا رئيس الوزراء الخطبة الآتية:

«جئنا لنحيي تمثال مصطفى، فلنقف هنيهة خاشعين أمام الذكرى.

«كلما ذكر مصطفى، ظهر اسمه في هالة من المجد، وانتشر ذلك النور الساحر الذي يملأ النفوس رهبة وإجلالا.

«في هذه الساعة يطيب لنا أن نجتمع في ظل لمبادئ التي أفنى نفسه وجسمه في سبيلها، في ظل الإخلاص الذي مات عليه فأحياته ودفع شبابها إلى ميادين الكفاح والعلو.

«نجتمع أمام ذلك التمثال الذي يحرك النفس وهو «سامت، لأن جلال التاريخ وجلال الذكرى في شخصه يلتقيان.

«كان مصطفى أول من حمل لواء الحرية بعد أن طوى زماناً، وكان أول من صاح تلك الصيحة في طول البلاد وعرضها، صيحة التضحية، صيحة الحرية، صيحة الحب صيحة الحياة: «بلادي بلادي لك حبي وفؤادي، لك حياتي ووجودي، لك دمي ونفسي، لك عقلي

ولساني، لك حبي وجناني، أنت، أنت الحياة ولا حياة إلا بك يا مصر». «نقرأ اليوم خطب مصطفى، فلا نرى فيها أثر البلاغة والتنميق، ذلك أن بلاغته كانت روحانية بلا جسم، ليست بحاجة إلى صلة أو سبب مادي لتصل إلى النفوس وجوهاً.

«ذلك أن حياة مصطفى قصيرة، لم تكن كحياة غيره من الزعماء والقادة، سلسلة أعمال توصف وتحلل، وإنما كانت هذه الحياة كلها، التي تعلو على كل حصر وتحليل، صوتاً يخيل إلى سامعيه أنه يهبط من السماء، صوتاً كصوت الماضي، رن في الوادي فانتبه، ولا تزال أصداؤه تتجاوب وتمتد بعد الموت.

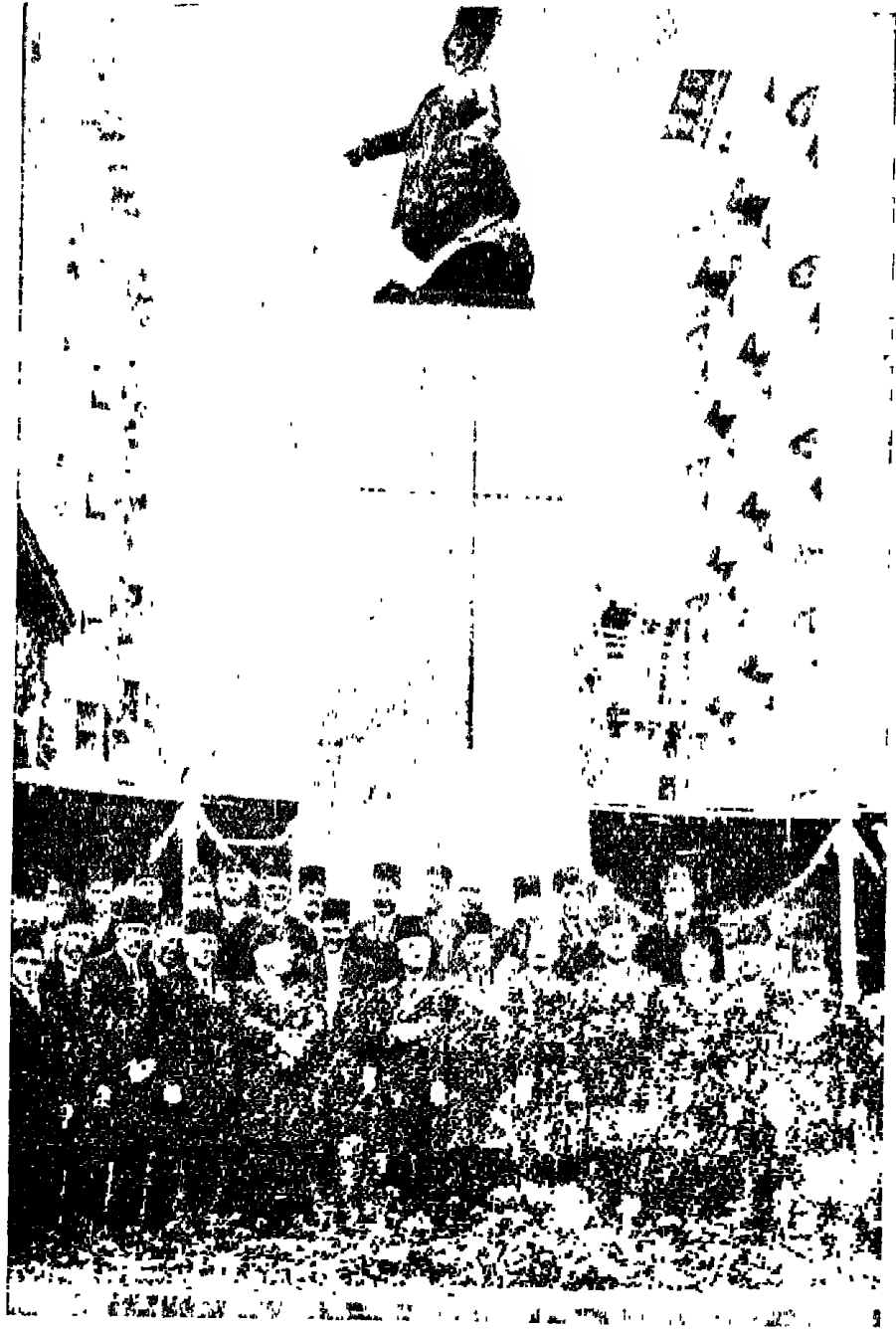
«وقد كان مصطفى يجمع بين إقدام الشباب، واتزان الكهول في الفكر. وهذه المبادئ التي استمدتها من وحي الوطن واتخذها شعاراً لجهاده قد دلت التجارب والمحن على أن راسمها كان بعيد النظر سليم التفكير.

«كان مصطفى مقداماً، يخلق الحماسة ويتعهد لها لأنه يعلم أن الحماسة في حياة الأمم تنزل منها منزلة الروح من البدن وأن الشعب إذا غابت عنه الحماسة غابت عنه الحياة، فكان يعمل ليله نهاره كاتباً وخطيباً على تغذية العاطفة الوطنية وإيقاظ الجماهير التي كان يجذبها بشخصه وإيمانه وشجاعته.

«كان مصطفى يحمل في قلبه صورة الوطن الحى أنى سار أو أقام، فكان قلبه مقتدراً على جمع القلوب، تخفق كلما خفق، وتشاطره حمل السراء والضراء وكان الشباب - شباب الوادي وعدته - جنوده المجندة تأتلف وتلتف حول لوائه، وكان هو قائدها وهادياً.

«كان مصطفى شعلة ذكاء وحماسة، وكان خير محام عن خير قضية، وكان في دفاعه يهبط لنصرة الحق والعدل، وكان جلدأً على الكفاح، لا يبرح يناضل حتى يصرع الباطل ويرمى السهم في مقاتله.

«وقد صبر وجاهد واحتمل الأذى في سبيل مصر، في سبيل النيل وواديه، في سبيل تلك القرى والمدائن الجاثمة في حضن الوادي، في سبيل ذلك الأفق الضاحك بين جنات



على قاعدة تمثال مصطفى كامل

يوم إزاحة الستار عنه - ١٤ مايو سنة ١٩٤٠

وترى في الصورة: الدكتور اسماعيل صدقي بك. عبد الرحمن الرافعي بك. محمود خيرى باشا
محمود جلال بك. الأستاذ عبد المقصود متولى. الأستاذ حسن حسنى كامل. عبد الملك حمزة بك. انطون
الجميل بك (باشا). الأستاذ محمود العمرى. الأستاذ حسن شافعى الجيزاوى. اسماعيل العسيلي. على على
بسيونى. شعبان الكاتب. على فهمى خليل. حسين رمزى. الدكتور يحيى الدرديرى. الدكتور منصور
القاضى. الدكتور نصر فريد بك. محمد على المهندس.. الخ

النخيل والأعناب، بين هزج السواقي وأغاني الفلاح.

«وقد تغلغل حب مصر في فؤاد مصر مصطفى، لأن حبه كان صادراً عن عاطفة وعقل وعلم، وكان ذلك الحب لا تشوبه شائبة من مطمع في مادة أو جاه.

«كان مصطفى مصرياً صميماً يحب مصر وفلاح مصر حافظ كيائها.

«ذلك الفلاح الذى هو نحن وأنتم، الذى هو مصر من طيبة إلى الفسطاط والقاهرة والذى طبع البلاد بطابعه، وانضمت كتلته على الغزاة، فأفنت شخصيتهم في ثناياها.

«وقد كان المصريون في أدوار تاريخهم سلسى القيادة لكل زعيم يخرج من صفوفهم، ويعرف كيف يسوسهم، ويتخذ لنفسه نقطة ارتكاز في قلوبهم وفي صميم إحساساتهم وعواطفهم، وفي شجاعتهم وإيمانهم، وفي أرضهم ولغتهم، وقد ولد مصطفى في مصر، وحك جلده بأرضها الغراء طفلاً، ونشأ حراً، وعاش حراً.

«وها نحن أولاء نقف أمام تمثاله ويخيل إلينا أن الحياة تدب وتتوثب في كل ذرة ساكنة منه، وأن وراء هذه المادة قوة خفية تدفع الشعب إلى غاياته الكبرى.

«في هذا اليوم الذى تتطاحن فيه الأمم ذوداً عن كرامتها، وتدعيماً لشخصيتها وحرياتها، نقف أمام تمثال مصطفى متعاونين متساندين في سبيل إعلاء كلمة الحق.

«مات مصطفى، فكان موته أول شاهد على تغلغل الروح الوطنية في مختلف الطبقات، وأول دليل على أن في هذه الأمة قوة بل قوى حيوية كامنة، إذا وجدت من يحركها ويتعهدا، أتت بالمعجزات.

«فلنذكر مصطفى، ولنلطف بتمثاله، ولنأخذ من موته معنى للحياة والحرية والأمل.

«أنه وإن لم تتحقق أمانى مصطفى كلها إلى اليوم، فإننا لا نشك اللحظة في أن هذه الأمانى ستتحقق على أيديكم، فقد أعلن الاستقلال وستكمل بإذن الله دعائم هذا الاستقلال وتتوطد» وقد قوبلت هذه الخطبة بالتصفيق في شتى مواضعها، وعلى أثر إلقائها جذب شريط متصل بالستار فانشق عن تمثال الزعيم العظيم، ودوى التصفيق في جنبات سرادق الاحتفال، فرددته الجماهير المحتشدة التى تجمعت خارج السرادق.

مقتطفات من أقوال الشعراء والكتاب

لمناسبة حفلة إزاحة الستار

قصيدة خليل مطران

تحيةة الشعر

أمنوا بموتك صولة الرِّبَالِ ماذا خشوا من فِتْنَةِ التَّمْتَالِ؟
حبسوه عن مُقْلٍ إِلَيْهِ مَشُوقَةٍ فاضت أَسَى ودموعهن غِوَالِ
حتى أرادت مصر غيرَ مُرَادِهِمْ وجلاء من أوفى بنبيها جالِ
أتهيمُ استقلال قومك جاهداً وتُذَادُ عنهم يوم الاستقلالِ
أنصفتَ بعض الشيء بل هي توبة في بدنها ولكل بدءٍ تالِ
فلقد تؤوب وَجَدُ غيركَ عائرُ فيم ادعى صلفاً وجدك عالِ
يا حُسْنَ عودك والكنانة حرةً تلقاك بالإكرام والإجلالِ
أبروعك الحشد الذي بك يحتفى من غرّ فتيان وصيد رجالِ
ماذا بثت من الحياة جديدة في هذه الآساد والأشبالِ
بَعَثْ لموطنك العزيز رَجَوْتَهُ وسواك يحسبه رجاء مُحَالِ
خاطرت فيه بالشباب وبذله سَرَفٌ لمطلوب بعيد منالِ

أى مصطفى وَلَّتْ سُنُون وما اشتقى شوقي إليك فهن جدّ طوالِ
عجب بقائي بعد أكرم رفقة زالوا ولم يشأ القضاء زوالِ
هم صفة الدنيا وكانوا صفوها فأحق حَيٍّ بالأسى أمثالِ
حزن بعيد الغور في قلبي فإن وجب الرثاء فإنما يُرْثَى لى
ماذا أقول وهذه أسماؤهم وشُخُوصهم ملء الزَّمانِ حيالى
تعتادنى فى مَسْمَعى أو ناظرى وإلى يمينى تارة وشمالِ
إنى لأحفظ عهدهم وأصونه فى كُلِّ حَادِثَةٍ وَلَسْتُ بالِ
وكان حِسِّى حسهم فرحاً بما يقضى الحِمَى من حقهم ويوالِ

كم في مغارسهم جنى ألقيته
سلوى أتاحتها مآثرهم، وقد
وكذاك مجد العبقرية والفدى
متجدداً يتعاقب الأحوال
يغدو الفراق بها شبيه وصال
لا ينقضى بتحول الأحوال

* * *

أى مصطفى ما كنت كاملاً
ماذا لقيت من الضبأ ونعيمه
إنى شهدت شهادة العينين ما
متطوعاً تسخو بما يُفنى القوى
إذ قمت بالأمر الجسام ولم يكن
حال التورع دون إغراء المنى
والقوم في ظمأ ووعدك مطمع
تسعى ويعترض السبيل قنوطهم
فتظل تضرب في جوانبه وما
لك دون ما تبغى مضاء مصمم
حتى إذا وضع اليقين وصدقت
فتويت أظهر ما تكون على عدى
لو كان يُتصفُ امرؤ بكمال
غير المكاره فيه والأهوال
عانيت في الغدوات والآصال
من جهد أيام وسُهد ليالى
فيمن أهبت بهم مجيب سؤال
زمننا فما من مسعد وموال
لكن يرون له رفيق الآل
في كل حل منك أو ترحال
تلقى إلى نظر الحبوط بيال
لا ينثنى، وبلاء غير مبال
دعواك آية ربك المتعالى
مصر بعقبى دائك المنتال

* * *

هزت منيتك البلاد ولم تكن
فالقوم من جزع عليك كأنهم
كشف الأسى لهم الحجاب فأيقنوا
وتبينوا أن الخنوع مهانة
لله حسن بلاتهم لما أبوا
وتوثبوا بعزيمة مصدوقة
يردون حوضاً والمنايا دونه
حتى أتيسح الفتح يجلو حسنه
فتح بدا اسمك وهو في عنوانه
بأشد منها هزة الزلزال
آل وقد رُزئوا عزيز الآل
أن الحياة مطالب ومعال
لا يستطال بها مدى الآجال
متضافرين دوام تلك الحال
برئت من الأحقاد والأوجال
مستبسلين ضروب الاستبسال
في يومه إحسان يوم خال
متخضبا بدم الشاب الغالى

لا أنت ساليه ولا هو سال
في أفقه كالكوكب المتلالى
ولزهرها المتألقات مجال
وإذا نأت عنا فتلك لآلى
وتجول في الأفكار كل مجال
برج حلت به لغير زيال
فالحال متصل بالاستقبال
فرضت محبته على الأجيال

أيها شهيد الحب للبلد الذ
أبهج بأوبتك السنية طالعا
الذكر آفاق سحيقات المدى
فإذا دنت منا فتلك عوالم
تطوى من الأدهار ما لا ينقضى
أبوار وجهك طالعنا اليوم من
قد أثبتتها مصر بين عيونها
نهم التواب لذى مآثر في الفدى

* * *

عائته في الأصفاد والأغلال
ومذلل الآلام للآمال
وخطيب ثورتها في الاستهلال
في ملتقى ذى روعة وجمال
ما لاتداني صنعه المثال
إلا ذرائعها فضول المال
يك مكس جاب أو تطول وال
فيروع بين حقيقة وخيال
أثراً على الأيام ليس ببال
أو في وأكفى من فصيح مقال
في كل نازلة وكل نضال
رفع المقام إلى مقام جلال
مكانة العلماء والأبطال

فتيان مصر وعهدا غير الذى
حيوا مديل حياتها من يأسها
حيوا زعيم اليقظة الأولى بها
هدى مواكبها وتلك وفودها
حفلت برمز نهوضها ومثاله
لكنها مهج بنته ولم تكن
وكفاه فخرا أن ذاك المال لم
رسم يلوح وفيه معنى أصله
لأن الحديد له فصاغ لعينه
كم في بليغ سكوته من عبرة
هو خالد ويظل مدره قومه
عطف المليك وقد أماط حجاب
أعلى الملوك مكانة أرعاهم

كلمة الأستاذ محمود العمري رسالة مصطفى كامل

اليوم، إذ يحتفل المصريون برفع الستار عن تمثال مصطفى كامل، إنما يحتفلون بصفحة من أ مجد صفحات تاريخ مصر الحديث.

اليوم يسجل المصريون صفحة مصطفى في تاريخهم الرسمي بعد موته بما يقرب من ثلث قرن، وهي مرحلة من الزمن، إذا أصدر الشعب حكمه، كان صادقاً غير متأثر بدعوة من الدعوات، وإذا حكم التاريخ بعدها لإنسان فإنما يكون ذلك لأنه صعد بعقيدته إلى مستوى الحقائق الأبدية التي لا يحدها زمان ولا مكان.

ولو كان مصطفى كامل رجلاً كسائر الرجال لنسيناه كما ينسى المرء أعزاه، ولو كان رجل جيل معين أو مرحلة معينة لعصفت به رياح الزمن، ولكنه رجل أمة، والأمة وحدة تاريخية تشمل الأمس واليوم والمستقبل الذي لا نهاية له، بل هو رجل جميع الأمم، إذ لا يصح في إحداها ما لا يصح في غيرها من شبيهاتها ما دامت جديرة بأن تسمى أمة.

وكيف يسمع المصري قول «سمجلى ريدز» قبيل الحرب مخاطباً هلتر: «إذا كان عليك واجب نحو وطنك فلتعلم أن على أيضاً واجباً نحو وطني»، ثم لا يشعر وكأنه يسمع قول مصطفى كامل إذ يقول: «إن كان أنصار التوسع في سلطنة انجلترا ومد نفوذها في الآفاق يريدون جعل سيادتها عامة فكيف يجد البعض من الأمور المخارقة للعادة مطالبتنا باستقلال وطننا؟»

ثم كيف يشاهد بطولة الفنلندي والبولندي ووطنيتها ولا يشعر بالفخار لقول مصطفى كامل في «اللواء» سنة ١٩٠٤ حاثاً على حب الوطن: «انظر تجد البولندي وقد مزق وطنه وعلت فيه كلمة دول ثلاث، يجتد ويعمل مفكراً كل يوم بل كل لحظة في بولندا، يذكر تاريخها ويكي أيامها الخالية، ويربى ابنه على حبها والتمسك بحقوقها، والفنلندي وقد لبس ثوب الحداد هو وبقية ذويه يوم قررت روسيا ضم جيش فنلندا لجيشها ومحو بقية استقلال هذه الأمة».

لم يجد مصطفى كامل مبلغ حب الوطن بمقدار ما في الإمكان عمله في خدمته إذ أن الوطن صورة روحية، ولا سبيل للقوى المادية إلى النيل من الوطنية الصحيحة، فإذا عجزت الأمة الرشيدة عن الوصول إلى حقها لم تقل عن المرحلة التي لا تتخطاها جهودها في وقت معين أنها محط آمالها وغاية الوطنية، على حد قول القائل «إذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون».

ولم يقف بحق بلاده عندما يمليه عليه إدراك معاصريه، بل عمل على رفع مستوى هذا الإدراك إلى مستوى رسالته، وكان مؤمناً بمنطق الوطنية الذي يجعل حق الوطن كحق الفرد لا ينتهى إلا عندما يكون فيه حد لحقوق وطن آخر.

نشرت «النيويورك هيرالد» للمسيو سيمون في سنة ١٨٩٧ مقالة عن مصطفى كامل جاء فيه: «إن الوطن بيننا نحن الأوروبيين الراقين عظيم جليل محترم، مفضل على الحياة والمال والولد، فمأ بالنا نحتقره عند غيرنا ولا نود إلا أن نحتكر العواطف الشريفة لأنفسنا؟»

وقد علقت الجريدة على هذه الرسالة بكلمة جاء فيها: «ومن عرف أن مصطفى كامل ليس بغنى كبير ولا وزير حكومة ذات سلطان، قال معنا إنه نابغة ككل عظماء الرجال الذين يهينهم التاريخ من حين إلى حين، إلى الأمم المضطهدة المظلومة ليهدها طريق السداد، وإنه إذا كان المصريون إلى اليوم في نظر الساسة لا يستحقون ما يبتغونه فإننا نؤكد من جديد أن مصطفى كامل الذي حادثه مراسلنا في الأستانة في العام الماضي، لا يقل علماً عن أعظم سياسى في أمريكا وأوروبا، ولكن لسوء حظ مصر أنه جاء في الزمن الذ بلغ فيه حب الحياة المادية مبلغاً عظيماً.

لقد تصدى مصطفى كامل لما لم يتصد له الذين وقفوا موقفه من الأمم الأخرى، إذ كان عليه أن يدعو إلى تشييد كل شيء في صرح الوطنية، لذا كانت دعوته شاملة قام فيها بكل مقومات الحركات الوطنية مما يضطلع به في تلك الأمم رجال عديدون في مختلف نواحي نهضتها، فبعضهم ينهض بالتعليم الوطنى، وبعضهم الآخر ينهض بالأدب الوطنى وفريق ينهض بالفنون، وآخرون ينهضون بالإصلاح الدينى أو الإصلاح الاجتماعى والاقتصادى، ثم تلتقى هذه الجهود جميعها عند غاية واحدة هى النهضة الوطنية العامة.

نعم كان على مصطفى كامل أن يقوم بما تقوم به أجيال في مختلف النواحي، فهو شاعر مصر الوطنى، يتغنى بجمال منظرها واعتدال جوها، ويزداد هيامه بها كلما اشتدت عليها المحن، وكأنه قرأ ما قاله الشاعر الانجليزى العظيم: «أحبك يا انجلترا على كل ما فيك من عيوب» فكان يقول: «هل الوطنية فضيلة هناك ورذيلة هنا؟ هل انجلترا أحق بحب بنيتها من مصر».

وهو المشبه لمصر بالأُم المريضة وحوها أبنائها تقول لهم: ألا فاسعفونى، وبالدار شئت فيها النيران تنادى بلسان الحال أربابها أن اتحدوا فى إطفاء اللهب.

وهو مربيه الوطنى بلسانه وقلمه، وبالمدعوة إلى توجيه التعليم إلى المثل العليا التى لا يكون بدونها تعليمًا؛ وإلى إنشاء الجامعة والحث على الإكثار من المدارس لتعليم الشعب، قائلا: «إن بين أبناء الفقراء الذين سدّ الاحتلال فى وجوههم أبواب العلم والنور، رؤوسا لو تحلت بالعرفان لكانت فخر مصر إلى أبد الزمان، وليذكر ذوو الإحساس والوجدان أن مصر كنوز لم تستخرج للآن، وأنها لو أخرجت للناس ملأت الأرض نورا، وأن هذه الكنوز مدفونة فى بيوت الفقراء»، وهو مؤرخ مصر الوطنى يذكر أبنائها كل آن بمجدها السالف وبتراث الآباء والأجداد.

وقد حصل مصطفى كامل على نصيب وافر من الثقافة الغربية، أتاح له وهو شاب أن يخطب ساعات باللغة الفرنسية ويكتب الافتتاحيات فى أمهات صحف فرنسا، فلم يدفع به إلمامه بمدنية الغرب إلى حب الفناء فى دولة من دوله. بل كان مما قاله: «لاجرم أن أنفع درس يحتاج إليه المصرى من أوروبا هو الوقوف على قوة الإحساس الوطنى فى البلاد على اختلافها، فأهل تلك البلاد على تفرق متارهم وأهوائهم يحبون بلادهم حبا شديدا، ويستقبل الفرد منهم الموت فى سبيل خدمة بلاده راضيا مسرورا»، وهكذا لم يقل فى فرارة نفسه: هذه بلاد عظيمة فيجب أن أكون عبدا لها، بل قال بلسان الحال والمقال: هذه بلاد عظيمة فلا بلغن بوطنى ما بلغت من رفعة وعلو شأن.

ولهذا كان أكبر المناضلين عن الإسلام بقوة بيانه، وكان فخورا بمصريته وبأنه «ابن ضابط منهم من أبناء الفلاحين»، ومما قاله فى اعتزازه بقومه: «يرى السفهاء والطائشون أن الانتساب لشعب مستبعد كالشعب المصرى مما لا يليق، بإنسان، ولكن أى شرف

يطمع الحر فيه أكبر من العمل لإحياء أمة سبقت كافة الأمم؟»، وقال أيضا إن الوطنية تظهر فيما يعانیه الوطن من الشدائد لا في الرخاء.

كان مصطفى كامل يملك نفسه في مواقف الشدة. فأقام على من يتهمونه بالتطرف أقوى الحجج، على أن هذا التطرف لم يكن إلا التمسك بحقوق الوطن وأنهم لم يقصدوا بكلمة الاعتدال إلا التساهل في هذه الحقوق.

كان يهيب بالقوم إلى خدمة بلادهم خدمة إيجابية ويبت فيهم أنه لا يكفي في شرعة الوطنية أن لا يؤذى الإنسان وطنه، بل إن المرء لا يكون بريئا من ذنب تأخر بلاده إلا إذا عمل على رفعها، وأن كل مصرى مسئول عن مصر، وأنه لا يليق بأى إنسان أن يقول إن هذا النصح صحيح ولكنه موجه إلى غيرى، إذ الوطن موجود في ضمير كل شخص.

قال ردا على بعض من خشوا ألا تكون رسالته قد نفذت إلى قلوبهم لأنها رسالة عقيدة: «يقول البعض إن المناداة بالوطنية كلام في كلام، ونسى ذلك القائل أن أهم الأعمال البشرية وأرقى الجهود الإنسانية تنحصر في إدخال عقائد جديدة في النفوس، لأن العقيدة تحرك الجبال، ومن قال ضد ذلك فقد أنكر الديانات وتأثيرها، والتاريخ وأحكامه، والعوامل الفعالة في الشعوب كلها».

ولقد أصبحنا اليوم نذكر بذكر مصطفى كامل جميع الحقائق التى لمسناها في شئوننا، فإذا نظرنا في أحوالنا الاقتصادية، رأينا المصلحة الوطنية ماثلة أمام أعيننا، وإذا تصدينا لشئون التعليم وجدناها لا تستقيم في غير الوضع الوطنى، وإن الفرد، إذا أراد في أية ناحية من نواحي الحياة، أن يرفع من شأن نفسه لم يجد لذلك سبيلا إلا برفع شأن الوطن.

محمود العمري

قصيدة أحمد محرم

هذا الذى شرع الجهاد لقومه

هتف البشير به، وحن الحينُ فأضاء وجهه، واستنار جبينُ
وبدت مواكب حسانا طلقة فشدا اللهب، وغرد المحزون

ويحيى، أنت انشق قبرك فانقضى
 إن غُيِبَتْ عن نظر العيون هنيهة
 ماذا تظنُّ بك البلاد وأهلها
 من أطق الأفكار من أوهامها
 أولم يقولوا: نكبة نزلت بنا
 أله جنودٌ حوله محشودةٌ
 عبث الخطوب، ورأيها المأفون
 فقلوبنا الحرى عليك عيون
 تلك القيامة، لو يكون يقين
 أیظلُّ طول الدهر وهو سجين
 هيهات يكشفها فتى مفتون
 وبوارجٍ مبثوثةٌ وسفين

* * *

هذا الذى بعثَ الشعور، وبثَّة
 نادى: بلادى، فاستجابت أمة
 تبغى الحياة عزيزة، ويغيظُها
 أبَتِ القُعود مع الخوَالف بعدما
 ومضى، يذود اليأس عن آمالها
 هذا الذى شرَّعَ الجهاد لقومه
 إن المضلل فى الحياة لَمَن يَرى
 هى ما رأيت، فكلُّ شىء دونها
 ملء «الكنانة» والشعور دفين
 ليست بغير هوى البلاد تدين
 أن يُستَباح من اللبوث عرين
 أخذ «اللواء» القائد المأمون
 ويُعلم الأحداث كيف تسلى
 فهدى الكتائب نهجه المسنون
 أن الحياة وساسٌ وظنون
 إن كنت تكره أن تضام يهون

* * *

إننا وفينا للبلاد، فلم نحن
 نسخو بأنفسنا، نريد حياتها
 والدهر يظلم والخطوب تخون
 إن صدَّ هبابٌ، وكفَّ ضنين

جوائز مصطفى كامل

١ - المباراة الأدبية

لمناسبة حفلة إزاحة الستار عن تمثال (مصطفى كامل) تبرع الوطنى الكريم الأستاذ
 محمد محمود جلال بمبلغ خمسين جنيهًا تعطى مكافأة لمن يحوزون قصب السبق فى مباراة
 أدبية موضوعها (جهود مصطفى كامل فى نواحي النشاط الإنشائى القومى وبخاصة فى
 التعليم والاقتصاد والاجتماع، وعلاقة ذلك بدعوته الوطنية) وكانت شروط المباراة:

- ١ - أن يكون المشترك فيها شابا مصريا لا تزيد سنة عن ثلاثين سنة
- ٢ - أن لا تزيد الكتابة في موضوع المباراة عن عشر صحائف من القطع الكبير
- ٣ - أن تقدم المواضيع إلى لجنة المباراة التي ألفت من: أنطون الجميل بك. عبد الرحمن الرافعي بك. فكرى أباطة بك. الأستاذ محمود العمري في مدة ثلاث أشهر من تاريخ الإعلان عن المباراة. وقد وزعت الجوائز في حفلة فخمة أقيمت يوم ١٠ فبراير سنة ١٩٤١، وهو يوم الذكرى الثالثة والثلاثين لوفاة الزعيم، وفاز في المباراة كل من الأستاذ نجيب تاوفيلس الموظف بمصلحة السكك الحديدية. على منصور الطالب بكلية الحقوق. الأستاذ لبيب السعيد الموظف بتفتيش مراقبة القطن بالدقهلية. الأديب محمد الخالد ببني مزار.

٢ - جائزة كلية الحقوق

وتبرع حفظه الله بجائزة أخرى (سنوية) قيمتها عشرة جنيهاً سميت (جائزة مصطفى كامل) تمنح كل عام لأول ناجح الليسانس في الدور الأول لكلية الحقوق وهي الكلية التي بدأ بها الفقيد دراسته العليا، وأرسل إلى عميد الكلية خطاباً بذلك وأرفق به صورة الاعتماد الذي خصصه بينك مصر عن قيمة الجائزة، وبموجبه يصرف المبلغ في شهر مايو عن كل عام، فورد إليه خطاب رقيق من حضرة العميد مع قبول هذه الجائزة الكريمة.

٣ - جائزة كلية تولوز

وتبرع أيضاً بمبلغ ألفي فرنك لأول الفائزين في سنة ١٩٤٠ بكلية الحقوق بتولوز، وهي الكلية التي أتم فيها الفقيد دراسته ونال منها شهادة الليسانس سنة ١٨٩٤، وكتب بذلك خطاباً إلى وزير فرنسا المفوض في مصر وأرفق به قيمة الجائزة فتلقى خطاباً من الوزير المفوض بقبول الجائزة وشكره على هذه المبرة

كلمة الأستاذ محمد محمود جلال في حفلة المباراة

وإننا نأشرون هنا كلمة الأستاذ محمد محمود جلال التي ألقاها في حفلة المباراة الأدبية قال:

سادق الأجلاء: أيها المتسابقون النجباء.

حفظنا عن أستاذنا وزعيم الوطنية مصطفى كامل «أن الأمم لا تنهض إلا بنفسها ولا تسترد استقلالها إلا بجهودها وأن الروح الوطنية إذا تمكنت من كل مصرى فتحت المدارس العلمية وظهرت آثار النخوة والهمة والتضامن في كل جهة وناحية، وأتحدت الأمة في الغايات والمقاصد وازدادت نورتها في المال والعلم والوطنية والوئام».

وإذا استجبنا بتوفيق الله إلى هذه الدعوة وهديت لها قلوبنا، وصبغت عليها أرواحنا، فإنما إليها يرد الإطراء الذي شرفني به زملائي وأصدقائي، لأن ما فكرت فيه وما قمت به نتيجة لاستيعاب هذه التعاليم التي مكنتها تضحيات فريد وأخلاق فريد، فرحمة الله في كل مناسبة على البطل الخالد الذكر «مصطفى كامل».

لقد استخرت الله قاصداً من هذه المباراة إلى تسابق الشباب من هذا الجيل إلى كدح أذهانهم وتوجيه أبحاثهم في سبيل المثل العليا واضحة الصورة في مصطفى كامل وهي الوطنية الشاملة التي طبع الله عليها روحه.

جاءت هذه الكلمات على لسان مصطفى كامل لآخر عهده بخطاب جامع، فكانت وصية لها قيمتها وخلودها. كشف لنا كيف كانت الوطنية التي دعا لها وطنية عامة شاملة غير مقصورة على ما يسمى بالنشاط السياسي، ولو قصرت عليه لكانت سطحية غير منتجة، وكان تحديد الدعوة به تضيقاً على الطبيعة وبجافة الحقائق الوطنية وتضييعها لثمراتها.

أذكر لأحد كبار كتاب الغرب قوله: إن ما في الإنسان من قوة ليس ناتجاً عن اليد وحدها، وإنما هو فعل قوة البنية جميعاً ممثلة في اليد، فإذا استطعت أن تحمل ثقلاً عظيماً في يدك فإنما تتأق لك القوة لأن القلب يقوم بوظيفته والمعدة تؤدي عملها وكذا سائر أعضاء

بدنك تتآزر في سبيل القوة التي كانت يدك مظهرها وأداة تنفيذها.

من أجل ذلك تطرقت الوطنية الممثلة في مصطفى كامل إلى ميادين العلم والتاريخ والاقتصاد وأوضاع المجتمع تحييتها وتقومها على الغزار الوطني، ترأب أصداع القائم منها، وتقديم الجديد على الأساس القويم، محافظة عليها مما تتنوع به محاولات الخصم في هذه الميادين، فينشئ بالتعليم جيلا يسبق حكمه وبتزييف التاريخ يهدم من ثقة الشعب بنفسه ويهون عليه الوضع المراد كما يوغل في شئون الاقتصاد يوطئها لغير المصلحة الوطنية ويوجهها إلى نفعه بحيث تعد في الإنتاج والاستيراد مرتبطة به بفعل الزمن من حيث لا تدرى، ثم يعمد إلى مصطلحات الاجتماع يبهظ كاهلها بتقاليد جديدة منحرفة وإذاعات وصياغات جديدة تجر بضعايف النفوس إلى ناحيته، وبكل هذه الوسائل مجتمعة يصل إلى خلق الوهم في الشعب، ثم إلى أن يكون أداة السيطرة عليه، حتى إذا رجع القوم إلى حال اطمأنوا إليها زمناً ظنوا في حضانتها أنهم غير جديرين بغيرها وظنوا البعض منهم نعمة وطويت الثقة بالنفس.

ولنستمع هنا مرة أخرى لوصية (مصطفى كامل) في هذه النتيجة التي كانت أخشى ما خشى على بلاده: إن كل قول أو عمل يؤدي إلى إضعاف الروح المعنوية وهدم جزء أو كل من ثقة الأمة بنفسها وبمستقبلها هو أكبر أذى يلحق البلاد».

فمصطفى كامل حريص لدعوته ولنجاحها على المثل الأعلى للفرد ولشعب وادي النيل، وهو لذلك يضيف على كل ناحية من مسالك الدعوة ما ينفى عنها الأشواك الغريبة والهناك التي تسيء إلى المستوى المرتقب لأمتة فالاستقلال عنده إذن غاية تكرر لها الجهود ويعنى بها الفكر وتثمر الظروف بقدر ما هو وسيلة لا بد منها للنهوض بالنواحي المختلفة وتمكين الأمة على الأسس الصحيحة من كل مرافق الحياة على الوضع الذي يلائمها هي دون تعلق بغيرها. على أن مصطفى لم يعلق مطالبته بالاستقلال على بلوغ الغاية في تلك النواحي كما هو الحال في الأمم المستقلة، لأنه لا يرتب الحق الطبيعي في الحرية على مستوى معين تكون الأمة ملزمة بإثباته أمام الغير متى كان ذلك الغير هو المتحكم في وسائل نهوضها، وإن لجهاد مصطفى في جميع هذه النواحي معنى لا يسمو عليه أى معنى من المعاني التي يعيش الأبطال لتحقيقها وتمثيلها، إذ كان دليلاً على فناءه في المثل الأعلى فناء تاماً مع تشعب جهوده في جميع نواحي الوطنية على ترامي أطرافها ونفوذ

إشعاعها جيلا بعد جيل أقول إن هذا المعنى المتجلى في ذلك الرجل أو ذلك المثل الأعلى الممثل في رجل دليل على أنه لم يعيش عيشة الرجال المحدودة بأشخاصهم وأعمارهم.

سادق: ترون اليوم بينكم هذا الرهط الكريم من الشباب الذى تنبأ به مصطفى كامل وعمل له، يكذب ويتعب ليضع يده على كنوز الفقيد في جهاده المدخر لأمتة وينفقون من وقتهم منبئين في نواحي البلاد في زمن عز فيه الميل إلى البحث، ألا إن المرء إذا عظمت قوة روحه فترامت نواحيها وانبعثت أضواؤها في المدى، تناولت جميع الأرجاء وامتدت في الزمان فشملت آثارها ومراميها مستقبل الأيام.

إن رجلا كهذا ليس برجل عادى ولكنه تيار من تيارات التاريخ، وقوة من قوى البشرية الخالدة، هذا هو مصطفى كامل الذى نحتفل اليوم بذكره.

ضريح مصطفى وفريد

أقيم ضريح مصطفى كامل القديم في المدفن الذى شيده الزعيم لوالدته بشارع المغافر بمدافن الإمام الشافعى، وقد شيعها إلى مرقدها الأخير سنة ١٩٠٧، ودفن إلى جوارها سنة ١٩٠٨، ومن يومئذ لم تعمل يد في إصلاح هذا المدفن أو تجديده، حتى أخذ التصدع يظهر في سقفه وجدرانه سنة ١٩٣٩. وصار يخشى على الضريح الطاهر أن يستهدف للأمطار والأعراض الجوية في شتاء ذلك العام، ففكرت مع لفيف من إخوانى في تدارك هذا التصدع، وألّفنا في أواخر سنة ١٩٣٩ لجنة لإصلاح الضريح، وتم لها جمع مبلغ يسر اكتتب به بعض تلاميذ الفقيد وأنصاره والمعجبين به، فرمنا ضريحه ترميما جزئيا، ولم يعد مع ذلك في حالة تليق بمكانة الزعيم، فاقترحت في مجلس الشيوخ بجلسة ١٠ مايو سنة ١٩٤٤ لمناسبة نظر ميزانية وزارة الأشغال اعتماد مبلغ خمسين ألف جنيه لتشييد مدفن جديد يضم رفات الزعيم، وقلت في هذا الصدد ما يأتى (نقلا عن مضبطة الجلسة):

«أرجو أن تسمحوا لى من وقتكم بخمس دقائق لأعرض اقتراحا بمناسبة نظر ميزانية وزارة الأشغال العمومية، وأريد أن أشرح هذا الاقتراح أولا كى أهد الطريق إلى عرضه.

وضعت الحكومة سنة حميدة في السنوات الأخيرة وهى تخليد ذكرى عظماء الرجال،

ولذلك أقرت فيما يتعلق بتخليد ذكرى المغفور له سعد زغلول باشا عدة مشروعات منها تشييد ضريح له وإقامة تمثالين أحدهما بالقاهرة والآخر بالإسكندرية وأنفقت الحكومة على توالى السنين مبالغ كبيرة لتخليد ذكراه وعلى ما أذكر أن الضريح قد تكلف لغاية الآن حوالى ٢٠٠,٠٠٠ ج، وهذا بالطبع تنفيذاً للسنة الحميدة التى اتبعتها الحكومة، وأمس فقط عرضت علينا مشروع قانون بفتح اعتماد إضافي بمبلغ ٢٧٠٠٠ ج فى ميزانية هذا العام لشراء منزل المغفور له سعد باشا فى مصر «بيت الأمة»، والمنزل الذى ولد فيه الفقيد بإبيانه وضمهما للمنافع العامة، كل هذا عمل حميد تشكر عليه الحكومة، وهذا ما شجعتنى على أن أتقدم لحضراتكم باقتراح تخصيص مبلغ ٥٠٠٠٠ ج فى ميزانية وزارة الأشغال لتشييد ضريح للمغفور له مصطفى كامل باشا، لأنه ضريحه لا يزال على حالته كما بناه لوالدته سنة ١٩٠٧ إذ توفيت فى السنة المذكورة، فبنى هذا الضريح لها، ثم عاجلته المنية فى ١٠ فبراير سنة ١٩٠٨ فدفن إلى جوار والدته فى القبر الذى بناه لها، ومن يومئذ لم تفكر حكومة من الحكومات المتعاقبة فى أن تشيد الضريح الذى يليق بالزعيم الأول الذى بعث الحركة الوطنية من مرقدها، ولعل القدر قد باعد بين الحكومات المتعاقبة وبين القيام بهذا الواجب، فاتباعا للسنة التى جرت عليها الحكومة فى تخليد ذكرى سعد أتقدم باقتراح إضافة مبلغ ٥٠٠٠٠ ج فى ميزانية وزارة الأشغال لتقيم ضريحا للمغفور له مصطفى كامل، ذلك أن تقدير عظماء الرجال هو فعلا واجب محتم ومقدس ولكن أجمل من هذا الواجب أن يكون تقدير هؤلاء العظماء عاما وشاملا، أساسه العدل والإنصاف، فإذا كانت الحكومة قد أدت واجبها نحو سعد زغلول فأرجو أن تؤدى واجبها نحو مصطفى كامل، إن ضريح مصطفى كامل يحضرات الزملاء الأعزاء قد آل إلى حالة لا تتفق ومكانة الزعيم الأول للحركة الوطنية ولا تتفق مع حسن تقدير البلاد لعظمائها الراحلين، وأرجو إذا كان من حضراتكم من يريد أن يستوثق من هذا الحال أن يتفضل بزيارة هذا الضريح، ولعل الوقت قد آن لكى تعمل الحكومة عملا ولنعمل نحن أيضا عملا يمكن أن نسد به هذا النقص الكبير، ولا أريد أن أطيل فى التدليل والبيان فى هذا المقام، ولكنى استسمح حضراتكم فى أن أتلو على مسامعكم كلمتين للمغفور له سعد زغلول فى تقدير المغفور له مصطفى كامل.

«رئيس المجلس (على زكى العرابى باشا) - لا ينازع أحد فى ذلك.

«عبد الرحمن الرافعى بك - قال سعد زغلول رحمه الله فى خطبته بالسراىق يوم ١٩ سبتمبر سنة ١٩٢٣ :

«لست خالق هذه النهضة كما قال بعض خطبائكم، لا أقول ذلك ولا أدعيه، بل لا أتصوره، إنما نهضتكم قديمة تبتدىء من عهد مؤسس الأسرة المالكة محمد على، وللحركة العربية فضل عظيم فيها، وكذلك للسيد جمال الدين الأفغانى وأتباعه وتلاميذه أثر كبير، وللمرحوم مصطفى كامل باشا فضل غزير فيها وكذلك المرحوم فريد بك» وقال فى خطبته بفندق شبرد يوم ٢٠ ابريل سنة ١٩٢١ :

«إنى أعلم أن البلاد تصبو إلى الاستقلال، وأن حركتها الاستقلالية بدت من زمن طويل خصوصا من يوم أن ظهر فيها مصطفى كامل وتلاه المرحوم فريد بك، هؤلاء أسسوا وأيدوا ما أسسوا فى النهضة الحاضرة».

«فواجب تقدير الزعماء يا حضرات الزملاء الأعزاء يقتضي أن نقدرهم جميعا، وأن يكون تقديرنا مبناه العدل والإنصاف، فإذا كانت قد مضت هذه السنوات الطويلة ولم تفكر حكومة من الحكومات فى إصلاح هذا الضريح أو تشييده أو تعميره فأظن أن الوقت الحالى هو أنسب الأوقات لكى نتلافى مافات الحكومات السابقة. لذلك أتقدم بهذا الاقتراح، وأرجو من حضراتكم الموافقة عليه.

وزير الأشغال العمومية (عثمان محرم باشا) - يسرنى أن أقرر لحضرة الشيخ المحترم عبدالرحمن الرافعى بك أننى أول من يحترم ذكرى المرحوم مصطفى كامل باشا، وقد كانت تجمعنى به صلات شخصية وأقرر أن حكومة الوفد تسير على سياسة المغفور له سعد زغلول باشا تعرف فضل مصطفى كامل باشا، وأقول إنه لا داعى لإضافة المبلغ الذى يطلبه حضرة الشيخ المحترم عبدالرحمن الرافعى بك لتشييد ضريح المغفور له مصطفى كامل باشا إلى ميزانية وزارة الأشغال لأن فى الميزانية الحالية مبالغ تسمح بتنفيذ ما يطلبه حضرة الشيخ المحترم، وأعد لحضرتة بتنفيذ اقتراحه فى ميزانية السنة الحالية فورا (تصفيق عام).

وقد وضعت الحكومة من يومئذ تصميم المدفن الجديد، وأقيم فى ميدان صلاح الدين بجوار القلعة، وتم تشييده فى أواخر سنة ١٩٤٩ (انظر صورته ص ٣١٩)

أما ضريح محمد فريد القديم فهو في مدفن العائلة بجوار مقام السيدة نفيسة رضى الله عنها، وقد أقيم القبر على عجل، وبقي طوال السنين عرضة للعراء والأمطار في حالة لا تتفق ومنزلة الزعيم الشهيد الذى ضحى في سبيل مصر بماله وصحته ونفسه وحياته، وقد اقترحت أن ينقل إلى جوار مصطفى كامل فقرر مجلس الوزراء في ١٨ سبتمبر سنة ١٩٤٩ نقل رفات المرحوم محمد بك فريد إلى جوار مصطفى كامل بالمدفن الجديد، وهكذا يتاح للزعيمين العظميين والصديقين الوفيين أن يلتقيا بعد طول النوى، ويضمهما قبر واحد، بعد أن فرق الزمن بينهما نيفا وأربعين سنة، وأصبح الضريح الجديد «ضريح مصطفى وفريد»^(١).

الاحتفال بنقل رفات مصطفى كامل

إلى الضريح الجديد

(١٠ فبراير سنة ١٩٥٣)

وقررت حكومة الثورة (ثورة ٢٣ يوليه سنة ١٩٥٢) تقديرًا للزعيم مصطفى كامل الاحتفال بنقل رفات من مدفنه الأول بحى الإمام الشافعى إلى ضريحه الجديد، وحددت لهذا الاحتفال يوم ١١ فبراير سنة ١٩٥٣.

و ١١ فبراير هو يوم ذكرى تشييع جنازة الزعيم لأول مرة سنة ١٩٠٨، ففي مساء ١٠ فبراير سنة ١٩٥٣ نقل رفات من مدفنه إلى دار اللواء بشارع الدواوين (مدرسة مصطفى كامل الأميرية الآن) ووضع الجثمان الطاهر في الغرفة التى لقى فيها ربه.

وفي عصر اليوم التالى - ١١ فبراير سنة ١٩٥٣ - شيعت الأمة جنازة الزعيم للمرة الثانية من دار اللواء إلى مدفنه الجديد في احتفال مهيب اشتركت فيه الحكومة والشعب، وكان يوما مشهوداً، فقد مضت خمس وأربعون سنة على انتقاله إلى الرفيق الأعلى حتى

(١) ضم الضريح رفات المؤلف «عبد الرحمن الرافعى» حيث دفن جثمانه به يوم ٤ ديسمبر سنة ١٩٦٦ غداة يوم وفاته.

سنة ١٩٥٣، لقد تعاقبت السنون والأيام على وفاته وزادت مبادئه رسوخا، وذكراه خلودا، وكذلك شأن المبادئ الصالحة والأفكار السامية التي تنهض بالأمم والإنسانية تزدد على مر الزمان ذيوعا وثباتاً واستقراراً.

الاحتفال بنقل رفات محمد فريد

إلى جوار مصطفى كامل

(١٥ نوفمبر سنة ١٩٥٣)

وقررت حكومة الثورة أيضا الاحتفال يوم ١٥ نوفمبر سنة ١٩٥٣ بنقل رفات الزعيم محمد فريد إلى جوار زميله في الجهاد مصطفى كامل: في هذا اليوم احتفلت مصر في موكب رائع بنقل جثمانه من مدفنه الأول بحى السيدة نفيسة إلى جوار الزعيم الأول، لقد فرق الموت بينها طوال السنين، منذ وفاة مصطفى كامل سنة ١٩٠٨، وبقي محمد فريد يحمل الراية من بعده ويواصل الجهاد الذى بدأه مصطفى كامل، حتى أضناه الجهاد وانتقل إلى الرفيق الأعلى في ١٥ نوفمبر ١٩١٩، وظل الزعيمان الوفيان بعد وفاتهما تفصل بين جثمانيهما الأيام والأعوام، حتى اجتمعا في مقام واحد، يضمهما قبر واحد، التقيا بعد طول النوى، فعليهما وعلى الشهداء السلام!



الضريح الجديد، لمصطفى وفريد - بميدان صلاح الدين، بجوار القلعة
نقل إليه رفات مصطفى كامل في فبراير ١٩٥٣، ونقل إليه رفات محمد فريد في نوفمبر ١٩٥٣ وبجوارهما
ضم جثمان المؤلف «عبد الرحمن الراقي» في ٤ ديسمبر سنة ١٩٦٦.

الفصل السادس عشر

الخديو عباس الثانى

إن تاريخ مصر السياسى فى عهد الخديو عباس حلمى الثانى له ارتباط وثيق بتاريخها الوطنى فى عهد مصطفى كامل، لذلك كان لزاماً علينا أن نفرّد فصلاً للخديو عباس يكون بمثابة صفحة من تاريخ مصر السياسى فى ذلك العهد حتى سنة ١٩٠٨، حيث ينتهى هذا الكتاب^(١).

نشأة الخديو عباس الثانى

هو ابن الخديو توفيق باشا البكر، ولد فى ١٤ يوليه سنة ١٨٧٤، وكانت ولايته الخديوية يوم ٨ يناير سنة ١٨٩٢، وهو اليوم التالى لوفاة توفيق باشا، فلم يكن قد بلغ الثامنة عشرة الميلادية، حين ولايته الأريكة الخديوية، وكان قد بلغها بالحساب الهجرى.

ارتقاؤه العرش

وقد بلغه نبأ وفاة والده وهو فى (ثيينا) عاصمة النمسا حيث كان يتلقى العلم فى كلية (الترزيانوم) التى كان يؤمها أبناء الملوك والأمراء، فبادر بالعودة إلى مصر، واتخذت انجلترا من حادثة سنه ذريعة لتسويغ بقاء الاحتلال، كما اتخذت من كل حادثة وكل سبب ذريعة إلى ذلك، فكتبت الديلى تلغراف تقول: «لقد أصبحت سلطتنا أكثر ضرورة فى الوقت الذى يجلس فيه على العرش أمير غير مجرب»، وقالت البول مولت جازيت: «إن ارتقاء الخديو الشاب عرش مصر يجعل بقاء الاحتلال أكثر ضرورة من أى وقت

(١) أما الحوادث التى وقعت بعد ذلك فموضوعها فى كتاب (محمد فريد).

مضى فلا يجوز منذ الآن الكلام عن الجلاء»، وقالت الجلوب: «إن وفاة توفيق قد هدمت آخر حجة للجلاء».

وصل الخديو إلى الإسكندرية ثم إلى القاهرة يوم ١٦ يناير سنة ١٨٩٢، وأخذ يضطلع بمهام الأريكة الخديوية، وكان مصطفى فهمى باشا رئيساً للوزاة منذ أواخر عهد توفيق، فقدم استقالة الوزارة اتباعاً للعرف الجارى عند تغيير ولى الأمر، فأقر الخديو بقاءها. وبدأ الخديو عباس عهده بالاستمساك بحقوق مصر ومعارضة السيطرة البريطانية.

الحوادث المهمة فى عهده

(أزمة فرمان سنة ١٨٩٢)

تأخر ورود فرمان السلطان المنبئ بإسناد الخديوية المصرية إلى عباس الثانى، وراجت الإشاعات المختلفة عن أسباب تأخيرها، ثم تبين أن تركيا رغبت فى تعديل الحدود بينها وبين مصر من جهة طور سيناء، ودارت المفاوضات بينها فى هذا الصدد قبل تحرير فرمان، على أن تتخلى مصر عن العقبة لتركيا، إذ كانت فى الأصل تابعة لولاية الحجاز. وإنما أعارتها تركيا لمصر فى عهد اسماعيل، ورخصت لها بوضع حاميات من الجند فى الوجه) والمويلح وضبا والعقبة وشبه جزيرة طور سيناء لتأمين المحمل والحجاج بطريق لبر، وقد استعادت تركيا الوجه وضبا والمويلح، ثم أرادت استعادة العقبة، فقبل الخديو لك، وأراد بهذا التساهل أن لا يوجد بينه وبين تركيا خلافاً فى بداية عهده، مما قد ستفيد منه الاحتلال، فانفجرت أزمة فرمان مؤقتاً، وجاءت الأنباء من الأستانة بأن لسلطان قد أعد فرمان وعهد بالمشير أحمد أيوب باشا أن يحضر به إلى مصر.

وصل المندوب السلطانى إلى الإسكندرية، ومنها إلى القاهرة يوم الاثنين ٤ أبريل سنة ١٨٩٢، أى بعد أكثر من شهرين من ولاية الخديو، ولكن لم يحلّ مجيئه الأزمة، بل تطورت فى شكل أشد. وتأخرت بسببها تلاوة فرمان، وذلك أن الحكومة البريطانية علمت بأنه - وضع فى صيغة تدل على رغبة تركيا فى استرداد شبه جزيرة سيناء كلها، ولم يكن سفير البريطانى فى الأستانة قد اطلع على صيغة فرمان، فلما علم بها أبقى إلى اللورد السبرى رئيس الوزارة الإنجليزية بفحواها، وأرسل هذا برقية إلى السير إفلن بارنج

(اللورد كرومر) بالمعارضة في تلاوة فرمان حتى تصدر إرادة سلطانية بترك إدارة شبه جزيرة سيناء إلى مصر، وقعت لذلك أزمة خطيرة، وتدخل السير بارنج في الأمر، وبعث إلى تيجران باشا وزير خارجية مصر في ذلك الحين بخطاب بتاريخ ١١ أبريل يبلغه فيه صورة فرمان وينهى إليه أنه يختلف عن فرمان الصادر إلى توفيق باشا، إذا كان يتضمن إسناد خديوية مصر إليه طبقاً لحدودها القديمة مع ملحقاتها (وهذه الملحقات تشمل شبه جزيرة سيناء)، أما فرمان الخديو عباس فإنه يعين أملاك مصر طبقاً لحدودها القديمة المذكورة في فرمان الصادر إلى محمد على باشا والخريطة الملحقة به والأراضي التي ألحقت بها بموجب فرمان الصادر في ١٤ ذى الحجة سنة ١٢٨١، أى قبل أن تعهد إلى مصر بإدارة شبه جزيرة سيناء، ولفت اللورد كرومر نظر تيجران باشا إلى هذا التناقض وأنهى إليه أنه مكلف بإبلاغه ذلك تنفيذاً لتعليمات وزارة الخارجية البريطانية، وسأله إذا لم يكن وصل تفسير لذلك من الباب العالى إلى الحكومة المصرية.

ولما بلغ تركيا تشدد انجلترا في هذا الصدد صدرت إرادة سلطانية بإسناد إدارة شبه جزيرة سيناء إلى الخديو، فانفجرت الأزمة، وأرسل تيجران باشا في ١٣ أبريل إلى السير بارنج يبلغه أن الحكومة المصرية تلقت من الصدر الأعظم رسالة تلغرافية بتاريخ ٨ أبريل يبلغها فيه الإرادة السلطانية بترك إدارة شبه جزيرة سيناء إلى الخديو كما كانت لأسلافه من قبل، فرد على السير بارنج بأنه قد أحيط علماً بفحوى الإرادة السلطانية، وأنه بناء على ذلك تستمر شبه جزيرة سيناء كما يحدها الخط الممتد من شرقى العريش إلى رأس خليج العقبة تحت إدارة مصر، على أن تكون طابئة العقبة الواقعة شرقى الخط المذكور من ملحقات ولاية الحجاز، وأن حكومة جلالة الملكة قد بلغت الباب العالى قبولها ذلك؛ وبناء عليه يبلغه بقبول التحديد المذكور والإضافة اللذين حصلا بمقتضى تلغرف الصدر الأعظم المؤرخ ٧ أبريل الذى تعتبره الحكومة البريطانية ملحقاتاً وجزءاً من فرمان، وأنه ليس لديه معارضة في إعلانه رسمياً بإضافة التلغراف المذكور إليه، وعلى ذلك تلى فرمان مع الإرادة السلطانية المصححة له يوم الخميس ١٤ أبريل بسراى عابدين، وبهذا انتهت أزمة فرمان سنة ١٨٩٢.

أزمة إقالة الوزارة الفهمية

(يناير سنة ١٨٩٣)

كان مصطفى فهمى باشا يتولى رئاسة الوزارة كما أسلفنا حين ولى عباس الثانى الحكم، وهى وزارة موالية وخاضعة للنفوذ الإنجليزى خضوعاً تاماً، فلم يكن مصطفى فهمى يصدر فى أى شأن من شئون الحكومة إلا عن إرادة اللورد كرومر، كما أن الموظفين البريطانيين كانوا أصحاب الحول والطول فى الوزارات، وقد ظهر ولاء مصطفى فهمى للإنجليز فى محاولته إقصاء الخديو الجديد عن كل سلطة، فكأن الخديو الحقيقى هو المعتمد البريطانى.

ساءت هذه السياسة الخديو عباس، ووجد من ميول مصطفى فهمى الإنجليزىة ما يجعل تعاونه مستحيلاً، واحتمل بقاءه على رأس الوزارة سنة، ثم لم يطق عليه صبراً، واعتزم إقصاءه عن منصبه، فأوفد إليه يوم ١٥ يناير سنة ١٨٩٣ محمود شكرى باشا رئيس الديوان التركى، وأبلغه رغبته فى أن يستقيل مراعاة لصحته (وقد كان مريضاً حقاً ولكن فى دور النقاهة)، فأجاب الرسول أنه سيفكر فى الأمر، وأن الأوفق لسموه أن يستشير فى ذلك اللورد كرومر^(٢)، فلم يكن من الخديو إلا أن أرسل إليه على الفور كتاباً بإقالته لاعتلال صحته، وعهد فى اليوم نفسه إلى حسين فخرى باشا ناظر الحقانية الأسبق تأليف الوزارة الجديدة، فألفها فى اليوم ذاته على النحو الآتى:

حسين فخرى باشا للرئاسة والداخلية، أحمد مظلوم باشا سر تشريفاتى الخديو للحقانية. بطرس باشا غالى للمالية. وبقي تيجران باشا للخارجية. ومحمد زكى باشا للأشغال والمعارف. ويوسف شهدى باشا للحرية، كما كانوا فى الوزارة الفهمية وهى أول وزارة تألفت فى عهد الخديو عباس، لأن وزارة مصطفى فهمى باشا كانت مؤلفة فى أواخر عهد الخديو توفيق ثم أقرها عباس عند ولايته الحكم.

كان لهذا التبديل دوى كبير فى مصر، وفى الدوائر الأجنبية، وبخاصة الإنجليزىة، لأنه

(٢) حديث محمود شكرى باشا فى المؤيد - عدد ٢ أبريل سنة ١٨٩٣.

تم من غير استشارة اللورد كرومر وإطلاعه، واكتفى الخديو بإبلاغه نبأ تأليف الوزارة بعد أن تم تعيينها فعلاً، وقد قوبل هذا الانقلاب من المصريين بابتهاج كبير، إذ كان مصطفى فهمى باشا بغيضاً إلى الأمة لممالاته الاحتلال، وأثار ثائرة اللورد كرومر، لأنه كان يعتمد على خضوع مصطفى فهمى وإخلاصه للاحتلال، في حين أنه لم يكن يظن في حسين فخري باشا هذه الميول، وقد رأى من ناحية أخرى أنه لم يؤخذ رأيه في هذا التبديل، وأن هذا يعد خروجاً على الحماية المقنعة التي ضربتها إنجلترا على مصر، وعلى التقاليد المتبعة في عهد الخديو توفيق فقابل الخديو، واعترض على هذا التبديل، وأبرق إلى اللورد روزبري وزير خارجية إنجلترا بما وقع، وطلب تعليماته في هذا الصدد، وفي انتظار هذه التعليمات أمر الموظفين البريطانيين في الحكومة بعدم الاعتراف بالوزارة الجديدة، وعدم التعاون معها.

ولما تلقى اللورد كرومر تعليمات حكومته توجه يوم ١٧ يناير سنة ١٨٩٣ إلى سراي عابدين وقابل الخديو وأبلغه صورة برقية وردت إليه من وزير الخارجية بأن الحكومة البريطانية تعارض في تعيين فخري باشا وتطالب بحقها في السرقابة على اختيار الوزراء المصريين طبقاً لتلغراف اللورد جرانفيل المؤرخ في ٤ يناير سنة ١٨٨٤، وبأنه في حال امتناع الخديو عن العمل بنصائحكم «فعليه أن يحتمل أخطر العواقب».

فأجاب الخديو بأنه يستعمل حقه في اختيار وزرائه، ولا يحق لأحد أن ينازعه في هذا الحق الذي يستعمله لمصلحة البلاد. فأجابه اللورد كرومر متوعداً وحذره عواقب مقاومة إنجلترا وأنه في هذه الحالة يجازف بسلطته وبشخصه، وانصرف بعد أن حدد للخديو مدة أربع وعشر ساعة ليتدبر الأمر.

وقد بدأ التناقض واضحاً جلياً في موقف الاحتلال بإزاء الخديو، إذ أن إنجلترا كانت تسوغ احتلالها بدعوى المحافظة على حقوقه، ثم ها هي تفتت على أساس سلطته، أى على حقه في اختيار وزرائه، وتفرض عليه الوزراء الذين تريدهم، وكان هذا الموقف تحدياً صريحاً لحقوق الخديو واعتداءً صارخاً على استقلال مصر وعلى المعاهدات التي كانت تحدد مكرها الدولي، وبدأت خطورة الأزمة حينما استفاضت الأنباء عن مقابلة اللورد كرومر للخديو وعن البرقية التي أبلغه إياها، فاستدعى الخديو رياض باشا ثم نوبار باشا وفابلهما على انفراد، وكذلك قابل بعض معمدى الدول الأجنبية، وذهب تيجران باشا

وبطرس باشا غالى إلى الوكالة البريطانية وقابلا اللورد كرومر للوصول إلى حل للأزمة. وقد طلب اللورد كرومر في بداية الأمر إقالة وزارة فخرى باشا وإرجاع مصطفى فهمى باشا، فرفض الخديو هذا الشرط، وانتهت الأزمة بحل وسط اتفق عليه الطرفان إذ استقال فخرى باشا، وقبل الخديو استقالته، على أن يعهد إلى رياض باشا تأليف الوزارة الجديدة، وأن يقدم الخديو بلاغاً إلى اللورد كرومر وضع هذا صيغته، بيدى فيه رغبته في أن يوجه عنايته لإيجاد أصدق العلاقات الودية مع الحكومة البريطانية، وأن يتبع في المستقبل نصائحها في المسائل المهمة وقد بقى أمر هذا البلاغ مكتوماً إلى أن انفرجت الأزمة.

تأليف وزارة رياض باشا

وعلى ذلك تألفت وزارة رياض باشا في ١٩ يناير على النحو الآتى: رياض باشا للرئاسة والداخلية. محمد زكى باشا للأشغال والمعارف. يوسف شهدى باشا للحرية. تيجران باشا للخارجية. بطرس باشا غالى للمالية. أحمد مظلوم باشا للحقانية.

شعور الأمة إزاء هذه الأزمة

كان موقف الخديو في الأزمة موقفاً مشرفاً. إذ لم يقبل بقاء وزارة عُرِفَتْ بالخضوع والولاء لإرادة الاحتلال وتنفيذ سياسته. فأقالها واستعمل حقه الشرعى في تعيين وزارة يرى فيها الاستقلال عن النفوذ البريطانى، فلا غرو أن أثار موقفه حماسة الشعب وتأييده والتفافه حوله، وقد بدا هذا الشعور أثناء اشتداد الأزمة حين ذهب الخديو من سراى القبة إلى سراى عابدين في صبيحة يوم الأربعاء ١٨ يناير سنة ١٨٩٣ فأقبلت وفود الأمة من الأمراء والعلماء والأشراف وأعضاء مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية وقضاة محكمة الاستئناف والمحاكم الابتدائية وكبار الموظفين والأعيان والتجار من العاصمة والأقاليم، جاءوا مدفوعين بشعورهم لتأييد الخديو في موقفه، وقد غصت بهم السراى، واستقبلهم الخديو طائفة بعد طائفة، فكان يسمع منهم عبارات التأييد ويشكرهم على عواطفهم، ومما قاله لرجال القضاء إنه يدافع عن الحقوق الشرعية للبلاد

لا لشخصه وإنه لم يعمل غير الواجب عليه، واستمرت المقابلات منذ الصباح حتى الساعة الثانية بعد الظهر^(٣)، فكانت مظاهرة رائعة من الأمة، وتلقى الخديو المئات من برقيات التأييد والتهنئة من مختلف أرجاء القطر.

وفي يوم الجمعة ٢٠ يناير - وكانت الأمة قد انتهت بتأليف وزارة رياض باشا - أدى الخديو فريضة الجمعة في مسجد الحسين رضى الله عنه، فاستقبله الشعب بالحماسة والتهليل، واجتمعت الألوف في المسجد وعلى جانبي الطريق من السكة الجديدة إلى الموسيقى إلى الأزيكية وهتفوا له بالهتافات العالية في المسجد وعلى طول الطريق، وألف طلبة المدارس العالية مظاهرة^(٤) هتفوا فيها له وأيدوه في موقفه، ثم هاجموا إدارة جريدة (المقطم) لنزعتها الاحتلالية وانحيازها إلى اللورد كرومر في الأزمة.

وفي مساء السبت ٢١ يناير حضر الخديو تمثيل رواية (عايدة) في الأوبرا، فكانت أيضاً مظاهرة رائعة له، اشترك فيها الوطنيون والأجانب من النظارة إذ وقف الجميع حين دخل اللوج الخديوى وصدحت الموسيقى بالسلام وهتفوا له هتافاً عالياً ودوى المكان بالتصفيق المتواصل، فأجابتهم الموسيقى بالسلام الخديوى مثنى وثلاث ورباع، وكلما عزفت زاد الهمس والتصفيق طالبين إعادة السلام الخديوى حتى أشار الخديو إليهم بالجلوس، وظلت وفود الأعيان والمهنيين ترد إلى سراى عابدين لتهنئة الخديو وتأييده^(٥)

موقف الدول

ذاعت أنباء الأزمة في أوروبا، ولكن الدول الأوروبية قابلتها بالحمود وعدم الاكتراث، واحتجت تركيا على هذا التدخل، فأجابت الحكومة الإنجليزية بأن اللورد كرومر لا يقصد التعدي على حقوق الخديو وأن إسناد رئاسة الوزارة إلى رياض باشا يعتبر حلاً نهائياً للأزمة، واستفسرت الحكومة الفرنسية من الحكومة الإنجليزية عن موقف اللورد كرومر تجاه التغيير الوزاري، فأجابتها بأنه من الواجب مراعاة رأيها في تعيين رئيس

(٣) المؤيد عدد ١٨ يناير سنة ١٨٩٣.

(٤) هي المظاهرة التي أسلفنا الكلام عنها بالفصل الثاني ص (٤٧)

(٥) المؤيد عدد ٢١ يناير سنة ١٨٩٣.

الوزارة، على أن الصحف الفرنسية قد ناصرت مصر في هذه الأزمة وحملت على الحكومة الإنجليزية.

أما الصحف الإنجليزية فكانت تحمل على الخديو حملات شديدة لإقالاته ووزارة مصطفى فهمي، ووصفت هذا العمل بأنه إهانة لممثل إنجلترا في مصر، وقد زادت إنجلترا بعد هذه الحادثة عدد جيش الاحتلال في مصر إجابة لطلب اللورد كرومر وتأييداً لموقفه.

أزمة الحدود سنة ١٨٩٤

لم تكد تنتهى أزمة إقالة الوزارة الفهمية حتى ظهرت أزمة أخرى أبلغ في الدلالة على الضغط الإنجليزي، ونعنى بها أزمة الحدود، وبيانها أن الخديو كان منذ تولى العرش شديد العناية بأمر الجيش، وكان كثيراً ما يرتدى الشوار العسكرى كأحد ضباط الفرق وير على وحدات الجيش وقت التعليم وفي المناورات، ويعنى بحالة الجنود والضباط ونظامهم وتعليمهم ومعيشتهم ويوجه عنايته إلى تدريب الجنود وتلاميذ المدرسة الحربية، فتعلقت به قلوبهم فنقم الضباط الإنجليز من الخديو، هذه الخطة، وتألقت منهم لجنة برئاسة السردار (اللورد كتشنر) وعرضوا شكواهم على اللورد كرومر المعتمد البريطانى، فأضمرؤا انتهاز أقرب فرصة لإذلال الخديو والنيل من مهابته أمام الجيش، لكى تعود لهم السيطرة الكاملة عليه، وقدرؤا في حادثة الحدود الفرصة المرتقبة لتنفيذ وعيدهم ذلك أن الخديو اعترم السياحة بطريق النيل في الوجه القبلى. في شتاء سنة ١٨٩٣ - ١٨٩٤ وبدأ الرحلة يوم ٩ يناير سنة ١٨٩٤، فكان يقابل أينما توجه بحماسة الشعب وابتهاجه، ووصل في سياحته إلى (وادي حلفا) يوم ١٨ يناير ١٨٩٤، وهناك عرض فرقة من الجيش المصرى كان يتولى قيادتها ضابط بريطانى، ولاحظ نقصاً في نظام الجنود وتدريبهم، فأبدى ملاحظته في هذا الصدد إلى وكيل وزارة الحربية (محمد ماهر باشا، وكان يرافقه في سياحته) وندد بالجيش ونظامه، وذاعت هذه الملاحظة، فثارت تائرة اللورد كتشنر وعدّها إهانة له، وجعل منها أزمة تتعلق بالكرامة الإنجليزية، فبادر بتقديم استقالته من منصبه، وأبلغ الأمر إلى اللورد كرومر، فاستشاط هذا غضباً من مسلك الخديو، وأرسل إلى حكومته يستطلع رأيها فيما يجب عمله، فكان جوابها أن يطلب من الخديو إصدار أمره بشكر السردار وأمداح الضباط الإنجليز، وإبعاد ماهر باشا من منصبه، ومعنى ذلك اعتذار الخديو عن ملاحظاته،

وقد اتخذت الصحف البريطانية لهجة التهديد والوعيد حيال هذه الحادثة واعتبرتها أزمة خطيرة لا يحلها إلا الاعتذار، وكان رياض باشا رئيساً للوزارة فبادر إلى نصيح الخديو بالاعتذار والإذعان لمطالب الاحتلال وانتهت الحادثة بالتسليم، وأصدر الخديو من مدينة الفيوم أمراً بكتابة خطاب إلى السردار كتب باللغة الفرنسية ثم عرب ونشر في الجريدة الرسمية، هذا نصه :

«مدينة الفيوم في ٢٦ يناير سنة ١٨٩٤.

«قبل أن أترك الوجه القبلى للعودة إلى مصر أريد أن أكرر ما أظهرته من العناية وحسن الالتفات للجيش عند زيارتي الحدود وأؤيد حسن رضائي الذي أبديته لكم من جهة حسن حالة الجيش ونظامه وإني لمسرور من أن أهنيء الضباط الذين يرأسونه مصريون كانوا أو انجليز، وإني لمرتاح أيضاً بأن أقدر الخدمات التي أدتها الضباط الإنجليز لجيشنا حق قدرها وأملنا أيها السردار أن تعلنوا أمرنا هذا للضباط والعساكر».

عباس حلمي

وبعد مدة وجيزة أبعد ماهر باشا عن وكالة الحربية وعين محافظاً للقنال، فتم بذلك إذعان الخديو لمطالب الانجليز في هذه الأزمة، وأصيب نفوذه بضربة شديدة من جراء تسليمه، وفقد هيئته في نفوس الجيش، وأدرك الضباط والجند أن سلطة أى ضابط بريطاني أكبر من سلطة الخديو، فكان لهذه الحادثة أثر سيء في حالة الجيش المعنوية، إذ شعر الضباط المصريون أن خضوعهم للسيطرة الإنجليزية هو السبيل إل الترقى والاطمئنان على مراكزهم، وتصدعت هيبة الخديو، فلم يعد يرى في الطواير والمناورات إلا قليلاً.

استقالة وزارة رياض باشا

وتأليف وزارة نوبار

اشتد الجفاء بين الخديو ورياض على أثر موقفه من أزمة الحدود، واعتقد أنه لو وقف موقف الحزم والإخلاص له لما نصحه بهذا الاعتذار المهين، وانتهى الأمر باستقالة رياض باشا وتأليف وزارة نوبار باشا في ١٦ أبريل ١٨٩٤ على النحو الآتي: نوبار باشا للرياسة والداخلية. مصطفى فهمي للحربية والبحرية . حسين فخري باشا للأشغال والمعارف.

بطرس غالى باشا للخارجية. أحمد مظلوم باشا للمالية. إبراهيم فؤاد باشا للحقانية. كانت هذه الوزارة ذات ميول إنجليزية، فكان أول عمل لها تعيين أول مستشار بريطاني لوزارة الداخلية. إذ أنشئ هذا المنصب بموجب المرسوم الصادر في ٣ نوفمبر سنة ١٨٩٤، وأسند إلى السير إلدون جورست (الذى صار سنة ١٩٠٧ قنصل بريطانيا العام في مصر بعد استقالة اللورد كرومر)، وصار المستشار البريطاني صاحب الحول والسلطة في الوزارة، وعين مفتشون إنجليز بوزارة الداخلية تضاءلت بجانبهم سلطة المديرين.

وفي عهد هذه الوزارة صدر المرسوم الخديوى في ٢٥ فبراير سنة ١٨٩٥ بإنشاء المحكمة المخصصة لمحاكمة من يتهم بالتعدى على ضباط جيش الاحتلال وجنوده، وهى المحكمة التى كان لها الشأن الكبير في حادثة دنشواى كما تقدم بيانه (ص ٢٠٥).

وزارة مصطفى فهمى باشا

الوزارة الطويلة: نوفمبر سنة ١٨٩٥ - نوفمبر سنة ١٩٠٨

ثم وقع الجفاء بين الخديو ونوبار على أثر موقف الأخير من مسألة رجوع اسماعيل باشا الخديو الأسبق إلى مصر، فقد ساءت حالته الصحية في أوائل سنة ١٨٩٥ وأرسل إلى حفيده الخديو عباس لكى يأذن له بالعودة إلى مصر مراعاة لصحته وشيخوخته، وكان عباس يميل إلى تحقيق هذه الرغبة، ولكن وزارة نوبار وجدت أن رجوع اسماعيل من منفاه غير مرغوب فيه من جانب الاحتلال، فرفضت الموافقة على عودته بحجة أنها تخلق لمصر عقبات من جانب الدول التى اشتركت في خلعه، فأسرّها عباس في نفسه، وأخذ المرض يلع على اسماعيل حتى توفى يوم ٢ مارس ١٨٩٥، وقد رغب عباس في أن يتخلص من وزارة نوبار في تلك السنة ولكن نوبار كان مؤيداً من الاحتلال، فلم يفكر في الاستقالة، فأسرّها عباس في نفسه مرة أخرى، وأخيراً توصل إلى تنفيذ أمنيته في إقصاء نوبار، بأن أعرب للورد كرومر عن رغبته في إعادة مصطفى فهمى باشا المشهور بولائه للاحتلال إلى رئاسة الوزارة، وكان الخديو قد أخذ من ذلك الحين ينجح لمسألة الاحتلال ويختتم عهد المقاومة والأزمات، فلقبت الفكرة ارتياحاً في نفس اللورد كرومر الذى كان

لا يفتأ يترقب الفرص لعودة مصطفى فهمى إلى رئاسة الوزارة، لأن الإنجليز لا ينسون صنائعهم، فلما أحس نوبار بهذا الموقف قدم استقالته يوم ١١ نوفمبر سنة ١٨٩٥، وألف مصطفى فهمى الوزارة الجديدة فى اليوم التالى، واحتفظ ببقية الوزراء الذين كانوا مع نوبار، وأضاف إليهم محمد العبانى باشا وزيراً للحربية، فصارت مؤلفة كما يأتى: مصطفى فهمى باشا للرئاسة والداخلية. حسين فخرى باشا للأشغال والمعارف. بطرس غالى باشا للخارجية. أحمد مظلوم باشا للمالية. إبراهيم فؤاد باشا للحقانية. محمد العبانى باشا للحربية والبحرية، وهى وزارة الاستسلام والولاء المطلق للإنجليز، وقد بقيت فى الحكم حتى نوفمبر سنة ١٩٠٨، أى أنها دامت ثلاثة عشر عاماً، كانت خضوعاً وتسليماً للاحتلال البريطانى، وقد سمينها «الوزارة الطويلة» إذ كانت أطول الوزارات عمراً.

أهم الحوادث فى عهدها

هى حلقات متصلة مترابطة من التسليم فى حقوق البلاد ومرافقها. ففى سنة ١٨٩٧ طلب اللورد كرومر تعيين إنجليزى نائباً عمومياً بدلاً من حمد الله بك أمين، فأذعن مجلس الوزراء للأمر، وعين المستر كوربت فى هذا المنصب الخطير وصارت سلطة النيابة وهيئتها تحت تصرف النائب العمومى الإنجليزى كما كانت وزارة الحقانية تحت سيطرة المستر سكوت المستشار القضائى البريطانى.

إنشاء البنك الأهلى

وفى سنة ١٨٩٨ صدر المرسوم بتأسيس البنك الأهلى وأعطته الحكومة إمتياز إصدار أوراق النقد المصرى، فصار بمثابة بنك الحكومة، وهو بنك أهلى شكلاً وأجنبى فعلاً، ومؤسسوه وحملته أسهمه الأولى هم السير ارنست كاسل المالى الإنجليزى الشهير والمسيو سلفاجو وشركاؤه والخواجة روفائيل سوارس وإخوته.

بيع البواخر الحديدية

وفى تلك السنة ذاتها (سنة ١٨٩٨) عقدت الحكومة صفقة كانت وبالا وخسرانا على

مصر، ونعنى بها بيع البواخر الخديوية بأبخس الأثمان إلى شركة (ألن وألدرسن) الإنجليزية.

وبيان ذلك أنه كان للحكومة بواخر تعرف ببواخر البوستة الخديوية، عددها إحدى عشرة باخرة كبيرة، منها ثلاث بواخر اشترتها الحكومة حديثاً من مصانع إنجلترا وهذه البواخر هي: الشرقية. الفيوم. المحلة. الرحمانية. شبين. توفيق ربانى. البرنس عباس. القاهرة. مصر. النجيلة، وهذه البواخر كانت قوام الأسطول التجارى لمصر فى البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر، والبقية الباقية للبحرية المصرية، وكانت تنقل المسافرين والمتاجرين بين مصر وثغور هذين البحرين، حاملة العلم المصرى، مؤدية مهمتها فى بعث النشاط الاقتصادى التجارى وبسط نفوذ مصر التجارى والبحرى فى هذين البحرين، ويتبع هذه البواخر حوض الاسكندرية الكبير، وحوض الاسكندرية الصغير، وحوض السويس وهذه الأحواض معدة لإصلاح البواخر، ويتبعها أيضاً مستودعات المصلحة ومخازنها ومعاملها ومحلات الإدارة والزوارق البخارية واللنشآت، وقد قدرت قيمة البواخر وهذه الملحقات جميعها بثلاثة ملايين جنيه، فباعت الحكومة جميع هذه المنشآت إلى شركة (ألن وألدرسن) بثمن بخس ١٥٠,٠٠٠ جنيه، فكانت صفقة خاسرة من جميع الوجوه لأنها أضاعت على البلاد ثروة قومية ضخمة ليس من السهل أن تستردها، وقضت على أسطولها التجارى الذى بذلت هذه الملايين فى سبيل إنشائه وتكوينه، وانطوت بذلك صفحة البحرية المصرية إلى وقت طويل، وقد تم ابيع دون مزايدة أو إشهار، بل حصلت المخابرة بشأنه فى الخفاء بين السير إلوين بالمر المستشار المالى البريطانى للحكومة المصرية وشركة (ألن وألدرسن) الإنجليزية، وأقر مجلس الوزراء هذه الصفقة الخاسرة، دون بحث أو تحقيق، واكتفى بالبيانات التى أفضى بها المستشار المالى، ووقع على العقد أحمد مظلوم باشا وزير المالية، ومما يجدر ملاحظته لتقدير مبلغ الغبن الذى أصاب الحكومة من هذه الصفقة أن ثلاث بواخر من الإحدى عشرة باخرة المبعة اشترتها الحكومة من مصانع إنجلترا بـ ٢٠٠,٠٠٠ جنيه، أى أن ثمن الصفقة كله أقل من ثمن هذه البواخر الثلاث، وكانت علة الحكومة الظاهرة فى بيع هذه البواخر والمنشآت أن مصروفاتها تزيد على إيراداتها، فضلاً عن أن هذا ليس مسوغاً لإضاعة ثروة البلاد القومية، فقد ثبت من مراجعة حسابات المصلحة أن صافى إيراداتها السنوى بعد جميع المصروفات هو ٢٢,٠٠٠ ج، فإذا لوحظ أن الحكومة تعهدت بأن تعطى الشركة سنوياً ستة آلاف جنيه فى

السنة فيكون صافي ربح البواخر ٢٨,٠٠٠ جنيه سنوياً، ويكون البيع قد وقع بقيمة الرء مدة خمس سنوات تقريباً، وهذا أفطع مظهر للغبن الفاحش.

كان في بيع هذه البواخر القضاء على الأسطول التجارى لمصر، بعد القضاء أسطولها الحربى، وظهر الفرق جلياً بين حالتها في عهد الاحتلال وحالتها في عهد مصر على حين زارها الكاتب الإيطالى (بنديقى) سنة ١٨٤٠، فراعته منظر السفن الحربى مصفوفة على أتم نظام فى ميناء الاسكندرية، حيث قال فى وصفها:

« لما دخلنا الميناء الكبير بررنا بين قوات بحرية حربية تأخذ باللب وتذهل العقل وكان ضمن هذه القوات الأسطول العثمانى الذى إستولت عليه مصر، وفى يقيننا أننا نر ولا نظن أننا نرى فى المستقبل عدداً من السفن الحربية يوازى ما شهدناه عبر إختلاف الأنواع والأحجام، ومنظماً بمثل ذلك التنظيم البديع، ومما زاد فى رواء المنظر وبهجته أن يوم وصولنا إلى ثغر الاسكندرية كان يوافق عيداً من الأعياد الإسلامى فألفينا تلك السفن كلها التى لا تقع تحت حصر رافعة أعلامها بشكل بديع ومنظر أنير تطلق مدافعها فى الفضاء ساعة الغروب، فكأنها تودع الشمس وتحيتها، فيجاوبها صدى الأفق بلسانها، وصفوة القول إن المنظر كان من المناظر التى لا مثيل لعظمتها،

بيع أملاك الدائرة السنية

باعت الحكومة فى هذه السنة تفاتيش الدائرة السنية، وكانت أملاكها الزراعية تبلغ نحو ثلثمائة ألف فدان، يتبعها تسع معامل كبيرة لعصير القصب وصناعة السكر، باعتها إلى شركة سوارس مقابل ثمن قدره ستة ملايين وأربعمائة ألف جنيه، وهو قيمة الدين الذى كان على الدائرة فى ذلك الحين، وكانت صفقة خاسرة لما فيها من الغبن الفاحش على الحكومة والربح الهائل للمالين الأجانب.

الشروع فى بيع سكك حديد السودان

والظاهر أن سنة ١٨٩٨ كانت بمثابة سنة التصفية، ففضلاً عن إنشاء البنك الأهلى وبيع البواخر الحديدية والدائرة السنية، شرع المستشار المالى البريطانى فى بيع سكك

حديد الحكومة في السودان إلى شركة إنجليزية، بحجة حاجة الحكومة إلى المال لتدبير نفقات الحملة على السودان، فاعترض الخديو على هذا البيع، ولما رأى إصرار اللورد كرومر على عقد الصفقة استنجد بتركيا بحجة أن هذه السكك الحديدية هي من أملاك مصر التي نص فرمان توليته على عدم جواز التصرف فيها أو التنازل عنها، وأبرق إلى سلطان تركيا يعرض عليه الأمر ويطلب منه النجدة فجاءه الرد بشكره وإقراره على موقفه باعتبار أن السكك الحديدية أنشئت للجيش وأن بيعها مخالف للسيادة التركية، فتراجع اللورد كرومر وتقرر عدم البيع.

حوادث السودان

وفي عهد وزارة مصطفى فهمي حصلت التجريدة على السودان لاستعادته، وتم استرداده، ورفعت الراية البريطانية عليه، ثم أبرمت اتفاقية ١٩ يناير سنة ١٨٩٩، مما نوجزه فيما يلي:

حملة دنقلة سنة ١٨٩٦

بقيت الحكومة المصرية ملتزمة موقف الجمود حيال السودان، حتى تراءى للحكومة البريطانية سنة ١٨٩٦ استرداده بالاشتراك مع مصر، فقررت الحملة على دنقلة، وأوعزت إلى الحكومة المصرية تجريدها بقيادة اللورد كتشنر سردار الجيش المصري، ولم تكن الحكومة المصرية إلا منفذة لإرادة الحكومة البريطانية، وقد بلغ بها الخضوع والاستسلام أن رئيس الوزارة لم يعلم شيئاً عن أمر هذه الحملة إلا في اليوم الذي ذهب في مسائه إلى الخديو وأخبره بأن اللورد كرومر أفضى إليه بأن الحكومة الإنجليزية قررت إرسال حملة إلى السودان، فلم يكن من الحكومة المصرية إلا أن قررت في اليوم التالي تجريد هذه الحملة.

أقرت الحكومة المصرية في ١٢ مارس ١٨٩٦ الحملة على دنقلة، وكانت حملة جديدة منظمة، إذ حشدت على الحدود جيشاً مؤلفاً من ١٦٦٨٠ مقاتل منهم سبعمائة ضابط، وهو مجموع الجيش المصري إذ ذاك، وأمدته بكل وسائل الزحف والتموين والنقل، ولكنها

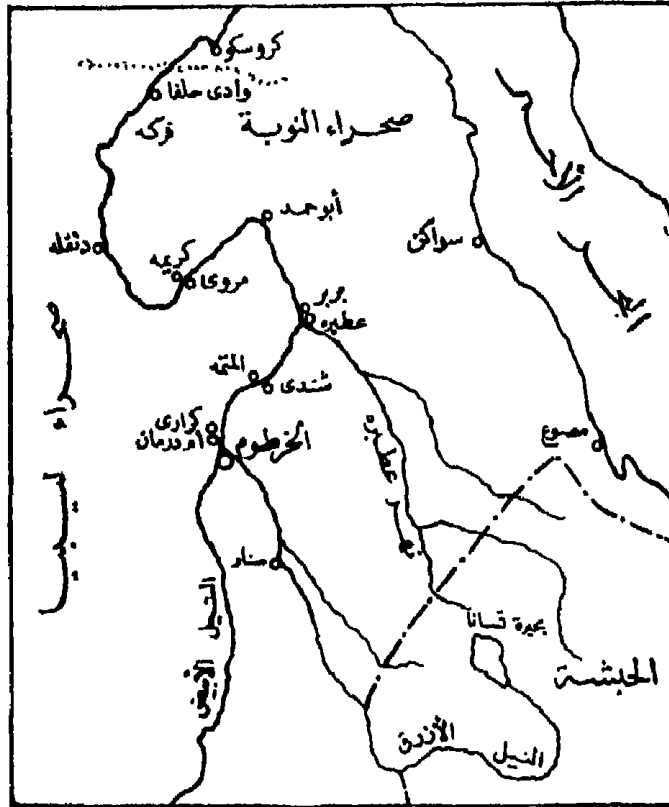
حصرت الأعمال الرئيسية في القواد والضباط الإنجليز فكان منهم قائد عموم الحملة (اللورد كتشنر^(٦))، ورئيس أركان الحرب، ومدير قلم المخابرات، وحكيمباشى التجريدة، والحكيمباشى البيطرى، ومدير المهمات ومدير حملة النقل، ومدير سكة الحديد، وأركان حرب التلغراف، وقواد الفرسان والطوبجية والهجانة والمشاة، وقواد اللواءات جميعاً.

وكان إسناد القيادة العليا والأعمال الرئيسية على النحو المتقدم إلى الإنجليز من الأسباب التى أفقدت الحملة حماسة الشعب، إذ رأوا فيها مظهراً من مظاهر السيطرة البريطانية، فقبلت الحملة بالفتور، وعدوها حلقة من سلسلة التدابير الإنجليزية، بدأت بالاحتلال العسكرى سنة ١٨٨٢، ثم إلغاء الجيش المصرى سنة ١٨٨٣، وتغلغل الإنجليز في شئون الحكومة، ثم إجبارها على إخلاء السودان سنة ١٨٨٤، وترك الثورة تستفحل في نواحيه، ثم إعزام فتحه سنة ١٨٩٦ لحساب إنجلترا بالاشتراك مع مصر، وكان معروفاً أن إنجلترا لم توغز إلى الحكومة المصرية بتجريد الحملة على السودان في تلك السنة الا لتقاوم مشروع الفرنسيين في الوصول إلى أعالي النيل.

وقد أبدى الجيش المصرى في وقائع استعادة السودان من الشجاعة والكفاية والصبر واحتمال المشاق ما جعل تاريخ هذه الوقائع صفحة مشرفة لمصر، وإن كانت ثمرتها قد استأثر بها الاحتلال.

وأول عمل منهك قام به الجنود هو مد السكة الحديدية في صحراء النوبة (أنظر الخريطة ص ١٣١) ليتسنى للجيش أن يزحف ويحتفظ باتصاله بقواعده العسكرية، وقد عانى الجنود المصريون ضروب المشاق والأحوال في اشتغالهم بإنشاء السكة الحديدية في تلك الصحراء المقفرة، إذ كانوا يعملون إبان القیظ الشديد، وكثيراً ما كان يعوزهم الماء في شدة الحر، فسقط منهم العشرات موتى من وطأة الحر وشدة ما عانوه من التعب والإعياء في الشمس المحرقة.

(٦) كان وقتئذ السر هربرت كتشنر: ونال لقب (لورد) بعد فتح الخرطوم سنة ١٨٩٨ وسمى لورد كتشنر أوف خرطوم.



خريطة إسترجاع السودان
(١٨٩٦ - ١٨٩٨)

واقعة فرکه

(٧ يونية سنة ١٨٩٦)

كان أول عمل تمهيدي للحملة مد السكة الحديدية إلى آبار (امبقول) بصحراء النوبة، وقد كانت شراذم الدراويش تصل إلى تلك الآبار وتحاول عرقلة العمل في مد السكة الحديدية. فاعتزم السردار إقصاءهم عن (فرکه) ^(٧)، فزحف الجيش من (عكاشة) في ٦ يونيه وهاجم معسكر الدراويش في (فرکه) فجر اليوم التالي (٧ يونيه)، ودار قتال شديد إنتهى باستيلاء الجيش على المعسكر وفر الدراويش جنوباً.

(٧) بين وادي حلفا ودنفلة.

وقد لاقى الجيش المصرى فى هذه الحملة عناء كبيراً من شدة الحر وهبوب الأعاصير فى الصحراء، وقطع المراحل الشاسعة، ثم ظهور الكوليرا والحمى التيفودية فى الجيش.

واقعة الحفير ودنقله

(سبتمبر سنة ١٨٩٦)

وزحف الجيش براً وبطريق النيل حتى بلغ (الحفير) حيث كان الدراويش ممتنعين، فأجلاهم عنها، وعبر النيل فجر يوم ٢٠ سبتمبر، واحتل دنقله عاصمة المديرية يوم ٢٣ سبتمبر. وتقدم الجيش فاحتل (الدبة) ثم (مروى) على النيل، ودانت مديرية دنقله كلها للجيش المصرى، وكان الأهليون يستقبلونه أينما حل بالترحيب والتهليل، إذ رأوا من مظالم التعايشى وفساد حكومته ما جعلهم يتوقون إلى رجوع الحكم المصرى.

استرجاع (أبى حمد) و (بربر)

(١٨٩٧ - ١٨٩٨)

استقرت الحملة فى دنقله حتى تم السكة الحديدية ويتم تنظيم الحكم فى مديرية دنقله، وقد عمل الجند فى الخط الحديدى إلى (الكريمة) بحرى دنقله ليتفادى الجيش شلالات (المحس) و (سكوت)، ثم مد خطاً حديدياً آخر من حلفا إلى أبى حمد رأساً مخترقاً صحراء النوبة، وفى غضون ذلك استأنف الزحف، فالتقى بالدراويش فى (المنمة) يوم أول يونيه سنة ١٨٩٧، إذ نشبت المعركة بينها وانتهت بهزيمة الدراويش، وهزم الدراويش أيضاً فى واقعة (أبى حمد) واحتل المصريون البلدة يوم ٧ أغسطس سنة ١٨٩٧، واسترجع الجيش المصرى (بربر) فى ٦ سبتمبر ثم (شندى) فى ٢٦ مارس سنة ١٨٩٨.

واقعة عطبره

(أبريل سنة ١٨٩٨)

وواصل الجيش المصرى الزحف فالتقى بجموع الدراويش فى (عطبره) قريباً من

ملتقى نهر عطبرة بالنيل يوم ٨ أبريل سنة ١٨٩٨، فهزمهم شر هزيمة وأسر قائدهم الأمير محمود، وقتل منهم في هذه الواقعة نحو ثلاثة آلاف قتيل وأسر منهم ألفان، وكانت هذه المعركة إيذاناً بسقوط دولة الدراويش.

واقعة أم درمان واسترجاع الخرطوم

(١ - ٢ سبتمبر سنة ١٨٩٨)

ثم شرع الجيش المصرى بعد واقعة عطبرة يستعد للزحف على الخرطوم، فزاد السر دار عمال السكة الحديدية، ومدت من أبي حمد إلى عطبرة، وجاءه مدد من الجند زاد به عدد الجيش فبلغ نحو ٢٥ ألف مقاتل ضم إليه نحو ألفى مقاتل من العربان المواليين للحكومة، وبدأ الزحف في أغسطس سنة ١٨٩٨، وما أن علم التعايشى (خليفة المهدي) بهذا الزحف حتى أخذ يستعد للقتال وحشد الجموع والمقاتلة في أم درمان وأقام الطوابى للدفاع عنها فضلاً عن الطوابى القديمة، وكان عنده من المدافع التي غنمها الثوار من الجيش المصرى في وقائع الثورة ٦٣ مدفعاً وأمر بصنع الألغام لمقاومة وابورات الجيش في النيل،

وفي فجر أول سبتمبر سنة ١٨٩٨ زحف الجيش المصرى تصحبه البواخر النيلية على (أم درمان)، فتجاوز جبل (كررى) ظهر ذلك اليوم ووقف بمكان يدعى (العجيبة) على بعد نحو ثمانية أميال من أم درمان، ثم تقدمت البواخر والعربان الموالية للحكومة واستولوا على بعض الطوابى الأمامية للخرطوم. وسارت البواخر حتى وصلت الخرطوم، فاستولت عليها عصر ذلك اليوم، وكان التعايشى ممتنعاً في (أم درمان)، فأخذت بطاريات المدافع ترميها بالقنابل، وخرج التعايشى بجميع جيوشه من أم درمان لملاقاة المصريين غربى المدينة، وكان معه من المقاتلة ٥١٧٨٩، منهم ٨٦ أميراً (قائداً) و ٥٤٩٥ فارساً و ١٤٣٠٠ راجلاً مسلحين ببنادق الرمتون التي غنموها في المعارك السابقة، والباقون مسلحون بالسيوف والخرايب، زحف بهذه الجموع لملاقاة الجيش المصرى يوم الجمعة ٢ سبتمبر، ف وقعت المعركة المعروفة بواقعة (أم درمان)، إذ هجمت جموع التعايشى في هيئة هلال على معسكر الجيش المصرى على شاطئ النيل، فكانت المدافع تحصدهم حصداً،

وهم لا يهابون الموت، وأنتهت الواقعة بهزيمة التعايشى، فتقدم الجيش المصرى واحتل أم درمان ظهر يوم ٢ سبتمبر وبلغت خسائر الدراويش فى هذه الواقعة عشرة آلاف قتيل، والجرحى والأسرى مثل هذا العدد، أما خسائر الجيش المصرى فبلغت ٤٩٠ قتيلًا وجريحًا.

وقد فر التعايشى جنوباً بعد الواقعة واستقر فى جبل أبى قدير، فسارت إليه حملة بقيادة السير ونجت باشا وكيل السردار انتهت بقتله بواقعة (جديد) فى ٢٤ نوفمبر سنة ١٨٩٩، وبموته سلمت البقية من أتباعه، وتقلص ظل الفتنة المهدوية من السودان.

رفع الراية البريطانية على السودان

وفى يوم الأحد ٤ سبتمبر، بعد واقعة أم درمان بيومين، عبر السردار النيل إلى الخرطوم، ورفع الرايتين المصرية والانجليزية على أطلال سراى الحاكم العام، فقبول رفع الراية الانجليزية على الخرطوم بالدهشة والسخط فى مصر ومن الضباط المصريين فى السودان، إذ كان المفهوم أن السودان أرض مصرية وأن استرداده كان لحساب مصر، وبنودها وأموالها وجهودها، ولكن ولاء وزارة مصطفى فهمى باشا للاحتلال واستسلامها للغاصب جعل الانجليز يعمنون فى الاعتداء على حقوق مصر، فإن رفع الراية الإنجليزية على الخرطوم كان إيذاناً بوضع السودان تحت الحماية البريطانية، ولم تحرك الوزارة ساكناً أمام هذا الحادث الجلل، بل مر كأنه حادث عادى !

اتفاقية ٩ يناير سنة ١٨٩٩

وأعقب رفع الراية البريطانية على الخرطوم توقيع اتفاقية السودان فى ١٩ يناير سنة ١٨٩٩، وقد سبق الكلام عنها فى الفصل الثامن (ص ١٤٠)، وتنفيذاً للاتفاقية عين اللورد كتشنر حاكماً عاماً للسودان، مع بقاءه سرداراً للجيش المصرى، ثم تخلى عن منصبه سنة ١٨٩٩ حين اختارته الحكومة لقيادة الجيش البريطانى فى حرب البوير، فصدر الأمر العالى بتعيين السير ريجنلد ونجت باشا سرداراً للجيش المصرى وحاكماً عاماً للسودان.

تعديل الحدود بين مصر والسودان

وتنفيذاً لا اتفاقية السودان أصدرت الحكومة المصرية قراراً في ٢٦ مارس سنة ١٨٩٩ بتوقيع وزير الداخلية (مصطفى فهمى) جعل نهاية الحدود بين مصر والسودان خطاً يمتد غربى النيل على مسافة ٢٠٠ متر شمالى البربة الكائنة بناحية (فرص) وشرقى النيل إلى البربة الكائنة بناحية (ادنجان)، ووضعت هناك علامتان مكتوب على وجهة كل منها الشمالية (مصر) والجنوبية (السودان).

تمرد فى الجيش المصرى

وفى يناير سنة ١٩٠٠ حصل تمرد فى فرقتين بالجيش المصرى فى السودان على أثر صدور أمر نائب الحاكم العام بتجريد الجيش من سلاحه وذخيرته، فأبت الفرقتان إطاعة هذا الأمر لما فيه من الامتهان لكرامتهما وعدم الثقة فى الجيش وقد سجن الضباط المتهمون بالتحريض على التمرد وأحيلوا إلى مجلس تحقيق لمحاكمتهم وانتهت المحاكمة بطرد سبعة من الضباط من خدمة الجيش، وهم اليوزباشى محمود افندى مختار. واليوزباشى حسن افندى لبيب. والملازمون الأول مصطفى لطفى. وصالح زكى. ومحمد افندى توفيق يوسف. والملازمان الثانى عبد الحميد شكرى. وإدريس افندى عبد الله وإحالة اليوزباشى محمود افندى حلمى إلى المعاش. والملازم الثانى أحمد أفندى شاكى (بك) إلى الاستيداع. وتوبيخ الملازمين الثانى عثمان افندى عارف (بك) ومصطفى افندى محمود الشامى^(٨).

وقد استحضرهم الخديو وعنفهم على ما وقع منهم، وأبدى تأييده للسردار ونجت باشا.

(٨) تلقينا هذا البيان من المرحوم الأميرالاي محمود بك حلمى اسماعيل. فله منى جزيل الشكر.

زيارة الخديو للسودان

وفي أواخر سنة ١٩٠١ زار الخديو السودان، فوصل الخرطوم في ٣ ديسمبر واستقبل استقبالاً رسمياً حافلاً، وأقيمت له حفلة ترحيب أمام سراى الحاكم العام حضرها كبار الضباط والموظفين ونخبة علماء البلاد وأعيانها، وألقى السير ريجنلد ونجت باشا سردار الجيش المصرى وحاكم السودان العام خطبة ترحيب بمقدم الخديو، فرد عليه بالخطبة الآتية:

«إني أشكر لكم الخطاب الذى حييتمونى به وأؤكد لكم بأنى أعد من أعظم مسراق رؤيتى إياكم فى هذه البلاد الشاسعة التى قربتها مناسكة الحديد العجيبة التى ملأتنى ارتياحاً وابتهاجاً.

«الآن وقد رأيت هذه البلاد عرفت الصعوبات والمشقات التى لا قاهها من كانت لهم يد فى الحملات التى كانت نتيجتها محو سلطة عبد الله التعايشى وإعادة العدل والراحة والسكون فى جميع أنحاء السودان.

«العلمان الإنجليزى والمصرى اللذان يخفقان الواحد بجانب الآخر هما إشارة إلى الحكومة المشتركة التى أخذت على عاتقها حماية الأهالى من الوقوع فى شرك أهل الظلم والفساد، وابتداء عصر هدوء وسعادة فى هذه الديار، ولقد سرنى أيضاً ما أشاهده من تقدم مدينة الخرطوم فى العمران، وأعتقدوا أنى سأحفظ لكم أحسن ذكرى لاحتفائكم بى فى هذه الزيارة الأولى، وإنى ليشملنى السرور كلما سمعت بتحسين أحوالكم وتقدمكم فى الرفاهية التى أرى شواهدا بدت فى كل الأرجاء، هذا وإنى أنعم الآن بكل ارتياح ببعض النياشين على بعض كبار علماء الدين وسأنعم بها فيما بعد على الضباط والموظفين والأهالى الذين يعرض لى عنهم سعادة السردار والحاكم العام بناء على التقارير السنوية التى ترد له من المديريات، ثم أكرر شكرى لا حتفائكم بى احتفاء صادراً عن حسن نية وخلص طوية».

وتعد الخطبة فى مجموعها إقراراً لا تفاقية السودان ولنظام الحكم المشترك الذى قضت

به، وصعد الخديو في النيل الأبيض ثم النيل الأزرق، وعاد إلى الخرطوم وبرحها إلى مصر في يوم ٧ ديسمبر سنة ١٩٠١.

افتتاح سكة حديد بور سودان

(يناير ١٩٠٦)

بورسودان هو ثغر قائم على شاطئ البحر الأحمر على مقربة من سواكن، وقد عمل الإنجليز على إنشائه لكي يكون ميناء السودان، ويعرف قبلاً باسم (الشيخ برغوث) وكان مرفأً صغيراً لا يصلح لإيواء سفن الملاحة، ثم زاره المستر ويليم جارستن مستشار وزارة الأشغال واقترح جعله ثغر السودان بدلاً من سواكن، فأقرت الحكومة الإنجليزية رأيه، وأخذت حكومة السودان، (بأموال مصر) تصلحه، وشيدت فيه المباني والمنشآت، وأسمته (بوسودان) واحتفلت يوم ٢٧ يناير سنة ١٩٠٦ بافتتاح السكة الحديدية التي تصله بالنيل، وكان الاحتفال برئاسة اللورد كرومر معتمد إنجلترا في مصر، ولم يحضره أحد عن الحكومة المصرية، وقد ناب اللورد كرومر عن الخديو في هذا الاحتفال.. فكانت الحفلة انجليزية محضة تجلت فيها السيطرة الإنجليزية في السودان، واستبعدت فيها مصر وحكومتها بشكل مهين.

الفصل السابع عشر

مصطفى كامل والخديو عباس الثانى

بدأت نشأة مصطفى كامل الوطنية عام ١٨٩٠ كما أسلفنا، وتقع هذه السنة فى أواخر عهد الخديو توفيق. قبل وفاته بعامين، فتاريخ هذه النشأة يدل على أنها غرس إلهام الفقيد وعبقريته، إذ لم يكن فى ذلك الحين عوامل أخرى تساعد على ظهورها، ثم تولى عباس الثانى مسند الخديوية فى يناير سنة ١٨٩٢ وهو فى الثامنة عشرة من عمره، وقلبه مملوء آمالاً كباراً فى أن تسترد مصر استقلالها فى عهده، وساءه أن رأى الإنجليز قد وضعوا أيديهم على وزارات الحكومة ومصالحها، فاعتزم وضع حد لهذا التدخل غير المشروع، ورسم لنفسه فى أول عهده بالحكم سياسة مقاومة التدخل البريطانى، وفى الحق أنها سياسة قومية ممدوحة تدل على ميول وطنية طيبة وشجاعة نادرة جعلته وقتاً ما يغامر بعرشه.

وجد الخديو عباس فى مصطفى كامل الزعيم الوطنى الشاب الذى استطاع على حداثة سنة أن يحمل علم الجهاد، فأعجب بهذه الشخصية الفذة، إذ وافقت ميوله وآماله فى بداية حكمه، فأمدّها بالمال والتأييد وقتاً ما، ومن هنا توثقت روابط الود والتعاون بين مصطفى كامل والخديو عباس، فى السنوات الأولى من حكمه ومن واجب المؤرخ المنصف أن يذكر هذه الحقيقة، ويعدّها مآثرة لعباس الثانى، فإنه قام من هذه الناحية بقسط محمود فى تأكيد الحركة الوطنية، والملوك والأمراء فى كثير من المواطن لهم فضل على النهضات القومية فى مختلف نواحيها الوطنية والسياسية والاقتصادية، أو العلمية والاجتماعية، أو الأدبية والفنية.

ساهم إذن الخديو عباس فى الحركة الوطنية وقتاً ما بماله ونفوذه الأدبى، على أن العلاقة بينه وبين مصطفى كامل قد اعتراها الفتور بعد ذلك، ثم التقاطع، بسبب عدم ثبات الخديو على خطة واحدة، واستماعه إلى الوشائيات والدسائس، وكانت ميزة الفقيد أنه احتفظ باستقلاله وعلو نفسه تجاه الخديو، ورأى فى استقلال الحركة الوطنية عنه ما يزيد قوة

وروعة، كتب في هذا الصدد إلى صديقه وزميله في الجهاد محمد بك فريد ضمن كتاب له بتاريخ ٥ أغسطس سنة ١٨٩٨ يقول:

«باريس في ٥ أغسطس سنة ١٨٩٨

· «أخي الأجدد الفريد أعزه الله

«أقبلك ألف قبلة، وأهديك أطيب تحية، وصلني بالأمس خطابك الكريم كما وصلني يوم الجمعة الماضية ما طلبته منك، فلك الشكر مزدوجاً، شرف العزيز وسافر، وتشرفت بمقابلته مرات - هذا الخبر لك وحدك - وعلمت منه أموراً جمة سرتني للغاية، وشرحت صدرى، وحقق لي أن الأمل ملء فؤاده، وأن ليس لليأس عليه سلطان، وسأقابه مرة أخرى في الشهر الآتي، وقد قابل هنا وهناك كل ذى شأن وكل عظيم، واستمال من لا يستمال، فله منا الود والإخلاص والحب الحقيقي، وإنه لجدير بأن نتفانى في محبته، ولم أكلفه مدة وجوده ولم أطلب منه شيئاً، ولو أن سفرى لألمانيا سيكلفني كثيراً، وذلك لأنى لا أود أن أجعله يرتاب في إخلاصى الخالص له، وسأبذل جهدى بعد عودتى للوطن المحبوب في أن أكون مستقلاً غاية الاستقلال لنزداد عنده مكانة ونفوذاً».

وهذا الخطاب (الذى نشرنا صورته بالزنكجراف ص ٣٤٤) يلقي شيئاً من الضوء على علاقة مصطفى كامل بالخدوي، ويدل على إخلاص الفقيد وإيائه وعلو نفسه، وليس يخفى أن الخديو قد فترت صلته بالحركة الوطنية، وتزعزعت ثقته فيها بعد حادثة فاشودة، وضعف أمله في الجلاء، فأخذ في التحجب إلى الاحتلال والنزول على إرادته، وبعدت الشقة تبعاً لذلك بينه وبين الفقيد، على أن مصطفى كامل كان يرى بشاقب نظره ألا يقع الانقسام بين الأمة والخديو فيستفيد الاحتلال من هذا الانقسام، كما استفاد من الخلاف الذى شجر بين توفيق والعرايين، لذلك كان يعمل دائماً على إيجاد جو من التفاهم بين الخديو والأمة، ويدعو إلى تعلق الأمة بالعرش، على الرغم من اختلاف وجهتى نظرهما.

(كتاب الفقيه إلى فريد بك في ٥ أغسطس سنة ١٨٩٨)

باريس ٥ أغسطس ١٨٩٨

أخي الأحب إسماعيل

اشتكت العافية واحمدك لحييتك الحية . وصلى الرب عليك
الكريم كما وصلى يوم حجة الباس - ماطلة عليك بشكر سرودها
شرف الغاية وسار وشرفت مقالة محاسن - هذا المذرك
معهك - ولما في امره من سر من الغاية وبشرقة محمد وعفنة
اسم المولى من قواد - وانه ليس ~~للباس~~ على سلعهم وشانهم
منه اخرون - استمالان وقد خال ص وحك كل من شأن وكل
سلطيم في شأنه لا يستحق خبر من الوديعه من واليت العيش
لعبه - نتقاني في محبة . ولم اكلم من وجهه اولم اطلبه من سينا ولانه
سفره لالمانية سكتة كثيرا - وذلك لانه لا اود انه احيه بربا في جلك
المالهم وسأله من بعد عودته للوطن الحديث في انه كره مستحق
الاشتق لانه لا اود عنه مكافاة وشفة

اخبرني في احوال المكنت دبلغ حالهم فيك المحبوب اجمع
بك والاشتراب كبر والهم صاعبه لانه

ارجوكن راية المنزل كل يوم من متواذات في ركنه ابعاد خبايا
تقبل العا انك من اول تقدر ما اخ في احياء طلبات

دوم في مملكتك ولنا في

قطع علاقته بالخديو

خطاب ٢٤ أكتوبر سنة ١٩٠٤

ثم جاء الاتفاق الودى بين انجلترا وفرنسا فى ابريل سنة ١٩٠٤، وظهر انحياز الخديو بشكل واضح إلى الاحتلال فرأى أن يقطع علاقته به وأعلن فى اللواء^(١) أنه اعتزم الابتعاد عنه حتى لا يظن أحد أن عليه شيئاً من المسؤولية فى جهاده السياسى. قال فى هذا الصدد: «إن المخلص فى عمله يجب أن يؤدى الواجب عليه ولو ضحى فى سبيله مصلحته الذاتية وأعز ماتميل إليه نفساً» وقال:

«وإنى لا أشك فى أن كل قارىء بل كل مصرى عرف خطتى وخبر مبادئى يدرك حقيقة مسعى ومقصدى، ويعلم أنى لم أطلب بذلك إلا خدمة البلاد وعرش الخديوية بالتبات الذى لا تغلب عليه الأيام، والعقيدة الراسخة التى قد تتحول الجبال وهى لا تتحول».

وقال فى حديث له فى جريدة (البول مول جازيت) الإنجليزية فى ديسمبر سنة ١٩٠٦: «لما رأيت رغبة سموه فى توطيد الصلات الحسنة بينه وبين ملك، الإنجليزية وحكومته، وجدت من واجباتى أن أكون بعيداً عن سموه»^(٢)

وقد أرسل عقب عودته من أوروبا سنة ١٩٠٤ الكتاب الآتى إلى الخديو، يصارحه فيه بموقفه حياله. قال:

«مولائى

«تشرفت فى ديفون بالمثل بين يدى سموكم يوم ٢٧ أغسطس الماضى (سنة ١٩٠٤) ورفعت إلى مقامكم السامى أن الحالة السياسية الحاضرة تقضى علىّ بأن أكون بعيداً عن فخامتكم، وأن أتحمّل وحدى مسئولية الخطة التى أتبعها نحو الاحتلال والمحتلين، منعا لتكدير خاطرهم الشريف، ودفعاً لما عساه يقع من الخلاف والنزاع.

(١) عدد ٢٥ أكتوبر سنة ١٩٠٤.

(٢) اللواء عدد ٢٦ ديسمبر ١٩٠٦.

«وقد رأيت يامولاي بعد التفكير أنه صار من المحتتم على القيام بهذا الواجب وأنه أول عمل يلزمني تأديته عقب عودتي إلى الوطن العزيز، لأن الإنجليز أظهروا في خلال السنوات الأخيرة من التضييق على جنابكم العالي ما يجعل وجود رجل ينتقد سياستهم في الصباح والمساء بجانب سموكم داعياً لاعتدائهم على حقوق ذاتكم السنوية وحقبة لتدخل جديد غير محمود.

«وإني بعد أن رأيت احتجاجهم على جنابكم الرفيع بمناسبة المقابلة التي تفضلت جلالة ملكة البرتغال بمنحى إياها، ومعارضتهم العنيفة لفخامتكم بسبب الاستقبال الودى الذى نالته مدام جوليت آدم من لدنكم، وتصريحهم بأن انجلترا لا تسمح لجنابكم العالي بإكرام من يغادها، وإدعاءهم بأن كل ما يكتب أو يقال ضدهم موعز به من سموكم، أعد نفسى مقصراً تقصيراً حقيقياً فى تأدية الواجب نحو مقامكم الرفيع إذا أبقيت صلتى بسموكم على حالها وفصلت نعمة التقرب منكم على القيام بواجب تدعو إليه الوطنية والسياسة.

«وإنى أرجو أن يعتقد مولاي، حفظه الله، أنى لم أقصد إلا محض خدمته بما قلته لسموه بشأن أولئك المفسدين الذين يلتصقون بالمعية ويضرون بها أكثر من أعدائها الظاهرين، ويدخلون اسمكم الكريم فى كل حادث، غير حاسبين للرأى العام حساباً، وغير ذاكرين أن عرش الخديوية هو البقية العزيزة لاستقلال البلاد، وأنه يجب أن يكون على الدوام محاطاً بالاحترام التام والإجلال العام، ليقاوم القوتين المحاربتين له ألا وهما الاحتلال والزمان.

«وإنه ليحلولى أن أبقى إلى آخر لحظة من حياتى خادماً لتلك المبادئ الوطنية العالية التى كنتم سموكم أول الداعين إليها والمنادين بها، وأن تزداد كل يوم اتساعاً الهوة التى بينى وبين الذين ادعوا خدمة الوطن ليعدموا مصالحهم ثم انقلبوا عليه بلا خجل ولا حياء.

«وإنى أتشرف يامولاي بأن أرفع إلى سدتكم العلية واجبات الشكران على جليل التفاتكم وسامى رعايتكم، وأقدم إلى المقام الرفيع أسمى ما يليق من التجلة والإعظام».

مصر فى ٢٤ أكتوبر سنة ١٩٠٤

مصطفى كامل

وهذا الكتاب يدل على إخلاص الفقيد في جهاده، وهو لعمري صفحة مشرفة من الشجاعة الأدبية، لأن مجاهرة الخديو وهو وقتئذ رئيس البلاد الشرعى بقطع علاقته به، ومقاومة الاحتلال وهو في أوج سلطانه، كل أولئك عمل يقتضى حظاً كبيراً من الجرأة والاستقلال، ولا يقدم عليه إلا من تغلبت فيه الشجاعة والوطنية، على كل اعتبار للمصلحة الشخصية.

وفي الحق إنه لم يكن ممكناً أن يستمر مصطفى كامل على اتصاله بالخديو، لأن عباس الثانى قد عرف عنه عدم الاستقرار فى الميول والخطط والآراء، وقد تغيرت نفسيته كثيراً من يوم أن تراجعت فرنسا فى حادثة فاشودة وبخاصة حين عقدت وانجلترا ذلك الاتفاق الودى الذى تعهدت فيه بأن لا تضع العقوبات أمام انجلترا فى مصر، فهذه الصدمات السياسية التى لم تنل من مصطفى كامل قد كان لها تأثيراً عكسى فى نفس الخديو، وألقت اليأس فى قلبه من نجاح سياسة مقاومة الاحتلال، فانصرف إلى حياة المال والمتاع، والمال كثيراً ما يفسد النفوس ويغير من الطباع.

وقد ظهر استقلال مصطفى عن الخديو فى استهجانهِ إحالة حسن باشا عاصم رئيس الديوان الخديوى إلى المعاش، إذ أظهر أسفه على حرمان هذا المنصب السامى من رجل اشتهر بالنزاهة والكفاية، وقد كانت إحالته إلى المعاش بأمر الخديو بسبب موقفه الشريف فى الحادثة المعروفة بحادثة مشتهر وخلصتها أن أحد المالىين اليونانيين الذين لهم صلة بالخديو (هو الميسو زرفوداكى) عرض على ديوان الأوقاف أخذ أطيان له بالجيزة مقابل تفتيش مشتهر التابع للأوقاف والذى كان اتفق مع الخاصة الخديوية على شرائه، وعرضت صفقة البدل على مجلس الأوقاف الأعلى، وكان حسن باشا عاصم من أعضائه، فرفض إقرار الصفقة برغم أنها كانت تهم الخديو، فكان موقفه وهو رئيس الديوان دليلاً على استقلاله ونزاهته^(٣)، وكان انتقاد الفقيد إحالته إلى المعاش تحدياً للخديو ومعالجة له بالعداء.

وانتقد أيضاً وقوفه تحت العلم البريطانى فى حفلة استعراض الجيش الإنجليزى بميدان عابدين فى نوفمبر سنة ١٩٠٤، ولم يكن يحضرها من قبل، حتى اضطرت المعية إلى إصدار

(٣) اللواء عدد ٢٧ نوفمبر سنة ١٩٠٤.

بلاغ رسمي تنسب فيه حضور الخديو هذه الحفلة إلى المصادفة (أنظر ص ١٨٠)، وانتقد انصرافه إلى مصالحه الخاصة في مقالة له بعدد ١٠ أبريل سنة ١٩٠٤ من اللواء، لمناسبة اعتراضه على طلب المجلس النيابي من الإنجليز ووجوب طلبه من الخديو، إذ قال:

«إن سمو الأمير هو المطالب وحده بإعطاء مصر مجلساً نيابياً، ويرفع صوته في هذا الشأن، والجهاد في سبيله حتى تناله الأمة، أما الذين يعلنون بأعمالهم وأقوالهم أن سمو الأمير أصبح عديم الحول والقوة وأن لا ملجأ للمصريين إلا إنجلترا والإنجليز وأنه يجب عليهم ألا ينتظروا من أميرهم شيئاً، ويشيرون على سموه بإهمال أمته وصرف أوقاته وكل مجهوداته لمصالحه الخاصة دون المصالح العامة، فهم ألد أعداء البلاد، وهم الذين يكتنون المحتل فعلاً ويهددون عرش الخديو حقيقة».

ومن يوم ٢٧ أغسطس سنة ١٩٠٤، وهي آخر مقابلة له بالخديو، انقطعت علاقته به، وكان انقطاعه عنه مما زاده منزلة ورفعة، إذ ظهر استقلال الحركة الوطنية عن الخديو أكثر من ذي قبل، ولما أصدر الفقيد جريدتي ليتندار اجبسيان الفرنسية وذي اجبسيان استاندرد الإنجليزية في أوائل سنة ١٩٠٧ حنقت الصحف الإنجليزية من ظهورهما واتهمت الخديو بالمساهمة في رأس مالها فنشر الفقيد رداً على هذه المفتريات أساء المساهمين في رأس مال الجريدتين ومقدار ما اكتبوا به، فكان هذا الإعلان قاطعاً في إنبات أن لا علاقة للخديو بظهور الجريدتين، ولا صلة له بهما.

ولما استقال اللورد كرومر في أبريل سنة ١٩٠٧ وخلفه السير إلدون جورست اشتد انحياز الخديو عباس إلى السياسة البريطانية، وظهر هذا التحول في حديثه مع المستر ديسى الذى نشرته جريدة الديلى تلغراف في مايو سنة ١٩٠٧، إذ نفى عن نفسه تهمة العمل ضد الاحتلال، وذكر اللورد كرومر بالخير، وصرح بأن المعتمد البريطاني لا يستطيع حكم مصر وحده، وأنه مستعد للتعاون معه، وأنه لا فائدة للمصريين من استبدال احتلال باحتلال، وأن الاحتلال البريطاني أفضل من أى احتلال آخر.

ومعنى هذا الحديث في مجموعه أن الخديو يصرح بأنه يرغب مشاركة المعتمد البريطاني في حكم البلاد حكماً مطلقاً، فلم يحجم الفقيد عن انتقاد هذا الحديث انتقاداً حازماً، برغم صدوره من الرئيس الأعلى للدولة، قال في هذا الصدد:

«مما يجب علينا إعلانه والجهر به أمام الملأ كله أن تصريحات الجناب العالى لا تقيدنا بأى حال من الأحوال، لأن مركز سموه غير مركزنا، على أن كل مصرى صادق الوطنية لا يقبل مطلقاً أن يكون حكم مصر بيد سمو الخديو بمفرده أو بيد المعتمد البريطانى، أو بيد الاثنين معاً، بل يطلب أن يكون حكم هذا الوطن العزيز بيد النابغين والصادقين من أبنائه، وأن تكون نظمات الحكومة دستورية ونيابية^(٤)».

وقال فى موطن آخر:

«قد قلنا مراراً إن سمو الأمير بعيد عن الحركة الوطنية، وأن المجاهدين ضد الاحتلال مستقلون عن سموه كل الاستقلال، فهو إن قال كلمة فى صالح الحركة الوطنية خدم نفسه وعرشه، واستمال أمته إليه، وإن عمل ضدها أضر بنفسه وعرشه، ونفر أمته منه، ولكنه فى الحاليتين لا يستطيع الإضرار بهذه النهضة، لأنها نهضة المطالبين بالحياة والوجود، ومثل هذه النهضة لا يضرها إنسان مهما كان قوياً عظيماً^(٥)».

وقال: «إن مصلحة الشعب المصرى تقضى بأن تكون الحركة الوطنية بعيدة عن الجناب العالى، حتى يعلم العالم كله أن المصريين يطلبون بأنفسهم وطوعاً لعواطفهم وشعورهم، إصلاح حالة بلادهم وترقية شؤونهم ومنحهم الدستور، وأن هذه المطالب ليست صادرة بإيعاز من كبير أو أمير».

وقال فى مقال آخر:

«لقد اهتموا الحزب الوطنى تارة أنه موحى إليه من الدولة العلية، وطوراً من ألمانيا، وتارة أخرى من سمو الخديو، وقد سقطت التهمتان الأوليان من قبل، وهذه الثالثة قد سقطت الآن معها، فحان الأوان أن نهىء أنفسنا».

وكتب من (نيوهوزن) فى ٢٣ أغسطس سنة ١٩٠٧ إلى المغفور له محمد بك فريد (نشرناه بالزنجوجراف فى الصفحة التالية) يدل على مبلغ استيائه من خطة الخديو، وتحييده الابتعاد عنه، قال:

(٤) اللواء ٢٦ مايو سنة ١٩٠٧.

(٥) اللواء ٢٧ مايو سنة ١٩٠٧.

(خطاب الفقيه إلى فريد بك في ٢٣ أغسطس سنة ١٩٠٧)

نيويورك في ٢٤ أغسطس ١٩٠٧

أخي الأعز حرسه الله

ألف قبلة وألف سلام . وبعد فقد حظيت باستلام
خطبك بك العزيز المذفر في ١٥ السعد إلى وسافر
من شك في الله ربهم

أنا مسافر الآن مع عمارة بك عمارة باريس
أرجوك عدم تفخيم الخديو في كتاباتك فقد علمت
عنه ما لا يسر . ولابد أنه تضرع السياسة ذات الوجهين
ضرراً كبيراً . وكلما كان عمل الوطنيين بعيداً عنه كان
الندم محققاً

دته رفيقك المنك
صطفى كامل

«أخي الأعز حرسه الله.

«ألف قبلة وألف سلام، وبعد فقد حظيت باستلام خطابك العزيز المؤرخ ١٥ الشهر
الجاري، وسأقرأ مقالتك في القطار بإمعان لأنني مسافر الآن إلى باريس.

«أرجوك عدم تفخيم الخديو في كتاباتك، فقد علمت عنه ما لا يسر، ولابد أن تضره
السياسة ذات الوجهين ضرراً كبيراً، وكلما كان عمل الوطنيين بعيداً عنه كان الفلاح
محققاً».

فهذه الأقوال التي كتبها في الصحف أو رسائله الخاصة تدل على عقيدة راسخة في الواجب الوطني الذي اضطلع به، وترسم لنا صورة رائعة لتلك النفس الكبيرة التي سمت بالحركة الوطنية، وجعلتها قوية بذاتها، مستقلة بمبادئها، محتفظة بكرامتها، قوامها الإخلاص لمصر والنهوض بها إلى الاستقلال والحرية.

في مذكرات الخديو عباس الثاني عن مصطفى كامل

توفي الخديو عباس الثاني سنة ١٩٤٤ بجنيف، وقد دون مذكرات مطولة قبل وفاته عن حياته وسنى حكمه، نشرت صحيفة المصري فصلاً منها سنة ١٩٥١، وقد تناول فيها الحديث عن مصطفى كامل وعلاقته به، وأثره في بعث الحركة الوطنية، ويطيب لى أن أورد هنا ما دونه عن الفقيه في هذه المذكرات الهامة.

قال تحت عنوان «مصطفى كامل»:

«كان مصطفى كامل هو الذى بدأ نشر الفكرة الوطنية في شباب مصر، وهو الذى هز الروح المصرية فأيقظها من غفوتها.

«كان محبى الوطنية المصرية، ورسول تلك الفكرة التي كانت قد خُنقت في مهدها، ولكنها ظلت تسعى إلى الأمام، وقد كسب لعقيدته ولحزبه أغلبية الموظفين، وأعياناً ومثقفين، وإجماع الطلبة والعمال. كان فتى خلع عليه الشباب كل نعمة، بما فيها نعمة الوهم المقدس، وكان قد آثر الحياة الروحية على الحياة المادية، وكان حديث العهد بذلك البلد القديم الذى لم تكن هالات المجد ترفع فيه إلا على القبور، ولا يعرف شيئاً عن الوضاعة والمساومات السياسية.

«كان بسيطاً ومستقيماً، وتحت مظهره اللطيف كانت تختبئ روح متفتحة لكل الأحاسيس، وقلب حساس لكل ألوان الرقة والحنان، وزانه الله بالحجى، وكانت بلاغته واضحة وحارة، وكان أسلوبه الرشيق، العامر بالصور، ينتقل من البساطة الإنجيلية إلى بلاغة الخطيب المصقع العظيم، وقد أوتي موهبة الإقناع وسحر الإشعاع الذى يؤتاه

الحواريون والأنبياء، وكان الحب الذى يكنه لوطنه ينبع من حماسة لا تفقده سيطرته على عقله.

«وليس من شأنى أن أسجل حياة ذلك الحوارى الرفيع الذى كانت براءته الطاهرة - بقدر ثقافته وجدارته - قد فتنت به الجماهير، ولكنى لا يسعنى أن أرد نفسى عن توجيه تحية الإجلال إلى ذكرى وطنى أدين له بساعات فائقة الجمال، ومن المؤكد أنه كان فى بعض الأحيان يضايقنى، فإننا على اتفاقنا الدائم فى الهدف، لم نكن دائماً متفقين على الوسائل.

«وكان شباب الزعيم الوطنى يسمح له بأن يسترد خطاه ويتطور فى لطف حول الأخطاء التى يحفل بها الشباب، وقد أوشك مصطفى كامل أن يغدو ذات لحظة ضحية الزهو الذى يتربص بكل أولئك الذين يقودون الجماهير ببلاغتهم ويحسون أنها معلقة بأفكارهم، وقد كان مصطفى كامل، فيما عدا موهبته الفذة كخطيب وكاتب، وطموحه المشروع، على خصال وطيدة كانت تكفل التقدير حيثما ذهب، كانت له موهبة الملاحظة التى نماها اختلاطه برجال السياسة فى مصر وفى الخارج، وكان يفهم، وقد درس وعاش فى أوروبا، إن بلداً طامحاً إلى الازدهار يجب أن يسهر بعناية على علاقاته مع البلاد الأجنبية، ولم يهمل مطلقاً ذلك الرأى، فكان صوته بذلك يذهب بعيداً، وكان يسمع فيما وراء النيل، وكان قد عرف كيف يهيم لنفسه فى أوروبا، وفى فرنسا خاصة، صداقات فعلية، وفى أخريات حياته كان صوته قد بدأ يسمع فى إنجلترا.

«كان نافعاً لوطنه، وكنت أقدره حتى عندما كان يستحيل على أن أتبعه، إن مهمة الحكم ليست دائماً بالسهلة، ففى الوقت الذى يشاء الحاكم أن يطيع صوت قلبه، يجد نفسه مضطراً إلى الازدعان لحق الدولة، ولقد كان مصطفى كامل حراً وكنت أمنحه تأييدى المطلق، كان يقول بدلاً منى ما يجب قوله، وما لم يكن فى الوسع قوله باسمى.

«وإذا كان قد حدث فى بعض الأحيان أن اتجاها غير صائب قد عكر صفو عطفى الذى كان فى أغلب الأحيان يذهب إلى حد التعاون معه، فإن سوء التفاهم كان دائماً يزول سريعاً، إذ يطرد سحائبه الولاء المتصاعد من قوله ومن عمله، إن فضل مصطفى كامل العظيم هو أنه قد حدد المثل الأعلى للأمة، وشجع الجماهير على السعى إلى ذلك المثل الأعلى، ولكن وطنيته كانت تبلغ أحياناً حد التصلب، وأكبر ما كنت آخذه عليه أنه ظل

مبتعداً بنفسه، وبإرادته عن جميع أولئك الذين كانوا يكافحون حول الراية نفسها ولنفس القضية، وكنت قد حلمت بتقرب بين الشيخ على يوسف ومصطفى كامل، ولكنى لم أستطيع مطلقاً أن أحقق هذا الأمل إذ كان يفرق بين هذين الرجلين نوع من الكبرياء، المبالغ فيها، ولقد كان يسعها أن يتفاهما دون أن يتحابا، وكان لهما من المزايا والفضائل ما يكفى لكى يظفر كل منهما من صاحبه بالتقدير.

«لقد كان مع مصطفى كامل الشباب، والطلبة، والمستقبل، على حين كان الشيخ على يوسف يتمتع بالنفوذ على أصحاب المراكز الاجتماعية الهامة، لو أنها تضامنا أى شيء كنا نعجز عن تحقيقه، لو أننا وضعنا حماسة أحدهما فى خدمة تجربة الآخر!

«وإذا كان مصطفى كامل قد تجلّى فى أغلب الأحيان فى صورة الحوارى، فليس فى هذه الدنيا، مع الأسف، سياسة بلا أخطاء، وما كان مصطفى كامل إلا بشراً، ومع ذلك فلقد ترك عند موته نموذج حياة كرسها صاحبها كلها لتحرير مصر، وإن جدارة زميله على يوسف - لو أنه كان قد عرفه - ما كانت لتقلل من شأنه، وما يجدر أن يتشجر الناس على المجده، عندها يخشى أن يكون الوطن نفسه فدية المعركة.

«وكان هذا المتضرم هوى ببلاده، الذى قدر له أن يموت فى زهرة العمر قبل أن يتاح له الوقت لكبح جماح حماسته بقليل من التجربة، قد حصل على معظم ما يطمح من رضا ذلك النجاح العجيب لرسائله الوطنية، وما من ريب فى أنه قد ثمل بعض الثمول بنجاحه، ولو أن ذلك الثمول كان قد اتحد بحكمة الشيخ على يوسف الشرقية، لكان ذلك قد خدم قضية البلاد فوق ما خدماها متفرقين.

«كان مصطفى كامل، كلما وسمه العمر بطابعه، يغدو أكثر قلقاً وأكثر إحساساً بشخصيته، وكانت مبادئه السياسية - بعد أن عانت بضعة تعديلات - قد غدت مصرية دقيقة فى مصريتها، وإذا كان قد تكلم أحياناً عن تركيا أو وجهه إلى أوروبا نداءاته المجلجلة فما كان ذلك إلا ليخفى ثورة لو أن تلاميذه لمحوا منها شيئاً لكان فى ذلك ما أفقده سلطته.

«ولعل التعهدات المتتابة التى طبعت نشاطه كانت قد نسقت، ولم يكن يريد أن يقطع صلته بالماضى دون فترة انتقال، وكان يخشى أن يعرض النتائج التى حصل عليها للخطر،

إذ هو بدا في صورة المجدد المبالغ في تجديده.

«وأيا ما كان الأمر، فإن أساس تعليمه لم يكن في الحقيقة عصرية مفردا في عصريته، بل لعل أفكاره كانت أقرب إلى التقليد الشرقي مما يعتقد أكثر الناس.

«كان قد جرد وطنيته من كل رداء ديني، ولكنه ظل متدينا ومتعلقاً بروح القرآن، أما أعلى يوسف، فإنه برغم ثقافته الدينية البحت، قد عرف كيف يتلخص من الطابع الإسلامي، الذي بقي عند مصطفى كامل، ومع أنه تربى في أوروبا، فلقد كان يستخدم النظريات الغربية كوسيلة، ولكنه لا يعتبرها غاية في ذاتها.

«ومات الزعيم الشاب للاستقلال المصري دون أن يحقق خطته، وربما دون أن يكون قد حدد خطوطها الأخيرة، لقد كان على الأخص محيي الروح الوطنية.

«وكانت جنازته رائعة، ومرت مصر عن بكرة أبيها أمام جثمانه، وأقبل من القرى النائية ألوف وألوف من تلاميذه ليشيعوا النعش الذي حمل زعيمهم إلى مثواه، أولئك الأنصار الذين غدوا، وقد مات الزعيم، الخلفاء على تراثه الوطني.

«كانت روح مصطفى كامل تلهم شعبا، وقد صار هذا الشعب وراث مثله الأعلى».

وقال الخديو عباس في موضع آخر:

«لقد قيل، في أيام كفاح مصطفى كامل العنيفة، أني كنت خصمه، وقيل أيضاً أنه كان صنيعتي، وليس هناك ما هو أشد بعداً عن الحقيقة من هذا الذي قيل، إن مصطفى كامل لا ينتمي إلا إلى نفسه، ولقد كان رجلاً من الصفوة، عاش بإيمانه، ومات بإيمانه؛ أما أنا، عباس حلمي، فاني ما كنت أبدا خصمه، وما كنت أبداً وحيه، ولم يكن صنيعتي، بل رائداً وجندياً يحارب تحت راية مثله الأعلى الذي كان العجائز يرونه زندقة وإلحاداً ويتبعه الشباب في حماس فائر، وإن قلمه البليغ، و (لواءه) المنيّاضل، قد صاروا إحدى مفاخر عهدي

«ومع أن كل شروع في عمل بالمعنى الذي حلم به مصطفى كامل كان يعترضه دائماً وجود الوكلاء البريطانيين وإرادتهم، فإن عهد حكومي كله قد تأثر بمجهوده الوطني، وأذكر على سبيل المثال إنشاء الجامعة المصرية الجديدة التي وضعتها تحت رئاسة عمي الأمير

أحمد فؤاد، لمنحها استقلالاً حقيقياً، فهي الدليل الذى لا ينقض على ذلك، لأنها كانت من وحيه، فإن أول من فكر فى الجامعة هو مصطفى كامل».

وقال فى موضع آخر :

«إن الروح الوطنية قد تحدت بوجه خاص فى عهدي، وقد ظفرت تلك الروح فى إخلاص أكثر زعمائه جلدأً وبلاغة - مصطفى كامل - وفى موهبته بما آتاه برنامجاً محدداً.

«يومذاك كنت أمسك بيدي محركات عنصري الوطنية المتفرقين المتنافرين الحزب المحافظ، حزب أعيان البلاد الذى يأتمر بأمر الشيخ على يوسف، وحزب الشباب، يلتطرف بزعامة مصطفى كامل، وكان معنى الوطن عند كل من هاتين الجماعتين مختلفاً عن الآخر، فهما لا تستطيعان تحقيقه فى صورة موحدة، ولا فى لحظة واحدة.

«وقد أدركت بعد قليل استحالة ضم الفريقين، وصار لزاماً على أن أسعى عند كل منها سعيّاً خاصاً به، وكان هذا ما جعل البعض يقول: إني كنت أقوم بلعبة مزدوجة.

«ولكنى على العكس من ذلك، كنت أبغى أن أتجنب - ما وسعنى ذلك - ترك هاتين القوتين المتنافستين إحداها إزاء الأخرى، وأن أحد من الانشقاقات فى كل منهما، مستدركاً ما عساه أن يحدث من اختلال.

«وكنت أحرص قبل كل شيء على ألا تبدر منى بادرة تفضيل قد تشير غيرة تجعل أحد الحزبين ينهض لعداء الآخر، وكان تفضيلي مع المعتدلين ولكنى كنت أفهم المتطرفين، ولم استخدم لنفسى لا هؤلاء، ولا هؤلاء، ولكن هؤلاء وهؤلاء كانوا يرفضون مبدأ الاحتلال.

«وقد كان موقفى سبباً فى أن يقال إني لم أكن مخلصاً لا للوطنيين ولا للانجليز، ولكن تقليباً الظاهرية لم يكن لها غير دافع واحد وهو دافع شخصى على كل حال، لم أكن رقيقاً بالحزب الوطنى عندما كان يندفع إلى شيء من العدوان، ولكنى لم أكن رقيقاً أبداً ببريطانيا العظمى التى كانت تنشب مخالبتها بإطراد كل يوم فى الأرض المصرية، وهذا الدافع الوحيد كان حبي لبلادي».

وقال عن حادثة (دنشواى):

«لست أبغى أن أنشر هنا من جديد فصول تلك المأساة، فإن من المعروف أن الضباط

الإنجليز المشتركين في المناورات كانوا ينتهزون فرصة أوقات فراغهم كي يخرجوا للصيد، فيقتلوا في القرى الحمام الأليف، ويحملوه ملء الحقائق، وأن الأهالي قد قاوموا، وتبادل الفريقان الضربات فلاذ أحد الضباط بالفرار خلال المزروعات، ومات متأثراً بضربة الشمس، وعاد بعض الجنود إلى القرية ليقتلوا المزارعين الوادعين، قبل أن يحملوا النبأ إلى رئيسهم.

«ولم يكن في الأمر، إلى ذلك الحد، غير حادث يؤسف له حقاً، ولكنه ما كان لينتهي بتلك المذبحة الفظيعة التي تلت المحاكمة التي قامت بها المحكمة الخاصة لو أنه عولج في إتزان، ولم تخن الجميع أعصابهم، وكان كبار الموظفين الانجليز في أجازة، كما كان الجنرال قائد القوات غائباً، وأكبر الظن أن ذلك الذي كان يقوم مقامه كان متحمساً ومتطرفاً، فقد أضفى على الحادث ثوب المأساة، كما أن ممثل اللورد كرومر لم يحسن فهم المسؤوليات التي أخذها على عاتقه.

«إنى ليستثير ألى أن أفصل القول في هذا الحادث الذي حمل إلى البرق نبأه أثناء إستشفائي في فيينا، فلقد هز نفسي أعنف هزة، سواء من جهة الوقائع التي رفعت إلى، أو من جهة موقف الحكومة المصرية.

«لقد كان الواجب أن يقابل سوء تصرف الإنجليز ووحشيتهم في الكفة الأخرى بوطنية المصريين وحرصهم على كرامتهم.

«وليس مما يغتفر للإنجليز، بلا ريب، أنهم شكلوا محكمة إستثنائية، كي يحاكموا فلاحين وادعين لم يرتكبوا جرماً إلا الدفاع عن حقوقهم وممتلكاتهم ولكن جرمهم في ذلك لا يقاس بجرم أولئك المصريين الذين قبلوا بغير اعتراض الاشتراك في تلك المحكمة، وأباحوا للدولة المحتلة تلك الترضيات التي ما كانت لتجرؤ على المطالبة بها لو أنها أحست من جانبهم مقاومة بسيطة.

«إن الوزراء المصريين لم تبدو منهم بادرة للتخلص من ذلك الشرف المحزن، شرف محاكمة مواطنيهم، ولم تند عن شفاههم كلمة طيبة واحدة.

«لقد ضحوا للأجنبي، دون احتجاج، ودون تردد، بأولئك التعساء الذين عهدوا إليهم بمصيرهم، والذين كان عليهم أن يستمعوا إليهم قبل الحكم عليهم، ولم يشر أحد إلى

الظروف المخففة لعمل كان أكثر الجرائم استحقاقا للعفو، وكان فوق ذلك، قد تم من قبل الانتقام له.

«ولا يفوتني أن أسجل أن المقال الذى نشره مصطفى كامل فى جريدة «الفيجارو» الباريسية فى ١١ يولييه سنة ١٩٠٦ قد أحدث دويا عظيما، وأثار ضمير العالم.

«لقد كان ألى لذلك الأمر كبيراً وفادحا، وكم عكر صفوى ليال طويلة، ولم يكن الاندفاع الإنجليزى وضعف الحكومة المصرية قد سمحا لى بفرصة التدخل إلى وقت القضية.

«ولقد فعلت المستحيل لتعويض ضحايا حادث دنشواى الذين لم يشنقوا، ولكن اللورد كرومر أبى قائلا إن فى ذلك مساسا بشرف الجيش البريطانى، وكان على أن أنتظر السير إلدون غورست كى أصلح من أثر ذلك الشر.

«وكانت لندن، بعد حادث دنشواى المحزن، قد إنتهى بها الرأى إلى استدعاء اللورد كرومر.

«كان الإنجليز قد أدركوا آخر الأمر، كلما جرت الأحداث، ولما أثارته الدعاية الوطنية عند الشعب من حركة لا تقاوم، أن يوما سيأتى فيغدو جيشهم الذى يحتل مصر غير كاف للمحافظة على الأمن فى البلاد، أو لحماية نفسه من هجوم خارجى.

«فلنطو هذه الصفحة، ويكفى أن الصحافة الإنجليزية والتاريخ قد فضحا منذ ذلك الحين - سفاحى دنشواى، أولئك الذين سلموا المتهمين المساكين للجلادين، خارج القانون، وخارج الإنصاف والعدالة، ولستى صنوف التنكيل».

وهذا الذى كتبه الخديو عباس الثانى فى مذكراته عن مصطفى كامل لصفحة فخار للزعيم العظيم.

الفصل الثامن عشر

مصطفى كامل وتركيا

أساء بعض الكتاب تصوير خطة مصطفى كامل نحو تركيا، فزعموا أنه كان من أنصار السيادة العثمانية، لذلك نرى لزاما علينا أن نضع الأمور في نصابها ونبين حقيقة خطته في هذه المسألة المهمة.

إن مركز مصر الشرعى لغاية الحرب العالمية الأولى كانت تحدده معاهدة لندن المبرمة سنة ١٨٤٠، والتي تعتبر صكاً دولياً إلترزمت الدول باحترامه، وأهم أحكام هذه المعاهدة الاعتراف باستقلال مصر المكفول من الدول، وضمان عرش مصر في أسرة محمد على، وبقاء السيادة العثمانية عليها، وفي سنة ١٨٨٢ وقع الاحتلال البريطانى، فعصف بالاستقلال المعترف به لمصر في تلك المعاهدة، ونزل بها إلى مرتبة المستعمرات التى للحاكم العام البريطانى فيها مطلق التصرف فى شئونها، فلما قام مصطفى كامل يدعو دعوته الوطنية كان واجباً عليه أن يمحصر جهاده ضد الاحتلال البريطانى، لأنه رأى بحق أن الجلاء هو الرمز الحقيقى للاستقلال، أما السيادة العثمانية فإن التخلص منها من أيسر الأمور بعد التخلص من الاحتلال، وبخاصة لأن هذه السيادة قد تراخت مع الزمن وكانت سائرة من نفسها نحو الفناء، إذ لم يكن بقى من مظاهرها سوى الجزية التى كانت مرهونة للبيوت المالية الأجنبية من دائنى تركيا وتحولت إلى هذه البيوت لغاية سنة ١٩٥٥.

من أجل ذلك لم يجد مصطفى كامل من الحكمة أن ينادى فى وقت واحد بجلاء الاحتلال البريطانى وبإلغاء السيادة العثمانية معا، لأن معاداة تركيا فى ذلك الوقت من أجل مسألة شكلية ستحل من نفسها، كانت تؤدى حتيا إلى إنضمام تركيا إلى جانب انجلترا، وتنازها لها عن سيادتها، وهذا ما كانت تبغيه انجلترا، فإنها ما فتئت تسعى لدى تركيا لتتفق وإياها على أن تتنازل عن سيادتها على مصر، فلا تبقى أمام انجلترا عقبة دولية تمنعها من إعلان حمايتها عليها، ولقد سعى اللورد دفرين المندوب السامى البريطانى

الذى أوفدته انجلترا إلى مصر عقب الاحتلال مباشرة في أن تشتري الحكومة البريطانية من تركيا الجزية التى كانت تدفعها إليها مصر، لتحل انجلترا محلها في سيادتها القديمة، فاعترضه شريف باشا الوزير الكبير، كما رفضت تركيا هذا الحل، وفي الواقع إن سيادة تركيا الإسمية هى التى حالت دون إعلان إنجلترا حمايتها على مصر من سنة ١٨٨٢ حتى سنة ١٩١٤، ولذلك لم تعلن انجلترا هذه الحماية إلا في ديسمبر سنة ١٩١٤ بعد دخول تركيا في الحرب العالمية الأولى وسقوط السيادة العثمانية على مصر، ويبدو هذا المعنى جلياً في تبليغ الحكومة البريطانية إلى المغفور له السلطان حسين كامل في ١٩ ديسمبر سنة ١٩١٤، على أثر إعلان الحماية، فإنها قد صارحته بأن حقوق السيادة العثمانية قد آلت إليها بعد سقوطها، قالت في هذا الصدد ما يأتي:

«وبذلك تكون الحقوق التى كانت لسلطان تركيا وللإمبراطورية السابقة على بلاد مصر قد سقطت عنها وآلت إلى جلالة ملك بريطانيا العظمى، ولما كان قد سبق للحكومة جلالته أنها أعلنت بلسان قائد جيوش جلالته في بلاد مصر أنها أخذت على عاتقها وحدها مسئولية الدفاع عن القطر المصرى في الحرب الحاضرة، فقد أصبح من الضروري الآن وضع شكل للحكومة التى ستحكم البلاد بعد تحريرها كما ذكر من حقوق السيادة وجميع الحقوق الأخرى التى كانت تدعيها الحكومة العثمانية فحكومة جلالة الملك تعتبر وديعة تحت يدها لسكان القطر المصرى جميع الحقوق التى آلت إليها بالصفة المذكورة»^(١).

ومدلول هذا التبليغ أن زوال السيادة العثمانية، والاحتلال البريطانى قائم، معناه أيلولة هذه السيادة إلى الدولة المحتلة ومن ثم ازدياد مالها من القوة والسلطان في مصر.

فهذه النتيجة التى وقعت سنة ١٩١٤، هى التى كان يتفادها مصطفى كامل منذ قام يجاهد في سبيل الاستقلال، كان يتجنب اتفاق تركيا وانجلترا على تنازل الأولى للثانية عن سيادتها، لأن هذا الاتفاق كان ولا ريب يجعل له من النتائج أسوأ مما كان للاتفاق الودى بين فرنسا وانجلترا سنة ١٩٠٤، ولو هو سعى ونجح في إلغاء السيادة العثمانية والاحتلال قائم، لكان ذلك ربهاً حقيقياً لانجلترا، إذ بذلك كان يتسنى لها إعلان حمايتها

(١) التبليغ الوارد إلى المغفور له السلطان حسين كامل من قبل الحكومة البريطانية، الوقائع المصرية، عدد ١٩ ديسمبر سنة ١٩١٤.

على مصر، فتزداد حالة البلاد سوءاً، ويصبح مركز الاحتلال أقوى مما كان، ففكرة عدم التعرض للسيادة العثمانية وقتئذ كانت هي الخطة الحكيمة لمن يريد أن يجاهد الاحتلال، ويعمل للجلاء، أى يعمل للاستقلال الحقيقى، لأن التخلص من هذه السيادة كان أمراً هيناً بعد التخلص من الاحتلال، وقد سقطت هذه السيادة من تلقاء نفسها خلال الحرب العالمية الأولى، أما أنصار الاحتلال الذين كانوا فى خاصة أنفسهم لا يريدون الجلاء، فهم الذين استشكلوا على الفقيد أنه أقر السيادة العثمانية، يضاف إلى ذلك أن أقوى حجة لمصطفى كامل على الاحتلال أنه نقض لمعاهدة دولية أبرمتها إنجلترا والدول جميعاً، وهى معاهدة لندن سنة ١٨٤٠، فكان بذلك يلزم الإنجليز الحجة استناداً إلى هذه المعاهدة، ويطالبهم باحترام شروطها وأحكامها، وقد اتخذ منها وسيلة شرعية ودولية لإقامة الحجة على الاحتلال، والمناداة بعدم مشروعيتها، وكانت هذه الحجة أقوى الحجج التى أكسبت قضية مصر الأنصار والأعوان فى مصر والخارج، فلم يكن منطقياً ولا معقولاً أن يحتاج الاحتلال بمعاهدة لندن، ويطلب قى الوقت نفسه نقضها فيما يتعلق بالسيادة العثمانية، لأن إنجلترا كانت تغتبط بهذا الطلب، إذ أنه يفتح لها الباب للتخلص من أحكام هذه المعاهدة جميعها.

فموقف مصطفى كامل من السيادة العثمانية كان موقفاً قومياً حكيماً، وهو يشبه موقفه تجاه الامتيازات الأجنبية، فلم يكن ينادى بإلغائها، بل كان يقول باحترامها، لكى لا يستعدى الدول والجاليات الأجنبية فى الوقت الذى يجاهد فيه الاحتلال وهو بذاته موقف «الوفد المصرى» تجاه الامتيازات الأجنبية فيما بعد.

فقد تألف الوفد المصرى فى نهاية سنة ١٩١٨ بعد إلغاء السيادة العثمانية فعلاً، فلم يكن إذاً هناك من معنى للمطالبة بإلغائها، ومع ذلك فقد تمسك الوفد بهذه السيادة للاحتجاج على اتفاقية السودان، إذ اعتبرها باطلة لأن مصر تملك إبراهيمها بحكم السيادة العثمانية، ثم إنه فيما يتعلق بالامتيازات الأجنبية (وهى أشد وطأة من السيادة العثمانية) قد صرح فى مطالبه ومذكرته إلى مؤتمر السلام أن مصر «تعتبر أن واجبها يحتم عليها أن تضمن للأجانب التمتع بامتيازاتهم بكل دقة».

وأعلن فى مطالبه «أن مصر تعلن أن امتيازات الأجانب فيها ستحترم بكل دقة، وإذا كان العمل أظهر أين بعضها يدعو إلى تحويل أليق بمقتضيات الأحوال فأنها تعرض

ما يعن لها من وجوه التعديل التى من شأنها المساعدة على تقدم البلاد مع صيانة المصالح المنظور فيها، وتكون فيما تعرضه من ذلك واسعة الصدر، غاية فى الإخلاص والمجاملة، وتتعهد بالبحث فى وضع طريقة للمراقبة المالية لا تقل فى أهميتها بالنسبة للبلاد الأجنبية ذوات المصلحة عما كان متبعاً قبل اتفاقية سنة ١٩٠٤، ويكون أهم قائم بها هو صندوق الدين العمومى».

ولم ينتقد أحد على الوفد المصرى هذا الموقف الذى اتخذته بإزاء الامتيازات الأجنبية، بل سوّغه الجميع بحق، إذ كان المنطق السياسى يقتضى ذلك، وهو ذات المنطق فيما يلومون على مصطفى كامل من عدم الجهر بإلغاء السيادة العثمانية والاحتلال قائم، فإنه ما كان يستطيع الوصول إلى إلغاء السيادة العثمانية وإلى الجلاء فى وقت واحد، بل كل ما كان يصل إليه لو جمع بين الأمرين أن يجعل تركيا وانجلترا صفاً واحداً فى مقاومة الأمة المصرية، ولو تحقق الجلاء فإن إلغاء السيادة العثمانية ليس بالمطلب العسير على السياسة المصرية.

فالمنطق فى الحالتين واحد، مع هذا الفارق الظاهر بين السيادة العثمانية، والامتيازات الأجنبية، فإن الأولى كانت عقبة شكلية، وكانت سائرة إلى الفناء من تلقاء نفسها، بينما الامتيازات الأجنبية تنشئ حكومات أجنبية مستقلة داخل الحكومة الأهلية تغل يدها فى التشريع وفرض الضرائب وإدارة الأمن العام؛ وتقضى بذلك على سلطاتها وعلى سيادتها القومية فى الداخل والخارج.

يخلص من ذلك أن الدعوة الصادقة إلى الجلاء كانت تقتضى محاسنه تركيا وعدم مطالبتها وقتئذ بإلغاء سيادتها على مصر، وإرجاء هذا المطلب حتى تنجو البلاد من العقبة الكتود التى تحول دون استقلالها وهى الاحتلال، كانت محاسنه تركيا هى إذن السياسة القومية الرشيدة لمن يريد مقاومة الاحتلال، وبخاصة لأن تركيا منذ وقع الاحتلال كانت لا تفتأ تطالب انجلترا بالجلاء، وكانت هى الدولة الوحيدة التى انفردت بمطالبة انجلترا باحترام عهودها فى المسألة المصرية، وكان لها مندوب فى مصر، وهو أحمد مختار باشا الغازى، جاء سنة ١٨٨٥ لىفاوض الإنجليز فى جلائهم عن البلاد وقد قدم تقريراً سنة ١٨٨٦ اقترح فيه تنظيم الجيش المصرى والاستغناء عن الضباط الإنجليز والسردار الإنجليزى، وجهر بضرورة استرداد السودان، ولما أخفقت مفاوضاته فى الجلاء بقى فى

مصر، وكان شعاره «أنه احتجاج حتى على الاحتلال» فتركيا كانت تؤيد مصر في الجلاء، فكان طبيعياً أن يعطف عليها المصريون الراغبون حقاً في الجلاء.

والآن نورد هنا ما قاله مصطفى كامل في أحاديثه أو خطبه ومقالاته توضيحاً لخطته نحو تركيا، فلقد عرض لهذه المسألة في حديث له مع مراسل جريدة (نيويورك هيرالد) في خريف سنة ١٨٩٦، وهو الحديث الذي اقتطفنا بعض فقراته في الفصل الخامس (ص ٩٦) إذ سأله المكاتب عن علاقة مصر بتركيا وخطتها حيالها، فأجابه المترجم في صراحة وجلاء بما يأتي:

«إن سياسة مصر نحو الدولة العثمانية وهي السياسة التي يجري عليها الوطنيون الصادقون هي سياسة حسن التقرب منها، وتوطيد العلاقات الحسنة معها، والتاريخ يعلمنا ألا نثبّع حيالها غير هذه السياسة، لأنه إذا كان الإنجليز قد احتلوا مصر فالسبب في ذلك ولا شك هو النفور والخصام اللذان كانا مستحكمين قبل الاحتلال بين السلطان والخديو السابق توفيق باشا وقد نجح الإنجليز في التفريق بينها باتباع سياسة ذات وجهين، فأفهموا السلطان وقتئذ أن خديو مصر عدو له يعمل لإسقاطه عن عرش الخلافة ليجلس هو عليه، كما سعى لذلك من قبل جده الأكبر (محمد علي) وأفهموا المرحوم توفيق باشا من جهة أخرى أن السلطان يعمل ضده ويسعى لخلعه عن كرسى الخديوية ليعيد مصر ولاية عثمانية كما كانت قبل الأسرة الخديوية، فلما قامت الحركة العرابية رأى الإنجليز من تمام المهارة وتوسيعاً لهوة الشقاق أن يبرهنوا للخديو على كراهية السلطان له، فسعوا عند السلطان سعى الصديق حتى حملوه على تقليد عرابي الوسام العثماني الأول، وعرابي هو الذي كان يدعى يومئذ بأنه المدافع عن حقوق السلطان في مصر، وقد أوغر هذا الأمر صدر توفيق باشا، وألقاء في أحضان الإنجليز، وها هم الإنجليز الآن يعملون جهد استطاعتهم للتفريق بين الخديو والسلطان، ولكن ما نعهد في أميرنا الحالي (عباس الثاني) من التبصر والحكمة والوطنية يحقق لنا أنه يعمل دائماً لتأييد سياسة المحاسنة والتقرب من الدولة العثمانية، وهي السياسة التي في اتباعها سلامة الكرسى الخديوي والوطن المصري».

وأبان الفقيد أيضاً هذه الخطة في خطبته التي ألقاها بالإسكندرية في يونيه سنة ١٨٩٧ بمناسبة الحرب اليونانية التركية واقتطفنا بعض محتوياتها (ص ١٠٧) ودافع فيها عن

موقف مصر حيال هذه الحرب وما أبدته من العطف على تركيا. وكتب إلى مدام جوليت آدم من الإسكندرية يلخص آراءه في هذه الخطبة وقال في كتابه إليها: «إنك تعلمين خطي نحو تركيا وما أراه واجباً نحوها، فقد أفصحت عن ذلك في خطيتي، واعترف كثير من أصدقائنا اليونانيين بأن من السياسة القومية لمصر أن تكون حسنة العلاقة مع تركيا ما دام الإنجليز محتلين وطننا العزيز»، وقد أقرته مدام آدم على هذه الخطة بالرغم من أنها لم تكن تعطف على الأتراك لحبها لليونان.

ووصف شعور المصريين في حديثه بجريدة (برلينر تاجبلاط) في أبريل سنة ١٨٩٧ بقوله: «إنه وإن كان المصري لا يعرف إلا وطناً واحداً وهو مصر فمن الأمور الطبيعية المحضة أن يساعد المصريون جيش دولة الخلافة ويظهروا بذلك امتنانهم لها لأنها لم ترد أن تكون آلة في يد الإنجليز».

وأثيرت المناقشة حول هذه الخطة سنة ١٩٠٦، لمناسبة الخلاف الذي قام بين إنجلترا وتركيا في حادثة طابة (انظر ص ٢٠٣) فقد أيد القعيد فيها موقف تركيا واتهمه أنصار الاحتلال بأنه يبغى نقل مصر من حكم الاحتلال إلى الحكم العثماني، فرد عليهم في عدد ٢ مايو سنة ١٩٠٦ من اللواء بمقالة قال فيها مخاطباً إياهم:

«أما دعواكم أن الوطنيين المصريين يريدون الانتقال من استبداد إلى استبداد وأنهم إنما يطلبون خروج الإنجليز من مصر ليدخلوا تحت حكم جديد، فهي دعوى لا يقبلها ذولب ولا يسلم بها أحد من العقلاء، فإننا نطالب استقلال وطننا وحرية ديارنا ونتمسك بهذا المطلب إلى آخر لحظة من حياتنا».

«إلا أن هذا الاعتقاد الذي خدمناه ونخدمه لا يمنعنا من النظر إلى وجهة أخرى للمسألة المصرية، وهي الوجهة الدولية فإن كل إنسان له إلمام بسيط بالسياسة والتاريخ يعلم أن مسألة مصر كانت دائماً (دولية) لأن مركز مصر يقضى على الدول كلها بالاهتمام بها، وما على الكتاب الطاعنين علينا إلا أن يراجعوا كتاب المسيو (فريسينييه) السياسي الفرنسي الشهير وغيره من أكابر السياسيين ليعرفوا أنهم يطالبون ألمانيا بتغيير خطتها في المسألة المصرية^(٢) ويذكرونها بأهمية قنال السويس وما يكون للدولة التي تصنع يدها

(٢) كانت خطتها المجمود وعدم الاهتمام بها.

عليه من القوة والنفوذ، ليتذكر هؤلاء الكتاب بأن أوروبا لم تعمل شيئاً في مصر إلا بالاتفاق مع السلطان، وأنه لو كان عارض في عزل الخديو إسماعيل باشا لبقى أميراً على مصر إلى آخر لحظة من عمره، رغماً عن كل الدول المبغضة له، وإن انجلترا تود من صميم فؤادها الاتفاق مع جلالته على مسألة مصر لتقبرها، ولكنها تعلم أن ذلك هو المحال، فاهتمام المصريين بالوجهة الدولية للمسألة المصرية أمر طبيعي وواجب، ولو كانت أرقى الأمم شأنًا وأعلاها مكاناً في موضعنا لفعلت فعلنا واتبعت خطتنا وسلكت مسلكنا، وقال عنها المنصفون إنها مدركة لمعنى الوطنية الحققة»

وكتب في جريدة الطان بالعدد الصادر يوم ٨ سبتمبر سنة ١٩٠٦ عقب حادثة دنشواي مقالة جاء فيها إيضاحاً لخطته نحو تركيا ما يأتي:

«إن اتفاقنا مع تركيا كان دائماً أساساً من أسس سياستنا، وأن الخلاف الذي كان مستحكماً بين قصر يلديز وسراي عابدين إبان الحركة العرابية كان السبب في مصابنا وفي الاحتلال البريطاني، ولما كانت تركيا هي الدولة صاحبة السيادة على مصر فإن عملها وشأنها في المسألة المصرية هما بلا نزاع كبيران، وإني أسأل الذين ينكرون هذه الحقيقة أن يفكروا لحظة فيما يؤول إليه حال مصر لو عقدت تركيا في يوم من الأيام اتفاقاً مع انجلترا مشابهاً للاتفاق الودي الفرنسي الإنجليزي؟ ألا تفقد بلادنا عندئذ البقية الباقية من استقلالها؟ فكيف مع هذا يندesh البعض من الروابط التي تربط مصر بتركيا، أو ليس هذا الارتباط في ذاته أحسن احتجاج على استمرار الاحتلال بغير حق؟ إني أسأل الذين لا يكتفون بانتقاد سياستنا بل يتحاملون علينا أن يجيبوني: لماذا يجدون من الأمور المعقولة الطبيعية تحالف فرنسا مع روسيا واتفاقها مع انجلترا، ويعتبرون من الجنايات ومخالفة الوطنية الحققة اتفاقنا مع تركيا؟»

وقال في خطبة ألقاها يوم ٢٧ يناير سنة ١٩٠٧ لمناسبة عيد تأسيس الدولة العثمانية:

«يستحيل علينا أن يطلب واحد منا مالكا أجنبياً عنا، فنحن لا نود إلا أن نكون قوة مخالفة للدولة العلية، ننصرها وتنصرنا ونعتز بها وتعتز بنا».

وقال في لواء ٦ أكتوبر سنة ١٩٠٧ رداً على جريدة (لاند بندنس بلج): «إن المحرر أخطأ كثيراً بقوله إننا نريد حرية مصر لإعادتها إلى حكم الأتراك، فقد صرحنا ألوف

المرات بأننا نريد مصر للمصريين^(٣) وبأن انعطافنا أو نفورنا من دولة لا يؤثر شيئاً على هذا المبدأ الرئيسى لحياتنا وأفعالنا، ولست أجد لإفحام خصومى إلا طرح هذا السؤال البسيط عليهم: ماذا يكون مصير البلاد المصرية لو تنازلت تركيا عن حقوقها لانجلترا أو تعاهدت معها على ذلك بمعاهدة شبيهة بالمعاهدة الفرنسية الإنجليزية؟ ألا تصير ولاية انجليزية؟ إذن فلماذا يندهش الكاتب من كوننا نجعل علائقنا مع تركيا حسنة ونسعى لنيل الوسائل التى قد تفيدنا وتنفعنا؟ وإذا كانت الدول العظمى قد اتبعت الآن سياسة التحالف فمن ينكر على مصر المظلومة المهضومة اتباعها هذه الخطة؟»

وقال فى خطبته الكبرى بالإسكندرية يوم ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧: «فليعلم أعداء مصر أننا نطلب لها الاستقلال ونطلب لها ذلك الاستقلال بأعلى صوتنا، وعلى مسمع من أمم الأرض كلها، وأننا إذا أخلصنا الود لأمة أو لدولة فإنما نعمل كغيرنا ونتبع ناموس الطبيعة القاضى بأن من اتفقت مصالحهم يجتمعون ويتناصرون وإذا كانت انجلترا تسعى الآن للتقرب من الدولة العلية وتغير سياستها نحوها تغييراً محسوساً فمن الذى يلوم المصريين على أن يكونوا أقرب الناس من تركيا قولاً وفعلًا وأن يحافظوا على هذه الصلة ما استطاعوا».

فهذه الأقوال والبيانات صريحة الدلالة على أن خطة الفقيد نحو تركيا هى الخطة القوية التى قضت بها الوطنية الحققة واقتضاها الجهاد الصحيح للاستقلال التام هذا، ولقد زالت السيادة التركية على مصر من تلقاء نفسها بقبول تركيا مبادئ الرئيس ويلسن سنة ١٩١٨ وبإصدار الحزب الوطنى إلى إعلان مبادئه الأساسية وهى:

أولاً: استقلال مصر مع سودانها وملحقاتها استقلالاً تاماً غير مشوب بأية حماية أو وصاية أو سيادة أجنبية أو أى قيد يقيد هذا الاستقلال.

ثانياً: إيجاد حكومة دستورية فى البلاد بحيث تكون السيادة للأمة وتكون الهيئة الحاكمة مسئولة أمام مجلس نيابى تام السلطة.

ثالثاً: احترام المعاهدات الدولية والاتفاقات المالية التى ارتبطت بها الحكومة المصرية

(٣) مصطفى كامل صاحب مبدأ مصر للمصريين.

لسداد الديون احتراماً لا يمس سيادة البلاد.

رابعاً: تعهد الشعور الوطنى وتنميته والمحافظة على تضامن الأمة واتحاد عناصرها.
خامساً: السعى فى تحسين الأحوال الصحية والعمل على ترقية الأحوال الاجتماعية.
سادساً: العمل على نشر التعليم فى جميع البلاد على أساس وطنى صحيح بحيث ينال الفقراء منه نصيبهم، والحث على تأسيس معاهد العلم وإرسال الرسائل العلمية وفتح المدارس الليلية للصناع والعمال.

سابعاً: ترقية الزراعة والصناعة والتجارة وكل مرافق الحياة.
ثامناً: نقد الأعمال الضارة بكل صراحة والاعتراف بالأعمال النافعة والتشجيع عليها وإرشاد الحكومة إلى خير الأمة ورغباتها والإصلاحات اللازمة لها.
تاسعاً: المحافظة على روابط المحبة والصفاء بين الوطنيين والأجانب.
عاشراً: إحكام العلاقات الودية وتبادل الثقة بين مصر وجميع الدول الأخرى.

الفصل التاسع عشر

مجلس شورى القوانين

من الواجب أن نقول كلمة عن المجلس الذى كان بمثابة الهيئة التشريعية الممثلة للبلاد فى ذلك العهد؛ وهو مجلس شورى القوانين، ويجدر بنا أن نبادر بالقول إن هذا المجلس لم يكن يمثل الأمة تمثيلاً نيايياً صحيحاً، فقد كان مؤلفاً من ثلاثين عضواً منهم أربعة عشر عضواً تعينهم الحكومة، وفيهم الرئيس وأحد الوكيلين، وأعضاء منتخبون وعددهم ستة عشر، ومنهم أحد الوكيلين، وكان انتخابهم على ثلاث درجات، إذ كان مجلس المديرية هو الذى يتولى انتخاب عضو مجلس شورى القوانين عن المديرية ذاتها، ولم يكن لهذا المجلس سلطة قطعية فيما يعرض على من الشئون، ولكنه مهما يكن نظامه وسلطانه فإن له صفة رسمية جعلت له شأنًا يرتبط بحالة البلاد السياسية، والكلام عنه يكمل تصوير العصر الذى نكتب عنه

ويمكننا أن نلخص تاريخه فى ثلاثة أدوار تعاقبت عليه.

الدور الأول

هو دور الخضوع والاستسلام، ويبتدى منذ إنشائه سنة ١٨٨٣، ثم يستمر حتى سنة ١٨٩٢، وقد بقى موقفه طول هذه السنوات سلبياً محضاً، ولم تبد منه ظواهر تدل على الحياة والوجود، ولم يكن له أى أثر فى تطور الحوادث، بل لم يسمع له صوت ما فى الأحداث الجسام التى تعاقبت على البلاد فى ذلك الحين.

الدور الثانى

ثم تغير موقفه منذ سنة ١٨٩٢ بتأثير تطور الأفكار وتنبهها، فأخذت تدب فيه بعض ظواهر الحياة، ووقف من الاحتلال غير مرة موقف المعارضة، وفى جلسة ٢٠ ديسمبر سنة

١٨٩٢ رفض مناقشة ميزانية سنة ١٨٩٣ التى أعدها السير إلوين بالمر المستشار المالى البريطانى، بحجة أنها لم تعرض عليه قبل الموعد المحدد لصدورها بوقت كاف يسمح بفحصها، ومع أن القرار لم يمنع الحكومة من إصدار الميزانية طبقاً للقانون التظامى القديم، إلا أن فيه معنى الاحتجاج على الحكومة، ولم يكن هذا مألوفاً من قبل فى هيئة المجلس.

وفى ديسمبر سنة ١٨٩٣ ظهرت فى المجلس حركة استياء من اتصال المعتمد البريطانى ببعض أعضائه، ورفض اعتماد نفقات جيش الاحتلال فى ميزانية سنة ١٨٩٤، ومقدارها ٨٥,٠٠٠ جنيه، فكان هذا القرار بمثابة احتجاج على بقاء جيش الاحتلال، وقد ساء هذا القرار الصحف الإنجليزية وصنائع الاحتلال فى مصر، فردت الحكومة على ملاحظات المجلس رداً كان بمثابة انتصار لوجهة نظره، إذ أنها أعربت عن مشاركتها إياه فى إحساساته الوطنية، وأبانت أن المبلغ الذى كانت تؤديه الخزانة المصرية لجيش الاحتلال إلى سنة ١٨٨٥ وهو ٢٠٠,٠٠٠ جنيه فى السنة خفض بالتدريج إلى ٨٥,٠٠٠ جنيه، وأن الحكومة تؤمل أن هذا المبلغ يخفف تدريجياً حتى يمحى بالكلية اعتماداً على عهود وعود دولة بريطانيا العظمى القاضية بالجلء عن القطر المصرى^(١).

ودلّ تقرير المجلس عن ميزانية سنة ١٨٩٤ على ظهور روح جديدة من الحياة والشعور بالواجب، إذ تعرض لحالة البلاد الاقتصادية، وألمع إلى ما يشغل كاهل الأهلى من أعباء الديون، فكان تقريره أبلغ رد على أنصار المحتلين فيما أدعوه من أن الاحتلال قد جاء للأهلى باليسر والرخاء.

وفى ديسمبر سنة ١٨٩٤ اعترض على بعض مقررته الحكومة فى ميزانية سنة ١٨٩٥، ورفض اعتماد مصاريف جيش الاحتلال وانتقد سياسة الحكومة فى التعليم، وفى ديسمبر من السنة التالية وقف بالنسبة لمصاريف جيش الاحتلال موقفه فى السنوات الماضية. وفى أبريل سنة ١٨٩٦ قرر الاحتجاج على الحكومة لعدم أخذها رأى المجلس أو الجمعية العمومية فى تقريرها مبلغ خمسمائة ألف جنيه لإنفاقها على حملة دنقلة التى قررتا فى تلك السنة.

(١) تقرير الحكومة الذى تلاه رياض باشا فى مجلس شورى القوانين بجلسة ٢٣ ديسمبر سنة ١٨٩٣.

وفي ديسمبر سنة ١٨٩٦ كان موقفه بالنسبة لمصاريف جيش الاحتلال أصرح من موقفه في السنوات الماضية، إذ ورد عنها في تقرير اللجنة المالية الذي أقره عن ميزانية سنة ١٨٩٧ ما يأتي:

«مقدر لمصاريف جيش الاحتلال مبلغ ٨٤٨٢٥ جنيها، واللجنة لارتتاب مطلقاً في أن الحكومة عظيم الثقة بأمانة جيشها وكفاءته، وباستعداده الذي برهن عليه في كل المواقع التي دُعي إليها، وباستتباب الأمن في داخلية البلاد وأطرافها مما لا يدعو للاستعانة بجيش أجنبي، ولذا فهي ترى عدم المصادقة على المبلغ المقرر لهذه المصاريف» فكان هذا القرار بمثابة احتجاج من الهيئة البرلمانية القائمة في البلاد ضد الاحتلال، واستمر موقفه من مصاريف جيش الاحتلال على هذا النحو في السنوات التالية.

وفي ديسمبر سنة ١٨٩٩ نظر في ميزانية سنة ١٩٠٠ وفيها مبلغ ٤١٧ ألف جنيه نفقات عجز إيرادات السودان عن مضروفاته، فقرر التصديق على هذه النفقات «باعتبار أن بلاد السودان جزء متمم لمصر غير منفصل عنها بحال من الأحوال، فكان هذا القرار بمثابة تأكيد لاتصال السودان بمصر وعدم الاعتراف باتفاقية ١٩ يناير سنة ١٨٩٩.

وكان يتولى رئاسة المجلس منذ نوفمبر سنة ١٨٩٩ اسماعيل باشا محمد^(٢)، وهو من خاصة أصدقاء مصطفى كامل وأنصاره، وكانت تربطها روابط الود الأكيد، يدل على ذلك حضوره حفلة مدرسة مصطفى كامل في فبراير سنة ١٩٠٢ كم تقدم بيانه (ص ١٦٤)، فكانت رئاسته حافزة روح المعارضة في المجلس، وبدأت هذه الروح فيما طلبه من الحكومة في ديسمبر سنة ١٩٠٠ لمناسبة عرض مشروع الميزانية، وتتلخص هذه المطالب فيما يأتي:

أولاً: زيادة المبلغ المخصص لوزارة المعارف، وقد لفت المجلس نظر الحكومة إلى ما وصل إليه فساد البرامج وسد أبواب المدارس في وجوه المتعلمين والبحث في الأسباب التي دعت لاستعفاء الكثيرين من المدرسين.

ثانياً: زيادة ما خصص للمحاكم الشرعية.

(٢) بقي يتولى رئاسة المجلس إلى أن توفي في ٧ أبريل سنة ١٩٠٢ وخلفه عبد الحميد باشا صادق الذي شغل هذا المنصب حتى استقال في ٣٠ يناير سنة ١٩٠٩.

ثالثاً: طلب المجلس من الحكومة أن تدرج في ميزانية السنة المقبلة إيرادات ومصروفات السودان.

رابعاً: طلب ألا تنقص المصروفات والمرتبات المتعلقة بالكسوة والمحمل إن لم يمكنها زيادتها.

وقد طلب أيضاً من ناحية أخرى مراعاة حرية الحجاج الشخصية في ذهابهم إلى الأقطار الحجازية وإيابهم منها، وإلغاء إحتكار المؤن التي تباع عليهم في المحاجر الصحية.

وفي سنة ١٩٠١ اختلفت الحكومة في أمر الدكريتو الصادر في أبريل سنة ١٩٠١ بربط رسوم على الخيوط والمنسوجات والأقمشة القطنية المصنوعة بالقطر المصري، واحتج على إصدار هذا الدكريتو دون مباحثة الجمعية العمومية وإقرارها، مستنداً في ذلك إلى المادة ٣٤ من القانون النظامي التي توجب تصديق الجمعية العمومية على كل ضريبة أو أموال أو رسوم على عقارات أو أشخاص، وقد أجابت الحكومة على هذا الاحتجاج بأن المادة المذكورة لا تنطبق على هذه الرسوم، وأنها تنصرف إلى الضرائب على العقارات فقط، واستشهدت بنصها الفرنسي، وطلبت في الوقت نفسه أن يستبدل بالمادة ٣٤ من القانون النظامي النص التفسيري الوارد في ردها، ورد المجلس على هذا الجواب رداً سديداً ختمه بقوله: «يرى المجلس أنه ليس من إختصاصه النظر في هذا المشروع ويتجنب الدخول في موضوع تبديل أو تغيير المادة ٣٤ وكل مادة في القانون النظامي لأن ذلك من حقوق الجمعية العمومية».

وقد اعتبر (اللواء) هذا الموقف حسنة في تاريخ مجلس شورى القوانين.

الدور الثالث: دور التراجع

ولكن المجلس قد تراجع تحت تأثير حملات اليأس التي كانت تنشرها الصحف الموالية للاحتلال، وإبرام الاتفاق الانجليزي الفرنسي في أبريل سنة ١٩٠٤، فأخذ يجنح للخضوع والاستسلام للاحتلال، وابتغاء الزلفى لديه، فمن ذلك أنه صدق على ميزانية سن ١٩٠٥ في صيغة شكر للحكومة، فانتقده مصطفى كامل في لواء ١٣، ١٤ ديسمبر سنة ١٩٠٤، إذ قال: «إن أعضاء المجلس لم يسمعوا الأمة والعالم كله ذلك الصوت

المحبيب صوت المطالبة بأعز ما تريد البلاد ألا وهو الاستقلال، ثم قال: «إنكم يا حضرات الأعضاء طلبتم هذا الطلب الغالى مرتين وحسبتم أن الإشارة تكفى، وكأنكم نسيتم أن الإلحاح فى الحق ليس بعيب، وأن الإشارة مع المتعمد النسيان هى دون القليل، فهل فاتكم أن مطالبتكم بالجلء مما يقوى العقيدة الوطنية فى نفوس الخاصة والعامة والناشئة بنوع خاص، وأنكم إذا لم تبلغوا إلا هذه الغاية لكفاكم شرفاً وأجراً»، ثم ضرب الأمثال بما كان من المجالس الشورية فى البلاد الصغيرة من التمسك بحقوق شعوبها فى وجه السلطة الغاشمة.

وانقضت سنة ١٩٠٥ والفتور مخيم على المجلس، وبخاصة إذا كان المقام متعلقاً بأمر تود الحكومة تنفيذه.

ولما وقعت دنشواى فى يونية سنة ١٩٠٦، طالب الفقيد المجلس بأن يرفع صوته بالاحتجاج على الفظائع التى ارتكبتها الحكومة فى هذه الحادثة، ولكن ذهب نداؤه عبثاً، فكان هذا الموقف مظهراً لروح الاستكانة التى شاعت بين جوانب المجلس.

الفصل العشرون

مصطفى كامل ومعاصروه

إن روابط الإنسان بمعاصريه وعلاقته بهم هي قطعة من حياته، وجزء من شخصيته، ولا مراء في أن التحدث عنها يلقي جانباً من الضوء على تاريخه، لذلك رأيتُ أن أخصص هذا الفصل بالكلام عن مصطفى كامل ومعاصريه، معاً كانوا من أصدقائه وأنصاره، أو مخالفيه، أو من تلاميذه وحواريه

أصدقاؤه الأقربون

محمد فريد

إذا ذكر أصدقاء الفقيد وأنصاره الأقربون كان في طليعتهم المغفور له محمد بك فريد، فهو زميله المخلص، وصديقه الوفي، وعضده الأكبر في بعث الحركة الوطنية، لازمه وأيده في جهاده، وبذل له ما بذل من العون الأدبي والمادى، وأمدّه بماله، وظل وفاقاً له طول حياته، ثم سحّل الراية بعد وفاته، فكان خير خلف، لأعظم سلف.

رسائل مصطفى كامل إلى محمد فريد

تدل رسائل مصطفى كامل إلى فريد بك على ما بينها من الود الصادق والحب الخالص الثابت على مر السنين، فكلاهما كان يؤثر صاحبه على نفسه، ويضحى بنفسه من أجله، وتلك دلائل الإخلاص الحقيقي، وتطالعنا هذه الرسائل بما كان يعمر قلبيهما الكبيرين من الوطنية الصادقة، والعواطف النبيلة السامية، وهي وإن لم تنشر من قبل، ولم تكن معدة للنشر، لكنها صارت قطعة من تاريخ الزعيمين العظمين، لذلك رأيتُ أن أنشر بعض نماذج منها مع طبع بعضها بالزنجراف في أول كتاب عثرت عليه أرسله إليه من



محمد فريد
رمز الإخلاص والتضحية
(١٨٦٧ - ١٩١٩)

فبينما بتاريخ ٢١ أكتوبر سنة ١٨٩٦، وهو يدل على الود القديم بينهما، وفيه أفضى إليه بما بذل في ألمانيا والنمسا من الجهود لتعريف الرأي العام الأوروبي بالقضية الوطنية، وقد أشار إليه المغفور له محمد بك فريد في خطبته في تأبين الفقيد، واقتبس بعض فقرات منه (أنظر ص ٢٨٥).

والكتاب الثانى أرسله إليه من بودابست فى ٢٦ أكتوبر سنة ١٨٩٦ قال فيه :

«أخى الفريد حفظه الله

«بعد التحية والتسليم، والإعراب عن شوق عظيم، لا بد أنك استلمت كل ما أرسلت إليك وطالعت صدى ما علمت، وعلمت بكل ما جرى وكان، ولا بد أنك سررت وفرحت، وأن روحك الطاهرة الشريفة الممتلئة حبا لمصر التعيسة وإخلاصاً رضيت عن روح لا تقل عنها حباً للوطن وإخلاصاً، وإخالك تفكر كثيراً فيّ، وتود لو تكون معى تطوف البلدان منادياً بنصرة المظلوم رافعاً صوتك ضد عدو الوطن الأسيف».

وقد أشار فريد بك إلى هذا الخطاب أيضاً في خطبته سالفة الذكر، واقتبس منه فقرات أخرى (ص ٢٨٦).

وكتب إليه ضمن خطاب له من الأستانة (استانبول) فى ٣ نوفمبر سنة ١٨٩٦ يقول :

«كنت أحس بواجب مراسلتك، ويسهل شوقى إليك قيامى بهذا الواجب نحوك، وأتألذ حقاً لمكاتبة صديق مثلك أساس مودته محبة الوطن العزيز، أى أشرف وأجل إحساس عند الإنسان».

وكتب إليه من باريس فى ١٩ يولييه ١٨٩٨ كتاباً قال فيه (نشرنا صورته ص ٣٧٨).

«أخى الأعز حرسه الله

«بعد تقبيل وجنتيك وإهدائك أعطر السلام، وصلنى هذا الصباح كتابك الكريم فتقبلته بالترحاب والتكريم، وكنت فى شغف شديد لاستلامه، لغياب أخبارك عنى ثلاثة أيام، وليس ذلك بالزمن القليل.

«لقد أدهشنى فى كتابك شكرك لى على مبادرتى بإجابة طلبك، إن هذا الشكر من غيرك جميل وواجب، ولكنه منك غريب وعجيب، فما بيننا من الود والإخاء يجعل مالك

مالى، ومالى مالك، وحياتى حياتك، وحياتك حياتى، هذا ما أعتقد وما تعتقده أنت، فروحى تناجى روحك بالود والإخلاص فى كل لحظة وفى كل آن، دمت لى أخا وفياً صادقاً، ودمت معى خادمين صادقين للوطن المحبوب».

وختم الخطاب بقوله:

«أكتب لى باكر من فيشى وأطل كتابك، واذهب يوم الخميس إلى كوك قبل الظهر تجد منى كتاباً أكتبه إليك باكر ليكون فيه وداعك، وبعض أمور أريد منك عملها فى مصر، تقبل ألف قبلة من صديقك الأول وأخيك الثانى».

مصطفى كامل

وكتب إليه من باريس فى ٢٢ يولييه سنة ١٨٩٨ كتاباً قال فيه (نشرنا صورته ص ٣٧٩):

أخى الأعز حرسه الله

«أقبل وجنتيك ألفاً، وأهديك سلاماً عاطراً، وأسأل لك الصحة الدائمة والسرور الكامل، وأدعو الله أن يسرك بشفاء حرمك المصون وسلامة نجلك الأمين^(١)، إنه سميع مجيب»

إلى أن قال:

«أرجوك أن ترسل لى عدد المؤيد المؤرخ ٩ يناير من هذه السنة وهو المشتعل على الخطبة التى ألقيتها على شببية المدارس يوم احتفالها بعيد جلوس الخديو لأنى فى حاجة إلى ترجمتها ووضعها مع المجموعة.

«سأكتب لك كل أسبوع مرة على الأقل، ولا تنس العائلة، أرسل سلامى لكل أفرادها، دمت ألف مرة لأخيك المخلص».

مصطفى كامل

(١) هو المرحوم عبد الله فريد نجله الأول. وقد توفى وله من العمر سنتان، أما نجله الثانى فهو الشاب النقيب الأستاذ عبد الحائق فريد وكيل النيابة الآن (١٩٥٠) بارك الله فيه وهو الذى تسلمنا منه رسائل مصطفى كامل إلى والده المغفور له محمد بك فريده كما استودعنا مراسلاته ومذكراته، فله منى جزيل الشكر.

« قبل لى وجنات الشقيق إبراهيم بك^(٢)، وسلم لى على الفاضل حسن أفندى عبد الرازق^(٣)، واسأله أن يبلغ سلامى العاطر لوالده العزيز^(٤).
« وإذا قابلت شوقى بك^(٥) قبله مرتين، وقل له أن يرسل لى ما طبع من ديوانه مع صورته، وأعطه عنوانى».

وقال فى ختام خطابا إليه من باريس فى ١٠ أغسطس سنة ١٨٩٨ :
« أقبلك فى الختام ألف قبيلة، وأرجوك ألا تحرمنى من أخبارك، وأن تعرفنى عند وصول هذا إليك، دمت لمصر العزيزة ولخادمها الضعيف أخيك».

مصطفى كامل

وقال فى خطاب آخر من باريس فى ١٩ أغسطس سنة ١٨٩٨ :^(٦)
« وغاية رجائى من الله - إن لم يسمع نداءنا ويخلص أوطاننا - أن يحفظ لى ودك الصادق، وخبك الطاهر، تقبل ألف ألف سلام من خير صديق لك ومن أخيك الشاكر العارف للجميل».

مصطفى كامل

وقال ضمن خطاب إليه من باريس فى ٢٦ أغسطس سنة ١٨٩٨ :
« لك منى جزيل الشكر وعظيم الامتنان، فحقاً أنت الأخ الصادق الذى يضحي نفسه فى محبة إخوانه، قدم لى ثأل الوفاء، واعتقد أبدياً للدهر أن لك فى أصدق الناس كافة، وأوفاهم إليك، فحياتى وروحي لك بعد الوطن العزيز».
وختم هذا الخطاب بقوله :

« سلامى العاطر لأخيك العزيز، ودم أنت ألف مرة وألف عام لأخيك المخلص».

مصطفى كامل

-
- (٢) المرحوم إبراهيم بك فريد.
(٣) المرحوم حسن باشا عبد الرازق، وكان محامياً يكتب محمد بك فريد.
(٤) المرحوم حسن باشا عبد الرازق الكبير.
(٥) أمير الشعراء، وكان صديقاً حميماً للفقيه.
(٦) نشرنا صورته ص ١٣٤.

وقال ضمن خطاب له من باريس في ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٠٦^(٧) :
«أخي الأعز فريد بك.

«ألف قبلة وألف سلام، وبعد فقد استسلمت خطاباتك، وقرأت اليوم مقالاتك وسررت بها للغاية، وأن ودك الصادق، وإخاءك الطاهر، ووطنيتك العالية، لما يكفيني في الحياة نعمة ونعيماً وسعادة وسعوداً».

وقال في خطاب من نابولي في ٢٩ يونيه سنة ١٩٠٧ :

«إني لو أردت أن أشكرك على صدق إخائك وتفانيك في خدمته المبدأ الذي وهبنا حياتنا له لما استطعت إلى ذلك سبيلاً، وحسبى أن أقول إنك خير سلوى لى في هذه الحياة التي كثرت أتعابى وهمومى فيها فكنت الأخ الممتاز والعون في الشدائد».

هذه الرسائل التي تفيض إخلاصاً وحناناً ونوراً، قد كتبها الفقيد على تعاقب السنين، وهي تصور لنا مقدار حبه لفريد بك، ومبلغ ما كان يجمع بينها من الروابط الأخوية والوطنية التي دامت بين الصديقين طوال سنى الجهاد، وجعلت منها البطلين العظيمين اللذين بعثا في نفوس الجيل روح الوطنية والإخلاص.

(٧) نشرنا صورته بالزنكغراف ص ٢٣٥.

(خطاب الفقید إلى فرید بك فی ۱۹ یولیہ سنة ۱۸۹۸)

بانیسی فی ۱۹ یولیہ ۱۸۹۸

سردار محترم الی،
والدکتر احمد احمد علی
والجودک والجاره عنواذ الجدید کما انت
فطیبه انجا الی بخد سعاده حسه بیا محمد ولتشی
اجده اسماهی لانیس بک

أخوه الایم سرسید

معتقین وجیشک واهدائک اعلی السعیم وعلی حد الصبح نساکی
اکرم عقلة الذهاب والتکریم وکنت ان شفتا سفیه کسفره لیس
افبارک فخرتموه ایام ریس ذک بالین فنیس
احمد علی محمد بن الیوم وکسره علی اولی صفا سکرانه وکسره
فانی منع باجده من ویدا الرضی منتظم الحکم وکسره مواظبا علی الاستقام بالیار
البدد حسب ارکبک کل مباح وقد ورث جسمی بالیوس فخرتموه قد نازعا
کما یعد بنیسی کلیلو وکسره

لقد احدثت فی نساکی شکوک لی علی سادرة باجابه طلیک ان حد الشکر
جلیل وواجب وکنت نساکی غریب وکسره فانیسنا سکره وکسره جلیل ماکت
ماله وکسره ماکت وکسره ماکت وکسره ماکت وکسره ماکت وکسره ماکت
انت فروجه ساجه وکسره ماکت وکسره ماکت وکسره ماکت وکسره ماکت
فی اخا وکسره ماکت وکسره ماکت وکسره ماکت وکسره ماکت وکسره ماکت

اکتبی لی باکر سید بنیسی والی نساکی - یوم محرم ارض بالیوم
قبل ظهور مجتهدین کسا یا اکتبی اکتبی باکر سیدک فی دواعی وکسره
احمد ارید نساکی عملا وکسره قبل الفاقه سکره سکره سکره سکره سکره سکره
مطهری کمال

خطاب الفقيد إلى فريد بك في ٢٢ يولييه سنة ١٢٩٨

باريس في ٢٢ يولييه ١٨٩٨

يخني ان عند عرسكم

اتل وحنينك اليا وهديك اسودا عاظا وسانك
الصحة اذ انتم دسرد الكمال وادخلوا ان سيرك شفا حركه
الصور وسهت حنك الانيه ١٠ سميع محب
سأحل تأمرن واقابل نوقد ضمت احبه مقادير طالع
ارهبك انه رتل ٢ عند الحويه المورخ ٩ بيار مرصه
الخنه بوجه المستند مع نظره الى القتل ٥ شبيهه
البارس يوم احتمال جبهه هبوس الحمد لله لاني وها
نرجنا ودرنا مع النجمه

ساكنك كك كد اسودم متهم انك في وشتي لغات
ارسل سله من لطفك اراوها واجهزها في سياره حسن
داخلة ده رمت الفاتر لاحتك الخلفه
نبل وحنين اسفيرة بلهم بك / ج

وسم لي مع انفس حصادها عذرا زنه ديانك انه
يلغ سله من لطفك لوالد اخذ
اراقابلت ستوني كيك قبله في سرته وتك رتل
لي ما طبع منه ديوان مع صورته واطل عسوان
ج Rue Balzac



لطيف باشا سليم

من أعلام الحركة الوطنية، وهو نجل المرحوم سليم باشا الحجازى أحد قواد الجيش المصرى فى عهد محمد على، تخرج فى مدرسة أركان الحرب، وتثقف ثقافة علمية وحرية عالية، ثم تولى مهمة التدريس فى المدارس الحربية، فكان خير معلم وأستاذ، ثم عين مفتشاً بوزارة المعارف، ثم مديراً للفيوم، ثم رئيساً فخرياً للمحكمة المختلطة، واشتهر بأخلاقه العالية، ووطنيته الصادقة، وشجاعته واستقلاله، كان عالماً واسع الاطلاع، شغوفاً بالعلم والأدب، ترك مكتبة حوت نفائس الكتب قديمها وحديثها، وكان من زعماء الضباط الذين ثاروا بوزارة نوبار باشا على عهد الخديو إسماعيل فى فبراير سنة ١٨٧٩، وكان وقتئذ أستاذاً بالمدرسة الحربية وقد انتهت هذه الثورة بسقوط وزارة نوبار الأولى^(٨)، وكان من أكبر أنصار الفقيد ومعضديه، عرفه منذ كان طالباً بمدرسة الحقوق، وكان واسطة

(٨) راجع تفصيل ذلك فى كتابنا (عصر إسماعيل) ج ٢ ص ٣٠٢ وما بعدها طبعة سابقة.

التعارف بينها نجله فؤاد سليم، صديق مصطفى الحميم، وقد آنس فيه الاستعداد لبعث الحركة الوطنية، فكان يقول عنه لنجله قبل أن يعظم شأنه: «إنه الشعلة الوطنية المنتظرة»، وقد صحت نبوءته، وحققت الأيام فراسته وصدق نظره، وظل طول حياته معضداً ومؤيداً له في جهاده، وقد حزن الفقيد لوفاته حزناً عميقاً كان له أثر شديد في انتكاس صحته أثناء مرضه الأخير».

كتب في هذا الصدد إلى مدام جوليت آدم بتاريخ ٧ يناير سنة ١٩٠٨ يقول: «إني مريض جداً منذ السابع عشر من شهر نوفمبر، وقد بذلت مجهوداً فوق الطاقة لإلقاء خطبتي في الجمعية العمومية للحزب الوطني»، إلى أن قال: أما صحتي فهي بين اليأس والرجاء، والأطباء مطمئنون الآن، والسبب في انتكاسي بعد خطبتي راجع إلى مفاجأة المنون صديقاً لي حميماً كان من أشد وأكبر نصرائي وهو المرحوم لطيف باشا سليم».

وكانت وفاته قبيل فجر يوم ٢٨ سنة ١٩٠٧، ولم يبلغ الخامسة والخمسين، وقد نعاه مصطفى كامل وهو مريض فقال عنه: «آخانا رحمه الله على صغر سننا، فكان أخاً رؤوفاً وصديقاً حميماً، ومواطناً محباً لبلاده حباً لا قدرة لكاتب أن يصفه»، وقد انتقلت صداقته للفقيد إلى نجله فؤاد باشا سليم رحمه الله، فكان حافظاً لوده وعهده على مر السنين.

على بك فخرى

من أوائل علماء القانون في النهضة الحديثة، انتظم في سلك المناصب القضائية وتدرج فيها إلى أن عين رئيساً لنيابة الإسكندرية الأهلية، فكان بحكم منصبه عضواً بمجلسها البلدي، وظهرت هنالك مواهبه من الذكاء والقرينة والقيادة والاستقلال في الرأي والغيرة على شئون الوطن، وقد برزت شخصيته الساطعة في المجلس البلدي، وكان يساجل الأعضاء الأوروبيين الرأي ويناقشهم مناقشات، ظهرت فيها قوة حجته واحتفاظه بكرامته، فمثل العنصر الوطني في المجلس خير تمثيل، ونال احترام زملائه الوطنيين والأجانب؛ وارتقى في المناصب القضائية فعين قاضياً بالمحاكم المختلطة، ثم مستشاراً بها، وكسب احترام القضاة والمستشارين الأجانب، حتى صاروا يرجعون إلى رأيه في



على بك فخرى

المشكلات القانونية، وكان من أصدق أصدقاء مصطفى كامل ومن أكبر نصرانه، توفى في شهر يونيه سنة ١٩٠٦ ولم يكن يبلغ الخمسين من عمره، وقد نعاه مصطفى كامل في اللواء نعيًا مؤثرًا دل على أنه من أقطاب الحركة الوطنية، سماه (فقيد الوطن والبلاد)، ويعد نعيه صفحة حية من التاريخ الوطنى، ومن أبلغ ما كتب المترجم، قال: إن الفقيد كان أخًا لنا، نسترشد برأيه، ونعتمد على فكره، ونعتز بوجوده، ونفتخر بعلمه وفضله، وطنيته وحميته، وعواطفه الحية السامية، وإحساساته الراقية فقدنا بموت ذلك الفقيد العظيم واحداً يفدى بآلاف من الرجال، إذا ذكر العلم كان حامل رايته، وإن ذكر الحق كان أكبر ناصر له، وإن ذكر العدل كان أكبر مشيد لأركانه، وإن ذكرت مكارم الأخلاق كان إنسانها، وإن ذكرت الوطنية كان مثاها، وإن ذكرت البلاد وحقوقها كان أشرف وأصدق خادم لها، فكيف لا يكون مآتمه مآتم القطر وبنيه، والأسف على وفاته في كل قلب والحداد على موته

في كل دار؟ ارتبطنا بالفقيد من سنوات طوال برابطة الصداقة والإخاء والاتحاد في الرأي والفكر والشعور، وهى أمتن الروابط وأقواها، فعرفنا فيه مصرياً لا تهزه الحوادث ولا تثبط عزيمته النواذب، ولا تضعف آماله المصائب، يتقد غيره على مصالح وطنه، ويمسى ويصبح وهو مفكر في استقلاله وعزه ونعيمه، إذا تكلم عنه سمعت الوطنى الحر الذى امتلأ فؤاده حباً لبلاده وحناناً عليها، كان الفقيد البرهان الحى على كفاءة المصرى وسمو مداركه واستعداد هذا الشعب الكريم، لأن يخرج النابغين من الرجال، كان رحمه الله على جانب عظيم من الدعة ورقة الأخلاق، مع ما اشتهر به من الاستقلال التام في فكره والمجاهرة برأيه مع كل إنسان وأمام كل إنسان، كنا إذا حادثنا الفقيد شعرنا بارتياح هائل لمحدثته، وأسف عظيم على حالة هذا الوطن العزيز، نرتاح لكلام نابغة على الفكر سامى الشعور، طاهر القلب شريف الميول، ونأسف على حالة الوطن لأن الفقيد مع ما أراؤ له من الخدمات الجليلة النادرة كان يستطيع خدمته أكثر من ذلك لو كانت مصر مستقلة، وأهرها بيدها، إن الفقيد مؤهلاً بفطرته وعلومه وأخلاقه وآرائه وهيمته واقتداره لأن يكون من أكبر قادة الأمم وباعثي روح الحياة والنهوض فيها، فلذلك كان موته مصاباً جسيماً. مصاباً لنا بالذات نغزى فيه، لأننا فقدنا أخاً حقيقياً لا يعوض، ومصاباً لكل مصرى، لأن الوطن فقد بموته واحداً يشرفه ويرفع قدره ويسليه بعلم وعمله على همومه ومصائبه الجسام».

أصدقاؤه وأنصاره

لا سبيل إلى أن نحصر هنا بقية أصدقاء الفقيد وأنصاره جميعهم، وإنما نذكر على سبيل المثال من وعثهم الذاكرة؛ وهم (عدا من ذكرنا): الأمير محمد إبراهيم (انظر ص ١٦٦) الأمير حيدر فاضل . فؤاد بك سليم (باشا). عمر بك سلطان (باشا). على فهمى كامل شقيق الفقيد. إسماعيل بك شيمى. الدكتور محمود بك لبيب محرم. الدكتور صادق رمضان. على بك حسنى المصرى. عمر بك لطفى. محمود بك سالم. عبد المجيد بك رضوان رئيس نيابة مصر (توفى في يناير سنة ١٩٠٤). الأستاذ ويصا واصف (رئيس مجلس النواب الأسبق). مرقص بك حنا (باشا). رضوان بك شريف. أحمد فائق باشا. حسن باشا حارس. إسماعيل باشا محمد رئيس مجلس شورى القوانين. عبد الحميد صادق باش

رئيس مجلس شورى القوانين. يوسف صديق باشا. الفريق حسن باشا رضوان. الدكتور حسن باشا محمود. محمد بك طلعت بك حرب (باشا). عزت بك شكرى. أحمد بك الصوفانى. عبد اللطيف بك الصوفانى. عبد الحميد بك عمار. عبد الرحيم بك أحمد. أحمد بك يحيى (باشا). أمين بك يحيى (باشا). عبد الفتاح بك يحيى (باشا). حسين بك القرشولى. مصطفى بك سرى. عثمان بك لبيب. محمود أنيس. مصطفى بك نجيب (مؤلف كتاب حما الإسلام). عبد الخالق بك ثروت (باشا). حسين رشدى باشا. محمد بك سعيد (باشا). حسين بك حسنى العمرى. عبد الباقي بك العمرى. الشيخ عبد العزيز جاويش. الشيخ عبد المجيد اللبان. محمد ماهر باشا. إسماعيل بك صدقى (باشا). سيد باشا شكرى. على باشا آصف. الدكتور محمود بك ناشد. الدكتور حسين يسرى بك. سيف الله باشا يسرى. الدكتور إسماعيل صدقى بك. الدكتور محمود عبد الوهاب بك. حسن باشا عاصم. حسين باشا واصف. الشيخ عبد الوهاب النجار. إسماعيل بك حافظ. الدكتور على بك سلام (الإسكندرية). مصطفى بك عزت. الأستاذ دافيد حزان. الأستاذ محمد بك توفيق. عبد القادر بك الغريانى. محمد بك أسعد. محمد بك حسنى يكن. عثمان باشا ماهر. عبد العزيز بك فريد. الدكتور أحمد على. محمود بك حسيب. شمس الدين بك حموده. إسماعيل بك لبيب. محمد بك فهمى حسين. محمود بك أبو النصر. محمد خلوصى بك. عبد الله بك طلعت. إبراهيم أفندى حافظ. يوسف بك ذهنى. على بك حسمت. محمد بك رشوان. الشيخ مصطفى القاياتى. الشيخ محمود أبو العيون. على بك لهيطة. يوسف بك حافظ. إبراهيم بك حفظى. إسماعيل بك الملوانى. محمد عبد اللطيف الصيدلى. الدكتور محمد بك على دويدار. محمود بك فهمى حسين. الدكتور أحمد فهمى الجهيلى. الدكتور نصر فريد بك. الحسينى أفندى العسقلانى. على بك المنزلاوى. محمود بك الشيشينى. حسن بك خيرى (باشا). محمد توحيد بك السلحدار. محمد بك أحمد الشريف. مصطفى بك الخادم. محمد بك توفيق زاهر. الدكتور عبد العزيز نظمى بك. الأستاذ محمد بك رمضان. محمد على علوية باشا. إسماعيل أفندى كامل. مصطفى بك رشيد. أحمد بك حجازى. حسن محسن باشا. عثمان بك أبو شنب. حسن بك هجوم. توفيق بك حموده. حافظ أفندى مصطفى. سعيد بك طليمات. الدكتور السيد بك رفعت. محمد أفندى لمعى المهندس. عبد الخالق مدكور باشا. محمد بك على دولار. حسن بك حمدى. الدكتور محبوب ناهت. الشيخ محمد رفعت. محمد بك حبيب المهندس.

الأستاذ محمود بسيوني (رئيس مجلس الشيوخ الأسبق). حسن بك نبيه المصرى (وكيل مجلس الشيوخ الأسبق). الدكتور أحمد بك السعيد (أسيوط). الأستاذ محمد كامل مرتجى. أمين بك إسماعيل. الأستاذ حسن عبد المعطى. الأميرالاي محمود بك حلمى إسماعيل. الأميرالاي على بك إسماعيل. محمود بك محرم رستم. محمد بك لبيب البتانونى. حسن بك رضا. بشارة باشا تقلا. الأستاذ داود بركات. جبرائيل تقلا بك (باشا). فؤاد بك حسيب. انطون بك الجميل. حافظ بك المنشاوى. محمد بك فؤاد المنشاوى. يوسف بك المنشاوى. السيد رضوان جلال وأخوه عثمان أفندى جلال (رئيس قلم قضايا السكة الحديد). على بك أبو الفتوح (باشا). محمد أبو الفتوح باشا. إسماعيل بك العسيلي. خليل بك محمود الفلكى. إسماعيل بك صادق. مصطفى بك الشورىجى (من أعيان بریم). الشيخ على الغياقى. محمد كامل بخاقى بك. محمد أفندى الكلز. محمود أفندى السخاوى. محمود أفندى على منصور. الشيخ حسن خفاجى (الإسكندرية). سينوت بك حنا. عزيز بك خانكى. الياس بك عوض. سليمان بك العبانى. الأستاذ أحمد الصدر. بيومى أفندى محمود. محمود أفندى على ناصر. الشيخ صالح الشهاى. إبراهيم عبد الواحد. الشيخ محمود عبد الغنى. محمد عبد الكريم (سيدى جابر). حسن أفندى سيف. عبد الله بك محمد الصيدلى. شعبان أفندى خليفة. أحمد أفندى إبراهيم القويضى. محمود أفندى كمال. محمد عبد القادر القط. محمد أفندى عبد اللطيف التاجر. عبد الرازق أفندى الحبشى. صالح بك القاضى. السيد أفندى الشنيطى. إبراهيم أفندى أنيس. محمد أفندى بسيوني طنش. على أفندى أبو النظر. محمد أفندى رشدى. السيد أفندى الخطيب. محمد أفندى مرسى النحاس. عبد اللطيف أفندى الصاوى. اليوزباشى محمود لطفى الأزميزلى. شيخ العرب سليمان على مطيريد الخ.

تلاميذه

نقصد بتلاميذه من أدركوه واعتنقوا مبادئه أو اقتبسوا من روحه الوطنية (ولو إلى وقت محدود)، وهم أيضا لا سبيل إلى حصرهم، ولكننا نذكر من تحضرنا أسماؤهم، وسررتهم قدر ما استطعنا بحسب طبقاتهم وهم:

أحمد حلمى المحرر باللواء، مصطفى بك النحاس (باشا)^(٩)، الأستاذ عبد القادر حمزه (باشا)، محمد بك حافظ رمضان (باشا) على بك الشمسى (باشا) أمين أفندى عمر، سيد أفندى على، الأستاذ محمد صادق عنبر، الأستاذ حسين فهمى بهجت، محمود خيرى باشا، الأستاذ محمد لطفى جمعة، أمين بك الرافعى، الأستاذ أحمد وجدى، عبد الرحمن بك الرافعى، الدكتور عبدالحميد سعيد، الأستاذ أحمد وفيق، الدكتور حافظ عفيفى باشا، مصطفى بك الشورىجى، محمد زكى على باشا، الأستاذ عبدالمقصود متولى، الدكتور عبدالغفار متولى، ابراهيم بك راتب، الدكتور بك سلطان، الدكتور منصور بك فهمى، الأستاذ محمود غزى، الأستاذ أحمد فايق، الدكتور عبدالحميد أبوهيف بك، عبدالسلام بك ذهنى، محمد بك صادق جلال، إمام واكد، حامد بك العلايلى، الأستاذ حسن حسنى، محمد بك فؤاد حمدى، الدكتور أحمد فؤاد، عبد الملك بك حمزة، اسماعيل بك كامل، اسماعيل بك شيرين، حسين بك شيرين، كمال بك الخشن، الأمير أفندى العطار، أحمد بك فهمى القطان، محمد على المهندس، عوض بك البحراوى. عبد الرحمن عزام باشا. الدكتور سيد سليمان عبدالحميد باشا. أحمد مختار المهندس، الأستاذ ابراهيم عبدالقادر المازنى، الأستاذ على فهمى خليل. الأستاذ حسن شافعى الجيزاوى. الدكتور منصور رفعت . ابراهيم بك دسوقى أباطة. عبدالخالق عطية. الدكتور شفيق منصور. الأستاذ محمود خيرت. الدكتور عبد العزيز عمران. الأستاذ عبد الوهاب البرعى. الدكتور يحيى الدرديرى. عمر بك عارف. الدكتور منصور القاضى. الدكتور حسين همت. الدكتور أحمد توفيق. الأستاذ اسماعيل مظهر. الأستاذ محمود العمرى. على بك مراد. هاشم بك مهنا. الأستاذ محمد عرارجى. الأستاذ سليمان حافظ. أحمد أفندى رمضان زيان. محمد أفندى فهمى بشير. الشيخ عبدالباقي نعيم سرور. الأستاذ محمود رمزى نظيم. محمد أفندى عوض جبريل، الأستاذ عبدالوهاب على. عبدالله أفندى حسن عوض. الدكتور منصور القاضى. المرحوم على أفندى صادق (الإسكندرية)... إلخ

(٩) كان مصطفى بك النحاس (باشا) وهو قاض بالمحاكم الأهلية، يفخر باعتناق مبادئ الحزب الوطنى، وقد انتخب من أجل ذلك وكيلا لنادى بالمدارس العليا، وفى سنة ١٩٢٨ اختاره الوفد المصرى عضوا فيه باعتباره ممثلا للحزب الوطنى هو والدكتور حافظ بك عفيفى (باشا).

معاصروه من الشعراء والأدباء

كان لظهور الدعوة الوطنية التي بثها مصطفى كامل أثر كبير في تطور الشعر في مصر، واتجاهه إلى الناحية الوطنية، التي لم يطررها الشعراء من قبل، وبدأ الاتجاه في قصائد فحول الشعراء المعاصرين للمترجم، فإن قرائهم، بتأثير دعوة الفقيد، قد فاضلت بالشعر الوطني، وسارت النهضة الأدبية إلى الأدبية إلى جانب النهضة الوطنية، تعذيبها وتوحيدها، وتسجل حوادثها، وتعبر عن آلامها وآمالها، وردد الشعر صدى الحركة السياسية في الحوادث الهامة.

حافظ إبراهيم

فمن ذلك أن حادثة دنشواي لقيت صداها في شعر حافظ إبراهيم، فأنشأ في يولييه سنة ١٩٠٦ قصيدته المشهورة عن الحادثة، ندد فيها بسياسة الاحتلال، وقال في مطلعها مخاطباً المحتلين:

قصيدة حافظ في حادثة دنشواي

أبها القائمون بالأمر فينا	هل نسينم ولائنا والودادا
خفصوا جيشكم وناموا هنيئاً	وابتغوا صيدكم وجوبوا البلادا
وإذا أعوزتكم ذات طوق ^(١٠)	بين تلك الرُّبَا فصيدوا العبادا
إنما نحن والحمام سواء	لم تغادر أطواقنا الأجيادا ^(١١)
لا تظنوا بنا العقوق ولكن	أرشدونا إذا ضللنا الرشادا
لا تقيدوا من أمة بقتيلٍ	صادت الشمس نفسه حين صاد ^(١٢)

(١٠) ذات طوق: أي الحمامة.

(١١) يريد بالأطواق هنا سلاسل الأسر والاستعباد، والأجياد الأعناق جمع جيد.

(١٢) أي لا تأخذوا الأمة بقتيل ثبت أنه مات بضربة الشمس وهو الكبتن بول (انظر ص ٢٠٧)، وأقاد الحاكم القاتل القتل أي قتله به قودا.

وقال يصف الحادثة وفظائع المحاكمة والتنفيذ:

جاء جُهلنا بأمر وجئتم ضعفَ ضعفيه قسوةً واشتدادا
أحسنوا القتل إن ضننتم بعفو أقصاصاً أردتُم أم كيدا
أحسنوا القتل إن ضننتم بعفو أنفوساً أصبتُم أم جمادا
ليت شعري أتلك محكمة التف تيش عادت أم عهد: (نيرون) عادا
كيف يحلو من القوى التسقي من ضعيف ألقى إليه القيادا
إنها مُثلة تشف عن الغي مظ ولسنا لغيظكم أندادا
أكرمونا بأرضنا حيث كنتم إنما يكرم الجوادُ الجوادا

وقد كان الفقيه شديد الإعجاب بشعر حافظ وأدبه، وعندما ظهر الجزء الأول من ديوانه سنة ١٩٠١، قرظه في اللواء^(١٢) تقریظاً يدل على عظم تقديره لشاعر النيل، وأسهب في الثناء عليه حين عرب كتاب «البؤساء» سنة ١٩٠٣.

قصيدة حافظ في حفلة مدرسة مصطفى كامل

وكان حافظ معجباً بوطنية مصطفى كامل، رغم صداقته وصلته بخصومه السياسيين، وظهر إعجابه به وتأييده له بكل جوارحه في قصيدته التي ألقاها يوم ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٠٦ في احتفال مدرسة مصطفى كامل، تعليقاً على خطبة الفقيه، قال في مطلعها:

سمعنا حديثاً^(١٤) كقطر الندى فجدد في النفس ماجدا
أضحى لآمالنا منعشاً وأمسى لآلامنا مُرْقدا

وقال يستثير في النفوس روح الأمل والحياة وهي الدعوة المحبة إلى الفقيه:

فدينأك ياشرق لاتجزعن إذا اليوم ولّى فراقب غدا
فكم محنة أعقت محنة وولت سراعاً كرجع الصدى
فلا يُسننك قيل العدا وإن كان قيلا كحز المدي^(١٥)

(١٣) عدد ٩ أكتوبر سنة ١٩٠١.

(١٤) يقصد خطبة مصطفى كامل في الحفلة.

(١٥) المدي بالضم جمع مدية وهي السكين.

أَتَوَدَّعَ فِيكَ كَنُوزَ الْعِلْمِ وَيَشَى لَكَ الْغَرْبَ مُسْتَرْفِداً^(١٦)
وَتُبْعَتْ فِي أَرْضِكَ الْأَنْبِيَاءُ وَيَأْتِي لَكَ الْغَرْبَ مُسْتَرْشِداً
وَتَقْضَى عَلَيْكَ قَضَاةُ الضَّلَالِ طَوَالَ اللَّيَالِي بِأَنْ تَرْقُداً؟
أَتَشْقَى بَعْدَ سَمٍ بِالْعِلْمِ فَأُضْحِي الضَّعِيفُ بِهَا أَيُّداً^(١٧)
إِذَا شَاءَ بَزَّ السُّهَاءُ سِرَّهُ وَأَدْرَكَ مِنْ جَرِيهِ الْمَقْصِداً^(١٨)
وَإِنْ شَاءَ أَدْنَى إِلَيْهِ النُّجُومِ فَنَاجِي الْمَجَرَّةَ وَالْفَرْقِداً^(١٩)
وَإِنْ شَاءَ زَعَزَعَ شُمَّ الْجِبَالِ فَخَرْتَ لِأَقْدَامِهِ سُجَّداً
وَإِنْ شَاءَ شَاهَدَ فِي ذَرَّةٍ عَوَالِمَ لَمْ تَحَى فِيهَا سَدَى
زَمَانٌ تُسَخَّرُ فِيهِ الرِّيحُ وَيَغْدُو الْجَمَادُ بِهِ مُنْشِداً^(٢٠)
وَتَعْنُو الطَّبِيعَةُ لِلْعَارِفِينَ بِمَعْنَى الْوُجُودِ وَسِرِّ الْهُدَى
إِذَا مَا أَهَابُوا أَجَابَ الْحَدِيدُ وَقَامَ الْبَخَارُ لَهُ مُسْعِداً^(٢١)
وَطَارَتْ إِلَيْهِمُ مِنَ الْكَهْرِبَاءِ بَرُوقٌ عَلَى السَّلَكِ تَطْوِي الْمَدَى

* * *

أَيَجْمَلُ مِنْ بَعْدِ هَذَا وَذَاكَ بِأَنْ نَسْتَكِينُ وَأَنْ نَجْمُداً؟
وَهَا أُمَّةٌ (الصُّفْر) قَدْ مَهَّدَتْ لَنَا النُّهْجَ فَاسْتَبَقُوا الْمَوْرِدَا^(٢٢)
وَقَالَ فِيهَا مَخَاطِبُ الشَّبَابِ:

فِيهَا أَيُّهَا النَّاشِثُونَ اعْمَلُوا عَلَى خَيْرِ مَصْرٍ وَكُونُوا يَدَا
سُتْظَهِّرُ فِيكُمْ ذَوَاتُ الْغُيُوبِ^(٢٣) رَجَالاً تَكُونُ لِمَصْرِ الْفِدَا
فِيَالَيْتُ شَعَرِي مِنْ مَنْكُمْ إِذَا هِيَ نَادَتْ يَلْبِي النِّدَا

(١٦) مسترفداً أي يطلب الرغد وهو العطاء.

(١٧) الأيد بتثديد الياء القوى من الأيد بمعنى القوة.

(١٨) بزه سلبه والسها الكوكب المعروف، أي إذا شاء ذو العلم سلب من السهار سره وأظهره للناس.

(١٩) المجرة والفرقد نجوم في السماء.

(٢٠) يشير إلى الطيران والفونوغراف.

(٢١) مسعداً أي معينا.

(٢٢) أمة الصفر أي اليابان.

(٢٣) ذوات الغيوب أي الأقدار التي في عالم الغيب.

وقال في ختامها مخاطباً مصطفى كامل:

لَكَ اللهُ يَا (مصطفى) مِنْ فَتَى كَثِيرِ الْأَيَادِي كَثِيرِ الْعِدا
إِذَا مَا حَمَدْتُكَ بَيْنَ الرِّجَالِ فَأَنْتَ الْخَلِيقُ بِأَنْ تَحْمِدا
سُيُحْصَى عَلَيْهِ سَجَلُ الزَّمَانِ ثَنَاءٌ يَخْلُدُ مَاخُلُداً
وَيَهْتَفُ بِاسْمِكَ أَبْنَاؤُنَا إِذَا آنَ لِلزَّرْعِ أَنْ يُحْصِدا

والقصيدة من أبلغ شعر حافظ، وتأمل في البيت الأخير منها تجد حافظاً يقر لمصطفى كامل بأنه الموجد للحركة الوطنية، وأنه الجدير بأن تعرف الأمة له هذا الفضل عندما تجنى ثمار هذه الحركة، وقد ظل على هذا الرأي بعد وفاة الفقيه وبعد ظهور زعامة سعد زغلول للحركة الوطنية سنة ١٩١٨، وجهر به في رثائه للمغفور له محمد فريد في ديسمبر ١٩١٩، إذ قال مناجياً روح فريد:

قُلْ (لَصَبِّ النِّيلِ)^(٢٤) إِنْ لَاقَيْتَهُ فِي جَوَارِ الدَّائِمِ الْفَرْدِ الصَّد
إِنْ مِصْرًا لَا تَنْتَ عَنْ قَصْدِهَا رَغَمَ مَا تَلْقَى وَإِنْ طَالَ الْأَمْدُ
جِئْتَ عَنْهَا أَهْمَلُ الْبُشْرَى إِلَى (أَوَّلِ الْبَانِينَ) فِي هَذَا الْبَلَدِ
فَاسْتَرْحِ وَاهْنًا وَتَمَّ فِي غِبْطَةٍ قَدْ بَذَرْتَ الْحَبَّ وَالشَّعْبُ حَصْدُ

فحافظ يعترف هنا أيضاً لمصطفى كامل بأنه أول البانين في صرح الحركة الوطنية، وبأنه بذر الحب وأن الشعب حصد وجنى ثمار ما يذر، ورأى حافظ سنة ١٩١٩ هو تأييد وتوكيد لرأيه سنة ١٩٠٦

واقتبس حافظ من روح مصطفى، وأيده في دعوته الوطنية، وردّد صداها في شعره، اعتبر ذلك في قصيدته عن حادثة دنشواي (ص ٣٨٧) وقصيدته في حفلة مدرسة مصطفى كامل (ص ٣٨٨) ثم، قصيدته في استقبال اللورد كرومر عند عودته إلى مصر في أكتوبر سنة ١٩٠٦، بعد حادثة دنشواي، قال:

(٢٤) يريد مصطفى كامل.

قصيدة حافظ في استقبال اللورد كرومر

بعد حادثة دنشواي

(قصر الدوبارة)^(٢٥) هل أتاكَ حديثنا
أهلاً بساكنك الكريم ومرحباً
نقلت لنا الأسلاكُ عنك رسالةً
فالشرقُ رِيحٌ له وَضِجٌ العربُ
بعد التحية إننى أتعَبُ
باتت لها أحشاؤنا تتلهَّبُ

إلى أن قال:

إن ضاقَ صدرُ النيلِ عَمَّا هاله
أو كلما باح الحزينُ بأُتةً
رفقاً عميدَ الدولتين بأمة
رفقاً عميدَ الدولتين بأمة
إن أرهقوا صيادكم فلعلهم
ولربما ضنَّ الفقيرُ بقوته
في (دنشواي) وأنت عنا غائبٌ
حَسِبُوا النفوسَ من الحمامِ بديلةً
نُكِبُوا وأقفرَت المنازلُ بعدهم
خَلَّيْتَهُم والقاسطون^(٢٨) بِمِرْصِدِ
جُلِدُوا ولسو منبتهم لتعلقوا
شُنِقُوا ولو منحوا لأهلوا
يتحاسدون على المماتِ وكأسه
موتان: هذا عاجلٌ متمرُّ
يوم الحمام^(٢٦) فإن صدرك أرحب
أُصِيتَ إلى معنى التعصَّبِ تُنسبُ^(٢٧)
ضاق الرجاءُ بها وضاق المذهبُ
ليست بغيرِ ولائها تتعذبُ
للقوت لا للمسلمين تعصبوا
وسخا بمهجته على من يَغْصِبُ
لِعَبِّ القضاءِ بنا وعزُّ المهربِ
فتسابقوا في صيدهن وصوبوا
لو كنتَ حاضراً أمرهم لم يُنكبوا
وسياطهم وحباهم تتأهب
بحبالٍ من شُنِقُوا ولم يتهَيَّبوا
بَلَطَى سياط الجالدين ورَحَّبوا^(٢٩)
بين الشفاهِ وطعمه لا يعذَّبُ
يرنُو، وهذا آجلٌ يترقَّبُ

(٢٥) يريد قصر المعتمد البريطاني.

(٢٦) يوم الحمام يوم صيد الحمام في حادثة دنشواي.

(٢٧) يشير إلى مازعم اللورد كرومر من أن التعصب الديني هو سبب حادثة دنشواي.

(٢٨) القاسطون الظالمون.

(٢٩) أهلوا ورحبوا أى قالوا أهلاً ومرحباً.

والمستشار - مكايثُ برجاله ومعاجزٌ ومناجزٌ ومُحزبٌ (٣٠)
يختالُ في أنحائها متبسماً والدمع حول ركابه يتصبب
طاحوا بأربعة فأردوا خامساً هو خير ما يرجو العميد ويطلب
حبُّ يحاولُ غرسه في أنفُس يُجنى بمعرسها الثناء الطيب
كن كيف شئت ولا تكل أرواحنا للمستشار فإن عدلك أخصب
وأفِضْ علي (بُندٍ) إذا ولى القضا رفقا يهش له القضاء ويطرَب

وقصيدته في شكوى مصر من الاحتلال وقد نشرت في يناير سنة ١٩٠٧ قال :

قصيدة حافظ في شكوى مصر من الاحتلال

لقد كان فينا الظلم فوضى فهذبت حواشيه حتى بات ظلماً منظماً
تمنُّ علينا اليوم أن أخصب الترى وأن أصبح المصري حُرّاً. منعماً
أعدَّ عهد (اسماعيل) جُلداً وسخرة فلإني رأيتُ المنَّ أنكى وآلماً
عملتم على عزِّ الجماد وذُلنا فأغليتم طيناً وأرخصتم دماً
إذا أخصبت أرضاً وأجذب أهلها فلا أطلعت نبتاً ولا جادها السماً
نهشُ إلى الدينار حتى إذا مشى به ربه للسوق ألفاه درهماً
فلا تحسبوا في وفرة المال - لم تُفد متاعاً ولم تعصم من الفقر - مَغْناً
فإن كثير المال - والخفضُ وارفٌ - قليلٌ إذا حلَّ الغلاء وخيماً (٣١)

وقصيدته التي قالها عند استقالة اللورد كرومر في أبريل سنة ١٩٠٧، قال فيها :

قصيدة حافظ في استقالة اللورد كرومر

فَقى الشعر هذا موطن الصدق والهدى فلا تكذب التاريخ إن كنت منشداً

(٣٠) يريد الكيبن متشمل مستشار وزارة الداخلية وكان يشرف على تنفيذ الحكم، ومعاجز من عاجزت الرجل إذا أتيت بما يجعله عاجزاً، وحزب أى جمع أعوانه وأحزابه فبعضهم يتولى الشنق والبعض يتولى الجلد.

(٣١) الخفض سعة العيش يريد أن كثرة المال مع غلاء الأسعار لا تغنى شيئاً.

لقد حان توديع العميد وإنه
فودّع لنا الطود الذي كان شامخاً
إلى أن قال:

يناديكَ قد أزریت بالعلم والحجا
وأُنك أخصبت البلادَ تعمداً
قضيت على أم اللغات وإنه
ووافيت والقطران في ظل رايةٍ
فطاح كما طاحت (مصوِّع) بعده
حجبت ضياء الصحف عن ظلماته
وأودعت تقرير الوداع مغامراً
غمزت بها دينَ النبی وإتنا
يناديكَ أين النابغون بعهدكم
فما عهد (اسماعيل) والعيش ضيقُ
يُناديكَ وليّت الوزارة هيئةً^(٣٢)
فليس بها عند التشاور من فتى
بربك ماذا صدنا ولوى بنا
أشرت برأى في كتابك لم يكن
وحاولت إعطاء الغريب مكانةً
فياويل مصر يوم تشقى بندوةٍ
ألم يكفنا أنا سُلينا ضياعنا
وزاحمنا في العيش كل ممارسٍ
وما الشركات السود في كل بلدة

ولم تُبقِ للتعليم يا (لورد) معهداً
وأجدبت في مصر العقول تعمداً
قضاء علينا أو سبيلُ إلى الردى^(٣٣)
فمازلت (بالسودان) حتى تمردا^(٣٤)
وضاعت مساعينا بأطماعكم سدى
ولم تستقل حتى حجبت (المؤيدا)^(٣٥)
رأينا جفاء الطبع فيها مُجسداً
لنغضب إن أغضبت في القبر (أحمداً)
وأى بناء شامخ قد تجددا
بأجذب من عهد لكم سال عَسجداً
من الصم لم تسمع لأصواتنا صدى
أبى إذا ما أصدر الأمر أوردنا
عن القصد إن كان السبيل ممهداً؟
سديداً ولكن كان سهماً مسدداً
تجر علينا الويل والذلّ سرمداً
يبیت بها ذاك الغريب مُسوِّداً^(٣٦)
على حين لم نبليغ من الفطنة المدى
خبير وكنا جاهلين ورُقداً
سوى شركٍ يُلقي به من تصيِّداً

(٣٢) أم اللغات أى اللغة العربية ويشير إلى محاربة الاحتلال للغة العربية وجعل دراسة العلوم في أكثر المدارس باللغة الإنجليزية.

(٣٣) وافيت أى جنت، والقطران أى مصر والسودان.

(٣٤) ظلماته أى ظلمات السودان وحجبت المؤيد أى منعت عن دخول السودان.

(٣٥) وزارة مصطفى فهمي.

(٣٦) يشير إلى مشروع اللورد كرومر في إنشاء مجلس تشريعي مختلط.

ويبدو مبلغ تقدير حافظ للفقيد في قصيدته التي ألقاها على قبره يوم تسييع جنازة الزعيم، وقصيدته في حفلة الأربعين (وقد نشرناهما ص ٢٨٩ و ٢٩٠).

وله قصيدة تالفة ألقاها عند قبره يوم ١١ فبراير سنة ١٩٠٩ في الاحتفال بإحياء ذكره الأولى، وهي من أبلغ روائع الشعر العربي، قال فيها:

قصيدة حافظ في الذكرى الأولى للفقيد

طُوفُوا بِأَرْكَانِ هَذَا الْقَبْرِ وَاسْتَلَمُوا ^(٣٧)	واقضوا هنالك ما تقضى به الذمُّ
هنا جنانُ تعالى الله بآرائه	ضاقت بآماله الأقدارُ والهمم
هنا فمٌ وبنانٌ لاجٍ بينهما	في النسرِ فجرٌ تحيي ضوءه الأمم
هنا فمٌ وبنانٌ طالما نترا	نثراً نسيرُ به الأمثالُ والحكم
هنا الكمى ^(٣٨) الذي شادت عزائمه	لطالب الحق رُكناً ليس ينهدم
هنا الشهيد، هنا ربُّ اللواء، هنا	حامى الذمارهنا الشهم الذي علموا

* * *

يا أيها النائم الهاني بمضجعه	ليهنك النومُ لا همٌ ولا سقم
باتت تسائلنا في كل نازله	عنك المنابرُ والمرطاسُ والقلم
تركت فينا فراغاً ليس يشغله	إلا أبى ذكى القلب مضطرم
منفر النوم ^(٣٩) سباق لغايته	آثاره عمم - آماله أمم

* * *

إني أرى وفؤادى ليس يكذبني	روحاً يحفُّ بها الإكبارُ والعظم
أرى جلالاً، أرى نوراً، أرى ملكاً،	أرى محياً يحيينا ويبتسم
الله أكبر، هذا الوجهُ أعرفه	هذا فتى النيل، هذا المفرد العلم

(٣٧) استلم القبر قبله أو لمسه بيده.

(٣٨) الشجاع.

(٣٩) منفر النوم أى مسهد.

غَضُّوا الْعُيُونَ وَحَيَّوْهُ تَحِيَّتهُ
وَأَقْسَمُوا أَنْ تَذُودُوا عَنْ مِبَادِنِهِ
من القلوب إذا لم تُسعد^(٤٠) الكلِم
فنحن في موقف يحلو به القسم

* * *

لَبَّيْكَ، نحن الألى حرَّكَتْ أَنْفُسَهُمْ
جئنا نُودِي حساباً. عن موافقنا
قيل اسْكُتُوا فَسَكَّتْنَا ثم أنطقنا
قد اتَّهَمْنَا ولما نَطْلُبُ جَلَّلاً
قالوا لقد ظَلَمُوا بِالْحَقِّ أَنْفُسَهُمْ
إذا سَكَّتْنَا تَنَاجَوْا: تلك عَادَتُهُمْ
قد مرَّ عامٌ بنا والأمرُ يَجْزُبُنَا^(٤٣)
فالناسُ في شِدَّةٍ والدَّهْرُ في كَلْبٍ^(٤٤)
وللسياسة فينا كلُّ آوِنَةٍ
بيننا نرى جَمْرَهَا تُخْشَى مَلَامِسُهُ
تصغى لأصواتنا طوراً لتخدعنا
فمن مُلَانِيَةٍ أَسْتَارَهَا خَدْعُ
ماذا يريدون^(٤٥)؟ لا قرَّتْ عيونهم
كم أمة رَغِبَتْ فيها فما رسخت
ما كان ربك، ربُّ البيت، تاركها
لبيك إنا على ما كنت تعهده
فيعلم النبل أنا خيرٌ من ورَدُوا
لما سكنت ولما غالك العدم
ونستمد ونستعدي^(٤١) ونحتكم
عسف الجفافة^(٤٢) وأعلى صوتنا الألم
إن الضعيف على الحالين مُتَّهَمٌ
والله يعلم أن الظالمين هم
وإن نطقنا تنادوا: فتنة عمم
آناً، وآوينة تنتابنا النقم
والعيش قد حار فيه الحاذق الفهم
لأنَّ جديده وعهده ليس يُحْتَرَمُ
إذا به عند لمسِ المُصْطَلَى فحم
وتارة يُزدهيها الكبر والصمم
إلى، مُصَالِبَةٍ أَسْتَارَهَا وَهَمٌ
إن الكنانة لا يُطَوَّى لها علم
لها - على حولها^(٤٦) - في أرضها قدم
وهي التي بحبالٍ منه تعتصم
حتى نسود وحتى تشهد الأمم
ويستطيل اختيالاً ذلك الهرم

(٤٠) أسعده أعانه.

(٤١) نستمد نطلب المدد، ونستعدي نستنصر.

(٤٢) يريد بالجفافة المحتلين.

(٤٣) حزه الأمر: اشتد عليه.

(٤٤) الكلب: الشدة.

(٤٥) يريد المحتلين.

(٤٦) الحول: القوة.

إلى أن قال:

يا أيها النشء، سِيرُوا في طريقته
فكلكم (مصطفى) لو سَارَ سيرته
قد كان لا وائياً يوماً ولا وَكِلاً^(٤٨)
وأنت يا قبر قد جئنا على ظماً
أين الشبابُ الذي أودعتَ نضرته
وما صنعت بآمالٍ لنا طُويت
ألا جوابٌ يرَوِي من جوائحنَا؟
نم أنت، يكفيك ما عانيت من تعب
هذا (لواؤك) خَفَاقٌ يظللنا
وثابروا، رضى الأعداءُ أو نقموا
وكلكم (كامل) لو جازه^(٤٧) السَّامُ
يستقبل الخطبَ بَسَّاماً ويقتحم
فجدُّ لنا بجواب، جادك الدِّيم^(٤٩)
أين الخلال - رعاك الله - والشَّيم؟
يا قبرُ فيكَ وعفى رسمها القَدَم؟
ما للقُبُورِ إذا نُودِيت تَجْمُ^(٥٠)
فنحنُ في يَقْظَةٍ والشَّمْلُ ملثم
وذاك شخصك في الأكباد مُرْتَسِم^(٥١)

شوقي

أما شوقي، أمير الشعراء، فقد كان صديقاً حميماً للفقيد، وكلاهما معجب بصاحبه أيما إعجاب، ولا غرو فها صنوان، وفرسا رهان، هذا في ميدان الوطنية والجهاد، وذاك في دولة الشعر والبيان، وكان الفقيد يصف شوقي بأنه «الغدير الصافي في ألفاف الغاب، يسقى الأرض ولا يبصره الناظرون»، وكان يخصص لقصائده أسمى مكان في اللواء، وفي ذلك يقول في مراثيه الخالدة:

قد كنت تهتف في الورى بقصائلي وتجلّ فوق النّيرين مكاني
وزار الفقيد وهو على فراش مرضه الأخير، فطلب إليه أن يرثيه، وفي ذلك يقول:
وجعلتَ تسألني الرّثاءَ فهاكه من أدْمعي وسرّائري وجناني

(٤٧) جازه أي جاوزه.
(٤٨) الوكل العاجز الذي يكل الأمر إلى غيره.
(٤٩) الدِّيم جمع ديمة السحاب.
(٥٠) وجم يجم سكت عن الكلام.
(٥١) توفي حافظ إبراهيم «شاعر النيل» في يولييه سنة ١٩٣٢.

وكان لدعوة مصطفى كامل أثرها في شعر شوقي، فمن ذلك أنه لما دعا الأمة سنة ١٩٠٢ إلى الاحتفال بالعيد المئني لولاية محمد علي (ص ١٦٧)، لبى شوقي نداءه، وأنشأ في مايو سنة ١٩٠٢ قصيدة من غرر قصائده، تخليداً لهذا العيد^(٥٢)، قال فيها مناجياً روح محمد علي:

قصيدة شوقي في الاحتفال بالعيد المئني لولاية محمد علي

عَلِمَ أَنْتَ فِي الْمَشَارِقِ مُفْرَدَ
حَبَبًا دَوْلَةً وَمُلْكًا كَبِيرًا
وَلَوَاءَ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ يُعْطَى
تُدْخِلُ الْأَرْضَ فِيهِ قُطْرًا فَقُطْرًا
تَمَلَأُ الْأَرْضَ صَافِنَاتٍ وَتَجْرَى
هَكَذَا فَلْيَنْلُ سَمَاءَ الْمَعَالَى
هَمَّةٌ تَبْتَنِي الْمَمَالِكَ شِمَا
وَتَبَاتُ فِي الْمَاحِثَاتِ وَعِزُّمُ
تَضَعُ السَّيْفَ مَوْضِعًا يَرْتَضِيهِ
وَتَقْصُونَ النَّوَالَ عَنْ حُسْنِ صُنْعِ
لَا تُبَالِي بِحَاسِدٍ وَعَدُوٍّ
هَمَّةُ الْفَاتِحِينَ حَكْمٌ وَقَهْرٌ
لَيْسَ مِنْ يَفْتَحُ الْبِلَادَ لَتَشْقَى
عَلِمْتَ مَضْرَ وَالْحِجَازَ وَأَرْضَ الْـ
أَنْتَ إِنْ أَحْصَى النَّوَابِغَ فِي الْمَلِكِ
أَيَّزْتَهُمْ قَرَابَةً وَقَبِيلَ
فَبِتُولَاكِ وَاللَّيَالَى حُبَالَى
وَرَمَى عَنْكَ وَالْمَمْلُوكُ رِمَاةً

لَكَ فِي الْعَالَمِينَ ذِكْرٌ مُخَلَّدٌ
أَنْتَ بَنَانِي رَكْنَيْهَا يَا مُحَمَّدُ
مَظْهَرُ الشَّمْسِ فِي الْوُجُودِ وَأَزِيدُ
مُدْخَلَ النَّاسِ فِي شَرِيعَةِ أَحَدٍ
لَكَ فِي الْبَحْرِ كُلِّ بَرَجٍ مُشِيدٌ
مِنْ سَعَى فِي الْوَرَى لِمَجْدٍ وَسُودِ
وَرَأَى يَسُوسُهُنَّ مُسْتَدِّ
مِثْلُ رَبِّبِ الزَّمَانِ لَا يَتَرَدَّدُ
وَمِنْ الْبَأْسِ مَا يَذُمُّ وَيُحْمَدُ
لَكَ يُنْسَى وَنِعْمَةٌ لَكَ تَجْعَدُ
آيَةُ الْفَضْلِ أَنْ تُعَادِيَ وَتُحْسَدُ
وَلَكَ الْهَمَّةُ الَّتِي هِيَ أَبْعَدُ
مِثْلُ مَنْ يَفْتَحُ الْبِلَادَ لَتُسْعَدُ
نُوبَ وَالشَّامِ أَنْ عَهْدَكَ عَسَجَدُ
كَ كَرِيمٍ التَّنَاعِلِ الدَّهْرُ أَوْحَدُ
وَارَى اللَّهَ وَحْدَهُ لَكَ أَيْدٍ
وَتَسْلُوكِ وَالْحَوَادِثُ تُولَدُ
نُصْفَهُمْ وَاجِدُونَ وَالنَّصْفُ حُسْدُ^(٥٣)

(٥٢) نشرها اللواء في عدد ٢٢ مايو سنة ١٩٠٢.

(٥٣) واجدون: غاضبون.

ركن مصرٍ أقمت بعد انقضا^{٥٤}ض أمةٌ جُمعت وأمر توحد

يا مُديمَ الرقاد في خير مرقد
وانظر الشرق كيف أصبح يهوى
وتأمل ممالكَ وبلاداً
كنتَ تحميه^(٥٤) والسيوفُ عوار
ينشر النور والحضارة فيه
وترى الأمر بين قلبٍ ذكّى
يا عصام الملوك هل كنت تسلو
صغر الجاهلون بالنفس مسعا
ما سمعنا بفتح سلّ سيفاً
حالةً سامها (الأمين) أخوه
ثبت في فتنة الحجاز إليهم
وأتاهم بمعذره لك بيت
يحفظ الملك ملك مصر عليهم
زعموا الشرق من فعالك قلقاً
جئته بالحياة والنور والتم
كان بين الورى بركن فعزّز

قم فما حلّ قبلك الأرض فرقد
وانظر الغرب كيف أصبح يصعد
لسن الدهر عقدها فتبدد
من له اليوم بالحسام المجرد؟
كلما زود الشعوب تزود
في يديه وبين جفن مُشهد
عن عروش الملوك أو كنت تزهد
ك وعذرُ النفوس فيه مبهّد
ياخذ الملك حده ثم أغمد
وأمرور بها (أمية) يشهد
حين أخذتها ولم تك تخمد
كلما جندوا إلى الحرب جند
جوهراً فوق تاجهم يتوقد
وأرى الشرق في يمينك أقعد^(٥٥)
دين والرأى والقنا والمهند
ت بشأن والركن بالركن يشتد

شرفاً في الزمان آل على
ارجعوا في العلا إليه وروموا
ألبسوه كما كساكم فخارا
واملاؤا مسمع الزمان حديثاً

جدّكم سيّد الملوك المسود
نهجه، نهجه الذى كان أقصد
كلما رثت الثياب تجدد
كدوى الخضم أرغى وأزبد

(٥٤) أى الشرق.
(٥٥) أقعد أى أمكن وأثبت.

إنما الناس أمة لا يموتون ن وأخرى تمر مرًا وتنفد
وأرى جدكم على الدهر حيًّا خالد الذكر والثناء المردد

قصيدة شوقى فى وداع اللورد كرومر

وقال سنة ١٩٠٧ ضمن قصيدته المشهورة فى وداع اللورد كرومر:

أيامكم أم عهد إسماعيل أم أنت فرعون يسوس النهر
أم حاكم فى أرض مصر بأمره لا سائلا أبداً ولا مستولاً
يا مالكا رق الرقاب بيأسه هلاً اتخذت إلى القلوب سبيلاً
لما رحلت عن البلاد شهدت فكأنك الداء العياء رحيلاً
أوسعتنا يوم الوداع إهانةً أدبٌ لعمرى لا يصيبُ مثيلاً
إلى أن قال:

أنذرتنا رقا يدوم وذلةً تبقى وحالا لا ترى تحويلاً
أحسبت أن الله دونك قدرةً لا يملك التغيير والتبديلاً
الله يحكم فى الملوك ولم تكن دولٌ تنازعه القوى لتدولا
فرعون قبلك كان أعظم سطوةً وأعز بين العالمين قبلاً
اليوم أخلفت الوعود حكومةً كنا نظن عهدَهَا الإنجيلاً
دخلت على حكم الوداد وشرعه مصرأً فكانت كالسلال دخولا
هدمت معالمها وهدت ركنها وأضاعت استقلالها المأمولا

وقال:

قد مدَّ إسماعيل قبلك للورى ظلَّ الحضارة فى البلاد ظليلاً
إن قيس فى جود وفى سرف إلى ما تنفقون اليوم عدُّ بخيلاً
أو كان قد صرع المفتش مرةً فلکم صرعت بدنشواى قتيلاً
لا تذكر الكرباج فى أيامه من بعد ما أنبت فيه ذيولاً

قصيدته في ذكرى دنشواى

وقال سنة ١٩٠٧ عن (ذكرى دنشواى) بعد مرور عام على حادثتها في سبيل طلب العفو عن سجنائها^(٥٦):

يا دنشواى على رباك سلام	ذهبت بأنس ربوعك الأيام
شهداء حُكمك ^(٥٧) في البلاد تفرقوا	هيات للشمل الشتيت نظام
مرت عليهم في اللحد أهلة	ومضى عليهم في القيود العام
كيف الأرامل فيك بعد رجالها	وبأى حال أصبح الأيتام
عشرون بيتاً أقفرت وانتابها	بعد البشاشة وحشة وظلام
يا ليت شعرى في البروج حمائم	أم في البروج منية وجمام
(نيرون) لو أدركت عهد كرومر	لعرفت كيف تنفذ الأحكام

نوحى حمائم دنشواى ورّوى	شعباً بوادى النيل ليس ينام
إن نامت الأحياء حالت بينه	سحراً وبين فراشه الأحلام
متوجّع يتمثل اليوم الذى	ضجّت لشدة هوله الأقدام

وتدل مراثاة شوقى على مبلغ ما يكنه للفقيد من الإعجاب والإكبار، وتعد قصيدته أعظم مراثاة في تاريخ الأدب العربى، وكان لا يفتأ يذكره بعد وفاته في قصائده، فمن ذلك قصيدته التى نظمها بمناسبة ذكراه السابعة بعنوان (شهيد الحق). تناول فيها وصف ما أصاب البلاد في سنة ١٩٢٤ من انقسام وتشاحن وتناحر، ثم انتقل من ذلك إلى ذكرى الفقيد فوفاه حقه، قال في مطلعها:

(٥٦) اللواء عدد ٢٧ يونيه سنة ١٩٠٧.
(٥٧) أى حكم المحكمة المخصوصة في قضية دنشواى.

قصيدة شوقي في ذكرى الفقيد سنة ١٩٢٥

إِلَامَ الْخَلْفِ بَيْنَكُمْو إِلَامَا؟ وهذى الضجةُ الكبرى علامَا؟
 وَفِيمَ يَكِيدُ بَعْضُكُمْو لِبَعْضٍ وتُبدون العداوة والخصامَا؟
 وَأَيْنَ الْفُوزُ؟ لَا مَصْرَ اسْتَقَرَّتْ على حالٍ ولا السودان داما
 إِلَى أَنْ قَالَ:

وَلَيْنَا الْأَمْرَ حِزْباً بَعْدَ حِزْبٍ فلم نك مصلحين ولا كراما
 جَعَلْنَا الْحُكْمَ تَوَلِيَةً وَعِزْلاً ولم نَعُدَّ الْجِزَاءَ وَالْإِنْتِقَامَا
 وَسُئِنَا الْأَمْرَ حِينَ خَلَا إِلَيْنَا بأهواء النفوس فما استقاما
 وَقَالَ ذَاكراً مَنَاقِبَ الْفَقِيدِ:

شَهِيدَ الْحَقِّ قَمَ تَرَهُ يَتِيمَا بأرض ضُيِّعَتْ فِيهَا الْيَتَامَى
 أَقَامَ عَلَى الشِّفَاهِ بِهَا غَرِيباً ومَرَّ عَلَى الْقُلُوبِ فَمَا أَقَامَا^(٥٨)
 سَقِمَتْ فَلَمْ تَبْتَ نَفْسٌ بِخَيْرٍ كأن بمهجة الوطن السقاما
 وَلَمْ أَرْ مِثْلَ نَعْشِكَ إِذْ تَهَادَى فغَطَّى الْأَرْضَ وَانْتَضَمَ الْأَنَامَا
 تَحْمِلُ هِمَّةً، وَأَقْلَّ دِيناً وَضَمَّ مَرْوَةً وَحَوَى زَمَامَا
 وَمَا أَنْسَاكَ فِي الْعِشْرِينَ لَمَّا طلعت حياها قمرأ تمامَا
 يُشَارُ إِلَيْكَ فِي النَّادَى وَتُرْمَى بعينى من أحب ومن تعامى
 إِذَا جِئْتَ الْمَنَابِرَ كُنْتَ (قُصَا) إِذَا هُوَ فِي عَكَظٍ عَلَا السَّنَامَا
 وَأَنْتَ أَلْدُ لِلْحَقِّ اهْتِزَازاً وألطف حين تنطقه ابتسامَا
 وَتَحْمِلُ مِنْ أَدِيمِ الْحَقِّ وَجْهاً صراحاً ليس يتخذ اللُّسَامَا

* * *

أَتَذَكَّرُ قَبْلَ هَذَا الْجِيلِ جَيْلاً سهرنا عن معلّمهم وناما

(٥٨) أى أن الحق تنطق به الأفواه ولا يستقر في القلوب.

مِهَارُ الحق بَغَضْنَا إِلَيْهِمْ شَكِيمَ القيصريّة واللجّام^(٥٩)
 لَوَاؤُكَ كَانَ يَسْقِيهِمْ بِجَامٍ وَكَانَ الشَّعْرُ بَيْنَ يَدَيَّ جَامَا^(٦٠)
 مِنَ الوطنيّة استَبَقُوا رَحِيقًا فَضَضْنَا عَنْ مَعْتَقِهَا الْخَتَامَا
 غَرَسْنَا كَرْمَهَا فَزَكَا أَصُولَا بِكُلِّ قَرَارَةٍ وَزَكَا مُدَامَا
 جَمَعْتَهُمْ عَلَى نِهْرَاتِ صَوْتٍ كَنَفَخَ الصَّوْرُ حَرَكْتَ الرِّجَامَا^(٦١)
 لَكَ الْخَطْبُ الَّتِي غَصَّ الْأَعَادَى بِسُورَتِهَا وَسَاغَتْ لِلنَّدَامَى^(٦٢)
 فَكَانَتْ فِي مَرَارَتِهَا زَيْرًا وَكَانَتْ فِي حَلَاوَتِهَا بَغَامَا^(٦٣)
 بِكَ الوطنيّة اعتَدَلَتْ وَكَانَتْ حَدِيثًا مِنْ خِرَافَةٍ أَوْ مَنَامَا
 بَنَيْتَ قَضِيَّةَ الْأَوْطَانِ مِنْهَا وَصَيَّرْتَ (الْجَلَاءَ) لَهَا دِعَامَا

قصيدة في ذكرى الفقيد سنة ١٩٢٦

وله قصيدة أُلقيت في الاحتفال بذكرى الفقيد في فبراير سنة ١٩٢٦ قال:

لَمْ يَمُتْ مِنْ لَهُ أَثَرٌ وَحَيَاةً مِنَ السَّيْرِ
 أَدْعَاهُ غَائِبًا وَإِنْ بَعْدَتْ غَايَةَ السَّفَرِ
 آيِبَ الْفَضْلُ كُلَّمَا آبَتْ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ^(٦٤)
 رُبُّ نَوْرٍ مُتَمِّمٌ قَدْ أَتَانَا مِنَ الْحُفَرِ
 إِنَّمَا الْمَيِّتُ مِنْ مَشَى مَيِّتَ الْخُبَرِ وَالْخُبَرِ
 مَنْ إِذَا عَاشَ لَمْ يُفَدَ وَإِذَا مَاتَ لَمْ يَضُرْ
 لَيْسَ فِي الْجَاهِ وَالْغِنَى مِنْهُ ظِلٌّ وَلَا ثَمَرُ
 قَبْحَ الْعَرْزِ فِي الْقَصَ حُورَ إِذَا ذَلَّتِ الْقُصُرُ

(٥٩) مِهَارُ جمع مِهْر والمراد بالمهار هنا الشباب، والمراد بشكيم القيصريّة ولجّامها بطش الاحتلال وجبروته.

(٦٠) الْجَامُ الإِنَاءُ مِنَ الْفَضَّةِ.

(٦١) الرِّجَامُ الْقُبُورُ.

(٦٢) السُّورَةُ الْحَدَّةُ وَالشَّدَّةُ، وَالنَّدَامَى جَمْعُ نَدِيمٍ وَالْمُرَادُ بِهِمُ الْأَنْصَارُ وَالْأَصْدِقَاءُ.

(٦٣) الْبَغَامُ صَوْتُ الظَّبْيِ.

(٦٤) أَيْ يَعُودُ لِلْفَقِيدِ فَضْلٌ وَيَتَجَدَّدُ لَهُ ذِكْرُ كُلِّمَا آبَتْ الشَّمْسُ وَعَادَ الْقَمَرُ.

أَعُوزَ الْحَقِّ ذَائِدٌ وإلى (مصطفى) افتقر
وَتَمَنَّتْ حِيَاضُهُ هَبَّةَ الصَّارِمِ الذِّكْرِ
الَّذِي يُنْفِذُ الْمَدَى والذي يركب الخطر
أَيُّهَا الْقَوْمُ عَظُّمُوا واضع الأسِّ والحجر
أَذْكُرُوا الْخُطْبَةَ الَّتِي هي من آية الكبر
لَمْ يَرِ النَّاسَ قَبْلَهَا منبراً تحت محتضر
لَسْتُ أَنْسَى لَوَاءَهُ وهو يمسي إلى الظفر
حَشَرَ النَّاسَ تَحْتَهُ زُمَراً إثرها زمر
وَتَرَى الْحَقَّ حَوْلَهُ لا ترى البيضَ
كَلِمَا رَاحَ أَوْ غَدَا والسمر^(٦٥) نفخ الروح في الصور

* * *

يَا أَخَا النَّفْسِ فِي الصَّبَا لَذَةُ الرُّوحِ فِي الصُّغَرِ
وَخَلِيلَا ذَخْرَتِهِ لَمْ يَقُومَ بِمَدْخَرِ
حَالٍ بَيْنِي وَبَيْنَهُ فِي فُجَاءَاتِهِ الْقَدَرِ
كَيْفَ أَجْزَى مَوْدَّةً لَمْ يَشُبْ صَفْوَهَا كَدْرُ
غَيْرِ دَمْعٍ أَقُولُهُ قَلٌّ فِي الشَّانِ أَوْ كَثْرُ
وَفَوَادٍ مُعَلَّلٍ بِالْخِيَالَاتِ وَالذِّكْرِ
لَمْ يَنْمِ عَنْكَ سَاعَةٌ فِي الْأَحَادِيثِ وَالسُّمْرِ
قَمِ تَرِ الْقَوْمَ كَتَلَةً مِثْلَ مَلُومَةِ الصَّخْرِ
جَدُّدُوا أَلْفَةَ الْهَوَى وَالْإِخَاءِ الَّذِي شَطَرُ
لَيْسَ لِلْخَلْفِ بَيْنَهُمْ أَوْ لِأَسْبَابِهِ أَثَرُ
أَلْفَتِهِمْ رَوَائِحُ غَادِيَاتُ مِنَ الْغَيْرِ
وَصَحُّوا مِنْ مَنْوَمٍ وَأَفَاقُوا مِنَ الْخَدَرِ^(٦٦)
أَقْبِلُوا نَحْوَ حَقِّهِمْ مَا لَهُمْ غَيْرُهُ وَطَرُ

(٦٥) البيض السيوف والسمر الرماح.

(٦٦) الخدر الكسل.

جَعَلُوهُ خَلِيَّةً شَرَعُوا دُونَهَا الْإِير
 وَتَوَاصَوْا بِخَطَّةٍ وَتَدَاعَوْا لِمُعْتَمَر
 وَقَصَارَى أُولَى النِّهَى يَتَلَقَّوْنَ فِي الْفِكْرِ
 أَذْنُونَا بِمَوْقِفٍ مِنْ جَلَالِ مَنْ خَطَر
 نَسْمَعُ اللَّيْثَ عِنْدَهُ دُونَ أَجَامِهِ زَارٍ
 قُلْ لَهُمْ فِي نَدِيَّتِهِمْ (٦٧) مِصْرَ بِالْبَابِ تَنْتَظِرُ (٦٨)

إسماعيل صبرى

وكان الشاعر الكبير إسماعيل باشا صبرى ضيقاً صدوقاً للفقيد، أيدته في جهاده منذ الساعة الأولى، كان محافظاً للاسكندرية سنة ١٨٩٦ - ١٨٩٩، وأراد مصطفى كامل أن يلتقى بها خطبة من خطبه الوطنية الكبرى، فأوعزت الحكومة إليه أن يمنع إقامة الاجتماع الذى أعد لإلقاء الخطبة، بحجة المحافظة على الأمن والنظام، فأبى على الحكومة ما أرادت ورخص بإقامة الاجتماع، وصارح الحكومة بأنه مسئول عن الأمن والنظام (٦٩).

ولما عين وكيلًا لوزارة الحقانية (نوفمبر سنة ١٨٩٩) ظل على مودته للفقيد، وكان يخرج في غالب الأيام من الوزارة ويعرج بدار اللواء المقابلة لها ليزور صاحب اللواء، ويقضى معه الوقت الطويل، ولم يمنعه منصبه من المجاهرة بصدافته له في الوقت الذى كان الكبراء من الموظفين وغيرهم يخشون عواقب الاتصال به، وإلى ذلك يشير شوقى في رثائه لاسماعيل صبرى (٧٠) إذ يقول:

وَيْحَ الشَّبَابِ وَقَدْ تَخَطَّرَ بَيْنَهُمْ هَلْ مُتُّعُوا بِتَمَسُّحٍ وَطُوفِ
 لَوْ عَاشَ قُدُوتُهُمْ وَرَبُّ (لَوَانَهُمْ) نَكَسَ (اللَّوَاءَ) لثَابِتٌ وَقَافٌ (٧١)

(٦٧) يريد البرلمان.

(٦٨) توفى أحمد شوقى أمير الشعراء فى ١٤ أكتوبر سنة ١٩٣٢.

(٦٩) ذكر هذه الواقعة الأستاذ الأديب أحمد الزين فى مقدمته لديوان إسماعيل صبرى باشا ص ٣٢.

(٧٠) توفى إسماعيل باشا صبرى سنة ١٩٢٣.

(٧١) قدوتهم أى قدوة الشباب، ورب اللواء هو الفقيد صاحب اللواء، أى لو عاش مصطفى كامل حتى شهد وفاة إسماعيل صبرى لنكس اللواء حدادا عليه.

فلکم سقاء الودّ حين وداده جَرَبُ لأهل الحكم والأشراف
وتجد في شعر إسماعيل صبرى انسجاماً مع روح الفقيد، قال في قصيدة له وجهها إلى
الخدّيو عباس الثاني يوم عيد جلوسه سنة ١٩٠٨، يدعو إلى الدستور:

سُدَّ سِهَامُ بالشورى يُحِطُ بِكَ مِنْهُ فِي ظُلَمِ الحوادثِ فيلقُ
واسبقُ به واضربُ به وافتحُ به ما شئتُ من بابِ أمامك يغلُقُ
وقال فيها يذكرُ حادثة دنشواي والعفو عن مسجونيه:

وأقلَّتْ عشرة قرية حكم الهوى في أهلها وقضى قضاءً آخرُ
إِنْ أَنْ فِيهَا بَائِسٌ مِمَّا بِهِ أَوْ رَنَّ جَاوِبُهُ هُنَاكَ مُطَوَّقُ (٧٢)
وَأَرْحَمَتَا لُجْنَاتِهِمْ مَازَا جَنُوا وَقَضَاتِهِمْ مَا عَاقَهُمْ أَنْ يَتَّقُوا (٧٣)
مَا زَالُ يُقْذَى كُلُّ عَيْنٍ مَا رَأَا فِيهَا وَيُؤْذَى كُلُّ سَمْعٍ مَا لَقَا
حَتَّى حَكَمْتَ فَجَاءَ حَكْمُكَ آيَةً لِلنَّاسِ طَيِّ صَحِيفَةٍ تَسْأَلُ
نَزَلَتْ تَرْفُفٌ حَوْلَ كَاتِبِ نَصْهَا زَمَرًا مَلَائِكَةُ الرِّضَى وَتَحَلَّقُ
شَكَرْتُكَ مَصْرُ عَلَى سَلَامَةٍ بَعْضُهَا شُكْرًا يَغْرُبُ فِي الْوَرَى وَيَشْرِقُ
ذَكَرْتُ لَكَ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ وَلَمْ تَزَلْ تَرْمِي إِلَى أَمْرٍ أَجَلٌ وَتَرْمُقُ (٧٤)
قَانُونِ دَنْشَوَايَ ذَاكَ صَحِيفَةً تُتْلَى فَتَرْتَاعُ الْقُلُوبُ وَتَخْفِقُ
هَلْ يُرْتَجَى صَفْوٌ وَيَهْدَأُ خَاطِرُ وَالْمَوْتُ حَوْلَ نَصُوصِهَا يَتَرَقَّرُ
وَمُضَاجِعِ الْقَوْمِ النَّيَامِ أَوَاهِلُ بِمَعْذُوبٍ يَرْدَى وَآخِرُ يَرْهَقُ
لَنْ تَبْلُغَ الْجَرْحَى شِفَاءً كَامِلًا مَا دَامَ جَارِحُهَا الْمُهَنْدُ يَبْرِقُ
فَاحْكُمِ بَغَيْرِ الْعَنْفِ وَاكْسِرْ سَيْفَهُ فَالْحَلَمُ أَجْمَلُ وَالْمَكَارِمُ أَلْيَقُ

وقال سنة ١٩٠٨ يندد بسياسة مصطفى فهمي باشا حين سقطت وزارته:

عَجِبْتُ لَهُمْ قَالُوا «سَقَطَتْ» وَمَنْ يَكُنْ مَكَانَكَ يَا مَنْ مِنْ سَقُوطِ وَيَسْلَمِ
فَأَنْتَ امْرَأُ أَلْصَقْتَ نَفْسَكَ بِالثَرَى وَحَرَّمْتَ خَوْفَ الذُّلِّ مَا لَمْ يُحَرِّمْ

(٧٢) رن الرجل رنيناً صاح ورفع صوته بالهكاه، والمطوق السجين.

(٧٣) قضاتهم أى قضاة المحكمة المخصوصة (أنظر ص ٢٠٠).

(٧٤) يريد الدستور

فلو أسقطوا من حيث أنت زجاجةً على الصخر لم تُصدع ولم تتحطم (٧٥)
وقد جزع لوفاة الفقيد جزعا شديداً، وشيع جثمانه إلى مرقده الأخير، ووقف على
قبره يلقي قصيدته في وداعه، ولم يكذ يلقى البيت الأول منها وهو:
أداعى الأسى في مصر ويحك داعيا هددت القوى إذ قمت بالأمس ناعيا
حتى ظهر عليه التأثير الشديد والإعياء، ولم يستطيع أن يتم القصيدة، وتدل قصيدته في
حفلة تأبينه (ص ٢٧٧) على مبلغ حبه وإخلاصه لصداقته، وإعجابه به وشدة حزنه عليه،
فجاءت آية في البلاغة ورقة التعبير، وكأن كل بيت منها دمعة وفاء تذرفها عين الصديق
على صديقه الحميم.

خليل مطران

وكان بين الفقيد وشاعر القطرين خليل مطران صداقة وود داما طول العمر، ويبدو
ومبلغ إعجابه به وتقديره لعبقريته في قصيدته في حفلة الأربعين (ص ٢٩٢)، وقد نشرها
في ديوانه، وصدرها بهذه الكلمة التي تعد في ذاتها قصيدة من النثر المنظوم، قال: «مصاب
الشرق في رجله المفرد، وبطله الأوحده، مصطفى باشا كامل، أيتها الروح العزيزة: إن في
هذا الديوان الذي اختتمه برثائك، نفحات من نفحاتك، ودعوات من دعائك، فإلى هيكلك
المدفون بالتكريم تحية الأخ المخلص للأخ الحميم، وداع المجاهد المتطوع للقائد العظيم».

وظل خليل مطران (رحمه الله) على تعاقب السنين، يحفظ عهد صديقه العظيم، ويشيد
بذكراه، وله في سنة ١٩٣٣ قصيدة عصماء ألقاها لمناسبة مرور عام على وفاة حافظ
إبراهيم، ضمنها وصفاً رائعاً للنهضة القومية التي كونت حافظاً وجعلته الشاعر المطبوع
المترجم عن آمالها وآلامها، وكيف أن هذه النهضة هي غرس مصطفى كامل، وكيف
تعهدا بجهاده إلى أن مات، وبموته كانت الآية التي تم بها استقرارها، قال فيها:

(٧٥) أى أن مصطفى فهمى باشا كان في منزلة دانية لا يؤله السقوط منها بحيث لو أسقطوا زجاجة
من ذلك المكان المنخفض لم تنكسر.

لدعاة الهدى ضمير السواد^(٧٦)
 نفسه من تجهّم واربداد
 أفقّ واسع المدى لارتداد
 وقد هبّ (مصطفى) للجهاد
 من نبا^(٧٧) قبله بصوت المنادى
 ن كميناً كالنار تحت الرماد
 رجاء للشاعر المجواد
 رونور من طيّ ذاك السواد
 مضّر مفتكّة من الأصفاد
 رُعبه في مراض الآساد
 طوتها قرون الاستبداد
 تزدهى من غياهب الإفساد
 مالها غير حقها من عتاد
 ن عدوين أسرفا في اللداد
 تقلّع الراسيات في الأطواد
 عليه تقادم الإخلاد
 والخواتيم رهن تلك المبادئ
 كيف ما عودوه من آماد
 لقلوب الطليعة الأنجاد
 غير باغين من بعيد المراد

وارتداد في الشوط غبّ ارتداد

طرأت حالة تيقظ فيها
 فإذا (حافظ) وقد بثّ ما في
 وبدا للمنى الجلائل فيها
 ما تجلّى نبوغه كتجليه
 يوم نادى الفتى العظيم قلبى
 وورى^(٧٨) ذلك الشعور الذى كا
 فتأتى بعد القنوط الدجوجى^(٧٩)
 مس منه السواد فانبجست نا
 أكبر الدهر وثبة وثبتها
 وثغاء^(٨٠) غدا هزيماً^(٨١) فألقى
 ما لذى أخرج الشجاعة من حيث
 وجلا غرة الصلاح فلاح
 فإذا أمة أبيّة ضيم
 نهضت فجأة تنافح في آ
 أجنبيّاً ألقى المراسى حتى
 وهواناً كأنما طبع الشعب
 حلبة يُعذرُ المقصر فيها
 ليس تغيير ما يقوم يسيراً
 غير أن الإيمان كان حليفاً
 فاستعانوا به على ما ابتغوه
 إلى أن قال:

بعد وثبٍ عنيف

(٧٦) يريد الجمهور.

(٧٧) نبا تجافى وتباعد.

(٧٨) ورى الزند خرجت ناره.

(٧٩) المظلم.

(٨٠) الثغاء صوت الشاة والمعز.

(٨١) الهزيم صوت الرعد.

ساور الأمة التردد والتنا
لا تسلم يومذاك عن جلد القا
كلما ازدادت أبو إ
يبدلون القوى وفوق القوى غير
و(الزعيم الأبر) أطيبهم نفساً
هل ينجي شعباً من اليأس إلا
مصطفى مصطفى بحسبك إن يذ
مصطفى مصطفى ليهنتك أن احيت
دب فيهم روح جديد له ما
تنقضى الحادثات بعدك والرو
كاد يوم شيعت فيه يريهم
صدروا عنه بالتعارف فيما
واستشفوا لبأسهم فيه سرا
هذه مصر الفتية هبت
رجل مات مُخلفاً منه جيلاً
عهد نور من الحفاظ ونار
تخذت عبقرية الشعر فيه
أبلغت (حافظاً) من الحظ أوجاً

ث (٨٢) عليها في السيرة الرشاد
دة في مُلتقى الخطوب الشداد
لأ كفاحاً وعزمهم في ازدياد
مبالين أنها لنفاد
عن النفس في صراع العوادي
حَدَث من خوارق المعتاد
كر فداء أن كنت أول فاد
قوماً بذاك الاستشهاد
بعده في القلوب والأخلاق (٨٣)
ح مقيم فيهم على الآباد
لمحة من جلال يوم المعاد
بينهم وهو قوة الأعداد (٨٤)
كم تحامى أن يدركوه الأعادي
في صفوف فتية للزياد
رابط الجأش غير سهل المقاد
بعد طول الخمود والإخاد
سلاً للعروج والإصعاد
زاد منه العلياء كل مراد (٨٥)

* * *

وكان الفقيد يعجب أيضاً بقصائد أحمد محرم ويشيد بها في اللواء، ويسميه (ناطقة
البحيرة)، وبقي أحمد محرم على صلته بالفقيد ووفائه له ولذكراه، وكذلك كان معجباً بشعر
أحمد الكاشف، ثم بشعر أحمد نسيم.

(٨٢) التناث عليه الأمر اختلط والتبس.

(٨٣) العقول.

(٨٤) أي قوة الاتحاد.

(٨٥) توفي خليل مطران «شاعر القطرين» في يونيو سنة ١٩٤٩.

وقد أدرك في بداية عهده الشاعر الأديب المشهور الشيخ على الليثي، وأحبه حب الوالد لولده، ولمح فيه النبوغ والعبقرية، وكان يقول له: «إنك أوتيت ذكاء يقرب منك البعيد ويظهر لك الخفى، وحجة بها تسكت من ناقشك وتفحم من جادلِكَ».

ومن تلاميذه من الأدباء والشعراء المرحوم إبراهيم عبد القادر المازني، كان حين وفاة الزعيم طالباً بمدرسة المعلمين، وقد رقت أسبوعاً من المدرسة جزاء له خطبة وطنية ألقاها تلك السنة في حفلة الطلبة بدار التمثيل العربى وبدأت كتاباته الوطنية تظهر في صحف الحزب الوطنى عقب وفاة الزعيم.

أصدقاؤه وانصاره فى الشرق والغرب

أولهم مدام جوليت آدم، فهى التى عرفتة بأقطاب السياسة فى فرنسا، وأيدته فى جهاده بما تراه مبسوطاً فى فصول هذا الكتاب.

ومن أصدقاؤه من كتاب الغرب (بييرلوتى) الأديب الفرنسى المشهور، كانت بينها صلة ود وثيقة ورسائل متبادلة، وكان لوتى يمد الاتيندار اجيسىان بالمقالات الممتعة.

ومن أصدقاؤه الشعراء شكرى غانم الشاعر اللبنانى الشهير، نبغ فى الشعر الفرنسى ووضع باللغة الفرنسية مسرحية (عنتره) التى مثلت فى فرنسا ومصر وحازت استحساناً كبيراً، وقد خطب الفقيد فى الاحتفال الذى أقيم تكريماً له بالقاهرة فى يناير سنة ١٩٠٦ خطبة بليغة، أثنى فيها على شعر المحتفل به وأدبه، وصرح شكرى غانم بأنه هو الذى وجهه إلى وضع رواية (عنتره) بالفرنسية لكى تكون فيها دعاية للبطولة العربية فى الأوساط الفرنسية المثقفة.

وكان له فى أوروبا أصدقاء وأنصار عديدون، نذكر منهم الكولونل مارشان بطل حادثة فاشودة وإرنست جوديه وكلاهما من تلاميذ مدام آدم، والمسيو فلورانس وزير خارجية فرنسا السابق، والمسيو بللتان وزير بحريتها السابق، ولهما فى الايتندار اجيسىان مقالات عدة، والمسيو تارديو الذى صار رئيس وزارة فرنسا، والكونت روشفور، وكان معظم مديرى الصحف الفرنسية الكبرى ومحرريها من أصدقاء الفقيد والمعجبين به وبجهاده.

مصطفى كامل وطلعت حرب

كان الفقيد صديقاً لطلعت حرب باشا، وامتدحه في لواء ١٠ يناير سنة ١٩٠٠ لمناسبة ظهور كتابه في تربية المرأة. ووصفه بأنه «الكاتب الفاضل محمد أفندى طلعت حرب». ولما ظهرت كفاءته المالية أثنى عليه وكتب عنه في لواء ١٠ يولييه سنة ١٩٠٥ تحت عنوان (مصرى فاضل) ما يأتي:

«من الأشياء التي تسر كل مصر يحب بلاده وأبناءها العاملين ما يكون منها شاهداً على كفاءة المصرى في الأعمال الجسيمة وتقدير الأوروبيين له حق قدره فعزتلو حضرة المقدام العامل محمد طلعت بك حرب مدير قلم قضايا الدائرة السنية سابقاً هو أول مصرى نقدمه اليوم للقراء انتخب مديراً لشركتين عظيمتين، هما شركة العقارات المصرية. وشركة كوم امبو، خلفاً لحضرة عاداه بك مديرهما السابق، وإن من يعلم أن أصحاب هاتين الشركتين ومؤسسيهما هم من كبار المالىين المعدودين كالمسيو أرنست كاسل والمسيو سوارس وشركائه لا يرتاب في أن الثقة بهذا المصرى الجليل عظيمة، كما لا شك في أن هاتين الشركتين ستصلان إلى شأو بعيد من الرقى والفلاح بما أوتيته حضرة مديرهما الجديد من سمو الإدراك وسعة الاطلاع في المسائل المالية، فنهىء الشركتين به، ونسأل سلعلى القادر أن يهبنا الكثيرين من أمثاله».

فكان الفقيد كان يستشف ما وراء الحجب، ويلمح في الأفق ما كان لطلعت حرب باشا - رحمه الله - من الشأن العظيم في نهضة مصر الاقتصادية، وأنه سيتولى زعامتها في ميدان الاقتصاد والمال، فأثنى عليه هذا الثناء المستطاب.

مصطفى كامل ومصطفى فهمى

كان الفقيد شديد الحملة على مصطفى فهمى باشا رئيس الوزارة في ذلك الحين وعلى الوزراء عموماً، ولا عجب فمصطفى فهمى كانت سياسته تمثل الخضوع التام للاحتلال الأجنبى، ولم يكن من أنصار الاحتلال فحسب، بل كلن من المخلصين له، العاملين على



مصطفى كامل بين جمع من أصدقائه في سفح الأهرام
وترى إلى يساره مدام جوليت آدم، فمحمد بك فريد، فعلى فهمى كامل بك وإلى
يمينه مدام يونج، فحسين واصف باشا

تحقيق مآربه، وقد نشر المسيو دجرفيل حديثاً له في كتابه (مصر الحديثة) سنة ١٩٠٥،
تغنى فيه بفضل الاحتلال قال فيه: «إن عمل انجلترا في مصر هو عمل مجيد يشهد لها
بالفخار، انظر إلى حالة مصر سنة ١٨٨٢ وما صارت إليه الآن سنة ١٩٠٥، لقد كان
يسودها الخراب والفوضى والشقاء، والآن يعمها النظام والعدل والرخاء، إن التغيير كان
سريعاً واسع المدى لدرجة أنى في بعض الأحيان أغمض عيني وأتساءل: هل أنا في منام..
وفي الواقع لا توجد في العالم حكومة أخرى تسير بانسجام مثل حكومتنا، إنك تسألني إذا
كانت مصر نستطيع يوماً أن نتحرر من انجلترا، هذه مسألة دقيقة متروكة للمستقبل، أما
ما يمكنني أن أؤكدته الآن فهو أننا لا نستطيع ذلك في الوقت الحاضر، فإن عملها لم يتم
بعد ولا يزال تمامه بعيداً، لقد شيدت دعائمه القوية ولكن لا يزال البناء غير تام يبشر
بالآمال الزاهرة، على أنه فيم يحق لنا أن نشكو انجلترا؟ إننا مدينون لها بثروتنا وسعادتنا
وهنأنا، انظر إلى هذه الأرض المقامة عليها الفنادق والقصور إنها كانت منذ عشرين سنة

لا تساوى شيئاً والآن بلغت قيمتها ملايين من الجنيهات فماذا تكون قيمتها لو جلت انجلترا عن مصر؟»

فهذه الأقوال تعبر عن روح مصطفى فهمى باشا، وكل أعماله فى الوزارة كانت تصدر عن هذه الفكرة، فكرة تمجيد الاحتلال والولاء له، فكان بديهياً أن يخاصمه زعيم الحركة الوطنية الاستقلالية.

مصطفى كامل وسعد زغلول

حينما بدأ مصطفى كامل حياته الوطنية سنة ١٨٩٠ كان سعد زغلول لا يزال المحامى النابه (سعد أفندى زغلول)، وكان منصرفاً إلى أعماله فى المحاماة. ثم عين سنة ١٨٩٢ قاضياً (مستشاراً)، فانقطع إلى قضائه بمحكمة الاستئناف.

وكانت علاقة مصطفى بسعد ودية حتى سنة ١٩٠٦، حدثنى فؤاد باشا سليم أن سعد بك زغلول كان يتردد على دار والده لطيف باشا سليم، وهناك عرف مصطفى كامل إذ كان طالباً بمدرسة الحقوق، ثم تخلف سعد عن جماعة لطيف باشا، لما ظهر عليها من طابع المعارضة ضد الاحتلال، على أن علاقته بمصطفى كامل ظلت ودية كما أسلفنا، وحين صدر اللواء سنة ١٩٠٠، كان سعد زغلول لا يزال مستشاراً بمحكمة الاستئناف، وشقيقه أحمد فتحى بك زغلول رئيساً لمحكمة مصر الابتدائية، ولما ظهر كتاب (المحاماة) لأحمد فتحى زغلول بك كتب عنه الفقيد فى عدد ١٩ أكتوبر سنة ١٩٠٠ مقالة افتتاحية بتوقيعه أثنى فيها ثناءً كبيراً على الكتاب وصاحبه، وليس يخفى أن مجرد تخصيص المقالة الافتتاحية لتقريظ الكتاب هو دليل فى ذاته على التقدير والود الكبير، قال فى مقاله:

«لست ممن يزفون المدائح زفا أو يبجلون الناس حبا فى مرضاتهم، وطمعاً فى استرضائهم، ولكنى أكون مقصراً أمام الله والناس إذا لم أشكر أمام الملائكة مؤلف كتاب (المحاماة) صاحب العزة المفضال أحمد بك فتحى زغلول رئيس محكمة مصر الابتدائية الخ».

ويبدو وده لسعد مما كتبه اللواء فى عدد ٧ فبراير سنة ١٩٠٦ عن مرضه، قال تحت عنوان (شفاه الله): «انحرفت صحة حضرة الأصولى المفضال سعد بك زغلول المستشار



مصطفى كامل وبيير لوقي (ص ٤٠٩)

بمحكمة الاستئناف الأهلية، وقضت بإجراء عملية جراحية بسيطة له، وقد تمت على غاية ما يرام، وأخذت صحته تتحسن تحسناً عظيماً، مما سر أصدقاءه ومحبيه العديدين الذين يتوافدون كل يوم على منزله لعيادته، نسأل الله له الشفاء التام والصحة والعافية، حتى تنتفع البلاد بعلمه الغزير ومعارفه الواسعة، فهذه الكلمة تدل على تقدير الفقيد لسعد، ونشر اللواء في ٢٨ فبراير نبأ شفاؤه في غبطة وسرور.

على أن علاقة الفقيد بفتحى باشا زغلول قد انقطعت وانقلبت إلى خصومه شديدة بعد أن اشترك في الحكم على المتهمين في حادثة دنشواى، إذ كان أحد قضاة المحكمة المخصوصة (انظر ص ٢٠٨) وهو الذى كتب الحكم بقلمه، وازدادت صلته بالوكالة البريطانية، ورقى بعد الحكم وكيلاً لوزارة الحقانية، فحمل عليه مصطفى حملة شديدة، وسماه (قاضى دنشواى) وقال له فى منزل سعد باشا يوم ٢٠ أكتوبر سنة ١٩٠٦ أن حكمه فى قضية دنشواى «يحول بيننا وبينك إلى آخر لحظة من الحياة».

من ذلك ترى أن صداقة الفقيد وخصومته كانتا خالصتين لوجه الحق والوطن فإذا

مدح، مدح بحق، وإذا انتقد، انتقد بحق، غير متأثر بصلات شخصية، أو مآرب ذاتية، وكانت علاقاته الشخصية تتبع المصلحة القومية.

ولما عين سعد باشا وزيراً للمعارف في أكتوبر سنة ١٩٠٦ امتدح صفاته، وأمل الخير على يده، وكتب في لواء ٢٨ أكتوبر سنة ١٩٠٦ تحت عنوان (سعد بك زغلول وزير المعارف) يقول: «لما قابل جناب اللورد كرومر أول البارحة سمو الخديو المعظم في سراى التين عرض عليه تعيين سعادة سعد بك زغلول المستشار بحكمة الاستئناف الأهلية وزيراً للمعارف المصرية، فارتاح سمة الخديو لهذا الطلب لما يعهده في سعادة سعد بك من الفضل والعلم والأخلاق القويمة، وإن ما يعرفه الناس في أخلاق وصفات سعد بك زغلول وهو في المحاماة أولاً، وفي القضاء ثانياً، يحملهم جميعاً على الارتياح لهذا التعيين الذى صادف مصرياً مشهوراً بالكفاءة والدراية والعلم الغزير، وحب الإنصاف والعدل، ولكن لما كانت الوزارة من سنوات مضت إلى اليوم منصباً لا عمل فيه، وكان المستشارون الإنجليز أصحاب السيطرة التامة في النظارات، حق للناس أن يتساءلوا عما يعمل سعادة سعد بك زغلول في وزارة المعارف، هل يكون كبقية الوزراء - أمره وأمر المعارف بيد المستر دنلوب - أم يكون وزيراً اسماً وعملاً ويحى سلطة الوزراء المصريين؟ اللهم إننا عرفنا سعد بك زغلول في ماضيه وحاضره أشد الناس تمسكاً باستقلاله وحقوقه، وأكثرهم انتقاداً على الذين تركوا سلطة مناصبهم لغيرهم، وسمعناه يقرع بلهجة حادة الكسالى والمقصرين كباراً كانوا أو صغاراً، فإذا بقى سعد بك في وظيفته الجديدة كما هو وكما كان - وهو ما نعتقد - أملنا خيراً كبيراً للمعارف، ورجونا سريان هذه الروح إلى بقية النظار وعودة «الحياة المصرية» إلى الوزارة، على أنه إذا كان جناب اللورد كرومر اختار سعد بك زغلول وزيراً للمعارف تقديراً لعلمه وإعلاناً لتغيير جنابه للسياسة الاحتلالية الماضية، واتباعه لسياسة جديدة قاضية بإعطاء المناصب لمستحقها وتشريف الكفاءة، فإن السياسة تقضى قبل كل شيء بأن يكون الوزير وزيراً حقيقة، وأن يكون العامل عاملاً مؤدياً لوظيفته، متمتعاً بكل حقوقه، لا أن يكون آلة في يد الموظف الإنجليزى، ولوجب أن يكون سعد بك زغلول المدير الفعال لدفة المعارف المصرية والمصلح لخللها الكثير، والمحقق لآمال الأمة في نظارة خابت فيها مع المستر دنلوب كل الآمال، فنحن لا نبتهج اليوم بتعيين سعادة سعد بك زغلول وزيراً للمعارف إلا بأمل أن يكون كما كان على مبارك باشا والفلكى باشا وأمثالهما ممن خدموا العلم في

هذا القطر خدمات خالدة، وكانت لهم في مناصبهم الكلمة النافذة، والرأى المتبع، ونطالبه قبل مطالبتنا للاحتلال بأن يكون كذلك، وأن يكون في مستقبله كما هو في حاضره وكما كان في ماضيه، الرجل المستقل الذى لا يخدعه منصب ولا مال».

ولكن الفقيه أخذ ينتقد سعد باشا حين انسحب من لجنة مشروع الجامعة المصرية عقب تعيينه وزيراً للمعارف (وكان نائب الرئيس أو الرئيس الفعلى لها) فإنه لم يكذب يتولى وزارة المعارف في ٢٨ أكتوبر حتى وقف اجتماع اللجنة، وكانت تجتمع في داره، ثم اجتمعت يوم ٣٠ نوفمبر بدار حسن بك هجوم أحد أعضائها، وحضر سعد باشا الاجتماع فأعلن انسحابه من اللجنة، بدعوى أن كثرة أعماله في الوزارة لا تسمح له بالاشتراك في مشروع الجامعة، مع أن تعيينه وزيراً للمعارف كان أدعى لاضطراره بعمل هو من أخص واجبات وزارة (التعليم)، وكتب الفقيه في هذا الصدد (يقول): «كيف يهتم المستشار في الاستئناف بمشروع علمى ولا يهتم به ناظر المعارف؟» وقال في مقالة أخرى: «إن تخليه يظهر للملأ الخطر الذى يحيق بالمشروعات العامة إذا كان لرجال الحكومة داخل فيها، واعتقادنا أن أقوى ضمانات لأمثال مشروع الجامعة المصرية أن يكون القائم بها هو الأمة دون سواها».

وتبين أن انسحابه من رئاسة اللجنة كان تحقيقاً لرغبة الاحتلال، لكى يحبط المشروع، وقد أصابه الفطور والركود فعلاً بعد انسحابه من اللجنة، وبخاصة لأن الحكومة خلقت في ذلك الحين «بإيعاز من الاحتلال أيضاً» حركة إنشاء الكتائب واستحثت الأعيان في مختلف الجهات على التبرع لها، معارضة بذلك مشروع الجامعة، وبقي المشروع راكداً حتى دبت فيه الحياة حين تولى رئاسة لجنته الأمير أحمد فؤاد (الملك فؤاد) في سنة ١٩٠٨.

واشتد الفقيه في نقد سعد باشا حين طلبت الجمعية العمومية من الحكومة في مارس سنة ١٩٠٧ جعل التعليم في المدارس الأميرية باللغة العربية، وكان وقتئذ باللغة الإنجليزية، فاعترض سعد باشا وكان وزيراً للمعارف، على هذا الاقتراح، وألقى خطبة طويلة في هذا الصدد، سوغ فيها جعل التعليم باللغة الإنجليزية، قائلاً: «إن الحكومة لم تقرر التعليم باللغة الأجنبية لمحض رغبتها أو اتباعاً لشهوتها، ولكنها فعلت ذلك مراعاة لمصلحة الأمة»، وقال: «إذا فرضنا أنه يمكننا أن نجعل التعليم من الآن باللغة العربية، وشرعنا فيه فعلاً فإننا نكون أسأنا إلى بلادنا وإلى أنفسنا إساءة كبرى»، لأنه لا يمكن

للذين يتعلمون على هذا النحو أن يتوظفوا في الجمارك والبوستان والمحاكم المختلطة والمصالح العديدة المختلفة التابعة للحكومة الخ، على أن الجمعية العمومية رفضت اعتراضات سعد باشا على هذا الاقتراح وأقرته الأغلبية العظمى، وقد كانت خطبته دفاعاً عن سياسة الاحتلال في التعليم، لأن الاحتلال هو الذى أحل اللغة الإنجليزية محل اللغة العربية في التدريس بالمدارس الأميرية، فأحدث هذا الموقف ضجة استياء عند الرأى العام.

وكتب مصطفى كامل مقالاً في الاتيندار اجبسيان عرب اللواء في عدد ٩ مارس سنة ١٩٠٧ تحت عنوان (فشل وزير)، قال فيه:

«إن الناس قد فهموا الآن بأوضح مما كانوا يفهمون من قبل، لماذا اختار اللورد كرومر لوزارة المعارف العمومية صهر رئيس الوزارة (مصطفى فهمى باشا) الأمين على وحيه، الخادم لسياسته، وفهموا أيضاً لماذا قامت الصحف الإنجليزية والصحف المتحيزة للإنجليز وذرت الرماد في العيون قائلة إن الوزير الجديد هو من الحزب الوطنى، في حين أن كل شيء من أحواله وشئونه يدل على شدة ميله إلى السلطة، فسعد باشا زغلول قد فشل فشلاً عظيماً في الجمعية العمومية ولو كان وزيراً أوروبياً يتكلم أمام برلمان لكان قد استقال في الحال، ولكنه وزير في مصر، يعتقد أن ثقة اللورد كرومر به كافية وحدها لحمايته، ألا أن الذين كانوا يحترمون الوزير كقاض ليأسفون على حاضره كل الأسف، وليخافون على مستقبله كل الخوف، ويفضلون ماضيه كل التفضيل، ذلك لان الوزير قائم الآن على منحدر هائل مخيف».

وزاد في انتقاده إياه امتداح اللورد كرومر له في خطبة الوداع التى ألقاها قبل رحيله عن مصر، على حين أنه طعن في المصريين جميعاً ورامهم بنكران الجميل.

وصفوة القول أن موقف مصطفى كامل من سعد زغلول كان ودياً حتى انسحابه من لجنة مشروع الجامعة، ثم تحول إلى موقف انتقاد نزيه وخصومه شريفة، تبعاً لما اقتضاه الدفاع عن المصالح الوطنى العام.

الفصل الحادى والعشرون

شخصية الزعيم

لا نزاع فى أن مصطفى كامل هو من عظماء الرجال، ومن زعماء الشعوب وقادتها الأبطال فى ميادين الحرية والاستقلال، ولامرأ فى أنه باعث الحركة الوطنية التى ظهرت فى مصر عقب الاحتلال البريطانى.

لقد أوضحنا فى الفصل الأول من الكتاب كيف ظهر واضطلع بأعباء الدعوة الوطنية، فى عصر لم يكن مواتياً لها ولا مستعداً لمناصرتها، فهذه الشخصية الكبيرة التى حملت عبء الجهاد، ودعت الأمة إلى الانضواء تحت لواء الحرية والاستقلال، فى وقت تحالفت فيه أسباب اليأس والجمود، يجب أن تكون شخصية بالغة منتهى القوة، لكى تستطيع أن تشق لدعوته طريقاً وسط هذه العوامل المثبطة للعزائم، فما هى العوامل التى تألفت منها هذه الشخصية الفذة؟

إن شخصية مصطفى كامل تتركز فى قوى ثلاث، هى التى ساعدته على النجاح فى عمله العظيم، وهى إيمانه برسالته، وأخلاقه وصفاته، ثم وطنيته الصادقة.

إيمانه برسالته

فإيمانه برسالته، هو أبرز الجوانب فى شخصيته، ويبدو لك هذا الإيمان من ذلك الكتاب الذى بعث به إلى مدام جوليت آدم فى ١٢ سبتمبر سنة ١٨٩٥، وهو بعد فى الحادية والعشرين من عمره، إذ يقول فيه:

«إنى لا أزال صغيراً، ولكن لى آمالا كباراً، فإنى أريد أن أوقظ فى مصر الهرمة مصر الفتاة، هم يقولون إن وطنى لا وجود له، وأنا أقول يا سيدتى إنه موجود، وأشعر بوجوده بما آنس له فى نفسى من الحب الشديد الذى سوف يتغلب على كل حب سواه، وسأجود

في سبيله بجميع قواى، وأفديه، بشبابى، وأجعل حياتى وقفاً عليه».

فهذا الكتاب الوجيز في عبارته، الرائع في أسلوبه، يطالعك بقوة الإيمان الذى يملأ قلب صاحبه، فهو مؤمن بحياة الوطن، ولو خالف الناس جميعاً، مؤمن برسالته إيماناً جعله يجود في سبيلها بشبابه وحياته، وقد لازمه هذا الإيمان طول حياته على تعاقب السنين، وهذا هو سر نجاحه، قال في سنة ١٩٠٤: «سأبقى حتى الممات حاملاً لواء الاستقلال، إذ أجد حياتى في هذه العقيدة، وبغير هذه الشعلة الوطنية لا أستطيع الحياة».

وكتب إلى مدام آدم في ١٣ أغسطس سنة ١٩٠٦ يقول: «غداً تذكّار ميلادى إذ أبلغ الثانية والثلاثين، وما عسائ أن أعيش أيضاً لأخدم مصرنا العزيزة؟ وعلى كل حال فإنى لا أترك لحظة تمر من حياتى دون أن أغرس حبها في قلوب مواطنى، وأتم عملى إلى النهاية».

فهذا الإيمان هو قوام شخصيته، ومصدر قوته ولولاه لما تابع الجهاد رغم العوامل المثبطة، وهو الذى يسرله تذليل كل عقبة اعترضته في جهاده؛ وجعله يضطلع بأعباء الجهاد المضنى، ويسير بالأمة في طريق الحرية والاستقلال، قال صديقه الأستاذ داود بركات في هذا الصدد: «اعتقد في نفسه القدرة على العمل، فصغر كل كبير في نظره. وأذكر من أقواله يوماً: إن أغسطس قيصر لم يكن كبيراً لأن أمته كبرته، يل لأنه سار أمامها فعرفت أنه كبير».

صفاته وأخلاقه

كان الفقيد شاباً في مقتبل العمر، قمحى اللون، جميل الطلعة، متوسط القامة، نحيف الجسم، عريض الجبهة، براق العينين، يشع منها الذكاء وقوة العزيمة.

إن الجانب الأخلاقى هو بلا مرأ من أعظم مميزات هذه الشخصية الفذة ولا غرو، فالأخلاق هى سياج الوطنية، وحصنها الحصين، وهى قوامها وغذاؤها الدائم ولقد كان مصطفى كامل زعيماً أخلاقياً، وزعيماً وطنياً معاً، فلا جرم أن كانت وطنيته ثابتة كالطود، راسخة كالجبال.

وأبرز أخلاقه وصفاته الشجاعة الأدبية، والصدق، والصراحة، والإخلاص، والصبر وقوة العزيمة والثبات، ثم الوفاء وعلو النفس وعلو الهمة، والجود والكرم، هذه الأخلاق هي قوام وطنيته، وبها استطاع أن يقوم على دعوته، ويثابر عليها، ويناضل معناها طول حياته، ولولا قوة أخلاقه لما أمكنه أن يغالب العقبات، ويقاوم المؤثرات والمغريات.

كان شديداً في الحق، يحب الصدق والصراحة، ويكره النفاق والرياسة، يجاهر بما في ضميره بشجاعة أدبية كبيرة، لا يهاب في الحق كبيراً، وكان مع ذلك وديعاً يخفض جناحه للأصاغر وأواسط الناس، ويعطف عليهم.

كان شديد الذكاء، سريع الخاطر، قوى الذاكرة، بالغ الحجة، عظيم النشاط محبا للعمل، لا يكل منه، ولا يعرف الملل والهوادة.

وكان وفيا لأصدقائه، باراً بأهله وذويه، يعطف عليهم ويعد نفسه أباً لهم جميعاً، لم يتزوج في حياته قط، وانحصر حبه العائلي في والدته وأقاربه وذويه ظهر وفاؤه لوالدته حين مرضت، فكان مشغول الفؤاد بمرضها، شديد العناية بأمرها، يكتب عن أنبائها إلى مدام جولبيت آدم في رسائله إليها، وقد حزن عليها حزناً شديداً حين أدركتها الوفاة^(١)، كتب في هذا الصدد إلى مدام آدم يقول:

«قد رزئت أكبر رزء في الحياة، فإن والدتي العزيزة، مالكة فزادى، قد فارقت الدنيا يوم الأحد الماضي، إن حزني لشديد، وحياتي كادت تنقضي!»

فهذا التعبير يدل على مبلغ وفائه لوالدته، وحبه لها، وتعلقه بها، وحزنه عليها، وهذا لعمرى أبلغ مظهر لوفاء الإنسان في هذه الدنيا.

ويبدو وفاؤه لأهله وذويه من رسائله إلى صديقه وزميله في الجهاد محمد بك فريد فانه لا يكاد يخلو كتاب منها من سؤاله عنهم، وعنايتهم بهم، واهتمامه بكل صغيرة وكبيرة من شئونهم، على كثرة مشاغلة ومهامه الجسام.

كان جواداً كريماً يعطف على الفقراء والمعوزين ويحبهم، فكان لهم نصيب وافر في مدرسته، إذ خصص للمجانية قسماً كبيراً لتعليم أولادهم، وإليه ينسب فضل كبير في مبدأ

(١) توفيت يوم الأحد ١٢ مايو سنة ١٩٠٧.

الإسعاف، فقد عطف على قتيل حادثة الهماميل بالاسكندرية فأسعف أهله بماله ومساعدته، وعنى بتعليم ابنه بفصل ذلك المبدأ الكريم.

وطنيته

أما وطنيته فلا نرانا في حاجة إلى التحدث عنها، فلقد خصصنا لها هذا الكتاب جميعه، إذ هو سجل لوطنيته الكبرى، فالوطنية تبدو في كل ظاهرة من ظواهر حياته، وفي كل حركة من حركاته، وكل خاطرة من خطرات نفسه ولاغرو فقد ملكت عليه لبه ومشاعره وتفكيره، فكانت حياته هي الوطنية، واقتبست منها الأمة نهضتها الوطنية، وهو الشعلة التي انبثق نورها في أرجاء وادي النيل منذ ستين سنة، فأضاءت النفوس، وأحيت فيها الشعور الوطني، وحفزتها إلى الحياة والكرامة والجهاد القومي، بعد سنوات طويلة من الانحلال الوطني العام .

كانت وطنيته أسبق وأقوى من الجيل الذي ظهر فيه، وأقوى من الحوادث التي اعترضته، فليس يخفى أن هذه الحوادث كانت في مجموعها سلسلة هزائم، مثبطة للعزائم، على أنه قد تغلب عليها بقوة الوطنية والأخلاق، وكان يزداد ثباتا في الكفاح والنضال، كلما أزدادت في طريقه العقبات، وهنا وجه البطولة في تاريخه.

وتبدو قوة وطنيته في مثابرته على الكفاح وفي هذا الحركة الدائمة التي لم ينقطع عنها، والتي بينا أدوارها ومراحلها في فصول هذا الكتاب، فهذه الحركة التي لم يعثرها إلا الكلال فترة ما خلال الثماني عشرة سنة التي قضاها في الجهاد، هي عنوان وطنيته، وثمة عنوان آخر لها، وهو أن جهاده كان خالصاً لله والوطن، إذ كانت الحركة الوطنية لا ترمى في ذلك الحين إلى الحكم والمناصب، أو الجاه والمنافع، بل كانت سلسلة متصلة الحلقات، من المتاعب والتضحيات، ومن هنا تتجلى بطولتها، ويسطع نورها وروعيتها، فهذه الروح، روح التضحية والإخلاص هي رأس مال الشعوب في حياتها القومية، لأن الأمم إنما تتميز في ميادين الرقي والعظمة بمقدار إخلاص أبنائها لأوطانهم، وتفانيهم في خدمتها، وإيثارهم الصالح العام على منافعهم الشخصية.

سبيله إلى الوطنية

كان الفقيد لايهتم طوال حياته إلا بالوطنية ييئها في نفوس النشء والجيل وكانت سبيله إلى غرسها في النفوس الدعوة والخطابة والصحافة والتأليف، والقذوة الصالحة في الاستمسك بالعروة الوثقى. كان معلما للجيل، أرشد الأمة إلى المثل العليا في حب الوطن والإخلاص له، ولذلك كان يعنى بالتاريخ الوطنى لجميع الشعوب، يستخلص منه دروس الوطنية الصادقة، ويلقنها لبنى مصر، كتب في هذا الصدد إلى مدام جولييت آدم في ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٩٩ حين اعترزم إصدار اللواء يقول: «أشكر ككثيراً إذا تفضلت بإرشادى إلى المؤلفات الخاصة بالتاريخ القومى والقصص الوطنية عن كل البلاد لكى ألقن الشعب إياها، فإنه يجب أن أنشر المثل العليا في الوطنية».

وكتب إليها في ٢٨ ديسمبر من تلك السنة يقول:

«إنى أعمل الآن ككثيراً، وأملى أن يصير (اللواء) أول جريدة في الشرق، فإنى أريد له أن يكون في وقت واحد عاملاً للوطنية المصرية، وواسطة بين العالم الأوروبى والعالم المصرى، ولهذا رجوت منك أن تكتبى لنا بين آن وآخر مواعظ وطنية مما جرى في عصرك أو في بطون التاريخ».

وكان في دعوته وجهاده، في مقالاته وخطبه وأحاديثه، يسمو بالوطنية، ويوجهها إلى المثل العليا، وينزهها عن الخصومات والأحقاد الشخصية ويربأ بها عن الطعن في أعراض الناس وشخصياتهم، كان عف القلم عف اللسان، وفي ذلك يقول في خطبته بالاسكندرية سنة ١٨٩٦: «أنى أترفع عن أدافع عن بلادى بالطعن والسباب».

وكان يحجب النفوس في الحرية، ويرغبها في الاستقلال الشخصى، ليمهد الجيل إلى الاضطلاع بأعباء الاستقلال القومى، ومن هنا جاء استحثائه الشبان على العمل الحر والاعتماد على النفس، وترغيبهم عن التواكل والتطلع إلى الوظائف، وله في ذلك خطب ومقالات عدة، أهمها خطبته بالاسكندرية يوم ٨ يونيه سنة ١٨٩٧ إذ قال فيها:

«اتركوا الأنباء معشر الآباء في الحياة الحرة، اتركوهم يخدموا الوطن ويخدموا أنفسهم في غير دائرة الوظائف، اتركوهم أحرار غير مقيدين بقيود الرواتب، ابعثوا بهم إلى

الخارج ليدرسوا التجارة والصناعة، ويؤسسوا في البلاد المصانع والمعامل، تزدادوا بذلك شرفاً وفخراً وتزدادوا أمام الله وأمام الوطن متوبة وأجراً».

وكان كثير الحث على الاستقلال الاقتصادي، قال في هذا الصدد في خطبته سالفه الذكر: «إذا أهملت تربية الأمة وبقي الكبراء منعكفين على إدارة شؤونهم الخاصة واستمر الآباء يلقون بالأبناء إلى مهاوى التوظيف في الوظائف وبقيت التجارة والصناعة في كساد، ودامت الأمة في حاجة إلى استجلاب لوازمها الضرورية من غير بلادها، دام الانحطاط ودام التأخر ودام الخطر».

بعض كلماته الخالدة في الوطنية

للفقيد كلمات خالدة دلت على تأصل الوطنية في فؤاده، وسارت سير الحكم والأمثال، وقد مرّ بك بعضها في فصول الكتاب، وسنجمع هنا أهمها شأنًا، وأدّلها على شخصيته، مع بيان تاريخ كل كلمة منها:

- «أحرار في بلادنا كرماء لضيوفنا» سنة ١٨٩٥.
- «إن لي روحاً نور الحرية الساطعة لا تستطيع الحياة في ظلمات الظلم والاستبداد» من خطاب له إلى فريد بك سنة ١٨٩٦.
- «إني أترفع عن أدافع عن بلادى بالطعن والسباب» سنة ١٨٩٦.
- «كل احتلال أجنبي هو عار على الوطن وبنيه» من خطبته بالاسكندرية يوم ٨ يونيه سنة ١٨٩٧.
- «في الرضا بالاحتلال الخيانة والعار، وفي العمل ضد الاحتلال الشرف والفخر» من خطبته المذكورة.
- «قد يكون الرجل صادق الوطنية فقيراً في المال، ولكنه يعيش ويبقى في التاريخ من أكبر سراة الوطنية» من خطبته بالقاهرة يوم ٨ يناير سنة ١٨٩٨.
- «إذا لم نقتطف ثمرة عملنا وجهادنا في حياتنا، فإننا على الأقل نضع الحجر الأول

لمن يأتي بعدنا» من رسالة له سنة ١٨٩٨ إلى أخيه على بك فهمى كامل.

- «لا معنى للحياة مع اليأس ولا معنى لليأس مع الحياة» من خطبته بالقاهرة يوم ٢٣ ديسمبر سنة ١٨٩٨.

- «الحياة جهاد، والعمر قصير، وخير الناس من جاهد في سبيل بلاده وعمل لخيرها وناضل عن حقوقها» من خطبته المذكورة.

- «ليست الحرية بعزيزة على قوم يعملون للحصول عليها ويجهدون في نوالها، وليس بعزيز على المصريين أن يفكوا قيود بلادهم ويعيدوا إليها استقلالها ومجدها، فالصخرة الضخمة تذوب وتتفتت بسقوط المياه عليها نقطة بعد نقطة» من خطبته المذكورة.

- «الأمل دليل الحياة ورائد الحرية» (اللواء ٨ أبريل سنة ١٩٠٠).

- «إن قيام كل رجل حى الشعور شريف الميول بواجباته نحو هذا البلاد العزيزة يرد إليها حريتها ومجدها وعزها» (اللواء ٢٣ أبريل سنة ١٩٠٠).

- «سأستمر بمشيئة الله طول حياتي ولو بقيت وحيداً أخطب في الصحراء وأكتب على صفحات الماء. ذلك الذى عرف فيه المصريون الخادم الأمين للوطن العزيز» (اللواء ١٣ أغسطس سنة ١٩٠٣).

- «الوطنية شعور ينمو فى النفس، ويزداد لهيبه فى القلب، ويرسخ فى الفؤاد كلما كبرت هموم الوطن وعظمت مصائبه» من خطبته سنة ١٩٠٤.

- «إن روحى تتغذى من حب الوطن وبغيره لا أستطيع الحياة إذ لا قيمة للحياة بغير هذا الحب الرائع العظيم الذى يفيض على المرء كل سلوى وكل سعادة حتى فى شقائه، وبخاصة فى الشقاء، حيث لا يجد الانسان القوة والأمل إلا فى هذا الحب» سنة ١٩٠٤.

- «مادامت هذه الشعلة والوطنية تغذيني وتؤازرنى فإنى لا أهاب شيئاً ولا أحداً فى الوجود» سنة ١٩٠٤.

- «من أشق الأعمال أن يجاهد المرء ضد الزمن والحوادث والناس، سنة ١٩٠٤.

- «سأبقى حتى الممات حاملا لواء الاستقلال، إذ أجد حياتي في هذه العقيدة، وبغير هذه الشعلة الوطنية لا أستطيع الحياة» سنة ١٩٠٤.
- «لو انتقل فؤادى من الشمال إلى اليمين، أو تحولت الأهرام عن مكانها المكين، لما تغير لى مبدأ ولا تحول لى اعتقاد، بل تبقى الوطنية رائدى ونبراسى ويبقى الوطن كعبتى ومجده غاية أمالى» (اللواء ١٨ مايو سنة ١٩٠٦).
- «إن سلاسل الاستعباد هى سلاسل على كل حال، سواء كانت من ذهب أو من حديد» من كتابه إلى السير هنرى كامبل بانرمان سنة ١٩٠٧.

مختارات من خطبته بالاسكندرية سنة ١٩٠٧

- «إننا لا نعمل لأنفسنا بل نعمل لوطننا، وهو باق ونحن زائلون، وما قيمة السنين والأيام في حياة مصر وهى التى شهدت مولد الأمم كلها وابتكرت المدينة والحضارة للنوع الإنسانى كله؟ أن العامل الواثق من النجاح يرى النجاح أمامه كأنه أمر واقع، ونحن نرى من الآن هذا الاستقلال المصرى ونبتهج به وندعو له كأنه حقيقة ثابتة، وسيكون كذلك لا محالة، فمهما تعددت الليالى وتعاقبت الأيام، وأتى بعد الشروق شروق وأعقب الغروب غروب، فإننا لا نمل ولا نقف في الطريق ولا نقول أبدا: لقد طال الانتظار».
- «إننا وجهنا قلوبنا ونفوسنا وقوانا وأعمارنا إلى أشرف غاية اتجهت إليها الأمم في ماضى الأيام وحاضرها، وأعلى مطلب ترمى إليه في مستقبلها، فلا الدسائس تخيفنا، ولا التهديدات توقفنا في طريقنا، ولا الشتائم تؤثر علينا ولا الخيانات تزعجنا، ولا الموت نفسه يحول بيننا وبين هذه الغاية التى تصغر بجانبها كل غاية نعم لو أخذنا الموت من هذا الدار واحدا بعد واحد لكانت آخر كلماتنا لمن بعدنا: كونوا أسعد حظا منا، وليبارك الله فيكم ويجعل الفوز على أيديكم، ويخرج من الجماهير المئات والألوف بل الآحاد للمطالبة بالحق الوطنى والحرية الأهلية والاستقلال المقدس».
- «بلادى بلادى لك حبى وفؤادى. لك حياتى ووجودى، لك دمي ونفسى، لك عقلى ولسانى لك لى وجنانى، فأنت أنت الحياة، ولا حياة إلا بك يامصر»

- «إني لو لم أولد مصرياً لوددت أن أكون مصرياً».
- «إن أمة دبت فيها روح الوطنية، وطمحت نفسها للاستقلال لا تموت أبداً، وإن صواعق السياسة كلها لا تحول ضميراً لاذ بالوطن عن وجهته».
- «نحن مسلوبون، والإنجليز هم السالبون، ونحن طلاب حق مقدس هم مغتصبوه، فلا سبيل إلا الاتفاق بيننا وبينهم إلا باعترافهم بحقنا ورده إلينا».
- «هل يستطيع مصرى أن يتهور في حب مصر؟ مهما أحبها فلا يبلغ الدرجة التي يدعو إليها جماها وجلالها وتاريخها والعظمة اللاتقة بها، ألا أيها اللاتمون انظروها وتأملوها وطوفوها، واقروا صحف ماضيها، واسألوا الزائرين لها من أطراف الأرض، هل خلق الله وطناً أعلى مقاماً، وأسمى شأنًا، وأجل طبيعة، وأجل آثاراً، وأغنى تربة، وأصفى سماء، وأعذب ماء، وأدعى للحب والشغف من هذا الوطن العزيز؟ اسألوا العالم كل يجيبكم بصوت واحد إن مصر جنة الدنيا، وإن شعباً يسكنها ويتوارثها لأكرم الشعوب إذا أعزها، وأكبرها جناية عليها وعلى نفسه إذا تسامح في حقها وسلم أزمته للأجنبي».
- «قد يرى السفهاء والطائشون أن الانتساب لشعب مستعبد كالشعب المصرى مما لا يليق بإنسان، ولكن أى شرف يطمع الحر فيه أكبر من العمل لإحياء الأمة التى سبقت الأمم كافة فى العلم والمدنية والأدب؟ أى رفعة يسعى الشريف إليها أسمى من إنهاض شعب كان أستاذ الشعوب البشرية ومربي العالم كله؟»
- «إن مصر جديرة بأن تحب بكل قوة، بكل عاطفة، بكل جارحة، بكل نفس، بكل حياة».
- «لا قوام لأمة ولا سلامة لبلاد إلا بقوة العقيدة الوطنية».
- «إن من يتسامح فى حقوق بلاده ولو مرة واحدة يبقى أبداً الدهر مزعزع العقيدة سقيم الوجدان».
- «الدعوة للاستقلال، وبث الروح الوطنية، هما المؤديان إلى تحقيق آمال الأمة المصرية، فليكن معتقد المصريين جميعاً، أن نجاة مصر لا تكون إلا بهم المصريين، وإن ارتقاءنا موكل إلى عزائمناء، فلنطلب النهوض من أنفسنا، ولنعمل له بالهمة والصدق والاتحاد».

عبقريته ومكانته السياسية

لم يكن مصطفى كامل زعيماً وطنياً فحسب، بل كان زعيماً سياسياً ناضج الفكر صادق النظر، واسع الاطلاع، ملماً بأسرار السياسة الدولية، وهذه ميزة له على كثير من الزعماء الذين سبقوه (في الثورة العرابية)، أو تولوا الزعامة بعده، ويضارعه في الاطلاع السياسي المغفور له محمد بك فريد، فكلاهما درس القضية المصرية دراسة عميقة قبل أن يضطلع بأعباء الزعامة، ولعلك تلاحظ أنه حين عاد إلى مصر عقب حصوله على شهادة الحقوق من فرنسا، جاء ومعه صندوق من الكتب المؤلفة في القضية المصرية، ليتزود منها بالحقائق والبيانات اللازمة لخدمة هذه القضية.

وظهر بعد نظره السياسي في المبدأ الذي اتخذته شعاراً لدعوته، وهو الجلاء، إذ رأى بشاغب نظره أنه الرمز الصحيح للاستقلال التام، وأن الاستقلال والاحتلال ضدان لا يجتمعان، قال في هذه الصدد: «كل احتلال أجنبي هو عار على الوطن وبنيه»، وأطرح المبادئ الملتوية والنظريات الخيالية جانباً، وخالف الكثيرين من معاصريه الذين كانوا يرون مصانعة الاحتلال والتقرب إليه، وجعل الجلاء شعاراً للحركة الوطنية، فهو أول من علم الأمة أنه صخرة النجاة لمصر، وأن الاحتلال الأجنبي هو مصدر العبث باستقلال مصر وكرامتها القومية، وقد أثبتت الحوادث قديمها وحديثها صحة هذا المبدأ القويم، لأن الاحتلال مهما كانت صفته لا يمكن أن يتفق مع الاستقلال والكرامة القومية^(٢).

ويبدو بعد نظره في تجنبه أخطاء زعماء الثورة العرابية، فقد أدرك من دراسته العميقة للمسألة المصرية أن اصطدام العرابيين والخصو توفيق كان من أسباب إخفاق الثورة، ومن العوامل التي تذرعت بها انجلترا لاحتلال البلاد، فكان يعمل دائماً على إيجاد جو من التفاهم بين الأمة والخصو عباس الثاني، ويدعو إلى تعلق الأمة بالعرش، ولما وقع الخلف بينها، بعد أن جنح الخصو للاستسلام والخضوع للاحتلال، اجتنب هو الاصطدام به، حتى

(٢) قال مصطفى النحاس باشا في خطبته التي ألقاها يوم أول يولييه سنة ١٩٣٨: «إن جوهر المسألة المصرية هو الاحتلال والجلاء».

لا يتخذ الاحتلال من هذا الاصطدام وسيلة لإضعاف الحركة الوطنية، أو محاربتها باسم الخديو.

وكذلك رأى من الحكمة السياسية توثيق الروابط الودية بين مصر وتركيا لكي يتخذ من موقف تركيا وسيلة لمقاومة الاحتلال وإقامة الحجة عليه، وأدرك من مطالعته التاريخية أن انجلترا كانت تعمل دائما على تعزيز العلاقات بين الخديو توفيق والسلطان، مما أدى إلى إطلاق يدها في مصر، وأن جفاء العلاقات بين مصر وتركيا في عهد اسماعيل، كان من العوامل التي جنحت بتركيا إلى خلعه، إجابة لرغبة انجلترا وفرنسا، فعمل على اكتساب ود تركيا، مادام الاحتلال في مصر، لكي يضمن ألا تتفق الدولتان على إقرار الاحتلال، كما فعلت فرنسا في الاتفاق الودي سنة ١٩٠٤، وقد فصلنا الكلام عن هذه المسألة في الفصل الثامن عشر.

أما سياسته بإزاء فرنسا، فقد كان إلى ما قبل حادثة فاشودة يتوقع تدخلها لصالح مصر، ولذلك كان يأمل العون من ناحيتها حتى سنة ١٨٩٨، وكل من كان في موقفه كان محققاً في هذا الأمل، ولكن بعد أن وقعت حادثة فاشودة سنة ١٨٩٨ وتراجعت فرنسا أمام انجلترا، أدرك أن لا فائدة تترجى منها، وجعل الاعتماد على قوة الأمة وجهادها أساس الحركة الوطنية، وأخذ يطعن على فرنسا وسياستها منذ تلك الحادثة، كتب في هذا الصدد يقول في لواء ١٥ مايو سنة ١٩٠٠: «إننا انتقدنا دائماً السياسة الفرنسية وقلنا غير مرة إنها لا تليق بحكومة الجمهورية ولولا هذه السياسة العوجاء لما كانت انجلترا في مصر ولما كنا فيما نحن فيه».

ثم فقد أمله في عدالة فرنسا خاصة وأوروبا عامة منذ أن رأى جهود أوروبا أمام مأساة (البوير) وتركها إياهم يسحقون أمام القوات الإنجليزية دون أن تأبه بهم، قال في هذا الصدد في عدد ٢٨ أغسطس سنة ١٩٠٠ من اللواء: «إن المعتمد على أوروبا واقف على هاوية عميقة القرار، وإن الوطنية تحتاج إلى أسلحة عدة إذا كانت الشهامة والفضيلة والإقدام أهمها وألزمها، فالحذر والدهاء والتبصر ضرورة لها بل وحيوية لكل أمة تطلب الحياة أو تريد الزيادة في المجد والسؤدد، وإذا كانت أمة بلغت من الشهامة وحب الوطن مبلغ أمة البوير وهذا حالها مع أوروبا فكيف بنا ونحن نحتاج لسنين عديدة وأعمال مجيدة لبلوغ مبلغها والحصول على ما لها من المحامد والمزايا».

وكتب إلى مدام جولييت آدم في رسالة له بتاريخ ٢١ يونيو سنة ١٩٠٠ يقول: «إني لا أجد كلمات تسع إعرابي لك عن استيائي من أوروبا والمدنية الإنسانية التي قضت بهجر البوير البواسل! أي عار وأي درس لنا نحن الذين طالما كنا نعتمد على أوروبا!».

فمصطفى كامل قد دعا الأمة منذ سنة ١٨٩٨ إلى الاعتماد على النفس في جهادها، ومن الخطأ ما يظنه بعض الكتاب أنه ظل يتعلق بالآمال من ناحية فرنسا حتى سنة ١٩٠٤، وهي السنة التي أبرم فيها الاتفاق الودي بين فرنسا وانجلترا، فإنه على العكس فقد أمله في فرنسا منذ حادثة فاشودة، ولم يفاجئه الاتفاق الودي سنة ١٩٠٤، بل زاده قوة على قوته في الكفاح والجهاد.

على أنه مع فقدانه الأمل في تدخل فرنسا وأوروبا في المسألة المصرية، كان يؤمن بقوة الدعاية، وأثرها في إحراج مركز الاحتلال وشد أزر الحركة الوطنية فكان لا يفتأ يبذل الجهود الجبارة ليكسب لمصر الأنصار والأعوان في صحافة أوروبا وفي دوائرها السياسية والأدبية، وقد وفق من هذه الناحية توفيقاً عظيماً يدل على حظ كبير من المكانة الشخصية والمقدرة السياسية، فليس من السهل على أي إنسان مهما كان كبيراً أن يدرك تلك المكانة التي جعلت الفقيد ينشر مقالاته وأحاديثه في أهم الصحف الأوروبية.

لقد كانت كبرى الصحف الفرنسية كالفيجارو والإكلير والطان والديا وغيرها ترحب بمقالاته وأحاديثه، وكان ينشر بعضها أيضاً في الصحف الانجليزية وكان في صيف كل عام يقصد إلى أوروبا وتنشر له كبريات الصحف الأحاديث والمقالات عن مصر وشئوننا، وتخصص لها مكاناً بارزاً في أعمدتها، وتتناقلها الصحف الأخرى، وكان لا يحل ببلد إلا وتتجه إليه الأنظار ليدلى إلى الجمهور بآرائه عن الحركة الوطنية المصرية التي كان زعيمها وممثلها في الداخل والخارج بلا منازع.

ومن دلائل مكانته السياسية أنه لما وقعت حادثة دنشواي استطاع أن ينشر مقالته الشهيرة (إلى الأمة الإنجليزية والعالم المتمدن) في صدر جريدة (الفيجارو)، فكانت بمثابة صحيفة اتهام للسياسة الإنجليزية في جريدة من أكبر الصحف العالمية، وفي وقت كانت السياسة الفرنسية متجهة وجهة الاتفاق الودي مع انجلترا، وهذا يدل على عظم المنزلة التي نالها الفقيد في العالم السياسي.

ولما نشرت له (الفيجارو) في سبتمبر سنة ١٩٠٧ كتابه المفتوح إلى السير هنري كامبل بانرمان رئيس الوزارة البريطانية الذي احتج فيه على الاحتلال وطالب الحكومة البريطانية بتحقيق وعودها في الجلاء، تناقلته جرائد الطان والديبا والإكلير والإيكودي باريس والجلولوا وغيرها ، وعلقت عليه تعليقات تدل على عظم مكانته وأنشأت الطان في صدره مقالة افتتاحية قائلة إن العلاقات الأدبية والمادية بين فرنسا ومصر تعادل ما عند فرنسا من الميل والانعطاف نحو المصريين، وتردد صدى الكتاب في معظم الصحف البريطانية كالتيمس والستاندارد والديلي نيوز والمورننج بوست والمورننج ليدر وغيرها ونشرته ضمن رسائلها التلغرافية الواردة من مكاتيبها بباريس، كما رددت صدها شركة روتر في أرجاء العالم.

وعندما استقال الأستاذ إدوار لامبير من منصب ناظر مدرة الحقوق الخديوية (ص ٢٥٢) التقى بالفقيد بفرنسا، وهو الذي قدمه إلى الميسيو تارديو مدير جريدة الطان (والذي صار رئيس وزراء فرنسا فيما بعد) لينشر له مقالته عن أسباب استقالته، وقد نشرت بها فعلا ونشرها الفقيد بأكملها في الايتندار اجبسيان وذى اجبسيان ستاندر، ونشر تعريبها كاملا في اللواء في اليوم التالي لظهورها في الطان وقد ذكر العلامة لامبير هذه الحقيقة في حديث له بجريدة الجهاد عدد ٨ مارس سمو سنة ١٩٣٧ حين حضر إلى مصر لإلقاء محاضراته القانونية تلبية لطلب كلية الحقوق المصرية.

وقبلت جريدة الفيحارو الشهيرة أن تنشر ليتندار اجبسيان كل المقالات التي يكتبها الكاتب الطائر الصيت (بييرلوتي) عن مصر في يوم واحدا معاً، على حين كانت تنقده المبالغ الطائلة على ذلك.

ولما أوفد الفقيد إلى باريس سيدافندي على أحد محرري اللواء في بعثة صحفية ليتلقى علوم الصحافة في مدرسة العلوم السياسية بها، زوّده بكتب توصية إلى أقطاب السياسة والصحافة في فرنسا، فكان كلما قابل أحدهم وسلمه كتاب التوصية قابله بعناية واحترام، لاحترامهم شخصية الفقيد، وقصد إلى إدارة جريدة (الطان)، وهي كبرى صحف فرنسا ومعه خطابان أحدهما لرئيس تحريرها، والآخر لمحورها الأول، فلما أخبرها أنه رسول مصطفى كامل قابلاه بالحفاوة البالغة، وأخذ رئيس التحرير يقدمه إلى زملائه مبتسماً: قائلاً: «هذا مندوب صديقنا الجليل مصطفى كامل». ولما تلا كتابه أقبل عليه وقال: «إني

أحب الباشا من أعماق قلبي، وأود أن أقوم له بخدمة ولو صغيرة، فاعلم أن أبواب الطان مفتحة أمامك في كل وقت وساعة، وأن أبواب غرفتي لا تقفل في وجهك أبداً، وقد كلفني رئيسك أن ألحقك بمدرستي العلوم السياسية والصحافة، ومن رأيي أن تقتصر على الأولى، لأنك لا تستفيد من الثانية شيئاً، فإذا أتممت العلوم السياسية فعد إلى مصر وتعلم الصحافة في مدرستها الكبرى التي يديرها مصطفى كامل باشا»، فهذه المنزلة التي نالها الفقيه لدى أقطاب السياسة والصحافة في فرنسا لا يمكن أن ينالها إلا الرجل العظيم الذي رفعت كفايته الممتازة وشخصيته الفذة إلى ذلك المستوى الكبير، ولا غرو فقد كان معروفاً في أوروبا بأنه بطل الاستقلال المصري، وبذلك على سمو مكانته في نفوس عظماء الغرب أن الكاتب الفرنسي الشهير بيير لوتي، وكان صديقاً حميماً له وضع كتاباً سنة ١٩٠٩ عن مشاهداته في مصر، وقدم له بكلمة إهداء إلى روح الفقيه قال فيها: «إلى ذكرى صديقي المجيد العزيز مصطفى كامل باشا الذي استشهد يوم ١٠ فبراير سنة ١٩٠٨ في ميدان الجهاد الشريف عاملاً على رفعة شأن مصر والإسلام»، وهي كلمة لا تصدر إلا عن تقدير عظيم، من أديب كبير.

سياسة نحو النزلاء

وكان شديد الحرص على اكتساب ثقة النزلاء الأجانب واطمئنانهم إلى الحركة الوطنية، وفي ذلك قال كلمته المشهورة (أحرار في بلادنا كرماء لضيوفنا)، وقد وفق توفيقاً كبيراً في كسب ثقة الأجانب واحترامهم، مما كان يبدو أثره في الصحف الأوروبية المحلية، ولا شك أن ظهور زعيم وطني شاب مثقف ثقافة أوروبية قد أفاد كثيراً في الدعاية للحركة الوطنية سواء في أوروبا أو في الأوساط الأوروبية المحلية، ولذلك كان له أنصار وأصدقاء ومعجبون كثيرون من أعيان الجاليات الأوروبية، ومن أقطاب الصحافة والسياسة والقضاء والمحاماة، وقد كان أول زعيم مصري سمعت منه أوروبا صوت مصر الحديثة، وكان له من الصحفيين الأجانب في مصر أصدقاء شخصيون عديدون، كالمسيو هيكاليس باشا صاحب جريدة «الفارد الكسندري»، والمسيو برشيه صاحب الجورنال اجبسيان، والمسيو راوول كانيفيه مدير جريدة الريفورم، والمسيو جورج فيسييه مدير الجورنال دي كير وغيرهم.

سياسته الشرقية والإسلامية

كان مصطفى كامل عالماً على الوطنية المصرية، وكان في الوقت نفسه رسول الحرية والجهاد للأمم الشرقية، شديد الغيرة على توثيق عرى الروابط والتعاون بينها، وكان قوى العقيدة الدينية، قوى الإيمان، ولقد كانت قوة إيمانه من أسباب رسوخ العقيدة الوطنية في فؤاده، قال في هذا الصدد رداً على حملات الصحف الأوروبية على الإسلام لمناسبة مقالات هانوتو: «قد يظن بعض الناس أن الدين يناقى الوطنية، أو أن الدعوة إلى الدين ليست من الوطنية في شيء، ولكني أرى أن الدين والوطنية توأمان متلازمان، وأن الرجل الذي يتمكن الدين من فؤاده يجب وطنه حباً صادقاً ويفديه بروحه وما تملك يده» (راجع ص ١٥٦).

ويبدو اتجاهه إلى تقوية الروابط بين الشعوب الإسلامية من إصداره جريدة أسبوعية باسم (العالم الإسلامي) كان ينشر بها كل ما يهم الإسلام من المقالات والأخبار. وكتب في جريدة (الطان) الفرنسية - عدد ٨ سبتمبر سنة ١٩٠٦ - مقالته رداً على مقالة نشرتها عن الجامعة الإسلامية قال:

«لقد فسرت كلمة الجامعة الإسلامية في أوروبا تفسيراً لا يتفق ومعناها الحقيقي، وإني أعيد هنا ما كتبت في «الفيجارو» و«اللواء» وما قلته في كل مكان من أنه لا يوجد مسلم متنور يعتقد لحظة واحدة أن الشعوب الإسلامية يمكنها أن تؤلف عصبة ضد أوروبا. وإني أتساءل من الرجل العاقل السليم الإدراك الذي يصدق إمكان تغلب الشعوب الإسلامية على كافة الدول الأوروبية، إن الحقيقة الساطعة الخالصة من كل شيء هي أن حركة الجامعة الإسلامية بالمعنى المقصود منها في أوروبا - أي الحرب الدينية - لا وجود لها بالمرّة، لأن المسلمين أدركوا من زمان بعيد أنه يستحيل على أية أمة أن تعيش في معزل عن العالم، وأن الأمة التي تحاول ذلك تقضى على نفسها بالموت، أما الشعور الموجود حقيقة وبلا نزاع عند كافة الشعوب الإسلامية فهو شعور انعطافها وحنانها لبعضها البعض، فكل مسلم يرغب من صميم فؤاده أن يرى أبناء دينه معاملين أحسن من المعاملة الحالية ومعتبرين كجزء حي من الإنسانية ومحترمين في كل مكان ومن كل إنسان، وأنه لما كان

لتأخر الشعوب الإسلامية أسباب واحدة فإن نهضتهم تكون بوسائل واحدة، وإن هذه النهضة لا تصير حقيقة تشاهد بالعيان بفضل أوهام تأليف عصابة إسلامية ضد المسيحية، بل بالتعليم والنور، وبما أن الإسلام ليس عقيدة دينية فقط بل قانون اجتماعي، فإن إحياء الأفكار ونشر المعارف لا يتم إلا بإظهاره على حقيقته، وإن ميل كل مسلم لأبناء دينه أمر طبيعي وشرعي، ولا يوجد رجل منصف ينتقد ذلك الميل، أما عن تهمة التعصب الإسلامي المزعوم في مصر فإنني أؤكد أن بلادا كثيرة في أوروبا تعرف التعصب العنيف الممقوت، في حين أن مصر لا تعرفه، فليس عندنا أحزاب ضد اليهود، ولا اشتراكيون ولا فوضيون، ولا شيء من تلك الفرق التي يأكل بعضها بعضا».

مقدرته الخطابية

هو أعظم خطيب أنجبته مصر الحديثة، وأول خطيب سياسى جهر بالاستقلال في عهد الاحتلال، وأول زعيم اتخذ الخطابة وسيلة لبعث الحركة الوطنية، ولا شك أن الحركة الوطنية مدينة لخطبه الجليلة الرائعة في ظهورها واتساع مداها، وكانت هذه الخطب من الحوادث الهامة في تاريخ الحركة القومية، كان خطيبا مفوها يجيد الخطابة باللغتين العربية والفرنسية، والخطابة بعد الوطنية كانت أبرز الجوانب في شخصيته، كان إذا جلس في محفل خاص وتكلم مع الحاضرين يدوي صوته كأنه يلقي على السامعين خطبة من خطبه الرنانة، كان جهورى الصوت، يتكلم من أعماق قلبه المملوء يقينا وإيمانا، وكان له سلطان روحى على من حوله من السامعين أو المخاطبين، وقد بدأت مواهبه الخطابية في الظهور وهو بعد في المدرسة الثانوية، إذ كان يخطب في جمعية الصليبية الأدبية وجمعية الاعتدال بمدرسة الأمريكان (ص ٣٧)، فكان يسترعى الأنظار بفصاحة لسانه وصوته الرنان، وقد اختار مدرسة الحقوق «لأنها مدرسة الكتابة والخطابة» كما يقول في خطابه إلى شقيقه في ١٢ يولييه سنة ١٨٩١، مما يدل على ميوله الخطابية، وهو في هذه السن المبكرة، وإنك لتلمح مقدرته الخطابية في بداية حياته الوطنية من قول على مبارك باشا له سنة ١٨٩٠ وهو بعد طالب في المدرسة الثانوية «إنك امرؤ القيس» ومن وصف الأستاذ محمد مسعود بك إياه سنة ١٨٩٦ (ص ٨٤) بخطيب مصر المصقع، وأنه الذى إذا ارتقى منبر الخطابة ذلل له القول وسخر له الخطاب، وتابعه الكلام متفق القرائن مطرد السياق.

وقد كان في مواقفه الخطابية الكبرى يضع خطبه ويكتبها، ولكنه كان يلقيها على السامعين دون أن يقرأها، وكان له من قوة ذاكرته المدهشة ما يغنيه عن الرجوع إلى التلاوة في خطبه، وكانت مقدرته الخطابية باللغة الفرنسية لا تقل عنها في خطبه العربية، ولذلك نال إعجاب الأوروبيين ممن سمعوه يخطب بالفرنسية، وكان هذا الإعجاب من أسباب علو منزلته السياسية والاجتماعية في أوروبا وبين النزلاء الأوروبيين في مصر.

مقدرته الصحفية

هو من عباقرة الصحافة في مصر والعالم، خلق صحفيا بفطرته، فأسس مجلة المدرسة وهو بعد في المدرسة الثانوية، فكان أول طالب مصرى مارس الصحافة، كما أنه كان أول طالب خطب في الوطنية، وقد ولع به مراسلة الصحف في هذه السن المبكرة، وكتب في كبريات الصحف، من مصرية أوروبية قبل أن ينشئ اللواء ولما أنشأ سنة ١٩٠٠ بعث في الصحافة روح التجديد والنشاط، فكان اللواء نموذجاً للفن الصحفى، متنوع المقالات والأبحاث والأنباء، وكان أول ماصدر في أربع صفحات ثم مازال يرقى به حتى جعله في ثمان بعد إن استحضر له من أوروبا آلة الطباعة الكبرى (روتاتيف). وكان يفيض بالأنباء البرقية الواردة إليه من الخارج على يد مراسليه، فضلاً عما كان ينشر من رسائل كبار الكتاب في مصر وأوروبا، وصار كما قالت (الأجيشيان جازيت) «أكثر الجرائد العربية انتشاراً ليس في مصر فقط بل في جميع العالم على الأرجح» ولم يكتف بإصدار اللواء اليومي، بل أصدر إلى جانبه (مجلة اللواء) الشهرية ثم جريدة العالم الإسلامى سنة ١٩٠٥.

وبلغت مقدرته الصحفية أوجها حين أصدر جريدتي ليتندارا جبسيان وذى اجبشيان ستاندرد اليوميتين، فصار يصدر ثلاث صحف يومية كبرى، بثلاث لغات مختلفة، وهى مهمة تنوء بها العصبه أو لو القوة من الرجال والجماعات، وقد كان يشرف بنفسه على تحريرها وإدارتها، وتتمشى روحه في كل كلمة منها، بحيث لم يؤخذ على أية صحيفة منها أنها نسرت يوماً مقالة أو نبذة تخالف روحه ومذهبه

وكان للايتندار اجبسيان وذى اجبشيان ستاندرد محررون اختارهم الفقيد من صفوة الكتاب الفرنسيين والإنجليز، ومراسلون في باريس ولندن يرسلون إليها تليفرافياً خلاصة كل ما ينشر في الصحف الأوروبية عن مصر في حينه. فكانت الأولوية تطالع قراءها يوميا بكل ما يهم مصر في الخارج.

ولما نشرت (الدلي تليفراف) حديثاً للخديو عباس (ص ٣٤٩) في مايو سنة ١٩٠٧، عقب إستقالة اللورد كرومر، علم به الفقيد تليفرافيا من مراسل ذى اجبشيان ستاندرد في لندن، فطلب إليه أن يوافيه بنصه حرفياً، فجاء نصه بالتليفراف في ١٤٤٥ كلمة، وكانت هذا أول مرة في تاريخ الصحافة المصرية والشرقية جاء فيها تليفراف بهذا الطول وهذه الأهمية.

وقد بلغ من تعلق الفقيد بترقية الصحافة ورفع شأنها أن أوفد بعثة صحفية إلى أوروبا في أكتوبر سنة ١٩٠٧ لدراسة فن الصحافة وإتقانه، وبدأ بإرسال سيد أفندى على أحد محررى اللواء وقتئذ إلى باريس. وانتظم على نفقة صاحب اللواء في سلك مدرستى العلوم السياسية والصحافة بباريس لمدة ثلاث سنوات، ولكن لم يطل مكثه هناك لمرض اعتراه، وقد عرض على الفقيد في تلك السنة وكنت إذ ذاك طالباً بمدرسة الحقوق، أن يوفدنى في هذه البعثة الصحفية بعد حصولى على شهادة الحقوق، فقبلت هذه الثقة شاكرًا، ولكن المنية عاجلته قبل تخرجى من المدرسة.

كان مصطفى كامل يتولى عمله الصحفى المنهك، إلى جانب إشرافه على إدارة مدرسة مصطفى كامل، إلى جانب خطبه الرنانة التى كان يلقيها من آن لآخر، وأحاديثه ومقالاته في كبريات الصحف الأوروبية، وإطلاعه على الصحف والمؤلفات التى تكتب عن مصر وعن المسائل السياسية الكبرى العالمية، وإلى جانب ذلك يجتمع بأصدقائه وأنصاره وتلاميذه، ويفيض عليهم من أحاديثه وتعاليمه ما يملأ نفوسهم وطنية وإيماناً، وكان إذ خلا إلى راحته يكتب الرسائل الخاصة إلى كبار السياسيين والكتاب في أوروبا، مما لو جمع لصار عدة مجلدات، وقد جمع شقيقه على بك فهمى كامل رسائله إلى مدام آدم، فجاءت كتاباً قيماً ممتعاً، كان الفقيد يضطلع بهذه الأعباء كلها مجتمعة بهمة وكفاية ومقدرة منقطعة النظير.

فضله على الحركة الوطنية

هو رسول الوطنية والحرية لمصر والشرق جميعاً، وإن قيامه ضد أكبر دول الاستعمار وهى فى أوج قوتها هو مثال خالد للبطولة والإخلاص والتضحية، جدير بأن تحتذيه الأمم الشرقية فى جهادها للحرية والمجد، وقد بينا كيف أنه كان باعث الحركة الوطنية الحديثة وموجدها، فلا نعود إلى هذا البيان، ولقد ظهرت هذه الحقيقة رائعة يوم الاحتفال بجنائزته، إذ كانت إجماعاً من الأمة على الاعتراف بأن الحركة الوطنية هى غرس جهاده المتواصل طوال سنى حياته، وسندعم هذه الحقيقة هنا بأقوال معاصريه فى مصر وفى الشرق والغرب، فإن هذه الأقوال تستطيع منها شخصية الفقيه العظيم.

قال المغفور له الشيخ على يوسف صاحب «المؤيد» فى رثائه:

«كان فى عمله كقائد الجيش يسير به إلى ميدان القتال، للحياة الفاخرة، أو للدار الآخرة، ذلك كان مبدأ صديقى القديم، وهذا شأن رصيفى العظيم، فكان من مبدئه يافعاً، إلى أن صار فى الرابعة والثلاثين رجلاً كاملاً، مثال الهمة الشفاء والذكاء والعزيمة ذات المضاء، والحركة الدائمة التى لا تنهى ولا تنتهى، ذاهباً فى طريق الآمال ينشد لوطنه الاستقلال، فإليك أيها الصديق القديم، والرصيف العظيم، تحية محزون يعرف لك أكثر من كل إنسان خدمتك العظيمة التى خدمت بها وطنك فأيقظت من شعور المصريين ما قامت مظاهرات الأمس أكبر برهان على مقدار ما كان لك فيه من حسن الأثر ويد بيضاء، ويقدر جهادك العظيم فى أوروبا فى سبيل الدفاع عن حقوق الأمة المصرية حق قدره، وأنى لمصر أن تجد بعدك صوتاً عالياً إذا قال أسمع أوروبا بأسرها وتردد صدها فى الخافقين، بل أنى لمصر بن يملك إحساس شبيبته كما كنت تملك، ويستفز شعورها كما كنت تستفز والأمة فى حاجة كبرى إلى تنمية مثل هذه العواطف الشريفة».

وقال المرحوم مرقس حنا باشا (عضو الوفد المصرى) فى حفلة تأبينه: «إن العظمة والمهابة التى أحاطت بنعش المرحوم مصطفى كامل باشا يوم ١١ فبراير المنصرم ذات دلالة صادقة أكيدة على أنه لم يكن صديقاً لفريق من المصريين، بل كان صديقاً لجميع الوطنيين على السواء، بكاه كل ساكن من سكان هذا البلد لأنه قضى حياته كلها فى بث

روح الوطنية الحقيقية بين أهله وقاطنيه، بكيته أنا شخصياً لأنى عرفته مثالا للرجولة والشهامة والصداقة بكل معانى الكلمة، كان الرجل شفاء لفلتنا، وإرواء لظمننا، جئت أقول لكم كلمة واحدة هى حياة مصطفى كامل كلها، إن الأمة نمت وسمت وتغارست أغصانها حول جذع واحد هو مصر، هو الوطن العزيز، تلك الحقيقة التى لا ريب فيها، الفخر فى إحيائها راجع إلى مصطفى كامل باشا».

وقال الشيخ مصطفى القاياتى فى مارس سنة ١٩٠٨: «هذه الحياة القومية المدهشة والنهضة المصرية الفاتكة إنما هما أثر من آثاره، ونتيجة من نتائج أعماله سيتوارثها الأبناء عن الآباء، وتبقى ما بقيت صفحات التاريخ».

وقال سعد باشا زغلول فى خطبته بفندق شبرد يوم ٢٠ أبريل سنة ١٩٢١: «أعلم أن البلاد تصبو إلى الاستقلال وأن حركتها الاستقلالية بدت من زمان طويل، خصوصاً من يوم أن ظهر فيها المرحوم مصطفى كامل وتلاه المرحوم فريد بك، هؤلاء الذين أسسوا وأيدوا ما أسسوا فى النهضة الحاضرة».

وقال فى خطبته بالسراىق يوم ١٩ سبتمبر سنة ١٩٢٣: «لست خالق هذه النهضة كما قال بعض خطبائكم، لا أقول ذلك ولا أدعيه، بل لا أتصوره، إنما نهضتكم قديمة تبتدىء من عهد مؤسس الأسرة المالكة محمد على، وللحركة العرابية فضل عظيم فيها، وكذلك للسيد جمال الدين الأفغانى وأتباعه وتلاميذه أثر كبير وللرحوم مصطفى كامل باشا فضل غزير فيها أيضاً، وكذلك للمرحوم فريد بك»

وقال الأستاذ أحمد لطفى السيد عن مصطفى كامل^(٣):

«لا أريد أن أطيل القول فى مصطفى كامل، فحياته معروفة مشهورة، ولكنى أقول موجزاً:

«إن مصطفى كامل كان شعاره الوطنية، ووسيلته الوطنية، وغرضه الوطنية، وكلماته الوطنية، وكتابته الوطنية، وحياته الوطنية، حتى لبسها ولبسته، فصار بينها التلازم الذهنى والعرفى، فإذا ذكرت مصطفى كامل بخير فإنما تطرى الوطنية، وإذا قلت الوطنية فإن أول

(٣) من كتاب (قصة حياتى) للأستاذ أحمد لطفى السيد - كتاب الهلال - فبراير سنة ١٩٦٢.

ما يتمثل في خيالك شخص مصطفى كامل، كأنما هو والوطنية شيء واحد.
«ولقد تمثل ذلك يوم وفاته في هذه المظاهرة التي لم تعرف لها في ذلك الزمان مثيلاً، فقد
إشترك جميع أفراد الأمة في أمر واحد، على رأى واحد، بصورة واحدة مع إختلافهم
فيها عداه.

«كل هذا دل على أن الشعور الذى قادهم ليس مذهباً سياسياً، ولا طريقة من طرائق
المنازعة السياسية، بل هو أعلى من ذلك، هو التضامن القومى، والجامعة الوطنية.
«إن مصطفى كامل كان تمثال الوطنية، ولقد دعوتُ في اليوم التالى لوفاته على
صفحات الجريدة إلى إقامة تمثال له يشهد بالاعتداد بفضله في عمله، وتخليداً لذكراه،
واعترافاً من الأمة لكل عامل يقف نفسه على خدمتها، وتجدد لهذه الروح الطاهرة.
«وقد شاعت هذه الفكرة بين جميع الطبقات، وفتحنا الاكتتاب على صفحات
«الجريدة» وتكفلنا بالقيام بهذا العمل، ولو أننا لم نكن من حزبه السياسى، لأن مصطفى
كان مصرياً لجميع المصريين».

وقال الأستاذ أخنوخ فانوس من خطبته في حفلة تأبين مصطفى كامل:
«إنه أنهض روحاً شريفة عامة بين طبقات وعناصر الأمة المصرية، روحاً وطنية
شريفة، بل زهرة زاهرة عابقة نمت وعلت فوق هامة الأشرار المذهبية بناموس الرقى،
فما مات مصطفى حتى أطلقت عبيرها بين الملأ، فأنعشت كامن الحب القومى الوطنى
الطبيعى، وكشفت في مصر عن حلقة وطنية صحيحة شريفة»
وقالت «الأهرام» في رثائه - بقلم الأستاذ داود بركات:

«ذهب «فتى مصر»، فكل فلم «مصرى» ككل لسان مصرى، وقف اليوم على تأبينه
ورثائه، ومات مصطفى كامل، فالأمة التى كانت أقواله وسياسته وأفكاره تغلها الشاغل،
هى الآن رهن الفجيعة به، والمصاب بفقد، بل إن أقلام خصومه الحادة التى كانت تتناول
كل حين بالغمز، وكل آونة بالتجريح واللمز هى اليوم أمام نعشه خاشعة تقطر بالرثاء،
بعد أن اتأدت، والداء يفت من جسمه، لا تقلق مضجعه ولا تشوك سريرته، بل هى اليوم
مثلاً بالأمس، تعرف أنها كانت تنازل في منازلته فكراً يؤلف به الأفكار، لا شخصا في

عقر الدار، ومذهبا في السياسة هو صدى آمال أمة عظيمة، لا مذهباً في العمل ينحصر في دائرة ضيقة. فلو لم يكن في مصر قوة ما جردت عليه قوات، إن الطريقة التي كانت عنوان مصطفى كامل هي الحرية في القول، والمجاهرة بما يضر، والتذرع بالشجاعة في العمل، لأنه لا يبيت الحقوق في الأمم مثل الجبن عن المطالبة بها، أو التطوح إلى ما وراء الغاية من الشجاعة، فحسبه مجدداً أن يسجل له في تاريخ أمته تلك الشجاعة وتلك الحرية، بل حسبه أن يكون مثالا للناشئة، فهو أكبر معلم بما عمل».

وقالت مدام جوليت آدم في مقدمة كتاب رسائل الفقيد إليها:

«إن في نشر رسائل صديقي وإبن مصطفى إحياء له بعض الشيء، على أن مواطينه لذكروه لحافظون، هل مات «مصطفى»؟ كلا، لأن أعماله وكتابات وأقواله حية في أعماق قلوب أنصاره ومحبيه، وهو يحيا في تلك الشبيبة المصرية التي أخرجها من الظلمات إلى النور، ووقف نفسه على مستقبلها جسداً وروحاً، لقد صار من رجال التاريخ، وهو حي في شخص الكل، والكل حي في شخصه، وما يحى من الحوادث لن يغير شيئاً من صورته وعنوان مجده، وإن الفخر في تحقيق آماله حين تتحقق يعود عليه ويرجع إليه كله، لأنه لا شيء ينقص من فضل أول باعث لفكرة استقلال مصر، لقد قامت عند وفاة «مصطفى كامل» مظاهرات لم يصدر من أمة أخرى أعظم منها، وقد صار عمله كله حيا في قلب كل مصري، لأن كل مصري يفهم أن «مصطفى كامل» قد أحيا مصر، إذ نفخ فيها من روحه، وعندما كان يقول متباهياً بلسان المغرم: أمي! لم يكن يقوها بلسان الملك عن رعاياه، بل كان يحى في نفسه بلاده ووطنه، وكان يحى معها، لأنه كان يحب أمته حباً لا يقوى عليه الموت!

«وإن ما اخترته من رسائله لدال على أنه جدير حقاً بلقب «الوطني» الذي أسبغته عليه أمته في كل شيء: الخطيب الوطني، ورئيس الحزب الوطني، ومثل هذا اللقب أعظم فخر يطمع فيه خادم الوطن، لقد كان «مصطفى كامل» يقول إن هذا اللقب يحيينى بحياة بلادي كلها وهو جزائي الأعظم، واليوم يبعثه هذا اللقب حياً في نفس كل وطني مصري».

وقالت جريدة (الديبا) الفرنسية الشهيرة في أبريل سنة ١٩٠٨:

«إن مصطفى كامل لم يوقظ أمته فقط وإنما رباها أيضاً، بل يمكن القول بأنه هو الذي

أنشأ الروح المصرية من العدم، لم تكن مصر قبله إلا قسماً من الأقسام الجغرافية، ولم يكن سكانها إلا فرقا منقسمين بعوامل الجنس والدين، متفرقين شيعاً على قدر ما في مصر من الأديان وما كان فيها من إختلاف المذاهب والمشارب والمطامع، لقد تولى محمد علي شئون مصر، فبعد بذله الجهد الجهيد نصف قرن من الزمن تمكن من إنشاء جنسية مصرية ممتازة عن الجنسية العثمانية، ولكنه لم ينشئ أمة مصرية، أما مصطفى كامل فقد خرج من بين هذه الجموع المتنافرة المتخاذلة التي لم تعرف معنى للتضامن القومي ولم تذوق نعمة الوحدة الوطنية، وكان أول من نطق بنداء الوطن، نطق بهذا النداء ولم يكن قد تجاوز عشرين عاماً، ثم ما زال يبيت هذه الفكرة السامية والروح الشريفة مدة أربعة عشر عاماً متتالية، تارة بالصحافة وطوراً بالخطابة، وأخرى بالمدرسة، ظل يبيت هذه الفكرة بجهد عظيم أضعف صحته وقرب منيته، لقد أنشأ مصطفى كامل الوطن المصري. فهو بذلك قد أتم أشرف عمل أدبي يخلد له الذكر الحسن على مر الأجيال، وأضاف إلى هذا العمل الأدبي عملاً سياسياً، وهو السعى في تحرير مصر من رق الاحتلال الانجليزي وجعلها أهلاً لهذا التحرير، فعمل مصطفى كامل كان إذن أدبياً وسياسياً معاً.

ووصفه الكاتب الفرنسي (لويس برتران) في مجلة العالمين، وكان قد زاره وهو في أوج مجده، قال:

«قصدت شيخ الوطنيين مصطفى كامل باشا وزرته في داره، وقد كانت مدام جوليت آدم أعطتني كتاب توصية إليه، فاستقبلني رئيس الحركة الوطنية ومدير سياسة جريدة اللواء في غرفته بإدارة الجريدة، فأحسن وفادتي وأكرمني، دخلت غرفة الرئيس فعرتني دهشة، لأنني وإن كنت لا أنتظر أن ألقى شيخاً عربياً ذا لحية بيضاء، ولكن كنت أحسب أني ملاق رجلاً كبير السن قوى الجسم ساكناً كما هو المعهود في الطبقة العالية من المسلمين، نعم عرتني دهشة لأنني وجدت فتى شديد العارضة عظيم النشاط، لا يدل ظاهره على أن عمره يتجاوز الخامسة والعشرين، مع أنه في الحقيقة قد بلغ الثانية والثلاثين، رأيت رجلاً صغير الجسم، شاحب اللون خفيف اللحم، تدل ملامحه على أنه رجل رقيق عصبي المزاج، لكنه مع هذا الجسم الضئيل كان جهورى الصوت خطيباً فطرياً، فكلمني عن شيء من تاريخ حياته، ومن عجيب ما لاحظته أنه بالرغم من حبه وبغضه كان يحكم على الناس بفراصة عجيبة من غير أن تخدعه صلة النسب أو رفعة الرتب، ثم إنه فوق ذلك

خبير بدخائل السياسة الأوروبية كل الخبرة، وبالرغم عن أنى كنت وإياه وحدنا فى غرفة، فإنه كان يخاطبني وكأنما هو يخاطب فى جمع عظيم، ومن مزاياه العجيبة أن له تأثيراً فى النفوس يضطرها إلى الإقناع بما يقول حتى إنى لم أتركه إلا وقد انقسم فؤادى بين الميل الغريزى إليه، وما سمعته من قبل من خصومه، على أنى كنت شديد الرغبة فى مقابلته مرة ثانية، قابلته مراراً وتحدثت معه كثيراً، فعرفت فيه السياسى الحكيم الذى يعرف كيف يستخدم الظروف والفرص، وكيف يلين وكيف يقسو، وكان من رأيه ألا يعتمد على أوروبا إلا قليلاً، وإن الثورة الحربية جنون، وكل عمله ينحصر فى تقوية روح الوطنية والاتحاد بين مواطنيه، والمقاومة السلمية، وكان يحتقر مدنية لا غاية لها إلا الرقى المادى دون عناية بتحرير النفس أديباً، فما كان أجمل جهاد ذلك الشاب المخلص الذى نصب نفسه لمحاربة خصم قوى عنيد مع أنه لا سلاح له إلا قلبه ولسانه».

فضله على الوحدة الوطنية

إن الفقيه هو أول من أسس الوحدة الوطنية وجعل لواء الوطنية يضم المسلمين والأقباط على السواء، كثيرون من الكتاب ينسبون هذا الفضل إلى سعد زغلول، وهذا خطأ تاريخى وإجحاف لا مسوغ له، والحقيقة أن مصطفى كامل هو صاحب الفضل فى تأسيس هذه الوحدة، اعتبر ذلك فى اصطفاائه الأستاذ وصفا واصف ومرقص حنا باشا، وهما من خيرة الوطنيين الأقباط وضمهما إلى الحركة الوطنية، فكانا من أكبر أنصاره وأعوانه فى الجهاد، وقد كان فى خطبه ومقالاته يدعو إلى ارتباط المسلمين والأقباط فى الجهاد الوطنى.

قال فى خطبته بالإسكندرية يوم ٨ يونيه سنة ١٨٩٧: «إن المسلمين والأقباط شعب واحد مرتبط بالوطنية والعادات والأخلاق وأسباب المعاش، ولا يمكن التفريق بينهما مدى الأبد» (ص ١١٠).

وقال فى خطبته بالإسكندرية يوم ٢ يونيه سنة ١٩٠٠: «كيف يستطيع رجل وطنى أن يدعو للشقاق والبغضاء وهذه الدعوة مناقضة للوطنية الصحيحة، فالأقباط إخوة لنا فى

الوطن تجمعنا أشرف رابطة، وقد عشنا معهم القرون الطوال على أتم وفاق وأكمل اتفاق» (ص ١٥٧).

وتبدو هذه الروح الوطنية في كل أقواله وأعماله.

وليس أبلغ في الدلالة عل أنه الموجد للوحدة الوطنية من شهادة المرحوم مرقص حنا باشا في حفلة تأبينه يوم ٢٠ مارس ١٩٠٨، إذ قال عنه:

«ليس الأبطال قاندى الجيوش والقابضين على دفعة الأساطيل، إنما الأبطال هم أولئك المتمسكون بالمبدأ القويم وأهدابه، الدائبون على السير في سبيله، حتى رفعوا قومهم إلى أوج الرقى والعلا، سبار الفقيد في سبيله هذا ثابت الجأش، شديد المراس، لا يلوى على أحد ولا يقف به أمر، حتى فاز كما نوى، وأراد فكون الوحدة الوطنية، وأرانا طريق الإخاء والحرية، وهدانا إلى السعادة الحقيقية رسم لنا طريق الوفاق والتآلف، طريق الحرية والاستقلال، وهدانا الجمهور العظيم الذى نراه اليوم التف حول قبره وقد ضم بينه جميع العناصر المصرية يقول لكم بأفصح لسان وأجلى بيان وأقوى حجة وأعظم بلاغة: «إن التآلف بيننا أصبح قاعدة ثابتة»، أن الشبيبة المصرية لا تعرف غير أنها الشبيبة المصرية، وألا واجب عليه سوى خدمة مصر والمصريين بلا تخصيص ولا تقسيم، هذا بناء مصطفى كامل، هذا عمل مصطفى كامل، وقد بدا لنا جنى ثمره من الآن، لأن الاتحاد هو السلم الأول للوصول إلى الحرية والاستقلال».

توضيحاته

سيظل اسم مصطفى كامل علماً للوطنية المنزهة عن الأهواء، ومثالاً للإخلاص والتضحية لا يحويه الزمان، وتبدو روح التضحية في تاريخه من الطريق الذى سلكه في الحياة، لم يسلك الطريق السلطانى الموصل للرحاء والراحة، والأبهة والجاه، ونعنى به طريق المناصب، ولو هو اختاره كما فعل معاصروه لبذهم جميعاً بذكائه وكفاءته ونشاطه، ولضمن لنفسه ولأهله وذويه طبقة بعد طبقة رغد العيش، والثروة الطائلة، والمراكز الممتازة، ولكنه على عكس ذلك، اختار الطريق الشائك، طريق الجهاد ضد الاحتلال وضد الحكومة معاً، ولم يكن هذا الطريق ليجلب لصاحبه نفعاً ولا جاهاً، بل هو طريق

العقبات والمصاعب، والجهد والحرمان، فهذا الاختيار في ذاته يدل على مبلغ ما فطرت عليه نفس الفقيد من الإخلاص والتضحية، والعمل لوجه الله والوطن فقط، وفي ذلك يقول في محاجة خصومه سنة ١٩٠٠: «يمكنني اليوم أن أقول أمام الملا كله أنه لا يستطيع إنسان في العالم أن يدعى أني خالفت مبدأ من مبادئ لحظة واحدة، مع تغير الظروف وتقلبات الأحوال، وموت الآمال عند الكثير من الرجال، ولا يوجد من يقول إنني عملت ما عملت طمعاً في عز أو ثروة، لأن الطامع فيها لا يقف موقفى، ولا يجاهد ضد الاحتلال، تحت سماء مصر، ولا يخاطب ضد المحتلين حتى في الوقت الذي كان أخى في قبضتهم يعاملونه بالذل والاستبداد وبذيقونه أنواع العذاب وصنوف البلاء ويهددونه بالموت والإعدام في كل آن».

لقد ضحى إذن بمنافعه وراحته ومصالحه الشخصية في سبيل حياة الجهاد التي اختارها لنفسه، ولم يتحول عنها طول حياته، كما ضحى بمصالح أقرب الناس إليه وأعزهم عليه. ذلك أول مظهر للتضحية في تاريخه، وهناك التضحية الكبرى التي تتضاءل بجانبها، كل تضحية، وهو بذله حياته وشبابه في سبيل مصر.

فلقد رأيت مما بيناه في الفصل الخامس عشر (ص ٢٧٢) كيف كانت جهوده أقوى مما تحتل صحته، ذكر المرحوم فريد بك أنه رافقه في سفره إلى باريس ولندن في شتاء سنة ١٩٠٦، لاختيار محررى جريدتي ليتندار اجبسيان وذى اجبسيان استندارد، وأن المرض عاوده أثناء تلك الرحلة، ولزم الفراش بباريس عدة أيام عادة فيها الدكتور روبان الطبيب الشهير ونصح له بحضور فريد بك بعدم إجهاد قواه في العمل، وأن يترفق بصحته فلا يحملها فوق طاقتها من العناء، ويترفق كذلك بأمته فلا يحرمها وجوده حتى يتم مهمته التي وقف حياته عليها، قال فريد بك: ولكن النصيحة أتت بعكس ما كنا ننتظره، فإنه رحمه الله لما أحس بضعف قواه واستعداده للأمراض الفتاكة أسرع الخطى وضاعف الجهود فآتم معدات اللوامين الفرنسي والإنجليزى، حتى ظهر في مارس سنة ١٩٠٧، واستمر يجاهد ويبدل الجهود الجبارة طيلة سنة ١٩٠٧، كما تراه مفصلاً في الفصل الثالث عشر والفصلين التاليين.

مضى الفقيد في جهاده لا يلوى على شيء، ولا يكثرث للأخطار التي تهدد حياته،

فكان كالبطل المجاهد في حومة الوغى، يرى الخطر مائلاً أمام عينيه، ومع ذلك لا يهاب الموت، ويتقدم الصفوف ويحجود بحياته في سبيل الوطن، وهذا لعمري أقصى درجات التضحية في الجهاد، فهو بحق باعث الحركة الوطنية ومحبيها، ثم هو شهيداً وأكبر وأعظم ضحية لها، وإنه ليجدر بنا أن ننقش على قبره هذا البيت من قصيدة شوقى في رثائه:

يا صَبَّ مصرِ ويا شهيد غرامها هذا ثرى مصرٍ فنم بأمان

* * *

الفصل الثاني والعشرون

نماذج من خطب الفقيد

رأينا أن نختم الكتاب بنماذج من خطب الفقيد، لتتكون منها صورة بارزة من حياته الخطائية، في مختلف مراحل جهاده، وقد اخترنا هذه النماذج من أربع من هذه الخطب: الأولى والثانية في إبان حياته السياسية سنة ١٨٩٦، والثانية سنة ١٩٠٢، في منتصف سنى جهاده، والثالثة سنة ١٩٠٧ في أوج مجده الوطنى.

١ - خطبته بالإسكندرية

يوم ٣ مارس سنة ١٨٩٦ (انظر ص ٧٨)

سادق وأبناء وطنى الأعزاء:

ما اقتربت من مدينتكم الزاهرة حتى شعرت من نفسى بارتياح زائد وانسراح خاص، لأننى عهدتها وأعهد لها مدينة الحياة الحقيقية ومهد الرجال المشهورين بالشجاعة والبراعة والإقدام، والمقابلة الودية التى قوبلت بها من كرمائها وساداتها قبل أن أقف بينكم الليلة خطيباً زدتنى حباً لها وميلاً لأهلها، وإنى أحمل كل ذلك الإكرام من أهل الإسكندرية على عظيم رغبتهم فى إعزاز مبدأ الوطنية الشريف لا على إكرام شخصى الضعيف.

ويسرنى أن أحادثكم اليوم فى شئون الوطن العزيز، هذا الوطن الذى تحبونه حباً مفرطاً، وتعملون لخيره وسعاده، وأرانى موفقاً لحصولى على هذه الفرصة النعمية التى أتبادل معكم فيها ما يختلج فى نفوسنا من الآمال والأمانى التى هى معنى الحياة والباعث القوى على العمل بجهد ونشاط.

ويلزمنى أن أقول لكم إنى قبل مبارحة القاهرة أخبرت بعض أصدقائى بأمر هذه الخطبة، فأشار علىّ فريق منهم بعدم إلقتها، معللين ذلك بقولهم «إنك إذا ذهبت إلى

الإسكندرية واجتمعت بأهلها وحادثتهم في مصائب مصر وآلامها ربما نتج عن ذلك شيء من هياج الأفكار، الأمر الذى لا تحمد عقباه لأنهم شديداً الوطنيين وأنت شديدها وقد تدعو شدة الشعور بالواجب إلى ما يتجاوز الحدود أحياناً» وزاد بعضهم على ذلك قوله: «ولربما انتهز خصومك وخصوم الوطن العزيز هذه الفرصة لإحداث ما يقلق ويضر لتلقى التبعة عندئذ على أهل الإسكندرية وعليك أيضاً»، فخالفتهم في رأى وجئت ثغركم الباسم معتمداً على حكمتكم، اعتمادى على همتكم وشجاعتكم، وإن أفضل صفة اتصف بها أهل الإسكندرية هى ولا غرو معرفة الواجب والشعور الصادق بحقيقة الحوادث، والواجب اليوم على المصريين كافة إنما هو التمسك بالصبر والاعتدال أكثر من ذى قبل.

وقد اتخذتم يا أبناء الإسكندرية في كل بلاد مصر مثلاً للهمة والحماسة، فلتكونوا كذلك مثلاً صادقاً للدعة والسكون والاعتدال لتصبحوا وتمسوا أساتذة لمصر كلها في تأدية الواجب نحو الوطن المحبوب.

ولقد أشاع عنكم بعض كثيرى الظنون أن غيرتكم وحميتكم يستعملان أحياناً ضد صالح البلاد، وأنكم تنفذون من حيث لا تشعرون مآرب ذوى الغايات بإحداث القلاقل، وكنت كلما أسمع مثل هذه الإشاعات أستغربها كل الاستغراب، ولى الحق فى ذلك الاستغراب، لأن الغيرة التى تستعمل فى غير موضعها تكون دوماً أضر من البلادة والحمول، فلذا أناديكم - وإن كنتم أعلم منى بالواجب - مناداة بحب لبلادكم ولمدنيتكم بنوع خاص، أن تنفوا باعتدالكم وسكوتكم تهمة من يرمونكم بحب الهياج والاضطراب.

ومثل مصر اليوم وهى على باب السعادة المقبلة مثل مريض قارب الشفاء ينصحه الطبيب بزيادة التحفظ وعدم التعرض للهواء لئلا يتركس بالعلة فتعود عليه بويل أشد من ويلها الأول، فلنحترس جميعاً معشر المصريين من التعرض إلى ما وراء تعرض الوطن نفسه إلى خطر عظيم.

وإن صفى التسامح والغفران اللتين اشتهرت بهما الأمة المصرية كانتا من أعظم الأسباب التى استمالت قلوب الأوروبيين نحوها، وجعلتهم يعتبرون مصر كقطعة أرض من أوطانهم فهم يقطنونها آمنين مطمئنين، متمتعين براحة البال والبعد عن البلبال، ولذا وجدنا منهم على اختلاف جنسياتهم ومللهم نصراء أصدقاء للمطالبة بحقوق مصر وتحقيق رغائب أبنائها، ويفرحنى كثيراً أن أرى اليوم من أكابر وأعظم القوم فيهم قد حضروا هذا

الاحتفال ولبوا الدعوة بلطف وتكرم، وهو ما يدلنا على اشتراكهم معنا في الإحساسات نحو هذه البلاد العزيزة.

وأول مدينة في مدائن القطر سكنها الأوروبيون ووجدوا من أهلها بشراً واثلاً ولا جرم مدينة الاسكندرية، ولكم الحق يا أهلها وأعز أبنائها أن تفتخروا بذلك أعظم الافتخار، فداوموا أيها الوطنيون الأعزاء على إكرام وفادة ضيوفكم ونزلائكم الذين يشتركون معكم في الإحساسات نحو هذا البلد الأمين، وليكن مبدؤنا دائماً «أحرار في بلادنا كرماء لضيوفنا».

وقد يفهم بعض الناس بالاعتدال الكف عن كل عمل يخدم البلاد ويسبب سعادتها، فتراهم مقصرين كل التقصير عن واجباتهم، وهؤلاء يخطئون الاعتقاد، لأن الاعتدال لا يفيد التهاون والإهمال، وما أجمل الاعتدال مع العمل على خدمة الأوطان. وإن في مصر فئة من الناس نسيت أن الأمل داعي العمل، فلبست ثياب اليأس وقضت بظنونها على مستقبل الوطن العزيز، وجعلت مهمتها في الأمة تثبيط الهمم وإقعاد العزائم، فلا تنادى في المحافل والأندية إلا بأنه ليس لمصر حظ في المستقبل من الحرية والسعادة الاجتماعية، وأن شعبها قد مات من زمن طويل وليس لمفكر عاقل أن يؤمل له مستقبلاً جديداً، وترى رجال هذه الفئة اليائسة يرمون كل رجل بالدفاع عن حقوق البلاد المقدسة بعدم الخبرة وقصر النظر.

وعندى أن الرجال اليائسين وإن كانوا أقل من القليل يضرون بلادهم أعظم ضرر بما يقولونه ويكررنه، إذ أن قتل العواطف الشريفة وإخماد نار الغيرة الوطنية هما ولا محالة أكبر جناية تجنى على الوطن وأهله، فليكن من واجباتنا أن نترك هؤلاء اليائسين في سفن يأسهم تصعدهم أمواج الأفكار وتهبطهم حتى تصل بهم إلى شاطئ الخير وبر الرفاهية فنذكرهم عندئذ بفساد مزاعمهم وخطأ آرائهم.

ولانتظنوا أيها الإخوان الأعزاء أن عملكم لخير بلادكم يقابل من الإنجليز بالازدراء والاحتقار، كلا ثم كلا، الانجليزى الذى يحتقر مصرىا يحب بلاده ويدافع عنها بصدق وإخلاص يكون محتقراً لنفسه ولقومه، لأنه هو وكل مواطنيه أول العاملين في الأمم على تقدم بلادهم، ولا يرضيهم أن تبقى سعيدة في داخلها فقط، بل يبذلون كل ما في وسعهم لاتساع نطاق مستعمراتها واستدرار الخير من مواردها وحدها لا لغيرها.

وإذا ولجت موضوع الوطنيين المصريين إزاء الإنجليز فأراني في حاجة لأن أستمحكم الإذن في التكلم عن مسألة الاحتلال وإبداء رأيي فيها بكل صراحة.

وليس من غرضي أن أطلع على الحكومة المحلية أو أنتقد على أعمالها فكلكم تعرفون مواضع الخلل في الإدارة ومواضع الكمال والانتظام، وبديهي أن نوايس الوجود قاضية بسوء إدارة كل مصلحة وطنية يتداخل في شئونها تداخلاً فعلياً رجال غرباء لا يفقهون لغة البلاد ولا يعرفون شيئاً من عوائد أهلها وأخلاقهم.

وليس غرضي كذلك أن أندد بحكومة جلالة الملكة أو بالأمة الإنكليزية، لأنني أترفع عن أن أدافع عن بلادى بالطن والسباب، فضلاً عما أحس به دائماً من وجوب احترام الشعب الإنكليزي، وإنما الذى أريد ذكره وإيضاحه هو أن الخلاف حقيقة، الخلاف بيننا معشر المصريين وبين بعض الإنكليز هو: هل زمن الجلاء عن مصر حان أو لم يحن، فمدول أوروبا ذوات المصالح فى مصر تقول معنا إن زمن الجلاء قد حان منذ أعوام، والمستر غلادستون زعيم الأحرار وأكبر سياسى انكلترا يقول ذلك القول بعينه غير خائف لوما أو تعنيفاً وبعض أبناء التاميز يقولون ضد ذلك إن زمن الجلاء لم يحن وإن مصر فى حاجة إلى وصى عليها.

وقد نرى بعض المتحزبين للاحتلال الأيدى - وهم ليسوا من الإنكليز والإنكليز لا يستطيعون أن يكونوا على رأيهم - يقابلون مطالبنا الشرعية بالسباب والشتائم، فهل يستطيعون اليوم أن يقولوا عن المستر غلادستون إنه عدو لبلاده كما يتهموننا بنكران الجميل؟

وبعيد عن ذهنى أنه يوجد على الأرض رجل انجليزى يجب وطنه حباً حقيقياً ويستطيع القول بأن انكلترا تريد وضع يدها على وادى النيل، فإن ذلك الأمر بل هذا الجزم العظيم مناقض كل المناقصة لمصلحة انكلترا نفسها ولشرفها العالى الشأن.

وإلا فهل يرضى أبناء انكلترا أن يستعمل شرفهم آلة دنيئة لامتلاك بلاد حرة واستعباد أمة حرة؟ وهل ترضى الأمة البريطانية الغيرة على مقامها واحترامها أن يقال عنها إنها لا شرف لها ولا احترام لكلمتها العلنية وعهودها الصريحة؟ إني لا أظن ذلك وأعتقد أنكم كلكم على رأيي.

وهل تسمى المروءة مروءة إذا كان معناها أن أمة أوروبية استغاثت بها أمير شرقي فأغاثته ونصرته، تم عملت ملكه واسترقاق أمته وشعبه؟

إذن فنقطة الخلاف الوحيدة بيننا وبين بعض الإنكليز هي أن زمن الجلاء على رأينا حان، وعلى رأيهم لم يحن إلى الآن، وعهد كل عاقل بالأمة الانجليزية أنها إذا وقفت على الحقيقة وأرشدت إلى الصواب كانت في مقدمة أمم أوروبا مطالبة بالجلاء.

وعسير على الأمة الانجليزية الوقوف على الحقيقة إلا إذا قام فيها خطباء من أفرادها ومن المصريين أنفسهم يبطلون ما تذيعه (التيمس) وأخواتها من ذوى الأغراض السافلة من أن الإنجليز لم يقوموا في مصر إلى الآن بالواجب عليهم، ولقد سألنا شيخ الأحرار غلادستون أن يكون لأبناء جنسه المرشد لأمته عن حقيقة مسألة مصر وعن ضرورة الجلاء، وأملنا أن يجيب طلبنا ويحقق أمنيتنا .

ولكن إرشاد الأمة الإنجليزية إلى ما ينتظره المصريون منها وما يعتقدونه في شرفها لا يكون إلا برجال من أبناء مصر يقومون وينادون في كل بلاد أوروبا بحقيقة أحوال مصر وأمانيتها ليزيدوا من أنصارها. ويكون للوطن المصرى من الأمم الأوروبية نصراء عند مطالبتة الأمة الإنجليزية بإجبار حكومتها على الجلاء.

ويكفينا لاستمالة الأمة الإنجليزية نحو مطالبنا الشرعية أن نقول لها بكل صراحة: لقد صار الشرقيون إلى ريب في احترامك لشرفك وسك في محافظتك على الوفاء بعهودك، فهل لك أن تطالبى بالجلاء عن مصر لتحقيقى للعالم كله بقاءك على عهدك الأول الشريف، ولقد غرر بك أيتها الأمة الخطيرة بعض ذوى الغايات وقالوا لك إن الأمن لا يستتب في مصر وإن الخديو لا يستطيع حكم بلاده برجاله، ليجبروك على الحكم بلزوم الاحتلال، فاعتقدى أن ذلك محض اختلاف وأن الأمن مستتب والأمة كلها مخلصه لأمرها محبة له.

وإلا فهل يرضى الإنجليز بأن يقال عنهم إنه ليس في إمكانهم إعادة الامن إلى ديار مصر بعد احتلالهم لها أربعة عشر عاماً؟

إذا قلنا ذلك للأمة الإنجليزية وعرفناها أننا لا نبغض الإنجليزى، بل نبغض المحتل من حيث هو محتل ، ولو كان أقرب الناس إلينا، لأننا أمة حية متمدنة نريد أن نحكم

أنفسنا بأنفسنا ولا نرضى أن نبقى قصراً تحت حكم وصى ننظر إلى تقدم الأمم الأخرى نظره الكتيب التعيس دون أن نستطيع محاسنها ومجاراتها، إذا قلنا لها ذلك وأسمعناها هذا الصوت «صوت الحق» كانت ولا ريب أول أمة قاضية على الاحتلال، آمرة حكومتها بالإسراع بالجللاء، لأن من شأن كل أمة متمدنة تمدناً عظيماً كالأمة الإنجليزية أن تحترم الشعوب المطالبة بحقوقها العارفة بواجباتها.

وإذا كان صالح مصر يقضى كما قلت لكم بوجوب وجود خطباء من أبنائها يطوفون العواصم والمدائن في أوروبا معلنين آراءهم مجاهرين بإحساساتهم مطالبين بحرية بلادهم فوجود خطباء مثلهم في مصر نفسها يرشدون الأمة إلى الخير ويحذرونها من الوقوع في الشر أصبح أمراً محتماً.

وغنى عن البيان أن الصادق في حب بلاده لا يعرف إلا عند الحاجة، والوطني لا يسمى وطنياً إلا إذا خدم وطنه في شقائه، أكثر من خدمته له في رفعة وهنائه.

ولا ريب عندي في أنكم كلكم تودون مثلي أن تكون مصر بلاداً حرة، منتشرة في سائر أرجائها من الإسكندرية إلى منابع النيل أنوار العلوم والمعارف، وتصبح كما كانت مهداً للفضائل والآداب، مشرقاً لشمس المدنية في بلاد الشرق، مرسحاً للتنافس في الصناعة والتجارة، مجعماً آمناً للأجانب ذوى المصالح فيها، طريقاً سهلاً للرائدين، لا ريب عندي في أنكم كلكم تحبون أن تنتسبوا لمصر إذ يكون هذا شأنها، يفتخر عندئذ كل منكم أن ينادى بأعلى صوته (أنا مصرى).

ولكن ألا تحبون كذلك «مصر» خيم عليها الشقاء وحل بها البلاء وسبقته الأمم وأصبحت بعد في مصاف الشعوب القاصرة، تنادىكم وأنتم حولها: «ألا فانصرونى يا أبنين، ألا فارفعوا شأنى بين الأمم واجعلوا لى مكاناً فسيحاً بين الشعوب المتقدمة الحية أجل! أجل! أحبونها ويجب عليكم أن تحبوها وتحبوا عليها كما يحب المرء على أمه الشف إذا اعتلت ويسعى في خدمتها ويبعث عن دوائها.

ولا يكن حبكم واقفاً عند حد الحب وحنانكم عند الحنان، بل ليتجاوزوا ذلك العمل لخيرها وإعلاء شأنها.

وثقوا أيها الوطنيون الأعزاء بأن المستقبل لكم ولها، فاعملوا لسعادتها وتذكروا

قول غمبتا الشهير «ليس المستقبل بمستعص على أحد»، نعم لنعمل لسعادة الحال والاستقبال، وننفذ ناموس الطبيعة لئلا نخرج أنفسنا من نوع الإنسان ذلك الناموس القاضى على كل فرد بالعمل حتى تستريح النفس فى السكينة والظلام.

ولقد كنت أحضر فى أوروبا مجتمعات يتردد عليها كثير من الغربيين ذوى الجنسيات المختلفة، فكان كل يفاخر القوم ببلاه وذويه، الأمر الأمريكانى بحرية أوطانه وشرف تاريخها وحسن نظامها وكبار رجالها، والفرنساوى بشهامه أبناء وطنه وفضل جنسه على النوع الإنسانى وحريه مبادئه وشرف تاريخ بلاده العظيم، والألمانى والإنجليزى وغيرهم كذلك، وأنا أنظر الجمع وأسمع الجميع وقلوبى فائض حزنا وفؤادى ممتلى كآبة وعينائى مغرورقتان بالدموع، وليس يجرى على لسانى غير ذكر مصائب مصر وآلامها، فهل لنا أن نفاخر بالأمم يوما من الأيام ببلادنا وأوطاننا؟ هل لنا أن نكون أمة حية قوية محترمة؟ إني أوئل ذلك، آمله من صميم فؤادى.

ومستحيل علينا أن نصل إلى السعادة التامة ونفوز برغائبنا الوطنية إلا إذا اتحدت كلمتنا واجتمعت قلوبنا على محبة البلاد بصدق وتجرد عن الشخصيات فلنتحد قلبا ولسانا، ولا يكن مثلنا مثل حائلة اشتعلت النار فى دارها وأفرادها متباغضون، فبدلا من أن يجتمعوا لإطفائها أخذوا يتنازعون ما أبقتة يد النار من المتاع، غير ناظرين إلى النار تصل إليهم فتحرقهم وتحرق متاعهم وتقضى على دارهم القضاء الأخير إذا لم تُزل الشقاق من بينهم ويجتمعوا على إطفائها.

وإن يوما تجتمع فيه قلوبنا على محبة البلاد وخدمتها وتتحد فيه كلمتنا يكون يوم تحقيق الآمال وعنوان سعادة الحال والاستقبال، ويحق لنا فيه أن تقف أمام الأمم كافة وننادى بأعلى صوتنا وبكل فخر (نحن بنو مصر الأحرار).

٢ - خطبته بالفرنسية في الاسكندرية
يوم ١٣ أبريل سنة ١٨٩٦ (انظر صفحة ٨٢)
(تعريب الخطبة)

أيها السيدات، أيها السادة.

إنى أقف بينكم متكلماً وانفعال نفسى عظيم، ولقد كان بودى أن أعتذر للذين شرفوني بدعوتي إلى إلقاء هذه الخطبة لو لم يكن أحساسى بالواجب على دعائى لإطاعة أمرهم والانصياع لرغبتهم؛ فجئت إلى هذه الحفلة وفؤادى منشراح لأتلى أخطب نخبة نزلاء الأوروبيين أولئك العاملين بالنشاط، الذين هم بيننا طليعة المدنية الغربية (تصفيق شديد^(١)).

ومما يزيدنى سروراً أنى واقف أمام جمعية أصدقاء لبلادى أوفياء لها، لم يقصدوا بمجيتهم هذه الليلة سماع خطيب بليغ بل جاءوا ليظهروا علامة ودهم لوطنى ضعيف ولمسألة مصر الشريفة الحققة.

أجل أيها السادة، يتكلم الإنسان أمامكم بكل ارتياح، وافتخار عن الأوطان ويدافع عن حقوقها المهضومة ويطلب لها مستقبلاً سعيداً، فإنكم كلكم تنسبون إلى أوطان شريفة حرة سعيدة، وتحبون هذه الأوطان وتعشقونها عشقاً صحيحاً ولا استطاعة لكم غير الموافقة للذين يحبون أوطانهم مثلكم (تصفيق متضاعف)

وإننا معشر المصريين نحب مصرنا الأسيفة بكل إخلاص، ولا نود لها شيئاً آخر غير يقظتها وسعادتها، ولكن من سوء الحظ يوجد فى هذا البلد طغمة من الرجال يطعنون أشد الطعن على الوطنيين، ويدعون مع ذلك أنهم المدافعون عن الاحتلال الإنجليزى، على أنهم لو كانوا حقيقة المدافعين عنه لحسبوا عاراً عليه وخجلاً، فإن انجلترا نفسها لا تستطيع أن تبغض أو تحتقر مصرياً وطنياً إذ من ضمن الأسباب التى تنتحلها لنفسها

(١) لم يتيسر فى غير هذه الخطبة معرفة المواضع التى صفق فيها بالضبط الحاضرون أو التى أظهروا فيها علامات الاستحيان.

للإقامة في مصر تربية المصريين، فهل من الجائز أن يكون المصريون حسنى التربية من غير أن يكونوا وطنيين محبين لبلادهم؟ كلا! (علامات استحسان).

ولقد كان أولئك الذين يدعون الدفاع عن الاحتلال الإنجليزي يزعمون أنهم أوقفوني إلى الأبد، إذ يظنون بسذاجة لا مثيل لها أن الإجحاف الذى لحق أخيراً بأحد إخواني^(٢) يضعف قواى أو يوهن عزيمتى أو يقلل مجاهدتى فى سبيل سعادة بلادى، فأخطأوا الظن لأننى بعيد عن أن أمل، وسأستمر بقدر استطاعتى فى المدافعة عن وطنى العزيز، سأستمر - ولا يوقفنى فى طريقى إلا الموت - فى وصف مصائب مصر وآلامها والمناذاة فى كل مكان بحقوقها المقدسة، والمطالبة بحريتها واستقلالها (تصفيق شديد متواتر).

وإننا نعلم أننا بدفاعنا عن مسألة بلادنا الشريفة وبتقديسنا لها نعرض أنفسنا للضرر والخطر، ولكن اعتقدوا جيداً أيها السادة أن همتنا لا تفرأ أبداً، لحق بنا ضرر أم لا (تصفيق واستحسان).

فليس هناك من شىء أجمل فى عين الوطنى من المجاهدة فى سبيل بلاده، فضلاً عن أن المجاهدة بالنسبة لنا ليست أمراً صعباً، إذ ضد من نجاهد نحن؟ أ ضد الأمة الإنجليزية؟ كلا ليس جهادنا ضدها، إنما هو ضد فريق من الناس يعملون لتأييد الاحتلال الإنجليزي فى مصر إلى الأبد قضاء لأغراض شخصية أو أملاً فى تحقيق مآرب ذاتية.

أجل! إننا نجاهد هذه الفئة التى أعضاؤها أعداء للحقيقة، وضدهم وحدهم نبذل كل قوانا فإنهم وحدهم الآثمون الحقيقيون فى مسألة مصر، فهم ينشرون فى كل مكان عن حالتها الأخبار الكاذبة ويخلقون كل يوم حججاً سافلة واهية لإطالة أمد الاحتلال البريطانى وهو الحمل الثقيل الذى لا يستطيع تحمله (تصفيق).

ومن سوء حظ أولئك المشهورين بالمبالغة فى الدفاع عن انجلترا أن أعمالهم توصلهم غالباً إلى نتائج مخالفة للغرض الذى يعملون له، لأنه كما قال حقاً فيكتور هوجو:

(٢) يشير الفقيه إلى اضطهاد الإنجليز شقيقه على فهمى كامل (بك) وكان وقتئذ ضابطاً بالجيش المصرى. (انظر ص ٨١).

للحقيقة والحرية مزية خاصة بهما، وهى أن ما يعمل ضدها وما يعمل لها يخدمها على السواء (تصفيق شديد).

أما فيما يختص بالأمة الإنجليزية فلا نستطيع إلا احترامها، ومهما وقع فإننا نحترمها دائماً، كما نحترم كل الأمم الأخرى، إذ أنه لا يصح بغض أية أمة ولا يقضى على شعب من الشعوب بخطأ بعض أفراد من أبنائه، وإننا نعلم حق العلم أنه إذا كانت الأمة الإنجليزية موافقة على الاحتلال راضية به، فذلك إنما هو لكونها جاهلة للحقيقة إحساس المصريين لأنها لو كانت تعلم إحساسنا لأظهرت عدم رضائها باحتلال ضار كهذا الاحتلال ولكانت ولا محالة قضت عليه (تصفيق) ولكن وأسفاه قد تساق الأمم غالباً في أجهل السبل على يد من تثق به أكثر من غيره!

ولئن قالوا ليس فى السياسة شيء من الشرف وإنها ليست شيئاً آخر غير الكذب والخيانة، فإننا لا نستطيع أن نتصور طرفة عين أن أمة بلغت من العظم والمدنية مبلغ الأمة الإنجليزية تجسر يوماً من الأيام على أن نخون علناً سريرتها وتحتقر أمام الناس شرفها (تصفيق شديد متواتر)، فإنها على نسق كل الأمم غيورة على كرامتها التى يهدرها ولا محالة أن تطيل الاحتلال الإنجليزي إلى أمد غير محدود.

وكل الذين يعرفون للشرف معنى يعتقدون مثل غامبتا «أن ليس هناك سياسة حقيقية فعلية مثمرة إذا اعتدت القوة ولو لزمن مؤقت سريع الزوال على المبادئ الراسخة للعدالة والإنسانية (تصفيق عظيم متواتر).

وإن هذه السياسة المؤسسة على مبادئ العدالة والإنسانية هى السياسة الحقيقية بالأمة الإنجليزية، هذه الأمة التى لا تزال محترمة معتبرة عند جماعة مقهورين مثلنا، عند الذين يريد بعض سواها أن يضحوهم هم ومستقبلهم فى سبيل نجاح آمالهم الباطلة.

لقد رأينا من عام ١٨٨٢ أشد المناظر وقعاً على النفوس، رأينا أكثر من ٦٠ ألف مصرى ماتوا فى التجريدات التعيسة لأعوام ١٨٨٣ و١٨٨٤ و١٨٨٥، رأينا تقهقر التعليم والتربية، رأينا انحطاط الآداب العامة وفقر الفلاح والوطن نفسه وكم رأينا من أسياء مؤلة ومناظر مفتنة للأكباد، ومع ذلك كله قد حافظنا على سكينتنا وبقيت ثقتنا عظيمة بالأمة الإنجليزية وبوعودها وبشرفها (تصفيق طويل).

واليوم يسيئون مقابلة تساهلنا وصبرنا وسكينتنا، ويخاطرون بإلقاء البلاد وأبنائها في هاوية.

أجل أيها السادة يخاطرون بإلقائنا في أعماق الهاويات وأخطرها، إنى أريد أن أتكلم على حملة السودان.

أما من جهة استرجاع السودان فكلنا نريده وكلنا يجاهر بذلك علنا كل يوم فإننا نعتقد اعتقاداً صحيحاً أن مصر بدون السودان تكون أحقر أرض وأفقر بقعة في الدنيا، وبطلبنا جلاء الجنود الإنجليزية عن بلادنا لا نطلب فقط تحرير مصر من الإسكندرية إلى وادى حلفا بل نطلب تحرير كل وادى النيل لا يمكن أن يحكم النيل كله إلا بحكومة واحدة (علامة استحسان).

وإننا نود من صميم أفئدتنا أن نسترد المقاطعات السودانية التي هى لبلادنا روحها نفسها، وإننى قد أعلنت من جهتي هذا الإحساس عدة مرات، وقلت منذ خمسة أسابيع لأبناء وطنى من أهل الإسكندرية إن أعظم واجب على سمو الخديو عباس باشا هو إعادة أملاك مصر المفقودة إليها، وأنا أعيد هذه الليلة ما قلته وما أقوله دائماً، أبداً، ولكننا ما أردنا قط ولا نريد أبداً أن نسترجع السودان تحت قيادة الإنجليز (تصفيق شديد).

فإن وجود الإنجليز على رأس جيشنا يكفى وحده لعدم نجاح الحملة، يكفى لتحقيق مصيبة عظيمة، وبوجودهم على رأس الجيش يحفرون بيننا وبين السودانيين هوة من أعماق الحفر تؤخر لزمن مديد صلحنا معهم، أولئك الذين كانوا من رعايا الخديوية المصرية.

وفضلاً عن ذلك فإن الذى يجعل المصريين ناقلين من حملة دنقلة إنما هو سوء المقصد الذى يبدو عند كثير من رجال انجلترا السياسيين عندما تتكلم الدول بشأن الجلاء عن مصر، فإننا لا ننكر هذه الحملة فقط لكونها داعية لتعريض كل جنودنا لخطر عظيم، وأن من إحدى نتائجها التى لسوء الحظ تبدو لنا مؤكدة إنشاء جيش جديد وجعل العساكر الإنجليزية تحتل مصر كلها فى الحدود كما فى المدائن. ولكننا ننكر هذه الحملة بنوع خاص لأنها تؤخر لزمن طويل تحرير بلادنا (تصفيق شديد).

أجل أيها السادة، إنها تؤخر تحرير بلادنا وهو التحرير الذى نتمناه من كل قلوبنا والذى طالما وعدنا به.

ذلك لأن انجلترا قد كشفت بيدها الغطاء عن مقصدها، وليس هذا من الوقت الحاضر فقط، بل من سنة ١٨٨٧ عندما أراد السير دورمندوولف أن يعقد مع جلالة السلطان اتفاقية المشهورة، فإن جملة من المادة الخامسة كانت تشير إلى ذلك بالعبارة الآتية:

«إذا ظهر في ذلك الوقت - يشير إلى الوقت الذى عين للجلاء أى عام ١٨٩٠ - خطر داخل مصر أو خارجها، وكان ذلك الخطر يستوجب تأجيل الجلاء تنسحب الجنود الإنجليزية من مصر بعد زوال ذلك الخطر».

فيفهم إذن من اتفاقية وولف أنه كان يخشى ظهور خطر ما في وقت الجلاء وبعبارة أخرى كان في الحسبان أمر مسألة السودان وما يجرى بيننا اليوم، إذ أن خلق الاضطرابات وإيجاد الأخطار ليسا بالنسبة للسياسة الإنجليزية إلا أقل ما تنتجه يد التصنيع (تصفيق مستمر).

وإذا كانت انجلترا تريد بصدق نية وكرم أخلاق أن ترد السودان إلى مصر فكان يكفيها لبلوغ هذه الغاية أن تنجلى عن القطر، فإن الجلاء وحده يعيد لنا السودان. لماذا بقى السودانيون مصريين على عصيانهم ضد مصر؟ لماذا لا يقبلون أى اتفاق معنا؟ لا ينكر أحد في العالم أن وجود الإنجليزية في مصر هو الذى جعلهم بهذه الحالة (علامات استحسان).

(وبعد أن فند الخطيب الحجج التى يتذرع بها أنصار الاحتلال لبقائه، رد على تهمة التعصب الدينى المزعوم للمصريين قال):

أجل لتكلم قليلا عن هذا التعصب الخيالى الذى يقول أعداؤنا إنه في نفوسنا، إن أعداء مصر يريدون أن يمثلونا أمام أوروبا بهيئة قوم متوحشين مستعدين لإفناء كل أوروبى ساكن بلادنا متى رحلت العساكر الإنجليزية عنا، لقد تطرف في هذا الادعاء أولئك الأعداء، فأرادوا أن يغشوكم أنتم أنفسكم ويسخروا من سلامة نيتكم، حيث يكررون أمامكم في الجرائد وفي كل مكان هذه الأكاذيب وهذه الوشائيات، كيف ذلك أينجاسرون على أن يقولوا أمامكم هذه الأقوال أنتم يا أوفى أصدقاء مصر وأعز ضيوفها؟ كيف يستطيعون أن يغشوكم بدناءة كهذه عن صفات أمة مودتها لكم علانية؟

أمة قابلتكم - ونقول ذلك بأعظم فخار - بأوسع كرم وسخاء، إن القول بتعصبنا إنما هو أدناً أكذوبة.

الأمة المصرية متعصبة ! وامصيتها ! أما ترون بأنفسكم أيها السادة أنه إذا كانت في العالم أمة صفتها الخصوصية اللطف والوداعة فإنما هي ولا شك الأمة المصرية، فإن الكثير من الأوروبيين يعيشون بأعظم سكينه في القرى مختلطين اختلاطاً دائماً مع الفلاحين، أى مع أكثر الناس تمسكاً بالدين، والبعض منها يتاجرون في تجارتي الربا والخمور المحرمتين في الدين الإسلامي، كل ذلك مع ما لهم مع الفلاحين من حسن العلائق، فهل هذا من التعصب؟

هل احتجتم مرة من المرات إلى عضد عسكري انجليزي ضد مصرى ما؟ هل يستطيع خصومنا أنت يثبتوا أن جيش الاحتلال يحميكم ضدنا؟ وأن وجود العساكر الإنجليزية ضرورى لسلامة حياتكم بيننا؟ كلا. أيها السادة، كلا؟ (تصفيق شديد جداً).

ليفتش أولئك الذين يتهموننا بالتعصب في كل تاريخنا، وليجتوا إذا كان الأوروبي في زمن من الأزمان أسيتت معاملته، من الجائز أن يذكرنا الخصوم بالذكرى التعيسة للثورة العسكرية المشثومة التي كانت سبباً في مصائب عديدة، ولكن كل رجل عاقل عادل يقول معنا إن تجاوز الحدود يقع كثيراً في المظاهرات الأهلية الكبيرة، والدليل على ذلك الثورة الفرنسية، ولقد حصلت في كل البلاد اضطرابات وهي حاصلة الآن وتحصل في المستقبل وفضلاً عن ذلك فإن التاريخ سيوضح لنا إذا لم تكن هذه الاضطرابات حدثت بأعمال رجال كان لهم قصد مخصوص (تصفيق).

ولماذا نذهب للبحث في التاريخ برهاناً على تسامحنا الدينى؟ أليس أمام أعينكم اليوم أسطع البراهين على هذا التسامح الدينى الجميل، أتظنون أنه إذا كانت أمتنا متعصبة، أما كانت تنتهز الآن فرصة غياب كل قوة عسكرية ذات شأن لكى تقوم وتحدث أى اضطراب؟ أتظنون أنه إذا كانت الأمة المصرية متعصبة، هل كانت تسمح أبداً لأبنائها أن يذهبوا لمحاربة أمة أشد تمسكاً بالإسلام منها؟ أليس الذين يدعون أننا متعصبون في الدين يظهرون أنفسهم بمظهر السخرية عندما يقولون كذلك إن الأمة المصرية يزداد تعلقها بالاحتلال؟ كيف إذن تكون الأمة في آن واحد متعصبة في الدين ومحبة للانجليز (تصفيق عظيم جداً).

إن لأعدائنا مقصدين من القول بأننا متعصبون في الدين، إهاجة الأمة، وإلقاء بذور الشقاق بين الأوروبيين والمصريين، ولكن من حسن حظ مصر أن الأمة محافظة على السكينة عارفة بقيمة الاعتدال الديني وحسن معاملة الأوروبيين (تصفيق).

فلقد تعارفت أوروبا ومصر منذ قرن وأحبنا بعضها فاعتبرت أوروبا مصر قطعة منها - قال ذلك وأحسن القول الخديو اسماعيل - ومصر اعتبرت كذلك وجود الأوروبيين بيننا كضمانة للتقدم والرفاهية (تصفيق طويل).

وإنا نعلم جيداً أيها السادة أنكم أحسن نصراء الجلاء، لأنه من جهة موافق للعدالة والشرف الدولي، ومن جهة أخرى لأن مصالحكم قاضية به، أجل إن من صالح الأوروبيين النازلين في مصر أن يتحقق الجلاء لأنه إذا صارت انجلترا مالكة لمصر تصير حياة الأوروبيين على شواطئ وادى النيل من الأمور المستحيلة، فانكم هنا وكلاء المدينة الأوروبية في العلوم والفنون، كما أنكم وكلاؤها في التجارة والصناعة (استحسان عام)، واليوم الذى تصير فيها انجلترا صاحبة مصر تضع يدها على كل شيء غير تاركة شيئاً ما لأحد وتدعى عندئذ أنها الوكيله الوحيدة للمدينة أمام وادى النيل.

إننا معتقدون كل الاعتقاد أن اليوم قريب حيث نترك وراءنا ماضياً مملوءاً بالحوادث لنسير سواء ويدنا في يدكم على طريق التقدم نحو أسطع مستقبل (تصفيق عظيم).

ومتى تخلصنا من هذا النظام الإدارى الذى وجهته فائدة بريطانيا العظمى وخرجنا من هذا الشتاء الطويل الذى استمر أربعة عشر عاماً والذى كاد يمت أعضاؤنا نعيد السير ثانياً واثقين من حقنا ومن عطف الشعوب كافة وعدالتها (تصفيق شديد).

وفى ذلك اليوم يكون تقدم مصر باهراً.

ومتى تخلصت التجارة من الملل الذى يسببه لها الاحتلال الإنجليزي فستفتح لنا ولكم آفاقاً ذهبية (تصفيق).

ومتى تخلصت الصناعة من العوائق التى يخلقها لها الإنجليز فى الجمارك لغاياتهم فسترقى الصناعة الأهلية وتعود فائدة رقيها على أبناء مصر وعلى ضيوف مصر (تصفيق شديد).

عندئذ يعقب الأزمات الكثيرة المتوالية السلام، وتعقب الريب والشكوك الثقة،
ويعقب الموت الحياة (تصفيق متواتر).

فلنتمن جميعاً أيها السادة تحريراً عاجلاً لوادى النيل وسعادة أبدية لهذه الأرض
العزيزة، أرض الفراعنة الأجداد (تصفيق شديد متواصل وتهليل عظيم)

LA QUESTION D'ÉGYPTÉ

CONFÉRENCE

FAITE A ALEXANDRIE

LE LUNDI 13 AVRIL 1896

PAR

MOUSTAFA KAMEL

ALEXANDRIE

TYPO.-LITHOGRAPHIE CENTRALE, I. DELLA ROCCA

1896

عنوان الرسالة التي طبعت فيها خطبة مصطفى كامل
بالاسكندرية يوم ١٣ أبريل سنة ١٨٩٦^(٣)

(٣) من وثائق المرحوم الدكتور صادق رمضان. وقد تلقينا أصل الرسالة من حفيده النقيب جعفر
الصادق رمضان. وكان الدكتور صادق رمضان من أصدقاء وأنصار الزعيمين مصطفى كامل ومحمد فريد.

٣ - خطبته في العيد المئني لولاية محمد على

٢١ مايو سنة ١٩٠٢ (انظر صفحة ١٦٧)

عمل محمد على وواجبات المصريين نحو وطنهم

سادق وأبناء وطني الأعزاء

إني إذا وقفت الليلة أمامكم لأذكركم بمجد مضي وعظمة خلت، وأحيى معكم أكبر تذكاري في حياة مصر والمصريين، فإني أعلم أنكم جئتم مرتاحين لسماع هذا الخطاب، وأنكم ترون مثلي أن خير احتفال يقام لأكبر عامل من عمال المجد المصري، هو المقارنة بين أيامه وأيامنا، وأعماله وأعمالنا، واستنباط عبر التاريخ الناجمة، وعظاته البالغة، وتمثيل الوطن في مجده وعظمته وإظهاره للعيون والأبصار على حقيقة الحالة الحاضرة، أسيفاً كثيباً حزيناً، مرتدياً ثياب الحداد، باكياً على أيام كان فيها حامل الشرف والفخر بين الممالك والأقطار، أي حال مصر في هذا اليوم بعد مرور مائة عام هجرية على الحادث الخطير والأمر العظيم الكبير، على اجتماع الأمة واتفاقها حول رجل واحد واختيارها له أميراً عليها يدبر شئوننا ويرفع شأونا ويعلى مقامها، أن حال حالها وأي موقف موقفها وهي التي ملأت الدنيا دويًا ونافست أقوى الممالك في جلالها، ثم انحدرت انحدار السيل من قمة ذلك الموقف العالي حتى هوت إلى هاوية ذل وانحطاط وصارت مثالا للمسكنة والهوان!

صبراً أيها الوطن المحبوب على بلواك! فما يذم بنوك اليوم إلا لينشدوا أكبر العصور وأجل الأيام، ويجمعوا أمرهم بينهم على إعادتها بالجد والعمل والوفاق والوثام، صبراً أيها الوطن العزيز صبراً! فقد ناجت الضمائر وتفاهمت النفوس والخواطر، وشعر كل مصري بأنه الوارث لأفضل الأوطان وأعز البلدان.

صبراً صبراً! فمن يرى ذلك الظل الممدود، ظل مريسة العائلة الحاكمة (محمد على الكبير) ويبصر بعين بصيرته روحه الطاهرة ترفرف فوق الرؤس ويسمع صوته العالي يذكر المصريين بأقدس الواجبات نحو الوطن، وأهله، وينظر بعين الحقيقة إلى يده القادرة العاملة، مشيرة إلى سبيل الفلاح والرقى، من ذا الذي يرى ويبصر ويسمع ذلك

ولا يعتبر؟ من ذا الذى ينتسب بدمه أو بماله أو بعلمه إلى ذلك الرجل العظيم ولا تصغر نفسه فى عينه إذا رآها نفس رجل دون الرجال؟

من ذا الذى يذكر منا مجد مصر فى عهد ذلك الأمير ولا يذكر أنه مسئول عن زواله مطالب باسترداده؟

أسمع المعارضين يقولون: عجباً عجباً! يؤمل الخطيب أن تنال مصر فى حاضر الأيام أو فى مستقبلها ما نالت فى غابرها، وتلبس من جديد ذلك الثوب الباهر الفاخر الذى حسدتها عليه الليالى والحوادث وسلبته منها يد القدر والانتقام؟

أجل أيها السادة! إن للمصرى أن يؤمل لبلاده مجداً كمجدها الماضى وعزاً وسؤداً وجلالاً، كيف لا وحياة (محمد على) وأعماله كلها دروس ترشد المصريين إلى أن تاج المجد لا يوضع إلا على رأس العامل المجتهد، وأن رايات الفخار لا تنال إلا بالعمل والجهاد، وأن أمة فتحت البلاد والأمصار يوم كانت لا تتجاوز ثلث عددها اليوم قادرة على بلوغ غاية العز والرفاهية ونيل أسمى ما يرام من الحضارة والعمران.

كيف سار (محمد على) بمصر وكيف انقذها من مهاوى الهلاك، وكيف أخرجها من عالم الظلمات إلى النور، وكيف فتح بها وضرب وغلب وكيف ساد ولم يسد وكيف ملأ من جنودها الديار واخضع لسلطانها البحار والأنهار، وكيف رفع ذكرها إلى أعلى منار وجعلها عاصمة الشرق ومصدر الأنوار، وكيف أبهج هذا الثغر بتزاحم الجوارى فى ثغره، وعمم العامل والمصانع فى المدائن، والقرى ونشر المدارس والمكاتب فى أنحاء البلاد، وأخرج من أبنائها نجوم علم يتهدى بهم ولا يضل بنورهم؟

كيف وفق هذا الرجل العظيم لهذه العظائم؟ كيف أباد المفسدين والظالمين وجمع القطر تحت لواء واحد وكان الف قطر فى وطن واحد؟ هل استعان بغير المصرى على تحقيق غاياته أم استعار أمة من حديد ورجالا من صلب وأرواحا شبت بين الموت والنار حتى أوتى ذلك الجلال ونال من العظمة ما نال؟

كلا! لم يصل إلى ذروة المعالى وأقصى غايات الرجال إلا بعقلك وبأسك أيها المصرى العزيز، فسلاماً وألف مرة سلاماً على هذا العزم المقبور وهذه الهمة المدفونة، سلاماً على من نسى نفسه بعد أن أنسى العالم كل إنسان سواه.

سلمت الأمة المصرية أمرها لمحمد على والبلاد ممزقة بين الممالك يذيقونها أنواع العذاب والنكال، والشرع في أيديهم شرع الجور والاعتساف، والقانون في قبضتهم قانون الظلم والاستبداد، والبلاد منقسمة على نفسها. اسمها مصر وهى ألف قطعة وقطعة، لا جامعة بين أهلها ولا رابطة بين بنيتها، ولا راحة ولا نعيم ولا حرية ولا عمل! تولاهما الرجل العظيم وهى عليه ضئيلة لا حراك بها، فقطع دابر المفسدين والأشرار وأزال دولة الممالك كما يزول الغبار، وانقضت تلك السلطة المربعة التى قوضت أركان الدين والعقيدة وهدمت بنيان الوطن والأمة وما تركت فضيلة حتى جنت عليها ولا رذيلة حتى مجدتها، انقضت وكأنها ظل زائل أو سحابة صيف لم تدم إلا قليلا، انقضت والعالم بين مصدق ومكذب يتساءل كيف أتيج لرجل واحد أن يحول مجرى الليالى والأيام ويغير تيار الحادثات العظام؟

مضت أيام الممالك ووقف (محمد على) ناظراً إلى هذه الأمة ليرى أى أمر تقدر عليه وأى عمل تستطيع، فرآها بعد عهد الشقاء وزمن البلاء وأيام المحن والفتن قادرة على القيام بأعظم الأعمال، فيها من روح الحياة وقوة النهوض ما يزحزح الجبال الراسيات وتخر أمامه الشم الثابتات، فجند من أهلها الجند وأى جند جند؟ جند الغزاة الفاتحين حملة النصر والفخار، جند من المصريين قوما لا تراهم أمة حتى تسلم وتستسلم، جند من أعلوا مكانته ورفعوا رايته وجعلوا اسم مصر فى كافة الأرجاء والآفاق عنوانا للمجد الرفيع والشرف الصحيح.

أخرج من أولئك الفلاحين الذين طالما تصرفت فيهم الكوارث كما شاءت أبطالا وشجعانا اهتزت الأرض تحت أقدامهم إجلالا وإعظاماً، وعجزت جيوش العالم عن مجاراتهم ومناظرتهم، بعث (محمد على) من السكينة عزيمة، ومن السكون همة وإقداماً، وسار جيشه من مكان إلى مكان حاملا لواء الظفر والغلبة، فائزاً فى كل بقعة بالنصر والفخر، فما هذه الروح العجيبة التى نقلت بنى مصر من حال إلى حال حتى صار الجريح يأبى أن يغيب عن ميادين القتال، والطفل ولوعا بمنظر الحرب والنزال؟ ما هذا التغير الفجائى الذى اندهش لآثاره العالم طراً؟ وأى سر جعل الأمة المهضومة الحقوق المسلوقة الإرادة أمة فتح وغزو وفوز ونصر؟

السّر فى هذا الانقلاب وذلك التغير أن الرجل العظيم الذى تولى أمر مصر أدرك

بواسع عقله أن في أمته كنوزاً من الشهامة والذكاء مدفونة فكشف عنها الغطاء وأظهرها للعالمين ساطعة بهية تخطف الأبصار، السر في ظهور المصريين على مسرح العالم بمظهر الفاتحين القادرين أن (محمد على) لم يترك لليأس سلطاناً على نفسه ولم يقف في طريقه لأول عائق حاول منعه عن العمل، بل اجتاز المصاعب والعقبات بعزيمة ماضية وثبات دونه الحديد قوة وبأساً.

اجتاز المصاعب ولم يرضه أن تكون مصر قوية في البر ضعيفة في البحر فوهبها أسطولا ضخماً لم يمس على إنشائه وتكوينه أكثر من أربع سنوات، وهبها أسطولا كان في الصف الأول من أساطيل العالم تباهى به الاسكندرية تغور الأرض وهو يباهى بها وبوادي النيل الدنيا ومن عليها.

كان الغربيون إذا جاءوا مصر زائرين يقفون أمام هذا الأسطول حائرين مندهشين^(٤) بهرتهم عظيمة مصر وارتقاؤها سلم المعالي في قليل من الأعوام

ما عساي أقول اليوم عن جيش مصر وأسطولها، ولو نقلت إليكم كتابات المنشئين والمؤرخين، وآراء جماعات الكتاب عنها لخلتم هذا الوطن غير ذلك الوطن ومصر غير مصر، ولظننتم أن حادثاً استثنائياً محاً أمة عادها الزمان فلم يترك لها إرادة ولم يلبسها غير لباس الوهن والاستسلام.

رددوا الطرف معاصر المصريين في صحف التاريخ، تروا أن مصر لم تكن ميداناً للجنود والبحارة الممثلين لرفعة قدرها ليس إلا، بل تبدو لكم مصر المحبوبة فوق ذلك في مصاف الأمم الصناعية ذات الشأن الأول، تبدو لكم المدائن والقرى مزدهمة بالصناع والعمال يحيون أطيب حياة ويخدمون الأوطان أشرف خدمة، تبدو لكم بولاق والخرنفس وشبرا وقلوب وشبين والمحلة الكبرى وزفتى وميت غمر وفوه ومنوف وإبيار والأشمونيين والمنصورة ودمياط ودمهور ورشيد والاسكندرية والروضة والجيزة وبنى سويف والمنيا وأسيوط وأبو تيج وفرشوط وملوى ومنفلوط والقشن وطهطا وجرجا وقنا ميداناً للمعامل والمصانع والورش على اختلاقها. وتبدو لكم بحليها وحللها زاهرة عامرة تسعد مصر

(٤) انظر تأييداً لذلك ص ٣٣٠.

والمصريين وتكفى البلاد حاجاتها وتوفر لأهلها ثروتهم ولا تعطى الأجنبي من خيراتها إلا بمقدار.

ارجعوا البصر كرة أخرى إلى مصر قبل عهد (محمد على) وقارنوا بين حالها في ذلك الحين وما صار إليه في عهده، تجدوا أرضاً بلقماً تحولت إلى رياض وجنان وفضاء واسعاً صار فيه الألوف والملايين يحراثون الأرض ويزرعون ويستثمرون وشقاء تولى ونعيها أقام، وفوضى زالت وأمننا استتب، وزراعات جديدة دخلت إلى البلاد فأحييتها وأثمت ثروتها وملأت نواحيها رغداً وسعداً.

ومن ذا الذى يستطيع أن يقف أمام هذه الأمة موقف المحقق المدقق وينكر على (محمد على) فضله في إحياء أراضى القطر ونقل زراعة القطن إليها وأياديه البيضاء على كل من يعيش من الزراعة ويعكف عليها؟ من ذا الذى ينكر إصلاحاته العديدة فى الري، والقناطر البديعة التى أقامها والمصارف التى أنشأها والمشروعات التى لا تزال قاعدة لكل إصلاح؟ من ذا الذى يحارب الحقيقة والتاريخ ليتجاهل أن مصر تحبى اليوم من ثمرات أعمال (محمد على) عشرات الملايين من الجنيهات وأنه صاحب الفضل الأكبر على كل فرد من أهلها والنزلاء المستوطنين بها.

محال أن تخرج مصر واحداً من أبنائها يأتى على الحقيقة والوطنية إعلان فضل (محمد على) والاعتراف بأعماله الجسام وأفعاله العظام، ومحال أن ينسى مصرى تربي فى مهد العلم والأدب إحسان هذا الأب الكبير والمحسن البار العظيم، وهو الذى تعلم القراءة والكتابة بعد الأربعين ليكون خير قدوة للمصريين، وهو الذى فتح المدارس والمكاتب وملأ الديار نوراً وعرفانا، وتولى تربية صغار الفلاحين فبهر العالم بفرط ذكائهم وعظيم إستعدادهم للتعلم والانتقال من شأن إلى شأن.

دعوا الصانع والمزارع، واسألوا كل متعلم فى مصر: ماذا كان يكون حالك لو لم يعلم (محمد على) أباك من قبل؟ أما كنت تكون فى ظلمات الجهالة بعيداً عن مشارق النور والحياة والوجود؟

أجل، إن كل مصرى شب وتعلم وتهذب وعرف أن حياة الفكر والجد هى الحياة الصحيحة وأدرك أن أسمى الهبات هبة العقل وأن أجمل حلية لهذه الهبة الغالية تثقيفها

بالعلوم والمعارف، مدين لمؤسس العائلة الخديوية بما هو فيه من نعمة ونعيم وإنه لخليق بكل مصرى نال العلم بفضل (محمد على) أن ينتسب إليه بالروح والوجدان إنتساب ينيه وذويه إليه ويسلك السبيل الذى وجه الهمم والعزائم إليه ليبلغ بالوطن والبلاد الشال الأولى والمقام المحمود.

أيها السادة :

مهما بحث الباحث فى حياة (محمد على) ومهما حكم على عصره فإنه لا يستطيع إلا الإعتراف بأنه أحاط مصر بسور من القوة والرهبة، ورمى إلى إنشاء حكومة منتظمة فيها تدبير أمورها على قواعد راسخة وأصول ثابتة، وجمع شملها فبعد أن كانت مفرقة موزعة على الممالك يتصرف كل واحد منهم فى الأموال والأرواح والأعراض كما يشاء وتشاء الأهواء صارت وطناً واحداً لأمة واحدة يجمعها لواء واحد تحت سيادة أمير عظيم لا يذكر إسمه إلا مقروناً بالاحترام والإعظام.

ومهما اختلف الناس فى اعتبار نتائج أعمال (محمد على) فلا مرأى فى أنه وهب مصر عقلاً مديراً وقلباً شاعراً وساعداً شديداً ومجداً تليداً، وأنه وهب المصريين وطناً وأمة وحكومة ولساناً، وطبع على قلوبهم وأفندتهم محبة الوطن والشهامة والإقدام وحبب إليهم الفتح والنصر ورفع الراية المصرية على كل صقع ومكان.

انظروا معاشر المصريين إلى سياسته فى حكومته تجدها قائمة على مبادئ ثلاثة لا تدوم دولة بغيرها ولا تحيا بملكة بغير إحيائها: وهى أولاً حماية الوطن من اعتداء الأجنبى وسلطته، نانبا ترقية الجيش المصرى إلى أسمى الوظائف وترشيحه إلى إستلام مقاليد الأمور حتى لا تحتاج البلاد لأجنبى يزاحم بنيتها، وتدريب المصريين على كل عمل وصناعة حتى تحفظ الثروة الأهلية فى البلاد ويزداد الوطن عزاً ورغداً ونعيماً، ثالثاً الامتناع عن الدين واجتنابه كل الاجتناب.

بأى قلب أم بأى ضمير أم بأى لسان أحدثكم عن حماية الوطن وصيانتته ومنع إعتداء الأجنبى على ربوعه وصدده عن منازلها، ومصر اليوم تمثل الاستسلام للإنجليزى والرضوخ لسلطته، والامتنال لإرادته؛ وهى هى التى ردته عن الديار تحت إمارة (محمد على) وفى ظل رايته، وقالت له: مكانك أيها المهاجم! مكانك أيها الداخل! مكانك أيها المزاحم، فى أمة

حية تأبى الضيم والهوان ولا تدرك للحياة معنى بغير الحرية والاستقلال!

بأى قلب أم بأى ضمير أم بأى لسان أحدثكم اليوم معاشر المصريين عن حماية آبائنا للوطن ودفاعهم عنه ونضالهم عن حوزته أيام (محمد على الكبير) وقد حاولت إنجلترا أن تقضى على هذا الملك الجديد وهذه الدولة الناشئة وتزيل من سماء المجد والإقبال هذه الشمس المشرقة فأراها يومئذ بنو مصر أى أمة هم، وأراها (محمد على) أى أمير هوا فتركت الثغور والبلاد، آسفة على فشلها، معجبة بهذا المجد الباهر والعزم القاهر والوطنية الحقة والهمة الحديدية.

اعجبوا أيها المصريون لهذا الحادث الخطير ولتصرفات الليالى كيف أفرحت مصر وأبكتها فى يوم واحد، أفرحتها فى يوم ١٤ سبتمبر من عام ١٨٠٧ حينما جلت الجنود الإنجليزية عن ثغر الإسكندرية بعد احتلال دام ستة أشهر، وأبكتها فى يوم ١٤ سبتمبر من عام ١٨٨٢ حينما دخلت الجنود الإنجليزية عاصمة الديار المصرية.

كوفئت مصر فى يوم بأكبر مجد وأشرف فخار، وعوقبت فى مثل ذلك اليوم بعد خمسة وسبعين عاماً باحتلال جرّ عليها العار والشنار، كوفئت لأنها صانت الوطن والديار، وعوقبت لأنها سلمت البلاد وانشقت على نفسها ونسيت تاريخها وتناست مطامع أعدائها وامتلأت نفوس دعاة الثورة فيها بالأنانية والأغراض الذاتية والآمال الشخصية، فذهب الوطن فريسة. وقُدِّمت الأمة على هيكل الدنايا ضحية، وتولى المجد القديم والعز التليد وأقام الذل والهوان.

هذه عبرة العبر فى التاريخ وموعظة المواعظ، فالتقطوها معاشر المصريين الراغبين فى خير البلاد ورفعتها، واذكروها فى كل وقت وأن، اذكروها، وتأملوا فى تاريخ ذلك الرجل العظيم، تأملوا كيف ينتدب علماء الغرب وحكماءه وسادات أدبائه وفضلائه ليعلموا المصريين العلوم والصناعات، حتى إذا صاروا من رجالها وتحلّوا بجماها سلمهم مقاليد الأعمال وكافأ المعلمين الغربيين على عملهم وزودهم بالشكر والإحسان.

رأى محمد على أن الدين (يفتح الدال) أساس الاستعباد، وأن أسمى المبادئ الجديدة بالاتباع مبدأ القائلين «أدين تستعبد واستدن تُستعبد»، فلم يستدن لأنه خطب السيادة ولم يخطب الاستعباد، وطلب القوة ولم يطلب الضعف والمذلة.

حقاً إنها لآية الآيات ومعجزة المعجزات، كيف يشيد (محمد على) المدارس والمعامل ويقيم الأبنية للجنود والعساكر، وينظم الرى والفلاحة، ويشكل جيشاً بلغ عدد رجاله مائتين وثمانين ألف جندي (٢٨٠٠٠٠) وأسطولا كان البحارة فيه لا يقل عددهم عن ستة عشر ألف بحري (١٦٠٠٠) وكانت إيرادات مصر إذ ذاك لا تتجاوز مليونين ونصف مليون من الجنيهات، ثم لا يستدين عزيز مصر ولا يعرف الدين ولا الدين يعرفه!

اثتوني بعظماء الرجال وكبراء الأمم وفحول السياسة، واعرضوا عليهم هذا العمل المدهش وهذه الآية الكبرى، وأنا كفيل بأنهم لا يصدقون به ولا يؤمنون بها، هل في طاقة رجل مهما بلغ من العظمة وقوة الإرادة أن يقوم بهذه العظائم ولا يتعثر في ذيله بالديون الثقال؟ من هذا الرجل الذى تعدى حدود الطاقة البشرية حتى استطاع أن يخرج أمة من الجهالة والظلمات إلى العلم والنور، ويشيد فيها ملكاً قائماً على جيش عديد وأسطول قوى رهيب ومعامل ومصانع ومدارس، ثم لا يستمد بمال الغير ولا يستعين على أعماله بغير قوة البلاد وهى التى حملها الزمان من قبل ما يدك الجبال ويفل الإرادة الماضية ويودى بعزائم الرجال؟

ما هذا المجد الفخيم الذى يحدثنا عنه التاريخ؟ أين ذلك المصرى الذى كان إذا جاب المدائن والممالك تحولت عن غيره الأنظار والتفتت إليه الشعوب بعيون الإعجاب والاعتبار؟ أين ذلك الذى إذا فاخر القوم ببلادهم أعطى المقام الأول ونال الشرف الأعلى وأعد وطنه في مقدمة الأوطان ومصره في الصف الأول مصاف الأمصار والبلدان.

أين عصرُ نقل عنه الناقلون أن الدول غدرت بمصر وحرقت أسطولها في ثغر (ناورين) وأماتت من بحارتها اليواصل ستة آلاف رجل وتقدم ضابط فرنساوى بالخبر إلى رجل الحروب وبطل المواقع إبراهيم باشا، فهز الأمير رأسه وقال: «ما أنشئت السفن والبواخر إلا لتكون فريسة النار أو البحار فلست بأسف عليها، وإن أبى لقادر أن يجد مثلها في عام أو بعض عام!»

أين ذلك العهد البعيد ليتعزى به المصرى الحزين الأسيف؟ أين هو ليبعث في القلوب المستميتة شيئاً من الحياة والقوة، ويدل المصرى على حقيقة موقفه وقيمته ومكانته؟ أين هو ليخطب فيكم بلسان الحال فيبلغ من نفوسكم ما لا يبلغه لسان المقال؟

أين كانت اليابان يومئذ؟ أين كانت هذه المملكة الناشئة والدولة الفاخرة؟ كانت - وكأنها لم تكن - في دياجى الظلمات وغياهب الجهل، تعد إذا ذكرت في عداد الأموات. فقف أيها المصرى فوق أطلال التاريخ وارقب الحوادث وانظر إلى أى حال صارت اليابان وإلى أى حال صرنا، وماذا كنا نبلى من الشأن والشأ لو سلكنا ذلك السبيل الذى وجهنا إليه محمد على الكبير.

ليس الموقف موقف حزن يبيت النفوس بل موقف عظة واعتبار، وإن العبرة الكبرى في حياة (محمد على) والدرس المفيد الذى يلقيه التاريخ على أبناء هذه الديار، أنهم لم يفقدوا العصبية والوحدة المالية، ولم يقفوا في طريق التقدم على حين إسترسال غيرهم في السير إلى الأمام إلا لأنهم فقدوا الثقة بأنفسهم ونسوا ما قاموا به من جلائل الأعمال. ثقة الأمة بنفسها هي الأساس الذى يبنى عليه مجدها ويشاد عزها وسؤدها، ترى الأمة إذا إعتقدت الخير والقدرة في مجموعها وأفرادها تغلبت على الحادثات والأيام وقهرت ألد أعدائها وإجتازت المصاعب غير هيابة ولا وجلّة.

هذه أمم الغرب يترك الفرد من أبنائها بلاده ويطوف الأرض من جانب إلى جانب، وهو في كل مكان ينزل به قوى الجنان شاعر بأنه الممثل لوطنه الدال عليه، معتقد أنه رايته التى إذا أهينت أهين وإذا مست بسوء قامت لأجلها بلاد وقعدت، وما هذا الاعتقاد وذلك الشعور إلا لأن الأمة وثقت ببعضها وإرتبط كل فرد ببقية أفرادها، فصارت كتلة واحدة لا يعتدى عليها زمان ولا يجروء على المساس بها إنسان.

أما الأمة التى ظنت السوء بنفسها وتركت هذا الظن الفاسد ميراثا لأبنائها وأحفادها فقل عليها السلام وادعها أمة الموت والفناء.

لا يؤلم المصرى المحب لبلاده مثل ما يسمعه ذات اليمين وذات الشمال من سوء مظنة المصريين بأنفسهم وتناقض هذه الأقوال المعينة للخواطر القاتلة لكل حركة واردة من الكبير إلى الصغير وشيوعها حتى بين الأطفال الناشئين.

ما هذا السُّمُّ القتال الذى تناولته الأمة عن طيب خاطر؟ ما هذا البلاء المدمر للبلاد الذى حل بها وتساقط على رؤوس أهلها وهم إليه ناظرون؟ كيف تنسى هذه الأمة

العزيزة أنها هى التى فتحت وقهرت وضربت وانتصرت وبهرت العالمين بقدرتها وشدة بأسها؟

لا ريب أن أصل هذا البلاء وجرثومة ذلك الداء إهمال أمر التربية الوطنية ومحو آثار التاريخ المذهب للعقول والأرواح من المدارس والمكاتب، التاريخ هو المدرسة الجامعة لكل طبقات الأمة والمعلم الذى يتأدب بأدبه الأمير الخطير والوزير الشهير والعالم والطالب، والفقير الصغير، من ذا الذى يقرأ تاريخ محمد على ويرى على صفحاته آيات الشهامة والبسالة التى حلى بها المصريون أيامهم وأسماءهم وأوطانهم ولا يشعر بأنه ينتسب لأمة عالية إن أهانها الزمان أياما فلسوف يرغم على إحترامها وإكرامها ورد سؤدها إليها، من ذا الذى يسمع بتلك السفن الجارية والجيوش الجرارة والمعامل العديدة والمدارس الجمّة والحياة العامة والاستقلال المصان ولا يرى نفسه من سلالة قوم فاتحين متمدين جديرين بأن يخلد مجدهم وتدوم أيامهم.

يقول الجاهلون إن الزمان لم يترك من آثار محمد على شيئاً مذكوراً، ولا يدرون أنه ترك شيئاً كبيراً، ترك بذور المجد والمدنية، ترك المواد الحيوية لإحياء الأمم وإعلاء قدرها، ترك العلوم والأنوار.

إن لم يكن إلا هذا الأثر - أثر العلوم والمعارف - فحسب العصر الماضى شرفاً وفخاراً، لأنه ألقى إلينا السلاح الذى ما حارب الجهل والرذيلة حتى تغلب عليها، ألقى 'ننا مفتاح الرقى والتقدم وآلة المجد والغلبة وسلم السؤدد والمعالى ونبراس الكمال، ألقى عدا الحياة فإن استخدمناها كما استخدمها سدنا كما ساد وسادت الديار، وإن أسأنا حالها أسأنا إلى أنفسنا وقضينا على الحاضر والمستقبل شر قضاء.

قد ينسى بعض المصريين أن (محمد على) تولى أمر البلاد باختيار أهلها وانتخابهم، وأن علماء مصر وأعيانها رفعوه إلى الإمارة بأيديهم فى مثل هذا اليوم من مائة سنة هجرية مضت، وأن هذه رابطة أكيدة بين الأمة والعائلة الحاكمة لا يصح لأحد أن ينساها ولا يليق بمصرى أن يتناساها، هذا إخاء بين الشعب والأمير لا تنفصم له عرى، ولا ينحل له رباط.

إذا كانت مصر لم تذكر فى بعض حوادثها الماضية وأيامها السالفة هذه الرابطة وهذا

الإخاء مما أودى بها وساقها إلى مهاوى الدمار والشقاء، فخلق بها أن تذكر الآن وفي كل أن هذا العهد المتين وتزداد بعرش الخديوية ارتباطاً وتعلقاً كلما مضت الأيام وتوالت الأعوام.

وكيف لا يذكر المصريون ذلك العهد ويبدلون الأرواح والأموال في سبيل تأييده وصيانتته وهو هو الحامى لبقايا المجد والاستقلال.

في أى موقف يرى المصرى بلاده الآن؟ في موقف البلاد المستعبدة التى تنتظر من وقت إلى آخر تحقيق وعود دولة متمدنة عظمى ولا تزف لها الأيام إلا مطلقاً في الوعد وبلاء على بلاء.

دخلت انجلترا هذه الديار مدعية إصلاحها وتأييد عرش الخديوية المصرية فيها ونشر ألوية الأمن والعدل في نواحيها وإعداد المصريين إلى إدارة شئون بلادهم بأنفسهم، ثم الجلاء عنها وتركها لأهلها، فماذا عملت وأى طريق سلكت وإلى أى نتيجة وصلت؟

وكان أول عمل للدولة الإنجليزية أنها قدمت الوعود والعهود للعالم كله بالجلاء عن مصر ولو بعد حين، وتركها لأهلها المصريين، فاعتقد صدق أقوالها الكثيرون من الشرقيين وقالوا: «محال أن يكذب القوم المتمدنون» لأنهم لم يكونوا ليعلموا أن السياسة الغربية قائمة على مخالفة الوعود والتكث بالعهود، وأن المدنية البريطانية تطلب سيادة الأمم من مثل هذا الطريق حتى صرح الساسة الإنجليز أنهم لم يقدموا هذه الوعود وتلك العهود إلا للسذج والبسطاء، وأنهم ينزهون العقلاء والحكماء عن التصديق بوعده في السياسة أو بعهد في تدبير امتلاك الأمم واغتيال حقوقها، فعلم المصرى يومئذ ما لم يكن يعلم، علم أن انجلترا احتلت بلاده لتقيده بقيود الذل والاستعباد، لا لتضع على رأسه تاج الحرية والاستقلال، علم أن وطنه صار مرمى السهام البريطانية، وأن حياته ومجده على خطر، وسمع صوت البلاد يناديه الحذار! الحذار!

ولكن صوت الانجليزى ارتفع ليدله على وسائل الرضوخ للمذلة والاستماتة، ارتفع ذلك الصوت، صوت العاملين على ابتلاع مصر منادياً بأن المصريين لا يزالون أمة طفلة محتاجة لمرب حكيم ومرشد عليم، فهل هم المربي وذلك المرشد؟

دلّ سلوك انجلترا في مصر ويدل على أنها لا تريد لعرش الخديوية قوة ولا للبلاد

خيراً، ولا للمصريين تقدماً وارتقاء، ونحن لا نقول هذا القول جزافاً بل نقدم عليه ألف برهان وبرهان، وما دام الإنجليز يفاخرون ويفتخرون بحرية القول والكتابة فإننا نناقشهم الحساب ونسألهم أمام الملأ كله عن نتائج سياستهم بعد عشرين عاماً، نسألهم أين الأمن الذى ادعوا توطيد أركانه؟ هل ازدياد الجرائم والجنگ والمخالفات وتعدد السرقات وكثرة اللصوص واعتراف النائب العمومى بذلك كله وتفنن الأشرار فى إشعال النيران وحرق القرى والبلدان مما تفاخر به انجلترا وتعهده آية يحق لها أن تمن بها على مصر والمصريين؟ هل انتقال الوظائف من أيدي المصريين شيئاً فشيئاً وخروج السلطة من قبضتهم وإماتة كل نفوذ لهم مما يرشحهم لاستلام مقاليد الأمور والسير بالبلاد إلى الأمام؟ هل نحو كل روح وطنية فى المعارف وقلب مدارس الحكومة حتى صار عاليها سافلها، يؤهل المصريين للتقدم فى ميادين الحضارة والعمران؟ هل إنشاء المحكمة المخصصة، وتعالى المحتلين على المصريين واعتداؤهم على القانون والعدالة والنظام العام مما يؤيد المساواة فى البلاد ويزيد القطر ارتقاء وانتظاماً، هل رفع العلم البريطانى على عاصمة السودان وإخراج العدد العديد من الضباط المصريين من الجيش بعد أن أبلوا ضد النزاع وأحسن بلاء وقاموا بأعمال تخلد لهم المجد والفخر مما يؤيد عرش الخديوية المصرية ويستوجب حمد المصريين؟ هل بقاء الحكومة بغير سلطة مراقبة عليها من الأمة كما يشاء المحتلون مما يجعل مصر فى بحبوحة الراحة والأمن ويوطد أركان الدستور فيها؟

ذكرتُ الدستور وطالما ذكره الذاكرون من أنصار الاحتلال ورجاله، فأين هو الدستور؟ أين ذلك الدستور الذى يلجم الحكومة بلجام من حديد وهب الأمة حرية الرأى والفكر وحق المراقبة على أعمال الحكام وسن القوانين والشرائع ومناقشة الوزارة عن الصفائر والكبائر؟ أين ذلك الدستور ونحن لا نرى إلا مستشارين من الإنجليز يحركون الحكومة يميناً ويساراً، ويتلقون الأوامر من رجل واحد ولا يحاسبون أمام أحد من أبناء هذه الأمة؟ هل معنى الدستور سقوط السلطة المصرية وقيام السلطة البريطانية مقامها؟

كلا ثم كلا! إنما الدستور هو منح الأمة حق الإشراف على كافة الأعمال ومراقبة ما تجريه الحكومة لخيرها أو لضررها، وسؤال الوزارة عن كل صغيرة وكبيرة، وتغييرها

بغيرها إذا أساءت استعمال السلطة أو تهاونت في خدمة البلاد بالدستور هو ألا يستطيع أحد، مهما كان عظيماً، وطنياً أو أجنبياً، أن يمس القوانين والنظمات بشيء، فهل يوجد رجل واحد في هذه الأمة يجزئ على القول بأننا اليوم متمتعون بنعمة الدستور وأن المحتلين لو شاءوا تغيير أى نظام موجود أو خرق سياج أى قانون لا يستطيعون؟

لعمري إن ما يسميه المحتلون وأنصارهم بالدستور هو الفوضى في لباس النظام، والاختلال في قالب الاحتلال، وإلا فأين الضمانة التي تطمئن لها القلوب والخواطر؟ أين ذلك المجلس الذي وعدت به بريطانيا على لسان اللورد دفرين؟ أين هو لتعتقد الأمة المصرية أن الدولة البريطانية لم تحتل بلادها إلا لتسعد حالها وتعل شأنها وتوقف المصري على مكانته وتعرفه أنه إنسان له حقوق الإنسان؟

يظهر بعض الإنجليز اندهاشاً قيامنا ضدهم، ولست أدري كيف وكيف هذا الإندهاش؟ كيف وكيف وهم أبناء أمة متمدنة تعرف معنى الوطن والوطنية وتدرك أن الحرية هي أسمى نعيم وأن صيانة البلاد من اعتداء الأجنبي أقدم فرض على أهلها، كيف وكيف وقد قال اللورد دفرين: «إنه يحق للمصريين أن يبغضونا من عميق قلوبهم إذا أقمنا طويلاً ببلادهم مهما أسعدناهم وأسبغنا عليهم من النعم، لأن الاستقلال لا ثمن له»

نحن نرى من العار والخيانة عدم المطالبة بالجلاء، نحن نرى من الجبن والاستماتة عدم المطالبة بالدستور أى بالنظام الذى تتمتع به الأمم المتمدنة، ونحن نرى من موت الشعور وفقدان الوجدان السكوت عن حقوقنا الشرعية التى يعترف بها كل إنسان، ونعتقد أن الإنجليز أنفسهم يحتقرون كل مصرى لا يرى هذا الرأى ولا يجاهر به، لأنهم إن أحبوا أن يخون الرجل وطنه لأجلهم، لا يحبون الخائنين، وإن كرهوا القائمين في وجوههم المدافعين عن بلادهم لا يستطيعون إلا تعظيم الوطنية ورجاها أنى كانت وأنى كانوا!

أيها السادة:

أصبحنا بعد مائة عام قضينا جانباً منها في الجد والعمل وغرس بذور المدنية وفتح أبواب مصر والسودان للعالم المتمدن في آخر مصاف الأمم، تمتاز عنا الصرب والبلغار

وشعوب صغيرة لم تكن في الحسبان، بالحرية والاستقلال والاحترام العام، فمن البلية والشقاء والموت الأدبي أن نقف متفرجين على حركة العالم ونترك الأمم الأخرى ترتقى منصة السمو والجلال!

هذه حياة (محمد على) لنا أن نستنبط منها ما يفيد البلاد في الحال والاستقبال، لنا أن نضربها مثلاً للأبناء والناشئين ليعلموا أن مصر كانت من القوة والبأس بكان، وإنها تكون كذلك لو طرّقوا أبواب الاتحاد والوئام وسلكوا مسالك العزم والإقدام.

لا تقوم مدنية مصر في مستقبل الأيام ولا يدوم لها شأن إلا إذا شيدت على الأمة وبالأمة وعرف الفلاح والصانع والتاجر والمعلم والمتعلم وكل فرد من أفرادها أن للإنسان حقوقاً مقدسة لا يصح المساس بها، وأنه لم يخلق ليكون آلة بل ليعيش عيشة الأحياء، وأن حب الوطن هو أسمى شعور تتحلى به نفس بشرية، وأن أمة ضاع استقلالها لا مقام لها ولا شأن لأبنائها.

الوطنية أيها السادة، هي العماد لكل مملكة والأساس المتين لكل دولة، الوطنية هي الروح العاملة في كل بلاد العالم المتمدن، الوطنية هي أم المعجزات وأصل كل تقدم وارتقاء، الوطنية هي التي تنقل الشعب الجبلى إلى الحضارة والعمران، والاقترار وسمو القدر في قليل من الأعوام، الوطنية هي الدم في عروق الأمم والحياة لكل ذى حياة.

الوطنية هي الغذاء الذى يحتاج إليه جسم مصر وروحها قبل كل غذاء فقدها للأبناء في غدواتهم وروحاتهم وحركاتهم وسكناتهم، واطبعوها على قلوبهم. أيها السادة:

أن الرجل العظيم الذى غير أحوال مصر وكساها حلة من المجد والفخار وفق عمله بين مبادئ المدنية العصرية ومبادئ الدين الإسلامى الكريم، لأنه رأى أن فى الإسلام كافة المواد الحيوية لأرقى مدنية يشتهيها بنو الإنسان، وأنه الدين الذى يؤهل أهله وذويه إلى أسعد حالات الحياة وأتم نعيمها، فإذا اقتدينا به واعتمدنا على الإسلام وقواعده وأوامره وإرشاداته، وأخذنا من المدنية الغربية فوائدها ومنافعها واعتبرنا بعبر التاريخ وتركنا النزاع الذى أضر بمصر والإسلام واجتنبنا كل افتراق وشقاق، بلغا أقصى ما يرام من مجد وعز وسؤدد ومقام رفيع.

وإننا لا نبغى في هذا الطريق الذى يدعوننا لسلوكه كل محب لمصر معاداة أحد من النزلاء أو الخروج عن خلة إكرام الغريب التى اشتهرنا بها، بل إننا نشكر كل أجنبى يساعدنا على خدمة الأوطان كما شكر آباؤنا من قبل وكما شكر تاريخ مصر سليمان باشا، وفارين، وسجراً، وكلوت بك، وسيريزى، وبسون بك، وجومار، وجومل^(٥)، إلا أننا نطلب الاحترام المتبادل والاشتراك فى المنفعة اشتراك إخاء، لا اشتراك شحنة وبغضاء، وإنه يسرنى أن أعلن شكر الأمة المصرية كلها لأولئك الكرماء من النزلاء الذين شاركوها فى مصابها بالحرائق الأخيرة والنوازل المؤلمة، فجادوا بالأموال عن كرم وسخاء، وخففوا بها وبصادق العواطف الآلام عن المنكوبين.

يحلولى أيها السادة أن أختتم خطابى بكلمة قالها نابليون يوم دخل مصر، قال ذلك الرجل الكبير: «لا تُكوّن الأسماء العظيمة إلا فى الشرق»، فالشرق كان ولا يزال ميداناً واسعاً للمجهودات الكبيرة الهمم العالية، لا يزال الشرق مهداً لعظماء الرجال وكبراء الشعوب، وإذا كان قد حُرّمهم حيناً من الدهر طويلاً فما علة ذلك الحرمان ألا اليأس والقنوط.

فانزعوا اليأس من قلوبكم معاشر المصريين، وطهروها من القنوط وسوء الظن بالله وقدرته، وابنوا مجدكم المقبل على التربية الوطنية السليمة الصحيحة، وضموا صفوفكم واجمعوا أمركم ليخرج من بينكم رجال عظماء يبدلون ليل الأوطان بالنهار ويردون ما فقدت من استقلال ومجد وفخارا

٤ - خطبته بالإسكندرية

يوم ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧ (انظر ص ٢٦٤)

سادق وأبناء وطنى الأعزاء

بأى لسان أشكركم على مظاهرتكم الودية لى وانعطافكم العالى علىّ، وليس لى مطمع فى هذه الحياة إلا أن أراكم متفقيين معى شعوراً ورأياً وقد حققتموه فأبلغتمونى أقصى ما أتمنى.

(٥) هم من المستشارين الذين استعان بهم محمد على فى نهضة مصر - انظر تفصيل ذلك فى كتابنا (عصر محمد على).

المبدأ وخادمه

ألا إنى أعلم أنكم أردتم بمظاهرتكم هذه أن تجيبوا أولئك الأعداء الظاهرين والمستترين وتسمعوهم أصواتكم جهيرة وتقولوا للملأ كله إنكم أعوان الشعور الوطنى وأنصار النهضة المصرية، وأن خدام هذه البلاد يجدون منكم على الدوام كل مؤازرة ورعاية.

إنى أعلم أنكم تعتقدون كما أعتقد أن الذين يهبون قواهم وأعمارهم لبلادهم لا يحسبون لأشخاصهم وجوداً مستقلاً عن المبدأ الذى يعملون لنصرتة، بل يندمجون فى المبدأ نفسه، فكل تحية إليهم فهى تحية إليه.

ولذلك استقبل دلائل الحب والميل التى تظهرونها نحوى على أنها إكرام لأشرف مبدأ قام ويقوم فى خدمته الإنسان، ألا وهو مبدأ إحياء الوطن ورد مجده واستقلاله إليه.

حياة مصر بعد الاتفاق عليها

أيها السادة ! إن مصر خطت فى الثلاث السنوات الأخيرة خطوات واسعات فى سبيل النهضة الأهلية وأسمنت الأمم والدول صوتاً ما تعودن سماعه من قبل

ظن الساسة الإنجليز أنهم إذا اتفقوا مع فرنسا على مسألة مصر طويت أوراق هذه القضية الخطيرة وخفت كل صوت ومات كل أمل وحل اليأس محل الرجاء، وصار الشعب المصرى أثراً كتلك الآثار القديمة التى يأتى السائحون لرؤيتها فى كل عام.

ولكنهم أخطأوا خطأ كبيراً، نعم أخطأ أولئك الساسة الذين يظنهم العالم كله أمهر الناس فى تدبير الشئون وإعداد الحوادث ومعرفة المستقبل.

أخطأوا لأن العزلة التى صرنا إليها بعثت فىنا روحاً جديداً أرشدنا إلى الحقيقة التى لا قوام لشعب بدونها ولا حياة لأمة بغيرها، ولا وجود لنفر من الناس إذا لم يتبعوها، وهى : أن الأمم لاتنهض إلا بنفسها ولاتسترد استقلالها إلا بجهودها، وأن الشعب كالفرد

لا يكون آمنا على نفسه إلا إذا كان قوياً بنفسه مستجمعا لكل عدد الدفاع وآلات الذبّ عن الشرف والمال والحياة.

نعم فقهنا أن الشعوب التي لا ترجو الرقى إلا بمعونة جيرانها وأصدقائها ولا تحفظ استقلالها إلا بالاعتماد على حلفائها، هي شعوب في خطر وحياتها مهددة في كل وقت. دهش الذين كانوا لا يرون فينا إلا أمواتا تتحرك كما بُهت أعداء الوطنية المصرية من هذه الروح الجديدة التي دبّت في الأمة وقالوا: عجباً أيحيا هذا الشعب؟ أتنهض مصر بنفسها؟ أتعمل للاستقلال وحدها؟ أتقدر على تحقيق مطالبها بمحض إرادتها؟ أتقاتل اليأس والقنوط وتتغلب على الحوادث والكوارث؟

أجل وألف مرة أجل! إن مصر بالغة آمالها ومحقة آمانيها بارادتها وهمتها، إنكم تقولون يا أعداء مصر إننا عشنا القرون الطوال أذلاء تعساء يحكمنا الغير وتتبدل السلطة الأجنبية، ولا يتبدل شقاؤنا وتجعلون هذا القول حجة علينا ودليلا على أننا خلقنا للذل والهوان، وأن السيادة الأهلية لن تسكن وادى النيل أبد الزمان! كذبتهم وحق مصر يا أعداء مصر! كذبتهم على الله والناس، فما بقاء هذه الأمة بعد اشتداد الإحن والمصائب وتعدد الإهانات والنوائب ووجود الروح الوطنية فيها بعد كل ما كان إلا دليل قاطع على أنه قد حان الوقت لأن تسترد حقوقها المسلوبة وتسترجع مكانتها في الوجود، تقولون يا أعداء مصر أنها لبثت زمنا طويلا مكبلة بقيود الذل والاستعباد، وتتساءلون كيف تعيش بعد ذلك في سؤدد واستقلال؟ وفاتكم أن ذلك الماضي المظلم يزيدنا تمسكا بحقنا في مستقبل مضى باهر، نسيتم أن الشقاء المديد أدعى إلى هناء مثله مديد، وأن شعبا قضى القرون وقواه لا تنصرف إلى خير الوطن يكون أقوى شعوب الأرض يوم يوجهها إلى هذه الغاية السامية.

تقولون يا أعداء مصر أننا لو أفلحنا لما نلنا هذا الاستقلال إلا بعد حين طويل فنجيحكم أننا لو سلمنا بقولكم لما جاز لنا أن نتأخر لحظة واحدة عن العمل. لأننا لا نعمل لأنفسنا، بل نعمل لوطننا، وهو باق ونحن زائلون، وما قيمة السنين والأيام في حياة مصر وهي التي شهدت مولد الأمم وكلها وابتكرت المدينة والحضارة للنوع الإنساني كله!

إن العامل الائق من النجاح يرى النجاح أمامه كأنه أمر واقع، ونحن نرى من الآن هذا الاستقلال المصرى ونبتهج به، وندعو له كأنه حقيقة ثابتة، وسيكون كذلك لا محالة !
فمهما تعددت الليالى وتعاقبت الأيام، وأتى بعد الشروق شروق وأعقب الغروب غروب فإننا لانمل ولا نقول أبداً: لقد طال الانتظار!

إننا وجهنا قلوبنا ونفوسنا وقوانا إلى أشرف غاية اتجهت إليها الأمم فى ماضى الأيام وحاضرها، وأعلى مطلب ترمى إليه فى مستقبلها، فلا الدسائس تخيفنا، ولا التهديدات توقفنا فى طريقنا، ولا الشتائم تؤثر فىنا، ولا الخيانات تزعجنا، ولا الموت نفسه يحول بيننا وبين هذه الغاية التى تصغر بجانبها كل غاية.

نعم إنا لو تخططنا الموت من هذه الديار واحداً بعد واحد، لكانت آخر كلمتنا لمن بعدنا: «كونوا اسعد حظا منا، وليبارك الله فيكم ويجعل الفوز على أيديكم ويخرج من الجماهير المئات والألوف بدل الآحاد للمطالبة بالحق الوطنى والحرية الأهلية والاستقلال المقدس!

بلادى بلادى ! لك حبى وفؤادى، لك حياتى ووجودى، لك دى ونفسى لك عقلى
ولسانى، لك لى وجنانى، فأنت أنت الحياة ولا حياة إلا بك يا مصر!

حب مصر وإحيائها

يقول الجهلاء والفقراء فى الإدراك إنى متهور فى حبها، وهل يستطيع مصرى أن يتهور فى حب مصر؟ إنه مهما أحبها فلا يبلغ الدرجة التى يدعو إليها جماها وجلالها وتاريخها والعظمة اللاتقة بها.

ألا أيها اللانمون انظروها وتأملوها وطوفوها واقرأوا صحف ماضيتها، واسألوا الزائرين لها من أطراف الأرض هل خلق الله وطناً أعلى مقاما وأسمى شأنًا وأجل طبيعة وأجل آثاراً وأغنى تربة وأصفى سماء وأعذب ماء وأدعى للحب والشغف من هذا الوطن العزيز؟

اسألوا العالم كله يجبكم بصوت واحد إن مصر جنة الدنيا وأن شعبا يسكنها ويتوارثها

لأكرم الشعوب إذا أعزها، وأكبرها جناية عليها وعلى نفسه إذا تسامح في حقها وسلم أزمتهما للأجنبي.

إني لو لم أولد مصريا لوددت أن أكون مصريا!

قد يرى السفهاء، والطائشون أن الانتساب لشعب مستعبد كالشعب المصرى مما لا يليق بإنسان، ولكن أى شرف يطمع الخرفيه أكبر من العمل لإحياء الأمة التى سبقت الأمم كافة فى العلم والمدنية والأدب؟ أى رفعة يسعى الشريف إليهاسمى من إنهاض شعب كان أستاذاً لشعوب البشرية ومربى العالم كله؟ أى سؤدد ترمى النفوس الأبية إليه أعلى من إخراج الوطن المصرى من الظلمات إلى النور وإحلاله المحل الأول بين الأوطان الأخرى التى كانت فى الدجنة الحالكة يوم كانت بلادنا مشرقا للعرفان؟

ليت شعرى، أى لذة وسعادة ومكافأة يطلبها الوطنى المصرى أكبر من اشتراكه فى هذا العمل الخطير الذى هو أجل عمل يراه العالم فى القرن العشرين، إن المكسب الأدبى للوطن المصرى من هذه الخدمة يربى على اتعابه ومجهوداته بكثير.

متطرفون!

أيها السادة!

يروق لبعض الجهلاء والمسخرين لخدمة الإنجليز أن يلقبونا «بالمطرفين» ويقسموا الأمة فرقا واقساما، ومادروا أنه لا يصح ان يوجد فى البلاد الفاقدة استقلالها المتحكم فيها الإجنبى إلا حزب واحد هو حزب الوطن، حزب الحرية حزب الاستقلال، وقد جهلوا أو تجاهلوا أنه ليس للبلاد التى يحتلها الأجنبى إلا سياسة واحدة: وهى سياسة المطالبة بالاستقلال، وإن كل قول أو عمل يؤدى إلى إضعاف الروح الوطنية وهدم جزء أو كل من ثقة الأمة بنفسها وبمستقبلها هو أكبر اذى يلحق بالبلاد نسوا أن قانون الحاكم فى معاملته للمحكومين خاضع لدرجة احترامه لهم، فإن رآهم امواتا فى أزياء أحياء يقولون مالا يعتقدون ويطلبون منه الإصلاح كما يطلب السائل الإحسان لا كما يطلب صاحب الحق حقه، استبد فيهم وسخرهم للسلطة كما تسخر الأنعام!

نلقب بالمتطرفين ! ولماذا ؟ لأننا نطالب بحقوق مصر واستقلالها ! لأننا نذكر انجلترا بشرفها وعهودها ووعودها ! لأننا نقول لها بصوت الحق والاعتقاد القوى، إن المستقبل يكفل ذلك وأنه خير لها ألا تقاوم الحوادث فيما بعد، وألا تحاول إعدام أمة خلقها الله للحياة والعمل !

متطرفون ! لأننا نعلن ثقتنا الكاملة بمستقبل بلادنا، ونقول لهذه الأمة في الصباح والمساء : اليوم عسر وغداً يسر واليوم أسر وغداً فخر، اليوم احتلال وغداً استقلال، اليوم عناء وشقاء وغداً رخاء وهناء !

متطرفون لأننا نقول للأمة اعملى وحافظى على السكينة، إياك والقلق فهى تخدم العدو وتضر بالوطن، إياك والانقسامات فإنها منشأ الخراب والدمار، إياك وهوس العداوات الدينية فإنها آفة الآفات وجالبة المحن، إياك وسوء ظن الملأ المتمدن بك فإن الشعوب فى المدنية متضامنة ويا شقاء من سار ضدها !

متطرفون ! لأننا نقول للأمة خذى من العلم أوفر قسط وتسلىحى بأسلحته واملاى وادى النيل من نوره، وردى إلى الفقير حقه ونصيبه من هذا المنهل العذب .

متطرفون ! لأننا نردّتهم العدو ونثبت للعالم كله أننا متمدون وأنه ليس للتعصب بيننا وجود وأن الإسلام عامل قوى لترقية الأمة ونشر أنوار المدنية فيها.

متطرفون ! لأننا رفعنا أصواتنا محتجين على فظيعة الفظائع فى دنشواى وعارضنا السياسة الإنجليزية فى دعاويها ووقفنا فى وجوه أعدائنا، والحق سلاحنا والصراحة عدتنا والإقدام مطيتنا.

متطرفون ! لأننا نمثل مصر للأمم تتدفق حياة ونشخصها قوية ناهضة شريفة المقاصد أبية لا ترضى المذلة ولا تعرف الكذب والخداع.

متطرفون ! لأننا لانطالب استعمار بلاد الغير ولا استعباد شعب من شعوب الأرض، بل نقنع بطلب الاستقلال لوطننا.

فإن كنا نعتبر متطرفين لاننا نعلن ذلك كله ولأن هذه خطتنا فأكرم بالتطرف، ويا فخارنا بأن نلقب بالمتطرفين !

ومن منكم لا يفخر بأنه متطرف، وأيكم لا يريد أن يكون سائر المصريين متطرفين؟ وهل يكون الاعتدال في هذه الحالة شيئاً آخر سوى الخوف والجبن والرياء واستعمال خطتين واتباع سياستين ومخاطبة الناس بلسانين؟ ومن ذا الذي يرضى لنفسه ولقومه بهذا الاعتدال وما هو في الحقيقة إلا المذلة في أبشع مظاهرها والموت الشنيع الموجب لاحتقار الأمم جمعاء.

عجباً! عجباً! أنقلب نحن بالمتطرفين لأننا نطلب استقلال وطننا من أشرف السبل وبأكمل الوسائل ولا نريد أن نتعداه بالاعتداء على أحد، على حين أن الإنجليز لم يكتفوا باستقلال وطنهم بل استعبدوا الأمم وتوسعوا في الاستعمار وملكوا البحار ولا يزال أكثرهم يقول: هل من مزيد؟

هل هم يلقبون بالعقلاء المدبرين لأنهم انجليز ونلقب نحن بالمتطرفين لأننا مصريون؟ هل الوطنية التي تروق وتعجب هناك، تؤذى وتؤلم هنا؟

هل مصر دون بريطانيا في الجمال حتى تحدد محبة المصريين لمصر ولا يعرف الحب الإنجليز لبريطانيا حد؟ كلا وإيم الحق كلا، إن مصر جدرة بأن تُحب بكل قوة، بكل عاطفة، بكل جارحة، بكل نفس، بكل حياة!

لا عجب إذا وقف من لا يعرف هذا الحب باهتاً أمام من يعرفونه، لا عجب إذا دهش الذي لا يتألم لمصاب وطنه ولا يشعر بأوجاع بلاده ممن يتألمون ويشعرون، لا عجب إذا كان الذين خلقوا وقلوبهم من صخر يعدون وطنية من ولدوا ولهم قلوب إنسانية جنوناً في جنون.

أعداء الوطنية

أيها السادة:

لا يجهل أحد منكم أن الحركة الوطنية المصرية أزعجت محبى الاستعمار من الإنجليز فحاربوها بدنشواى فخابوا، ويزيادة جيش الاحتلال فأخفقوا، وبتهمة التعصب الدينى

ففسلوا وأضحكوا العالم طراً، وها هم الآن يحاربونها بالخونة والمنافقين بعد أن عهدوا الأمر للدخلاء طويلاً فلم يبلغوا منا مأرباً، وإنهم لمخفقون أيضاً في هذه السياسة الجديدة، إنهم لو جردوا جيوشاً من أعداء الحركة الوطنية المصرية فإنها لا تزداد أمامهم إلا قوة وحية وثباتاً وإقداماً.

ليقبلوا نظام التعليم ما استطاعوا وليحاربوا الناشئين ما أرادوا، فإن رجال الغد لا يكونون إلا مصريين وطنيين متشربين بمحبة بلادهم متطلعين لأن ينيلوها من المجد والسؤدد أسمى مما نالت الأمم الأخرى، لينفقوا الأموال ذات اليمين وذات الشمال لشراء الضمائر الخربة والنفوس المنحطة، فإنهم إن كسبوا فرداً واحداً قام من الوطنيين الصادقين العشرات لهدم ما ينبون ودك ما يقيمون.

إن أمة دبّت فيها روح الوطنية وطمحت نفسها للاستقلال لا تموت أبداً، وإن صواعق السياسة كلها لا تحول ضميراً لا ذ بالوطن عن وجهته!

أيها السادة:

إن الوطنية واحدة لا تتعدا وقد يضل الإنسان في أمور كثيرة ويخطيء في مسائل عدة، ولكن إذا كان هناك شعور لا يضل الرجل فيه ولا يخطيء أبداً في تقديره وتكييفه وإظهاره بكل مظاهره فهو الشعور الوطني، لا يحتاج المرء إلى علم ولا إلى فلسفة ولا إلى خبرة وتجارب ليقول إذا سأله السائل: «ما رأيك في مسألة احتلال الإنجليز لبلادك؟»: «إن خروجهم غاية آمالي وإن العمل له أقدم الفروض المحتملة على» إن أجهل الشعوب وأبعدها عن العلم والحضارة والمدنية تشعر بهذا الشعور لأنه طبيعي ولا يكون الإنسان إنساناً إلا به.

لذلك كانت ضجة الأمم شديدة ضد من قالوا بإماتة هذا الشعور، ونادوا بأن الوطن خيال وأن الراية قطعة من قماش وأشاروا باعتصاب الجنود لو قامت الحرب ودعت الأمة أبناءها الأشداء للذب عنها.

انظروا إلى فرنسا وهي الدولة التي امتلأت صحف تاريخها يذكر الوطنية وآثارها الفخمة وورث الأبناء عن الآباء فيها حب الوطن والدفاع عنه حتى صار هذا الشعور

مقدساً لا يقربه أحد بسوء، كيف تهتز الآن من شمالها إلى جنوبها ويقول خدامها الأمانة بأعلى أصواتهم:

«حذار حذار من «هرفى» وأنصاره فإنهم يريدون هدم بناء الوطنية الفرنسية، أى بناء المجد الحقيقى والحياة العالية، وإن عدوى أفكارهم أضر بفرنسا من كل جيش فاتح». فإذا كان هذا مبلغ سخط الشعوب القوية الراقية على أعداء الوطنية، فكم يجب أن يكون سخطنا شديداً عليهم ونحن أحوج شعوب الأرض إلى هذا الشعور الذى لا ننال حقاً إلا به ولا نبلغ مأرباً إلا بفضلِهِ.

إننا ما رأينا وما سمعنا ولا روى لنا التاريخ أن أمة سلبت حقوقها واختلس استقلالها وضربها الأجنبى ضربة الاستبداد والاستعباد يقوم من أبنائها من يجد هذا الأجنبى ويقول له:

«أنت السيد وأنت المنعم فافعل ما شئت؟»

أسمعتهم أن أرلندياً واحداً قال هذا القول؛ أوصل إليكم أن بولونياً من أجهل البولونيين طأطأ رأسه أمام الحاكم الأجنبى؟ أم علمتم أن صغار البولونيين أدهشوا العالم كله بتمسكهم بوطنيتهم؟

إن من يظن أن الإنجليز يحبون الخونة يخطئ خطأ كبيراً، نعم إنهم يستخدمونهم لأغراضهم ولكنهم يحتقرونهم أشد الاحتقار، لأن شعباً ينشأ الفنى فيه وهو يرى امتلاك الأرض ومن عليها حقاً من حقوق أبناء جلدته لا يعتبر الخيانة إلا جناية الجنايات.

أين كانت تكون عظمة إنجلترا وسلطتها لو كان فيها من الخائنين من ترى مصر، هل كانت تسود الأمم وتملك رقاب الشعوب وتبلغ من الثروة والسؤدد هذا المبلغ؟ كلا وأيم الحق كلا، أنها كانت تكون ممزقة الوجود متفرقة الكلمة متباينة الآراء يلعب بها الأجنبى ويسيرها فى الطريق الذى يختار.

فلا قوام لأمة ولا سلامة لبلاد بقوة العقيدة الوطنية، ولا تدرك الشعوب هذه القوة إلا إذا كانت شديدة الحكم على من يتلاعبون بالوطنية، قاسية فى تأديبهم ومعاقبتهم.

سمعت البعض يقول عنى إلى شديد فى تقرير من خالفوا الواجب الوطنى ومالوا عن مصلحة البلاد، فأجيبهم اليوم بأنه إذا صح التسامح فى بعض الأمور وفى ظروف معينة، فإن التسامح فى الوطنية إعدام لها وقضاء عليها، وإن من يتسامح فى حقوق بلاده ولو مرة واحدة يبقى أبداً الدهر مزعزع العقيدة سقيم الوجدان.

سياسة المغالطة

ينادى البعض فى هذه الأيام بأن كلمة الاستقلال ترجع للإنجليز وأنه أشير عليهم من بعض أنصار مصر فى انجلترا بأن الأصلح والأوفق الاكتفاء بطلب الإصلاح وإهمال مسألة الجلاء والاستقلال، أو على الأقل تأجيلها إلى حين، ويعمل ذلك البعض لترويج هذا الرأى، ويندفع فى طريقه طاعناً فى المطالبين بالاستقلال قائلاً إنهم متطرفون! وإنى مفصح الآن أمام الأمة كلها عن رأى فى هذه السياسة التى يتوهم ذلك البعض أنها أكبر ضرب من ضروب الدهاء.

أحرار الإنجليز ومصر

إن العمل بآراء الإنجليز الذين يشتغلون بمسألة مصر فى انجلترا ليس مما يطالب به مصرى، لأن هؤلاء الإنجليز يعملون لخدمة انجلترا بالذات، فهم يريدون أن تكون سياسة بلادهم سياسة لين ومهارة بدلاً من أن تكون سياسة شدة وصلابة، وهم أن اتفقوا معنا فى بعض المسائل قد يختلفون فى الجوهر، ولذلك نرى بعضهم يرى بمزيد الاستياء الحركة الوطنية الداعية إلى الاستقلال.

فنحن مسلوبون والإنجليز هم السالبون، ونحن طلاب حق مقدس والإنجليز هم مغتصبو هذا الحق، فلا سبيل إلى الاتفاق بيننا وبينهم إلا باعترافهم بحقنا وردّه إلينا.

أما القائلون بأنه يتم الاتفاق بين المصريين والإنجليز على أساس تضحية الشرف البريطانى، وتضحية استقلال مصر، أى خيانة المصريين لوطنهم وخيانة الإنجليز لشرفهم ووعدهم وعهودهم، فإنما يوجهون إلى الأمتين أكبر مسبة ويطلبون اتفاقاً باطلاً، وأى

احترام لعقد أساسه الخيانة الصريحة؟ إننا نشكر كل إنسان ينصف مصر ويعترف بحقوقها كلها أو بعضها، ولكننا لا نتقيد برأى أحد ولا نتأثر بسياسة خاصة، بل يجب أن نكون خدام العقيدة الصحيحة السليمة، خدام العقيدة الوطنية.

فإن قال المنتصرون لمصر في بعض أمورها من أحرار الإنجليز إن المطالبة بالاستقلال تؤلم قومهم وطالبونا بالعدول عنها، وجب على كل مصرى أن يجيبهم قائلاً: «لكم دينكم رلى دين».

فساد سياسة المغالطة

يتوهم أنصار سياسة المغالطة أنهم مهرة قادرون وسياسيون محنكون، فلذلك هم يريدون أن يخدعوا الدولة الإنجليزية ويغلبوها بقوة الدهاء، هم يقولون: «لنهرج طلب الاستقلال ولنطالب الإنجليز بالإصلاحات الداخلية مثل تأسيس مجلس نيابي ونشر التعليم حتى إذا صرنا أصحاب الحول والطول في البلاد قلنا لهم: «انجلوا عنها» فلا يستطيعون إلا أن ينجلوا خاضعين ممتثلين.

اللهم إنى أعترف بأنى لست من المهرة فى السياسة حتى أدبر مثل هذا التدبير وأصرح بأنه لم يخطر لى لحظة واحدة على بال بأنى قادر على أن أصرع السياسة الإنجليزية بمثل هذه المهارة الفائقة، كما أنى مع عداوتى الأكيدة للإحتلال، لا أرى الإنجليز قد تحولوا بسرعة البرق أطفالاً صغاراً حتى تدخل عليهم هذه الحيلة المضحكة.

باطلاً يعتقد البسطاء أن الإنجليز مع كونهم ينوون البقاء فى مصر يقبلون منح أهلها حكومة دستورية، لأنه لو جاز ذلك لكان وجودهم فى هذه الديار يوم يؤسس فيها مجلس نيابى تام واسع السلطان نافذ الكلمة لغواً، ولأصبحوا فى هذا القطر لاعبين.

إن إعطاء المصريين مجلساً نيابياً حقيقياً - لا صورة يراد بها السخرية وذر الرماد فى العيون - هو تجريد للاحتلال من كل سلطة، فلا يستطيع المعتمد البريطانى إبقاء مثل دنلوب فى نظارة المعارف مع سخط الأمة كلها عليه، ولا يمكن تعيين مثل المستر هيل فى مدرسة الحقوق والأكفاء من المصريين يعدون بالعشرات إن لم نقل بالمئات، ولا يقدر أن يطلب أربعمائة ألف جنيه لبناء ثكنات للجيش البريطانى والبلاد فى أزمة شديدة وحاجتها

للمال ظاهرة للعيان، ولا يتيسر له صرف تلك الاعتمادات الطائلة للسودان ومصر في أشد الحاجات إليها، ولا يجد سبيلاً لمسح الحكومة الأهلية وتمكين الإنجليز من كل فروعها ومحاربة الأمة في كل ميولها وسلبها جميع حقوقها.

إنما تساعد انجلترا بكل قواتها على تأسيس حكومة دستورية في هذه الديار يوم تنوى حقيقة الجلاء عن مصر: ولذلك طلبت دائماً المجلس النيابي مقروناً بطلب الاستقلال.

ألا إن الخطة التي وضعتها الحكومة الإنجليزية عندما احتلت هذا القطر هي ترشيح المصريين لأن يحكموا أنفسهم، وإقامة معالم الدستور بينهم ثم الجلاء عن بلادهم، هي خطة متماسكة كل التماسك ولا يمكن تنفيذ مبدأ من مبادئها دون المبدأين الآخرين، فترشيح المصريين لأن يحكموا أنفسهم يجعلهم أقوىاء أشداء راقين في الشعور الوطني فلا يرضون بحكم الأجنبي، ومنحهم مجلساً نيابياً يحصر السلطة في أيديهم فلا يبقى للإنجليز بجانبهم عمل ما.

ولذلك صرحتُ أيها السادة بفساد سياسة المغالطة وبضررها الشديد على مصر والمصريين لأنها تؤدي إلى اعتراف فريق من الأمة بقبول الاحتلال وتظهره بمظهر الضعف الشديد ولا تثمر ثمرة ما، هذا فضلاً عن كونها قاتلة للروح الوطنية بإبعادها المصريين عن ذكر الاستقلال والتعلق به.

سياستنا

أسمع المعارضين يقولون: وبم تمتاز سياستكم على سياستهم وما ثمراتها؟ فأجيب بأن سياستنا هي سياسة الصراحة والمناداة بالحق والدعوة للاستقلال، وهي وحدها الموصلة إلى كل الغايات الحسان، فالصراحة وقول الحق من الخلال التي تحمل الحاكم على احترام المحكوم.

فالإنجليز لا يشك في أن كافة المصريين يودون الاستقلال من أعماق قلوبهم، فإذا رأى بعضهم يقول عكس ذلك ويتحجب إليه ويطعن فيمن يخالفونه في خطته عرف أنه منافق واحتقره ورمى الأمة بعدم الاستعداد للاستقلال.

وقد قال غمبتا حقاً وصدقاً: «لأجل أن سال محبة الإنجليز يجب أن اتنازل احترامهم»
أن الإنجليز أنفسهم في حاجة لمن يسمعونهم الحقيقة الصارخة، وهي أن أساءتهم وألتمهم في
الظهر فإنها أفيد في الواقع من نفاق المنافقين وكذب الكاذبين.

أليس أولئك المنافقون هم الذين أدخلوا في نفس اللورد كرومر اعتقادات كاذبة بشأن
الأمة المصرية فاعتدى عليها قولاً وفعللاً وفر بيده هاوية بينها وبينه بفظيعة دنشواى
ويسبها في وطنها ودينها حتى فارقها وألسنتها تشيعه بالسخط الشديد؟

فمن من الإنجليز يرضى لشرف بلاده ومصلحتها أن يكون كل عهدا في مصر
كرومرى؟ ألا يقول معنا بضميره أن لم يقل بلسانه إن الصراحة والصدق هما أمتن
أساس لأشرف سياسة.

الاستقلال والوصول إليه

إن الذين يطالبوننا بعدم ذكر الاستقلال إنما يريدون أن تموت الروح الوطنية في مصر،
أى أن تموت الأمة المصرية، لأن حياة هذه الأمة ومستقبلها مرتبطان بمقدار قوة هذه
الروح في الشعب.

يتساءل البعض عن الوسيلة الموصلة إلى الاستقلال، وهذا تاريخ الشعوب البشرية
يدلهم على أن الوسيلة الموصلة إلى الاستقلال تنحصر في بث روح الوطنية الصحيحة
والشجاعة والإقدام في الأمة، وإعلاء ملكتها، وإيجاد حب السؤدد والرفعة، ومسايرة الأمم
الراقية، وجعل الاستقلال رائدها.

فاذا تمكنت هذه الروح وتلك الميول من كل مصرى فتحت المدارس العلمية
والصناعية والتجارية والزراعية في كل مكان، وظهرت آثار النخوة والهمة والتضامن في
كل جهة وناحية، واتحدت الأمة في الغايات والمقاصد وازدادت ثروتها في المال والعلم
والوطنية والوئام، وقضت على كل عمال الخصام والانقسام وصارت أمة من أقوى الأمم
فعلا، واضطرت انجلترا يومئذ لأن تتفق معها على الجلاء والاستقلال، تفضيلاً لمودتها على
عداوتها، لأن أمة تبلغ هذا الشأن لا تلبث أن تستخدم الحوادث - وما الحوادث مسيرة
بإرادة دولة أو برغبة إنسان - فتتال استقلالها رغبا من كل معارض فيه.

فالدعوة للاستقلال وبث الروح الوطنية الطاهرة، هما المؤديان إلى تحقيق آمال الأمة المصرية، فليكن معتقد المصريين جميعا أن نجاة مصر لا تكون إلا بهمهم المصريين، وان ارتقاءنا موكول إلى عزائمتنا. فلنطلب النهوض من أنفسنا ولنعمل له بالهمة والصدق والاتحاد.

يقول البعض ان المناداة بالوطنية كلام في كلام، نسي ذلك القائل أن أهم الأعمال البشرية وأرقى الجهود الإنسانية تنحصر في إدخال عقائد جديدة في النفوس، لأن العقيدة تحرك الجبال.

فإدخال الروح الوطنية في نفوس المصريين لتجتمع كلمتهم حول الوطن العزيز ويتفقوا في المطالبة بمجده واستقلاله، هو أكبر الأعمال.

ومن قال ضد ذلك فقد أنكر الديانات وتأثيرها والتاريخ وأحكامه والعوامل الفعالة في الشعوب كلها.

العالم ومصر

أيها السادة:

عرف المصريون أجمعون أن اعتقاد العالم فيهم قد تغير وأنه أصبح يرى فيهم أمة حية رشيدة بعد أن كان يعتقد فيهم ضد ذلك، ولماذا؟

أليس لأنه علم أنهم محبوبون لوطنهم راغبون في خيره واستقلاله وأن الحركة الوطنية المصرية في نمو مستمر.

ليقل لنا الطاعنون فينا أكانت تبلغ هذه الحركة الوطنية شأوها الحالى لو لم تكن قد سيرت بقوة وصراحة صارمة لا محاباة فيها؟ أليس من الحقوق الطبيعية لمن سلب حقه أن يعلو صوته بدرجة صوت سالبه، إن لم يرتفع فوقه؟

فأى لوم يوجه إلينا أننا في أقوالنا وكتاباتنا وأفعالنا نذكر الأمة الإنجليزية بالكرامة والاحترام فهل فعل المحبون للاستعمار من الإنجليز فعلنا؟ هل قالوا مثل قولنا؟ هل كتبوا مثل ما كتبنا؟

كلا وألف مرة كلا، إنهم ما أسمعونا إلا الشتائم والمطاعن البذئية والتهم الباطلة، هذا شيخ ساستهم لورد كرومر أبت عليه آدابه وتجاربة وخبرته أن يترك مصر دون أن يسب أهلها جميعاً ويلقبهم بالعميان ويقضى عليهم بالذل إلى أبد الزمان، فهل قام مصرى واحد يسب الأمة الإنجليزية كما سب لورد كرومر الأمة المصرية؟ هل خالف واحد منا الأدب والكمال أونسى سمو القضية التى نخدمها وقلد اللورد فيها قال.

لاريب فى أن العدو نفسه يجيب سلباً أمام ضميره ويعترض بأن المطالبين باستقلال مصر ساروا فى طريقهم والحمية والحكمة عندهم متلازمتان.

المعارضة الوطنية والحكومة الإنجليزية

أيها السادة :

إن الحكومة الإنجليزية التى فخارها فى وطنها الجدل والمناقشة والسعى وراء الحقيقة تعلن عجزها فى مصر إذا جارت أولئك المضطربين من الحركة الوطنية الناديين سوء حظهم لوجود أفراد فى هذه الأمة يقولون الحق جهاراً ولا يخافون فيه لومة لائم، لأن الحكومة القوية تزداد قوة بفضل المعارضين الواقفين لها بالمرصاد الناديين بسيئاتها المشهرين بأغلاطها الدالين لها على عيوبها، فما بالك بسلطة الرجل الفرد. بسلطة الأجنبى الجاهل بأخلاق الأهالى وميولهم ومطالبهم ورغائبهم؟

أليست هى أحوج السلطات إلى قوة معارضة تقف أمامها موقف الخصم العنيد الذى لا ينزل عن حق ولا يسكت على عيب ولا يستر نقصاً ولا يجامل فى خطأ، بل ينادى بما يراه ويعتقده وينتقد الأعمال بصراحة وبطش شديد؟

ألا إن حكومة كحكومة مصر لا يزال شكلها ونظامها أبعد الأشكال والنظم عما يرجوه المصريون لبلادهم ويطلبونه فى الصباح والمساء، لأجدر حكومات العالم بأن تسمع أصوات المخالفين لها وتنظر فى انتقاداتهم بعناية لا بتعنت وغيظ، فإن الموقف لا موقف خدمة عامة وعمل للصالح العام لا موقف خصام وعناد.

يقول بعض الصحف إن الحكومة تأبى تقرير ذلك الأمر النافع وهذا المشروع المفيد

لأن المعارضين أو المتطرفين أو المتحمسين أو أعداء انجلترا في مصر طلبوا ذلك الأمر وهذا المشروع، وأن المسألة صارت إلى المشاكسة والعناد والمبالغة في النكاية بالخصم.

ومثل هذا القول هو أكبر مسبة توجه إلى رجال الحكم!

إن الحكومة الصالحة العاملة لخير الرعية هي التي تلتقط الحقيقة أنى وجدتتها، وتعمل بالرشد والصواب ولو كان خصمها هو مرشدها، فهي تزداد قوة على قوتها ونفوذها عند الرعية إذا اتبعت رأى خصمها متى كان حقاً، لأنها تثبت بذلك أنها حكومة خير ورشاد لا حكومة طيش وأهواء.

أما إذا اعتقد الجمهور في الحكومة أنها لا تعمل إلا ما تريد وأنها تحمل كل صوت يرتفع بالحق مادام قائلة ليس من مملقيها، فإن مقامها يسقط في نظر الناس ويسوء الكل الاعتقاد فيها وتكون قد أوجدت بنفسها وبارادتها الشقاق والافتراق بينها وبين المحكومين.

أى معنى لا فتخار الإنجليز بسيادة حرية القول وحرية الأقلام في مصر إذا كانت هذه الحرية لا تفيد الحكومة شيئاً ولا تصلح المعوج من أمورها؟ وهل القصد من هذه الحرية أن يسمح للمصريين بأن يبكوا استقلالهم وينادوا بالويل والثبور على ساليه ليس إلا؟ اللهم إن حرية لا تعطى الأمة حقاً في إدارة شئون البلاد، ولا تجعل للناطقين باسم الشعب سلطاناً أدبياً محترماً عند الحاكمين، لحرية أجنبية عن حرية الشعوب المتمدنة ولأهانة حقيقية للأمة تقدم إليها في شكل نعمة.

سيئات المحتلين وفساد حكمهم

ماذا يريد الإنجليز منا؟ أيريدون أن نسمى سيئاتهم حسنات ونصفق لضياح حقونا واستيلائهم على بلادنا، وتجريدتهم إيانا من كل سلطة ونفوذ؟ هل كانوا يسرون بمثل هذا الحال لو كانت بلادهم محتلة بدولة أجنبية؟

اتفاقية السودان

مَن من المصريين يذكر اتفاقية السودان ويشكر المحتلين ؟ وكيف يشكرهم وهم قد ضغطوا على حكومة في قبضتهم فأتت ما أرادوا مع مخالفة الأمر للفرمانات السلطانية وبطلانه من الوجهة القانونية ؟

من ذا الذى يمدح هذه السياسة، سياسة القوة والجبروت التى أنكرت حقوق مصر فى السودان فعلا بعد أن رويننا أرضه بدمائنا الغالية وأنفقنا عليه الأموال الطائلة ؟

أين العدل ؟؟

أى مصرى يرضى عن قوم لا يعرفون العدل والإنصاف والمساواة وتلك الكلمات الضخمة والمعانى الفخمة إلا إذا كان الأمر متعلقاً بمصرى، أما إذا كان له مساس بإنجليزى فلا عدل ولا إنصاف ولا مساواة !

أليست الوكالة البريطانية هى التى أقامت الدنيا وأقعدتها يوم أدعى أمامها أحد الأرمن بأن أخاه سجين فى سراى رأس التين وأنه يعذب بغير حق ؟ ألم تنتدب يومئذ المستر شامبن للتحقيق وتفتيش السراى أى القيام بعمل لم نسمع بمثله فى حكومة أخرى ؟ ألم تقل يومئذ فى الجرائد الخادمة لسياستها إن هذا أكبر مظهر من مظاهر العدل وإنه يحق للمصريين أن يشكروا المحتلين ليلاً ونهاراً ويرتلوا آيات الثناء عليهم ؟

فأين هذا العزم اليوم ؟ أين تلك الهمة العالية فى تأييد العدل وعدم التمييز بين الصغير والكبير ؟

كيف سكنت عواطف المدينة والإنسانية والإنصاف والمساواة مرة واحدة فى قلوب السادة الإنجليز لما اتهم عالم من كبار العلماء الفرنسيين مستر دنلوب بتهم شنيعة يأبى الحر قبولها والسكوت عليها.

أين المظهر العادل للعدل أيها المحتلون ؟ أين أبناء الأمة التى تعد من أكبر مفاخرها عدم التستر على مرتكب أثيم ؟ أين أختفوا !

أين هم لنسمعهم الحق الذى لا ريب فيه ونقول لهم بصوت جهير إن عدم محاكمة دنلوب بعد الفضائح التى أعلنها المسيو لامبير معرة كبرى على الاحتلال والمحتلين ! ينسب البعض سكوتهم أمام هذه التهم الصريحة إلى أنهم لا يريدون إرضاء الرأى العام أو الظهور أمامه بظهر الضعف.

حقاً إنها لحجة تضحك، وإنها لسياسة لا ترضاها لنفسها حكومة «بهنزين» أیظن المسيطرون من الإنجليز أن إخراج دنلوب من المعارف أضر بالسياسة الإنجليزية من بقاءه !

إننا كنا نعتقد أنهم أذكى وأفطن من أن يقولوا ذلك، وإلا فكيف فاتهم أن بقاء دنلوب هو أكبر وصمة للاحتلال، وأننا لو كنا نريد تحقير الحكم البريطانى فى مصر لما طلبنا منهم أكثر من بقاء دنلوب بعدتهم الأستاذ لمبير، أليس بقاءه أكبر دليل تقدمه للأمة على أنه أن لها أن تترك مدارس الحكومة خاوية لا يقصدها طالب وتؤسس هى مدارس لأبنائها بأموالها وهم القادرين من رجالها لتتال الاستقلال العلمى والأدبى وتستريح من أعمال دنلوب ومساعدیه !

إذا كان الأستاذ لامبير يقرر أن خطة دنلوب هى التى دفعت بطلاب الحقوق إلى صفوف الوطنيين فصاروا فى مقدمتها، فكيف لا يدرك الإنجليز أننا لو كنا لا نرمى إلا إلى جمع كافة القوى الحية ضدهم وأن هذه طلبتنا الوحيدة، وأننا لا نريد الخير لبلادنا ولا نطلب الإصلاح، لا بتهجنا ببقاء دنلوب عاملاً على زيادة الوطنيين المصريين ومجدداً فى بث روح العداء فى قلوب الناشئين للإنجليز واحتلالهم ! إن الأمة المصرية تنتظر اليوم بمزيد الاهتمام إلى ما تنوى الوكالة البريطانية عمله مع دنلوب، فإن هى تركته وشأنه علم من لم يكن يعلم فى هذا القطر وفى غيره من الأقطار أن العدل خيال فى مصر لا حقيقة، وأن الإنجليز يغفرون لرجالهم كل السيئات ويتربصون للمصريين فيعاقبونهم على أصغر صغيرة

فإذا كانت هذه هى النتيجة التى يعمل لها المتعمد الانجليزى الجديد فليفعل، فإنما هو يهدم بيمينه البقية الباقية من نفوذ بلاده عند المغرورين الذى لم يسيثوا بها الظن تماماً ويقوى عقدة الذين لا يرون فى نواياها ومراميها شيئاً من الخير لمصر والمصريين.

محاربة الأكفاء من المصريين

كيف يطالب المصريون بأن يحسنوا الظن بالمحتلين وهؤلاء هم الذين يدعونهم كل يوم إلى إساءة الظن بهم.

كيف يصدق العلماء والفضلاء والأكفاء من المصريين أن الإنجليز يريدون حقيقة هذه البلاد التقدم والارتقاء وهذا مستر دنلوب يأمر كل مدير لمدرسة عالية بأن يطعن في كفاءة المصريين الذين يطلبون وظائف التدريس!

وإذا تركنا المستر دنلوب وارتقينا إلى رئيسه الأعلى معتمد إنجلترا في مصر، فماذا نجد من نياته! نجد أن السير إلدون غورست قد عين المستر هيل مديراً لمدرسة الحقوق وسخر بذلك من المصريين عامة ومن الأكفاء خاصة.

ألم يقل لهم بلسان الحال: «إني لأسخر من معارفكم وآدابكم وكفاءتكم واستعدادكم وخبرتكم وشهادتكم لأنكم مصريون وأقدم عليكم من هو دون أصغركم علماً وفضلاً وخبرة لأنه إنجليزي؟»

فهل بعد هذا يطالب المصريون بأن يحسنوا الظن بالإنجليز؟ وهل هناك عداً صريح من قوم لآخرين أكبر من هذا العدا؟ وهل يليق بشرف دولة كبرى كاللدولة الإنجليزية أن تحارب المصريين بمنزل هذه الصغار وهي التي أتسمت أمام العالم كله أن جل رغائبها إعداد المصريين لأن يحكموا أنفسهم بأنفسهم؟

ومتى يتسنى لهم ذلك القاعدة السائدة في السياسة الإنجليزية بمصر، هي تجريد المصريين من كل سلطة، وإبعادهم عن كل منصب ذي عمل، والاستعانة بالضعفاء والمارقين منهم على تمثيل مصر في المناصب التي يشغلونها بأسوأ صورة.

دنشواي

يقول سير إدوارد غراي بأعلى صوته في مجلس العموم الإنجليزي إن لورد كرومر لم

يعامل المصريين كأمة منحطة، فماذا كان يريد أن يعمل اللورد ليعترف بأنه عاملهم كذلك؟

أليست دنشواى وحدها بكافية لأن تثبت مدى الدهور والأجيال أن الإنجليز أهانوا المصريين إهانة قاسية لا تنسى أبداً، ولا يمكن اختلاف اثنين من المنصفين في الحكم عليها؟

ينادى الساسة الإنجليز بأن الحكم في دنشواى كان سياسياً وكان يقصد به تأديب الأمة، وإذا طلبت الجماهير العفو عن المسجونين بسبب هذه الحادثة قالوا: «إنما أنتم تطلبون العفو لتعدوه انتصاراً على السياسة الإنجليزية»

فهل هذا هو العدل الذى تجود به علينا المدنية البريطانية؟ هل هذا هو الإنصاف الذى تريد أن تعلمنا إياه الدولة الإنجليزية؟ أيعاقب أهالى دنشواى بتلك الشدة المتناهية لأن الأمة لم تكن مع الإنجليز فى حادثة العقبة، وهل الحكومة التى تخلط بين السياسة والعدل إلى هذا الحد فتعاقب البريء وتكافئ المجرم تستحق أن يمدحها مادم ويتنى عليها إنسان؟ وكيف يدهشها قيام المعارضين فى وجهها واعتراضهم عليها بكل شدة وقوة؟

إننا لو كنا نريد دوام العداء والنفور واستحكام الشقاق والتنازع لطلبنا بقاء مسجونى دنشواى فى سجونهم الأعوام الطوال، لأنه كلما مرت السنون وهم على حالهم تجددت آلام الأمة بما لا يكيف، وجرى ذكر دنشواى على كل لسان، وهكذا سياسة العناد لا تثمر إلا عكس المقصود منها ولا تؤدى إلا إلى ضد الغاية المطلوبة.

إن الرجال لا يحكمون بمثل هذه السياسة ولا تدبر شؤونهم بمثل هذا الاعتساف.

إذا كان الإنجليز يجهلون أحوال المصريين وما يدور بينهم، فليعلموا أن فى هذه الأمة رجالاً مستثيرين رشيدين يعادلون أكفأ العقلاء من الإنجليز وأنهم يغارون على الحق والعدل ولا يرضون بأن تكون الأحكام فى البلاد قائمة على الغايات والأهواء، وهؤلاء الرجال هم القوة المفكرة التى تحترمها كل حكومة فى العالم وتسترشد بأرائها فى المواقف الحرجة.

إننا نقدم العدل والرحمة على السياسة، ولذلك طلبنا ونطلب بأعلى أصواتنا العفو عن مسجونى دنشواى، ونقول بكل صراحة إن السياسة الرشيدة هى التى تعمل لتخفف

الآلام الناشئة من هذه الحادثة الموجهة، لا العمل على تقويتها وزيادتها بدعوى أن طلاب العفو ليسوا من أنصار الاحتلال!

ألا فاقراًوا معاصر الإنجليز التاريخ الإسلامى وانظروا فى أعمال أولئك الخلفاء العظماء الذين كان الواحد منهم ينشد الحقيقة فى كل وقت وفى كل مكان ويمتثل للحق ولو كان قائله من أحقر الناس.

فخليق، بالإنجليز وهم الذين يدعون أمن مدنيتهم سادت كل مدينة أن يذكروا أن رجال المدينة الإسلامية لم يكونوا ليقولوا: «السياسة فوق الحق»، بل كانوا يقولون ويؤيدون هذا القول بألف دليل ودليل: الحق فوق كل شيء.

الثروة والأزمة

أيها السادة، يفاخرنا الإنجليز على الدوام بأنهم أغنوا البلاد وملأوها ذهباً حتى حدثت الأزمة الأخيرة وخفت هذا الصوت الذى صمت من سماعه الآذان أعواماً طويلاً.

فما قيمة الثروة التى يفاخرون بها بجانب الحرية الشخصية والعمومية وسيادة المصرى فى بلاده واستقلاله فى وطنه؟ ومن من المصريين لا يفضل أن يكون أفقر الناس جميعاً وحكومة بلاده قائمة على العدل الصحيح على أن يكون أغناهم وأثراهم ويهدد من المحتلين بعقوبات دنشواى؟

وإذا كان من المسلم أن ارتفاع أثمان أراضى الزراعة تابع لثمن القطن، وأن هذا خاضع لطلبات العالم ولحاجة الناس للقطن المصرى بنوع خاص ولقلة المحصول الأمريكى وللمضاربة، فما أثر الإنجليز فى هذه الثروة؟

لاشك أنه جرت إصلاحات جمة فى الرى وأن الأعمال التى بدىء بها فى عهد الخديويين السابقين تقدمت فى العهد الحاضر، ولكن هذا الإصلاح فى الرى ليس مزية خاصة للحكم البريطانى، ثم ألم يكن هذا من فائدة الإنجليز أكثر مما هو فى فائدتنا؟ ألم يكن من مصلحتهم إرضاء دائنى مصر وفتح السودان وإصلاحه بأموال مصر.

ومن الذى ينكر اليوم أن الأزمة المالية الحاضرة ناشئة عن فوضى البورصة وعن كثرة

الشركات التى دبرتها اليد التى قيدت الشركات المؤسسة بمقتضى القانون المصرى بقيود جمة لإيجاد أسهم للتأسيس حتى تؤسس الشركات كلها بمقتضى القانون الإنجليزى. من الذى ينكر أنه كان فى استطاعة الإنجليز أن يطلبوا من الدول وضع قانون للبورصة ويقيدوا السماسرة والشركات بقيود متينة صيانة لمصالح البلاد.

وأى خلل فى المالية المصرية أكبر من الذى فضحه المستشار المالى السابق نفسه حين أعلن أن مصر خسرت ٧٠٠٠٠ جنيه فى كل مليون اشترت به أسهم الترנסفال أو القونسليد الإنجليزى، فهل كانت تجرى هذه الأمور كلها لو كان للأمة مجلس نيابى يراقب أعمال الحكومة وكانت الحكومة مؤلفة من عناصر أهلية وليس للأجنىبى عليها سيطرة؟ ومن ذا الذى يتغنى بعد الآن بالإصلاح المالى البريطانى فى هذا القطر.

إن الذى يفاخر بزيادة الثروة وبوصول مالية الحكومة المصرية إلى مركز سام يجب عليه قبل كل شىء أن يعدد الأعمال العامة والمنافع المختلفة التى عادت على القطر من هذه الزيادة.

فهل يستطيع الإنجليز أن يدعوا أنهم رقوا الفلاحين «أصحاب الجلابيب الزرقاء»، ونشروا أنوار المعارف بينهم وهم الذين سدوا أبواب المدارس فى وجوههم وقالوا لهم: «حكمننا على أولادكم بأن يكونوا فقراء تعسين وأن لا يتسلحوا أبداً بسلاح العلم».

هل من مفاخر العهد البريطانى أن ينفق على المجانية ابتداء من هذا العام ١٦٠٠ جنيه ليس إلا، وميزانية الحكومة بلغت خمسة عشر مليوناً من الجنيهات على حين أن التعليم كان مجانياً فى كافة مدارس مصر يوم لم تكن ميزانية الحكومة تزيد عن المليونين؟

هل يقدر الإنجليز أن يدعوا أنهم أصلحوا الحالة الصحية فى البلاد وغيروا من معيشة الأهالى وأن مدينة العاصمة صارت نظيفة فاخرة لا يجد المتنقل فيها محلاً للانتقاد فى فصل من فصول السنة؟ هل لهم أن يدعوا أنهم حموا الأطفال من الأمراض المختلفة التى تقتلهم مئات وألوفاً؟

فما فائدة الأموال التى تجمع والخزينة التى تملأ بالذهب الوهاج إذا كانت الأسوار قائمة بين الفقراء والعلم، والأحوال الصحية على أسوأ حال، والعدل مزعزع الأركان، والمصرى لا يملك فى بلاده نفوذاً، ولا يسمع له صوت، والأمن مختل أى اختلال؟

الأمن العام

دعا الإنجليز حب نزع السلطة من المصريين إلى تدمير الإدارة المصرية تدميراً حقيقياً بإحلال سلطة المفتش محل سلطة المدير، فصار الأشقياء لا يخافون الحكومة لأن قوتها الحقيقية تلاشت من أمامهم، وصرنا نسمع بحوادث القتل والفتك في كل بلد، بما أذهل الناس جميعاً، وقد اضطرب المحتلون في التشريع اضطراباً عجبياً، فتراهم يغيرون القوانين ويقلبون المبادئ التشريعية بسرعة فائقة كأنهم يبدلون في مواد لائحة من لوائح البوليس والمخالفات لا في قوانين أساسية يساس بها شعب كبير، وهم اليوم يطلبون تقرير النفي الإداري الأمر الذي أسخط الأمة كلها وأظهر فشلهم الفاضح. وهذا خلل كبير في إدارة شئون مصر، فإن كل بلاد حرمت قوة تشريعية حقيقية تكون خاضعة لسياسة الأهواء.

الحكومة الأهلية

لذلك قلنا أن المصريين لا يرضون بإصلاحات سطحية يعطونها ذراً للرماد في العيون، بل إنهم لا يطمنون على أنفسهم وبلادهم إلا إذا عادت الحكومة الأهلية بسلطانها وسطوتها ورهبتها وكانت الحكومة دستورية خاضعة لمبادئ التمدن الحديث ومستمدة قوتها من الشعب وعاملة برغائبه ممثلة لأوامره.

وإذا كان بعض الإنجليز يرون أن ما عمل في مصر في الخمسة والعشرين عاماً الأخيرة كافياً لتشريف إنجلترا ولائقاً بمدينتها وبما ينتظر منها، فإننا نعتقد أن إنجلترا قادرة على أن تعمل أحسن مما عملت وتحترم شرفها وعهودها وتاريخها وتقاليدها بخطة أخرى غير الخطة التي اتبعتها.

إن الإنجليز الذين يتألمون لمطالبتنا باحترام تعهدات الملكة فيكتوريا وتصريحات كبار وزرائها ينسون أن مخالفة هذه التعهدات وتلك التصريحات أشد إبلاماً لهم في الحقيقة من كل انتقاد يوجه إليهم، وأن الذي يدعوهم لاتباع سياسة العدل والمدنية إنما يدعوهم

لما هو أليق بهم وبشرف دولتهم وعظمتهم.

كيف لا ومطاعن الطاعنين وشتائم الشائمين لا تؤثر في شرف انجلترا وسمعتها عشر معشار ما يؤثر قول العالم المتمدن عنها إنها تعادى الوطنيين المصريين وتحاربهم لأنهم يطلبون اتباع مبادئ الوطنية وتعميم التعليم وإقامة الدستور مقام الظلم والاعتساف - وينادى بأنهم لا يرضون بحكومة الرجل الفرد سواء كان مصرياً أو أجنبياً، وأن مداركهم ارتقت إلى حد أنهم يعتبرون أنهم من عائلة الشعوب المتمدنة، ويطلبون أن يعاملوا كذلك.

لذلك كان من المؤكد عندنا نجاحنا عاجلاً أو آجلاً، لأن الزمان يكفل النجاح لصاحب الحق على الدوام!

أعداء الحزب الوطنى والنزلاء

هذه خطتنا أيها السادة وهذه مطالبنا التى نرمى إلى تحقيقها، فهل يقول منصف عادل بأنها غير موافقة لصالح مصر والمصريين.

كلا، ولكن عصابة الكتاب الأوروبيين فى هذه الديار حملت علينا حملة شعواء، ووجهت إلينا من السباب ما لا يتصور صدوره من رجال متمدنين، ورمتنا هذه العصابة بتهم شنيعة لو كان لها نصيب من الحقيقة لكنا من المجرمين.

ولقد يتوهم البعض منا أن هؤلاء الكتاب يعبرون عن أفكار النزلاء الأوروبيين فى هذه الديار ونزعاتهم، ولكن هذا الوهم باطل، لأن أولئك النزلاء يحبون مصر على ما أعتقد، ويعترفون لها بالجميل ويرجون لها الخير ولا ينسون أنها البلاد التى لاقوا فيها الإكرام التام والحفاوة الزائدة ووجدوا تحت سمائها ما يطلبون من كسب عميم وخير وفير.

إن النزلاء الأوروبيين يقدرّون الوطنية حق قدرها لأنهم يحبون بلادهم حباً جماً ويظهرون هذا الحب فى كل آن، فمن منا يصدق أن أولئك الذين يعيشون وفخارهم استقلال أوطانهم ويعتقد الواحد أنه راية بلاده يمثلها أنى كان وأن الاعتداء عليه اعتداء عليها يجاهدون ضد أمة تنهض مطالبة بالاستقلال وتعمل لزوال الاحتلال!

إني أعتقد إعتقاداً جازماً أن لنا في النزلاء الأوروبيين أصدقاء عديدين وأن عدد أولئك الأصدقاء يزداد كلما أثبتنا لهم بالدليل والبرهان أننا نريد أن تكون مصر عضواً عاملاً في جسم الأمم المتعدنة، وأننا نطلب الاستقلال لتكون بلادنا مصدر النور والعرفان في الشرق كله، وأننا لا نريد مطاردة أحد من الناس، بل نعد من شرف مصر وامتيازها على غيرها من البلاد أنها ترحب بكل قادم إليها وتوسع له في ديارها غير خائفة على أبنائها من مزاحمة أو منافسة بل مسرورة بكثرة العاملين وهم الساعين المجدين.

تهمة الثورة

بماذا طعن الطاعنون فينا:

قالوا إننا نريد إحداث ثورة دينية في البلاد وأنه أوعز إلينا من الأستانة بها. وهو قول الجاهل أو المتجاهل المتعنت الذي يريد أن يحارب خصومه بكل سلاح، إذ كيف يقبل العقل السليم أو يتصور إنسان ذو لب وإدراك أن قادة الأفكار في مصر يعملون لهدم البقية الباقية من استقلال هذه البلاد ويحزبون أوروبا بأسرها على مصر والمصريين، ألم نقل مراراً وتكراراً إن كل فتنة تحدث في مصر لا تفيد إلا المحتلين؟ ألم نكن أول الداعين للسكينة المطالبين أبناء وطننا بأن يعملوا بعزم وهمة وصراحة ولكن مع السكينة والمحافظة على الأمن العام، ألم نجعل أساس سياستنا وقاعدة خطتنا وروح أعمالنا استخدام الوسائل السلمية لنيل حقوقنا والتمسك بالطرق القانونية دون غيرها؟.

ومن الذي يستطيع أن يقول إن للاستانة منفعة في إحداث ثورة في مصر؟ وما الذي يدفعها إلى ذلك؟ أعداوتها للمسيحيين وأسمى وظائف الدولة في قبضتهم؟ وماذا يكون مركز الدولة العلية لو تارت مصر وضربتها أوروبا الضربة القاضية؟ ألا تكون هي المسئولة بالذات عن ذلك إذا صح أنها تعرض على ثورة فيها؟ أو ليس التحريض داعياً إلى المؤازرة؟ فأى مؤازرة ترضى تركيا أن تقوم لنا بها على أوروبا كلها؟

إن القائلين بذلك أعداء متعنتون أو جهلاء لا يدركون معنى ما يقولون، لأن المصري

الذى يدعو إلى فتنة أو يعمل لها يكون عدواً لبلاده، وإذا وجد في العالم دولة تنصح للمصريين باستعمال السكينة وملازمة الحكمة والتبصر فهي الدولة العلية، لأنها بلا نزاع أشد الدول غيرة على سلامة مصر وأكثرهن فائدة من عدم إزدياد مصائبها وبلاياها.

تهمة خيانة مصر

رمانا الطاعنون أيضا بأننا نريد أن نخرج الإنجليز من مصر لنعطيها لتركيا كولاية عادية، أى أننا نريد تغيير الحاكمين لا طلب الاستقلال والحكم الذاتى

وما هذه التهمة إلا تصريح بأن علوم الغرب وآدابه التى نقلت إلى مصر من مدة قرن من الزمان ما زادتنا إلا تمسكا بالعبودية والمذلة، وأن معرفتنا لحقوق الأمم وواجباتها لم ترشحنا إلا أن نكون عبيداً أرقاء.

فهذه التهمة هى مسبة للمدنية والمتمدنين وقضاء على الأمة المصرية بأنها لا ترقى أبداً ولا تبلغ مبلغ غيرها من الشعوب، لأنه إذا كان المتعلمون من أبنائها يطلبون إحلال نير محل نير واستبدال استعباد باستعباد فكيف يطمع طامع في تقدمها وارتقائها ووجود ضمير أهلى لها؟

إن القائلين بذلك يدعون الناس لأن يسخروا من عقولهم ومداركهم لأن الصومالى والحبشى وكافة الأمم التى هى دون الأمة المصرية براحل في العلم والأدب والشعور دافعت عن استقلالها أجمل دفاع وبرهنت للعالم طرا أن حب الوطن فطرة فطر الناس عليها وأن الإنسان لا يحتاج إلى علم ولا إلى أدب ليشعر بهذا الشعور.

فليعلم أعداء مصر أننا نطلب لها الاستقلال ونطلب لها ذلك الاستقلال بأعلى أصواتنا، وعلى مسمع من أمم الأرض كلها، وأننا إذا أخلصنا الود لأمة أو لدولة فإنما نعمل كغيرنا ونتبع ناموس الطبيعة بأن من إتفقت مصالحهم يجتمعون ويتناصرون.

وإذا كانت إنجلترا تسعى الآن للتقرب من الدولة العلية وتغير سياستها نحوها تغييراً محسوساً، فمن الذى يلوم المصريين على أن يكونوا أقرب الناس من تركيا قولاً وفعلاً وأن يحافظوا على هذه الصلة ما استطاعوا؟

تهمة التضييق في الوطنية

قال أعداؤنا فيما قالوا: إننا ضيقو الفكر صغار الآمال، وإننا نأبى على الذين ولدوا في مصر واستوطنوها أن يكونوا مصريين، وهذا قول لا يقوم عليه برهان.

إننا إذا قاومنا بكل قوانا تلك الفئة التي قابلت إحسان مصر بالنكران وأعلنت على البلاد وأهلها حرباً عواناً فإننا نميز بينها وبين بقية الشرقيين من ترك وعرب وسوريين الذين إختاروا مصر وطناً لهم وأحبوها وشاركونا في الآلام والآمال وصاروا مصريين فعلاً.

إننا نستقبل بمزيد السرور والانشراح كل راغب في الدخول في جنسيتنا، معترف بحقوقنا، مقدر لشرف جهادنا، عامل على بلوغ الاستقلال، لأننا نريد زيادة قوى الوطن والاستزادة من الأيدي العاملة لخيره ولنفعه ومجده وعظمته.

وإن الأمم التي تخاف دخول الغريب فيها وإنتهاه إليها هي الأمم الضعيفة في وطنيتها، المضطرب فؤادها على جامعتها، ونحن اليوم بمحمد الله أمة قوية الشعور راقية الإحساس لا تخاف على وطنيتها، فليدخل في الجنسية المصرية من أراد فإنّه إن لم يزددها قوة زادته هي حمية وإقداماً، وملأت قلبه بحب الحرية والاستقلال.

تهمة التعصب الديني

قال أعداؤنا أيضاً: إننا نخلط الإسلام بالوطنية، ونتكلم دائماً عن المسلمين ونطلب إدخال الدين في التعليم، وفسروا ذلك بأنه تعصب ذميم.

فكيف لا تكون انجلترا وألمانيا متعصبتين وهما الدولتان المتمسكتان بالتعليم الديني في مدارسهما ونتمن نحن بالتعصب الديني؟ لماذا يكون الإنجليزى وطنياً وبروتستانتياً في آن واحد ولا يكون المصرى المسلم وطنياً ومسلماً؟ ألا تكون الوطنية صحيحة سليمة إلا إذا قضت على الدين ومحبته؟

ألا إن الحقيقة الساطعة التي لا ريب فيها هي أن الوطنية والدين يتفقان بل وقد يكونان متلازمين.

نحن إذا طلبنا إرشاد أمتنا إلى الحقيقة الدينية، فما ذلك إلا لأن الأضاليل والأكاذيب والخزعبلات التي راجت بين العامة باسم الدين قلبت حقيقة هذا الدين، فصار الجهل والتأخر والانحطاط وكل الآفات مما يلقي على الدين وينسب إليه والدين منه براء. لذلك كان من المستحيل إحياء الأمة وإنهاضها بغير الحقيقة الدينية، لأنه لا سبيل لإبادة جيش الباطل الذي ألف ونظم باسم الدين إلا بالدين نفسه.

فالتعليم الديني ليس فرضاً من الوجهة الدينية فحسب، بل هو كذلك أيضاً من الوجهة الوطنية، لأنه لو وقف المرشد أمام الأهالي ونبيههم إلى واجباتهم باسم الوطن والعلم والمصلحة وأجابه الضالون منهم بما عندهم من الاعتقادات الباطلة بأن الدين ينافي ما يقول لما قهرهم واستعالمهم إلى فكره إلا إذا أثبت لهم أن الدين ليس ما اعتقدوا بل إن الدين مخالف لتلك الخزعبلات التي آمنوا بها وأنه متفق مع العلم والوطن تمام الاتفاق. على أن بث الحقيقة الإسلامية بين المسلمين من أكبر الأسباب الموجدة للتسامح والتقرب من الشعوب الأخرى، إذ لا تعصب مع علم ولا نفرة مع نور ورشاد، فمن منفعة العناصر كلها أن يعرف المسلمون دينهم على حقيقته وأن تزول أوباء الجهالات والخرافات من بينهم.

تهمة تحريض المسلمين على الدول

لم يكتف الطاعنون فينا بنسبة التهم المتقدمة إلينا بل قالوا إن الحزب الوطني آلة في يد ألمانيا تحركها ضد فرنسا وانجلترا لإحداث فتنة في البلاد الإسلامية التابعة لهما، وما قصدوا بهذه التهمة إلا جمع كلمة الدولتين ضدنا وتنفير أصدقائنا العديدين في أوروبا منا.

إننا نعلن للملأ كله أن الحزب الوطني مستقل عن كل الدول والحكومات والملوك والأمراء. وأنه إنما طلب سعادة مصر واستقلالها من كل طريق يجده مساعداً على الوصول إلى الغاية، وليس هناك برهان على إفك أعدائنا أكبر وأقطع من أننا انتقدنا السياسة الألمانية مراراً وقلنا لها إن المسلمين لا يصدقون بمحبتها إلا إذا غيرت خطتها في مصر

وطلبت حل المسألة المصرية في مؤتمر دولي كما فعلت بشأن مراكش، وشتان ما بين مصر ومراكش في الأهمية ووفرة المصالح الأوروبية.

إن المسلمين يخدعون أنفسهم كثيراً ويسيتون إلى بلادهم حقيقة إذا اعتقدوا أن سلامتهم في الاعتماد على دولة من الدول، وأن لهم أن يناموا على وسادة الأمان والاطمئنان إذا جاملتهم هذه الدولة بكلمة حب وانعطاف لغاية يجهلون.

إنما سلامتهم في أن يعملوا بأنفسهم لصيانة بلادهم وحمايتها بالعلم والعدل والنظام والدستور. فإن البلاء في أن يكون الإسلام سلاحاً بيد الجاهل الغبي يقتل باسمه البريء من المسلمين وغير المسلمين ويخرب البلاد ويؤذي العباد قائلاً: «إن هذا من عمل الإسلام».

إن الإسلام برىء من هذه الفظائع، إن الإسلام يقضى بكل قوة على هذه القبائح، الإسلام والجهل عدوان لا يتفقان، فلا إسلام بغير علم وفضل وعدل ومدنية وإنسانية، فلترفع الأمم الإسلامية التي لا تزال قادرة على حماية بلادها وصيانة استقلالها رايته، ولتعمل على اليابان فتعتمد على الجهد وحده وتطلب الحياة والسؤدد من جهودها ومساعدتها لا من تعضيد دولة ورعاية حكومة أجنبية.

فإن السياسة التي تدفع بهذه الحكومة لمساعدة أمة إسلامية في ساعة من ساعات حياتها قد تتغير بتغير الظروف والأحوال فلا تساعدنا في ساعة أخرى.

وإنه خير لمرشدى المسلمين والناصحين لهم أن يحملوا على أسباب الفشل والسقوط التي نشأت بينهم ويحاربوا الجهلاء والأغبياء منهم قبل توجيه الملام إلى الهاجين عليهم، فإنما الجهل هو الذي دعا الأجنبي لأن يطمع فيهم، ولو نظم المسلمون بلادهم وأثبتوا للعالم أن الإسلام دين مدنية وعمران وقوة ورفعة، لما اعتدى عليه أحد ولخطب ودهم كل إنسان!

الاتحاد والعمل

أيها السادة، دعا لورد كرومر قبل سفره كافة العناصر الأجنبية للاتحاد ضد المصريين تنفيذاً لسياسة التفريق التي عمل لها طول حياته، فاسمحوا لي أن أدعوكم للاتفاق

والاتحاد وإزالة كل سبب للنفور والشقاق بينكم وبين النزلاء، فإن الاتحاد هو القوة الكبرى، ولولاه ما قام الشعب في العالم وما وجد التضامن بين أفراد الهيئة الاجتماعية. إنه ليحزنكم كثيراً أن تجدوا المنافقين والخائنين من أبناء البلاد، وهو حال يحزن ولكنه ليس خاصاً بمصر، بل هو عام في الدنيا كلها، وإذا أحزن الوطنيين الصادقين من جهة فإنه يسرهم من جهة أخرى، لأنه يبعد العناصر الفاسدة من الحركة الوطنية ويجعلها طاهرة خالصة من كل شائبة.

فضموا صفوفكم وأجمعوا أمركم واعملوا بجهد وهمة واثبتوا للأعداء والأصدقاء أننا أحق الأمم بالدستور والاستقلال، إن الوطنية الحققة تقضى على صاحبها بأن يضحي حياته خدمة لوطنه لو دعت الحاجة لذلك، فلنضج جميعاً أحقادنا الذاتية وخصوماتنا الشخصية، ولننس عداواتنا واختلافاتنا أمام المصلحة الوطنية وأمام الوطن المقدس، لننس أشخاصنا ولنترك الطمع في الزعامات والرئاسات ونتبع أحقرنا إذا كان على الحق، فإننا إذا نصرناه نصرنا الوطن والأمة، وإذا خذلناه خذلناها معاً.

أيها السادة! إن العالم ينظر إلى مصر وما سيكون من أمر حركتها الوطنية وإن أعداءنا يدبرون ألف تدبير لهدم دعائم هذه الحركة ومحو آثارها.

فاذكروا ذلك على الدوام ليزداد الاتفاق بيننا وليوجد الإخاء بأسمى معانيه بين صفوفنا.

إني لأدعو كل واحد منكم للدخول في الحزب الوطني، حتى تتسع دائرة العمل للخدمة مصر، ويزداد الطالبون للاستقلال، الممثلون للأمة في همتها ونخوتها واجتماع كلمتها، العاملون على إنالتها شرف الأحياء ومجد الراقين!

فهرست الكتاب

صفحة	صفحة
١٥ مقدمة الطبعة الرابعة	٣ صورة المؤلف
١٧ مقدمة الطبعة الثالثة	٥ صورة مصطفى كامل
١٩ مقدمة الطبعة الثانية	٧ إهداء الكتاب
٢٣ مقدمة الطبعة الأولى	٩ تقديم الكتاب
٢٨ أقسام الكتاب	١٣ مقدمة الطبعة الخامسة

الفصل الأول

نشأة الفقيه والعصر الذى ظهر فيه

٣٥ فى المدرسة الثانوية	٣١ نشأته العائلية
٣٦ فى مدرسة الحقوق	٣١ والد المترجم
٣٦ نشأته الأخلاقية	٣٣ والد المترجم
٣٧ نشأته الوطنية	٣٤ نشأة الفقيه المدرسية
٤٠ العصر الذى ظهر فيه مصطفى كامل	٣٤ وفاة والده
	٣٥ حصوله على الشهادة الابتدائية

الفصل الثانى

المرحلة الأولى من الجهاد

فى المدرسة الثانوية وفى مدرسة الحقوق

٥٠ رواية (فتح الأندلس)	٤٧ إنشاء مجلة المدرسة
٥٠ امتحان السنة الثانية	٤٨ اتصاله بعبد الله نديم
٥١ حصوله على شهادة الحقوق	٤٩ سفره إلى باريس لأداء امتحان الحقوق

الفصل الثالث

المرحلة الثانية من الجهاد

بعد نياله شهادة الحقوق

٥٤ جهاده بعد عودته إلى مصر	٥٢ شعوره بواجبه نحو مصر
٥٥ دراسته المسألة المصرية	٥٣ حديثه فى جريدة (جازيت دى تولوز)

الفصل الرابع

جهاده سنة ١٨٩٥

صفحة	صفحة
خطبته في تولوز (أول خطبة سياسية	٥٧ حديثه مع الكولونل بارنج
له في أوروبا) ٦٥	٥٨ نشر الدعوة الوطنية
٦٦ في فيينا	٥٨ احتجاجه على تأليف المحكمة المخصصة
٦٧ رسالته في أخطار الاحتلال البريطاني	٥٩ حضور النائب الفرنسي دلونكل
٦٧ أحرار في بلادنا كرماء لضيوفنا	سفر المترجم إلى باريس ودعايته
٦٨ تعرفه إلى مدام جوليت آدم	٥٩ للقضية المصرية في أوروبا
٧١ حديثه في جريدة (الكلير)	٦١ ندائه إلى مجلس نواب فرنسا
٧٢ خطبته في الجمعية الجغرافية بباريس	٦٤ حديثه في جريدة الجورنال

الفصل الخامس

جهاده سنة ١٨٩٦

٨٢ خطبته بالفرنسية في الاسكندرية	٧٣ خطابه إلى جلاستون في شأن الجلاء
٨٣ مجموعة أعمال المترجم في عام	٧٤ رد جلاستون
٨٥ استئناف الجهاد في أوروبا	٧٦ خطابه الثاني إلى جلاستون
٨٥ ذكرى ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢	٧٧ عودته إلى مصر
٨٧ خطاب ثالث إلى جلاستون	٧٧ كتابه إلى مدام جوليت آدم
٨٨ رد جلاستون	٧٨ أول خطبة وطنية له بالاسكندرية
٨٩ دعايته في ألمانيا	٧٩ هدية التفرغ إلى المترجم
٩١ في النمسا	برهان الإخلاص من أهالي الاسكندرية
٩٣ ذهابه إلى الاسكندرية	للوطنى الغيور مصطفى كامل
٩٨ عودته إلى مصر	٨٠ كتاب المترجم إلى أهالي الاسكندرية
٩٨ مكيدة للمترجم - الشروع في تجهيزه	٨١ اضطهاد الإنجليز شقيقه

الفصل السادس

جهاده سنة ١٨٩٧

صفحة	صفحة
١١٢ ذكرى ضرب الاسكندرية	١٠٠ مرضه ثم إبلاله
١١٣ صدى جهاده فى أمريكا	١٠٠ نداؤه إلى ألمانيا
١١٥ فى فيينا وباريس	١٠١ رحلته فى أوروبا
١١٦ خطبته بباريس	١٠٣ حديثه مع الدكتور رزرنر
١١٦ الدعوة إلى الجهاد الوطنى	١٠٤ وليمة المترجم فى فيينا
١١٧ الشباب والشيوخ فى الجهاد	١٠٥ رحلته إلى بودابست
١١٧ الإشادة بالوطنية	١٠٥ فى برلين
١١٨ محاربة اليأس	١٠٧ فى باريس
١١٨ الوطنية والحياة فى أوروبا	١٠٧ عودته إلى مصر
سفره إلى برلين ثم عودته	اقتراحه على مربيأ اشتراط الجلاء عن
١٢٠ إلى باريس	مصر مقابل الجلاء عن اليونان
١٢٠ اعتزازه بمصريته	١٠٨ خطبته بالإسكندرية
١٢١ عودته إلى مصر ومرضه	١١١ سفره إلى أوروبا

الفصل السابع

حادثة فاشودة وجهاد الفقيد سنة ١٨٩٨

١٢٩ حادثة فاشودة وتأثيرها فى الحركة الوطنية	١٢٣ خطبته فى حديقة الأزيكية
١٣٢ نيات مصطفى كامل فى الجهاد	١٢٤ جريد الوطنية
خطاب الفقيد إلى فريد بك فى ١٩	١٢٤ لوطنية والمال
١٣٤ أغسطس سنة ١٨٩٨	١٢٥ لدعوة إلى الحياة الحرة
خطاب الفقيد إلى فريد بك فى ٤	١٢٥ لرد على الحملات الاحتلالية
١٣٦ سبتمبر سنة ١٨٩٨	١٢٦ لهور كتابه عن المسألة الشرقية
١٣٧ خطبته بالقاهرة	١٢٧ جهاده فى أوروبا

الفصل الثامن جهاده سنة ١٨٩٩

صفحة	صفحة
١٥٠ سفره إلى أوروبا	١٤٠ اتفاقية السودان
١٥١ الانعام عليه برتبة المتمايز	١٤٢ نص اتفاقية السودان
١٥١ عودته إلى مصر	١٤٥ احتجاج الفقيد على اتفاقية السودان
١٥١ خطبته بالقاهرة	١٤٨ دعوته إلى نشر التعليم القومي
	١٤٩ إنشاء مدرسة مصطفى كامل

الفصل التاسع ظهور اللواء والجهاد الأكبر

١٦٥ محاربة اليأس، والثقة في الأمة	١٥٢ ظهور اللواء سنة ١٩٠٠
١٦٥ الثقافة الوطنية	١٥٥ خطبة الفقيد بالاسكندرية
١٦٦ خطبة الأمير محمد إبراهيم	١٥٧ سفره إلى أوروبا
..... الاحتفال بالعيد المئتي لولاية	دعوة الأمة إلى الاعتماد على نفسها ١٥٨
١٦٧ محمد علي	دعوته إلى إحياء الصناعة ١٥٩
١٦٩ خطبة الفقيد في الاحتفال	إحياء ذكرى الرجال العاملين ١٥٩
١٧٠ وصف الخطبة وتأثيرها	خطبته في افتتاح مدرسة الشوريجي ١٦١
١٧٣ دعوته إلى الدستور	في باريس ١٦٣
١٧٤ مجيء مدام آدم إلى مصر	احتفال مدرسة معطفي كامل برياسة
١٧٧ الإنعام على الفقيد بالباشوية	الأمير محمد إبراهيم ١٦٤

الفصل العاشر الاتفاق الودي بين فرنسا وإنجلترا

١٨٥ التضحية والثبات	١٧٨ إبرام الاتفاق سنة ١٩٠٤
١٨٥ الوطنية لا تتثنى أمام العقبات	تأثير الاتفاق في مصر ١٧٩
١٨٦ الاستقلال والاحتلال	أثر الاتفاق في نفس المترجم ١٨٠
١٨٧ سياسة الاحتلال	خطبة رياض باشا في احتفال مدرسة
١٨٧ الوطنية والجهاد والدعوة إلى الاتحاد	محمد علي الصناعية ١٨١
١٨٩ ظهور كتابه عن اليابان	خطبة الفقيد بالاسكندرية ١٨٣

صفحة	صفحة
١٩٢ تقارير اللورد كرومر	الاحتفال بعرض الجيش الانجليزى
١٩٣ تعيين ياور انجليزى للخديو	١٨٩ فى ميدان عابدين
١٩٣ ظهور كتاب (المصريون والإنجليز)	١٩١ زيارات اللورد كرومر للأقاليم

الفصل الحادى عشر

نادى المدارس العليا

وتطور الأفكار سنة ١٩٠٥ و ١٩٠٦

٢٠١ إضراب طلبة الحقوق سنة ١٩٠٦	١٩٦ التفكير فى إنشاء النادى
٢٠٣ حادثة العقبة سنة ١٩٠٦	١٩٧ أول جمعية عمومية للنادى
٢٠٤ زيادة جيش الاحتلال	١٩٩ افتتاحه

الفصل الثانى عشر

حادثة دنشواى

٢٢٩ الامتيازات الأجنبية	٢٠٥ تفاصيل الحادثة
٢٣٠ الدستور وحقوق المصريين	٢٠٨ المحاكمة
٢٣٢ مغادرة الفقيد لندن وسفره إلى فيشى	٢٠٩ الحكم
٢٣٢ عودته إلى مصر	٢١٠ كيف قبل الحكم
خطاب الفقيد إلى فريد بك فى سبتمبر	٢١٠ تنفيذ الحكم
٢٣٥ سنة ١٩٠٦	٢١٢ مصطفى كامل وحادثة دنشواى
٢٣٩ نتائج حادثة دنشواى	٢١٤... إلى الأمة الإنجليزية والعالم المتمددين
٢٤٠ ١ - اشتداد ساعد الحركة الوطنية	٢٢٢ مصطفى كامل فى لندن
٢ - اهتمام الصحف العالمية	٢٢٣ حديثه فى جريدة الديلى كرونكل
٢٤٠ بالمسألة المصرية	٢٢٤ احتفال الشرقيين بالفقيد فى لندن
٢٤١ ٣ - تغيير سياسة الاحتلال	٢٢٥ خطبة السهروردي
٢٤١ ٤ - تأسيس الجامعة المصرية	٢٢٥ خطبة صاحب الترجمة
٢٤٣ ٥ - تعيين سعد زغلول باشا وزير المعارف	٢٢٨ وليمة (كارلتون) وخطبة المترجم
٢٤٤ ٦ - استقالة اللورد كرومر	٢٢٨ الاستقلال والمال
٢٤٦ الاتحاد	٢٢٩ السودان

الفصل الثالث عشر جهاد الفقييد عام ١٩٠٧

صفحة	صفحة
ظهور ليتتدار اجبسيان وذى	٢٤٧
اجبسيان استاندر	٢٤٩
خطبتان لصاحب اللواء	٢٥٠
الأمل	٢٥٠
الاتحاد	٢٥١
حفلة تكريم اللورد كرومر	٢٥١
تعيين المستر هيل ناظراً لمدرسة	٢٥٢
الحقوق	٢٥٣
مقالة الأستاذ إدوار لامير	٢٥٦
كتاب المترجم إلى السير هنرى	٢٦٠
كاميل بانرمان	٢٦٠
عظم منزلة الفقييد	٢٦٠

الفصل الرابع عشر تأسيس الحزب الوطنى (حزب الجلاء)

تاريخ الحزب الوطنى	٢٦٣
خطبة الفقييد الكبرى بالاسكندرية	٢٦٤
وصف الاجتماع وتأثير الخطبة	٢٦٦
أول جمعية عمومية للحزب الوطنى	٢٦٨
خطبة الفقييد فى الجمعية العمومية	٢٦٨
أول لجنة إدارية للحزب الوطنى	٢٦٩
الإفراج عن مسجونى دنشواى	٢٧٠

الفصل الخامس عشر القضاء المحتوم

مرض الفقييد	٢٧٢
الوفاة وجنازة الزعيم	٢٧٤
قصيدة حافظ ابراهيم	٢٧٧
رثاء الزعيم وحفلات التأبين	٢٨٠
رثاء شوقى لمصطفى كامل	٢٨٠
حفلة التأبين الكبرى يوم الأربعاء	٢٨٤
خطبة محمد بك فريد	٢٨٤
قصيدة اسماعيل باشا صبرى	٢٨٧
قصيدة حافظ ابراهيم	٢٨٩
بقية المراثى	٢٩١
قصيدة خليل مطران	٢٩٢
تمثال مصطفى كامل	٢٩٦
حفلة إزاحة الستار عن تمثال مصطفى كامل	٢٩٩
خطبة على ماهر باشا	٢٩٩
مقتطفات من أقوال الشعراء والكتاب	٣٠٣
لمناسبة حفلة إزاحة الستار	٣٠٣
قصيدة خليل مطران	٣٠٣

صفحة	صفحة
٣١١ ٣ - جائزة كلية تولوز	٣٠٦ كلمة الأستاذ محمود العمرى
٣١٢ كلمة الأستاذ محمد محمود جلال	٣٠٩ قصيدة أحمد محرم
٣١٤ ضريح مصطفى وفريد	٣١٠ جوائز مصطفى كامل
٣١٧ الاحتفال بنقل رفات مصطفى كامل	٣١٠ ١ - المباراة الأدبية
٣١٨ الاحتفال بنقل رفات محمد فريد	٣١١ ٢ - جائزة كلية الحقوق

الفصل السادس عشر الحديو عباس حلمي الثاني

٣٢٠ بيع البواخر الحديوية	٣٢٠ التاريخ السياسي والتاريخ الوطنى
٣٣٢ بيع أملاك الدائرة السنية	٣٢٠ نشأة الحديو عباس الثانى
٣٣٢ الشروع فى بيع سكك حديد السودان	٣٢٠ ارتقاؤه العرش
٣٣٣ حوادث السودان	٣٢١ الحوادث المهمة فى عهده
٣٣٣ حملة دنقلة سنة ١٨٩٦	٣٢١ أزمة فرمان سنة ١٨٩٢
٣٣٥ واقعة فرقة	٣٢٣ أزمة إقالة الوزارة الفهمية
٣٣٦ واقعنا الحفيرة ودنقلة	٣٢٥ تأليف وزارة رياض باشا
٣٣٦ استرجاع أبى حمد وبربر	٣٢٥ شعور الأمة إزاء هذه الأزمة
٣٣٦ واقعة عطبرة	٣٢٦ موقف الدول
٣٣٧ واقعة أم درمان واسترجاع الخرطوم	٣٢٧ أزمة الحدود سنة ١٨٩٤
٣٣٨ رفع الراية البريطانية على السودان	استقالة وزارة رياض باشا وتأليف
٣٣٨ اتفاقية ٩ يناير سنة ١٨٩٩	٣٢٨ وزارة نوبار
٣٣٩ تعديل الحدود بين مصر والسودان	وزارة مصطفى فهمى باشا
٣٣٩ تمرد فى الجيش المصرى	٣٢٩ (الوزارة الطويلة)
٣٤٠ زيارة الحديو للسودان	٣٣٠ أهم الحوادث فى عهدها
٣٤١ افتتاح سكة حديد بورسودان	٣٣٠ إنشاء البنك الأهلى

الفصل السابع عشر مصطفى كامل والحديو عباس الثانى

٣٤٥ قطع علاقته بالحديو سنة ١٩٠٤	٣٤٢ صلة الحديو بالحركة الوطنية
٣٤٧ استقلاله عن الحديو	خطاب الفقيد إلى فريد بك فى
	٥ أغسطس سنة ١٨٩٨

صفحة	صفحة
خطابه إلى فريد بك في	في مذكرات الخديو عباس الثاني
٢٣ أغسطس سنة ١٩٠٧ ٣٥٠	عن مصطفى كامل ٣٥١

الفصل الثامن عشر مصطفى كامل وتركيا

الفصل التاسع عشر مجلس شورى القوانين

أدوار المجلس ٣٦٧	الدور الثاني - المعارضة ٣٦٧
الدور الأول: دور الخضوع والاستسلام ٣٦٧	الدور الثالث - التراجع ٣٧٠

الفصل العشرون مصطفى كامل ومعاصروه

أصدقاءه الأقربون ٣٧٢	شوقى ٣٩٦
محمد بك فريد ٣٧٢	قصيدة شوقى في الاحتفال بالعيد
رسائل مصطفى كامل إلى محمد فريد ٣٧٢	المتينى لولاية محمد على ٣٩٧
لطيف باشا سليم ٣٨٠	قصيدته في وداع اللورد كرومر ٣٩٩
على بك فخرى ٣٨١	قصيدته في ذكرى دنشواى ٤٠٠
أصدقاءه وأنصاره ٣٨٣	قصيدته في ذكرى الفقيد
تلاميذه ٣٨٥	سنة ١٩٢٥ ٤٠١
معاصروه من الشعراء والأدباء ٣٨٧	قصيدته في ذكرى الفقيد سنة ١٩٢٦ ٤٠٢
حافظ ابراهيم ٣٨٧	اسماعيل صبرى باشا ٤٠٤
قصيدة حافظ في حادثة دنشواى ٣٨٧	قصيدته في عيد جلوس الخديو
قصيدة حافظ في حفلة مدرسة	سنة ١٩٠٨ ٤٠٥
مصطفى كامل ٣٨٨	خليل مطران ٤٠٦
قصيدة حافظ في استقبال اللورد كرومر ٣٩١	قصيدته عن النهضة الوطنية
قصيدته في شكوى مصر من الاحتلال ٣٩٢	سنة ١٩٣٣ ٤٠٧
قصيدته في استقالة اللورد كرومر ٣٩٢	أصدقاء الفقيد في الشرق والغرب ٤٠٩
قصيدته في الذكرى الأولى للفقيد ٣٩٤	

صفحة	صفحة
٤١٢ مصطفى كامل وسعد زغلول	٤١٠ مصطفى كامل وطلعت حرب
٤١٣ مصطفى كامل ويبر لوتي	٤١٠ .. مصطفى كامل ومصطفى فهمي باشا

الفصل الحادى والعشرون شخصية الزعيم

٤٣٠ سياسته نحو النزلاء	٤١٧ دراسة شخصية الفقيد
٤٣١ سياسته الشرقية والإسلامية	٤١٧ إيمانه برسائلته
٤٣٢ قدرته الخطائية	٤١٨ صفاته وأخلاقه
٤٣٣ قدرته الصحفية	٤٢٠ وطنيته
٤٣٥ فضله على الحركة الوطنية	٤٢١ سبيله إلى الوطنية
٤٤٠ فضله على الوحدة الوطنية	٤٢٢ بعض كلماته الخالدة في الوطنية
٤٤١ تضحياته	٤٢٦ عبقريته ومكانته السياسية

الفصل الثانى والعشرون نماذج من خطب الفقيد

٣ - خطبته في العيد المئتين لولاية محمد على ٤٥٩	١ - خطبته بالإسكندرية يوم ٣ مارس سنة ١٨٩٦ ٤٤٤
٤ - خطبته بالإسكندرية يوم ٢١ أكتوبر سنة ١٩٠٧ ٤٧٣	٢ - خطبته بالفرنسية في الإسكندرية يوم ١٣ أبريل سنة ١٨٩٦ ٤٤٥
فهرست الكتاب ٥٠٣	

فهرست الصور

صفحة	
٥	مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية
٣٢	المنزل الذى ولد فيه الفقيد
٣٧	مصطفى كامل فى السابعة عشرة من عمره
٣٩	خطاب الفقيد إلى شقيقه على بك فهمى كامل
٥١	مصطفى كامل فى التاسعة عشرة من عمره
٦٣	الصورة الرمزية التى قدمها مصطفى كامل إلى مجلس نواب فرنسا سنة ١٨٩٥
٦٥	مصطفى كامل فى الحادية والعشرين من عمره
٦٩	مدام جوليت آدم
٨٦	مصطفى كامل فى الثالثة والعشرين من عمره
١٣١	السودان المصرى فى عهد اسماعيل
١٣٤	خطاب الفقيد إلى فريد بك فى ١٩ أغسطس سنة ١٨٩٨
١٣٦	خطاب الفقيد إلى فريد بك فى ٤ سبتمبر سنة ١٨٩٨
١٦٦	الأمير محمد ابراهيم
١٩٨	افتتاح نادى المدارس العليا
٢٠٠	صورة أخرى للحفلة
٢٠٦	خريطة مديرية المنوفية وفيها موقع دنشواى الخالدة
٢١٢	ساحة الإعدام فى دنشواى إعدام أول المشنوقين الأربعة
٢١٣	المشنوق الرابع فى دنشواى
٢٣٥	خطاب الفقيد إلى فريد بك فى ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٠٦
٢٦١	مصطفى كامل سنة ١٩٠٧
٢٧٩	جنازة الفقيد
٢٩٧	تمثال مصطفى كامل
٣٠١	على قاعدة تمثال مصطفى كامل يوم إزاحة الستار عنه
٣١٩	الضريح الجديد لمصطفى وفريد بميدان صلاح الدين بجوار القلعة
٣٣٥	خريطة استرجاع السودان ١٨٩٦-١٨٩٨
٣٤٤	كتاب الفقيد إلى فريد بك فى ٥ أغسطس سنة ١٨٩٨
٣٥٠	خطاب الفقيد إلى فريد بك فى ٢٣ أغسطس سنة ١٩٠٧

٣٧٣ محمد بك فريد
٣٧٨ خطاب الفقيد إلى فريد بك في ١٩ يولييه سنة ١٨٩٨
٣٧٩ خطاب الفقيد إلى فريد بك في ٢٢ يولييه سنة ١٨٩٨
٣٨٠ لطيف باشا سليم
٣٨٢ على بك فخرى
٤١١ مصطفى كامل بين جمع من أصدقائه
٤١٣ مصطفى كامل وبييرلوقى
	عنسوان الرسالة التى طبعت فيها خطبة مصطفى كامل بالإسكندرية
٤٥٨ يوم ١٣ ابريل سنة ١٨٩٦

للمؤلف

حقوق الشعب :

يتضمن شرح المبادئ والنظريات والقواعد الدستورية وحقوق الإنسان . طبع سنة ١٩١٢ .

نقابات التعاون الزراعية :

يتضمن تاريخ التعاون الزراعى ومنشآته فى أوروبا ، ونشأة التعاون فى مصر وتاريخه ونظامه ، وعلاقته بالنهضة الاقتصادية والاجتماعية . طبع سنة ١٩١٤ .

الجمعيات الوطنية :

صحيفة من تاريخ النهضات القومية يتضمن تاريخ الانقلابات السياسية والنهضات القومية فى طائفة من البلدان مع شرح أصول الدساتير ، والنظم البرلمانية فيها والمقارنة بينها . طبع سنة ١٩٢٢ .

تاريخ الحركة القومية (فى جزأين) :

الجزء الأول : يتضمن ظهور الحركة القومية فى تاريخ مصر الحديث وبيان الدور الأول من أدوارها وهو عصر المقاومة الأهلية التى اعترضت الحملة الفرنسية فى مصر . وتاريخ مصر القومى فى هذا العهد (الطبعة الأولى سنة ١٩٢٩)

الجزء الثانى : من إعادة الديوان فى عهد نابليون إلى عهد ولاية محمد على (الطبعة الأولى سنة ١٩٢٩) .

عصر محمد على :

يتناول تاريخ مصر القومى فى عهد محمد على (الطبعة الأولى سنة ١٩٣٠)

عصر إسماعيل (فى جزأين) :

الجزء الأول : يشتمل على عهد عباس وسعيد وأوائل عهد إسماعيل (الطبعة الأولى سنة ١٩٣٢)

الجزء الثانى : وفيه ختام الكلام عن عهد إسماعيل (الطبعة الأولى سنة ١٩٣٢) .

الثورة العربية والاحتلال الإنجليزى (الطبعة الأولى سنة ١٩٣٧) .

مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال :

تاريخ مصر القومى من سنة ١٨٨٢ إلى سنة ١٨٩٢ (الطبعة الأولى سنة ١٩٤٢) .

مصطفى كامل : باعث الحركة الوطنية

تاريخ مصر القومى من سنة ١٨٩٢ إلى سنة ١٩٠٨ (الطبعة الأولى سنة ١٩٣٩) .

محمد فريد : رمز الإخلاص والتضحية

تاريخ مصر القومي من سنة ١٩٠٨ إلى سنة ١٩١٩ (الطبعة الأولى سنة ١٩٤١).

ثورة سنة ١٩١٩ في جزأين :

تاريخ مصر القومي من سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩٢١ (في جزأين) الطبعة الأولى سنة ١٩٤٦ .
الجزء الأول : يشتمل على شرح حالة مصر وحوادثها التاريخية أثناء الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) وبيان الأسباب السياسية والاقتصادية والاجتماعية للثورة . وتطور الحوادث من بعد انتهاء الحرب إلى شبوب الثورة في مارس سنة ١٩١٩ ثم وقائع الثورة في القاهرة والأقاليم .
الجزء الثاني : وفيه الكلام عن مهادنة الثورة واستمرارها ومحاکمات الثورة ولجنة ملر . والحوادث التي لابتها ومفاوضات ملر واستشارة الأمة في مشروع ملر . والتبليغ البريطاني بأن الحماية علاقة غير مرضية . ونتائج الثورة في حياة مصر القومية .

في أعقاب الثورة المصرية (ثورة سنة ١٩١٩) : في ثلاثة أجزاء :

الجزء الأول : تاريخ مصر القومي من أبريل سنة ١٩٢١ إلى وفاة سعد زغلول في ٢٣ أغسطس سنة ١٩٢٧ (الطبعة الأولى سنة ١٩٤٧)
الجزء الثاني : تاريخ مصر القومي من وفاة سعد زغلول سنة ١٩٢٧ إلى وفاة الملك فؤاد سنة ١٩٣٦ (الطبعة الأولى سنة ١٩٤٨ - سنة ١٩٤٩) .
الجزء الثالث : تاريخ مصر القومي من ولاية فاروق عرش مصر في ٦ مايو سنة ١٩٣٦ إلى سنة ١٩٥١ (الطبعة الأولى سنة ١٩٥١) .

مقدمات ثورة ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢ :

(الطبعة الأولى سنة ١٩٥٧)

الكنفاح في القنال سنة ١٩٥١ - حريق القاهرة سنة ١٩٥٢ .
وزارات الموظفين - أسباب الثورة - فاروق يمهّد للثورة .

ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ :

تاريخنا القومي في سبع سنوات ١٩٥٢ - ١٩٥٩ (طبع سنة ١٩٥٩)

تاريخ الحركة القومية في مصر القديمة :

من فجر التاريخ إلى الفتح العربي (طبع سنة ١٩٦٣)

تاريخ مصر القومي .

من الفتح العربي حتى عصر المقاومة والحملة الفرنسية طبع بعد وفاة المؤلف

مذكراتي (١٨٨٩ - ١٩٥١) :

خواطرى ومشاهداتى في الحياة .

شعراء الوطنية في مصر :
تراجهم . وشعرهم الوطنى . والمناسبات التى نظموا فيها قصائدهم الطبعة الأولى سنة ١٩٥٤

مجموعة أقرالى وأعمال فى البرلمان : (مجلس النواب الأول) طبع ١٩٢٥

أربعة عشر عامًا فى البرلمان :

فى مجلس النواب سنة ١٩٢٤ - ١٩٢٥

وفى مجلس الشيوخ من سنة ١٩٣٩ إلى سنة ١٩٥١ (طبع سنة ١٩٥٥) .

كتب مختصرة

مصطفى كامل :

باعت النهضة الوطنية (طبع سنة ١٩٥٢)

بطل الكفاح . الشهيد محمد فريد : (طبع سنة ١٩٥١)

الزعيم الثائر أحمد عرابى :

(الطبعة الأولى - يناير سنة ١٩٥٢)

جمال الدين الأفغانى : (طبع سنة ١٩٦٦)

بحث وتحليل معاهدة سنة ١٩٣٦ :

استقلال أم حاية (طبع سنة ١٩٣٦)

كتب لطلبة المدارس الثانوية :

(طبعت سنة ١٩٥٨ - ١٩٥٩)

مصر المجاهدة فى العصر الحديث :

فى ست حلقات تشتمل على كفاح الشعب فى عهد الحملة الفرنسية ثم كفاحه فى العهد التالية إلى بداية

ثورة ٢٣ يولية ١٩٥٢ .

(تحت الطبع)

مختاراتى من دواوين الشعراء فى الجاهلية والإسلام .

١٩٨٥ / ٣٥٦٣	رقم الإيداع
ISBN ٩٧٧-٠٢-١٣٤٣-٨	الترقيم الدولي

١ / ٨٣ / ٢٣٦

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

۰۰۷۰۶

